الرقم الدولي: ٢٣٢١-٧٩٢٨

٣: ١ - ٤

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

عدد خاص بمناسبة مرور مائة عام على وفاة العلامة شبلي النعماني

مولانا آزاد آئیدیل إیجوکیشنال ترست
بولفور، بنغال الغربية، الهند

عدد خاص

٣: ١ - ٤

مجلة الهند

Special Edition

ISSN No. 2321-7928

3: 1-4

Majalla-tul-Hind

Arabic Quarterly Journal

Special Edition on the Occasion of Shibli Centenary Celeberation

Editor
Dr. Aurang Zeb Azmi

Asst. Editor
Md. Imran Ali Molla

Maulana Azad Ideal Educational Trust
Bolpur, West Bangal, India

الرقم الدولي: ISSN: 2321-7928

مجلة الهنــد

مجلة فصلية محكّمة

المجلد: 3 الأعداد: 1-4

يناير- ديسمبر 2014م

مدير التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي

نائب مدير التحرير

محمد عمران علي ملا

تصدر عن

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

مجـلة الهــند

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست،

بولفور، بنغال الغربية

رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

أ. د. فيضان الله الفاروقي (الهند)	أ. د. بشري زيدان (مصر)
د. صالح البلوشي (عمان)	السيد محمد دانش الأعظمي (البحرين)

هيئة التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير)	محمد عمران علي ملا (نائب مدير التحرير)
د. هيفاء شاكري (عضو)	محمد معتصم الأعظمي (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

(1) aurang11zeb@yahoo.co.in

(2) azebazmi@gmail.com

الاشتراك السنوي:

500 روبية (للطلاب) 1000 روبية (للأساتذة والمكتبات)

نشرها وطبعها محمد عمران علي ملا نائب مدير مجلة الهند، مولانا آزاد آئديل إيجوكيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية، رقم البريد-731235

في هذا العدد

		الصفحة
الافتتاحية	د. أورنك زيب الأعظمي	8
مقالات وبحوث:		
شبلي النعماني	- عبد الماجد الدريابدي ترجمة: د. محمد فضل الله شريف	26-12
الأعمال الخالدة للعلامة شبلي النعماني	- الشيخ ضياء الدين الإصلاحي ترجمة: محمد معتصم الأعظمي	68-27
العلامة شبلي وعلي كره	- أ. د. ظفر الإسلام الإصلاحي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	101-69
شبلي موردًا للأدب وتاريخ الشرق	- خليق أحمد النظامي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	120-102
العلامة شبلي يتدبّر القرآن	- الشيخ كليم صفات الإصلاحي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	144-121
العلامة شبلي النعماني وعلم الحديث الشريف	- الشيخ ضياء الدين الإصلاحي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	167-145

بعض المباحث الفقهية لدى العلامة شبلي النعماني	- الشيخ كليم صفات الإصلاحي ترجمة: محمد أحمد بن عبدالله	194-168
العلامة شبلي ومساهمته في نشر علم الكلام	- أ. د. ظفر أحمد الصديقي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	219-195
مباحث العلوم في كتابات العلامة شبلي النعماني	- الشيخ كليم صفات الإصلاحي ترجمة: عظمت الله الندوي	241-220
الأفكار والنظريات السياسية للعلامة شبلي النعماني	- د. محيي الدين آزاد الإصلاحي ترجمة: د. جاويد أحمد بال	265-242
مساهمة العلامة شبلي النعماني في تطوير الفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية	- د. غطريف شهباز الندوي ترجمة: د. هيفاء شاكري	279-266
الاستشراق والمستشرقون عند العلامة شبلي النعماني	- البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	296-280
عربية العلامة شبلي النعماني	- الشيخ سعيد الأنصاري ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	310-297
العلامة شبلي النعماني ومساهمته في تطوير الدراسات العربية	- أ. د. أبو سفيان الإصلاحي	326-311

مجـلة الهــند

مآثر العلامة شبلي النعماني العلمية (خلال إقامته في مدينة حيدرآباد)	- د. محمد فضل الله شريف	343-327
"رحالة هندي في بلاد الشرق العربي" دراسة نقدية	- د. أورنك زيب الأعظمي	364-344
الترجمة العربية لكتاب "الفاروق" للعلامة شبلي النعماني	- د. مقتدى حسن الأزهري ترجمة: د. فوزان أحمد مقتدى حسن	380-365
مقالات العلامة شبلي النعماني	- عبيد الله خان إيم إيه ترجمة: ضياء الحق عبد الرشيد	394-381
سوانح مولانا روم، دراسة تحليلية	- الشيخ كليم صفات الإصلاحي ترجمة: محسن عتيق خان	415-395
إسكات المعتدي على إنصات المقتدي، دراسة تحليلية	د. إلياس أحمد الأعظمي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	420-416
تاريخ بدء الإسلام، دراسة تحليلية	د. إلياس أحمد الأعظمي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	426-421
الجزية، دراسة تحليلية	د. إلياس أحمد الأعظمي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	431-427
المأمون، دراسة تحليلية ونقدية	- السيد صباح الدين عبد الرحمن ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	446-432

الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي، دراسة تحليلية	الشيخ محمد عارف العمري ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	469-447
"تراجم" للعلامة شبلي، دراسة تحليلية	د. أورنك زيب الأعظمي	481-470

كتابات العلامة شبلي العربية:

إسكات المعتدي على إنصات المقتدي	العلامة شبلي النعماني	500-482
تاريخ بدء الإسلام	العلامة شبلي النعماني	530-501
الجزية	العلامة شبلي النعماني	541-531
الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي	العلامة شبلي النعماني	600-542
القصيدة في مدح السير سيد أحمد	العلامة شبلي النعماني	601
الرسائل	العلامة شبلي النعماني	602

كتابات العلامة شبلي المترجمة:

التراث المنقول	العلامة شبلي النعماني ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	690-603
الحجاب في الإسلام	العلامة شبلي النعماني ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	701-691

مجـلة الهــند

زيب النساء أشعر شاعرات الهند وأجود كاتباتها	العلامة شبلي النعماني ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	712-702

القريض عن العلامة شبلي:

قصيدة بمناسبة تشرفه بلقب "شمس العلماء"	- عبد الحميد الفراهي - ألطاف حسين حالي - المولوي محمد داؤد	714-713
ندوات ومؤتمرات عن العلامة شبلي	- عظمت الله الندوي	735-715
المساهمون في هذا العدد		738-736

الافتتاحية

يا خيرَ من يسمــو إلى العليــاء كالشمس بازغة بوسط سماء

هذا رأي طالب لكلية علي كره في أستاذه محمد شبلي النعماني (1857-1914م) حين تشرّفه بلقب "شمس العلماء". ولعله تعبير صادق عن درجة العلامة شبلي النعماني فيما بين العلماء والمفكّرين فكان العلامة، حقًا، يضاهي بالشمس وسطَ سماء العلم والفكر والإبداع. اعتبره الناس آية من آيات الله، وشخصية متعدّدة الجوانب وذلك لأنه برع في القرآن والحديث والفقه، ومهر في الكلام والتاريخ والشعر، وحذق في التدريس والتربية والتعليم، وفوق ذلك كان رجلًا تقيًّا ذا انطلاق في الفكر والخيال، وصدق الحكيم أجمل خان: كان العلامة شبلي رجلًا جمع بين العلم والتقوى".

خلف العلامة النعماني مآثر ومحامد عظيمة في مختلف مجالات العلم والمعرفة والتدريب كما أثر مؤلفات ورسائل ومقالات قيّمة يعجز عن تقديمها العالم كله فمؤلفاته "سيرة النبي" و"الفاروق" و"المأمون" و"شعر العجم" ورسائله "الانتقاد" و"الجزية" و"تعليم المسلمين الماضي" ومقالاته "حقوق الذميين" و"مكتبة الإسكندرية" و"تراجم" مآثر لم يأت بمثلَها العالم حتى الآن وصدق السير سيد حينما قال عن رسالته "الجزية": لو خاطب (العلامة) المسلمين وقال لهم - نعوذ بالله من ذلك- بالنسبة عن رسالته "الجزية": فأتوا بسورة من مثله" لما أتى نكرًا".

وعلى الرغم من تبحّره في العلوم والآداب والفنون، وتفانيه في الوظيفة والخدمة والإسهام لم تصدر أي مجلة عربية صادرة عن شبه القارة عددها الخاص عن حياته وخدماته وحتى لم تتكبّد دار العلوم بندوة العلماء (لكناؤ) التي أنشأها العلامة فجعل

مجـلة الهــند

هذا النبت الضئيل شجرة ضخمة ذات ظلّ ممدود، عناءَ نشر مقالات معدودة فقط عن حياة العلامة شبلي وخدماته في مجلتها "البعث الإسلامي"، وبالعكس من ذلك فقد صدرت أعداد ممتازة عن حياته ومساهماته للمجلات الأردوية العديدة في الهند وباكستان وبنغلاديش مثل "أديب" و"أردو أدب" و"فكر ونظر" و"البصير" و"كريسنت" و"خاور". قرأنا معظمها فاستفدنا منها واخترنا مقالاتها الرائعة فترجمناها وهي بدورها منشورة في هذا العدد الممتاز.

مجلتنا حديثة وصدرت قبل سنتين إلا أنها نالت، في هذه الفترة القصيرة، قبولًا عامًا في العالم الإسلامي فأرسل كتّابه ومفكّروه مقالاتهم إلينا والتي نشرناها في مختلف أعدادها. أردنا في السنة الماضية أن نصدر أعدادها الممتازة عن العلماء الهنود البارزين وبالتالي فهذا أول عدد ممتاز وهو عن العلامة الهندي الجليل محمد شبلي النعماني الأعظمي وسنصدر، إن شاء الله تعالى، أعدادها الخاصة بالإمام عبد الحميد الفراهي والأستاذ أبي محفوظ الكريم المعصومي وغيرهما من العلماء الهنود الكبار.

هذا العدد يحتوي على 25 مقالة وبحثًا علميًا بجانب احتوائه على كتابات العلامة شبلي النعماني العربية التي كانت نادرًا وجودها حتى أن الباحثين قد يئسوا من وجود بعضها في العالم بأسره فجمعناها من مختلف المكتبات وضبطناها في صفحات مجلتنا وسيكون هذا مصدرًا مهمًّا للعلماء والباحثين عن العلامة شبلي النعماني الهندي.

المقالات والبحوث التي نشرناها في هذا العدد مختارة من مقالات وبحوث الكتّاب الماهرين في حياة العلامة شبلي النعماني وأفكاره وخدماته، نُشِرَتْ هذه المقالات والبحوث إما في مجلات الهند العامة أو في المجلات الخاصة بحياة العلامة شبلي وخدماته أو في مجموعات المقالات حول حياة العلامة ونظرياته وإسهاماته.

ستجدون في هذا العدد مقالات شتى لكاتب واحد كما لا تجدون فيه أيّ مقالة أو بحث للعلماء الهنود الذين نعتبرهم "كبارًا" وذلك لأن كتاباتهم لا تبلغ المستوى الدولي، وبإمكانكم أن تقارنوا بينما نشرناها في هذا العدد وما ستقرءونها من مقالات هؤلاء العلماء الكبار، فتصدّق هذه المقالات اختيارنا العادل ولا تكذّب ظنّنا إن شاء الله تعالى، وكذا حاولنا أن لا نكرّر المقالات في موضوع واحد إلا إذا كانت المقالة توفّر شيئًا زائدًا على المقالة المتشابهة عنوانًا ومحتوًى.

ستجدون في هذا العدد أغلبية المقالات مترجمة أو ملخّصة من المقالات الأردوية وذلك لأن الهند، في جانب، تفقد رجالاً وفّقهم الله أن يكتبوا مقالات رائعة بالعربية على مثل هذه الموضوعات، وفي جانب آخر من يكتب مثل هذه المقالات الرائعة لا يقدر على أن يكتبها باللغة العربية ناهيك أن تكون هي الفصحى والمفهومة لدى العرب. وعلى هذا ففضّلنا أن نقوم بترجمة مثل هذه المقالات أو نطلب من إخواننا أن يتحمّلوا هذا العبء الثقيل إلا أن الأمل الأخير لم يتحقق في كثير من الأحيان فاضطررنا إلى ترجمة مثل هذه المقالات الرائعة المختارة.

هذه مقالات معدودة وهي كمثل غيض من فيض لتسليط الضوء على جوانب متعددة من حياة العلامة شبلي علمًا بأننا لم نقدر على نشر المقالات في إسهاماته الخاصة مثل "سيرة النبي" و"شعر العجم" و"سيرة النعمان" وذلك لأننا لم يسعنا ترجمة مقالات الشيخ محمد عارف العمري والشيخ ماهر القادري والدكتور إلياس الأعظمي في هذه الموضوعات، وسننشرها بعد تعريبها إن شاء الله تعالى.

وقد بلغنا مقالات حينما كنّا على وشك النهاية وكنا نقوم بلمسة نهائية لهذا العدد فاحتفظنا بها عندنا لتنشر في الأعداد القادمة للمجلة وكذا حذفنا المقالات عن ترحمته وأساتذته وتلامذته، فنرحّب بكلّ ما يقدّمه الكتّاب إلينا من مقالات أخرى عن العلامة شبلي ومساهماته في مختلف المجالات راجين من القرّاء أن يدلوا بآرائهم القيّمة البنّاءة

لتحسين مستوى المجلة ولتسليط الضوء على ما فاتنا من جوانب حياة العلامة شبلي وأفكاره النيرة وخدماته وإسهاماته الجليلة.

وأخيرًا ولا آخرًا ندعو الله سبحانه و تعالى أن يوفّقنا للمزيد من خدمة العلم والأدب والفن ومن أنشأها أو طوّرها أو خدمها عن أيّ جهة شاكرين كل من أعاننا في إصدار هذا العدد المتواضع لاسيّما الدكتورة هيفاء شاكري التي شجّعتنا على هذا وشرّفتنا بمشوراتها الثمينة وساعدتنا في إعادة النظر في الترجمات. اللهم اجزها عنا وعن كل من تفيده المجلة خير الجزاء.

د. أورنك زيب الأعظمي

شبلي النعماني

- عبد الماجد الدريا آبادي

ترجمة من الأردوية: د. محمد فضل الله شريف

خمسون سنة! خمسون سنة! ليست هذه السنوات قمرية بل هي ميلادية. وهذه الفترة ليست قصيرة بل هي مدة طويلة حيث انقضت فيها الأعمار، ومضى فيها الجيلان، فأصبح فيها الصبيان شبابًا، والشباب شيوخًا، وأصبح من كنّ أبكارًا ذوات أولاد وأحفاد، وتقوّست ظهور من كانوا مستوين قامة ومنتصبين ظهرًا، فاسأل التاريخ والتقويم وسيحور عليك الجواب بأضبط الحساب، وإن لم تتنبه وتقع في هوة الغفلة وتتكل على ذاكرتك فقط فسترى أن هذه حادثة لم يمض عليها أمد بعيد، وسترى للعيان ما حدث في 1914م و1915م، وأنت تشهد إعداد مشروع دار المصنفين، ورسم خطتها، واختيار أعضائها الفتيان من كل أنحاء البلاد، يقودهم سيد سليمان في كل أعمالها، ويساعده زميله الشيخ مسعود. ما أزهر تلك الأزمنة! وما أغور مدى تلك العواطف العالية! وما أوسع مدى تلك الشجاعة! وما أوفر ذلك الحماس! فكان يحفزها جمعاء عزيمةٌ مخلصة كلُّها العملُ والعاطفةُ والإخلاص.

ومن كان مشعلَ هذه النار؟ ومن كان معليْ هذا الضوء اللمعان؟ هذه النار وقد أشعلها شيخ لم يبلغ من عمره سبعين سنة بل ولم يناهز الستين سنة، إلا أنه قد أصبح شيخًا في أعين الناس، ولفت أنظار الناس إليه وهو شاب يافع فلقّبوه بـ"العلامة". إنه أشعل نار العلم والمعرفة في قلوب الآلاف من الناس، فلنقعد هنيهة وندرس أسطرًا من قصة حياته؛ عن شخصيته وأعماله، وإنجازاته، ولو أن هذه القصة ناقصة إلى حدّ بعيد فالحقّ أن نسمّيها عجالة بل أقلّ منها.

شبلي رجلًا موهوبًا

لما بلغتُ رشدي، وكاد أن ينتهي القرن التاسع عشر ويبتدئ القرن العشرون، استمعت لشهرة العلامة شبلي وعظمته، وكثيرًا ما قرأت اسمه منضمًا إلى "حالي"، وأحيانًا قرأته على حدة، ومنقطعًا عنه تارة أخرى، وما سمعت عنه إلا أنه مثال للعلم والأدب، عالم نحرير ، وبحر ذاخر للتاريخ، وانتهت إليه الرئاسة في النظم والنثر، وما إن كبرتُ شيئًا وتميزّتُ جعلت أقرأ جريدة "الندوة" فارتسم بذلك فضله وعلمه في القلب، فلما حضر بي والدي حفلة إناطة العمائم التي عقدت في دار العلوم بندوة العلماء في لكناؤ سنة 1907م، زرت فيها مولانا بأمّ عينيّ واشتريت بتلك المناسبة كتابين له، أحدهما كتابه المعروف في الكلام "الكلام" والآخر "رسائل شبلي" التاريخية، كيف أمكن لطالب في الصف التاسع، يتراوح عمره بين أربعة عشر وخمسة عشر عامًا كيف يمكن له فهمهما تمامًا، وقدر ما فهمت الكتاب تيقظتُ وانتبهتُ ورأيتُ عالمًا آخر، فكتابه "الكلام" يبحث عن علم الكلام ودقائقه مثلًا عن وجود البارئ والرسالة، والمعجزات، والاعتقاد عن الآخرة، ولكن مقالاته الثلاث قد ارتسخت في القلب وتغلغلت في أعماقي، إحداها "مكتبة الإسكندرية" وأخراها "حقوق الذميين" وثالثتها "تحقيق الجزية" فعلت بقراءة تلك الكتب درجة مؤلفها في القلب، ووقعت عظمته في الخاطر كل موقع، فجعلت أنتظر "الندوة" بفارغ الصبر ، والمقالة التي كانت تنشر حول أورنك زيب عالمكير في الحلقات قد استولت قلبي وأخذت بمجامعه. فجعل وجه شبلي يتمثل أمام عينيّ في كل حين وآن، وانتقلت إلى لكناؤ بعد سنة أو سنة ونصف للالتحاق بالكلية، ولا أدري اليوم بالضبط للنصف الثاني من عام 1908م إذ حضرت العلامة شبلي يرافقني أخي الأكبر ، آهًا لهذه الزيارة الأولى الأصلية، كم تحمل في طياته من أدب جمّ، وحبّ صادق، وغرام وعشق ولهف؟ تعقّد لساني، وضعفت همتي في الدلالة على اسمي والردّ على أسئلة بسيطة، ولكن هذا اللقاء قد مهّد السبيل إلى اللقاءات الأخرى. ففي البداية قابلته في حين لآخر، ثم ازداد الاجتماع معه، تارة ألاقيه فردًا، وأخرى مع صديقي آنذاك عبد البارئ الندوي، وكان العلامة يقابل الناس بعد الظهيرة في الساعة الخامسة، فلا يحين موعد اللقاء إلا وتجعل الأقدام

تخطو وتسرع إلى مقامه، كان العلامة يعتبر مرشدًا بين الناس، فكان يراجعه الناس في كل ناحية من نواحي الحياة؛ في السياسة والدين، في الشعر والأدب، في التاريخ والفلسفة، بل في كافة العلوم والفنون. إنه كان إمامًا لنا ونحن نقتديه، وأما أنا فكان هو ملاذي وسندي ودليلي ومعالجي لكل ما يحوك قلبي. وكان يكثر إقامته في مدينة لكناؤ إلى حين وفاته سنة 1914م، ولكنه قد يتردد إلى مدينة مومبائي وحيدرآباد في فترات مختلفة، قد أتى علىّ زمان استولى علىّ نشوة الإلحاد وجعلت أُبغض الدين وأستنكره في إغواء "مل" "اسبنسر"و" كمه"وجعلت افتخر ب"العقلية " و" اللادينية" فلما لم أجد السبيل إلى الدين جعلت استنفد جهدي واستفرغ طاقتي في الردّ على كتاب شبلي "الكلام" وقد تعلمت شيئًا من الكتابة من فضل مولانا، وجعلت أهدف أول سهامي إليه، وقد كتبت في جريدة في لكناؤ في الأعداد المختلفة لها في الردّ على "الكلام" متلبسًا زيّ طالب علم، وإن كان قد اعترى الخلل في زيارته ولقياه قدرة، ولكن الالتفات والعناية بي منه لم تقل؛ بل لم يزل ولا يزال قائمًا من عنده، ولم ينكرني شيئًا بعد علمه عن الكاتب في ردّه والتعريف على اسمه.

خلال هذه المدة تنقّل مولانا إلى بيوت مختلفة، فتقلب إلى اثنين منها في حيّ غوله غنج، فلما أعدّت حديقة "غهنته غهر" (Ghanta Ghar) في أمين آباد في سنة 1911م تقريبًا، أقام بها العلامة في طابقها الأول رقم الحجرة 53، فلما توجه كاملًا إلى تأليف "سيرة النبي" سنة 12م مسّت حاجة شديدة إلى من له إلمام باللغة الإنجليزية، ويستطيع أن يقدم إليه المعلومات من اللغة الإنجليزية، تم تعيين هذا الحقير لمدة ساعتين يوميًا على أجرة كنت اتقاضاها في كل شهر، (قد حصلت على شهادة – B.A – في السنة نفسها) فازدادت اللقاءات وأكثرت حضوره بهذه النسبة، على ميعاد وعلى غير ميعاد كذلك، فعندما يكون مولانا على سفر فتستمر المراسلة بيني وبينه، فتهيأت لي فرصة مصاحبته في الخلوة والجلوة، وكان يتبادل المراسلة مع الحكام الإنجليزية بالإنجليزية، ففوّض هذه الخدمة إلى هذا الحقير، وما يجري النقاش حول الندوة كان يساهمه فيها هذا الطالب، عسى أن

يوحش تكرار صيغة المتكلم ولكني عمدت إليها لكي أصرّح بأنما أقدّمه إلى القرّاء من المعلومات ليست مما يبنى على القصص والروايات، ولا ذكرت عن طريق الوسائط؛ بل معظمها مما سمعته بأذنيّ هاتين وشهدته بعينيّ هاتين.

وكان مولانا يقضي آنذاك حياة التجرد، فكانت زوجته قد وافتها المنية، وكان ابنه يعمل في مصنع، فكان مولانا يسكن البيت وحيدًا ولا يرافقه فيه إلا خادمه، وهو يطبخ له الطعام، وكان مولانا قليل المأكل، وسمعت عنه أنه كان قويًا في شبابه، وعسى أن يكون طيب المأكل كذلك، فأصبح طعامه أقلّ قليل بالنظر إلى أيام شبابه، ومن عادته يوميًا أنه كان يرقد أول الليل ويستيقظ مبكرًا، كعادته يشرب الشاي في كل صباح، هذه العادة منه يضيق بها خاطر الخادم، وكان يولع بالشأى وكان حبه للسكر زائدًا عليه، فكان يوضع أمامه السكر في المسكر، ويتناول منه في حين لآخر، يمكن أن حلاوة كتاباته ونفثاث أقلامه من هذا السكر، ولكن كثرة استعمال السكر والشأي يؤثر في تقليل جوعه، وما إن كاد الليل يخيم وإلا يضئ السراج، ويفرغ عن عمل الكتابة في ساعتين، ويقضي أكثر النهار في تقلب أوراق الكتاب وتفحصها، وكان له ولع في المطالعة بل حرص عليها، ويأكل الفطور في أول النهار، وينتهي من العشاء في آخر عمره قبل المغرب، وكثيرًا ما كان يأكل أمام الحضور، وما كان طعامه سوى كباب أو كبابين من أمين آباد، وخمر سميد، وكان شغف برساول[1] حبًّا، بل وكانت له رغبة في كل حلوى، وفكان يشتري الحلاوي، حين السفر، في كل رصيف يتوقّف عليه القطار ويتناولها.

وكان يتصف بشدة العاطفة فكان يشعر بالحرارة والبرودة بسرعة، ولم يكتف له لحافٌ عاديٌ إلا أنه كان يرغب في ماء شديد البرودة، فذات مرة في نهاية شهر ديسمبر سنة 1013م حضر بيتي للطعام، وقد دعوت عزيزًا اللكناوي ورجلين هندوسيين مشهورين على طلب من صديقي، أحدهما الشاعر بندت برج نرائن

[1] رَسَاوَلْ: حلوى هندية بحتة تصنع من الأرز وعصير قصب السكّر بحيث أنهما يوضعان في قدر وتوضع القدر على نار حتى يتمّ غليان وإعداد الأرز وهي غير الأرزّ الحلو المطهيّ. (د. الأعظمي)

جكسبت، والآخر بيرستر بندت بشن نرائن رئيس حزب المؤتمر سابقًا، طلب مولانا الماء خلال تناوله الطعام، فلما قُدّم إليه الماء قال: أ ليس الثلج موجودًا؟ لا يخطر ببال أحدٍ الثلج في هذا الموسم القاسي للشتاء، كما لا يمكن أن يتوفر الثلج في أمين آباد في هذا الفصل الشديد البرودة، فغمرني الخجل وكذا كانت طبيعته حادة فلم تدم صداقته لوقت طويل وأما أخوه الصغير إسحاق فكان أخًا له شقيقًا، قد أضعفه مماته، ورثى له ببالغ الاضطراب والقلق، وكذا لم تخل مراثيه قالها عن الآخرين من الوجد. توفي والدي سنة 1912م في مكة المكرمة، وكتبت مقالة تعزية، طبعت في المجلة الأسبوعية آنذك تصدر بمدينة غوركفور باسم "مشرق" فقرأ مولانا مادتي وأثني عليّ وقال: إنها تحمل في طياتها الحزن والأسى، وكانت تنحدر دموعه عندما يقرأ القصص القصيرة للخواجه حسن النظامي، ويقف عند مواقف حزينة منها، وكان انفعاله بمراثي مير أنيس يرجع سببه إلى رقته القلبية، وقد تأثر قبله ورق بموت كل واحد من محسن الملك القاضي سيد محمود ومدار المهام الجنرال عظيم الدين، قد أظهر بتلك المناسبة ما يكنّه صدره من بالغ الأسى والحزن.

وكان يمدح من بين معاصريه "حالي" وكنت اعترف بمواهب العلامة وكفاءاته العلمية؛ ولكن نبوغه وبراعته في قرض الشعر وفهمه جزء لا يتجزى من رسوخ عقيدتي عنه، وكان من عادتي أنه حين أعجبني شعر أعرضه على العلامة عندما تسنح لي الفرصة، وعندما أثنى علي بعد سماعه، واستحسن انتخابي فصرت كمن حصل له كل شيء من الدنيا، وإن لم يلتفت ولو لم يوجه عنايته إلى ذلك الشعر، فتنحط درجة ذلك الشعر عن عيني. ذات مرة أسمعني خواطره وهواجسه وقال: "وكان من حسن ظنك بي، ولكن مولانا حالي يحتل مكانة مرموقة وكنت أعامله حسب ذلك".

أقدم أمامكم دليلًا أقوى من ذي قبل على رحابة صدره، وكان يعدّ ثاقب الأكبر آبادي ثم اللكناوي من أصحاب اللغة، ففي 1913م نظم مولانا قصيدة في حادثة مشهورة في

مسجد كانفور، وكانت تحتوي على إطلاق البوليس الرصاص عشوائيًا على كلّ من الشيوخ والصبيان في المسجد، فقرض الشعر على النحو التالي:

عجب کیا ہے جو نوخیزوں نے سب سے پہلے جانیں دیں
یہ لڑکے ہیں بہت جلد ان کو سوجانے کی عادت ہے

ذات مرة أتاه ثاقب فأنشد له شعره المذكور، فقال له ثاقب: إن تغيرت اللفظين في عجز البيت فتصبح بذلك الصناعة قوية محكمة، مكان "لڑکے "،" بچے "ومكان " بہت جلد"، "سویرے" فقبل مولانا هذا التغيير من غير تردد، فأصبح ذاك العجز بعد التغيير هكذا...

یہ بچے ہیں، سویرے ان کو سوجانے کی عادت ہے

لا يتيسر لأحد أن يعترف بموهبة معاصريه، دعْه أن يستجيب لتغيره وإصلاحه، خاصة إذا كان معاصره أصغر منه سنًا، وأضيق منه سمعة. ولكن العلامة كان ممن يستثنى من الشخصيات.

قد عجن خميره في غيرة دينية، وإن كان بنفسه قليل العبادة، وإن كان يتمشى في تأويل بعض العقائد مع العقلانيين، على الرغم من ذلك يساوي ويعادل الأولياء والعظماء والمحبين للنقل في الغيرة والحمية الدينية، إذا وجّه أحدٌ من الملاحدة، والمستشرقين سهامه إلى الإسلام، وطعن في الدين فكان المولانا يركب القلق والاضطراب، ويتعجّل للرد عليه ... وكان له خلاف شديد مع السير سيد في السياسة، ولكنه مع ذلك كان يمدحه ويرطب لسانه بثنائه، ويستحسن سيرته الذاتية ويحبّ مبادئه الأساسية وإيثاره وحبّه للإسلام، وهو بنفسه كان يضع المشاريع المختلفة لصلاح المسلمين، ويمهّد السبيل لكي تتم هذه المشاريع.

وكان محبًا للجمال، فكان ينطلق لسانه حين القريض الفارسي، يعالج الأزمات بدقة، قد أكبروا الناس بتلميحات بمبائي وحنجيرة، ليس الأمر بأنه لم يحدث شيء، لا بد لاعتراف وقبول شخصية مولانا من أن يستحسنه في عمله فقط؛ بل لا بد أن يتصور في الأذهان أن مولانا له عصمة وبراءة عن الرياء والشهرة.

ومن مآثر مولانا ومحامده أنه ينشغل في العلم في كل حين وآن، وكانت دراسة الكتب غذاءه وطعامه، وذوقه الأصلي، وإذا فوّض إليه المكتبة فيختفي في غمار الكتب ولم يلتفت إلى طعام ولا شراب ولا يلهيه المنام، فكانت المكتبة مثل مضطجعٍ له كبير حتى أصبح ذوقه هذا طبيعة له ثانية، وبما أنه كان حالته الحقيقية ولم يشبه جانبٌ من التكلف والتصنع، ولذا فقد كان ذوق دراسته يتعدّى إلى الآخرين، فينفعلون به، فمن يرافقه يبرز كاتبًا ولو في مجال المقالات.

شبلي كاتبًا رائعًا

لقد رأيتم لمحات عن شخصيته، والآن لا بد لنا أن نلقي نظرة خاطفة على جانبه التأليفي، وكان مولانا يلقي الخطابة بكل مهارة ودقة، وكان يعدّ من الخطباء الناصعين، ولكن كمال شخصيته لا يكمن في خطابته، فإنه كان يحمل ذوقًا جيدًا للكتابة والإنشاء، ولم يؤد خطابه دورًا في ذيوع شهرته؛ بل نفثات قلمه سبّبت شهرته. إن اللغة الأردية ولدت المصنفين البارزين، وقد اشتهر بعضهم مؤرخًا، كما اشتهر بعضهم مصنفًا، واختار بعضهم موضوع الدين وكتب بعضهم القصص، ولكن شبلي تنوعت جهاته، وكتب في كل موضوع من مواضيع التاريخ، والفلسفة، والترجمة، والشعر، والنقد، والكلام، والفلسفة، وأدّى حق كل موضوع تناوله بالبحث والدراسة، سواء كتب ذلك بصورة الكتاب أم بصورة المقالة. إنه ألّف كتبًا في موضوع يختلف عن موضوع آخر كليًا، فكتب في جهة شعر العجم، وموازنه أنيس ودبير ، وفي جهة أخرى سيرة النعمان والفاروق، والغزالي، والترجمة لمولانا روم، وعلاوة على كل ذلك كتابه "سيرة النبي" والجهة الثالثة من كتبه هي الكلام، وعلم الكلام، والجهة الرابعة فمقالاته المختلفة مثلًا الجزية، ومكتبة إسكندرية، وحقوق الذميين، وتعليم المسلمين قديمًا. عدد كتبه يبلغ في ذلك الموضوع إلى عشرين أو خمسين صفحة، والجهة الخامسة المقالات المتنوعة المطبوعة له في مجلة الندوة، والرسائل الموجّهة إلى أحبائه وأصدقائه وتلاميذه، والجهة السادسة النقد والتبصرة على جرجي زيدان باسم "الانتقاد"، فليست جهة من هذه الجهات الست إلا وهي تحوي دفترًا ضخمًا وكذا لا

تجدها تسقط درجته عن مكانة المؤلف، فيُسمع لك بلسان حال المصنف:

ہے قلم میرا تیغ جوہر دار

التصنيف والتأليف فنٌ مستقل وله قواعد، وأصول، وكان شبلي ينفرد في فن التصنيف، سواء كان الموضوع يتعلق بالجلاء أو الخلاء فكان يقدم منظرًا خلّابًا، وكان له نبوغ ومهارة في إتيان الألفاظ المناسبة واستعمال العبارات الملائمة والتراكيب اللائقة، ويستند إلى الدلائل العقلية في الإثبات والإفهام بحيث ينجذب إليه قلبك، ويصوّر الحزن بحيث يطرأ عليه الأسى والحزن، وإذا مثّل مناسبة الفرح والترح فينفتح قبلك، وإذا حلّ عقدة الشعر فيعتريك الطرب والنشوة، وإذا رسم لك صورة الحرب فيهيج حماسك ويموّج شجاعتك، وكان قادرًا على الكتابة بحيث لم يوفّق الموهبة الفائقة مثله إلا قليلٌ نادرٌ من الرجال، كأن القاريء يمثل الدمية في يده، يوجّهه متى شاء وإلى أي وجهة أحبّ. كان التأليف والتصنيف فنًا من الفنون، لا بد لكل فنّان أن يغلب على فطرته، ويسيطر على طبيعته، وجبلته، وكما تكون العبارة سهلة ميسورة لا صعبة مشكلة، سلسة مفهومة لا مستوية ومنحنية، رزينة وهادية، لا جافة مملة، متفهمة لا عامية، لطيفة لا ركيكة، قوية لا مضمحلة، فكرية لا متعبة، حادة، مثيرة للأفكار، لا نحيفة وضئيلة، وكان للعلامة اطلاع واسع على أساليب البيان وصناعته ودقائقه، وقد استخدم تلك الصناعة والأساليب في مناسبات عديدة، وجرّب حقائقه مرات وكرات، وكانت هذه الأشياء لديه حقيرة تافهة، والمهارة والنبوغ والتغلب على الموضوع وإعداد نفسه بالمطالعة تعلق من مباديء الفن، كان يطالع كثيرًا على ما يريد أن يقال عنه، ويطلع على ما له وما عليه، ثم جعل يكتب في ذلك الموضوع، وكان صاحب إخلاص وإباء في مقالاته وكتاباته ونفثات أقلامه، ويكتت ما يخطر بباله وما يضيء له فهمه وبصيرته، فأبت نفسه أن يكتب لأحد على الأجرة، و يملي له حسب متطلباته.

وكان له قصب السبق على معاصريه في الكتابة على الموضوعات العلمية، وهذا من خصائصه وميزاته، ولكن نهج هذا المنهج السير سيد، ولكن من يبتدئ بشيء لا يستطيع أن يبلغ إلى نهايته، قد سبقه شمس العلماء المولوي نذير احمد في قراءة "سموات" ومبادي الحكمة، وتم له النصر في الفلكيات والمنطق؛ ولكن كتب شرف إبلاغه إلى نهاية قمته في حقّ شبلي، لا ترى عوجًا ولا أمتًا في أي موضوع اختاره شبلي، ولا تجد السفاهة في أي مكان، وليس هذا الشرف حقيرًا، بل عظيمًا، وقد مضى في لكناؤ صاحب علم وبصيرة من أهل اللغة، حاز الشهرة العظيمة في القصص القصيرة، ولكن إذ جرت نفثات أقلامه في الفلسفة والرياضي وغيرها من الموضوعات فترى أنه أنشأ التعقيدات والصعوبات وتزلزلت قدمه في الأخلاقيات، وكان شبلي له مكانة لا يناويه أحدٌ فيها، قد مضى على موت شبلي فترة طويلة، وجاءت التغييرات المختلفة في اللسان، فتبدلت التعابير، وتجدّدت التراكيب، ولكن ما اعترى أي تغيير وتبديل في لهجة شبلي، وكانت مكاتباته طازجة، طرية، ناضرة كالسابقة.

وبقي شيء أن أقول، وذلك أن التدين قد استولى على تصنيفاته، سواء كان الموضوع يتعلق بالشعر والأدب، أو التاريخ، والترجمة أو غيرها من المواضيع فهو يظهر كمتكلم قبل كل شيء، كان كتابه شعر العجم يتسم بسمة الأدب والعلم، وليس لشعر العجم أي علاقة بالتدين والمذهب، فليلاحظ هنا كيف تسيل نفاث أقلامه في تشبيب قصيدة ضخيمة، وكيف ينظم اللآلي:

" الإسلام يشكل غيثًا، فأمطر في كل ناحية من نواحي الأرض، ولكن ما استفادت الأرض إلا حسب لياقته، وما تحمل كل ذرة من التراب اللياقة فاستفاض بها حسب موهبته، وكل قوم يحمل لياقات مختلفة فأضاف الإسلام وميضه وبريقه، كان الترك صاحب شجاعة ونخوة فازدادت شجاعتهم، وكان أهل إيران يمتازون في الثقافة والعلوم والفنون، فاختصوا في الثقافة والعلوم على غيرهم".

وكان شبلي يتضلع في النظم بجانب النثر، وكان في الصف الأول فيمن انضموا إليه، وكان له الغزليات والقصائد والمنظومات في الفارسية؛ ولكن لم يرافقه القدر ولم ينصفه في نظمه الفارسي، ولكن أتي الحرمان والخيبة والاخفاق في حصته كمن نظم في صنف الشعر الفارسي قبله: كغالب، خواجه عزيز اللكناوي، وغيرهم، ولم يحظ كلامه بالقبول في إيران، بل لم يصل إلى إيران بعدُ؛ والأمر مفوّض إلى القسم الفارسي من جامعتنا على أن يبلغوا كلها إلى الجامعات الإيرانية.

وكان مولانا قرض الغزليات في الأردية في بداية أمره، ولكن لا يساويه شعره الغزلي الفارسي، إلا أنه لا ينحط عن درجته بحيث لا يليق ذكره، أقدّم أمامكم مختارًا من أشعاره التي حفظتها ذاكرتي، يسهل بها تقدير درجة كلامه:

کچھ تو ہو چارۂ غم بات تو یکسو ہوجائے
تم خفا ہو تو اجل ہی کو میں راضی کر لو
پاس ادب سے رہ گئی فریاد کچھ ادھر
میں کیا ہوں عرش بریں کتنی دور تھا
تڑپنے کو ہمارے عرصۂ حشر
بھلا ہوتا ہے کیا اتنی زمیں سے
شبلی کا گھر خانۂ دشمن کے پاس سے
محشر خرام اور بھی دو اک قدم سہی

قرض كثيرًا من المنظومات في عهده الأخير متحجبًا بنقاب "كشاف". كل ذلك متعلق بالأمور السياسية والمشاكل الحاضرة، وكل ذلك طبع في مجلة أسبوعية "الهلال" تحت رئاسة مولانا أبو الكلام آزاد، وكان يغلب عليها لون المزاح، وقليل من الطعن، وله أسلوب جيد، وكان له قصيدة في حرب طرابلس، وقصيدة مرثية حزينة مؤلمة في وفاة أخيه،

وكان له قصائد أخرى، وكان له مسدّس قومي حين قيامه في على جراه؛ ولكن الشيء العزيز العالي في رأس ماله الشعري "ملحمته"، يبلغ عدد صفحاتها زهاء عشرين صفحة، وكانت مقالته في مثنوي باسم "صبح أميد" قالها سنة 1884م، يعني في أوائل عمره، وكانت ذلك المثل الأعلى في الإيجاز والاختصار، وليست له أي علاقة بالفسق والعشق والقصص القصيرة ؛بل تمثل القوم والملة تمامًا، بل باتصافه موضوعًا هادئًا يحمل في طياته اللطافة والمرونة، يرافق ويوافق في لطافته الهواء النسيم والشوق الدفين، يمثل أفكار السير سيد وحركة إصلاحه، قد اشتهرت ملحمة "كلزار نسيم" وبحورها وأصواتها آنذاك، وكان مولانا ممن يقيّمه ويزنه، نقدم أمامكم موجزًا من أماكن مختلفة، ليس في أسلوب مولانا، أسمعكم تحت اللفظ فقط.

وہ قوم کہ جان تھی جہاں کی
جو آج تھی فرق آسماں کی
تھے جس پہ نثار فتح واقبال
کسری کو جو کرچکی تھی پامال
گل کردیئے تھے چراغ جس نے
قیصر کو دیئے تھے داغ جس نے
وہ نیزۂ خوں فشاں کہ چل کر
ٹھہرا تھا فرانس کے جگر پر
روما کے دھوئیں اڑادیئے تھے
اٹلی کی کنویں جھنکار دیئے تھے

وكانت هذه الأمة تمتلك ماضيًا منيرًا، ثم فقدت البلاد مع العلوم والفنون، وأصبحت صفر الأيدي لا تمتلك شيئًا من ثروة ماضيه، تبدلت الحال إلى غير الحال.

معقول کو، فقہ کو، ادب کو
ہم ہاتھ سے کھوچکے ہیں سب کو
بیہودہ فسانہ نہاے پاریں
زلف وخط وخال کے مضامیں
وہ نوکِ مژہ کی نیزہ بازی
وہ ترکِ نگہ کی فتنہ سازی
یہ طرز خیال تھا ہمارا
یہ فن یہ کمال تھا ہمارا
جغرافیۂ وجود سارا
ہر چند کہ ہم نے چھان مارا
کی سیر ہی گرچہ بحر وبر کی
لیکن نہ خبر ملی کمر کی
نالوں کے دکھائے جب تماشے
گردوں کے اڑادیئے پرخچے

في هذه الحالة الموئسة يُسمع له صوت هادٍ ودليل:

دیکھا تو وہاں یہ جاہ وتمکین
آیا نظر ایک پیر دیریں
صورت سے عیاں جلال شاہی
چہرے پہ فروغِ صبح گاہی

درویش دراز کی سپیدی
چھٹکی ہوئی چاندنی سحر کی
پیری سے کمر میں اک ذرا خم
توقیر کی صورت مجسم

وإن تمتعتم بكلامه فلتصغ آذانك أيضًا إلى حقيقة غير لذيذة، بأن مولانا قد سئم من كتابه "مثنوي" وأخرجها من بين فهرس كتبه، حدث ذلك لما تقلصت ثقته بالسير سيد فانحطت درجة ملحمته شيئًا فشيئًا، أيًا كانت أسبابه، لا يجب على شاعر أو ناقد أن ينصف بنفسه دائمًا، فتارة هو ينحرف عن العدل في حق نفسه.

شبلي خالقًا للكتّاب

يكفي العلامة دالًا على عظمته أنه يعتبر أحدَ الكتّاب المشهورين، ولكن أعظم من ذلك أنه صانعٌ للمؤلفين، مثله مثل صاحب دار للضرب، يُضرب فيها صاحب القلم، والمؤلف والمصنّف، وإن أراد أحدٌ أن يعدّ فهرس أسمائهم فلا يقدر عليها، ولكن لا بد أن يذكر بعض أسمائهم، ودعْ هذا بل يكفيها مذيعًا ذكر اسم واحد منهم، وهو من طليعتهم، وهو يكفي وحيدًا نشر صيت نفسه وصيت أستاذه إلى الآفاق، ولعلك تطلع على اسمه وهو مولانا سيد سليمان، وهو يخلف شبلي حقًا، لا في مسئوليات دار العلوم بندوة العلماء وأمورها فقط؛ بل في منهج التأليف والتصنيف، وإن نخطو خطوة أخرى نذكر أسماء عبد السلام الندوي، وعبد الباريء الندوي سلّمه الله، وضياء الحسن العلوي، والشيخ إكرام الله خان، والسيد ظهور أحمد وحشي والحاج معين الدين، والبروفسير عبد الواحد، وإن لم يتلمذ عليه مولانا أبو الكلام ومولانا عبد الله العمادي مباشرة، ولكن يمكن أن نعد أسماءهم في هذا الفهرس، ولم تسأل عني القليل البضاعة في العلم فما

أكتب وأحرّره فضله يرجع إلى العلامة، وعنايته، وإلى قراءة كتبه، والنبوغ في حكايته، حتى حفظت تراكيبه وصناعته الخاصة.

وهذا فهرس أسماء من انتسب إلى الندوة، وقضى مولانا عشر سنوات في علي جراه، فكم من أصحاب القلم والعلم ارتووا من منهله الصافي العذب خلال مدة إقامته هناك، يمكن أن يكونوا هم: السيد حيدر، والخواجه غلام الثقلين، والمولانا محمد علي، المولوي عزيز مرزا، وحسرت موهاني، والمولوي ظفر علي خان، يمكن أن يشملهم أيضًا مير محفوظ علي.

وكان شبلي من الشعراء النابغين في جانب وفي جانب آخر من النقّاد الماهرين، وإن يبلغ فن النقد ذروة الكمال، لا يستغني أيّ طالب سواء كان ينتسب إلى الآداب الفارسية أو الأردوية عما كتبه شبلي من الملاحظات في كتابه "شعر العجم" عن الشعر الفارسي وعن التعليقات التي كتبها في الشعر الرزمي وفن البلاغة في كتابه "موازنة أنيس ودبير" والطالب وإن بلغ إلى النهاية فيكون طالبًا، ويستيضئ بكتبه الماهرين والنابغين في الفن، وإني أشير على الذين يريدون أن يكتبوا في الفلسفة والعقليات أن يستلهموا من كتابه "الكلام"، وأن تجني وتخلق الأزهار آخذين بأصوله، يُستمد في رواية القصص والحكايات من كتابه "الفاروق" وبعض عبارات كتابه "سيرة النبي"، خاصة فيما يخص في ذكر مولده المبارك تحتل مكانة مرقومة في التأثير والانفعال، ويجمع جميع ما كتبه أسلوبًا سلسًا جذابًا، وفيما يتعلق بحسن التنسيق والترتيب إنما وُهب لشبلي مخيّلة كشاه جهان في المباني والعمارات، فاترك ذكر "تاج محل" وإنما "المسجد الجامع" في دلهي، ومسجد أجمير، إلى أينما حوّلت وأحدقت أنظارك إلى المباني التي جاءت بناءها بيد شاه جهان، يدور في مخيلتك خريطته المستقيمة، لا عوج ولا أمت في أي جهة، لعل شبلي يخطّط أولًا صورة رسائله الصغيرة والكبيرة في مخيلته، ثم أصبح هذا الشيء فطرة له، لا يحتاج إلى أي تفكير وتدبر، يأتي في مخيلته مخططه المضروب، ثم يجعل قلمه يجري بكل سرعة، وكان حسن الترتيب يعدّ روحًا أساسيًا لكل رسالة، هذا الشيء يتوفر عند شبلي، لا إفراط فيها ولا تفريط، ويقدّم كلّ مقال بحسن التنسيق بحيث يقرّ القرار في

القلب مباشرة، ولا يقع العبء على المخ، والقاريء يسحر بكلامه ويتحد مع خياله؛ كأنما النجابة والمتانة إنما تولدت في قلمه من حين ولادته، فاقرأ وطالع مقالاته القديمة والجديدة في كل موضوع، ولا تجد في كلامه ولا في أي مكان من رسائله، ما يزعج الآخرين ويثقل تكلمه على الألسنة، ويستحي الأشراف من سماعه.

يا شبلي هذه لمحة سرورك، قد اجتمع في روضتك ومسكنك نخبة من محبي العلم و من الكبار والصغار لاحتفال ذكراك، والسراج الذي أشعلته قد استضاء بضوءه الأسرجة المتعددة إلى حد الآن، ويستضئ غير ذلك فيما بعد، ويبلغ إليك ملائكة الرحمة أنشطتهم الاعتقادية، أنه لم يكن مصنفًا فحسب؛ بل كان صانعًا للمصنفين، لم يكن عالمًا فقط، بل كان معلّمًا، لم يكن مؤرخًا فحسب، بل كان صانعًا للتاريخ، أنت تليق بأن يأتي تأسيس الدائرة بيدك، واجب على مسئولي الدائرة والقائمين عليها أن يضيئوا شمعة ذكراه دائمًا وبصورة مستمرّة، وتمضي الدائرة قدمها إلى الأمام على منهجك، وتستمر بخدمة الدين والملة.

الأعمال الخالدة للعلامة شبلي النعماني

- الشيخ ضياء الدين الإصلاحي

ترجمة من الأردوية: محمد معتصم الأعظمي

ولد الشيخ شبلي النعماني عام 1857م، وهذا هو العام الذي يعتبر معلمًا في تاريخ الهند، والذي بغى فيه الهندوس والمسلمون على الإنجليز وسياستهم تحت قيادة الملك المغولي بهادر الشاه ظفر ولكن فشلوا فيه وغابت شمسُ الحكومة المغولية تمامًا من أفق الهند وسيطر الإنجليز على البلاد كلّ السيطرة وظلموا على الهنود فيما بعد، وخاصة على المسلمين، فقاموا ضد المسلمين بإبادة نفوسهم وسلب أموالهم والقضاء على هويتهم الدينية، وتعقبوا أيضًا احتثاث التقاليد التاريخية والثقافية وجميع آثارهم.

وفي ذلك الحين تورّط المسلمون من ثلاثة جوانب؛ الأول قام المبشرون المسيحيّون ومبلغوهم باستئصال الإسلام، والثاني لما وجد الآريون بأن المسلمين قد ضعفوا نشّطوا حركة "شدهي"، ولكن أحبط العلماء من ذلك العصر هجوم هاتين الطائفتين، لأنهم كانوا يعلمون جيدًا بتكنيك اعتراضاتهم وحيلهم.

ولكن الحملة الثالثة كانت أكثر ضررًا وهي كانت من قبل المستشرقين، وما كان سهلًا أن يردّ على اعتراضاتهم وشكوكهم لأنها كانت من الأصناف العلمية، وكان العلماء يعرفون بتكنيكها، وكان المستشرقون ماهرين باللغة العربية ودرسوا أيضًا العلوم الإسلامية دراسة متأنية. وكتب المسلمين التي لا يمكن الوصول إليها منذ الزمن بحث عنها المستشرقون وقرءوها بالدقة والجهد ونشروها أيضًا بعد التحقيق والتعليق، ولهذا يستحقون الشكر من المسلمين، وقد اعترف العلامة شبلي بجهدهم العملي في كل مكان، فإنه يقول:

"في القرن الثامن عشر حينما بدأت تنشر القوة السياسية لأوربا في البلدان الإسلامية والتي أنشأت جماعة المستشرقين في عدد كبير، الذين أسّسوا المدارس للألسنة الشرقية بأمر من الحكومة وأسّسوا المكتبات الشرقية، وأقاموا المجتمعات الآسوية، وأوجدوا أسباب الطبع والنشر للتأليفات الشرقية، ونشروا تراجم التأليفات الشرقية"[1].

ولكن هذا من الطبيعي أن الإسلام ما كان دينهم وما كانت العلوم والفنون الإسلامية والكتب الإسلامية لهم، فلذا لا يمكن لهم أن يستأنسوا إليها، فإنهم كانوا يدرسونها لكي يمسخوا صورة الإسلام مدلّسين الروايات والوقائع الباطلة بالروايات والوقائع الحقيقية، ولكي يهجموا على الإسلام والتاريخ والتمدن الإسلامي بالاعتراضات، فقدّموا الإسلام وتاريخه ورواياته بصورة مشتبهة حتى يتنفر منه المسلمون بذواتهم، ولم يسلم القرآن والحديث النبوي وشخصية النبيﷺ من اعتراضات المستشرقين هذه.

واعترف العلامة شبلي بمعارفهم العلمية وسعة دراستهم وجهودهم في التحقيق وشغفهم بالعلوم الإسلامية بجنب تفنيد سوء نياتهم وخباثتهم وطريقة أفكارهم ونظرياتهم الباطلة، فيقول في الفاضل الألماني الشهير سخاؤ الذي نشر "طبقات ابن سعد":

"من يقدر على إنكار سعة اطلاعه وعثوره على اللغة العربية، وكلما كتب في مقدمة "كتاب الهند" للبيروني بالتحقيق يجدر بالثناء عليه، ولكن في نفس المقدمة يدلي بآراء وانطباعات عن الأمور الإسلامية التي تجبرنا قراءتها على أن ننسى أنه هو الرجل المحترم الذي رأيناه من قبلُ.

والمستشرق نولديكي الذي درس القرآن دراسة متخصّصة يكتب عنه العلامة أن مقالته عن القرآن في المجلد 16 للموسوعة ليست تصرح عن عصبيته فقط، بل تنبيء عن جهله كذلك.

---

[1] سيرة النبي (مقدمة)، 62/1

وكذا يقول في بامر أو مارغوليث إننا توقعنا منهما أكثر، ولكن بالرغم من معرفتهما للغة العربية ودراستهم المتأنية فنضطر إلى أن نقول: إني أرى كل شيء ولكني ما أتفكر شيئًا".

وقد قرأ مارغوليث كلّ لفظ من مسند أحمد بن حنبل ونحن نقدر أن ندعي في زمننا هذا بأنه لا يمكن لمسلمٍ أن يدعي بمقارنته في هذا المجال، ولكن كلما كتبه البروفيسور عن سيرة النبيﷺ لا يمكن أن يقدم كتاب مثيله في التاريخ في الكذب والافتراء والتأويل والعصبية، وليست براعته تنحصر سوى في أنه يجعل الواقعة الساذجة البسيطة والمسألة الطبيعية التي لم يمكن أن يخلق فيها عنصر من السيئة، منظرًا قبيحًا بتأثيره الطباعي[1]، والعهد الذي يذكر هنا كان عهد الاكتشاف عن العلوم والقوانين الطبيعية، عهدًا يثير الشكوك المختلفة عن الدين، وكان المستشرقون يعرضون هذه الأشياء في صورة فتانة وكانوا يريدون بها أن يستأصلوا الإسلام وسحقوا التاريخ الإسلامي، والعلماء المقلّدون لم يقدروا أن يردوا عليه أو يدرؤوا عنه، كان السير سيد ورفقاءه يعرفون العلوم والنظريات الجديدة والأفكار والنزعات الحديثة، إنهم دافعوا كذلك عن الإسلام. كتب السير سيد "خطبات أحمدية" كتاب لا يوجد له نظير في الرد على السير وليم ميور، ولكن تعثّر في شرح الدين وأموره ومسائله لأنه وأمثاله لم يكونوا ماهرين بالعلوم الدينية ولم يكونوا يمتلكون البصيرة الإسلامية والمهارة فيها والروح الدينية المحتاج إليها للدفاع في هذا المجال، بل إنهم كانوا متأثرين بالأفكار والنظريات الغربية والعلوم والفنون والثقافة والتمدن من الأوربا، وهم كانوا يؤكدون التحقيقات الطبيعية والتجارب العلمية ونتائجها الظنية والقياسية من زمنهم تأكيدًا قطعيًا، ويصوغون الأمور الدينية والشرعية بموافقها، وعندما لا يقدرون أن يردوا على الاعتراضات كانوا يأولون العقائد الإسلامية والحقائق الدينية وأصولها.

وفي الحقيقة ما كان العلماء يقدرون أن يردوا على اعتراضات المستشرقين في الأوضاع المتغيرة إلا العلماء الذين كانوا بارزين في العلوم الدينية والتاريخ الإسلامي مع الروح

[1] المصدر نفسه (مقدمة)، 1/65-66.

الإسلامية الحقيقية والبصيرة الدينية الدقيقة أيضًا، والذين يقفون على التحقيقات والمسائل الجديدة والفلسفة والكلام الجديد والأفكار والنظريات من العصر الجديد مع القضايا والحوائج له، والذين يعرفون الأساليب العلمية الجديدة والطرق الجديدة للتحقيق والنقد مع التأليفات الغربية.

وأودع الله هذه الخصائص والفضائل العلامة شبلي الذي حصل على التعليم في المدارس التقليدية ولكن روابطه كانت مع الأفراد الذين تعلموا على طراز جديد فاستفاد من الجماعتين ونظرياتهما، وعلى الرغم من هذا فإنه كان متسلحًا بالروح الدينية والبصيرة الدينية الصحيحة، وهو كان متضلعًا بالعلوم الإسلامية تمامًا، ومتعمقًا في التاريخ والتمدن الإسلامي، مع ذلك ما كانت له النظريات والأفكار الجديدة والمسائل والتحقيقات الجديدة بديعة وشاذة فلذلك لم يواجه مشكلةً في الوصول إلى كنه الاعتراضات من قبل المستشرقين وفي الرد عليهم استدلالًا وتحقيقًا، فعرض الإسلام والعلوم والتاريخ الإسلامي والثقافة والتمدن الإسلامي على الطريقة الراسخة في الذهن حتى يستسلم المخالفون فخامته وتفوقه، وزين المهابة والجلال والعظمة والأعمال الفخمة للمسلمين في صورة جليلة وقورة بثّت روحًا جديدة وحياة جديدة في المسلمين، وتحولت قنوطهم وكآبتهم إلى الفرح والعزيمة، وأوضح العلامة مراجع المستشرقين وأخطاء استنباطاتهم ونتائج تحقيقاتهم ومكرهم وخداعهم وكشف السر عن تدليسهم وزخرفتهم حتى بدت الوقائع والروايات والحقائق في صورها الحقيقية وذهبت عيوبها عنها كلها.

والمحتويات البديعة التي خلفها العلامة شبلي لكي يرد عنها المكر والخداع من المستشرقين وشكوكهم، لا تزال تبقي جدتها ومغزاها حتى الآن ولا يدوم، فنذكر هنا أولاً بعضًا منها:

مكتبة الإسكندرية: قد أشاع الكتاب النصرانيون كثيرًا عداوة المسلمين من ناحية العلم واختلقوا في الدليل عليها تهمة كبيرة وهي أن مصر والإسكندرية عندما فتحهما

المسلمون في عهد خلافة عمر الفاروق رضي الله عنه أمر فاتح مصر عمر بن العاص بإحراق مكتبة الإسكندرية.

فذكر العلامة شبلي أشياءً بديعة قبل أن يبدأ البحث الحقيقي والردّ على التُهَم وقال لماذا ترحم أوربا هذه المكتبة، ولو أنها لا علاقة لها بها، وهي أنشئت على أيدي الملوك المصريين الذين كانوا يعبدون الأصنام وكان زمنهم قبل زمن عيسى عليه السلام بكثير فما هو السبب وراء تخصيصهم بهذه المكتبة بينما تدمرت المكتبات الكبيرة من نفس البلاد، وأين كان الضجيج عليها في أوربا؟ ومن الذي أشرع حينما دمّر الإسكندر المكتبات الإيرانية؟ ومن الذي قام بالنياحة على ما أباده النصرانيون بنفوسهم من جيمع الآثار العلمية للمسلمين في إسبانيا وأحرقوا آلافًا من الكتب، ووضح القلم الجريء للعلامة في هذه المقالة بأن النصرانين ارتكبوا بهذه الأعمال الشنيعة في ظلامهم العلمي وجهالتهم وكان زعماؤهم الرهبان الكبار مشاركين في دمارها وهذا الأمر كان عندهم في ذلك العصر عملًا مفتخرًا به، ولكنهم لما أحسوا بسوءتها وقباحتها في عصر الثقافة والحضارة فكروا في درءه واختلقوا تهمة تدمير المكتبة على فاتحي الإسلام مع أنّ هذه المكتبة ما كانت موجودة في عهد الفتوح الإسلامية.[1]

وقد حقّقه العلامة باستطلاعه أن أبا الفرج أذاع أولًا هذا الأمر ولا أساس له في أوربا، والذي كان ابن يهود ولد في 1226م إلا أنه ترعرع وتربى في ظلال الدين النصراني لكون أبيه على الدين التركي، وهذا هو العصر الذي كانت تنشر فيه أوربا النظريات المثيرة الاستنكار ضد المسلمين، وأذاع أبو الفرج هذا الكذب والافتراء حتى طار صيته في أنحاء البلدان الأوربية كلها.

وقد دلّ العلامة شبلي على أن هناك طريقتين لتحقيق الوقائع وصحتها وعدم صحتها؛ فالطريقة الأولى هي طريقة الرواية فتصل سلسلتها حتمًا إلى الشخص الذي كان موجودًا عند وقوعه ثم كلُّ مَن روى عنه متسلسلًا بالترتيب يكنْ متصلًا به ولم يقع الانقطاع بينهما،

[1] مقالات شبلي، 115/6

ثم ينظر إلى جميع الرواة نقدًا وجرحًا أ هم صادقون أم كاذبون، أ هم موثوق بهم أم غير موثوق بهم، والطريقة الثانية لتميّز الصدق والكذب عنده هي طريقة الدراية يعني ينظر إلى أنّ الواقعة المذكورة أ هي صحيحة عقلًا أم لا، أ يدل القياس على تصديقها أم تكذيبها.

إن العلامة شبلي كان مؤرخًا دقيق النظر، فاستخدم ذينك الأصلين ودلّ على أنها كانت قصة مفترضة وأسطورة وأثبت أن ما كانت أية مكتبة في الإسكندرية للتدمير عندما فتحها المسلمون، بل قد دمرها النصرانيون من قبلُ وفرضوا اتهاماتهم على المسلمين، وأوضح العلامة أيضًا بتحقيقه وبحثه وذكاءه المتوقد أن المؤرخين الغرب كيف استفادوا بهذه القصة التي لا أساس لها وكيف مكروا واستخدموها وزخرفوها متعمدين وأفضحوا أمير الإسلام الذي لا يوجد له نظير في حبّ الحق والعدل.

الجزية: وقد أشاع أعداء الإسلام سوء التفاهم عن الجزية، وهم يظنون أن هذا اللفظ اخترعه الإسلام وشكل أولًا هذا الأصل الجائر، ووفقًا لهم فكان الناس يعتنقون الإسلام خائفين ظلم المسلمين وضيمهم، كأن الجزية كانت هي وسيلة لتوسيع نطاق الإسلام.

ومزق العلامة شبلي لحمة ثوبه وسداه ببحثه العلمي التحقيقي من ثلاثة جوانب، وهو يقول إن كلمة "الجزية" معربة للفظ الفارسي "گزيت" الذي يعني الخراج، ويقال له "گزيه" وقد كان هذا مروّجًا قبل الإسلام وضبط الملك أنو شيروان أصولها وقواعدها، وفي الحيقية كانت هي تعويضًا على النفوس والأموال مما يؤخذ من الشعب غير المسلم ولم يتعلق بإشاعة الإسلام جبرًا ولم يمكن لرجلٍ أن يترك دينه العزيز بسببه هذا القدر البسيط، وبينما كانت النساء والمعوقون والضعفاء والمسنون براء عن هذه.

وقد أثبت العلامة دعواه في الجزية بموقف النبيﷺ والخلفاء الراشدين وقدّم في ضمنها تفاصيل القرارات والمعاهدات.

وقد دلّ أكثر من أهل اللغة على لفظ "الجزية" على أنها مشتقة من "جزا" ولذا وجد المخالفون فرصة للاعتراض أن هذا اللفظ وضعه الإسلام وردّ عليه العلامة بالدلائل

والشواهد، وهذه المقالة رائعة جدًا وكتبها العلامة باللغة العربية والأردية كلتيهما ثم ترجمت إلى اللغة الإنجليزية لكي يدفع سوء التفاهم المنتشر من الناقدين وهذه حقيقة لم يجرأ أحدٌ بردها حتى اليوم.

حقوق الذميين: هذه المقالة المبرهنة جزء من الجزية، وكان الهدف وراءها أن يكسر السحر كله ماذا االخترعت من أساطير الجور والجبر من للمسلمين ضد غير المسملين بسبب الجزية لأن العلامة يدعي أن الإسلام أعطى غير المسملين حقوقًا وافية حتى لا يمكن لأية حكومة من العالم أن تعطي أكثر منها رعيتها المحكومة، وليست هذه في الوثائق فقط، بل لم تزل تطبق منذ ألف وثلاثمائة عام أيضًا.

وقد أثبت العلامة شبلي دعواه قطعًا بعدما قدّم الدلائل والشواهد التاريخية في الرد على اعتراضات المعارضين، إن الإسلام قد أعطى الذميين كلًا من الحقوق المدنية والاجتماعية والسياسية والوطنية والدينية ولم يحقرهم في أية صورة بل عامل معهم معاملة متكافية وعادلة، وولّاهم على المناصب الحكومية، ولم يتعرض لمعابدهم ولم يعرقل الإسلام في أن يتمتعوا بأموالهم وممتلكاتهم، وبرغم أنهم كانوا رعية لم يمهل في المعاملة معهم بالعدل وفي ترقيتهم وتطورهم، ومَنِ الذين يتهمون الإسلام بأنه يتعصب ويستعبد الذميين ويهدرَ حقوقهم جميعًا ويحتقرهم، فينقل في ردهم المسكت هذه الأقوال النبوية:

1. إذا هجم عدوّ على الذميين تم الدفاع عنهم.
2. لا يردّ الذميون عن دينهم.
3. تصان أنفسهم.
4. تصان أموالهم.
5. تصان قوافلهم وتجارتهم.
6. تصان أراضيهم.

7. يسمح لهم استخدام ما كان بأيديهم.
8. لا يعزل أئمتهم الدينية عن مناصبهم.
9. لا يوجّه الضرر إلى صليبهم ووثنهم.
10. لا يؤخذ العشر منهم.
11. لا يبعث الجيش في بلادهم.
12. لا تبدّل عقيدتهم أو دينهم الذي كانوا عليه من قبلُ.
13. لا تزول حقوقهم التي كانوا يتمتعون منها من قبلُ.
14. لا يضطرّ إلى زيارة جابي الجزية لأدائها.
15. يشمل هذا الحكم من غاب منهم.[1]

وبالجملة لا يمكن أن يصيبوا بأي ظلم وجور وأن يشعروا بذلة وخزي ماداموا يعيشون تحت نظام العدل والمساواة الإسلامي.

والآن بعد المقالات نحن نذكر رسالتي العلامة شبلي اللتين لم يقلل اعتبارهما من التأليفات المستقلة.

نظرة على أورنك زيب عالمكير: ما تكدّسه المؤرخون المتعصبون والمضيقون بالعقل والنظر من أوربا من الافتراء والكذب على أورنك زيب عالمكير ونمقوا الأحداث الحقيقية وأخطأوا في تفسيرها وتأويلها وقرروا أورنك زيب عالمكير مرتكبًا بالجرائم فاستعرضها العلامة وكشف عن أسرارها، ولكن من الأسف أن المؤرخين الهندوس وبعضًا من الكتّاب المسلمين أيضًا لا يزالون يعيدون أحيانًا الدرس الملقى من معلمهم الأزل، وإن قائمة جرائم أورنك زيب طويلة جدًا ومن أهمها ما يأتي:

[1] المصدر نفسه، 1/178-179

"إنه قد سجن أباه، وقتل إخوانه وأباد الإمارات الإسلامية في الدكن وآذى الهندوس وهدّم معابدهم وزلزل أركان الحكومة التيمورية وغيرها بإزعاج المرهتة".

وقد أقام العلامة بالتنقيح على الأمور المتعلقة بهذه الاتهامات، ثم انتقد الدلائل والأحداث المذكورة من المعترضين ورفع عنه جميع الاتهامات والشكوك التي أحدثتها أساليبهم الفتانة وبكونه مؤرخًا عادلًا جعل هذه الكتب المكتوبة في عهد عالمكير مراجعه وهو كان مجردًا نفسه من قيود العصبية الدينية والقومية عند تحقيق الأحداث وتفتيش الاتهامات ولم يسع السعي غير المشروع لإثبات البيانات المزوّرة لفريق واحد متحيزًا له بل رأى كمحايد أن الواقعة أ هي صحيحة في حدّ ذاتها أم لا، وله علاقة ومؤاساة مع أورنك زيب وشاه جهان وفي قلبه أيضًا احترام جليل لهما فلذلك تزعجه حادثة سجن شاه جهان ولكنه على الفور يستردّ قوته، فيكتب:

"إن شاه جهان وعالمكير يستحقان التكريم منا، ولكن هناك شيء أكبر منهما وهو الحق والصدق، فلا أستسلم هذا الشيء الأعلى."[1]

عندما يتفكر عن عالمكير وعن رشاشات دم إخوانه عليه، فهذا الشيء يزعله ولكنه لا يترك حاسية العدالة بيده وهو يكتب:

"إننا نقوم حيث يمكن أن نتحقق عن الجرائم بدون العصبية وهذا الأمر تقتضي الحذر والانتباه جدًا لكي لا يميل كفة ميزان العدل إلى العصبية."[2]

ولا يمكن هنا أن يناقش أجزاء كتاب كلها بسب طوله، ونظن أن يكتفي ذكر القولين فقط لرفع شكوك إخواننا الوطنين، فسوف يتضح منهما كيف يمزج اللغو والكذب في الاتهامات ثم كيف تحكيها.

---

[1] أورنگ زيب عالمگير پر ايک نظر، ص 85

[2] المصدر نفسه، ص 75

وهناك تهمة باطلة على عالمكير أنه عزل الهندوس عن الوظائف الحكومية بعدما تولى السلطة، ففي رد هذا الكذب والافتراء يُذكر هنا ذلك الفهرس الذي نقله العلامة شبلي عن مرجع مآثر عالمكير إجمالًا للهندوس الذين كانوا على المناصب العليا في عهد سلطنة أورنك زيب ولم يذكر أصحاب المناصب العامة والعسكريون، وهذا الفهرس يشتمل على الذين كانوا مشاركين في معركة ضد "المرهته"، أنظروا هنا:

اسم صاحب المنصب	اسم الأب وغيره	شهادة التعيين أو التدرج في الوظيفة أو إعطاء المنصب (المراد من سنة الجلوس سنة عالمكير)
راج بهيم سينغ	ابن راج سينغ مهارانا أودي فور و أخ مهارانا جي سينغ	جاء في سنة 31 عالمكيرية من الدكن وشارك في ملحمة برهانفور، وصل إلى المنصب ذي خمسة آلاف ثم مات
اندر سينغ	أخو مهارانا جي سينغ أودي فور	صار ذي ألفين في سنة 43، وتدرّج في ثلاثة آلاف في سنة 48
بهادر سينغ	أخو مهارانا جي سينغ أودي فور	صار ذي ألف وخمس مائة في سنة 43
راجه مان سينغ	ابن راجه روب سينغ	عين على منصب قائد الجيش في سنة 26 في ماندلفور بدهنور[1] ووصل إلى المنصب ذي ثلاثة آلاف في سنة 48
اتشلاجي	صهر شيفاجي (شيواجي)	حصل على المنصب ذي خمسة آلاف و العلم والطبل وغيرها في سنة 29،

[1] وهذه هي "البرغنات" التي أعطاها مهارانا أوديفور بعوض الجزية،

ارجوجي	ابن عم سنبها جي (ابن شيواجي)	المنصب ذي ألفين في سنة 38
مانكوجي	من خدام سنبها	المنصب ذي ألفين في سنة 31
راؤ أنوب سينغ	ابن راؤ كرن	حصل على وظيفة خلقة في سنة 31
راجه أنوب سينغ	.....	عين على منصب حارس القلعة في سنة 31
راجه دويت سينغ	.....	عين على منصب قائد الجيش للإيرج و ذي ألفين
أودي سينغ	حارس القلعة في كهيلنا	صار في سنة 47 ذي ثلاثة آلاف وخمس مائة
باسديف سينغ	.....	صار في سنة 49 ذي ثلاثة آلاف
كاتهوجي	.....	كان ذي خمسة آلاف أولًا ثم في سنة 49 تدرّج في ألف
سترسال بونديله		صار في سنة 44 حارس قلعة تارا
بشن سينغ	ابن كنور سينغ	صار في سنة 25 ذي ألف وقائد ألف وأربع مائة راكب
رام تشند	ابن راجه رام سينغ ضابط الشرطة لكهانالون	صار في سنة 40 ذي ألفين
لوك تشند	نائب وحامل الأمير	حصل على لقب المشير سنة 29 بسبب

	أعظم شاه	هزم بهار سينغ
بهاكو بنجارا		حصل على منصب ذي خمسة آلاف سنة 42
جكيا	رئيس نصرت آباد	صار في سنة 50 ذي ثلاثة آلاف
راتهور في دركدا	.....	وعاد إلى منصبه ذي ثلاثة آلاف
سروب سينغ	ابن راجه أدوت سينغ	ارتقى إلى منصب ذي ألف في سنة 41
سوبهان	حارس قلعة ستارة	حصل على منصب ذي خمسة آلاف مع الخلعة والطبل وغيرهما في سنة 43
شيف (شيو) سينغ	حارس قلعة راهيري	صار في سنة 47 ذي ألف ونصف ألف
مان دهاتا	ابن راؤ كاتهو العسكر المتعين في نصرت جنك	عيّن على تغلب القلعة المهمنة (قلعة مهمنة) في سنة 51
كشورداس	ابن منوهرداس	صار في سنة 26 حارس قلعة شولافور
راجه كليان سينغ	إقطاعي بهاداور	حضر بلاط الملك وتدرّج في مأتين حتى سبع مائة

وقد أشار العلامة في هذه القائمة إلى بعض الأقوال الملحوظة:

1. أولًا يشملها ابن مهارانا أوديفور وأخوه وأعجب به أننا نجد فيها الأسماء المتعددة لأقارب شيفاجي (شيواجي) ولكنهم ما كانوا أصحاب المناصب فحسب، بل كانوا يبذلون نفوسهم في المعارك أيضًا.

2. ومن بينهم العسكريون، المواطنون وضباط الجيوش ومحافظة القلعات وإدارة المديريات وقيادتها وهل تكون مسئولية وائتمان للوظائف أكبر من هذه، وهذه الوظائف كلها كانت للهندوس وانظروا مرة أخرى إلى قول لين بول: "إن راجبوت لا يريدون أن يحركوا حتى إصبع واحدٍ في تأييد عالمكير."[1]

وكذلك لا أساس تمامًا لتهمة كسر الأصنام وتهديم معابد الهندوس بأورنك زيب، ويدل المعترضون على أن هذا هو السبب الرئيسي الذي أثار الغضب في الهندوس ضد أورنك زيب فرفعوا علم الثورة ضده، ولكن العلامة يثبت بالدلائل والشواهد القطعية أن معابد الأصنام هدمت في الأمكنة التي كان فيها الهندوس يرضون بالمجزرة ولا يكفون نفوسهم بأي طريق عن حركاتهم، ولم يكن هناك أي تدخل من الثأر أو العصبية، وهو يكتب أيضًا أن عالمكير أقام في دكن لمدة 25 عامًا حيث كانت المآت أو الآلاف من معابد الأصنام، ولكننا لا نجد أي ذكر بشأن كسره معبد الأصنام.

هذه هي حقيقة أن هذا الكتاب لا ينفي تهمة المتهمين فحسب، بل اتضح منه أيضًا أن المتهمين كانوا طامعين وشريرين بأنفسهم، كنت أكتب هذه السطور فبينما وقعت عيني على عنوان جريدة يومية فجأةً "بُني معبد هندوسي شامخ على يد أورنك زيب وأُصدر أمرٌ من جانبه بإعطاء آراضي 330 بيغه وروبيةٍ واحدةٍ كل يوم من الصندوق الحكومية لنفقة المعبد" وكانت هذه العبارة في الخبر "قد أنشأ الملك المغولي أورنك زيب معبدًا شامخًا لـ"بالاجي" في تشتركوت (Chitrkot) بولاية أوترابراديش برغم كونه كاسر الأصنام ومهدّم المعابد، وإن كان أورنك زيب يعتبر متشددًا لكنه نظم تكاليف مستقلة لعمل عبادة "بهوغ" في هذا المعبد، والتي مازالت ولا تزال باقية على أصولها في صورة دعم حكومي، وقبل 323 عامًا أصدر أورنك زيب قراراً لتكميل الأموال المطلوبة في عبادة راج بهوغ بإعطاء آراضي 320 بهغه من ثماني قرى وروبية واحدة من الصندوق الحكومي كل يوم، هذا الأمر الصادر من الملك لا يزال موجودًا حتى الآن عند مهنت

[1] جريدة "آزاد هند اليومية "، 9/يناير 2007م/ص 2

بلرام داس، وهو مكتوب على ورقة نحاس في أمر صادر من أورنك زيب في 12 من شهر رمضان في السنة الخامسة والثلاثين من تسطله، والأمر من الملك هو هذا أن قد أعطِي الناسك مالك داس ساكن تشتركوت تحت برغنة كالنجر بولاية إله آباد ثماني قرى؛ هنوتا وتشتركوت، ديفكاري ورودرا وسريامدري وحبروا و هردبان تكريمًا للسيد تهاكر بالاجي، وأن يُعطَى أيضًا 320 بيغه من الآراضي العامرة بدون عائد بالإضافة إلى روبية واحدة كل يوم من عائد برغنة كوري بروشتها، وتابع أيضًا نريش مهاراج أمير هندوسي في ذلك الحين لتشتركوت هذا القرار الملكي، وثبتته الحكومة الإنجليزية أيضًا بواسطة بعض الوثائق المكتوبة، وطبقًا لقاضي المديرية رادها كرشن سينغ مازال يعطي 2260 روبية حسب في ايكر بعد استقلال البلاد والقضاء على الإقطاعية من الحكومة، ولا يزال يستمر حتى الآن.[1]

الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي: إن جرجي زيدان عالم نصراني شهير من بلاد مصر، وهو يُعرف بتضلعه من العلوم والآداب العربية لكنه ما كتبه في أربعة مجلدات المعروفة بـ"تاريخ التمدن الإسلامي" كان مسمومًا جدًا ولو يبدو منه أنه أطرأ على الإسلام والمسلمين ولكنه من وراء الستار قد هجم على الإسلام والمسلمين بعصبية متشددة وليس سموم كتابه من كل عين عادية مختفيًا فحسب، بل أيضًا من أولي العلم والبصر وهم كانوا يشيرون إلى هذا الكتاب وهم يفهمون أن هذا الكتاب قد كتب في مدح الإسلام والمسلمين ولكن لم يمكن أن تختفي مكائد جرجي زيدان ودسائسه عن العلامة شبلي فلذا يكتب عن مكر جرجي زيدان وتخليطه الحق بالباطل:

"بيانُ ذلك أنه جعل لعصر الإسلام ثلاثة أدوار دور الخلفاء الراشدين ودور بني أمية ودور بني العباس فمدح الدور الأوّل وكذلك الثالث (ظاهرًا لا باطنًا كما سيجيء) ولما غرّ الناس بمدحه للخلفاء الراشدين وهم سادتنا وقدوتنا في الدين

[1] أورنگ زيب عالمگير پر ايک نظر، ص 64-67

وبمدحه لبني العباس وهم أبناء عمّ النبي وبهم فخارنا في بثّ التمدن وأبهة الملك ورأى أن بني أمية ليست لهم وجهة دينية فلا ناصر لهم ولا مدافع عنهم تفرّغ لهم وحمل عليهم حملة شنعاء فما ترك سيئة إلا وعزاها إليهم وما خلّى حسنة إلا وابتزّها منهم ثم لو كان هذا لأجل أنهم من آل مروان أو لكونهم من سلالة أمية لكنّا في غنًى عن الذب عنهم والحماية لهم ولكن كلّ ذنبهم أنهم عرب على صرافتهم ما شابَتهم العجمية مطلقًا"[1]

ونشرت هذه المقالة في الهند ثم في المنار من مصر، وكان محررها العلامة رشيد الذي كتب رسالة إلى العلامة شبلي:

"كنت أريد أن أرد ولكن مكائد جرجي زيدان كانت منتشرة إلى حدٍ لا يمكن أن يتغلب على إحاطتها وردها، فأنت تغلبت عليها ورددتها."[2]

وكان الهدف وراء هذا الكتاب هو أن يُرى مهانة العرب ومذلتهم خصوصًا مثالب بني أمية، قد اتهم بأن العرب كانوا يستهينون بالأقوام الأخرى، ولا يعطونهم منصبًا، وكان بنو أمية ظالمين وغاشمين ويوجهون الإهانات إلى شعائر الإسلام، ويتلذذون باللهو واللعب والمخامرة ولا يستكرهون في سلب أموال الأقوام المغلوبة ويضيقون على الرعية في جباية الخراج وغيره ويفضّلون الخلافة على النبوة، وغيرها.

والطرق التي اختارها جرجي زيدان في إثبات الاتهامات المفترضة هي فيما تلي:

(1) الكذب والافتراء البين (2) الخيانة والتحريف والتلبيس والتدليس في النقل عن الروايات (3) الإضافة من نفسه في تغيير هيئتها وكيفيتها في الواقعة (4) الاستنباط والاستدلال الخاطئ في الاستنباط والاستدلال.

---

[1] الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي ص 3

[2] حيات شبلي ص 581

كشف العلامة حسب مبادئ التحقيق والنقد عن جميع مكائد مؤلف "تاريخ التمدن الإسلامي" أمام المفكرين وأولى الخير، فنذكر بعض الأمثلة:

قول عبد الملك بن مروان للقرآن الكريم "الفراق": قد ألحق جرجي زيدان بعبد الملك بن مروان من خلفاء بني أمية تهمات متعددة حينما علم أنه صار خليفة كان يتلو القرآن في ذلك الحين، فلما سمع هذا الخبر طوى القرآن وقال هذا فراق بيني وبينك. يعني (افترقت منك).[1]

وكتب العلامة في الرد عليه ناقلًا عن المراجع الموثوق بها، إن عبد الملك كان قبل الخلافة ناسكًا منقطعًا إلى العبادة لا يشتغل بشيئ من الدنيا قال نافع ما رأيت في المدينة أشدّ نسكًا وعبادة من عبد الملك ولما سألوا ابن عمر إلى من نرجع في الفتوى بعدك قال ولد للمروان وكان يقول ابن الزناد الفقهاء في المدينة سبع أحدهم عبد الملك وقال الإمام الشعبي ما جالست أحدًا إلا وجدت عليه الفضل إلا عبد الملك بن مروان. ذكر كل هذه الأقوال العلامة السيوطي في تاريخه الخلفاء فلما جاءته الخلافة وهو يقرء القرآن تصوّر خطارة الأمر وإن مثل هذا العبء لا يمكن تحمّله إلا لمنقطع إليه فقال تحسّرًا هذا آخر العهد بك أي الآن لا يمكن الانقطاع إلى العبادة وقراءة القرآن كما كان دأبي أوّلًا، وليس هذا على سبيل الاستهانة بالدين مطلقًا فإنا نرى اشتغال عبد الملك بالفرائض والسنن فيما بعد فهو يصوم ويصلّي ويحجّ[2]

وكذا يجيب على اتهام جرجي زيدان بالخليفة عبد الملك وما حدث بسبب الحجاج:

---

[1] الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي، ص 17

[2] المصدر نفسه، ص 19

"يظهر من هذا أن عبد الملك ما أراد الحط من شأن الكعبة ومسّ شرفها ولكن اضطرّ إلى قتال ابن الزبير فوقع ما وقع عرضًا غير مقصود بالذات ولذلك لما نصب الحجاج المناجيق على الكعبة حوّلها عن الكعبة وجعل الغرض الزيادة التي كان زادها ابن الزبير[1]

وكذا أشار إلى ما كتبه جرجي زيدان عن مثالب بني أمية:

"المقصد الذي جعله المؤلف نصب عينه ومرمى غايته هو أن الأمة العربية إذا بقيت على صرافتها فهي جامعة لجميع أشتات الشر أي الجور والقسوة والهمجية وسفك الدماء والفتك بالناس ولكن لما كان لا يقدر على إظهار هذا المقصد تصريحًا احتال في ذلك فغمّض المذهب وجعل الكلام طيّب الظاهر وذلك بأن قسّم عصر الإسلام إلى ثلاثة أدوار فمدح سياسة الخلفاء الراشدين وقال بعد مدحها:

"على أن سياسة الراشدين على الإجمال ليست مما لا يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك وإنما هي خلافة دينية توقّفت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر فأهل العلم للعمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب وإن انقلاب تلك الخلافة الدينية إلى الملك السياسي لم يكن منه بدّ" (الجزء الرابع، ص 29-30)

فأثبت بذلك أن سياسة الخلفاء الراشدين ليست فيها أسوة للناس وإنها من مستثنيات الطبيعة. أما دور العباسيين فمدحه ولكن لا لأجل أنه دولة عربية بل لكونها فارسية مادة وقوامًا موتلفًا ونظامًا وصرّح بذلك فقال:

---

[1] في العصر الجاهلي قد انهدمت الكعبة مرة من السيل، فلما قام القريش بإنشاءها مرة أخرى فبقي جزءاً صغيراً من الإنشاء لأنها ليست هناك سعة أحاطها القريش بالجدار، ويقال لهذا المكان المقفر "حطيما" وعند أنشأها ابن زبير فأدخل هذا الحطيم في البناء الأصلي للكعبة، وكان يعتبر أهل الشام هذا العمل غير صحيح، ورمى الحجاج هذه الزيادة بالحجارة

"دعونا هذا العصر فارسيًا مع أنه داخل في عصر الدولة العباسية لأن تلك على كونها عربية من حيث خلفائها ولغتها وديانتها فهي فارسية من حيث سياستها وإدارتها لأن الفرس نصروها وأيّدوها ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شؤونها ومنهم وزراؤها وأمراؤها وكتّابها وحجّابها" (الجزء الرابع، ص 106)

ثم أشار في غير موضع أن الدولة العربية الساذجة إنما هي دولة بني أمية فقال:

"وجملة القول أن الدولة الأموية دولة عربية" (الجزء الرابع، ص 103)

"وظلّ العرب في أيام بني أمية على بداوتهم وجفاوتهم وكان خلفاؤها يرسلون أولادهم إلى البادية لإتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم" (الجزء الرابع، ص 61)

ولما ثبت أن خلافة الراشدين لم تكن يلائم النظام الطبيعي وأن دولة بني العباس دولة فارسية وأن الباقي على صرافتها هي الدولة الأموية أخذ يعدّد مثالب بني أمية تحت عنوانات مستقلة منها الاستخفاف بالدين وأهله ومنها الاستهانة بالقرآن والحرمين ومنها الفتك والبطش ومنها قتل الأطفال ومنها خزانة الرؤس وأتى في مطاوي هذه العنوانات من الإفك والاختلاق والتحريف والتبديل بما تجاوز الحدّ وخرج عن طور القياس"[1].

وإن لم يملّ تطويل البحث فنذكر هنا بعض الأمثال الأخرى ولكنما كتبه بعد الرد على الظلم والجور من جانب بني الأمية تحت عنوان "خاتمة البحث" نذكره هو كما يلي:

"والآن آن لنا أن نذك رمحاسن بني أمية ومآثرهم".[2]

---

[1] الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي، ص 17-20

[2] المصدر نفسه، ص 36-37

وكانت هذه المقالة في اللغة العربية فلذلك طال ذكره إلى حدٍ وكانت المقالات والرسائل الأخرى للعلامة ما تستحق الذكر ولكن يُهمَل ذكره بسبب طول المقالة وسوف نذكر الآن هنا ثلاثة أعمال خالدة للعلامة.

سيرة النبيﷺ: ولو كتب العلامة شبلي بعض هذه المقالات والرسائل فقط لكفاه سمعة خالدة ولكنه ترك وراءه عديدًا من التأليفات الرائعة البديعة، وكان يقدر على مجال التأليف قدرة فائقة، كتابه "سيرة النبي"(ﷺ) أحد تأليفاته المفتخر بها ومن أعماله الخالدة التي توجه إليها في آخر عمره وتم عليها بالخير. قال حينما بدأ بتأليفه:

عجم کی مدح کی عباسیوں کی داستاں لکھی　　مجھے چندے مقیم آستان غیر ہونا تھا
مگر اب لکھ رہا ہوں سیرت پیغمبر خاتم　　خدا کا شکر ہے یوں خاتمہ بالخیر ہونا تھا

ترجمة: مدحت العجم وكتبت قصص بني العباس، ولقد قدّر لي أن أنزل لدى الأجانب.

ولكني الآن أؤلّف سيرة خاتم النبيين صلّى الله عليه وسلّم، فالحمد لله على أنه لفّ فرش حياتي على هذا.

ولو كان تأليف السيرة يتصدّر فهرس أعماله، فهو يقول بنفسه:

"وما كنت غافلًا عن أن وظيفتي الأولى التي كانت هي من الناحية الإسلامية أن أكتب سيرة النبيﷺ أولًا من جميع التأليفات، ولكن هذه الوظيفة كانت حساسية إلى حد فلذلك لم أقدر على أداءها إلى مدة، ولكنني كنت أرى أن الحوائج تزداد يومًا فيومًا."[1]

إنه لم يغفل عن أداء هذه الفريضة أبدًا ولكنه كان يشعر بازدياد إحساسه يومًا فيومًا عن ضرورتها القصوى حتى أضطر إلى تأليف السيرة، وهو يكتب:

"في العهد الماضي ما كانت السيرة تعتبر إلا التاريخ والوقائع فقط، وليست أية علاقة لها مع علم الكلام، ولكن المعترضين من العصر الحاضر يقولون إنّ الدين لو كان هو

[1] سيرة النبي (مقدمة)،5/1 (الطبعة الجديدة)

باعتراف الله فقط لوقفت المناقشة إلى هنا ولكن عندما تعد النبوة جزءً من الدين فيعتري لها البحث أن الشخص الذي كان حامل الوحي وسفيرًا من الله فما كانت ظروفه وعاداته وخلقه؟ وما هو التصوير الخلقي الذي مثّله المؤرخون الأوربيون للنبيﷺ فهو مجموع كل معائب، وفي الأيام الحاضرة لقد حرمت الحوائج الجديدية المسلمين من العلوم العربية حرمانًا تامًا فلذلك إذا اشتاقت هذه الجماعة أحيانًا إلى استخبار حالات رسول الإسلام وسيرته الذاتية راجعوا إلى هذه التأليفات الأوربية، وهكذا تؤثر هذه المعلومات المسمومة تدريجيًا ولا يعلم الناس حتى برزت جماعة من الناس إلى حيز الوجود في بلادنا، تزعم أن الرسول كان مجرد مصلحٍ لو عمل عملًا إصلاحيًا في الناس أدّى فريضته وإن كان خلقه أيضًا مجموعًا من عيوب المعصية فلا يقع خلل من هذا في منصب نبوته."[1]

وكانت هذه هي الأوضاع والحالات التي أجبرت العلامة على تأليف كتاب مفصلٍ عن السيرة النبوية، وهو يقول إن هذا الشيء فيما يبدو، كان سهلًا جدًا، وإن هناك آلافًا من الكتب توجد في اللغة العربية والمرحلة لتأليف كتاب طريف ذي حجم كبير بناء على هذه الكتب تحتاج على الأكثر إلى بضعة أشهُر فقط، ولكن هذه هي الحقيقة أن ليس هناك أي تأليف أكثر تأخرًا منه في التأليف أو جمعًا للمشاكل."[2]

وهو يشير في رسالة إلى استيعابه وسعته هكذا:

وكتاب "سيرة النبي" الذي هو على قيد التأليف، أريد أن استطلع استطلاعًا تامًا عما كتبه المؤلفون الأوربيون عن النبيﷺ، لكي تعرض أقوالهم المؤيدة كالحجة الإلزامية

[1] المصدر نفسه، ص 6

[2] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

حسب المناسبة، ولكي تنكشف الأستار عن أخطاءهم وخياناتهم. ومن ثم توفر التأليفات الإنجليزية بعدد كبير والتي تم تأليفها عن النبيﷺ."[1]

بدأ العلامة بتأليف السيرة مع حرارة روحية عظيمة جدًا و خطط أجزاءها المتعددة وقد تم تنظيم رسمها أيضًا وأخذ يلون رسمها، ولكن شمس حياته بلغت غروبها، وقد ابتلى بالأمراض المتعددة، ولذلك لم يتم إلا جزءين حتى جاءه نداء الأجل.

وكان العلامة شبلي يستهدف إلى أن يُكتب في فن السيرة كتاب جامعي مدلل تذكر فيه الأوضاع والوقائع والمآثر للنبيﷺ على المناهج الموثوق بها، وتُبين فيه رسالته وإرشاداته وشريعته ودعوته إلى الإسلام، وتعليمه في اللغة والأسلوب المؤثرة والرشيقة حسب مذاق العصر الحاضر بناء على المصادر الصحيحة والموثوق بها، ليعرف العالَم جيدًا بأن الرسول كان أجمع إنسان وأكمله، وما هو الهدف الرئيسي وراء بعثته وماذا وجه الرسالة إلى الإنسان. فهو يكتب في رسالته الكريمة:

"إني أريد أن أحيط بجميع الموضوعات في السيرة، يعني جميع الملحمات والاستعراض على المسائل ونظرة عميقة على القرآن الكريم، وبالجملة فلم تكن هي السيرة فقط بل تكون موسوعة وسيكون اسمها المناسب "دائرة المعارف النبوية" ولو أنه طويل ولم أعزم حتى الآن."[2]

وهو كان يعرف بعظمة هذا العمل النادر عظيمًا وخلوده، وهو يكتب في إحدى رسائله:

"سأواصل العمل في حالة ما، وإن لم أمت وبقيت على عيني الواحدة سأعطي العالَم – إن شاء الله – كتابًا لم يتوقعه إلى مدة مئة عام."[3]

---

[1] مكاتيب شبلي، 202/1

[2] المصدر نفسه، 244/1

[3] سيرة النبي (المقدمة)، 5/1

خطر هذا الخيال بقلبه لأن ذلك العصر كان يغلبه العبودية السياسية من أوربال على المسلمين بالإضافة إلى العبودية العملية، وزاغت أبصارهم بالنظر المريب الغربي ورواءه التمدني زيغًا إلى حدٍ ما حتى ذهب منهم رواء الأعمال الخالدة من تاريخهم والآثار الزاهرة من الرسالة المحمدية، وعرض العلامة شبلي السيرة والأخلاق النبوية والإرشادات والنصائح المحمدية بالبريق والرونق حتى ذهب عنها جميع عيوبها.

"إن كتاب "سيرة النبي"(ﷺ) ليس كتابًا فقط بل هو مبدأ علم الكلام أيضًا ولا يمكن هنا تحليله فلذلك نشير هنا فقط إلى بعض خصائصه البارزة:

1. بالجملة ليس هناك أي كتاب على هذا الموضوع أفضل منه لا في اللغة الأردوية ولا في أية لغة عالمية.

2. لا يُذكر في السيرة المكتوبة باللغة الأردوية إلا الوقائع والقصص والمغازي والشمائل والأخلاق عن حياة النبيﷺ وتشتمل على جميع أنواع من الروايات الرطبة واليابسة، ولم يُبحت فيها عن الروايات والقصص تحقيقًا ونقدًا وتأكيدًا وعن صحتها ووثوقها ولم يُرد الاتهامات المتهمة على النبيﷺ وخصوصًا على الاعتراضات التي لا أساس لها، فانطلاقًا من ذلك لا يمكن اقتناع الناس ذوي الميول الجديدة، ويراعي العلامة شبلي في سيرة النبي(ﷺ) جميع هذه الأشياء ولذا ليس هذا سيرة النبي(ﷺ) فقط بل هو دائرة المعارف الإسلامية.

3. ومعظم المواد لسيرة النبي(ﷺ) مأخوذة من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، وفضّل الحيطة التامة في رد الروايات وقبولها، ونوقشت مناقشة نقدية تحقيقية تامة، وعندما وجدت الآيات والأحاديث غُضّت الأبصار عن روايات كتب السيرة. ولم يستدل إلا بالأدلة التي كانت مستوفية للشروط، لأن المؤلف لا يجعل ذخائر كتب السيرة أنداداً لكتب الأحاديث.

4. ورُدّ على الاعتراضات ردًا يؤده الحجة، ودُرءت الشكوك درءًا يعضّدة الدليل. ولم يظهر منها لون المناظرة وأسلوب المناقشة والجدل في أي مكان، وعورض المعترضين بتحقيقاتهم وأسلحتهم بنفسها، ولم تُنكر الروايات والقصص الصحيحة كما أنكر بعض المتكلمين وكُتّاب السيرة الجدد، ولم يُتأوّل فيها التأويل الباطل، وروعيت وجهة النظر الصحيحة و أسلوب التفكير الإسلامي في المناقشة كلها، وقد فُسّر القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ولم تُذكر نفس الواقعة إلا بعد التحقيق والتنقيد في أسلوب زاهر راسخ حتى زالت الاعتراضات من نفسها.

5. وبفضل اختيار وجهة النظر الصحيحة لم يجد العلماء المحافظون على التقاليد القديمة أيضًا فرصة للقدح فيها إلا قليلًا، وقد زالت الشكوك من طبقة المثقفين الجدد بسبب طراز جديد للتحقيق وبسبب دلائل عقلية ونقلية وطراز علمي وبسبب لغة سهلة وأسلوب جذاب للكتابة.

6. كان العلامة شبلي أديبًا بارزًا وكاتبًا كبيرًا للغة الأردوية فلذلك لغة "سيرة النبي"(ﷺ) وأسلوبه كلاهما واضحان ومتفتحان، وقُدِّمتْ البحوث العلمية والتحقيقية المعقّدة بأسلوب واضح مؤثر راسخ في الذهن حتى زالت التعقيدات كلها.

7. وقد نال كتاب "سيرة النبي"(ﷺ) قبولًا حسنًا، ونُشرت عشرات من طبعاته من الهند وباكستان وتُرجمت إلى اللغات المتعددة، الوطنية والأجنبية.

8. وراعى العلامة شبلي الترتيب الطبيعي في ذكر قصص السيرة ومباحثها يعني أقرّ بيان القرآن أفضل وأعلى،ثم الأحاديث الصحيحة وعلى وجههما لا يعتني بروايات كتب السيرة.

9. ويشير العلامة إلى الأحاديث الصحيحة والروايات التاريخية الموثوق بها المتعلقة بالوقائع الهامة، ولكنه يراعي على الأكثر بروايات ابن سعد وابن هشام والطبري في ذكر الوقائع اليومية والعامة، ولكنه يعترف بالتحقيق والتنقيد في روايات هؤلاء المؤلفين في تفاصيل جزئيات المعارك والوقائع الهامة، ولذا يبذل الجهد المضني كمحّدث.

10. وعلى عكس المؤلفين العاديين يستدل العلامة فيها وفي التأليفات العامة الأخرى، ويصرح عن مراجع الكتب المطبوعة مع مطبعها، والفهارس لكتب السيرة التي نظمها في المقدمة عن الكتب المخطوطة فيدل فيه على ما هي النسخة التي استخدمها.

11. ميزة كبيرة وخاصة هامة لكتاب "سيرة النبي"(ﷺ) هي أن مقدمته عالمية ودينية أيضًا، وفي الحقيقة هي تعتبر تصنيفًا مستقلًا، والميزات المذكورة فيما أعلاه فبعض موادها مستفادة منها، ونوقشت في مقدمته مناقشة نقدية على مبادئ فن السيرة والرواية والدراية، وفي بدايتها ذُكرت الحاجة إلى تأليف "سيرة النبي"(ﷺ) وكتبت تفاصيل الناحية الدينية والتطبيقية لأجل التأليف، فهو يرى أن ليس المسلمون فقط بل كلّ العالم يحتاج إلى سيرة تلك الشخصية المقدسة. وهو يكتب:

"إن هذه الضرورة ليست ضرورة إسلامية أو دينية فقط، بل هي ضرورة خلقية وضرورة حضارية وضرورة أدبية، وبالجملة فهي مجموعة الحاجات الدينية والدنيوية."[1]

إن العلامة فتش عن الكنوز القديمة للسيرة وذكر تاريخًا إجماليًا أو كيفية لجميعها ولم يكن له هدف وراءه سوى أنه كيف يمكن أن تُستخدم هذه الكنوز في تأليف كتابٍ كاملٍ وموثوقٍ به وإلى أين تحتاج هذه إلى التحقيق والنقد.

والعلامة يقرر مبادئ فن السيرة للمسلمين ومستوياتهم المنقطعة النظير وهي أعلى من مبادئ الأقوام الأخرى وأفضل منها جدًا. يقول إن هذا المستوى مبني على أصولين؛ رواية ودراية، وناقش نقاشًا علميًا شاملًا، ويستعرض كتب السيرة من الجهات المختلفة، ويعلل بنُدرتها في إحدى عشرة مادة، وبعد القراءة حيثما يظهر نقصها وضعفها، تظهر لإصلاحها وتداركها الهيئات التي اختارها العلامة.

[1] مقالات الشيرواني، ص 38

وفي نهاية المقدمة ذكرٌ شاملٌ لأسلوب التأليف الأوربي الذي حدّد فيه طريقتهم العامة وأخطائهم المشتركة وعامة الورود وبعصبيتهم وسوء ظنونهم وغيرها. وقد قسّم المؤلفين الأوربيين إلى الثلاثة:

1. الجاهلون عن اللغة العربية والمراجع الرئيسية والذين يتوجهون إلى تأليفات الآخرين وتراجهم.
2. الخبراء باللغة العربية وعلومها وآدابها وتاريخها وفلسفتها ولكنهم يجهلون عن الأدب الديني وفن السيرة.
3. الدارسون الكبار للأدب الإسلامي ولكنهم يلجأون إلى الكذب الصريح والافتراء والتأويل والعصبية.

الفاروق: وهذا الكتاب أيضًا تأليف ذو سمعة عالمية، وكان العلامة يفتخر به، وانتشرت طبعات له عديدة بسبب سمعتها وترجم إلى العديد من اللغات وهذا في جزئين؛ فالجزء الأول الذي ذُكرت فيه الأوضاع للخليفة الثاني عمر بن الخطابﷺ وسيرته، إذ أن التفصيل موجود في كل كتاب مكتوب على سيرة الفاروق، فلذلك اكتفى العلامة بذكر الوقائع البسيطة بدون ذكر تفاصيلها، ومع ذلك ما كتبه مجملًا عن قبول الإسلام لعمرﷺ وعن المثابرة في غزوة أحد وحادثة القرطاس وسقيفة بني ساعدة و عن فن التاريخ في المقدمة وعن مبادئه ومستواه فهو متميز تمامًا عن تأليفات المؤرخين العاديين، ثم العظمة التي يرفعها قلم العلامة من الجمال والغضاضة وسحر البيان نشوةً وتأثيرًا لم يوجد عن الآخرين.

وفي الجزء الثاني؛ لم يعرف من أين ومن أية ناحية أنه جمع ذخائر المعلومات الكثيرة خصوصًا كما أبرز الأعمال الحكومية لعمرﷺ وخصائص جميع نواحيها، هذا يدل على ظرافته وذكاءه الخاص وتدقيقه وسعة اطلاعه ودراسته المستفيضة وظرافته المجتهدة، ولكن جميع هذه الأشياء أ كانت بعيدة عن نظر الكتّاب العاديين لسيرة عمر بن

الخطابﷺ أو ما كانت خطيرة جدًا عندهم. وإن العلامة يزعم بنفسه هذا الجزء مركز سعيه وجهده، ويكتب الفاضل حبيب الرحمن الشيرواني:

"من ينظر إلى فهرس محتويات الجزء الأول يزعم أنه فهرس مصالح حكومة مثقفة ومنتظمة من القرن التاسع عشر، هل هذا أقل دهشة أن السعة التي أنشأتها الثقافة اليوم في مفهوم الحكومة والمصالح التي استقرت أجزاء الحكومة بناء على تلك السعة فليس الجميع ولكن أكثر منها التي شكّلها عمر بن الخطابﷺ في شكل منظم خلال حكومته المستمرة إلى مدة عشر سنوات، ولم يثبتها فقط بل أرى العالم نتائجها المفيدة أيضًا.

أولًا ليثني العلامة المؤلف على فطانته وفكرته الجاميعة، الذي وضع في ذهنه الرسم الواسع والجامع لحياة الفاروقﷺ أو بعبارة أخرى رأى عظمته في صورة حقيقية، ثم ليمدح المؤلف على تفتيشه وتجسسه لأنه عَنوَن بقدرما أتمّها بكل ظرافة وتدقيق، وعمل مع ضوء الأحداث كما يجب عليه."[1]

ومَن ينتقد هذا الجزء من هذا التأليف التاريخي ففي ردهم انظر هنا إلى اقتباس من المحب الشهير للعلامة:

"لعل الناظرين لا يعلمون ذلك الغرض الخاص الذي حث العلامة على تأليف "الفاروق" ولو أن العلامة تربى وترعرع على طريق التعليم الإسلامي التقليدي، ولكنه ما كان غافلًا عن الأوضاع والوقائع العالمية كما كان العلماء الآخرون. كان في قلبه ألم ومعاناة للقوم والملة، وكان نظره الحادّ يدرك تلك الدسائس والزخارف من الحضارة الغربية التي كان يسحر بها الطبقة المثقفة الجديدة من المسلمين ويزعمون أن كل كفاءة – أ كانت من العلم والفن أو من السياسة والتدبر- للمناطق الغربية فقط، وفي الحقيقة كانت هذه المشاعر العبودية بسبب جهلهم من المآثر البديعة لأسلافهم ولذلك كانت هنا ضرورة

[1] الفاروق (التمهيد) ص 15

بتقلب صفحة ذهبية يشعر بها المسلمون أنهم أتباع دين تقدر قوتها الروحانية أن تزلزل بنيان المجلس الأعلى لكبار الشخصيات، ولهذا يمكن أن تُستخدم عظمة عمر الفاروق رضي الله عنه وجلاله وبتقديمها فتح العلامة بصائر المسلين و بكل إذعان وثقة دعا جميع الحرفاء من العالم إلى المبارزة "كما فتح عمر بن الخطاب بالحزم والشرط وكما رفرف علم الإسلام على عليات القصور الشامخة لقيصر وكسرى بأيدي حفنة من الصحراويين والمعوزين، وكما أظهر المهابة والجلال من الحكم والإمارة جالسًا على بساط الأرض، و كما أعطى الرعاية العامة الحقوق القيمة للعدالة والحرية، وكما ضرب مثلًا للعدل، وكما عاش عيشًا ساذجًا كرجل عادي برغم كونه حاكمًا وكما شكّل نظامًا واسعًا للحكومة وهو كان ينتمي إلى بلد غير مثقف، إن يُوجد نظير له في وقائع الحياة لفاتح أو حاكم من العالم فأعرضوه."

ومضت على هذا التحدي مدة طويلة، لكن لم يرفع صوت من أية ناحية من العالم."[1]

تحدث في مقدمة الكتاب عن بداية فن التاريخ وتطوره وتدرجه وتعريفه ومفهومه وماهيته وغيرها ثم جعل هذه الأشياء إلزاميًا لفن التاريخ، والتي تذكر فيما يلي:

1. والعهد الذي يريد الكتابة عنه يُكتب جميع الأقسام من الأوضاع والأحوال يعني توفر المعلومات عن التمدن والمجتمع والأخلاق والعادات والدين كلها.
2. أن يبحث عن السبب والمسبب في جيمع الأحوال.

   وهو يقول إن هذين كانا مفقودين في الكتب التاريخية القديمة.
3. وناقش أشدّ مناقشة في أنه كيف يعتبر صحة الأحوال المذكورة، وناقش على الطريقتين لتفتيش الواقعة؛ الرواية والدراية وأكّد على أن قواعد الدراية إن كانت موجودة لكن لم تُستخدم في تأليف التاريخ.

[1] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

وقواعد الدراية التي هي مفيدة في تحقيق الوقائع وتنفيذها ألفها كتابة أن هناك كتبًا تاريخية متداولة نُقلت فيها الأحكام المتشددة الصاردة من عمرﷺ عن الأقوام الأخرى، فيؤكد العلامة على رعاية شيئين بصددها؛ إن هذه التأليفات تتعلق بالعصر الذي ترعرت فيه العصبية في المسلمين، والثاني لا توجد الوقائع من هذا النوع قطعيًا في أقدم التأليفات أو إلى أقل مقدار، ويبدو منه أن العصبية ترعرعت بقدرٍ ما فانصاغت الروايات بنفسها في نفس القدر إلى قالب العصبية، وعلى سبيل المثال قد ذكر في جميع كتب التاريخ أن عمرﷺ أمر بأن لا يُسمح النصرانيون بزمر الناقوس أبدًا في أي وقت، ولكن هذه الروايات منقولة في الكتب القديمة (كتاب الخراج، تاريخ الطبري وغيرهما) مع الشرط أن لا يُسمح النصرانيون بزمر الناقوس عندما يصلّي المسلمون.[1]

ويذكر ابن الأثير بهذا الأمر الصادر من عمرﷺ أن لا يصطبغ النصرانيون من بني تغلب لأولادهم، ولكن الطبري روى نفس هذه الرواية هكذا أن لا يُصطبغ الأولاد المعتنقون بالإسلام جبرًا.[2]

1. الروايات التي تكون بمنزلة دينية مع كونها تاريخية، فلما ينتقد فيها بقدر ما فأخذ تقلل فيها الأقوال المشبوهة بقدرها مثلًا: نقل ابن عساكر وابن سعد والبيهقي ومسلم والبخاري كلهم وقائع فدك والقرطاس وسقيفة بني ساعدة، ولكن هناك تفاوتًا في الترتيب بقدر ما في القواعد وشدة الحذر لهؤلاء الشيوخ والأمجاد فبهذه المناسبة تقل الألفاظ المشبوهة والنزاعية في الروايات حتى يوجد هذا الأثر للفرق بالترتيب في مسلم والبخاري بنفسهما.

وعند العلامة شبلي يوجد الاختلاف أيضًا في مدارج الصحة والاعتبار في الوقائع المختلفة حسب القواعد العقلية مثلًا ألفت وقائع الخلافة لعمرﷺ بعد مائة عامٍ فلذلك تفاصيل

---

[1] المصدر نفسه (التمهيد)، ص 18

[2] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

الجزئية التامة للمعارك مثلًا تفاصيل عن كيفية الصفوف والسوال والجواب ومنظر القتال بطلًا بطلًا وحيل الصُرَع أو الأبطال ومكرهم ومرتبة تفاصيل من هذا النوع من الجزئيات كلها لا تتأكد عليها، ولكن الشؤون الإدارية والقواعد الحكومية كانت موجودة إلى مدة في صورة حساسية فلذلك الوقائع المنقولة بمناسبتها تستحق اليقين والتأكيد، وما هي القوانين والقواعد التي نفّذها أكبر في الهند يعرفها كلّ مولود، ولا يمكن أن يشك في نسبتها التي ليس لها هذا السبب أن هناك توجد الرواية القطعية لها مثل الحديث بل لأن تلك التنسيقات كانت مستمرة لمدة وكانت لها سمعة بسبب "أكبر".[1]

وأضاف قائلًا إن الوقائع التي لم تذكر بسبب ذوق زمنه ومع أنها يجيء ذكرها، فليفهم نسبة إلى ذلك أن الواقعة الحقيقية تكون أكثر منها، مثلًا لا يدأب مؤرخونا الشؤون الإدارية تمامًا بالنسبة إلى جدال الوغي ولطافتها، ومع هذا يجيء الذكر ضمنيًا لما تعلق بالمحكمة والشرطة والإدارة وإحصاء النفوس وغيرها في عهد خلافة عمرﷺ، فلنزعم بالنسبة إليها أن تؤلف بقدر ما قد تم الترك أكثر منها جدًا، وهناك تُذكر مآت من الروايات المتعلقة بزهد عمرﷺ وتثقّفه وخشونته وبطشه بالقوة وإنّ هذه المناقب كانت توجد فيه أكثر من الصحابة، ولكن لا يمكن أن يُعتبر صحيحة جميع الروايات التي ذكرت في حلية الأولياء وابن العساكر وكنز العمال ورياض النضرة وغيرها، بل أن يُفهم لأن الروايات من هذا الصنف كانت تسبب المشادة المحفلية ويستمعون الناس إليها بنشاط ورغبة، فلذلك تصطبغ بصبغة المبالغة بنفسها تدريجيًا، ويصدق على ذلك أن الكتب التي كانت أكثر ثقةً واعتمادًا لا توجد فيها هذه الروايات إلا قليلًا نادرًا.

وما كتبه العلامة في مقدمة "الفاروق" على هامش التاريخ قد جرّبه أيضًا عمليًا في ذكر وقائع سيرة عمرﷺ ويبدو منه أنه كان أديبًا وكاتبًا قدرما كان مؤرخًا، ويبلغ ذوقه التاريخي في "الفاروق" أوج ازدهاره ورقيه ولكن تأليفه في التاريخ وأسلوبه قد نوقش عليهما، ويزعم بعض الناس أن اللون الإنشاءي يتغلب على أسلوب العلامة ويهت اللون

[1] المصدر نفسه (التمهيد)، ص 17

التاريخي، ويقال إن اللطافة والجاذبية من الأسلوب لا تليق بالتاريخ ولكن هذا الرأي سطحي والنقد عامي ورده موجود في المقدمة بقلم العلامة بنفسه.

ودلّ هو على أن التواريخ العامة المقبولة في الوقت الحاضر إلى الدرجة العليا مركبة من الفلسفة والكتابة، والحدود للتاريخ والكتابة عنده مختلفة تمامًا. والفرق بينهما هو فرق بين الخريطة والتصوير، وهذا واجب على المؤلف أن لا يتجاوز حدًا لسرد القصص البسيطة، وهو مطر برينكي مؤرخ كبير من أوروبا، لأنه لم يستخدم شعرًا في التاريخ وما كان مواسيًا للوطن ولا نصيرًا للمذهب والقوم ولا يظهر هذا من ذكر أية قصة مطلقًا، ما هي الأشياء التي يفرح بها وما هي العقيدة التي يعتقد فيها.[1]

والآن نتوجه إلى ذكر بعض الأمثلة من الجزء الثاني:

هو يتحدث عن سعة الفتوح الفاروقية أولًا كما يذكر الأسباب التي ذكرها المؤرخون الأوربيون أن حكومة فارس والروم قد سقطت من علوها ورِفعتها واختلّ النظام الحكومي لفارس، وما كان متحملو الحكومة أشخاصًا متأهلين وأكفاء لها، وقد وقعت المؤامرات في أعضاء الحكومة، وكان للطائفة المزدكية أثرٌ و سمعة وما كان له أي تعرض مع الإسلام والدين والعقيدة، وكانت الطبقات النصرانية أعوانهم وضعفت حكومة الروم، كان النزاع المحلي في النصرانيين على أوج ازدهاره.

وإن هذا الجواب عند العلامة زخرفة من طريقة الاستدلال وإن لم يخل من الحقيقة، ومن الممكن أن هذا يكون نتيجة لضعف الحكومات أن لا تقدر على المبارزة ضد الحكومات الموفورة بالقوة، ولا يمكن أن تتكسر اصطدامًا بالقوم العربي فاقد الأسباب.

وعنده كان سببه الرئيسي هذا:

[1] المصدر نفسه، ص 18

"إن الحماسة والعزم والثبات والمقدرة وعلو العزيمة والشجاعة التي نشأت في المسملين بفضل النبيﷺ والتي جعلها عمرؓ أكثر قوة وسرعة لم تقدر حكومة الروم وإيران أن تصطدما بها في زمن ازدهارهما بعينهما."[1]

ثم يشير إلى الأسباب التي أعانت في استقرار الحكومة والتي كانت فيها الأمانة والصداقة متقدمة أولًا، وعلى هذا فتكون الرعية من البلدان المفتوحة مولعين بمسلمين وأشار أيضًا إلى سبب آخر وهو أن المسلمين هجموا في البداية على الشام والعراق حيثما كان العرب مستوطنين في عدد كثير، والذين بارزوا أولًا المسلمين بكونهم نصرانيين ولكن لا يمكن أن تذهب روح التجمع الوطني سدًى فاعتنق الرؤساء الكبار الإسلام.[2]

وهو يجعل تشبيه الفتوح الفاروقية بفتوح الإسكندر وتشنغيز غلطًا وغير ملائم. وكانت فتوحهما بسبب القهر والظلم والجبر والقتل، فلذلك لم تستمر حكوماتهما إلى مدة طويلة، وأثرت المظالم من هذا النوع في الفتوح المستعجلة، ولم تجاوز القانون بالعدل تمامًا في فتوح عمرؓ، وليس قتل الناس العاديين ممنوعًا فقط، بل كان قطع الشجر والتعرض للأطفال والصغار والنساء محرمًا عليه، وحينما نُفي الطغاة والخائنون من البلد دُفع إليهم ثمن ممتلكاتهم، ويثير الفاتحون السفاكون الجيش على القتال مشاركين فيها نفوسهم، ليرفعوا أرواحهم المعنوية ولكن عمرؓ في عهد خلافته لم يشارك في أية حرب، بل هذه حقيقة أن عنان الجيش كان في أيديه.[3]

كانت فتوح الإسكندر وغيره مثل السحاب المرور الذي جاء بالقوة ثم ذهب، والبلاد التي فتحوها لم يشكلوا أي نظام للحكومة، وعلى العكس فكان الاستحكام في الفتوح الفاروقية بأن البلاد التي فتحت في ذلك الحين لا تزال بعد مضي ألف وثلاث مائة عام في حيازة الإسلام حتى الآن، وقد تكونت هناك جميع الأصناف من التشكيلات البلدية في

---

[1] المصدر نفسه، 5/2

[2] المصدر نفسه، ص 5 و6

[3] المصدر نفسه، ص 7 و8

عهد عمرﷺ بنفسه،[1] وهذا رأي عام أنه ما كان أي تخصيص في الفتوح بهذا القدر من الخليفة، وكانت حالة الحماسة والعزم في ذلك الوقت بنفسها كفيلة لجميع الفتوح، وفي رأي العلامة إن القوة الكهربائية من الحماسة والتأثير يمكن أن تنفع في ذلك الوقت حينما أن يكون المتمتع أيضًا صاحب نفس القوة والسلطة، وكانت الجيوش كلها تتحرك على إيماءه مثل الألعوبة، وبالجملة فيزعم أنهم لا يستطيعون أن يعملوا البتة.[2]

وبعد ذكر هذه الأسباب هو يحكم في الأخير:

"نعرف منذ فجر تاريخ العالم أنه لم يولد رجلٌ لغاية اليوم فاتحٌ يعادل الفاروق الأعظم ....."[3]

وهذا يناسب أن تذكر واقعة كاذبة بأسبابها المفروضة:

حينما وصلت بنات يزدكرد ملك فارس إلى المدينة بعد فتح إيران وكنّ أسارى أمر عمرﷺ بأن يُبعن في السوق مثل الجاريات العادية ولكن عليﷺ جعل هذا السلوك مع أسرة غير مسموحة وأشار عليه في أن يقاس ثمن هؤلاء البنات ثم يُسلّمن إلى تحويل أحدٍ، وأخذهن بنفسه في تحويله وأعطى إحداهن الإمام حسين والثانية محمد بن أبي بكر والثالثة عبد الله بن عمر (رضي الله عنهم).

وذكر العلامة حقيقة هذه القصة الباطلة أن العلامة الزمخشري كتبها في ربيع الأبرار ونقلها عنه ابن خلكان في أحوال الإمام زين العابدين، ويكتب العلامة أن هذه هي أسباب في كونها كاذبة:

1. ليس للزمخشري علاقة بفن التاريخ، والمرتبة التي تعتبر فيها واضحة تامًا.
2. ولم يذكر الطبري وابن الأثير واليعقوبي والبلاذري وابن القتيبة وغيرهم هذه القصة.

---

[1] المصدر نفسه، ص 9

[2] المصدر نفسه، ص 10

[3] المصدر نفسه، ص 10

3. وإن الحقائق التاريخية تخالف لها قطعًا، وفي عهد عمرﷺ لم يتغلب المسلمون مطلقًا على يزدكرد والعائلة الملكية، وفي غزوة المدائن خرج يزدكرد مع جميع أفراد عائلته من الحاضرة ووصل إلى حلوان، وعندما هجم المسملون على حلوان هرب إلى إصفهان ثم تاه في كرمان وغيره، حتى وصل إلى مرو حيث قُتل في سنة 30ه في عهد عثمانﷺ وإن يعتقل آله وأولاده فيعتقلون في نفس الوقت.

4. وكان الحسينﷺ ابن اثنتي عشرة سنة عند وقوع الواقعة، وهو ولد في العام الخامس من الهجرة، وفُتح فارس في سنة 17ه، فلذلك هذا الأمر مستعبد إلى غاية أن عليﷺ تكرم عليه تكريمًا كذلك برغم صغر سنه وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن يستقر ثمن آل ملك ثمنًا غاليًا جدًا وإذ كان عليﷺ يعيش كالزهاد والدراويش.

5. وهذا النوع من القصة المتفق عليها في تاريخ عمرﷺ فعومل فيها معاملة تتقاضى الثقافة والمروءة، والتي تستمر لغاية اليوم في جميع البلدان المثقفة، وفي معرض هجوم على مصر هجم أولًا عمرو بن العاص على بليس، فبالمصادفة بنت ملك مصر مقوقس المسماة بـ"أرمانوسه" التي كانت مقيمة هنا أعتقلت أيضًا، فأرسلها عمرو بن العاص إلى مقوقس بكل عزة واحترام وللحدز المزيد أرسل معها سيدًا له وكان اسمه قيس بن أبي العاص السهمي لتوصل به على عزة وحذر.[1]

سوانح مولانا روم (سيرة العلامة روم): ما كان العلامة شبلي معتادًا للسير على الطريق العام:

نمی رویم براہے کہ کارواں رفتہ است

ترجمة: نحن لا نمشي على الطريق الذي سار عليه القافلة.

إنه كان يختار طريقه مختلفًا عن الجميع وهذا هو السر في خلود تأليفاته.

[1] المصدر نفسه، ص 190 و191

وفي معظم الحالات يُعتبر العلامة روم صوفيًا فقط ويُعرفه العالَم بصفة فقره وزهده، وتُعتبر أشعاره (ملحمته) خزينة المعرفة والسلوك التي يذكر فيها العلامة القصص المزيّفة لتفهيم الحقائق والنكات للتصوف وينشد الواعظون أشعارها للمشادة الحفلية ويحرّكون رؤوسهم ولذلك هذه مقبولة جدًا عند جماعة الصوفية، ولكن يزعم العلامة شبلي أن العقائد والأحكام والحقائق والمعارف الإسلامية كلها التي تذكر مع الفضيلة في أسلوب راسخ في الذهن في الحقيقة إنها مباحث لعلم الكلام ولهذا كان العلامة شبلي يعتبر العلامة روم متكلّمًا ذي مرتبة عالية، ولمّا أراد بتأليف الكتب في سلسلة الكلام فألف "علم الكلام" و"الكلام" و"الغزالي" ثم ألّف أيضًا سيرة العلامة روم، وقدّم العلامة الرومي كمتكلم فقط، فهو يكتب:

"إن علم الكلام الحقيقي عندنا هو أن تُشرح العقائد الإسلامية شرحًا وأن تذكر حقائق ومعارفه ذكرًا حتى ترسخ بنفسها في القلوب، وكما أدّى العلامة هذا الواجب لا يمكن أن يوجد له نظير إلا بصعوبة، ولذلك هذا يكون ظلمًا كبيرًا أن يُفصل الرومي عن جماعة المتكلمين."[1]

وأدلى العلامة شبلي بالتعليق البسيط على أشعار (ملحمة) العلامة روم وألقى الضوء على هذه البحوث من العقائد والكلام؛ الإلهيات وصفات الله عز وجل والنبوة والوحي والمعجزة والمعاد والجبر والقدر والتصوف والتوحيد ووحدة الوجود ومنازل السلوك والفناء والعبادة وتجاذب الأجسام وتجاذب الذرات ومسألة الارتقاء وغيرها.

والأسلوب الراسخ في الذهن الذي اختاره العلامة روم في تفسير هذه المسائل جعله العلامة شبلي بطريقته المختصة وبأسلوبه الرائع خمرًا ويكتب العلامة حبيب الرحمن الشرواني:

"إن المآت أو الآلاف من الرجال يمكن أن قرءوه، وقد ألف عشرون تفسيرًا له، وكتب تلخيصه كثيرًا، ولكن (كما يعرف) بصفة كتاب تصوف كان هذا التدقيق وديعًا لنظر العلامة شبلي فقط، أن مثنوي معنوي هو أفضل مجموعة لعلم الكلام.

---

[1] سوانح مولانا روم (المقدمة) ص 3

ويقول ميرزا إحسان أحمد المغفور له:

"برغم قراءة مثنوي ألف مرة لم يستطع أحد أن يشعر بأن العلامة فسّر المسائل الدقيقة جدًا للفلسفة وعقائد الإسلام وراء القصص والأمثال، وكان هذا هو المبحث المستفيض للعلامة فقط الذي عرض أولًا بأول عظمة حقيقية لمثنوي على أولي النظر."[1]

موازنه أنيس ودبير (المقارنة بين أنيس ودبير): إن الأمير أنيس المغفور له لايعرف إلا كشاعر المراثي، ولكن العلامة يذكر في هذا الكتاب أن جميع أشعار الأمير أفضل نمذج لجميع الأصناف الشعرية، ومملوءة بالميزات الخاصة المتنوعة، هذه تدل على عظمته الشعرية بالإضافة إلى طبيعة العلامة شبلي النقدية وذوقه الأدبي الأعلى وسعة نظره ونقده، وهذا كان من حسن حظ الأمير أنيس أن وقع عليه اختيار العلامة فأخرجه من خمول ذكره.

ولإبراز محاسن الأمير أنيس الشعرية قارنه العلامة بالميزرا دبير، وأخبر أنه كان أحط مرتبة منه في الشعر والرثاء، وغضب على ذلك مؤيدو الميرزا ولكن في الحقيقة أنما أرسخه العلامة شبلي من عظمة الأمير في القلوب صار خالدًا.

وفي البداية ذُكر التاريخ الإجمالي للرثاء ثم ما كُتب عن الفصاحة والابتذال والبلاغة وتمثيل القصة والعادة والتعبير والتشبيه والاستعارة وحسن التعليل ونسبة الألفاظ وانتقاد البحر وغيرها مازال ولايزال مسيطرًا على الأذهان حتى الآن.

شعر العجم: إن هذا من أهم مؤلفات العلامة شبلي وهو في الحقيقة تاريخ للشعر الفارسي، ولكن بالرغم من هذا هو عمل أدبي نقدي وعمل خالد للأدب والنقد، وجعلت بهجة قلمه ودقة فهمه "شعر العجم" حديقة مخضرة للأدب والإنشاء، أنظر إلى اقتباس آتٍ:

"هذا أمر طبيعي أن تتأثر الأفكار والنظريات بجوّ البلد ونضارته، وعن هذا الطريق تصل إلى النثر والنظم، إذا ألقيت النظر إلى أشعار العرب الجاهلية وجدت أن شاعريتهم مملوءة بذكر الجمال والصحارى والغابات والفلوات والطرق الوعرة والأطلال الطامسة

[1] حيات شبلي، ص 376

وأسراب الأسمُر والشُجيرات الجبلية، ولكن العرب حينما وصلوا إلى بغداد صارت أشعارهم مجموعة من الحديقة المخضرة ونضارتها، إن إيران حديقة مخضرة طبيعية والبلد كله مملوء بالأزهار ويوجد هناك ماء معين ومرعى وسلّالات على كل خطوة، حينما يأتي الربيع تصير الأرض مليئة بالزمرد، وإنّ هبة نسيم الصبا وإعصارة الرائحات واخضرار المراعي وتغريد البلابل ورقص الطواويس وضجيج الشلّالات هذه هي الجوّ الذي لا يمكن وجوده في أي مكان إلا في إيران، وأثرت هذه الحالة عليها حتى سيطرت صبوغها على جميع كتابة الإنشاء الفارسي."[1]

والحسن الحقيقي لـ"شعر العجم" هو حسن اختيار أشعاره التي يعرضها العلامة من أشعار الشعراء على إثبات دعاويه الأدبية والنقدية ويرغب منها إلى الشعر الفارسي وينتج ذوقًا صحيحًا وجيدًا لفهم الشعر.

ويكتب مهدي إفادي ردًا على نقّاد "شعر العجم" أنه ليس بدفتر الأحداث بل هو صحيفة للحسن والعشق وتعليق نقدي للغة الفارسية، ويزعم أن "شعر العجم" أفضل نموذجٍ للنقد العالي، وليس في اللغة الأردوية فحسب، بل في أية لغة شرقية، لا يوجد تأليف من هذا النوع وهذه الدرجة، وهذا مجموع جميل "للأدب العاطفي من أحلى لغة للعالم.[2]

وألف شعر العجم قبل مائة عام تقريبًا وكما يزعم البروفيسور نذير أحمد: أن المواد الكثيرة قد أدخرت باللغة العربية التي لم يبلغها العلامة ولكن بالرغم منها لم يظهر كتاب مثل شعر العجم إلى حيز الوجود على الموضوعات التي أحاط بها "شعر العجم"، ويعتبر هذا التأليف لشبلي أول نقشٍ لحد الآن.

مكاتيب: لرسائل شبلي أهمية كبرى علمًا وأدبًا، ولها قيمة خاصة بسبب طراوتها وبدعتها وأسلوبها الأنيق وقبل ذهابه إلى عليكرة كان يكتب معظم رسائله في اللغة الفارسية وهو

---

[1] مقالات إحسان ص 94

[2] شعر العجم، 4/ 177

كان يحبّ الرسائل الفارسية كثيرًا كما كان يحب شعره الفارسي، وهو يريد أن ينشر مجموعته ولم يكن يهتم بأشعاره الأردوية، وحينما أراد المولوي رشيد الدين الأنصاري المغفور له ابن خاله وأخ العلامة حميد الدين الفراهي جمع رسائل العلامة في اللغة الأردوية، كتب إليه "إن هذه الرسائل تكون فارغة من اللذة فلم تجمعها، وبما أني لا أتذوّقها فكيف يمكن أن يتذوقّها أحدٌ،" ولمّا أعلن سيد سليمان الندوي في مجلة "الندوة" عن جمع رسائله لم يستحسنه.[1]

ولكن في الواقع أن الميدان الذي خاض فيه العلامة شبلي ترك فيه نقش ظهوره الرائع وعظمته المميزة وتوجد هذه العظمة المميّزة في رسائله في اللغة الأردوية، ويقول العلامة سيد سليمان الندوي: منذ البداية إن رسائله كانت مألوفة إلى حد حتى كان أحباءه القدماء الوطنيون وتلامذه يجعلونها محببة لديهم.[2] ويقول المهدي إفادي: "إني كنت أجد رسالة العلامة في يوم ما فكان لي قراءته راحة لا أنساها قطّ."[3]

وكانت رسائل العلامة ذات أهمية أيضًا لأن وقائع حياته وتفاصيل نشاطاته توجد فيها، وكلما واجهه في حياته من الرفع والخفض، الفرح والحزن يملأ رسائله، وفيها توجد أيضًا قصة نشاطاته العلمية والتعليمية والسياسية والقومية والذاتية وغير الذاتية، وفيها توجد جميع تفاصيل لخططه ومطامعه وأعماله الكلية التي كان يفعلها أو كان يريد أن يفعلها، والرسائل التي كتبها إلى تلامذته كان الغرض المنشود بها أن يدربهم علميًا وعمليًا وأن يشجعهم، وكان الاستيلاء الحقيقي في كون رسائل العلامة هامًا من كتابته النثرية والأدبية، فيكتب المولوي عبد الحق:

"إن بعض تأليفاته سيُقرأ بالرغبة إلى مدة طويلة وتشملها رسائله أيضًا والتي هي بمنزلة خالدة لأنها خالية من التصنع والتكلّف، وهي آثار من المشاعر والأفكار القلبية التي قطّرت

---

[1] معارف (مقالة مجتمع شبلي)، 2/ 12/ 20 و21

[2] معارف، يناير 1980م/13/1

[3] مكاتيب شبلي، 5/1

مرتجلة من قلمه، وصور صادقة بعدم الرياء والإخلاص، لا تستخدم التصنعات الأدبية والتدابير الكتابية في أداءها مطلقًا ومن ثم إنها ستبقى على الحياة إلى الأبد وتستهوي قلوب القرّاء وستُبقي رغباتهم جدّةً.

وقد ذكر الناقد الشهير باللغة الأردوية آل أحمد سرور النقش الأدبي لرسائل العلامة هكذا:

"بدون دراسة رسائل شبلي يمكن أن تبلغ عالمًا ومؤلفًا ومولويًا ولكن لا يمكن أن تبلغ شبلي الذي خوّل بظرافات حلمه ووقاحات شعره بهجةً ورِفعةً في الأدب الأردوي."

وطُبع جزءان من رسائل شبلي من دار المصنفين شبلي أكادمي، وأبدى المولوي عبد الحق البروفيسور سرور انطباعاتهما عن رسائل شبلي المرتبة من منشي محمد أمين الزبيري، ورسائل هذه المجموعة المكتوبة إلى عطية فيضي والسيد زهرا اللتين حصلتا على التعاليم العليا من مومبائ وكانتا تحبان العلم، ورغب العلامة فيهما بسبب حبهما للمذاق العلمي والأدبي وللعلوم والفنون، وهو كان يريد بإرشادهما إلى التدريب نفسيًا وعقليًا وعلميًا وتعليميًا، وكان سيد صباح الدين عبد الرحمن المغفور له يقول ناقلًا عن قوله إلى البروفيسور رشيد أحمد صديقي كما يوجد في المجتمع رجال عيارون يوجد أيضًا رجال عيارون في مجتمع الأدب الذي يفهمون جميعًا "بو الهوس" (صاحب الهوى) مثلهم.

وكل مكتوب للعلامة – وإن كان مكتوبًا إلى أيّ شخص – لم يخل من الجمال الأدبي، ولكن الدكتور سيد عبد الله قد كتب "إن كل رسالة له زهر غفران فيها رائحة جنة الفردوس". وأبرز مميزة رسائل العلامة هي الارتجال والبساطة، ولكن برغم ذلك إنه لا يترك شأنه العلمي ورزانته الفخمة ودائمًا يراعي مَرْتبة المُرسَل إليه.

إن ميزة لرسائله هي امتزاج لطيف ولذة للمزاح لا يدخل فيها الابتذال والفتاكة، ومتّعت قوة فهمه بالفقرات من المزاح.

وعلى وجه العموم تكون رسائل العلامة وجيزةً ولكن تبرز كتابة في النثر وفضل البلاغة وعذوبة الأسلوب ونضارته في كل مكانٍ، ويسحر ببضعة ألفاظ، وإن الإيجاز هو ميزة

لكتابته ولكن الإيجاز الذي يوجد في مكاتيبه، يمكن أن يقال لها "روح الإعجاز" كما قالها الدكتور سيد عبد الله، ما كان لفظ واحد من رسائله زائدًا أو عبثًا وغير نافع، ويكون فيها تأثير بديع بفضل الألفاظ الملائمة والضرورية وهو يملأ رسائله بالحلاوة والحقيقة من فقرة نقدية وبيت شعر واستعارة وتركيب وسخر ومزاح.

وكان يكتب أكثر رسائله بدون ألقاب كأنه يتكلم على الأوراق وهو كان يكتب بعض مكاتيبه على سبيل المحادثة، ويعتبرها أيضًا محادثة فكان هذا بفضل أثر "غالب" كما يقول مهدي "لو كان غالب حيًا لينال التشجيع والاستحسان للغته الأردوية الخاصة"، لأن العلامة أبلغ الرسالة إلى مستوى الحوار كما فعل غالب نفسه.

الشعر: المجال الخاص لجمال العلامة الشعري هو غزله وقصائده في اللغة الفارسية، وهذه هي أفضل درجة مقارنة بشعره في اللغة الأردوية خصوصًا تذكّر سكرانه وتلوّن مزاجه وفكاهته وحماسته وطربه وخياله اللطيف ووقاحة وجمال بيانه وقوته البلاغية وجودته وفصاحته في غزله بخواجه الحافظ، وأثنى عليه العلامة حالي: يبدو أن يوجد هناك في الغزل منظر بهيج من إيران كليًا والذي نُظم في الجوّ المحمّس والمطرب من مومبائي.

واختبر العلامة ذكاءه في جميع الأصناف تقريبًا باللغة الأردوية، كما قال العلامة عبد الماجد الدريابادي في "صبح أميد" (صبح الأمل) إنه قليل قدرًا وكثير قيمةً ومثل غلزار نسيم[1] ومثل أنشودة شوق[2] متغنيًا.

والمنظومات التي نظمها على الموضوعات السياسية فكثير منها أكثر تأثيرًا وأكثر فتانة بنفث السم، والمنظومات التاريخية والدينية والأخلاقية أيضًا ثروة غالية من الأدب الأردوي، وهو كان ماهرًا في نظم الأعمال المفتخر بها في أشعاره، وهناك تأثير كبير في تلك المنظومات، وقد كتب العلامة الرثاء لبعض الأشخاص وخاصة كلها في اللغة الفارسية

[1] مجموعة شعرية للشاعر نسيم

[2] الشاعر الكبير

وما قاله في وفاة أخيه الصغير محمد إسحاق الذي كان محتلًا على منصب المحامي في المحكمة العالية في إله آباد من الرثاء المثير الحزن فيعد من أفضل مراثي اللغة الأردية.

حسن الأسلوب: إن الجمال الحقيقي في الكتابة والخطابة هو التأثير والجذابة، وبها تدوم التأليف ويخلد، فلذلك يكون حسن البيان ضروريًا كما تكون روعة الخيال لبلوغ الأدب والإنشاء مستوى الكمال، وعلى هذا يُعدّ العلامة شبلي أديبًا أريبًا وكاتبًا كبيرًا لأن يوجد في تحريره حسن الأسلوب والجذابة وفي بيانه كمال الجمال والخلابة ولأجل الإيجاز نذكر بعض ميزاته فقط:

1. وتوجد الوسعة والتنوع في الموضوعات التي كتبها، ومع ذلك يوجد في كتابته – أ كانت في أي موضوع – سيلان وغضاضة ونضارة ويوجد فيها أيضًا أثر خاص وجذب، وهو ممتاز علنًا في هذا الوصف من المؤلفين الآخرين ومعاصريه، وهذا يتضح بالمقارنة بين كتابات الآخرين على موضوع (بما كتب العلامة وبما كتب الآخرون على موضوع واحد)، ولا يوجد التنوع عند الآخرين كما يوجد عن العلامة.
2. ويَعتبر العلامة شبلي العلامة محمد حسين آزاد أكبر أديب إنشائي، ويكون فيه الإتيان الكثير والقوة للغاية والسلاسة البديعة، ولكن ما يكون من الخفض والرفع والمقارنة والجزالة في كتابات العلامة مفقود عند العلامة آزاد، وتزداد لذة السلاسة للمولانا شبلي في وقت آنذاك عندما أضاف آية أو بيت من الشعر في كتابة.
3. وكان العلامة شبلي ماهرًا للغاية في استخدام التراكيب الفارسية، وبهذا السبب كانت كتباته تحتوي على القوة والسلاسة والتأثير الكبير جداً، وكيف استخدم التراكيب البديعة والاستعارات الرائعة للغة الفارسية في "ظهور قدسي" ارتجالًا فصارت العبارة مطربة وراسخة في الذهن والقلب.

4. والارتجال هو أهم جمال لتحرير العلامة، وهو لا يعتني بالتكلف بل هما يأتيان بنفسهما، وهو يقول كل قول ارتجالًا هكذا حتى لا يبدو لفظ واحد زائدًا وغير ضروري، وعلى الرغم من الارتجال تبقى عظمة الكتابة وجمالها.
5. والسذاجة هي ميزة خاصة أيضًا لكتابة العلامة، وهي تكون خالية من التصنع والصنعة، وبالرغم من هذا يكون فيها حسن وجمال وجذب.
6. الإيجاز هو أهمّ ميزة للعلامة، والأشياء التي كتبها الناس في صفحات كثيرة متعددة كتبها العلامة في بضعة سطور فقط ولكنه مع ذلك لم يقع خلل في التعبير عن الموضوع في أي مكان، وحينما يكتب عن واقعة فهو يكتب عن الأصل ويترك الحشو، ويهمل عن الرطب واليابس والأشياء البسيطة والعابرة إهمالًا تامًا، ويركز القلم فقط على الأجزاء المفيدة والضرورية والموثوق بها، ومع ذلك أنه لا يترك ملاحظة ما.

وهو يذكر الأحداث الطويلة والمفهوم الواسع بالألفاظ والاستعارات حتى لا يحتاج إلى التطويل والإطناب وواقعة قبول الإسلام لعمرd واقعة عظيمة في تاريخ الإسلام فكتبها المؤرخون العاديون وعلماء الطبقات موسّعين ذكره ولكن العلامة كتبها بالإيجاز المقنع المؤثر.

وقد أوجز العلامة تصوير رهبة وهيبة عمرd إيجازًا شديدًا، ولكنه مع ذلك كل ما أنشأه ببضعة جمل لا يمكن إنشاؤها بالمآت من الصفحة وبتلك القوة التي نراها ونشعر بها في كتابة العلامة ذاتها.

"إن الإسكندر والتيمور كانا يخرجان مع ثلاثين ألف جيش فيخيّم هذا المنظر هيبتهما ولكن ما كان لعمرd هذا النوع من الهيبة سوى جمل للركب إلا أن الضوضاء التي كانت في كل جانب بعد مغادرته للمدينة لم يقلّ من هيبة هذين الملكين."[1]

[1] مكاتيب شبلي، 5/1

المصادر والمراجع

1. إحسان دانش: مقالات إحسان، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1968م
2. جريدة "آزاد هند" اليومية الصادرة عن كولكاتا
3. حبيب الرحمن الشيرواني: مقالات الشرواني، مطبعة الشرواني، جامعة عليكره، 1947م
4. العلامة سيد سليمان الندوي: حيات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1983م
5. العلامة شبلي النعماني: الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي، 1998م
6. العلامة شبلي النعماني: الفاروق، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1956م
7. العلامة شبلي النعماني: أورنك زيب عالمغير بر ايك نظر، 1999م
8. العلامة شبلي النعماني: سوانح مولانا روم ، مطبعة معارف، أعظم كره، الطبعة الجديدة
9. العلامة شبلي النعماني: سيرة النبي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2003م
10. العلامة شبلي النعماني: شعر العجم، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1951م
11. العلامة شبلي النعماني: مقالات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1951م
12. العلامة شبلي النعماني: مكاتيب شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1966م
13. مجلة "معارف" الصادرة عن دار المصنفين، أعظم كره، الهند،

العلامة شبلي وعلي كره

- أ. د. ظفر الإسلام الإصلاحي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

من العامّ السائر أنما بدأ به السير سيد أحمد خان من الحركة التعليمية لإصلاح المسلمين الاجتماعي ورفاهيتهم الاجتماعية أبرز آياتها كانت مدرسة العلوم أو الكلية (MAO College) التي تأسّست في 1875م وفي 1877م أصبحت كلية وفي 1920م نالت درجة الجامعة لها سمعتها الدولية. ولا شك أن هذا المعهد كان يستهدف للعناية بالتعليم العصري للمسلمين وترويج العلوم الجديدة فيهم ولكن مؤسسها، لأجل سعة فكرته التعليمية، قد اعتنى بألسنة الشرق وعلوم الإسلام منذ فجر تاريخها جنبًا بجنب العلوم الجديدة لكي يمكن بها مزج العلوم القديمة بالجديد منها[1]، وبناءً على هذا فقد وظّف فيما بين هيئة الكلية التدريسية أبرز علماء اللغة العربية والفارسية وعلوم الدين والتاريخ الإسلامي بجانب توظيف المهرة في العلوم الجديدة من الفلسفة الجديدة والعلوم فكان السير سيد أحمد خان يودّ أن يتم توفير أحسن تسهيلات التدريس والتدريب للطلاب في القديم والجديد من العلوم أو علوم الشرق والغرب ويظفروا بفرص ذهبية لتجلية مؤهلاتهم في مختلف المجالات وكان يشعر ببالغ الفرح والسرور حينما يرى هذا المعجون الجميل من الأساتذة المهرة في العلوم القديمة والجديدة وكان يرى مفخرة للكلية وجود هؤلاء العلماء الأفاضل الميمون، وسنقدّر بما قلنا ما كتبه عند خيال الشاعر حالي عن إقامته المؤقتة في رحاب الكلية والتي نشرت في مجلة الكلية (Institute Gazette) ولنر نلقِ نظرة سارحة على جزء منها:

---

[1] راجع للتفصيل: سر سيد اور قديم وجديد تعليم كا امتزاج (السير سيد وامتزاج الجديد بالقديم من العلوم)، مجلة "تهذيب الأخلاق"، 10/14، أكتوبر، 1995م، ص 32-43

"هل يسرّنا أكثر من أن يجتمع في رحاب كليتنا المولعون بالعلم البارعون في مجالاتهم الخاصة فيجعلوا هذه الكلية مفخرة ومحتلًا للبارعين والحاذقين فما أفخر تلك البقعة من الأرض حيث يجتمع المهرة في العلم والشعر والتاريخ والأدب وما أفخر قوم يرى أبرعهم في مجالات العلم إقامتهم في مكان سهل به لهم إفادة أبناء وطنهم وما أسعد حظًا تلك الفتية الذين يتمتعون من صحبة أفخر قومهم وأروعهم في مختلف المجالات العلمية والفنية"[1].

وكان يشمل هؤلاء الأساتذة الذين كانت تفتخر بهم الكلية العلامة شبلي النعماني الذي ثوى برحاب كلية علي كره والذي قد قال عنه السير سيد في نهاية تلك الكتابة التاريخية:

"والآن تفتخر كليتنا بوجود السيد آرنولد والذي أجدر بأن نسمّيه بالشيخ آرنولد والشيخ حالي والشيخ شبلي ونرجو أنها تفتخر بوجود غيرهم من العلماء الأفاضل في المستقبل"[2].

قد انسلك العلامة شبلي، بصورة منتظمة، بهيئة الكلية التدريسية في 1883م ولكن عائلته لم تكن تلمّ بحركة السير سيد أحمد قبل هذا بكثير فحسب بل قد أثرت هي فيها فقد كان السير سيد مقيمًا بالمدن الشرقية لاسيما غازيفور وفارانسي لمدة غير قصيرة ولم يزل يعرّف الناس بحركته عن طرق مختلفة، ولا يجانبنا الصواب لو قلنا أنه أوّل ما بدأ به من الحركة الشهيرة بهذه المنطقة وزدْ على ذلك زيارة مختلف مناطق هذه الديار لا سيما مديرية أعظم كره لجمع التبرّعات لكليته خلال مختلف مراحل إقامتها والتقى مع أهاليها[3]. وممن تأثر بحركته في هذه الديار أبرزهم الشيخ حبيب الله والد العلامة شبلي النعماني والذي كان يرغب في رفاهية الناس بجانب اشتغاله بالمحاماة، ومتأثرًا بهذه الحركة قد ألحق وسط أولاده محمد إسحاق بهذه الكلية ولما سافر إلى علي كره ليلتقيه

---

[1] إنستيتيوت غزت، 4/53/28، يوليو، 1893، ص 648 وانتخاب مضامين علي كره إنستيتيوت غزت، ص 82

[2] حيات جاويد، ص 172، 175-176

[3] إنستيتيوت غزت، 4، يوليو، 1893م، ص 648

في أكتوبر 1881م فذهب إليها بولده العلامة شبلي. وهذه هي الرحلة التي لقي فيها العلامة شبلي السير سيد مباشرة وخلال لقائه قدّم إلى جنابه قصيدة بالعربية قد أحبّها شديدًا ونشرها بتعليقه المقدّر في عدد 15/ أكتوبر، 1881م لمجلة الكلية[1]. وكذلك نشر خبر قدوم العلامة شبلي ووالده في الكلية بكلمات جلية والذي ذكر فيه العلامة بألقاب "أديب، أريب، ذو المجد والفضل"[2]. وبعد رحلته إلى علي كره هذه بسنة ونصف تقريبًا توظّف العلامة شبلي بالكلية كأستاذ للفارسية وأستاذ مساعد للعربية على راتب شهري قدره 40 روبية هندية[3]. ولو أن وظيفته قد وصّى بها السيرَ سيد أحمد خان الشيخ فيض الحسن السهارنفوري (معلّمه ومعلمّ السير سيد أحمد) وأقرب رفقاء السير سيد الشيخ سميع الله خان[4] ولكن لا ننكر ما أثّر في السير سيد خان أول لقاء العلامة النعماني. وعلى كل حال فقد جعل العلامة يدرّس في الكلية منذ الواحد من فبراير، 1883م[5] وبعدها بثلاث سنوات توظّف أستاذًا للعربية بعد وفاة أستاذها للعربية الشيخ محمد أكبر ومنذ ذا زيد راتبه الشهري ثلاثين روبية هندية[6]. ويبدو من بعض الإشارات الموجودة في رسائل شبلي ومن مصادر حياته الأخرى أن راتبه الشهري قد ازداد حتى 100 روبية هندية في الفترات الأخيرة ولما استقال عن وظيفته في يونيو 1898م كان هذا آخر مبلغ راتبه الشهري[7]. وحين وصوله بعلي كره نزل العلامة شبلي بدار نائب جابي الضرائب لعلي كره وأحد أهالي دياره محمد كريم (من أهالي محمد آباد غوهنه، أعظم كره) ولا يخلو من الإمتاع لو ذكرنا هنا أن الجلسة الافتتاحية لقيام مدرسة العلوم المنعقدة في 1875م قد انعقدت تحت رئاسة هذا الرجل الكريم، وبعد أسابيع تركها العلامة وسكن

---

[1] المصدر نفسه، 5، أكتوبر، 1881م، ص 1175-1176

[2] المصدر نفسه، ص 1175

[3] آپ بيتى، ص 42

[4] مجلة "الإصلاح"، يناير، 1937م، ص 50

[5] مكاتيب شبلي، 240/2

[6] Aligarh's First Generation، ص 191

[7] مكاتيب شبلي، 142/1

في دار اكتراها هو وأخوه والآخرون من ذوي قرباه. كانت هذه الدار قد اكتراها على خمس روبيات على الجهة القصوى من المدينة وقد فصّل ذكره كله في رسالة كتبها إلى أحد أعزته[1]. وبما أن هذه الدار كانت بعيدة من الكلية بعدًا كثيرًا فلن تكن تجمل بإقامته فكان يعاني الكثير من المشقة في الإياب منها والذهاب، ولعل السير سيد أحمد خان كان يشعر بها فوهب العلامة قصرًا محليًا ضيّقًا في فناء قصره المحليّ الواسع لكي يقيم به، الأمر الذي قرّبه من السير سيد أحمد ووفّر له فرصًا مختلفة لتبادل الآراء والأفكار في مختلف الموضوعات فيقول أحد ذوي قربى العلامة وتلامذته زمن تدريسه بها:

"وفي نهاية الأمر قد وهب السير سيد أحمد قصرًا محليًّا ضيقًا بجواره ومنذ ذا جعل العلامة يقيم به حتى مغادرته لها، وهذا القرب المكاني قد مهّد السبيل إلى التقرّب الروحي وعلى مرّ الأيام والأسابيع اشتاق السير سيد أن يتبادل الآراء مع العلامة حتى جعل يحضر مجلسه العلامة كلّ يوم وحينما غاب عنه دعاه السير سيد"[2].

وأكبر فائدة نالها العلامة شبلي بتقربه إلى السير سيد أنه وجد الفرصة للاستفادة التامة من مكتبته الغنيّة والتي أعانته في كتاباته المستقبلية لاسيما فيما كتبه عن التاريخ ولقد أثنى العلامة شبلي على هذا الجانب من جود السير سيد أحمد قائلًا:

"قد سمح لي السير سيد عن مكتبته وعلى هذا فقد وجدت فرصة ذهبية لقراءة الكتب. في مكتبة السير سيد مؤلفات عن تاريخ العرب وجغرافياهم لا يعرفها كبار رجالنا وهي كلها نشرت في ألمانيا وهي لا تتوفّر حتى لعلماء مصر"[3].

والفصول التي أعطيت للعلامة شبلي في هذه الكلية قد ذكرها في رسالة فارسية كتبها إلى أخيه الوسط:

---

[1] المصدر نفسه، 240/2، 255، 53/1-54

[2] مجلة "الإصلاح"، يناير، 1937م، ص 51

[3] مكاتيب شبلي، 56/1-57

"أذهب إلى الكلية منذ الواحد من فبراير (1887م) وأدرّس بها اللغة الفارسية في البكالوريوس في الفنون والفنون اللطيفة والعربية في الثانوية كما أعلّم المادة الاختيارية للعربية"[1].

وما هي الكتب التي كان يدرّسها العلامة شبلي في هذه الفصول لم نظفر بتفاصيلها إلا أننا نجد ذكر درة نادرة وديوان عرفي في رسالة له فارسية[2] كما ذكر بعض تلامذته انضمام قصائد قا آني في المقرّرات الدراسية لبكالوريوس[3]. كان العلامة شبلي بالغًا من العمر 25 سنة حين توظيفه بالكلية ولا يخلو هنا من التمتع ما رواه مير ولايت حسين من الواقعة أن العلامة شبلي كان يبدو فتًى لصغر سنه مع أنه كان أستاذًا في الكلية فكثيرًا ما كان الطلبة يطلبون منه إنشاد القصائد فيلبّي دعوتهم وهو من وراء باب مغلق للفصل[4].

وبجانب تدريس المواد العربية والفارسية فكان العلامة يدرّس القرآن طلبة بعض الفصول الأخرى ويبدو من تبادل الرسائل العديدة بينه وبين السير سيد أن هذه الخدمة قد فوّضت إلى العلامة بصورة منتظمة وكان دوام مخصوص له يوميًا[5]. وكذا يبدو من هذه الرسائل التي كتبت في يناير 1895م أن العلامة كان يودّ فيما بعد أن يحمّل هذه الخدمة مدير أصول الدين الشيخ عبد الله الأنصاري فهو يكتب إلى السير سيد معربًا عن هواه هذه:

"سعادة المدير! تحية طيبة، وبعد فالشيخ عبد الله الأنصاري رجل عالم وروحي فيناسنا أن تحمّل مسئولية ترجمة القرآن لطلبة الكلية، التي كنت أنا مسئولًا عنها، تحمّل الشيخ المذكور أعلاه فإن الطلبة يتباركون بشخصيته بجانب تلقّي العلم الجيّد منه"[6].

---

[1] المصدر نفسه، 240/2

[2] المصدر نفسه، ص 255

[3] نذر عقيدت، ص و (من المقدمة)

[4] آپ بيتى، ص 42

[5] مجلة "معارف"، أغسطس، 1919م، ص 152-153

[6] المصدر نفسه، ص 152

وفي جانب آخر فكان السير سيد يصرّ على أن يواصل العلامة أداء هذه الخدمة فاعتذر العلامة إليه شغله الشاغل أو فراغه لخدمات علمية أخرى[1]. وعلى كل حال فهمّنا بهذا الشأن أن الطلبة كانوا يرغبون في تدريس القرآن من قبل العلامة شبلي كما يؤيد ما قلنا أقوال تلامذته في تلك الفترة فيقول الشيخ محمد علي إنما وُفِقَ هو من ذوق القرآن يتعلق بتلك الفترة[2]. ولا يخلو من المتعة هنا أنما شكاه أرباب حل وعقد الكلية بالنسبة عن العلامة أنه يمتّع دروس الإسلام ببلاغته إلى درجة أن الطلبة لا يلتفتون إلى غيرها من المواد[3].

وكذا دروسه للعربية والفارسية كانت ممتعة ومؤثرة فما وجد من ذوق الشعر والأدب في الشيخ ظفر علي خان وخوشي محمد ناظر والسيد سجاد حيدر يلدرم ومسعود علي المحوي وغيرهم من المتخرجين من كلية علي كره يرجع فضله إلى دروس العلامة أو جلسته العلمية والأدبية[4] وزدْ على ذلك إفادته لغير تلامذة الكلية من طلبة مدرسة المفتي لطف الله لاسيما من كان له رغبة في الأدب العربي فكانوا يستفيدون من العلامة شبلي ويرفعون ذوقهم الأدبي ومن مثل هؤلاء الطلبة الشيخ ماجد علي[5]. وبجانب تمتيع الدروس والتأثير في طريق التعليم فقد كان العلامة يلتزم بالوقت في حضور الفصول فيقول السيد سليمان الندوي: حينما كنت في علي كره كنت أسرع إلى الفصل حين رنّ جرس الكلية حتى كنت أوذي قدميّ لذلك[6] --- وقد كانت فترة العطلة الصيفية في ذلك الزمن ممتدة لشهرين ونصف وكانت السنة التعليمية الجديدة تبتدئ من الخامس من شهر يونيو كما صرّح العلامة بذلك في بعض رسائله[7]. وقد كان حضور اليوم الأول

---

[1] مكاتيب سر سيد، ص 237-239

[2] My Life- A Fragment، ص 32-35

[3] المصدر نفسه، ص 319

[4] نذر عقيدت (مقدمته)

[5] حيات شبلي، ص 123 ومكاتيب شبلي، 191/1

[6] حيات شبلي، ص 777

[7] مكاتيب شبلي، 80/1

لاستئناف الدروس في الكلية مهمًّا للغاية فكان يعتذر لو دعي إلى حضور جلسة أو حفلة في ذلك اليوم[1]. وكذا كتب في موضع من رسائله أنه يبقى مشغولًا بأمور الكلية في بداية الفترة التعليمية[2]. فيبدو من ذلك أنه كان مسئولًا عن شئون الالتحاق بالكلية.

وكان العلامة شبلي قد ساهم في إعداد المقرّرات الدراسية للكلية فقام بكتابة رسالة بالعربية عن سيرة النبي بعنوان "بدء الإسلام" على طلب من السير سيد أحمد خان[3] والتي تم تقريرها في مقرّرات المنهاج الدراسي للعلوم الإسلامية وفي نفس الفترة قام الإمام عبد الحميد الفراهي بترجمته الفارسية وهي كذلك صدرت من المكتبة التابعة لمدرسة العلوم بعلي كره[4]. وتعزى ترجمة لها أردوية إلى الشيخ عبد الله الأنصاري مدير العلوم الدينية آنذاك وهي باسم "آغاز إسلام"[5] وكذا ترجمها ميمونه سلطان شاه بانو بوفال إلى الأردوية بنفس العنوان والتي صدرت من مطبعة رحمانية بدلهي في 1243هـ[6]. وليتضح هنا أن السير سيد أحمد خان قد اعتنى بإعداد المقرّرات الدراسية عن العلوم الإسلامية بالعربية والفارسية والأردوية نظرًا لمؤهلات الطلبة[7] وكذا أعدّ العلامة شبلي منهاجًا دراسيًا جامعًا للغة الفارسية وآدابها للثانوية لجامعة الله اباد والذي طبع بعنوان

---

[1] المصدر نفسه، 319/1

[2] المصدر نفسه، 196/2

[3] حيات شبلي، ص 149، 702 ومقالات شبلي، 13/2

[4] توجد هذه الترجمة الفارسية في القسم الفارسي لمكتبة آزاد وللبحث المقنع عنها راجع مقالة الدكتور شرف الدين الإصلاحي المطبوعة في مجلة "فكر ونظر" (إسلام اباد)، 12/18، يونيو، 1981، ص 26-44

[5] مقالة "اي ايم يو ميں دينيات كي تعليم، ايك تاريخي جائزه (دراسة تحليلية تاريخية لتدريس العلوم الدينية في كلية علي كره الشرقية)، مجلة "تهذيب الأخلاق"، 4/10، أبريل، 1991م، ص 23

[6] توجد هذه الترجمة الأردوية في مكتبة "إداره علوم إسلاميه" التابعة لجامعة علي كره الإسلامية.

[7] مكاتيب سر سيد، ص 322-325

"انٹرمیڈیت کورس فارسي" من مطبعة العلوم بعلي كره في 1897م[1]. قد كانت كلية إيم إيه أو بجامعة الله اباد لأداء امتحان ذلك الفصل.

وبجانب تدريس العلوم والفنون فقد كان العلامة يهتم بتربية الطلبة الدينية والخلقية وتحسين حياتهم الداخلية فقد كان يبذل قصارى جهوده لخلق الجوّ الديني في الميدان كما كان يشجّع ما كان يقوم به الطلبة أفرادًا أو جماعات من محاولات في هذا الجانب من التربية ويمكن تقدير هذا من إحدى رسائله إلى أحد ذوي قرباه، التي أعرب فيها عن سروره بما قام به لجنة الصلوة من خدمة جيدة لإقامة الصلوة فهو يقول:

"افتخر بأني مساهم في نشأة هذه الحياة الجديدة ولقد كتب لي أن أعين في إثارة هذه العاطفة الدينية"[2].

وقد كان متعوّدًا على أن يلقي محاضرات عن الإسلام ومبادئه فيما بين الطلبة في حين لآخر ولقد كان العلامة شبلي الذي أوجد تقليد الاحتفال بالسيرة النبوية في رحاب الكلية فقد كانت هذه الحفلة تعقد أولًا بدار العلامة بصورة ضيّقة للغاية وهو كان يلقي خطابًا ما عن السيرة فلما رأى الطلبة يرغبون فيها عقدها على نطاق واسع فانعقدت أول جلسة عامة في رحاب الكلية على يديه في 1891م في "سالار منزل" (دار سالار) ثم أقيم تقليد عقدها في "استريتشي هال" (قاعة استريتشي)[3]. ولقد كانت العناية بحياة الطلبة الداخلية وتربيتهم الخلقية موكلة مباشرة إلى مدير السكن ومدير العلوم الإسلامية ولكن العلامة شبلي كان بنفسه يهتمّ بها فبجانب التأثير في الطلبة عن طريق خلقه الأعلى ومعاملته الحسنة وخدماته العلمية فقد كان يشير عليهم ما بإمكانه تحسين حياتهم الداخلية ويقوم بكشف القناع عن مساوئهم كما كان يشجّع جانبهم الجميل من

---

[1] يوجد هذا الكتاب في القسم الفارسي لمكتبة مولانا آزاد

[2] مكاتيب شبلي، 1/146-147

[3] آپ بيتى، ص 93، وحيات شبلي، ص 149

الأخلاق والمعاملات وفي هذه الفترة وفّق أن يزور مدرسة أحمدية (آره) لصاحبها الشيخ إبراهيم الآروي وقد كانت تلك المدرسة تعتني بتعليم اللغة الإنجليزية كما كان لها سكن للطلاب فأراه الشيخ الآروي سكن المدرسة بوجه خاص فدعاه العلامة شبلي إلى زيارة كليته في علي كره وقال: عندما ترى سكن كليتنا تقدر به علوّ فكرة الطلبة وحسن معاملتهم[1]. في 1892م زار العلامة شبلي تركيا فأمعن النظر في نظم إقامة الطلبة فيها فكتب إلى أبيه ما أعجب به:

"لقد سرّني ميزة لهذه الكلية وهي أن لكل كلية زيًا خاصًا وقد كتب اسم كل كلية على ياقة كل معطف لقد سررت أيما سرور من هذا. لم لا نختار هذه الطريقة في كليتنا فلو حدّد السير سيد زيًا لكليتنا ولا يتذبذب في هذا لكان خيرًا لها"[2].

وفي نهاية هذه الرسالة طلب من والده أن يرسل نسخة من هذه الرسالة إلى السير سيد المحترم ويجمل بنا هنا أن نذكر أن السير سيد قد أحبّ أن يلبس الطلاب زيًا خاصًا يشمله قلنسوة تركية ومعطف وأحذية إنجليزية ولو أنه لم يتم تنفيذه كزيّ في تلك الفترة وفيما بعد آمن بهذه الفكرة أن يكون معطف وحيد اللون والشكل لكل طالب لكليته كما صرّح به ملقيًا خطبته عن الحياة في الكلية في 1894م:

"وما تلبسه من القلنسوة التركية والمعطف والأحذية الإنجليزية هي أجود ولا فرق سوى أن معطفك أحمر يافع فيختر كل منا معطفًا ذا لون موحّد"[3].

وهكذا فقد ثبت أنْ قد جعل يكتب اسم الكلية على المعطف التركي وهو قد جاء بنقش الكلية من دلهي ولو أنه ليس بإمكاننا أن نقول إن هذه السلسلة قد بدأت على اقتراح من شبلي إلا أن القرائن تدل على أن هذه السلسلة قد بدأت بعد رجوع العلامة شبلي من تركيا. وكذا ارتضى شبلي عن قيام الطلبة في سكن كليات تركيا بحيث ليس بإمكان

---

[1] حيات شبلي، ص 308-309

[2] مكاتيب شبلي، 1/12-13

[3] خطبات سر سيد، 2/249-250، وحيات جاويد، ص 247-248

واحد أن يفرّق بين غني وفقير وبالعكس من ذلك فقد أعرب عن قلقه على فقد التشابه والتعادل في ملابس طلبة كلية علي كره ومطاعمهم وطرق عيشهم فأصرّ على أن يغيّر هذا الوضع فهو بنفسه يقول:

"كنت أتذكّر مدرستي (مدرسة العلوم) حينما شاهدت حياة الطلبة الأتراك السكنية فكنت أتأسف على وجود الفرق هنا في كليتنا --- فأصرح عن أنما نحتاج إليه بشدة في كليتنا الوطنية هو أن نخلق التشابه والتعادل في ملالبس ومطاعم وحجرات وأثاث الطلبة وأن نقضي على التفريق المتواجد في كليتنا فإن لم يكن هذا فلا نتمتع من روح الوطنية فيها"[1].

وبجانب جهود العلامة شبلي لتحسين حياة الكلية فقد كانت رغبته في الالتزام بالتقاليد الشرقية في رحاب الكلية وترويج العلوم والفنون الإسلامية في الطلبة وكان مسعاه هذا بالنسبة للجوّ الجديد للكلية يقدّم نموذجًا للتمازج بين الجديد والقديم وفوق ذلك أن العلامة شبلي لم يرعبه رواج العلوم والفنون الجديدة وبقي معليًا كلمة العلوم والفنون الإسلامية فيقول كاتب "حيات شبلي" مشيرًا إلى هذا الجانب من سيرته:

"في حين كانت الكلية ترحّب بكل جديد من العلوم والقضايا والبحوث لم يكن فيها سوى العلامة شبلي الذي قد أخذ بنواجذه العلوم والفنون الإسلامية من حيث لم يقدر هذا السيل العارم الجديد على أن يمحو وجوده"[2].

ولنشر هنا إلى جانب مهمّ من حياة شبلي لتربية الطلاب أن ما أثار فيهم عاطفة للوفاء بالحكومة البريطانية ولا حاول أن يجعلهم مولعين بالحضارة والثقافة الغربيتين وعلى

[1] سفرنامه روم ومصر وشام، ص 57-58

[2] حيات شبلي، ص 148

الرغم من ذلك أن بعض تلامذته من مثل الشيخ محمد علي يقول إن العلامة شبلي قد قدّم للطلبة الإسلام وصبغته كحقيقة حية وقوة مؤثرة"[1].

ومن بين أشغاله الخارجة عن تدريس العلوم إدارة تحرير مجلة الكلية والتي قد صدرت كملحق لـAligarh Institute Gazzette منذ 1891م. إنها كانت تحتوي على القسمين الأردوي والإنجليزي وفي 1894م أصبحت هي مجلة مستقلة بنفسها وكان تيودور بيك (Teodore Beck) عميد الكلية رئيس تحريرها وأما العلامة شبلي فقد كان مدير تحرير القسم الأردوي ولقد علا مستواها تحت إدراته واشتهرت كمجلة علمية، ولقد نشرت مقالات العلامة شبلي القيّمة أول ما نشرت في هذه المجلة ومن ثم جمعت في مجموعة مقالاته ومنها "اسلامي حكومتيں وشفاخانے" (دور الحكومات الإسلامية في ترقية المستشفيات) و"حقوق الذميين" و"علماء کے فرائض" (واجبات علماء الإسلام) و"سر سيد اور اردو لٹريچر" (دور السير سيد في تطوير الأدب الأردوي) وكذا نشرت فيها مقالات العلماء والكتّاب الهنود الكبار من أمثال الشيخ حالي والشيخ ذكاء الله وغيرهما[2]. وقد نشرت مقالة للعلامة شبلي في انستيتيوت غزيت (عدد فبراير 1895م) تعرّف بهذه المجلة والتي قد ذكر فيها العلامة أهداف نشرها تحت نظام جديد[3]. ولا يجمل بنا بهذه المناسبة أن نذكر أنه قد تم اقتراح صدور مجلة باسم "معارف" تحت إدارة تحرير العلامة شبلي بعناية خاصة من المير ولاية حسين في 1893م إلا أن العلامة لم يسعه نشرها لشغله الشخصي الشاغل ولم يمكن أن يرى ذلك الاقتراح النور ثم نشر الحاج النواب محمد إسماعيل مجلة باسم "معارف" في 1898م والتي أدار تحريرها وحيد الدين سليم إلا أنها لم تدم طويلًا فانقطعت سلسلتها بعد سنوات[4]. وفي هذه المجلة (مجلة معارف) قد نشر

---

[1] Aligarh's First Generation، ص 244-245

[2] حيات شبلي، 161-162، 227

[3] سر سيد كي صحافة (السير سيد صحفياً)، ص 171

[4] المصدر نفسه، ص 174 و184 وآپ بيتى، ص 107

استعراض طويل للشيخ الشيرواني لكتاب "الفاروق" للعلامة شبلي وقد نشرت مقالة العلامة شبلي عن نظام الدين أولياء أولًا في هذه المجلة (عدد فبراير 1900م).

ولقد رغب العلامة شبلي كمعلّم مخلص في تجلية مواهب الطلبة وتزويدهم بقوة الإعراب عما في الضمير من خلال ترغيبهم في الكتابة والخطابة، وساهم في مختلف مشاريع الكلية وحضر جلساتها فشجّعهم على ذلك ولم يألُ أي جهد في إبراز ما كمن فيهم من المواهب والجدارات. إنه أسس ناديًا باسم "لجنة الأدب" لتربية الطلاب على الكتابة والخطابة بالعربية واعتنى بتمريسهم على الكتابة والخطابة بالعربية كما أقام ناديًا آخر باسم "إخوان الصفاء" لتربية الطلاب على الكتابة والخطابة باللغة الأردوية وخلق ذوق عال لها وقد كان يساهم في كل فعالياته[1]. وبجانب هذا وذلك فقد كان يعقد مناقشات فيما بين الطلبة في مختلف الموضوعات فكان العلامة شبلي يحضرها ويفيد الطلبة بآرائه الجلية وأفكاره النيرة ومن خطب العلامة التي اشتهرت في هذه المناقشات (الألف) هل منهاجنا الدراسي القديم أفضل من المنهاج الدراسي الجديد؟ و(الباء) هل الحكومة الجمهورية أفضل أم الحكومة الشخصية؟ ولا يخلو من الأهمية لو ذكرنا هنا أن العلامة قد ألقى خطبتين رائعتين في تعضيد الجانبين الأولين من كلتا القضيتين وقد أيّده الطلبة في كليهما[2].

وتبدو علاقة العلامة شبلي الوثيقة مع منظمات الكلية المختلفة وقبوله في أعضائها من أنها قد عقدت جلسات للترحيب به بمختلف المناسبات أو نظمت دعوات في تكريمه ففي نوفمبر 1892م حينما رجع من رحلته لتركيا ومصر آمنًا مع الوسام المجيدي[3] فقد عقدت جلسات ودورات عديدة في الكلية للترحيب به وبهذه المناسبة نظمت مظمة الطلبة دعوة

---

[1] حيات شبلي، ص 159-160 وحيات جاويد، ص 379

[2] The History of M A O College

[3] ليراجع للجنة الأدب وإخوان الصفا: مكتوبات سر سيد، ص 348-349

في شهر ديسيمبر 1892م فأنشد العلامة قصيدة بالفارسية ذكر فيها فعاليات المنظمة. لنقرأ بيتين منها:

كالج امروز به آں فروشاں است كه بود بزم را گرمي هنگامه همــاں است كه بود

يونين آں كه بما شيوه گفتـــار آموخت هم بدانساں هنر آموزياں است كه بود[1]

ترجمة: اليوم تحتل الكلية من الأهمية ما نشهدها، وتتمتع من الضجيج ما نسمعه، ولقد علّمنا النادي كيف نتحدّث، ولقّينا دروس الأدب.

وكذا لما أعطت الحكومة الهندية العلامة شبلي لقب "شمس العلماء" في يناير 1894م عقد لجنة الأدب وإخوان الصفاء جلسة في رحاب الكلية للترحيب به حضرها الطلبة والأساتذة وغيرهم من أعضائها الكرام. ألقوا فيها خطبًا بالأردوية والعربية كما قدّموا منظوماتهم فممن أعرب عن انطباعاته بهذه المناسبة النواب محسن الملك رئيس الحفلة والشيخ حالي والشيخ نذير أحمد والشيخ داؤد والشيخ حميد الدين الفراهي والشيخ ظفر علي خان والخواجه غلام الثقلين والسيد ولايت الله ولقد كان هؤلاء الحضور من طلاب هذه الكلية سوى الشيخ حالي وكانوا أعضاء لكلتا المنظمتين وما قاله العلامة شبلي كأستاذ لهم ننقله فيما يلي:

"أيا فلذات كبدي وطلاب مدرستي! لقد سعدتم بوجود أساتذة وبضوء شموس فاغتنموا هذه النعمة واستفيدوا منهم في رحاب الكلية واحذوا حذوهم ولترون أمامكم نموذجًا من تلك النماذج ولقد نوّر الله شمسًا لتنوير قلوبكم فلا يفوتكم هذه الفرصة وحاولوا جهدكم للاستفادة منه والاتصاف بأخلاقه والاكتساب بما حصلتم عليه في حياتكم. أدام الله ضوء هذه الشمس وظلّلكم بهذا السحاب الهاطل"[2].

[1] حيات شبلي، ص 160-161 ومكاتيب شبلي، 94/1

[2] المصدر نفسه

وما قدّمه الطالب ولايت الله (في بكالوريوس) من منظومة أردوية ننقل بعض أبياتها والتي تكفي معرفة انطباعات الطلبة في العلامة شبلي:

آج یہ کیوں نظر آتے ہیں خوشي کے ساماں　　در و دیوار سے آثار مسرّت ہیں عیاں
زیب و زینت نہیں کچھ ایک جگہ پر موقوف　　ساری دنیا نظر آتی ہے مجھے باغ جناں
ہوئے شمس العلماء آج جناب شبلی　　ہوگیا چار سو اس مژدہ کا فوراً اعلاں
فخر کرتا ہے بہت جن پر علی گڈھ کالج　　بلکہ یوں کہیے کہ ہے ہند بھی جن پر نازاں[1]

ترجمة: لِمَ نرى اليوم أسباب البهجة والسرور؟ ولم يمتلئ الجوّ بالفرحة والمسرّة؟ ليست الزينة محدودة في مكانٍ ما بل العالم كله يبدو لي مثل حديقة بهيجة؛ لقد تشرّف العلامة شبلي بلقب "شمس العلماء" اليوم، وبلغت هذه البشرى كلّ مبلغ. تعتزّ به كلية علي كره بل الواقع أن الهند كلها تعتزّ به.

ومن جوانب خدمات العلامة شبلي للكلية أنه أخدم مواهبه لاسيما شعره للتعريف بحركة علي كره وتوضيح محاسن الكلية ولفت أنظار العلماء والمخيّرين إليها فله منظومات عديدة مشهورة قرضها بهذه المناسبة فلم يكن يحضر مجالس الترحيب بضيوف الكلية وجلساتها العلمية العديدة فحسب بل كثيرًا ما كان ينشد منظوماته فيها وربما كان يؤدي هذه الخدمة على طلب من السير سيد أحمد خان. وهذا لا يخفى على من له أدنى إلمام بحياة العلامة شبلي وترجمته أنه كان ولوعًا بالشعر منذ طفولته وقد علا كعبه في هذا المجال قبل أن يصل إلى علي كره ولما وصل إليها فجلا موهبته هذه من قد تعلق بها من أرباب الذوق الشعري كما تغيّر موضوع قريضه لأجل صحبة السير سيد والجوّ السائد هناك. يشير إلى هذا التغير تلميذه البار وكاتب "حيات شبلي":

[1] ديوان شبلي، ص 56-57 وحيات شبلي، ص 160

"وعلى كل حال فقد تأثر ببعض ملامح علي كره الجميلة ومنها الهمّ والغمّ لخراب الملة الإسلامية فقصائده البديعة المليئة بقصص الحب الكاذبة قد سيط بدم تسبّبه عشق القوم والملة فأصبح ماضي المسلمين وحاضرهم موضوع منظوماته"[1].

ومما يهمّ هذه المناسبة من منظوماته قصيدة فارسية عيدية (أنشدها في 1883م) وملحمة "صبح أميد" (أنشدها في 1885م) ومسدّسه الأردوي (أنشده في 1894م) لأنها مليئة بسوء حال الملة ونخصّ منها بالذكر ملحمته "صبح أميد" لأنها، كما يقول السيد سليمان الندوي، صورة جميلة لحركة علي كره بجانب كونها شرح قصة عروج وزوال المسلمين الملآنة بالهمّ[2]. وهذا لافت النظر أن هذه الملحمة لم تلق الضوء على حركة السير سيد فحسب بل إنها اعتبرت صبحًا للأمل في حال التخلف والزوال واليأس[3] وعلى كل حال فهو كان يشعر بالسرور عند البيان لآثار حركة السير سيد ومحاسن كليته في مختلف جلسات ومجالس الكلية في صورة الخطابة أو النظم فهو تارة يلقّب علي كره بغرناطة وبغداد وإصفهان وأخرى يعتبر كليتها محلّ تحقيق حلم تقدّم المسلمين العلمي وبهذا الشأن نذكر قصيدته التي قرضها على طلب من السير سيد بمناسبة تشريف النواب وقار الأمراء مدار المهام لحيدراباد بوروده في الكلية في 1885م فقد أثنى فيها على الكلية كما يلي:

اے خوشابخت كه آں داور جمشيد حشم — بسر مدرسة بايں سر وسامـــــــاں گذرد
ايں دبستان به مثـل تازه گلستانے هست — خواجه ابريست كه بر طرف گلستان گذرد
گر بديں گونه بود گرمـي هنگامه او — خود ز غرناطه وبغـــداد وصفاهاں گذرد[4]

[1] حيات شبلي، ص 243
[2] المصدر نفسه، ص 249
[3] المصدر نفسه، ص 132
[4] المصدر نفسه، ص 132 و139

ترجمة: من حسن الحظ أن الحاكم السامي يتفضّل في مدرستنا بكل أبهة وشوكة ويكأن هذه المدرسة مثل حديقة خضراء وأن سيدنا مثل السحاب الذي يمرّ عليها، ولو بقيت المدرسة تتمتع بمننه عليها كما هي الآن فهي لتضاهي بغرناطة وبغداد وإصفهان.

وكذا لما أراد النواب آسمان جاه بهادر وزير أعظم حيدراباد زيارة هذه الكلية فأحب السير سيد أن تقدّم إلى حضرته قصيدة من قبل الكلية بدلًا من خطاب الترحيب فطلب من العلامة شبلي أن يكتبها فأجابه العلامة شبلي بقصيدة قرضها على طراز رودكي وأنشدها بهذه المناسبة فتقبّلها الناس وأثنوا عليها[1].

ولأجل جمع التبرعات للكلية سافر السير سيد في وفد إلى حيدراباد في 1891م وقد شملهم العلامة شبلي خاصة والمهمّ في هذا السفر أن أقرب ذوي قربى السير سيد النواب عماد الملك الذي كان يحبّ العلم والعلماء، كان يحتل منصبًا عاليًا في حكومة النظام. وقد أهداه السير سيد كتابين للعلامة شبلي سمّيا "مسلمانوں کی گذشته تعليم" و"المأمون" واللذين عاد بالثناء عليهما وكذا كتب السير سيد أنه سيأتي بكاتبهما في السفر القادم لكي يراه بعينيه[2]. فلما بلغ وفد السير سيد حيدراباد قد رحّبوا به ترحيبًا وزيدت ألف روبية شهريًا إلى عطاء حكومة النظام للكلية، وقد أنشد العلامة شبلي قصيدة فارسية طويلة بهذه المناسبة سلّط فيها الضوء على حركة السير سيد وآثارها بجانب ذكر أوضاع المسلمين الراهنة[3]. وبجانب الرجال الآخرين قد تأثر النواب وقار الأمراء مدار المهام بهذه القصيدة بحيث أنه استمع إليها مرة أخرى في قصره[4]. وما قام به السير سيد من العناية بإجاءة العلامة شبلي معه في هذا السفر يقول عنها عبد الحليم شرر:

---

[1] طبع في مطبعة قومي، دلهي، ص 8-24

[2] حيات شبلي، ص 155-156 (الهامش)

[3] المصدر نفسه، ص 157-158 وشعر العجم، 2/308-309

[4] مكتوبات سر سيد، ص 339-342

"وبفضل شمول العلامة شبلي في هذا السفر انتشر في الناس أنه أكبر أفراد زمرة السير سيد وأشدّ أبطالهم"[1].

وكذا عقد السير سيد مسرحًا وطنيًا في حفلة عليكره الشهيرة في فبراير 1891م وقرّر موضوعه الرئيسي تصوير حالة الوطن السوء. والهدف الرئيس وراء عقد هذه الحفلة لفت أنظار رؤساء ضواحي المدينة المسلمين إلى الكلية. وقد حضر هذه الحفلة النواب الحاج إسماعيل خان وآغا محمّد حسين والعلامة شبلي بجانب حضور السير سيد ذاته قدّم مختلف المناظر؛ فقد ظهر العلامة شبلي في عباء أخضر وعمامة ملوّنة على المسرح وأنشد مسدّسه الوطني الأردوي بأسلوب مليء بالهمّ أحزن الحضور كلهم وأحاط بهم الغمّ كما يقول الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني: قد حضرت هذه المناظر فلم أنس صوته المحزن حتى الآن"[2].

وبجانب شعره أفادت فعاليات العلامة شبلي التأليفية في إعلاء كلمة الكلية ولفت مخيّري القوم إليها. وقد شعر السير سيد بأهمية مؤلفات العلامة شبلي عن هذه الجهة وأخدمها لإفادة الكلية تلك كما يتضح هذا من ذكر مؤلفات العلامة النعماني في غير واحد من رسائله إلى الناس. والواقع أنما قام به العلامة من تأليف الكتب والرسائل أثناء إقامته في رحاب الكلية لم يزد الكلية شهرة فحسب بل أدنى العديد من الناس إليها وأعانوها بصورة مواظبة. يقول السيد سليمان الندوي مشيرًا إلى هذا الجانب من فوائد مؤلفات العلامة شبلي:

"وما علا من كلمة الكلية في ولاية بهوفال في تلك الفترة وما حسن من الظن عنها وما امتدّ من يدي العون إليها يرجع فضل كلها إلى مؤلفات العلامة شبلي وكذا لفت أنظار النواب عماد الملك السيد حسين البلغرامي إلى الكلية مؤلفات العلامة هذه"[3].

---

[1] ديوان شبلي، ص 16-17

[2] حيات شبلي، ص 184-186

[3] المصدر نفسه، ص 183

وبجانب رفع كلمة الكلية قد أفادتها مؤلفات العلامة شبلي ماديًا وذلك لأنه قد حفظ حقوق مؤلفات تلك الفترة للكلية[1] وفوق ذلك أنه كان يهديها إلى أحبته بعد شرائها من الكلية ويثبت هذا من رسالة تالية للسير سيد إلى النواب عماد الملك:

"قد أرسلت خمسين نسخة للمأمون إلى جنابكم وأما نسخ "گذشته تعليم مسلماناں" فلم تبق إلا قليلًا ولعلك تعلم أنما اشتريته من الكتب مما أعانه العلامة شبلي الذي قد حفظ حقوقها للكلية ولم ينتفع من أثمانها ولو فتيلًا. وما سيكتبه في المستقبل سيقوم به لإفادة الكلية فلا يريد به نفعًا لذاته. ولتعلم عن غفلته أنه لما أراد أن يهدي نسخًا للمأمون إلى أحبته اشتراها مني ولو أني قلت له إن يأخذ مني ما شاء منها"[2].

فاتضح جليًا من التفصيل الماضي أن إقامة العلامة شبلي في رحاب الكلية وتأليفه للكتب قد أفاد الكلية كثيرًا ولكن لا نصرف النظر عن جانبها الآخر وهو أن كلية عليكره قد لعبت دورًا كبيرًا في إذاعته فلا شك أن العلامة شبلي قد شرع يكتب قبل نزوله في الكلية وقد نشرت بعض منظوماته ورسائله من قبل إلا أن مواهبه الحقيقية قد برزت بعد وصوله إلى عليكره وزاده جوّ الكلية التحقيقي نموًا في البحث والتحقيق فقد اختلط بالعلماء والباحثين الجدد في الكلية لاسيما البروفيسور آرنولد فتعلّم اللغات الجديدة غير العربية وفوق ذلك تعرّف بالتفصيل عن اعتراضات المستشرقين على العلوم والفنون الشرقية وما هي جوانب الإسلام وحضارته وثقافته التي يهدف إليها أهل الغرب[3]. ومعرفته هذه قد تسبّبت العديد من مؤلفاته الرائعة ويدلّ عليها ما نشرت من مقالاته وكتبه خلال إقامته بعلي كره وفوق تلك أن العلامة شبلي قد قوّى أعماله العلمية التحقيقية مكتبة السير سيد الذاتية التي قد أشرنا إلى ثرائها بالكتب العلمية وحرية العلامة شبلي التامة للاستفادة منها.

---

[1] المصدر نفسه، ص 133، 262-263

[2] المصدر نفسه، ص 158

[3] مكاتيب شبلي، 194/2 وذكر شبلي، ص 52

وعلاوة على هذه وتلك يجدر بنا أن نذكر هنا أن منشورات البلاد الأخرى الرائعة كانت تصل إلى علي كره لكونها مركزًا علميًا كما كانت تتوفر هنا مجلات وجرائد اللغات العديدة والتي بدراستها يمكن العلم عما ينشر في البلاد الأخرى من البحوث والتحقيقيات الجديدة. وهذه هي الكتب التي قد أثرت دراستها العلامة شبلي اطلاعًا ومن هذا تعيّنت جهة رغباته العلمية ومن ثم أصبح تاريخ الإسلام موضوعًا لدارسته وبحثه ولما علم عن اتهامات الكتّاب المستشرقين واعتراضاتهم على النبي صلّى الله عليه وسلّم وخلفاء الإسلام وسلاطينه بفضل دراسة هذه الكتب عن تاريخ الإسلام زاد رغبة في هذا الموضوع وفيما بعد خلف مآثر ومحامد رائعة في هذا المجال[1]. بدأت سلسلة كتاباته في عليكره من كتاب له عربي بعنوان "تاريخ بدء الإسلام" وخطبة أردوية عنوانها "مسلمانوں کی گذشته تعليم" ولم تزل هذه السلسلة تمتد إلى "المأمون" و"سيرة النعمان" و"الفاروق" حتى انتهت هي على "سيرة النبي" كتاب لم ينشر مثله في العالم. وعلاوة على هذه الكتب ما كتبه العلامة شبلي من مقالات ورسائل صغيرة في قيامه بعليكره يبدو منها أمران أولهما أن معظمها كان يتعلق بأي جانب من جوانب الإسلام وثانيهما أنها كانت تردّ على اعتراضات المستشرقين على الإسلام وأتباعه أو إزالة العديد من سوء الفهم الذي نشره هؤلاء الباحثون المتعصبون ونتخلص من هذا أن رغبته في تاريخ الإسلام وكتابته لأهم المقالات والكتب عليه مما يرجع فضله إلى عليكره ولا نتجاوز الحق لو قلنا إن دراسة الكتب العديدة في عليكره قد نمّت فيه ذوق التأليف والكتابة الحقيقي ومن ثم برزت مكامنه في هذا المجال. وقد اعترف هو بهذا الفضل كما يلي:

"قد اشتاقت نفسي إلى التأليف حينما رأيت المؤلفات التاريخية التي نشرت في أوربا والتي قد تحصّلت لي مجموعة والتي لم أرها من قبل"[2].

---

[1] مكتوبات سر سيد، ص 342 و467 وحيات شبلي، ص 234

[2] مقالات شيرواني، ص 169 وحيات شبلي، ص 139-140 وعلامة شبلي كا نظريه تعليم (وجهة شبلي التعليمية)، ص 6-7

كتبت هذه الرسالة في شهر يناير 1911م ولو أنه لم يذكر عليكره بصراحة ولكنها تشير إلى مكتبة السير سيد التي قد صرّح فيما سلف عن ثرائها في مجال التاريخ.

وما حصل للعلامة شبلي من جوّ علميّ ملائم يتسبّبه حبّ السير سيد للعلم وتكريمه له وتشجيعه فهو كان يعترف بسعة اطلاعه على العلم فكان يبرز مكامنه كأستاذ وشاعر ومحقق وكاتب وكان يثني على مؤلفاته وأعماله الكتابية علنًا فلما زار عليكره مع والده في 1881م أثنى عليه السير سيد في انستيتيوت غزت واستخدم له ألقابًا عالية مثل "أديب أريب ذو المجد والفضل" فيبدو منه تفرس السير سيد للفضل في العلم والأدب. وبعدما انسلك بهيئة التدريس للكلية ولما اقترب من السير سيد تفرّس السير سيد لما كمن فيه من المواهب العلمية فوفّر له فرصًا متوقعة لتنميتها وجلائها فقد كان العلامة شبلي ينشد منظمته في كل جلسة منعقدة في الكلية أو بمناسبة قدوم أي شخصية كبيرة[1]. وكثيرًا ما كان يطلبها منه السير سيد وكذا وفّرت له فرصة لتقديم بحوثه الأخرى بمختلف مناسبات الكلية وبفضل حضوره في هذه الجلسات لم يكن العلامة شبلي يتعرف على الشخصيات العلمية والسياسية فحسب بل كان يزداد قدرًا علميًا لتقديم منتجاته وبدائعه ومن ثم يتسع نطاق معارفه[2]. ولقد رافق السير سيد في مختلف أسفاره لحق الكلية والتي اغتنم فيها التعرف على العديد من الرجال العلماء والسياسيين وتأثيرهم باطلاعه الواسع ومما يخصّ بالذكر من الأسفار سفره إلى حيدراباد في 1891م والتي رحّب بالعلامة كركن مهمّ للوفد ولما أنشد قصيدته بهذه المناسبة ثبتت منزلته الشعرية في قلوب الناس وهكذا توسع نطاق المكرّمين له. وزدْ على تلك جلسات وحفلات تم عقدها بمناسبة تكرّمه بالجوائز والوسامات والتي اعترف أرباب حل وعقد الكلية بفضل العلامة بجانب الآخرين غيرهم ممن رطبت ألسنتهم بذكر العلامة وعلوّ قدره في

---

[1] حيات شبلي، ص 135-136، 145، 172، 226-227 سر سيد كي ياد ميں (في ذكرى السير سيد)، ص 25

[2] مكاتيب شبلي، 235/2

مختلف مجالات العلم والفن. كلهم قد اعتبروه مفخرة للكلية ومما يخصّ بالذكر منها تشرّفه بلقب "شمس العلماء" من قبل الحكومة الهندية فقد كتب السير سيد شيئًا عنه في مجلة الكلية في الخامس من شهر يناير سنة 1894م وهنّأه على هذه الجائزة وأثنى عليه فهو يقول: يغمرنا السرور بأن الحكومة قد كرّمت بأستاذ كليتنا العالم الأديب الأريب الشاعر الشيخ محمد شبلي بلقب "شمس العلماء" والذي كان يستحقّه مائة بالمائة فنهنّأه وكليتنا بهذا التكريم الرسمي"[1]. وقد عقدت جلسات عديدة لتكريمه في الكلية في يناير-فبراير 1894م ففي 17/ فبراير عقدت جلسة كبرى في قاعة استريتشي لتكريمه باللقب والرداء، حضرها الطلبة والأساتذة ومسئولو الكلية وكبار رجال المدينة وحكّامها فلما أعطي العلامة العباء والعمامة والوسام فتقدّم إليه السير سيد وألبسه هذا الرداء في خلوة ثم برز العلامة شبلي بهذا الرداء في وسط القاعة[2]. فما زاد من قدر العلامة شبلي بهذه الجلسات التكريمية لا حاجة إلى ذكره.

قد مضى أن العلامة شبلي قد ألّف كتبًا ورسائل قيّمة حين إقامته بعليكره وقد نشر معظمها من قبل الكلية فلم يعتن السير سيد بنشرها فحسب بل كتب لها مقدّمات وعرّفها على كبار العلماء والحكّام عن طريق الرسائل إليهم فأول كتابة للعلامة شبلي نشرت بعد انسلاكه بالكلية هي "مسلمانوں کی گذشته تعليم". وهذه في الوقع مقالته التي قدّمها في إحدى جلسات المؤتمر التعلمي الإسلامي (عقدت في شهر ديسمبر 1887م). وقد نشر السير سيد في مجلته قبل أن يقدّمها العلامة شبلي في المؤتمر أن العلامة شبلي سيقدّمها[3] ثم نشرها في شكل رسالة وجيزة ثم أثنى عليها بمختلف المناسبات فقال لأحب أحبائه النواب عماد الملك في رسالة له إليه:

---

[1] حيات شبلي، ص 131

[2] المصدر نفسه، ص 813-814

[3] إنستيتيوت غزت، 2/29، 5، يناير، 1894م، ص 21

"نرسل إليكم مقالة الشيخ شبلي التاريخية بعنوان "گذشته تعليم مسلماناں" والتي اعتبرها أروع شيء في الموضوع"[1].

وزدْ على ذلك استعراضه المليء بالثناء عليها في أنستيتيوت غزت عدد 10/ يوليو 1888م[2] والمهمّ أنه أثنى عليها على الرغم مما أبداه العلامة شبلي من اختلافه عن رأي السير سيد قائلًا إنه لن يمكن في هذه الأيام أن ننشر العلوم والفنون فيما بين المسلمين عن طريق الترجمة كما حدث مع العصر العباسي فكان قوله هذا نقدًا مباشرًا على فعّاليات المؤسسة العلمية (Scientific Society) فرحّب السير سيد بنقده هذا في هذه الجريدة قائلًا: لقد قام الكاتب بنقد مخلص حق على مؤسستنا يجب علينا أن نضعه بعين الاعتبار"[3]. والكتاب الآخر القيّم الذي كتبه العلامة شبلي خلال إقامته بالكلية هو "المأمون" ولقد اعتنى السير سيد بنشر هذا الكتاب عناية خاصة تبدو من رسالته التالية إلى مدير مطبعة مفيد عام:

"وشيء آخر يجب عليّ ذكره أن بروفيسور الكلية الشيخ شبلي قد قام بتأليف كتاب رائع في سيرة المأمون. سيخلصه إلى مدرسة العلوم وسينشره الهيئة لأجل التجارة. أودّ أن أطبع في مطبعتك ولكن المشكلة هي أن الشيخ الكاتب يودّ أن يبعث إلينا كاتب من مطبعتك قام بنسخ رسالة فارسية "عقيدة الحسنة" فيقوم بنسخه أمام أعين الشيخ الكاتب ويرسل إليك بعد تصحيحه، وبما أن الشيخ الكاتب مصرّ على هذا فالمرجو منك أن تقبل طلبه هذا وأعد أني سأدفع تكاليف الناسخ للإياب والذهاب وسأوفّر له تسهيل الطعام والشراب طول إقامته هذا إذا كان مسلمًا وسأعطيه ما تأمرني به إذا كان هندوسيًا كما أوفّر له تسهيل الإقامة"[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص 258-259

[2] المصدر نفسه، ص 171

[3] مكتوبات سر سيد، ص 339

[4] إنستيتيوت غزت، 10، يوليو، 1881م، ص 574-575 وذكر شبلي، ص 81

ثم نشر طبعته الثانية بعد تصريف وكتب السير سيد مقدمته[1]. ويقول محمد أمين الزبيري إن السير سيد قد أقام تقليدًا لكتابة المقدمات بهذا الكتاب وإلا فكان العلماء يكتبون التقاريظ على الكتب، والتي كانت تطبع في نهاية الكتب[2]. وللعلامة شبلي رسالة مهمّة في الجزية والتي طبعت أولًا في 1879م في شكل مقالة ولقد قام فيها العلامة شبلي بالكشف عن حقائق زعائم وأعطاء المؤرخين عن الجزية وبيّن صورة هذه الضريبة الحقة. ولقد رحّب بها السير سيد فقام بإقامة هيئة لتصحيح الأخطاء المنتشرة عن المسلمين وحكّامهم وسلاطينهم كما جعل العلامة شبلي سكرتيرًا لها وكذا أمر بالترجمة الإنجليزية لهذه الرسالة وهكذا قام العلامة شبلي بنفسه بتعريبها[3] ولنقرأ انطباع السير سيد عن هذه الرسالة كما يلي:

"لا شك في أن الشيخ محمدًا شبلي بروفيسور كليتنا قد أفاد البلاد بمؤلفاته كثيرًا فالمأمون وسيرة النعمان وكتبخانة إسكندرية والجزية مؤلفات فاقدة النظير فلو خاطب المسلمين وقال لهم - نعوذ بالله من ذلك- بالنسبة عن رسالته "الجزية": فأتوا بسورة من مثله" لما أتى نكرًا فلم يسع أحدًا من الكتّاب المسلمين حتى الآن أن يقوم بمثل هذا الردّ المفحم على هذا الاتهام التافه بالمسلمين"[4].

والفاروق كتاب قيّم للغاية من بين مؤلفات العلامة شبلي النعاني وهو كان يعتبره كذلك. كان السير سيد يعارض تأليفه فهو كان يودّ أن لا يقوم العلامة بتأليفه والحال أنه قد طار صيته في بداية تأليفه وجعل الناس ينتظرونه بكل رغبة ونشاط، وفي أثناء هذا كتب أحد أصدقاء السير سيد المنشي سراج الدين بتأليف كتاب في الموضوع بعنوان "سيرة الفاروق" ومن طبع الكتاب والذي آذى من كان على انتظار بكتاب العلامة شبلي في الموضوع فكتب السير سيد مجيبًا على هذا في انستيتيوت غزت عدد 10/ مارس 1893م

---

[1] المصدر نفسه، ص 575 وذكر شبلي، ص 81-82

[2] مكتوبات شبلي، ص 465-466

[3] إنستيتيوت غزت، 9، نوفمبر، 1889م، ص 1552

[4] ذكر شبلي، ص 40

ولو أنه أبدى رغبته السالفة تلك ولكنه مع ذلك أن هذه الكتابة تبيّن ما كان العلامة شبلي يتمتع من قدر علمي لدى السير سيد أحمد خان فلنقرأ بعض تلك الكتابة كما يلي:

"وما قام به أخي المنشي سراج الدين من تأليف كتاب في الموضوع مع العلم بأن العلامة شبلي يريد تأليف كتاب لم يكن يجدر به وذلك لأن العلامة شبلي له قدر علمي معترف به وهو يجتهد في جمع المواد والمعلومات مما لن يتوفر لأحد غيره، ينبغي له أن ينتظر ما يمكن نزوله على العالمين من رحمة علمية من قبل العلامة شبلي"[1].

فيبدو من هذه الكتابة أن كتاب العلامة شبلي في سيرة الفاروق لن يعود ببديل له في العالم ولو اجتمعت الإنس والجن، وهذا واقع لن ينكر.

والمراد من تقديم هذه التفاصيل ليس إلا أنما توفّر للعلامة شبلي من فرص علمية لإتمام ما يريد إتمامه يضاف إليه ما قام به السير سيد من بالغ الثناء على خدماته تلك ولو أن الناس اختلفوا في استفادة العلامة شبلي من علي كره فقال أحدهم إن علي كره كانت معبرًا من كون شبلي شيخًا إلى صيرورته علامة[2] كما قال آخر إن صحبة السير سيد قد جعل الشيخ شبلي شمس العلماء[3] كما قال ثالث إنه برز كمعلّم للعهد الجديد في علي كره[4] وعلى الرغم من ذلك لننقل هنا ما أدلى به العلامة شبلي من رأي في تقدّمه في رحاب كلية علي كره؛ وقد عقدت حفلة كبيرة بمناسبة تشرّف العلامة شبلي بلقب "شمس العلماء" في 1894م فألقى فيها العديد خطبهم كما قدّم الآخرون مقالاتهم ومنظوماتهم ثم قام العلامة شبلي في النهاية وألقى خطبة طويلة ننقل ختامها فهو يقول:

---

[1] حيات شبلي، ص 161 و227

[2] إنستيتيوت غزت، 20/28، 10، مارس، 1893م، ص 246 وحيات شبلي، ص 233-234

[3] إنستيتيوت غزت، 20/28، 10، مارس، 1893م، ص 247

[4] مقالات شيرواني، ص 169

"أيها الحضور! أودّ أن أقول شيئًا ستسمحونني إذا كان ذلك أمرًا ذاتيًا، أيها الحضور! أودّ أن أحدّث بما أنعمني عليّ الكلية. أيها الحضور! لو أمكن أن يسمّى جزءٌ من حياتي علميًا أو تعليميًا فهو ما يبتدئ من ورودي في علي كره فإني لم أقم بتأليف كتاب قبل نزولي بها وذلك أنما نشرته من مؤلفاتي قبل هذه كان الهدف منها هو النقاش المذهبي، والتفريق بين المسلمين أو الزيادة فيما يوجد من التفريق بينهم وأنتم ترون شعري الفارسي فقد قرضت قصائد وغزليات قبل هذا ولكنها كانت أسفل مما هي الآن ولو أني لا أعتبر شعري الفارسي أعلى وأروع وبالجملة فكلما حصلت عليه من الرقي والازدهار يرجع فضله إلى هذه الكلية"[1].

وفي النهاية يجب عليّ أن أشير إلى أن العلامة شبلي أنفق حوالي 16 سنة من عمره في رحاب هذه الكلية ولكنه على الرغم من ذلك ما رعبه جوّ الكلية العلمي الجديد ولا أصبح من مقلّدي السير سيد العمي، ولا شك أنه تأثر ببعض حركة السير سيد فأحسّ هو بنفسه بالحاجة إلى تعلّم العلوم الجديدة كما أمر بعض أحبائه وذوي قرباه بذلك وكذا أقام مدرسة جديدة في دياره وهكذا وقع تيار جديد في كتاباته وخطبه ولكنه فيما يتعلق بالعلوم والفنون القديمة والمناهج الدراسية القديمة فلم تقل قيمته لديه بل بيّن أهميتها وأعلى قدرها كلما وجد فرصة ولم يتذبذب في الكشف عن مساوئ العلوم الجديدة. وتدل على عدم رعبه بجوّ الكلية الجديد رسالته التي كتبها بعدما وصل إليها بقليل:

"حينما وصلت هنا رسخ كل ما كنت أؤمن به أو أراه فوجدت المثقفين الجدد سافلين في العلم والفن، دعْ الدين فلم أجدْ أي علوّ في الفكر والحرية والهمة والرقي فلا أجد أي ذكر لهذه كلها فليس لهم سوى الزي فقد كان طلاب كليتنا في البكالوريوس أنهم سيفنّدون ما نعتقد فوا أسفًا أنهم لا يعلمون ولو عن حركة الأرض"[2].

---

[1] ذكر شبلي، ص 39-40

[2] وجهة نظر شبلي التعليمية، ص 41

ولقد مضى أن مؤسسة الطلاب قد عقدت مناقشة حول "إن منهاجنا الدراسي القديم أفضل وأعلى من منهاجنا الدراسي الجديد" فقد أعرب العلامة شبلي عن رأية بكل حرية وانطلاق وأثبت رأيه بالدلائل القوية من حيث أيّده الحضور معظمهم فلم يكن العلامة شبلي يعرف قدر المنهاج الدراسي القديم فحسب بل كان يعتبره جزءًا أساسيًا للمنهاج الدراسي للمسلمين فهو كان يرى أنه ولو أن هذا المنهاج الدراسي يعاني من الانحطاط في عصرنا الحاضر وهو يحتاج إلى شيء من الإصلاح لإحيائه ونفخ روح النشاط فيه ولكنه مع ذلك كان يشعر أنما يبدي المثقفون الجدد من التأسف على زوال المنهاج الدراسي القديم أو ما يرثي له ليس لغرض الرحمة عليه أو لعاطفة إصلاحه بل هزءًا منه وشماتة منه ولقد عبّر عن شعوره هذا خلال إقامته بعلي كره ذاتها[1] وعلاوة على هذه كلها فقد أثبت بشدة في مقالته الشهيرة (مسلمانون كي گذشته تعليم) التي كتبها على أمر من السير سيد أحمد خان أهمية المنهاج الدراسي القديم وفوائده في العصر الحاضر فهو كان نموذجًا حسنًا لإنارة التقاليد الشرقية للتعليم في الجو الجديد في علي كره ورفع لواء المنهاج الدراسي القديم بدون مخافة أي لائم وكذا سبق أنه قد أشار بالبنان إلى اختلاف درجات الطلاب في السكن في علي كره ومثّل كليات تركيا وطلب من مسئوليها إزالة هذه الفروق فيما بين الطلبة الأغنياء والفقراء.

وقد تناول الكتّاب معظمهم ما كان يوجد من فرق بيّن بين وجهات نظر السير سيد والعلامة شبلي السياسية فكان السير سيد يفضّل الحكومة الشخصية بينما العلامة شبلي كان يؤيّد الجمهورية وعلى هذا فكان هناك فرق بيّن بين معاملتيهما تجاه الحكومة البرطانية، ولم يتذبذب العلامة شبلي عن التعبير عن وجهته السياسية تارة في الكلية وأخرى أمام السير سيد أحمد خان وقد ذكرنا آنفًا أنه قد عقدت مناقشة حول الفرق بين الحكومة الشخصية والجمهورية وكان السير سيد أحمد خان يحضر هذه المناقشة فقام العلامة شبلي وألقى خطابًا قيّمًا حافلًا بالدلائل والبراهين مؤيّدًا الجمهورية، الأمر

[1] ذكر شبلي، ص 74-75

الذي ترك أثرًا بيّنًا على الحضور فقام السير سيد أحمد خان وألقى خطابًا يعارض فيه ما بيّنه العلامة شبلي كما كتب مقالة يرّد فيها على ما بيّنه العلامة شبلي[1]، وهكذا فقد كان العلامة شبلي يصدع بالحق ويعبّر عن أخيلته تجاه الحكومة البريطانية وحضارة وثقافة الإنجليز وسلطنة تركيا والإخوان الأتراك والكونغريس مما لم يكن يتفق ونظريات السير سيد أحمد ولقد عبّر عن معاملته بصراحة فقال:

"دائمًا كنت حرًّا في الإدلاء بالآراء، قضيت 16 سنة في رفاق السير سيد ولكن لم أويّده في القضايا السياسية. كنت أرجّح الكونغريس فكنت أجادل السير سيد في هذا الشأن باستمرار"[2].

فهذه المباحث لا تبثت أن العلامة شبلي كان مستقلًا بالرأي والنظرية فحسب بل تشير إلى أنه لم يبتعد عن الكلية لاختلافه من السير سيد لأن كليهما كان يختلف بعضهما عن الآخر في بعض القضايا منذ البداية. كانت هذه الاختلافات على أعين الناس وكان كل منهما يعلم عن الآخر وكان يبدي الواحد موقفه أمام الآخر ولكنه بالرغم من ذلك فلم تحبط منزلة الواحد أمام الآخر ولم ين الواحد عن معونة الآخر فأرى من أسباب ابتعاده عن الكلية سعة نطاق تأثير السيد محمود على الكلية وتداخل العميد بك الظالم في نظمها ومعاملته المعاندة ضد العلامة ونداء حركة ندوة العلماء وفساد صحته.

ولقد وجد العلامة شبلي بعلي كره فرصة ذهبية لمصاحبة الأساتذة الأوربيين لاسيما البروفيسور أرنولد الذي استفاد منه كثيرًا وبفضل مرافقته له علم عن بحوث أوربا العلمية والأساليب الحديثة للبحث والتحقيق ولكنه يجدر بالذكر هنا أنه ما رعب من هؤلاء المهرة في العلوم والفنون الجديدة ولا قبل تحقيقاتهم وبحوثهم كما هي. ولقد أدّى حق القول بهذا الشأن حينما قال الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني ما قال:

"من حسن الحظ للعلامة شبلي أنه كان يتمتع من صحبة أستاذ محبّ للعلم كالبروفيسور أرنولد فاختلط هذان الأستاذان المحبّان للعلم اختلاط الشعاعين ذوي

---

[1] مكاتيب شبلي، 1/50-51

[2] سفرنامه روم ومصر وشام، ص 77

الألوان المختلفة فيسبّبان النور في العالم فأخبر البروفيسور أرنولد العلامة شبلي بالأصول الحديثة وأسباب وأساليب الجلسات العلمية الحديثة والاعتراضات على العلوم القديمة وفي جانب آخر أن العلامة شبلي كان صادقًا في القول وحادًّا ذهنه فلم يرعبه الأصول الحديثة فتفكّر فيها بهدوء وخلاء فقبل ما صفا منها وعمل عليها طول حياته كما ودع ما كدر منها واجتنبها وانتقدها"[1].

ولنتقدّم شيئًا فنقول إن العلامة شبلي قد تمتع من رفاق هؤلاء المهرة في العلوم الجديدة أو عثر على تحقيقات وبحوث المفكرين والكتّاب الغرب في الجوّ العلمي في علي كره فتعلّم أسلوبًا حديثًا للبحث والكتابة فاستخدمه للكشف عن مفتريات هؤلاء المفكّرين عن الإسلام وتاريخه وحضارته وعباقرته من الحكام والسلاطين وتقديم بحوثه وكتاباته القيّمة عن الجوانب المختلفة لتاريخ الإسلام وحضارته[2]. قد ابتدئ العلامة شبلي بتقديم بحوثه وتحقيقاته الحقيقية، كما ذكرنا، من علي كره فما كتبه من المقالات والرسائل في تلك الفترة تنبئ عن المستوى الأعلى للبحث والتحقيق والاستعراض الناقد للكتابات المفتريات عن تاريخ الإسلام ونخص بالذكر هنا مقالاته "مسلمانوں کي گذشته تعليم" و"کتب خانه اسکندريه" و"اسلامي حکومتيں وشفاخانے" و"جزيه" و"حقوق الذميين" وکتبه ورسائله "الفاروق" و"المأمون" و"سيرة النعمان" ففي "کتب خانه اسکندريه" خرّب ما بناه الأوربيون من القصر الشامخ لعداوة المسلمين للعلم ومعاملتهم السيئة له كما ردّ في "الجزية" و"حقوق الذميين" على ما زعمه الكتاب الأوربيون من أن الحكام المسلمين كانوا ظلمة على رعيتهم الغير إسلامية وهكذا فقد ردّ عن طريق "المأمون" على ما افتراه بامر (Palmer) وآخرون من قصص وحكايات عن الخلفاء والحكام المسلمين كما ردّ في "سيرة النعمان" على أن الفقه الإسلامي مأخوذ من قوانين الروم المدنية الرأي الذي تبنّاه

---

[1] حيات شبلي، ص 160-161، 294-295

[2] رسالة شبلي المبعوثه إلى شاكر الميرثي مدير تحرير "العصر"، مجلة "معارف"، 5/11، نوفمبر، 1923م، ص 394

شيلذون إيموز (Sheldon Amos). اعترف بعلو كعب العلامة شبلي في مجال البحث والتحقيق، الكتابة والتأليف النواب محسن الملك في قوله التالي:

"أيها السادة! إن أخي الفاضل العلامة شبلي لم يمن علينا بمؤلفاته القيّمة فحسب بل منّ على الإسلام حقًا وهكذا فقد قدّم من أحسن ما يرضي الرب تعالى. إنه ردّ على الاعتراضات التي كانت ترد على ديننا وبها كان يعتر ديننا عدوًا للإنسانية والعدل والعلم والحضارة وكذا اتهموه بفرض الجزية وإحراق مكتبة الإسكندرية فظنوا الأولى ضريبة على الكفرة بينما الأخرى تسبّبت حكّام وسلاطين الإسلام أعداءً للعلم والمعرفة فقام هذا الرجل العالي الفكر الحاد الذهن الذي أنفق معظم أيام حياته في زاوية من كلية علي كره بقطع دابر كلا الاعتراضين وحيّر العالم كله بصفحات قلائل وكشف القناع عن مفترايات الكتّاب الأوربيين وبرّء الإسلام عن هاتين التهمتين بأسلوب حكيم بهت الناس جميعًا والواقع أن الإسلام يرحّب بالعلامة على عمله هذا ويثني الرب تعالى على خدمته العلمية والدينية تلك"[1].

وما قدّمناه من المباحث عن العلامة شبلي ونسبته إلى علي كره ليست إلا نوع من الحديث الموجز وإلا فنجد في الكتب والوثائق موادّ عن الموضوع عسى أن يحتويها كتاب مستقل والأمر الثاني أنما ذكرناه في الصفحات السابقة لا يتعلق سوى بالفترة (1883-1898م) التي عيّن فيها العلامة على منصب التدريس بينما الواقع أنه لم تنقطع علاقته مع هذه الكلية مع استقالته عنها، ويمكن لنا أن نضمّ إليها مراسلته المتواصلة إلى مسئولي ومقيمي الكلية ورغبته في مختلف أقسام العلوم الدينية بكونه عضوًا مهمًا لمؤسسة العلوم الدينية المركزية وحضوره في جلسات الكلية وحضوره الموقت في الكلية وخطابه للطلبة في مختلف موضوعات العلوم الإسلامية وتوسيع الروابط بين ندوة العلماء والكلية ودعوة أساتذة الكلية إلى الندوة بمختلف مناسبات الامتحان وبعث طلاب الندوة إلى علي كره للاستفادة منهم واستفادته من مكتبة الكلية عن طريق بعض تلامذته وعلاقته المتواصلة مع مطبعة فيض عام وديوتي شاب والغرض بكدبو،علي كره.

[1] مقالات شيرواني، 169

وليس لنا فسحة للحديث المفصّل عن هذه المواضيع كلها وإلا فاحتجنا إلى مقالة أخرى فنريد هنا الإشارة إلى الواقع أنما كان يطويه بين جنبيه من علاقة ودية عاطفية مع هذه الكلية لاسيما علاقته العلمية معها والتي قد انقطعت ظاهرًا في 1898م قد بقيت هذه العلاقة حتى أنفاسه الأخيرة ونستدل عليها بالرسائل التي بعث بها إلى مسئولي الكلية ومن تعلق به في أخير عهودها فيبدو جليًا منها أنه لم يزل يشعر بالمرارة التي تسبّبت انعزاله عن الكلية، ولقد اعتراه القلق بالشعور برجعته إلى علي كره وخدمته للكلية ومواصلته لأنشطته العلمية لاسيما دعوة النواب محسن الملك إياه لقبول سكريرية الكلية مرة أخرى وأجبره على تلك وفي أثناء تلك قد تذبذب بين أن يرجع إلى علي كره وأن يبقى في ندوة العلماء فتارة كان يقول إنه سيضع سريرًا في علي كره وآخر في ندوة العلماء وأخرى إنه سيقيم بعلي كره لنصف سنة بينما النصف الآخر يقضيه في لكناؤ وتارة ثالثة يكتب إلى أحبائه أنه عسى أن تسحره علي كره مرة أخرى[1]. والشيئ الممتع هو أنه لما قدّم إليه النواب محسن الملك أن يوظفه مرة أخرى على 200 روبية هندية شهريًا فرضي عن خدمة الكلية بدون أجرة واشترط أن لا تتجاوز مدة إقامته بالكلية أربعة أشهر كما هو البادي من إحدى رسائله إلى الشيخ الشيرواني:

"وملخص ما رددت على رسالة النواب محسن الملك أن 200 روبية شهريًا سيكون ثقلًا زائدًا على الكلية فأودّ أن أخدم الكلية بدون أي أجرة شريطة أن لا أجبر على الإقامة بها سوى أربعة أشهر وإن زيد فيها فيكون لي الخيار فيها ولا أجبر عليها وذلك لأن الوقت المتبقي منها سينفق في خدمة ندوة العلماء"[2].

ولما انقطع إلى خدمة ندوة العلماء وترقيتها وأحبّ أن يقيم بلكناؤ بصورة دائمة لم يزل من قلبه حب علي كره وظن أنه سيخدمها بعدما فرغ من إصلاح ما اعوجّ من الندوة فهو يكتب إلى الشيخ بشير الدين الإتاوي:

---

[1] وجهة نظر شبلي التعليمية، ص 9-10

[2] حيات شبلي، ص 242

"وفي النهاية تجرأت على الاستقالة عن حيدراباد ورجعت عنها وعاد لي الخدمة الماضية وكنت أودّ أن أتّصف فرصتي للكناؤ وعلي كره ولكني لما وصلت إلى الندوة وجدتها توشك على الموت فطردته من منصبه وأخذت الأمر بيدي، وبما أن كافة الشئون ليست على ما يرام فيجب عليّ أن أقيم لشهرين أو ثلاثة أشهر كي يصلح ما اعوجّ وأرجو أني سأعود إلى علي كره بعدما يطمئن قلبي فما وجدته من طلاقة الذهن لم أجدها في مكان ما في المدارس الإسلامية"[1].

ولعل هيامه بعلي كره لم يكن سوى أنه ظفر في علي كره بجوّ يلتصق فيه القديم بالجديد وبفرصة سانحة للتأليف والكتابة وإجلاء مواهبه العلمية. إنها كانت عين ما كان يمتلكه العلامة شبلي من وجهات تعليمية ولكن شغله الشاغل بندوة العلماء وبالشئون العائلية وفوق ذلك تأسيس دار المصنفين وإتمام "سيرة النبي" وميله إلى مدرسة الإصلاح ومدرسة شبلي الوطنية كلها لم تدع هذا الهائم بالعلم أن يقيم بعلي كره مرة أخرى ولم يوفّق أن يسحره هذه المدينة من جديد.

[1] مكاتيب شبلي، 1/39-40، 139، 2/200

المصادر والمراجع

1. أصغر عباس: انتخاب مضامين علي كره إنستيتيوت غزت، أكادمي أوترابراديش الأردوي، لكناؤ، 1982م
2. أصغر عباس: سر سيد كي صحافت (السير سيد صحفيًا)، دلهي، 1975م
3. ألطاف حسين حالي: حيات جاويد (ترجمة السير سيد)، ترقي أردو بيوريف، نيو دلهي، 1982م
4. جريدة "إنتيتيوت غزت" الصادرة عن جامعة علي كره الإسلامية، أوترابراديش، الهند
5. حبيب الرحمن الشيرواني: سر سيد كي ياد ميں (في ذكرى السير سيد)، مطبعة جامعة علي كره الإسلامية، 1935م
6. حبيب الرحمن الشيرواني: مقالات شيرواني، شيرواني برنتنغ بريس، علي كره، 1956م
7. ديفيد ليلد: Aligarh's First Generation، مطبعة جامعة أوكسفورد، 1978م
8. ديوان شبلي، مطبعة نامي، كانفور، سنة الطبع لم تذكر
9. س ك بهتناغر: History of M A O College، مومبائ، 1969م
10. سيد سليمان الندوي: حيات شبلي، مطبعة معارف، أعظم كره، 1985م
11. سيد سليمان الندوي: مكاتيب شبلي، مطبعة معارف، 1971م
12. شبلي النعماني: سفرنامه روم ومصر وشام، مطبعة معارف، أعظم كره، 1940م
13. شبلي النعماني: شعر العجم، مطبعة معارف، أعظم كره، 1972م
14. شيخ محمد إسماعيل الباني بتي: خطبات سر سيد، مجلس ترقي أدب، لاهور، سنة الطبع لم تذكر
15. شيخ محمد إسماعيل الباني بتي: مكتوبات سر سيد، مجلس ترقي أدب، لاهور، 1959م
16. عبيد الله الفراهي: علامه شبلي كا نظريه تعليم (وجهة نظر العلامة شبلي التعليمية)، دلهي، 1988م
17. مجلة "الإصلاح" الشهرية الصادرة عن مدرسة الإصلاح بسرائ مير، أعظم كره

18. مجلة "تهذيب الأخلاق" الشهرية الصادرة عن جامعة علي كره الإسلامية، أوترابراديش، الهند
19. مجلة "فكر ونظر" الفصلية الصادرة عن إسلام آباد، باكستان
20. محمد ابن زبيري: ذكر شبلي، مكتبه جديد، لاهور، 1953م
21. محمد علي: My Life- A Fragment، لاهور، 1946م
22. مسعود علي محوي: نذر عقيدت، شيرواني برنتنغ بريس، علي كره، 1356هـ
23. مشتاق حسين: باقيات شبلي، آزاد كتاب گهر، دلهي، 1964م
24. مشتاق حسين: مكاتيب سر سيد، فريندس بك هاؤس، علي كره، 1960م
25. ميرولايت حسين: آپ بيتي (حياتي)، علي كره، 1970م

شبلي موردًا للأدب وتاريخ الشرق

- خليق أحمد النظامي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

عقدت الجلسة الرابعة لمؤتمر التعليم الإسلامي (Mohamdan Educational Conference) بمبنى قاعة إستريتشي الناقص في 1889م وقد حضرها معظم رؤساء وعمائد البلاد بمن فيهم السير سيد أحمد خان، وبهذه المناسبة أنشد حالي منظومة قال فيها:

ادب اور مشرقی تاریخ کا ہو دیکھنا مخزن تو شبلی سا وحید عصر و یکتائے زمن دیکھیں

ترجمة: إذا أحببت أن تشهد مخزنًا للأدب وتاريخ الشرق فزرْ شبلي الفاقد النظير وعديم المثال.

كان هذا أعظم تقدير وجّهه أكبر شاعر هذا العصر إلى شبلي أمام فحول أدباء البلاد وكبار مفكّريها[1] والواقع أن الأدب والتاريخ مجالان جال فيهما شبلي جولة محمودة وطوّف فيهما طوافًا لا يرى له نظير.

والاتجاهات العلمية التي أثارها شبلي إلى الآن تنير طرقنا العلمية.

ولن يمكن تحليل أفكاره وآثاره تحليلًا حقًا إلا بدون النظر إلى جوانب تالية:

---

[1] كتب شبلي بعده بسنة قطعة شعرية قال فيها:

نگه از مهر سوئ حالي آزاده فگن وان نذير أحمد طوطئ شكر خا بنگر

ترجمة: ارجع البصر إلى حالي الحرّ ثم ارجع البصر إلى نذير أحمد الحلو اللسان

ولكنها تفقد العواطف التي نجدها لدى حالي في شعره إلا أن شبلي كان يعتبر حالي من أخلص أصدقائه، مكاتيب شبلي، 114/1

1. قد كان ذوق التحقيق والجمال سيط بدم شبلي وهما كانا من الحوافز الأساسية لحياته العلمية فكان ذوقه للتحقيق يجعله ضالًا في البحث عن المصادر والمراجع فهو كان يحاول أن يعثر على الجهود العلمية لكل من اللغة الألمانية والفرنساوية والإنكليزية والفارسية والعربية وأما العلم عن الأدب الموجود في اللغات الأوربية فهو لم يكن لازمًا لمجرد أن نقوم بالردّ على سوء التفاهم المثار من قبل المستشرقين فحسب بل لكي نتعرف على الأسلوب الحديث للبحث والتحقيق فهو يكتب إلى السير سيد أحمد خان من القسطنطينية:

وأواجه الصعوبة في التعرف على الأوضاع والأخبار لأجل جهلي عن اللغة وعلى هذا فقد بدأت أتعلّم اللغة التركية وسأتعلم شيئًا منها عند الرجوع منها".[1]

فكان يطلب من أحد ما لم يعرفه من تراث اللغة فلما رأى ترجمة Heroes and Hero Worship لكارلائل (Carlyle) أثنى عليها وقال: هذا مما يفيدني"[2]. ولكن لم تمكن ترجمة كافة كتب الإنجليزية فهو كان يطلب ممن كان له ذوق ورغبة فيها أن يدرس الكتاب المراد فيضع الخط تحت الأماكن التي تحتاج إلى ترجمتها ثم يرجع الكتاب إليه[3].

ولقد كان العلامة شبلي يعتبر البحث عن المصادر وتحقيقها ونقدها أساسًا للبحوث والتحقيقات فلما جعل يكتب السيرة كتب:

"ليس من مصادر السيرة سوى ثلاثة كتب؛ ابن هشام وابن سعد والطبري. إني أقرأ عن رواتها فأعدّ المعلومات عنهم من أسماء الرجال، والتهذيب وغيرهما من الكتب"[4].

وفي منظومة أرسلها إلى بيغم بوفال يقول موقنًا إياها عن مشروع السيرة:

---

[1] مكاتيب شبلي، 1/1

[2] المصدر نفسه، ص 200

[3] المصدر نفسه، ص 302

[4] المصدر نفسه، ص 201

رہی تالیف وتنقید روایت ہائے تاریخی سواس کے واسطے حاضر مرادل ہے مری جاں ہے

ترجمة: وأما جمع ونقد الروايات التاريخية فأقدّم لها قلبي ونفسي.

وقد جاء انطباع عن أنشطته العلمية في كتاب "كسوف الشمسين":

"كان الكاتب المكسور الرجل يظهر في لكناؤ للبحث عن كل واقعة تارة وأخرى يتوجّه نحو كلولكاتا وثالثة يبلغ مومبائ في البحث عن الإصدارات الحديثة ورابعة يتصل ببانكي فور في البحث عن الكتب القديمة وخامسة يرتحل إلى حيدراباد في البحث عن المصادر وكان هذا الكاتب الضئيل البصر يستريح على كيس بالٍ والحال أن الكتب كانت توضع كومتها محيطة بكل جانب من جوانبه والأوراق والوثائق البالية تكون في يديه"[1].

وأما رحلته إلى بلاد الروم والشام وغيرها من البلدان الإسلامية فقد كانت تحت هذه العاطفة فهو يقول في قصيدة عن رحلته إلى الروم:

بہر تکمیل فن وہم پئے تحصیل عبر روزگاریست کہ میداشتم آہنگ سفر

ترجمة: لأجل إتمام المعرفة عن الفن وبسبب الاعتبار قد ارتحلت إلى البلاد لوقت غير قصير.

ويقول في رحلته إلى الروم والشام ومصر:

"وما قمت به من الرحلة إلى القسطنطينية كانت من نوع طلب العلوم والفنون"[2].

ويمضي قائلًا:

"في حين خطر ببالي أن أكتب عن أبطال الإسلام قد خلت أنما تمتلكه بلادي من التراث التاريخي لن يكفي هذا الهدف ولذا فقد ارتحلت إلى هذه البلاد"[3].

ولو كانت عاطفة البحث والتحقيق هي النقطة المركزية لجهود شبلي العلمية فكان ذوق الجمال قد سيط من دمه فكان الجمال يعطّر بصره ويثير موهبته الرائعة

---

[1] كشوف الشمسين، س 35

[2] ديوان شبلي، ص 23

[3] سفرنامه روم ومصر وشام، ص 2

ويكون بمعزل عن الدنيا وما فيها ولو لثانية فهو كان يسمع لحن البلبل وإيقاع المطرب ويشهد الجمال الباهت في الحدائق الخصبة وغزلياته الفارسية خير دليل على ذوقه للجمال فهو يكتب إلى مهدي الإفادي:

"قد زادت بعض غزلياتي شدة وروعة ولعلها لا تلائم والكاتب البالغ من العمر خمسين سنة ولكن الحافظ يقول:

هرگه كه ياد روئ تو كردم جواں شدم[1] (ترجمة: كلما تذكرت وجهك زدت شبابًا).

وكان يقول عن نفسه: الناس إما منتمون إلى أكبر أو عالمغير وأما أنا فمتعلّق بجهانغير"[2]. فكان ذوق جمال جهانغير الذي قد جذبه إليه وبفضل هذا الذوق قد ازداد أسلوب كتابته قوة وجذبًا ويلمح هذا من كل حرف من حروف كتاباته، ونجد بدار المصنفين عديدًا من النسخ الخطية لإهداء "سيرة النبي"، يقدّر منها مدى ذوقه للجمال في اختيار الكلمات ونرى ذوقه هذا بالغًا ذروته حينما يصل إلى بلاط النبي فهو يقول عن النبي صلّى الله عليه وسلّم:

پيكــر آرائــے ازل صــورت زيبــائے تــرا نقش مي بسـت وهم از ذوق تماشا مي كرد

ترجمة: لقد برء وجهك الجميل الذي يزيّن الأزل ثم مادام يحدقه.

2. قد وضع العلامة شبلي المستويات العلمية للشرق والغرب في قالب واحد فحصل على العلوم الشرقية على طراز قديم ولكن ما بقي فيها من النقص كان يشعر به مرارًا ولذا فكان يكثر الترداد إلى العلوم الغربية فنال من الغرب أسلوب البحث والتحقيق، والنقد والغربال ثم لوّنه بغزارة علمه لونًا أخاذًا بالقلوب وهو كان عارفًا بجودة ورداءة التحقيقات الغربية فهو قال ذات مرة:

"تبدو مؤلفات الكتّاب الغربيين حديقة الزعفران فهم يبنون بكل ربع قلعًا لا أساس لها"[3].

وكذا قال بمناسبة:

---

[1] مكاتيب شبلي، 215/2

[2] المصدر نفسه، 176/1

[3] المصدر نفسه، ص 199-200

"لأكاذيب أوربا ديوان ونضطرّ إلى تصفحّ المآت من الأوراق والوثائق للكشف عن كل حرف من حروفهم فيكتب هؤلاء السفهاء أكاذيب يلمّعونها بالدلائل والبراهين، ولقد ارتكب مؤرخو السير المسلمون أخطاءً وزلات"[1].

وعلى هذا فقد أجبر على انتقاد كلا المصدرين الشرقي والغربي.

3. ثم ينبغي لنا أن لا ننسى هنا أن سعة النظر والفكر هذا وعاطفة البحث والتحقيق هذه قد خلقهما فيه السير سيد أحمد خان وهنا تم إنشاؤهما فالسير سيد أحمد خان أول كاتب ومفكّر إسلامي قضى أوقاته الغالية في مكتبات إنكلترا فردّ على أفكار ونظريات الكتّاب النصارى عن الإسلام وجرأته العلمية هذه لم تحفز إلى الأمام العلامة شبلي فحسب بل العديد من الكتّاب فلقد صدق أبو الكلام آزاد حيث قال: لم ينضج ذهن العلامة شبلي إلا بتربية السير سيد أحمد خان"[2]. كما كانت مكتبة السير سيد أحمد خان مليئة بالإصدارات الحديثة من أوربا ومصر والتي كانت يقوم العلامة شبلي أمام رفوفها لساعات فكذلك دراسته للعلوم الإسلامية بأسلوب علمي حديث وطريقته لإثارة التفكير في الناس قد أثرت في شبلي تأثيرًا بالغًا فلما ارتحل السير سيد إلى الدكن في 1891م كان يرافقه شبلي فقال كما يلي:

مي نه بينيد كه سر سيد ما آنكه به فضل رهـبر قافلـه ماسـت بـه هـر راه گـذر[3]

ترجمة: إن السير سيد أحمد المفضّل هو هادي قافلتنا في كل الطرق.

وفيما يلي انطاعاته عن علي كره:

تـا بكے حسـرت غرناطـه وبغـداد خـوري قـدمے رنجـه كـن ودر حـرم مدرسـه آئے[4]

ترجمة: حتى متى تغبط بغرناطة وبغداد تشرّف فينا وتمتّع من منظر مدرستنا.

---

[1] المصدر نفسه، 242/2

[2] حواشي أبو الكلام آزاد، ص 262

[3] ديوان شبلي، ص 14

[4] المصدر نفسه، ص 17

قد أنفق السير سيد على الترجمة الأردوية لكتاب The Decline and the Fall of the Roman Empire لصاحبه غبن (Gibbon) وقد أكثر شبلي قراءتها[1] والتي قد زادت علم شبلي وبصيرته عن التاريخ.

ثم وفّق شبلي لقاء البروفيسور الإنكليزي الشهير أرنولد الذي تعلّم عليه شبلي الفرنساوية واعتبره العلامة شبلي أستاذه[2]. فقد ذكر ما يلي من مقتبس شبلي في كتاب "كسوف الشمسين":

"من حسن الحظ للعلامة شبلي أن أستاذًا محبًّا للعلم مثل أرنولد كان حاضرًا في الكلية فالتقى هذان المحبّان للعلم التقاء الأشعة ذات الألوان المختلفة فتخلق نورًا يستضاءه فأخبر البروفيسور أرنولد العلامة شبلي بالأصول الحديثة كاشفًا له عن أسباب وذرائع الجلسة العلمية الحديثة وعن الاعتراضات والحملات الثائرة على العلوم القديمة. وهذا من حذاقة العلامة شبلي وحدة ذهنه أنه لم يرعبه تلألأ الأصول الحديثة بل تفكّر فيها بكل اطمئنان وهدوء فأخذ ما صلح منها (لم يأخذها فقط بل جعلها دليلًا في حياته) وترك ما فسد وبطل وبالعكس من ذلك فقد تعلّم البروفيسور أرنولد اللغة العربية على العلامة شبلي فوجد اللآلئ والجواهر المتواجدة في الأرض السحيقة قد رانها الصدأ فاختفت على الناس، الأمر الذي ظهر في صورة كتاب فاقد النظير لأرنولد يسمّى "Preaching of Islam"[3].

4. قد حدّد شبلي مشروع أعماله العلمية المستقبلية وقد لعب في اكتشاف هذا المشروع العلمي وتحديده العديد من الإحساسات؛ إزالة سوء التفاهم عن تاريخ المسلمين وحضارتهم، وتأليف المؤلفات الأمهات المبنية على العلوم الإسلامية. قد بدأ في تركيا سلسلة تأليفية بعنوان "كبار الرجال" التي نشرت فيها تراجم كبار العلماء والأفاضل أمثال نظام الملك الطوسي والشيخ فخر الدين الرازي والمولانا جلال الدين

---

[1] مكاتيب شبلي، 298/1

[2] سفرنامه روم ومصر وشام، ص 1

[3] كسوف الشمسين، ص 10

الرومي وغيرهم من الرجال الصالحين والعلماء الأفاضل فلما رآها العلامة شبلي عزم على أن يبدأ بمثل هذه السلسلة في بلاده[1]. فخطر بباله بداية سلسلة " Heroes of Islam" (أبطال الإسلام) بفضل رؤية سلسلة "كبار الرجال" فهو يقول:

"المستوى الذي أريد أن أبلغه بالعلماء يتطلب درجات والغزالي أول درجة ثم تاريخ علم الكلام ثم المستوى الأصلي أي علم الكلام الجديد --- لو عبثت بالغزالي لمضت سنوات بل قرون"[2].

فنتمكن به من تقدير مدى رغبة ذهن العلامة شبلي إلى تدوين علم الكلام الجديد فقد اختار الإمام أبا حنيفة والإمام الغزالي والرومي ومأمون الرشيد بعد إجهاد نفسه وذهنه فقد احتاج لتدوين علم الكلام الجديد إلى أن يأخذ الأسباب والذرائع الفكرية والعقدية من هؤلاء العلماء والمفكرين القدامى، وكان يريد أن يكتب عن الإمام ابن تيمية ولكنه لم يجد الفرصة لذلك ولم يوفّق غير كتابة مقالة فهو يقول في هذه المقالة:

"قد سبقنا المآت بل الآلاف من العلماء والمجتهدين والمفكّرين المسلمين ولكن قل عدد المصلحين والمجدّدين فيهم ---- فلا بد لمجدّد أن يقوم بثورة في الدين أو العلم أو السياسة، وأن تكون فكرته شخصية لا تقليدية، وأن يعاني من الأى ويخاطر بنفسه --- فإن شطبنا الشرط الثلاث فسيضمّ إلى زمرة المجدّدين الإمام أبو حنيفة والإمام الغزالي والإمام الرازي والشاه ولي الله الدهلوي ولكن الذي حريّ أن يسمّى "مجدّدًا" فهو العلامة ابن تيمية"[3].

---

[1] مكاتيب شبلي، 1/333-334

[2] المصدر نفسه، 2/201

[3] مقالات شبلي، 5/62-63

5. كانت أنشطة شبلي العلمية واسعًا نطاقها فكان يتجوّل في التاريخ والأدب والإلهيات والكلام والفلسفة[1] وفن الحرب[2] والمعارف[3] وغيرها من المجالات والحقول العلمية فهو كان يصرّ على الأخبار العلمية في مجلة "الندوة" وكان عارفًا بالاتجاهات العلمية والسير العلمي فقد كتب الشيخ أحسن المارهروي في 1915م:

"لا يخفى على من له ذوق علمي ما نشر في مجلة "الندوة" من المقالات والرسائل العلمية ذات المستوى الرفيع خلال تحرير العلامة شبلي النعماني فهذه المقالات مما يعتزّ به الأدب الأردوي"[4].

كتب مقالته عن جرجي زيدان في شهر رمضان من حيث احتاج إلى تصفّح الآلاف من صفحات المجلدات الضخام ولما انتهى النقد فاته البصارة"[5].

وبعد إتمام معظم مشروعاته العلمية توجه العلامة شبلي نحو سيرة النبي قائلًا:

عجم کی مدح کی عباسیوں کی داستاں لکھی　　مجھے چندے مقیم آستان غیر ہونا تھا
مگر اب لکھ رہا ہوں سیرت پیغمبر خاتم　　خدا کا شکر ہے یوں خاتمہ بالخیر ہونا تھا

ترجمة: مدحت العجم وكتبت قصص بني العباس، ولقد قدّر لي أن أنزل لدى الأجانب.

ولكني الآن أؤلّف سيرة خاتم النبيين صلّى الله عليه وسلّم، فالحمد لله على أنه لفّ فرش حياتي على هذا.

---

[1] "لقد درست الفلسفة بكل جهد جهيد ودقة مثيلة"، رسالته إلى صدر يار جنگ، مكاتيب شبلي، 117/1

[2] مكاتيب شبلي، 216/2

[3] نجد في المجلد الثالث لمقالات شبلي فكرته العميقة ودراسته المتأنية في موضوعات المنهاج الدراسي القديم والمنهاج الدراسي الجديد، والندوة والمنهاج الدراسي.

[4] كسوف الشمسين، ص 14

[5] المصدر نفسه، ص 34

وبهذا الشأن تعرّف خيرًا على مؤلفات ماغوليث (Margoliouth) ونولديكي (Noldeke) ونيكولسون (Nicholson) ولهاؤسين (Wellhousen) وهو كان يعرف ماغوليث *أكبر عالم للعربية* ولكنه يكتب كما يلي: لم أجد حرفًا من حروف كتابه صحيحًا"[1]. وكان يرى أن كتابه عن سيرة النبي لا يولد كتاب يعادله للمآت من السنوات[2]. وقد وعد محمد علي أن يقوم بترجمته إلى الإنكليزية[3].

6. يعتبر شبلي محمدًا الحسين آزاد ونذيرًا أحمد وحالي ونفسه عناصر الأدب الأردوي الأربعة[4]. وكان شبلي أصغرهم سنًا أي 57 سنة (1857-1914م)، وكان آزاد ابن 83 سنة (1837-1910م)، وكان نذير أحمد ابن 76 سنة (1836-1912م) وأما حالي فكان ابن 77 سنة (1837-1914م) ولكن أعمال شبلي العلمية أكثرها عددًا وأوسعها تنوعًا ولقد صحّ ما قال السيد سليمان الندوي عن "مسدّس حالي": الكتاب الذي نال الخلود والقبول من بين الكتب المنثورة أو المنظومة التي ألّفت خلال 60 سنة الماضية هو مسدّس حالي"[5]. ولكن هذا من الواقع أن بعض مؤلفات شبلي كمعلم في الأدب الأردوي وهي التي أوجدت اتجاهات جديدة في مجال البحث والتحقيق وأقيم تقليد لتقديم تاريخ الإسلام وحضارته من جديد.

ولئن وضعنا أمامنا هذه الخلفية لأفكار وآراء شبلي لأمكن لنا تقدير خدماته التاريخية والأدبية تقديرًا صحيحًا.

---

[1] مكاتيب شبلي، 202/1

[2] المصدر نفسه، 242/2

[3] المصدر نفسه، 303/1

[4] المصدر نفسه، 234/2 وقد ضمّ مهدي الإفادي السير سيد أحمد خان إليهم فجعلهم "العناصر الخمسة"، إفادات مهدي افادي، ص 206-217.

[5] مسدس حالي، ص 37

وكان شبلي أعلى معاصريه درجة في مجال الأدب فكان ذوقه الفارسي ناضجًا وبديعًا فكان له اليد الطولى على فهم الشعر الفارسي وكتابته فكتابه "شعر العجم" أبدع كتاب وأجوده في الموضع على الرغم من نقد الحافظ محمود الشيراني له[1] ولقد صحّ مهدي الإفادي حيث قال: هذا أجمل نموذج للنقد العالي (Higher Criticism) تعتزّ أي لغة من لغات العالم"[2]. هذا ليس بتاريخ الأدب الفارسي بل هو كمثل مجموعة الصور للاتجاهات الأدبية والاجتماعية، ينطق عنها الشعر الفارسي وإن نظرنا عن جهة التاريخ لوجدنا شخصيات أدبية لم يكتب عنها ولكنها كما قال العلامة شبلي بنفسه: إني لم أرد بهذا سوى الاستعراض لكلام الشعراء"[3]. فلم يرد به جمع ولمّ أخبار الشعراء ولذا فهو كما قال بنفسه: قد أخذنا من كان له طريق وجادة متميّزة"[4]. ولقد قام شعر العجم بدور مهمّ في إحياء التاريخ وإقامة الذوق للشعر الفارسي في الهند وقد قيل أن "خريطة جواهر"[5] لمظهر جان جانان قد أوجد في الناس ذوقًا للشعر الفارسي ولكن الواقع أن شعر العجم للعلامة شبلي قد جعل الأدب الفارسي جزءً من التراث الأدبي للهند ونظرًا لهذا الواقع قد قال الشيخ أبو الكلام آزاد: إن الشعر الفارسي لا ينتهي على أسد الله خان غالب بل على العلامة شبلي النعماني"[6].

وإن أمعنّا النظر في اختيار الشعر في "شعر العجم" ووضعنا أمامنا ما سبقه من المؤلفات العلمية فسيهل لنا تقدير مدى تعصير شبلي عطر الشعر الفارسي وتأثيره في الاتجاهات الأدبية بل نشعر كثيرًا أن أبا الكلام آزاد قد تأثر في تمتعه من ذوق الشعر الفارسي.

---

[1] مقالات حافظ محمود شيراني، المجلد الخامس (الانتقاد على شعر العجم)

[2] افادات مهدي افادي، س 279

[3] مكاتيب شبلي، 215/2

[4] المصدر نفسه، 232/1

[5] مطبع مجتبائي، كانفور، سنة 1271هـ

[6] كاروان خيال، ص 94

ولقد كان العلامة شبلي يودّ أن يعدّ مختارًا للأبيات الأردوية[1]. وقد قام بقليلٍ منها ولكنه فيما بعد التفت إلى أعمال أخرى ولم يتقدّم هذا العمل إلى الأمام ولو انتهى هذا العمل لثبت خير معين في استعراض ذوق الشعر الأردوي دعْه أن يكون ناصرًا في إحياء تاريخ الشعر الأردوي.

لم يكن العلامة شبلي يزن فتيلًا أيّ كاتب من كتّاب الشرق والغرب لدى دراسة الأدب الفارسي فهو يقول عن كتاب "نگارستان فارس"[2] للشيخ محمد حسين آزاد: لم يتجاوز إلى حدودي فجال جولة سارحة وخرج منها"[3] ولو أنه كان معترفًا بعلم براؤن عن الفارسية وكان يقول: معرفته للفارسية لا تنكر"[4] فهو يكتب بالفارسية أجود وأبلغ من المسلمين[5] ولكنه يقول بعدما درس تاريخه للأدب الفارسي[6]: لا أبالغ ولا أتكلف في القول بأني قد تأسّفت حينما قرأت كتاب براؤن، إنه تأليف عادي وسطحي وقد سمعت ترجمته عن الأخ إسحاق كما تصفّحته"[7].

ولكلام شبلي ذاته درجة معترف بها في الأدب الفارسي فهو يتميّز عن غيره في الوجد والحنين ويتفرّد بالتفكير وأسلوب الأداء ولقد قال الشيخ أبو الكلام آزاد عن شعره الفارسي:

"لم ينته الشعر الفارسي على غالب بل عليه ولقد تخيّلت غير مرة أنه لو التفت إلى الشعر كما يرام فلم يقلّ عن غالب في هذا المجال وزدْ على ذلك أن غالب لا يوزن سوى في

---

[1] مكاتيب شبلي، 200/2

[2] مطبعة كريمي، لاهور، 1922م وقد نشره أكادمي لكناؤ الأردوي كجزء ثانٍ لـ"سخندان فارس" (لكناؤ، 1979م)

[3] مكاتيب شبلي، 212/2

[4] المصدر نفسه، ص 200

[5] المصدر نفسه، ص 209

[6] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

[7] المصدر نفسه، ص 211

مجالي التغزل والمدح ولكن العلامة قد أوجد مجالات بديعة للتفكير والتخييل بجانب صيانته للذوق العالي للفارسية، والتي تشهد بها منظوماته الفارسية لاسيما ما قال عن حيدراباد وعلى هذا فلا نبالغ إذا قلنا إن العلامة أوحد شاعر عرّف للشعر الفارسي بالمجالات الحديثة بجانب صيانة أسلوبه الشعري. ويتضح هذا الواقع حينما نوفّق قراءة ما أهمل لدى شعراء إيران الجدد"[1].

كان الشيخ آزاد يحبّ ما يلي من بيت العلامة شبلي الفارسي[2] وأما حالي فهو كان يغيب عن الدنيا لساعات حينما يستمع إليه[3]:

دو دل بودن درس ره سخت تر عيبے ست سالك را خجل هستم ز كفر خود كه دارد بوے ايماں هم

ترجمة: مما يعيب السالك أن يكون ثنويًا بالنسبة للمسلك، فإني نادم على أن كفري يشوبه الإيمان.

وكان الشيخ آزاد يعتبر تقييم شبلي لشعر أكبر دليلًا على جودته يمكن الظفر به في ذلك الزمن ---"[4].

وعندما يرجع شبلي نظرته عن الأدب إلى التاريخ فنجد العالم غير العالم فيتبدّل الوجد والحنين بالنقد والتحليل والجمع والحفل بأسماء الرجال فهو أوّل من حاول أن يضع أصولًا للرواية والدراية في كتابه "سيرة النبي" فاختار أصول الغرب التي كان بإمكانها أن تدلّه على الصحة في هذا المجال بجانب شرح أصول الرواية وأسماء الرجال شرحًا قد أحاط بما كانت تطويه البحوث الحديثة من الأصول، وما قام به شبلي من النقد على المستشرقين ودلّ على أخطائهم قد زاد نار الحركات المصرية والتركية إشعالًا، التي لم تبرز في هذا المجال خير بروز فنقده على جرجي زيدان، وماغوليث، ونيلكولسون وغيرهم من الكتّاب المستشرقين قد خلق الثقة بالنفس في تلك البلاد. وترجمة "سيرة النبي"

---

[1] كاروان خيال، ص 94

[2] المصدر نفسه، ص 95، وغبار خاطر، ص 156

[3] المصدر نفسه، ص 95

[4] المصدر نفسه، ص 92

التركية دليل على تقدير بحوثه وتحقيقاته من قبل الدول الإسلامية فسيرة النبي أهمّ كتاب ديني هندي بعد رسائل مجدّد الألف الثانية قد اعتنى به الأتراك عناية شديدة.

ولقد اتهم المستشرقون المسلمين بإحراق مكتبة الإسكندرية[1] فدرس العلامة شبلي هذا التراث بإمعان وساهم في هذا النقاش بعدما قرأ كتابات غبن، ووائت، وديسائي (Descacy)، وكريل ومجلات Spectator ومجلّدات Encyclopaedia وردّ تلك الاعتراضات والاتهامات بدلائل وبراهن قاطعة ثم قال: سيأتي زمان تعترف فيه أوربا:

ہم الزام ان کو دیتے تھے قصور اپنا نکل آیا

ترجمة: كنا نتهمهم ولكنه ثبت أننا مجرمون.

ثم قام العلامة شبلي بتأليف رسالتين لبيان درجة الذميين في الدولة الإسلامية وإزالة سوء التفاهم عن قضية الجزية، وسمّاهما بـ"حقوق الذميين"[2] و"الجزية"[3] وما قام به العلامة من النقاش حول هذه القضايا في ضوء الفقه الإسلامي قد زال به العديد من سوء التفاهم، فلم يكن في الدول العربية تراث كهذا ولا أمكن لأحد أن يسلط الضوء على هذه القضايا كما ينبغي فكان السير سيد أحمد خان ينادي هل أحد يستطيع بحمل هذا العبء الثقيل؟!

وكذا قام تحقيق العلامة شبلي عن السلطان المغولي أورنك زيب[4] بإزالة العديد من سوء التفاهم ودلّ على الفرامين والمصادر التي قد شمّر سرجدو ناث عن ساقه للبحث عنها في الأيام المتأخرة.

ولما ألّف العلامة شبلي "المأمون" قد سرّ السير أسلوب كتابته وطريقة بحثه فقال في مقدمته:

---

[1] طبعت هذه المقالة من مطبعة مفيد عام، آغره، 1892م

[2] رسائل شبلي

[3] مقالات شبلي، 1/185-220

[4] مضامين عالمغيري

"إن تاريخنا قد دوّن في زمن لم يترقّ فن كتابة التاريخ كما هو الآن فدرر مآثر آبائنا منتثرة هنا وجواهر محامد أجدادنا مختفية هناك فهذا عمل رجل مؤهّل بأن يجمعها فينظمها في سلك جميل جذّاب --- ويسرّنا أن صديقنا المكرّم[1] وبروفيسور كليتنا الشرقية الشيخ محمد شبلي النعماني قد تحمل عبء هذا الثقل الباهز وأحبّ أن يكتب سلسلة تراجم أبطال الإسلام (Heroes of Islam) وهذا الكتاب حلقة من تلك السلسلة الذهبية"[2].

ويقول مشيرًا إلى جهوده المضنية في البحث والتجقيق:

"لم يكتب المؤلف شيئًا لم يحله إلى مصدر موثوق به"[3].

ثم يشير إلى أسلوب كتابته فيقول:

"ألّف هذا الكتاب باللغة الأردوية ولغتها سلسلة بليغة إلى حدّ يغتبط بها أهالي دلهي"[4].

والواقع أنه لم تضبط ترجمة خليفة عباسي مثلما قام به العلامة شبلي.

و"النعمان"[5] و"الغزالي"[6] يحلّلان الفقه والتصوف تاريخيًا وما كان للعلامة شبلي من هيام بالإمام أبي حنيفة يبديه نسبته "النعماني" والذي أثاره على تأليف هذا الكتاب هو الدفاع عن الفقه الإسلامي فهو قال في المقدمة: قد انتشرت مسائل الإمام أبي حنيفة الاجتهادية في كافة البلاد الإسلامية منذ اثني عشر قرنًا ---- فكان من ظلمه أن لا يقوم

---

[1] وعلى أن شبلي كان أصغر من السير سيد أحمد خان أربعين سنة وكان موظفًا في مدرسة العلوم وأسفل منه إلا أنه قد أبدى تكريمه البالغ له.

[2] المأمون، ص 1

[3] المصدر نفسه

[4] المصدر نفسه

[5] طبع من مطبعة مفيد عام، آغره، 1892م

[6] طبع من مطبعة نامي، كانفور، أغسطس، 1902م

أحد بتأليف ترجمته بالأردوية"[1]. وما قام به العلامة شبلي من النقاش حول الحديث وأصوله والاجتهاد مليئ بالدقة واللطافة ثم أنهى الكتاب على الشعر التالي:

افســـانۂ يـــاران كهـــن خوانـــدم ورفـــتم درياب كـه لعـل وگهـر افشـاندم ورفـتم

ترجمة: قرأت قصة أحبتي الأقدمين ورجعت، انظر كيف نثرت اللآلي والجواهر ثم رجعت.

لم يتسلّل في "الغزالي" من خلال التصوف بل أخذ علم الكلام بيده إلى ذلك الرقاق إلا أنه اعترف بواقع أن"ما قام به الإمام الغزالي من المحامد عن فن الأخلاق قد سبّبها التصوف"[2]. ولقد قرأ مؤلفات البروفيسور غوشي (R. Gosche) والبروفيسور مونك (S. Munk) عن الإمام الغزالي ولو أنه لم يوفّق الاستفادة التامة من غوشي بما أنه كتب باللغة الألمانية.

و"الفاروق"[3] أجود نموذج لتبحّر العلامة شبلي التاريخي والتحقيقي فلم يصدر تأليف من هذا النوع بعد "إزالة الخفاء عن الخلفاء" للشاه ولي الله الدهلوي فأنهى هذا العمل بكاشمير في 5/ يوليو سنة 1898م على ما يلي من كلمات الشاه ولي الله الدهلوي:

"هبْ صدر الفاروق الأعظم بيتًا له أبواب مختلفة وبكل باب يقيم رجل بارع في فنّه الخاص --- كلما يقدّم إليه طلب لا يعود غير ظافر ---"[4].

أول ما صدر من قلم العلامة شبلي عن سيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم هو رسالة "بدء الإسلام" التي ألّفها على طلب من السير سيد أحمد خان وقام بترجمتها الفارسية الشيخ عبد الحميد الفراهي[5]. كان السير سيد أحمد خان له عناية بالغة بسيرة النبي حتى خلف أخير ما ألّف كان عن الأزواج المطهّرات[6]، وما أبداه العلامة شبلي من نشاط وما أظهره

---

[1] سيرة النعمان، ص 5

[2] الغزالي، ص 257

[3] طبع من كطبعة نامي، كانفور، 1899م

[4] الفاروق، ص 311-312

[5] طبع من مطبعة ممفيد عام، آغره والمطبعة التجارية، علي كره

[6] مجلة محمدن إينغلو أورينتال كولج، أبريل، 1898، ص 1-36

من الحماس عن سيرة النبي هو جانب رائع زاهر من حياته الأدبية فقد لفظ نفسه الأخيرة وهو يقول: السيرة، السيرة.

وبصرف النظر عن الأعمال المستقلة عن سيرة النبي فقد خلف العلامة شبلي مقالات ورسائل قد نوّرت طرق التاريخ وسبله.

ومقالاته عن علوم القرآن أمثال "تاريخ ترتيب القرآن"[1] (تاريخ جمع القرآن) و"علوم القرآن"[2] و"إعجاز القرآن"[3] نماذج رائعة للبحث والتحقيق والترجمة وكذا مقالاته عن اللغة العربية من أمثال "عربي اور فارسي شاعري كا موازنة"[4] (المقارنة بين الشعر العربي والفارسي) و"شعر العرب"[5] آيات دالة على تبحره في اللغة العربة وآدابها. فلو وجد الفرصة لقام بتأليف كتاب رائع عن شعر العرب كما قام بكتابة مؤلّف جميل عن شعر العجم.

وما كتبه العلامة شبلي عن المناهج الدراسية فيما بين المسلمين وما قام به من المقارنة بين المنهاج الدراسي النظامي والمنهاج الدراسي الجديد ناطقة عن حدة ذهنه ومسير فكرته[6].

وهكذا مقالاته عن مصادر تاريخ الهند وحضارتها أمثال "همايون نامة"[7] و"مآثر رحيمي"[8] و"تزك جهانغيري"[9] و"تحفة الهند"[10] و"زيب النساء"[11] تنوّر القلوب والأذهان. وله رسالة

---

[1] مقالات شبلي، 1/1-24

[2] المصدر نفسه، ص 25-33

[3] المصدر نفسه، ص 34-37

[4] المصدر نفسه، 2/49-56

[5] المصدر نفسه، ص 29-48

[6] والمجلد الثالث لمقالاته حافلة بالمعلومات المفيدة عن هذا.

[7] مقالات شبلي، 4/54-65

[8] المصدر نفسه، ص 66-81

[9] المصدر نفسه، ص 82-114

[10] المصدر نفسه، 2/92-103

[11] المصدر نفسه، 5/100-111

عن "تعصب اور اسلام"[1] (العصبية والإسلام) حافلة بالمعلومات ولأجل تسليط الضوء على مآثر المسلمين المدنية قام العلامة شبلي بكتابة مقالات جميلة أمثال "اسلامي حكومتيں اور شفاخانے"[2] و"ميكنكس اور اسلام"[3] و"هندوستان ميں اسلامي حكومت كے تمدن كا اثر"[4] وهكذا فحدّد نطاق استعراض التأثير الحضاري في التيموريين، الأمر الذي قد زاد هذه الرسالة أهمية ودرجة.

وما كان للعلامة من هواية للأدب الأردوي يبديها فكرته عن نشر مختار للأبيات الأردوية وكذا نجد ذوق الشعر الأردوي رفيعًا ورافعًا في كتابه "موازنة أنيس ودبير"[5] وكذا مقالاته "املا وصحت الفاظ"[6] و"اردو هندي"[7] و"بهاشا زبان"[8] و"سر سيد اور اردو لٹريچر"[9] تدلّ على عنايته الشديدة باللغة الأردوية. فهو يقول عن السير سيد أحمد خان:

"وما خلفه السير سيد أحمد خان من المحامد والمآثر ولو تراها في كل مكان عن جهة الإصلاح والتجديد ولكن التي قد نالت التفاتها وبلغت من الثرى إلى الثريا منها الأدب الأردوي --- وأكبر ما يتصف به إنشاء السير سيد أحمد خان أنه كتب قليلًا أو كثيرًا بل لا نبالغ لو قلنا أنه كتب كثيرًا وما تناوله بالكتابة قد بلغ به درجة لن نتخيّل درجة أعلى منها وشبلي ذاته قد شرب من هذا المنهل ثم اصطبغه صبغة جديدة تختص به.

---

[1] محاضرات الجلسة السادسة لمؤتمر دهلي التعليمي الإسلامي، مطبع أحمدي، علي كره

[2] مقالات شبلي، 6/176-193

[3] المصدر نفسه، ص 235-240

[4] المصدر نفسه، ص 194-216

[5] طبع موازنه أنيس ودبير من مطبعة الناظر، لكناؤ، 1924م

[6] المصدر نفسه، 2/67-71

[7] المصدر نفسه، ص 72-78

[8] المصدر نفسه، ص 79-91

[9] المصدر نفسه، ص 57-66

[10] المصدر نفسه، ص 61

ولقد صحّ مهدي الإفادي حيث قال:

"وشبلي أول كاتب هندي اصطبغ التاريخ صبغة الفلسفة وجعله فنًّامستقلًا به بفضل اكتشافاته الحكيمة وإبداعاته المتنوعة"[1].

[1] إفادات مهدي، ص 213

المصادر والمراجع

1. أحسن المارهروي: كسوف الشمسين، بدايون، 1915م
2. شبلي النعماني: ديوان شبلي، المطبعة النامية، كانفور، سنة الطبع لم تذكر
3. شبلي النعماني: رسائل شبلي، مطبعة روزبازار استيم، امرتسر، 1911م
4. شبلي النعماني: سفرنامه روم ومصر وشام، آغره، 1894م
5. شبلي النعماني: سيرة النعمان، مطبعة مفيد عام، آغره، 1892م
6. شبلي النعماني: كتب خانه اسكندرية، مطبع مفيد عام، آغره، 1892م
7. شبلي النعماني: مقالات شبلي، أعظم كره، 1954م
8. شبلي النعماني: مكاتيب شبلي، دار المصنفين، 1916م
9. شبلي النعماني: موازنه أنيس ودبير، مطبعة الناظر، لكناؤ، 1924م
10. مجلة كلية محمدن إينغلو، علي كره
11. محاضرات الجلسة السادسة لمؤتمر دلهي الإسلامي التعليمي، مطبعة أحمدي، علي كره
12. مضامين عالمغير، مطبعة انتظامي، كانفور، 1911م
13. مظهر محمود شيراني: مقالات حافظ محمود شيراني، لاهور، 1970م
14. مهدي افادات مهدي افادي، غورخبور، 1923م
15. شبلي النعماني: الغزالي، مطبعة نامي، كانفور، أغسطس، 1902م

العلامة شبلي يتدبّر القرآن

- الشيخ كليم صفات الإصلاحي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

كانت شخصية العلامة شبلي النعماني ذات جوانب متعددة وجهات شتى ومنها تدفّقت عين البحث في العلوم والفنون التي تكون بها حديقتها خضراء حوّاء ولقد كان العلامة مقتنعًا بأشغاله ومطمئنًا إلى أعماله وكان متيقنًا أنما أبدأه اليوم ستسمع صداه في كافة أنحاء العالم وإلى أبد الآباد فهو يقول:

سالها گوش جهاں زمزمه خواهد بود زیں نواها که دریں گنبد گرداں زده أم

ترجمة: سترجع أذن العالم صدى الألحان التي تركتها في هذه السماء.

يزعم بعض الناس أن العلامة شبلي لم يكن سوى مؤرخ كبير ولم يكن له إلمام بأي علم غيره والحال أن أحدًا لو قام باستعراض ما تركه العلامة من المآثر العلمية والتحقيقية بعين الإنصاف فلا يلبث إلا وهو يعترف بأن العلامة قد أثر ولو قليلًا في كل شعبة من شعب علم أو فن فهو كان مطلعًا على كل علم وفن تفسيرًا كان أو حديثًا، فقهًا كان أو كلامًا أو فلسفة وصدق الشيخ عبد الماجد الدريابادي حيث قال:

"لقد وفّق العلامة شبلي تنوعًا في الموضوع فلقد أدّى حق الموضوع حينما أنشأ مقالة أو كتابًا في تاريخ أو ترجمة، شعرًا أو نقدًا للشعر، كلامًا أو فلسفة"[1].

وشاعر القرن العشرين للغة الأردوية محمد إقبال سهيل الذي قد تلمذ للعلامة شبلي يرطب لسانه بأفضال أستاذه بكلمات تالية:

---

[1] مجلة "معارف"، 95/عدد مارس، 1965م، ص 194

"ليست كتب العلامة في التاريخ مجرد قصص المغازي والفتوح بل هي تقدّم صورة جميلة لمحامد الإسلام العلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية فجملةٌ نشأتْ من قلم العلامة في مبحثٍ تفوق صفحاتٍ فيه وتثبت فصلًا عليه"[1].

وفي هذه المقالة الوجيزة سنتحدث عن أفكار وآراء العلامة شبلي عن القرآن الكريم ومباحثه التي صدرت من قلمه لحبّه الشاغف بالقرآن ونفسه التوّاقة إليه، وهي ستثبت علة من علل ميزات العلامة النعماني وقد تناولها العلامة بالبحث الحافل المتحلّي بالدلائل والبراهين. ويمكن لباحث أن يقدّر، ولو قليلًا، إمعانه في القرآن وتمّيزه بالبحث والتحقيق فيه من الصفحات البدائية للمجلد الأول لمجموعة مقالاته. ولو أنه لم يخلف كتابًا مستقلًا بالموضوع إلا أنما كتبه في "سيرة النبي" عن قضايا تتعلق بالقرآن وعلومه ويبدو من دراستها أن العلامة كان له إلمام تامّ بالقرآن وعلومه وعلى هذا فقد جعل القرآن أول وأهمّ مصدر لسيرة النبي الكريم وقدّم صورة مضيئة لجوانب سيرة النبي العربي وخلقه العظيم في ضوء هذا المصدر الصافي. وهو كان يودّ أن يعمّم هذه النعمة الربانية في الناس ولذا فقد جعل يدرّس القرآن فيما بين الطلبة حين قيامه بعلي كره لكي يصطبغوا بالصبغة القرآنية ويتعرفوا على القرآن وعلومه، وقد جعل هذه الدروس ممتعة إلى حدّ مالت إليها قلوب الطلبة كما يقول السيد سليمان الندوي:

"ثم جعل العلامة يعلّم الطلبة القرآن وجعله ممتعًا إلى حد شغفوا بدراسته ممعنين فيه وشرع ينمو فيهم ذوق القرآن والتدبر فيه"[2].

ولما احتل منصب نظارة المعارف في ندوة العلماء أدخل "إعجاز القرآن" في مقرّرات الندوة الدراسية لأجل رغبته هذه في القرآن وعلومه كما قرّر فيه تدريس أجزاء القرآن فيقول السيد سليمان الندوي:

---

[1] مجلة كلية شبلي الوطنية، ص 83 (أفكار سهيل)

[2] حيات شبلي، ص 149

"ولتدريس القرآن بأسلوب علمي أفرغ من وقته في 1906م وجعل يدرّسه. وكان يحضر دروسه طلبة المدرسة وبعض أساتذتها، وكان يجري فيها النقاش عن كل قضية ومسئلة"[1].

وفي أبريل في نفس السنة كتب إلى السيد سليمان من فارانسي: "سآتيكم وأفسّر لكم القرآن"[2].

وفي 2/ أغسطس سنة 1906م يكتب إليه في رسالة: "نعم، يدرّس القرآن، ولكن بالبحث والتحقيق"[3].

وبالجملة فلقد كان للعلامة شبلي ذوق خاص بالقرآن وعلومه ويشهد بها بحوثه القيّمة في الدراسات القرآنية وتحقيقاته وتفسيراته الرائعة. ومن الأسف الشديد أن الكاتبين عن شبلي ومآثره لم يعتنوا بكشف القناع عن هذا الجانب العلمي من شخصيته ففي هذه العجالة نتناول جانبه العلمي هذا ولو بصورة موجزة.

جمع وتدوين القرآن الكريم: وقبل كل شيء نقدّم للقراء أفكار العلامة شبلي ونظرياته العالية التي تتعلق بجمع وتدوين القرآن وبشرح وتوضيح كلمتي "صحيفة" و"سفرة". وكما ثبت بالأحاديث أن عملية جمع وتدوين القرآن قد بدأت في عصر النبي صلّى الله عليه وسلّم فكان الناس يكتبون القرآن على الأوراق من الجلد والرق فيجمعونها لديه[4]. وهكذا فقد دوّن معظم أجزاء القرآن، وبما أن الوحي واصل حتى وفاته وبما أن مرافقتها كانت صعبةً في كل ثانية فكتبت بعض الآيات على رقّ أو عظم ولكنها لم تنضم إلى تلك المجموعة فيقول العلامة شبلي أن القرآن الكريم قد جمع ودوّن في عهد النبي من حيث أن لا يبقى أي جزء من القرآن غير مكتوب[5].

---

[1] المصدر نفسه، ص 433

[2] مكاتيب شبلي، 67/2

[3] المصدر نفسه، ص 72

[4] الإتقان في علوم القرآن، 59/1

[5] مقالات شبلي، 8/1

وقد كانت حال القرآن كما ذكرنا حتى السنة الأولى لخلافة أبي بكر الصديق ولما استشهد أغلبية الحفّاظ في حرب يمامة لفت عمر أنظار أبي بكر إليه ففوّض هذه الفريضة المهمة إلى زيد بن ثابت أحد كتّاب الوحي فجعل زيد يجمع القرآن من حيث وجد.

ويرى عامة الناس أن عثمان هو جامع القرآن وهو الذي قام بجمع وتدوين القرآن فيقول العلامة شبلي مشيرًا إلى هذا الاختلاف في الآراء: لم يقم عثمان بن عفان بجمع وتدوين القرآن. إنما قام به هو إعداد بعض نسخ القرآن الذي جمعه ودوّنه أبو بكر إلى مختلف الأمصار لكي يتلى القرآن طبق نسخة أبي بكر.

ولقد ردّ العلامة شبلي هذه التهمة الموجّهة إلى عثمان بأنه أمر بإحراق مختلف أجزاء القرآن وقدّم ما أدلى به الحافظ بن حجر من رأي مبرهن أن كلمة "يخرق" تعدل كلمة "يحرق" في أغلب الروايات ومعنى تلك أن تلفّ ما بقي من أجزاء القرآن فلا تستخدم منذ الآن[1].

وقد أثبت العلامة شبلي في ضوء الدلائل التاريخية ما بذله عثمان الغني من جهود حقيقية بالنسبة لجمع وتدوين القرآن كما أزال هذه التهمة التي وجّهت إليه لأجل فقد البحث والتحقيق. فالحمد لله على أن العامة قد اطمأنت قلوبهم إلى ما قدّمه العلامة من رأي مبرهن في هذه القضية.

المراد من "صحيفة" و"سفرة": قد استخدم القرآن كثيرًا كلمات "صحيفة" و"كتاب" و"لوح" فما هو المراد من تلك فهل أريد بها هذا القرآن أم اللوح المحفوظ أم كتاب الأعمال البشرية؟

قام العلامة بتحقيق هذه الكلمات في ضوء أصل مهمّ "تأويل القرآن بالقرآن" فقد ناقش الآية "وكتاب مسطور في رق منشور" فأثبت أن المراد من الصحيفة هذا القرآن ولا غير فهو يقول:

---

[1] المصدر نفسه، ص 22

"الرق جلد كان يستخدم للكتابة في قديم الزمان والمنشور هو المنتشر فالبديهي أن لا يراد به كتاب وضع ملفوفًا فالقرآن كتاب يجب استخدامه ويتلوه مسلمو كافة العالم ثم يتعجب العلامة من تحقيق المفسّرين بأنهم قد أرادوا به اللوح المحفوظ أو كتاب الأعمال مع أنه تبعه شرحه. ويفنّد رأي المفسرين ذاك ما استدلّ به العلامة من العقل: هل استخدم الرق لكتابة الأعمال؟ فاتضح جليًا من هذه الكلمة أن القرآن قد كتب أولًا في الجلود وما أشبهها من الكواغذ في عصر صدر الإسلام ولم يرد بهذه الكلمات إلا هذا القرآن وهو يمضي قائلًا:

"ونحمد الله على أن بعض المفسرين قد أرادوا بها ما صحّ وصاب[1] فقد جاء في تفسير أبي السعود "المراد به القرآن"[2] وذهب مذهبه الإمام الرازي"[3].

جاء في سورة عبس: في صحف مكرمة مرفوعة مطهّرة بأيدي سفرة كرام بررة" يفسّره العلامة شبلي فيقول: لو أردنا بـ"سفرة" سفراء فسيكون الملائكة سفراء الوحي بمن فيهم جبريل ولكن اللوح المحفوظ ليس بأيديهم وهذا معترف به أنهم بلّغوا الوحي الأنبياء عن ظهر قلب فلم يكونوا يحملون أوراق اللوح المحفوظ إليهم فيثبت من هذا أن القرآن في الصحف وتلك الصحف بأيدي صحابة كرام بررة ولتأييد قوله يستدل بما جاء في التفسير الكبير من:

"والسفراء الكرام البررة هم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقيل: هم القرّاء"[4].

ولقد اعتبر العلامة رأي قدامى المفسّرين أن المراد بالصحيفة اللوح المحفوظ والسفرة الملائكة[5] من حسن ظنهم بالملائكة وهو ليس بصحيح وذلك لأن سياق الآيات وسباقها

---

[1] المصدر نفسه، ص 5

[2] تفسير أبي السعود، 693/7

[3] التفسير الكبير، 58/6

[4] المصدر نفسه، ص 480

[5] ونفس الرأي أدلى به الشيخ أمين أحسن الإصلاحي حامل لواء فكرة الإمام الفراهي وأكبر المفسّرين في القرن العشرين، راجع: تفسير تدبر قرآن، 202/9-203

يدلان على المراد من الصحيفة القرآن الكريم والسفرة الصحابة الكرام ولنقرأ ما كتبه العلامة بهذا الشأن:

"يرى من حسن ظنه بالملائكة أن المراد من الصحيفة اللوح المحفوظ وأن السفرة هم الملائكة أي القرآن في اللوح المحفوظ الذي بأيدي الملائكة ولكن هذا ليس بصحيح فقد ثبت لدى كافة المفسّرين أن السفير هو الكاتب أو السفير وهذا بديهي أن اللوح المحفوظ لم يكتبه الملائكة بل كل ما نقش عليه هو بيدي الله جل جلاله فلن يراد منهما أن اللوح المحفوظ بأيدي الملائكة الذين كتبوا فيه ويمكن أن يحمل اللوحَ المحفوظَ الملائكة وهم يعرفون الكتابة ولكن لم أجد في رواية ذكر ملك سماوي يقدر على الكتابة"[1].

يرى العلامة شبلي أنه لما عزم الله على تدوين القرآن وحفظه فقد وفّر أسبابًا ظاهرية لصيانته فهو يكتب مستدلًا بقوله تعالى "إن علينا جمعه وقرآنه" (سورة القيامة: 17) الشيء الذي ذكر فيه صيانته ليس باللوح المحفوظ بل هو القرآن الذي كان يكتبه الصحابة بأمر من النبي الكريم والذي كتب على صفائح من الرق والجلد والعظم ولم يكن من كاتبيه سوى الصحابة الكرام.

وفكرة العلامة شبلي تصدق الظن لأن اللوح المحفوظ يتعلق بالسماء كما ثبت أن صيانته مأكولة للملائكة الكرام فلا مساغ لضياعه أو لتدخل روح نجسة فيه إلا هذه النسخة التي بأيدي الناس فقد أمكن ضياعها أو تحريفها أو خلط الحق بالباطل فيها كما حدث مع الصحف السماوية الأخرى مثل التوراة والإنجيل فقد تحمّل الله بنفسه صيانته وبدأها بأن استكتبه بأيدي صحابة كرام بررة على أوراق من الرق والعظم والجلد وفوق تلك أنه حفظه في قلوب الملايين من المسلمين مما لن يمكن التحريف فيه.

بداية فن التفسير: والعلم الإسلامي الذي لفت إليه أنظار المسلمين خاصة والذي كتب فيه الآلاف من الكتب والرسائل هو فن التفسير. ولو أن محبّيه والتوّاقين إليه قد كثر

[1] مقالات شبلي، 6/1

عددهم في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي خلال القرون الأولى للهجرة ولكنما قام بتأليفه القدامى حتى القرن الرابع الهجري قد ذهب به الدهر والفن الذي كان أغنى الفنون أصبح مفتقرًا أكثر بكثير. يقول العلامة شبلي النعماني:

"لقد ألّفت آلاف من الكتب في هذا الفن ولكن اليوم هذا الفن أكثر افتقارًا من غيره من الفنون الإسلامية فقد ضاعت مؤلفات القدامى حتى لا نجد أي تفسير من القرن الرابع الهجري وأما ما ألّف فيما بعد فلو أنه كثير جدًا إلا أنه تكرار مكرّر"[1].

يقول العلامة شبلي إن الصحابة لم يحتاجوا إلى معلّم في فهم القرآن إلا في بعض المعضلات التي كان الصحابة يسألون من كان أعلمهم به ولكن حينما اتسع نطاق الدولة الإسلامية وتسلّلت أفكار وآراء وتوسّعت طرق وأساليب التفكير فاحتاجوا إلى تدبر الآيات القرآنية المتعلقة بالأحكام فأول من التفت إلى هذا الجانب من بين الصحابة كان عليًا ثم حذا حذوه عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وأبي ابن كعب وأبو موسى الأشعري وكان أبرزهم عبد الله بن عباس الذي استفاض منه العدد الغفير من طلاب القرآن الكريم. وأما عن جهة الفن فقد بدأ به سعيد بن جبير فكتب تفسيرًا بأمر من الخليفة عبد المالك وقدّمه إليه[2].

ثم يقول العلامة: ثم جاء الأئمة المجتهدون الذين ألّفوا التفاسير ومنهم سفيان بن عيينة وأبو بكر بن أبي شيبة ومن ثم عمّ التفسير وشرح معضلات القرآن.

أقسام تفاسير القدامى حسب المباحث: لما عمّ التفسير ظهر من بين القدامى من أفرد مؤلفاتهم بموضوعات خاصة للقرآن وبرز في هذا المجال كبار العلماء والمفسّرين فكتب أحدهم في الجانب الفقهي للقرآن بينما الآخر كتب عن أسباب النزول كما كتب الثالث عن الكلمات الأعجمية الواردة فيه وهكذا كتب الرابع عن أمثال القرآن وألّف الخامس عن تأويل المتشابهات حتى بلغ عدد مثل هذه المباحث 80 وفي كل موضوع كتاب أو

[1] المصدر نفسه، 42/4

[2] ميزان الاعتدال، 197/2 ومقالات شبلي، 27/1

كتابان أو ثلاثة. والعلامة شبلي يؤيد هذا النوع من التفسير ويدلّ على ما يكمن فيه من الفوائد العلمية والدينية[1] ثم يقول: ولو أن عدد هذه الكتب كبير إلا أنها مقسومة في ست زمر تالية:

1. التفسير الفقهي: في تفاسير هذا القسم يتحدث عن الآيات التي تستنبط منها القضايا الفقهية مثل أحكام القرآن للإمام أبي بكر الرازي وأحكام القرآن لإسماعيل بن إسحاق.
2. التفسير الأدبي: في تفاسير هذا القسم ينطق عن حقيقة القرآن ومجازه، وتشبيهاته واستعاراته، ومكرّراته، ووجوه ترتيبه، وصنائعه وبدائعه، وفصاحته وبلاغته فيثبت أن القرآن معجز من هذه الجهات.
3. التفسير التاريخي: يذكر في تفاسير هذا النوع قصص الأنبياء السالفين وأخبارهم.
4. التفسير النحوي: في تفاسير هذا القسم يتحدث عن القضايا النحوية للقرآن.
5. التفسير اللغوي: فيها تشرح مفردات القرآن ومعضلاته اللغوية.
6. التفسير الكلامي: يبحث في تفاسير هذا القسم عن الآيات التي تحتوي على العقائد[2].

أعرب العلامة عن قناعته بالتفاسير الفقهية القديمة وقال: لا يتسع فيها المجال للزيادة لأن كبار الأئمة ألّفوا فيها ولم يألوا أي جهد للبحث والتحقيق وكذا يقول عن القضايا النحوية ومفردات القرآن: لن يمكن أن نزيد فيها"[3] ثم استعرض ما بقي من الأقسام التفسيرية بإجمال مقنع مما يثبت أن العلامة كان له إلمام تام بالموضوع. وقد أعرب عن أسفه في كتب القصص والأخبار فقال إن القرآن يجمل الوقائع التي هي صحيحة أصلًا والتي كان بإمكانها التأثير في طبائع البشر ولكن المفسرين قد أضافوا خلال تفسير آيات

[1] مقالات شبلي، 27/1

[2] المصدر نفسه، ص 28

[3] المصدر نفسه، ص 29

القرآن أشياء لا أساس لها من الأصل فأصبحت تفاسيرهم مجموعة الأساطير وقد مارسوا نفس المعاملة مع بئر بابل وجبل قاف وذي القرنين[1].

ويمكن لنا أن نقول في ضوء دلائل العلامة شبلي التاريخية والتحقيقية والنقدية إنه يجب علينا أن ندرس تفاسير القرآن بإمعان ونقد فدراستها عميانًا تجرنا إلى عبادة الخوارق وعجلة العقيدة وبطلان الفكرة وكما قال العلامة:

"وما نجده في المسلمين من عبادة الخوارق وعجلة العقيدة وبطلان الفكرة جاء بها هذه الروايات الباطلة"[2].

من وجوه إعجاز القرآن: أجمعت كافة الفرق الإسلامية على أن القرآن لن يؤتى مثله ونسمع دويّ هذه الدعوى القرآنية منذ أربعة عشر قرنًا حيث قال تعالى: فأتوا بسورة من مثله" وسنسمعها حتى يوم القيامة. ولكن هناك سؤال: ما هو الوجه لإعجاز القرآن هذا؟ وأي صفة منها تجعله معجزًا؟ وما هي الخصائص التي يعجز عن تقديم مثلها أي كتاب في هذا العالم. ففي الرد على هذا السؤال اختلفت هذه الفرق وذهبت كل منها مذهبًا خاصًا بها فقالت إحداها إنه معجز لتنبوؤاته مما هي لن يدركها البشر وقالت الثانية إن تقديم نسخة تعادلها سهل للإنسان إلا أن الله قد أمسك بأيدي البشر عن إتيان مثله وقالت الثالثة إن من إعجازه أنه يكشف القناع عما تكنّ صدور البشر وأما الأشاعرة فيرون أن بلاغة القرآن هي إعجازه فالقرآن معجز لفصاحته وبلاغته.

وبدون البحث عن هذه الآراء كلها تناول العلامة شبلي رأي الأشاعرة ذلك بنقد شديد وحيرة شديدة فهو يقول إن أذهان الناس لم تمل إلى ما يريد القرآن بيانه عن القضية التي لم يزالوا يناقشون حولها فهو يقول إن القرآن سيجيب على دعواه بما أنها من عنده فقد ذكر الله تعالى صفات القرآن وخصائصه حيث تحدّى العرب لإتيان مثله وهو يقول داعيًا الناس لتدبر هذه الآيات:

---

[1] المصدر نفسه، ص 30

[2] المصدر نفسه، ص 22

فتفكّروا أنه تعالى ذكر من صفات القرآن ومميزاته أنه ناصح وهادً وبشير ونذير وحكيم وبيّن ولكن لم يذكر أنه فصيح بليغ فترك ما هو أصبح وجهًا من وجوه إعجازه فهل كتاب آخر يضاهي بالقرآن بالنسبة لهدايته وحكمته؟ وإن لم يكن كذلك فلم لا تكون هذه الصفات من معجزاته ولم نعتبر معجزًا ما لم يشر إليه القرآن ذاته"[1].

فكأن الفصاحة والبلاغة أو أدبية كتابٍ ما لن تكون صفة لإعجاز أحد دعها أن تكون معجزة لله جل جلاله ولكنه مع ذلك لا يريد أن يقول إن هناك كتابًا يضاهي ببلاغة القرآن وفصاحته.

فنّد العلامة هذه الفكرة كما يلي:

"هذا لا يعني أن كتابًا يداني القرآن في فصاحته وبلاغته والحق أن القرآن فاقد النظير في فصاحته وبلاغته وسيبقى كذلك إلى يوم القيامة"[2].

ولا يخلو من إمتاع لو ذكرنا هنا ما أشار إليه العلامة شبلي وما هو ملخص المبحث كله وما يوضّح موقف العلامة توضيحًا مزيدًا فقسم العلامة المعجزة إلى قسمين:

أولاهما تتعلق بمنصب النبوة مباشرة والأخرى دليل على النبوة بدون مباشرة يوضّحهما العلامة بالأمثلة فيقول إنه حينما يطلب الناس دليلًا على من يدعي النبوة فهو يجعل العصا حية ويخرج القمر من إبطه مدّعيًا أنه لا يقدر عليهما أحد غير الله تعالى فما أفعله من الله فإني رسول منه فالمعجزة هنا متعلقة بالنبوة مباشرة وأما الآخر فهو يقدّم لتعضيد دعواه أنه يقوم بما لن يقوم به أحدٌ من الهداية والتزكية فإن صحّت هذه الدعوى فهي ميزة للنبوة كما هي معجزة عليها ثم يقول إنه لو اعتبرنا القرآن معجزة عن جهة بلاغته وفصاحته فحسب فهي ليست من خواص النبوة فإن قوة البيان وجماله

[1] المصدر نفسه، ص 35

[2] المصدر نفسه، ص 36

ليس من خواص النبوة ولكننا لو اعتبرنا كتاب الله معجزة عن جهة حكمته وموعظته فستكون هذه خاصة للنبوة كما تكون معجزة.

وبالجملة فنبوءات القرآن وأمثاله وقصصه وفصالحته وبلاغته وقوة بيانه ليست معجزة حقيقية للقرآن وهي كذلك لم تذكر في القرآن ذاته بل كونه هاديًا للناس كافة معجزة له مما لن يمكن تقديم مثال له إلى يوم القيامة.

رأي العلامة شبلي في نظم القرآن: القرآن كتاب سماوي منظم في مناسبته ونظمه فكل آياته مربوطة بما سبقها وما لحقها مثل عقد سلكت فيه اللآلي وفي مجموعة كل منها ما يدلّ على موضوع السورة وبناء النظم على هذا. أدلى بهذا الرأي العلماء قديمًا إلا أن الإمام الفراهي قد قدّم نظمًا ذا ترتيب محكم واعتبر الغفلة عنه سببًا رئيسيًا للاختلاف والتناقض في معنى الآية أو الآيات فهو يرى أن مخ الاختلاف في التأويل يعود إلى عدم رعاية العلماء بالنظم"[1].

ولكن فكرة العلامة شبلي تختلف عن فكرة الإمام الفراهي فهو يرى أن البحث عن نظم القرآن شيء لا عائد تحته بما أنه نزل منجمًا وفي مناسبات شتى إلا أنا نراعي سياق الآية وسباقها في تحديد المعنى ويدلّ عليه كتابه "سيرة النبي" ومقالاته التي تناول فيها العلامة هذا الموضوع بالبحث.

ويتجلى لنا فكرة العلامة عن نظم القرآن مما يأتي من المقتبس فهو يؤيد أغلبية القدماء في هذا الشأن:

"يرى أغلبية العلماء أن الآيات القرآنية نزلت بمناسبات شتى ولأهداف مختلفة فما أمكن رعاية أي ترتيب فيها وذلك لأن القرآن نزل منجمًا ولكل آية أو مجموعة من الآيات سبب يختلف عن الآخر وراء نزولها فلحاظ الترتيب فيها شيء لا يعود بفائدة"[2].

---

[1] التكميل في أصول التأويل، ص 29

[2] مقالات شبلي، 15/2

يتجلى مما سلف أن نظم الآيات أو رعاية مناسبتها لم تثبت من كتابات القدماء فلا ترتيب خاصًا في آيات القرآن وسوره فقد جاءت أحكام فقهية في آية تبعها آحكام حربية فإرشادات خلقية ثم تأتي قصة ويلتفت الكلام إلى كفار قريش أو موضوع آخر وهكذا دواليك فالقرآن لا يراعي ما هو المطرد لدى الكتّاب والباحثين الجدد[1].

فوجهة نظر العلامة شبلي جلية بيّنة بالنسبة لنظم القرآن فيبدو مما سلف أنه لم يكن يؤيد وجود موضوع مركزي لسورة أو مجموعة من السور إلا أنه يرى مفيدًا لو تناولها أحد بالتدبر والتأمل فما بدأ به الإمام الفراهي من كتابة تفسيره الذي راعى فيه نظم القرآن وتحديد موضوع مركزي لكل سورة والذي قد رأى بعض العلامة بعض أجزاءه فهو يقول مستعرضًا له:

"لا نؤيد ما يودّه (الإمام الفراهي) حين استعراض كتابه هذا. هذا مفيد للجماعة الإسلامية في هذا العصر خاصة إفادة الماء الزلال لرجل عطشان كاد أن يموت"[2].

رأي العلامة شبلي عن التأويل: في القرآن آيات يتضح معناها تمامًا وهي تسمّى "أمّ الكتاب" بينما هناك آيات لا يعلم معناها الحقيقي سوى الله ومن يتعرف على الأسرار والآن يثور سؤال: هل يمكن تأويل هذه الآيات الغير الواضحة أم لا؟ وإن أراد أحد تأويلها فكيف يقوم به؟ وما هو التأويل؟ هل التأويل جائز أم له محل خاص وما هي قواعده؟ وكذا أسئلة أخرى عن التأويل أثارها العلامة شبلي فردّ عليها ردًا مفحمًا في كتابه "الكلام".

فأولًا ناقش العلامة معنى التأويل لغة ومصطلحًا وهذا البحث منه يوضّح حقيقة التأويل جليًا فيقول العلامة دالًا على معنى التأويل: التأويل يعني المرجع والمسير وأما في المصطلح

[1] المصدر نفسه، ص 42

[2] المصدر نفسه، ص 14

فهو يعني التعبير والتفسير وقد استخدمه القرآن في هذا المعنى إلا أن العلماء والمفسرين قد أرادوا به اختيار المعنى غير المعنى الظاهر لكلمة[1].

ويقول العلامة إن كافة الفرق الإسلامية أجازوا التأويل سوى الحشوية إلا أنهم اختلفوا في المناسبات فأحصوا الآيات التي يمكن تأويلها والآيات التي لا يمكن تأويلها. وقد أشار العلامة إلى وضع أصول التأويل وتحديدها فقال: قد تناول الإمام الغزالي هذا المبحث بالتفصيل في كتابه "إحياء العلوم" وكتابه "فصل التفرقة بين الإسلام والزندقة" وقسم القضايا المشكوك نقاشها في خمس مما ييسّر أمر التأويل ويقوم بحلّ قضية التأويل حلًا مقنعًا ولقد كتب الإمام الغزالي رسالة مستقلة بجواز هذه الشرائط ومن ثم ترتيب هذه الأقسام وهذه الرسالة قول فصل في هذا المبحث فهو يقول: هناك أقسام خمسة تالية لوجود الأشياء:

1. الوجود الذاتي: وهو الوجود الحقيقي مثل وجود السماء والأرض
2. الوجود الحسي: ما يختص بالحس فحسب مثل وقائع المنام
3. الوجود الخيالي: ما يتعلق بالوجود الديني
4. الوجود العقلي: ما يثبت وجوده العقل مثل أخذ شيء باليد والمراد به الحكم به والقدرة عليه
5. الوجود الشبهي: ما لا يوجد ولكن أشباهه توجد[2].

ويقول العلامة شبلي إن الأقسام التي قرّرها الإمام الغزالي وما قام ببيان حقيقتها أمر فصل في الموضوع وبناء على ذلك فقد اعترف كافة المفسرين بإمكان التأويل إلا أن العلامة شبلي قد اعتبر قضية بقيت مشكوكًا فيها والتي سبّبت المآت من الأخطاء بعد الإمام الغزالي فقد قرّر الإمام الغزالي من أصول التأويل أنه لما استدلّ قطعًا على أن المعنى الظاهر لا يراد فليرجع إلى المعنى الآخر. يبدو هذا الأصل صحيحًا بذاته ولكن كلمة

---

[1] الكلام، 172/2

[2] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

"الدليل القطعي" تتطلب شرحًا مزيدًا فالمراد منها عند الإمام الغزالي والإمام الرازي هو أنه إذا أشكل على المفسّر ما ينهى إرادة المعنى الظاهر فيقول العلامة إن "المشكل" يراد به المستبعد كذلك ولكن الإمام الغزالي يشترط المشكل العقلي فتقرّر أصل التأويل أنه إذا أشكل عقلًا على إرادة المعنى الظاهر فيرجع إلى التأويل"[1].

ثم تناول العلامة تحقيقات الإمام الغزالي بالنقد وأثبت أن معنى "المشكل" قد مهّد السبيل للمتوهمين.

فيرى العلامة أن القرآن ولو هو كلام رباني ولكنه نزل بلسان العرب فيشمله كافة خصائص اللسان العربي ففيه المجازات والاستعارات والتشبيهات وكذلك أساليب العربية فيرى العلامة أنه بإمكان أحد أن يعني باستعارات ومجازات القرآن ما يفهم منها كما يعني ما يظهر منها فلن يضلّل أحدٌ أحدًا أنه لم يرد بها ما يفهم فمثلًا "حمالة الحطب" تعني من تجمع الخشب فتحملها بينما أراد بها اللغويون من هي تنمّم فهل يخرج أحدٌ من الإسلام لو أراد بها ما يظهر فيرى العلامة أن سياق الحديث وطريقته يدلان على أنه لم يردبها ما تعنيه حقًا[2]. وكذا لا يدلّ السياق في بعض المواضع ولكن يستبعد ما يظهر منها فيرد بها المجاز في مثل هذه المواضع[3].

التأويل ليس بالتأويل الحقيقي: يقول العلامة شبلي إن الأشياء التي نطلق عليها كلمة التأويل هي ليس بالتأويل حقًا فالتأويل يعني ترك ما يظهر واختيار ما يفهم من المعنى ولكن لم يأوّل المعنى الظاهر فاستعمال الكلمة والتعابير كلها تدخل في المعنى الظاهر والحال أن الناس لا يسمّونها تأويلًا والواقع أن المعجم يعطي معنى لكلمة ثم يراد به المعاني الأخرى لمناسبتها وعلاقتها ثم يوضّح معنى التأويل بمثال أن اللفظ يعني الطرد

---

[1] المصدر نفسه، ص 189-191

[2] المصدر نفسه، ص 194-195

[3] المصدر نفسه، ص 196

واللفظ يسمّى اللفظ لأنه ملفوظ (مطرود) من قبل اللسان وهذا معنى ثانوي ولكن مثل هذه المعاني مضبوطة في المعاجم واعتبرت معاني أصلية وفي اللغة العربية توجد عشرات بل مآت من المعاني لكلمة ولا يكون معناها الأصلي سوى واحد ولكنها كلها اعتبرت معاني لها حقيقية فالشيء الذي يسمّى تأويلًا فهو ليس بتأويل فإن المعنى الذي استخدمت له هو أيضًا معناها الظاهر[1].

ثم تناول العلامة أسباب ووجوه التأويل بالبحث وأوضح هدفه بأن الأمور التي تحتاج إلى التوضيح لها صور عديدة فمنها ما لا يقبلها الأذهان العامة فسكتت الشريعة عن ذكرها فاختارت أسلوب التمثيل أو التشبيه لكي تخلق فيها خيالًا موجزًا ومنها ما هي ليست بمشكلة إلا أن بيان حقيقتها ستضرّ بعامة الناس ومنها ما هي واضحة للغاية ولكن ذكرت بأسلوب التشبيه والاستعارة لأن هذا الأسلوب مؤثر وراسخ للغاية[2].

وبالجملة فإذا جاء ذكر شيء في الشريعة (القرآن) فلا يراد وجوده الخارجي أي تأويله بل يمكن أن يراد به وجوده الخيالي أو الحسي أو العقلي أو الشبهي[3] ففي هذه الحالة إذا أراد أحدٌ معنى آية ليس بتأويلها بل هو توضيحها وشرحها وتفسيرها ونريد بهذا معنى تأويل القرآن وعلى هذا فقد أجاز العلماء والمفسرون شرح وبيان ما أشكل أو أبهم من آيات القرآن وقاموا بوضع وتحديد أصول التأويل والتي لا يمكن بدونها تأويل آيات القرآن.

توضيح وجهة نظر القرآن عن القدر: هل الإنسان مسئول عما سعى أو كل ما يحدث يقع كما شاء الله؟ ثار هذا السؤال في عهد بني أمية فلما عمّ الظلم في عصرهم ولما أراد العرب المظلومون أن يلوموهم على ما فعلوه فبدأ الحكام يقولون إنما يحدث يحدث بأمر من الله ومشيئته فما نمارسه من الظلم معكم ليس إلا مما أمره الله إيانا فلا يجمل بأحد أن يشكوه إلينا.

---

[1] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

[2] مقالات شبلي، 55/1

[3] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

وقد برز هذا النقاش لأن القرآن يحتوي على كلا النوعين من الآيات وكلاهما يتساوى فيثبت من بعض الآيات أن الإنسان ليس له أي خيار (سورة آل عمران: 128) بينما يثبت من بعض الآيات أن الله لا يهدي القوم الكافرين والفسّاق (سورة البقرة: 264) فقد أجبرهم الله على أن لا يؤمنوا (سورة البقرة: 7) إن ضلالهم بمشيئة الله (سورة الأنعام: 35) وقد جاء في بعض الآيات أن الله قوّض الشياطين والفجار لتضليل الناس (سورة مريم: 83) وكذا تشير بعض الآيات إلى أن الله لا يضلّل أحدًا بل هو من أعمال الشياطين (سورة النساء: 27) الإنسان مسئول عما يسعى (سورة يونس: 108).

وقد كتب العلامة شبلي بحثًا حافلًا بالموضوع مقنعًا بعنوان "قضاء وقدر اور قرآن مجيد" (نظرية القرآن الكريم عن القضاء والقدر) في المجلد الأول من مجموعة مقالاته، والذي يبرهن على سعة اطلاع العلامة شبلي على القرآن وعلومه فقد فاز العلامة في حلّ عقد هذه القضية المشكلة من حيث تتضح القضية تمامًا وتنجلي جيدًا فما قام به العلامة من التطبيق بين النوعين المتعارضين من الآيات يجدر بأن ندرسه مرارًا وتكرارًا وقد قال العلامة النعماني إن تدبر الآيات القرآنية يكفي هذه القضية حلًا لها ومنع عن الخوض في أسباب وعلل وجود هذه القضية فهو يقول إن السبب الرئيسي وراءه أن الله خلق أناسًا ذوي أمزجة مختلفة فمنهم من هو كسلان فاتر العزيمة فتطلب طبيعته النصر والمعونة وهذا يثبت أنه ضعيف ومفلس ومنهم من هو عالي العزيمة فيعتقد أن الإنسان حاكم الأرض كلها وهو يقدر على استئصال القوى والسلطات بفضل عزائمه، والسبب الثاني لبروز هذا النقاش هو عدم تدبر تعارض الآيات القرآنية فهو يقول: لنتدبّر أولًا ما هي حقيقة ما يبدو من تعارض في الآيات القرآنية[1].

وبعدما أحاط بأسباب ووجوه هذا البحث كشف القناع عما يبدو من تعارض الآيات القرآنية المختلفة وقال: كلما ذكر من مشيئة الله وإرادته في مختلف مواضع القرآن فله

[1] المصدر نفسه، ص 57

قسمان: (1) إحداهما فطرية (2) وأخراهما شرعية، فقد قدّم الآيات التي ذكر فيها أن الله يأمر الفاجر بالسوء وحاول أن المراد منه طبيعة الإنسان وأما الآيات التي أمر فيها أن الله لا يأمر أحدًا بالسوء أريد بها الحكم الشرعي[1]. فمثلًا قال تعالى: وكان أمر الله مفعولًا" (سورة النساء: 41) فيقول العلامة النعماني هذا هو الحكم الفطري الذي يكون مفعولًا وإلا فلا يعمل الأغلبية بالحكم الشرعي ولا يلزم العمل عليه وكذا جاء في سورة الإسراء "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها" (سورة الإسراء: 16) فقال العلامة موضحًا إياها: أنه عندما تخرب ديار فتولد في طبائع أهاليها مادة سوء وبالتالي فهي يتم خرابها فيقول العلامة: ففي هذه الحالة لا يوجد أي تعارض بينهما"[2].

وملخص ما كتبه العلامة شبلي أنه يلزم لخراب شيء أو دماره أن تولد فيه مادة الزوال والانحطاط التي تجرّه إلى عاقبته النهائية العقلية كما سيتضح ما أسلفناه مما يلي:

لم جعل الله الطبائع التي ترتكب السوء؟ كل ما خلقه الله في هذا الكون مسخّر له تعالى ونظام الكون كله يسري كما قرّره فيرى العلامة شبلي أن طبيعة البشر يحتمل له أربعة أمور:

1. عسى أن يكون الإنسان خيرًا كله
2. عسى أن يكون الإنسان شرًا كله
3. أن تكون مادة الخير فيه أكثر من مادة الشر
4. أن تكون عناصر الشر زائدة.

فيقول العلامة إن القسم الثاني والرابع خلاف للحكمة والعدل فلم يخلق الله الإنسان على هذه الطبيعة فالقسم الأول والثالث كانا موافقين للحكمة والعدل فقد جعل الله الناس على هذه الفطرة وعلى هذا فيواجه الإنسان الثواب أو العذاب حسبما قام به من الخير أو الشر فكأن صدور الأعمال الصالحة أو الفاجرة حسب هذه الفطرة فالجزاء خيرًا

[1] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

[2] المصدر نفسه، ص 63

كان أو شرًا نتيجة فطرية لما قدّمه فيثور في أذهان العامة سؤال: لم خلق الله الطبائع التي تصدر الشر؟

فيدعو العلامة الناس إلى التدبر ويقول عن هذه القضية: إذا كان شيء يحمل بين دفتيه فوائد عديدة ومناقص فماذا تعمل فهل تتركه البتة أم تختاره على أن فيه فوائد عديدة ولو أن فيه مناقص[1] فيوضّحه العلامة بمثال أن النار نستخدمها لخدمات عديدة فهل نتركها على أنها ربما تحرق ملابسنا وبيوتنا فيريد العلامة شبلي أن يقول إن في مثل هذا التخليق البشري فوائد لا تحصى كما فيه مناقص معدودة وعلى هذا فقد جعل الله مثل هذه الفطرة له وهذا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وملخص هذا البحث القيّم أن نظام الكون كله مبني على سلسلة الأسباب ولا بد من مسبّب إذا كان هناك سبب وما أودعه الله في بني آدم من قوة الاختيار والإرادة فهو أيضًا سبب فالإنسان خلق عمله ولكنه بما أن الله هو القادر على خلق كافة هذه الأسباب وهو في الواقع علة العلل فتعزى كافة الأعمال إليه ولكنما يقوم به المرء يفعله طبقًا لفطرته وما يتبعه من الثواب أو العذاب نتيجة هذه السلسلة للأسباب لا بد للمرء أن يمرّ بها.

أديان العرب قبل الإسلام وإثباتها بالقرآن الكريم: روح الإسلام هو التوحيد الخالص فلا نتصوّر الإسلام بدونه وقد كانت أديان عديدة يعمل عليها العرب في الجاهلية فقد كانت العرب يتبعون النصرانية واليهودية والمجوسية وعلى هذا فلما كان الوحي ينزل على النبي الكريم في مكة وشمله ذكر أخبار بني إسرائيل كان يقول أهل مكة إن يهوديًا أو نصرانيًا يعلّمه إرشادات الدين والقرآن ذاته أشار إلى هذا فقال: ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر" (سورة النحل: 103).

وقد أثبت العلامة شبلي أديان العرب هذه بآيات القرآن وأحاديث النبي مما يدل على سعة اطلاع العلامة شبلي على القرآن والحديث وفيما يلي نوجز هذه الآراء:

---

[1] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

يقول العلامة إن بعض العرب يرون أنما يوجد هو الدهر أو الفطرة فلم يكن لديهم أي تصور لله واستدل على قوله بسورة الجاثية حيث جاء: وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر" (الجاثية: 24) ثم يقول إن منهم من كان يؤمن بالله والجزاء إلا أنهم كانوا ينكرون النبوة (سورة بني إسرائيل: 94) كما يرى البعض أنه إذا كان هناك نبي فليكن الملك الذي يكون خاليًا مما يتميز به الإنسان. كان الأغلبية يعبدون الأوثان إلا أنهم كانوا يعبدونها لمجرد اعتبارها وسيلة إلى الله فهو يستدل على رأيه بقوله تعالى: ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى"[1]

فكان بنو حمير يعبدون الشمس كما كانت كنانة تسجد للقمر وكانت تعبد بنو تميم دبران وكذا كانت قيس تعبد الشعرى كما كانت أسد تعبد العطارد وتعبد لخم وجذام المشتري[2].

ولو أن الوثنية قد سيطت بدم العرب ولم يتحرّروا من هذه الفكرة إلا أن قلوبهم كانت تطوي في زاوية منها أن هناك قوة خلقت هذا الكون وما يحويه حتى كانوا يعترفون به بمناسبات شتى وكانوا يسمّونه "الله" كما ورد في القرآن بصراحة: ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخّر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون".[3]

فيبدو جليًا مما مضى من الآية القرآنية أن العرب كان في قلوبهم فكرة رب واحد فكانوا يعترفون أن السماء والأرض، الشمس والقمر، النبات والحيوان وكل ذرة من هذا الكون تقول بلسان حالها بوجود قوة عظمى وتجعلنا نشعر بحقية وجوده ولكنهم لم يكونوا يعترفون به إلا إذا أحيط بهم بالبلاء والمصيبة فأرسل الله نبيًا يحي فيهم هذا الشعور الخفي في قلوبهم.

وبعدما قدّم العلامة من الآيات القرآنية والشواهد التاريخية يقول إن العرب كان فيهم كافة الأديان الباطلة الشهيرة من النصرانية والمجوسية والكفر والإلحاد ولكن ماذا كانت

---

[1] سورة الزمر: 21

[2] سيرة النبي، 83/1

[3] سورة العنكبوت: 61

نتيجة هذه الأديان كلها فكانوا يعبدون العديد من الآلهة حسب عقيدتهم فأقلّها النصرانية فجعلها ثلاثة وكذا كانوا يعتقدون أن عيسى قد خلّص الناس كلهم من عواقب البلايا الوخيمة عن طريق إعدامه فلا يسئل الناس عن أشرارهم مهما كبرت فلم يعتقدوا عن التوحيد سوى أن الخالق يصارع الناس[1].

وقد حاول العلامة شبلي أن يري بذكر أديان العرب في ضوء القرآن أن الأفكار والآراء الباطلة التي كانوا يحملونها ويأخذونها بالنواجذ ويعتبرونها وسيلة لنجاتهم لم تكن تؤثر في حياتهم شيئًا إيجابيًا فقضى الإسلام على تلك الأفكار كلها وقدّم لهم تصورًا للتوحيد الخالص انهدم به مباني الشرك والوثنية فكأن شمسًا منيرة طلعت في حياتهم بدّدت هذه الظلمات المحيطة بهم وعرّف لهم بعقيدة كانت أرض العرب تنتظرها بلهفة فقام الإسلام بإصلاح ما دانوا وأعطى العالم كله عن طريقهم قانونًا شاملًا للحياة في صورة قرآن مقروء.

معنى "لامستم النساء": يقول الإمام أبو حنيفة إن الوضوء لا يزول بمسّ النساء ولكنه يزول عند الإمام الشافعي ويستدلّ على رأيه الإمام الشافعي بقوله تعالى "وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيدًا طيّبًا" (سورة النساء: 43) فأراد الشافعي بالملامسة معناها اللفظي فرأى أن الوضوء يزول إذا لمس المرء المرأة.

ويقول الإمام الرازي في التفسير الكبير: اختلف المفسّرون عن ملامسة المرأة فقد جاء فيه قولان: أولهما أن الملامسة تعني الجماع فإن لمسها باليد فقط لا ينقض به الوضوء وآخرهما أنه لو لمس أحد المرأة وهو متوضّأ فينقض وضوءه فإن الملامسة يعني هنا المس الحقيقي"[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص 88-89

[2] التفسير الكبير، 446/2

ولو أن هذه قضية تختص بالفقه ولكن العلامة شبلي قد استدلّ بالقرآن في تعيين هذا المعنى ولذا ذكرناها هنا لكي نقدّر بها مدى تفكير العلامة في القرآن الكريم.

فيقول العلامة شبلي إن المراد من الملامسة هنا ليس اللمس فقط بل أريد بها الجماع. من أساليب القرآن أنه لا يصرّح عن مثل هذه الأمور بل يستخدم الاستعارة والكناية[1] ولقد جاء في نفس الآية كلمة "غائط" والتي قد اعتبرها كافة المجتهدين الكناية وإلا فيجب على كل من يمرّ بأرض مستوية أن يتوضأ أي لا يكون طاهرًا ما لم يتوضأ فثبت من هذا أن العلامة النعماني يريد بالملامسة الجماع.

وقد انتقد الشيخ أبو الكلام آزاد قول العلامة هذا نقدًا شديدًا فقال: لقد ارتكب العلامة خطأ فاحشًا هنا فإن كان المراد من الملامسة مس المرأة خطأ لن يرتكبه العرب فماذا نقول عن مذهب عمرو بن العاص الذي يقول بما يخالفه"[2].

ويرى كاتب هذه المقالة أن تعليق الشيخ أبي الكلام هذا فارغ عن إمعان النظر في الموضوع لأنه ذاته قد أوضح في تفسيره "ترجمان القرآن" بين القوسين فقال أي جامعتم النساء فكأنه أيّد ما ذهب إليه العلامة شبلي.

وفوق ذلك هناك روايات تؤيد ما يرى العلامة النعماني فقد جاء في مسند الطيالسي أن عائشة رضي الله عنها قالت إني كنت مضطجعة أمام الرسول ﷺ وهو يصلّي"[3].

وجاء في رواية أخرى: قالت عائشة رضي الله عنها إن النبي كان يمسح رجليّ كلما أراد السجود فكنت أقبض رجلي إليّ"[4].

ولنذكر هنا ما قال السيد سليمان الندوي والذي سدّ باب أي خلاف في الموضوع وذلك أن ما رواه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قد كشف القناع عما ارتكبه المفسّرون

---

[1] سيرة النعمان، 2/214-215

[2] حواشي أبو الكلام آزاد، ص 281

[3] مسند الطيالسي، ص 205

[4] سنن أبي داؤد، ص 296

والفقهاء من الخطأ الاجتهادي[1] وذلك لأنه لو زال الوضوء بمس المرأة فلقد كان على النبي أن يتوضأ بعد أن يمس عائشة مرة بعد أخرى.

تصوّر القرآن عن الاتحاد بجانب الاختلاف: من أهمّ أسباب انحطاط الملة الإسلامية اختلافها وافتراقها والمسلمون عامة يعانون من هذا المرض فهنا اختلاف بين الشيعة وأهل السنة، وبين البريلويين والديوبنديين، وبين المقلدين وغير المقلّدين فيرى العلامة أن قومًا لن يحيى وفي أفراده هذا النوع من الاختلاف والافتراق. والاختلاف شيء يزيل الجبل من مكانه[2].

ليس هذا بجديد بالنسبة للمسلمين فقد كان الاختلاف ناشئًا حين عروجهم إلا أن كل تلك الاختلافات كانت متعلقة بالعقيدة والفكرة فلم يكن يعتبر الواحد الآخر كافرًا بل أسفل منه وأما في يومنا هذا فقد تجاوز اختلافهم كل الحدود فيسعى المسلمون أن يتحدوا مع أعدائهم من غير المسلمين للنزاع المتواجد فيما بينهم.

فأولًا ناقش العلامة شبلي هذه القضية عن جهة التاريخ وأثبت أن كبار المحدثين كانوا يعتبرون القدرية والجبرية والمعتزلة والشيعة أهل البدع والأهواء ولكنهم مع ذلك كانوا يروون الأحاديث منهم وهو أمر مهمّ للدين فيقول العلامة شبلي: إن معظم الأئمة يرون أن رواية الحديث تجوز من كل الفرق سوى الخطابية التي تسمح الكذب[3].

فكأن الاختلاف النظري وصدق القول كان يتميز أحدهما عن الآخر عند القدماء فعسى أن يكون رجل ذو عقيدة صالحة كاذبًا وأن يكون رجل ذو عقيدة باطلة غير كاذب فيقول العلامة شبلي إن هذا من نهاية عدم تعصب المحدثين أنهم كانوا يروون الحديث من الذين بطلت عقيدتهم إذا ثبت أنهم غير كاذبين كما كانوا يعترفون بتلمذهم لهم[4] فمثلًا

---

[1] سيرت عائشة، ص 296

[2] مقالات شبلي، 232/1

[3] المصدر نفسه، ص 237

[4] المصدر نفسه، ص 239

أن العلامة ابن السبكي يقول عن العلامة الذهبي: هذا شيخي الذهبي وهو عالم متديّن بجانب تعصبهم ضد أهل السنة فلن يوثق به ولكنه يجدر بأن نتبع ما صدق من قوله"[1].

يرى العلامة شبلي عن إمكانية الاتحاد لأجل الحصول على الأهداف الدينية وقد دلّ على هذه النقطة القرآن الكريم ذاته فجاء في سورة العنكبوت: ووصّينا الإنسان بوالديه حسنًا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما" (الآية: 8)

فيقول العلامة مفسّرًا معنى هذه الآية إن عدم طاعة الوالدين الكافرين لا تجوز إلا في الكفر والشرك ولكنه لا يزيل حقهما للأبوة والأمومة فرعايتهما في الأمور المتعلقة بالدنيا توافق وإرشادات الإسلام. يوضّح هذا الأمر فيقول: هناك حدود معيّنة للاختلاف والاتحاد فيمكن أن يقع الاختلاف في أمور الدين وأما بدونها فلا يختلف بعضنا عن البعض.

ولقد قرّر العلامة شبلي أصلين لإمكانية الاتحاد مع الاختلاف في ضوء هذه الآية ومعاملة العلماء السلف وهما (1) أن لا نغفل عن صدق القول و(2) أن نتحد في أمر الحصول على الأهداف الدينية المشتركة. فإن نعمل نحن المؤمنين على هذين الأصلين اللذين قرّرهما العلامة شبلي لضاقت شقة النزاعات بيننا ولتحوّلت هي إلى قرابات وأواصر ودية ولظهر جوّ ملائم للاتحاد في المجتمع الإسلامي.

ولقد تناولنا في هذه المقالة ما تحدث عنه العلامة شبلي من المسائل والقضايا المتعلقة بمباديء القرآن وأهمّ موضوعاته ولو ضممنا إليها ما تكلّم عنه العلامة شبلي من غزوة بدر والإيلاء والتخيير والإفك والمعراج لبلغ عدد نكات العلامة شبلي المائة فإن مؤلفاته لاسيما "سيرة النبي" محشوة بمثل هذه الآراء القيّمة عن القرآن وعلومه.

وما تناوله العلامة شبلي من الموضوعات يملأها اكتشافات ومعلومات نادرة تزيد القرّاء علمًا وتقوى والواقع أن كتابات العلامة شبلي عن القرآن وعلومه قد أوجدت ثورة فكرية عن دراسة القرآن تأثر بها الكتّاب بوعي أو بدون وعي.

---

[1] المصدر نفسه، ص 234

المصادر والمراجع

1. أبو السعود: تفسير أبي السعود، دار الطباعة العامرة، تفاصيل الطبع لم تذكر
2. أبو الكلام آزاد: ترجمان القرآن، ساهتيه أكادمي، دلهي، 1966م
3. أبو الكلام آزاد: حواشي أبو الكلام آزاد، ثمر آفسيت برنترز، دلهي، 1988م
4. الإمام أبو بكر الرازي: التفسير الكبير، المطبعة الأميرية، مصر، 1287ھ
5. الذهبي: ميزان الاعتدال، تفاصيل الطبع لم تذكر
6. الشيخ أمين أحسن الإصلاحي: تفسير تدبر قرآن، تاج كمبني، دلهي، الهند، 1997م
7. العلامة السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، طبعة كولكاتا، 1317ھ
8. العلامة سيد سليمان الندوي: حيات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2008م
9. العلامة سيد سليمان الندوي: سيرت عائشة، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 203م
10. العلامة شبلي النعماني: الكلام، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1984م
11. العلامة شبلي النعماني: سيرة النعمان، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2112م
12. العلامة شبلي النعماني: مقالات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2010م
13. العلامة شبلي النعماني: مكاتيب شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2012م
14. مجلة "معارف" الشهرية الصادرة عن دار المصنفين، أعظم كره، الهند
15. مجلة كلية شبلي الوطنية الصادرة عن كلية شبلي الوطنية، أعظم كره، الهند

العلامة شبلي النعماني وعلم الحديث الشريف

- الشيخ ضياء الدين الإصلاحي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

نال العلامة شبلي الدراسة الابتدائية والعليا في المدارس الإسلامية في أعظم كره وغازيفور وجونفور ففي أعظم كره كان يدرّس شيخه الخاص العلامة محمد فاروق التشرياكوتي (ت 1909م) الذي كان له اليد الطولى على المعقول والمنقول من العلوم الإسلامية والحساب والأدب فلما نال عليه الفراغ من الدراسات العليا أثاره غليله الداخل للمزيد على أن ينتقي اللآلي والجواهر العلمية من الأماكن الأخرى البارزة في هذا المجال فحاول أن يستفيد من الأساتذة المهرة في الفقه والتفسير والأدب.

وكان المعتاد في ذلك الزمن أنه لما فرغ الطالب من كل نوع من العلوم كان يتقدم لنيل علم الحديث فلما أنهى العلامة دراساته توجّه نحو سهارنفور حيث كان يفيض الشيخ أحمد علي المحدث والذي أوصل سلسلته العلمية بخاتم المحدثين الشيخ الشاه عبد العزيز الدهلوي فكما انتقى العلامة النعماني أساتذة مهرة في مجالاتهم فكذلك اختار لنيل علم الحديث أستاذًا كان طائرًا صيته وعاليًا منزلته في هذا المجال.

فقد كان الشيخ السهارنفوري يعتبر إمامًا في علم الحديث في عصره. إنه تعلّم الحديث في الهند على الشيخ وجيه الدين الصديقي السهارنفوري والشيخ عبد الحي (تلميذ الشيخ الشاه عبد القادر الدهلوي) ثم ارتحل إلى مكة المكرمة في 1261هـ وتتلمذ للشيخ الشاه محمد إسحاق الدهلوي المهاجر إلى مكة وتكرّم بالشهادة في هذا المجال.

فلم يكن في الهند رجل أعلم بالحديث فيما بين الأحناف من الشيخ أحمد علي فبجانب التعليم والتدريس قام الشيخ بتصحيح وتحقيق النسخ الخطية للحديث ومن ثم نشرها

فيما بين العلماء ففي 1265هـ صحّح جامع الترمذي وفي 1267هـ صحّح البخاري فقد كان العلامة شبلي يروي أن الشيخ المرحوم قد أنفق عشرين سنة كاملة في تصحيح وتحشية صحيح البخاري، وقد كان معظم العلماء الأحناف تتلمذوا له فالشهادة التي أعطاها الشيخ الشاه إسحاق الدهلوي قد وجدها من الشيخ الشاه عبد العزيز الدهلوي وأما الشاه عبد العزيز الدهلوي فقد أعطاه هذه الشهادة الشاه ولي الله الدهلوي. وقد نقل السيد سليمان الندوي هذه الشهادة أنما ناله العلامة شبلي النعماني من شهادة الحديث قد اتصلت بهذه السلسلة المباركة من نشر علم الحديث وتعليمه[1].

وقد كان العلامة شبلي يعلّم الطلاب حيث ينزل ويقيم فقد علّم الطلاب القرآن حينما كان يقيم بعلي كره وندوة العلماء[2] كما علّم بأعظم كره الشيخ عبد الحميد الفراهي[3] والشيخ إقبال أحمد خان المعروف بسهيل[4] اللغة العربية وآدابها إلا أننا لم نجد أنه علّم الحديث النبوي في مكان ما.

وفي يوليو 1913م استقال من منصب نظارة المعارف في ندوة العلماء ولم يرجع إليها ولو أصرّ عليها الطلبة ومن تعلّق به ولكنه جاء لكناؤ في شهر ديسمبر للإقامة بها فأحبّ طلبة الصف النهائي أن يعلّمهم العلامة صحيح البخاري فقبل العلامة طلبهم هذا وجعل يدرّسهم كل يوم بعد صلاة المغرب وكان يحضره العديد من الطلبة ولكن المسئولين عن شئون الدار لم يستحسنوه فانقطعت هذه السلسلة المباركة[5].

وكذا لم يخلف العلامة كتابًا مستقلًا بالحديث فنقوم بذكره ولكننا نجد في غير موضع من مقالاته ومؤلفاته ما يصرح عن براعته في الحديث مثل "سيرة النعمان" و"الفاروق"

---

[1] حيات شبلي، ص 86-87

[2] المصدر نفسه، ص 149-433

[3] المصدر نفسه، ص 97

[4] المصدر نفسه، ص 350

[5] المصدر نفسه، ص 650-654

و"سيرة النبي" ولكن لا نشير هنا إلا إلى الكتاب الأخير مخافة التطويل فإن الأحاديث قد أصبحت شغله ليل نهار حين كتابة هذه الموسوعة فيقول السيد سليمان الندوي:

"في 1910م حينما انقطع العلامة إلى كتابة سيرة النبي المصطفى فقد تركّزت عنايته على مركز واحد منقطعةً من كل مبحث وموضوع فلم يكن لديه عناية بابن رشد ولا بالغزالي ولا الرازي ولا بو علي سيناء ولا التاريخ والفلسفة فكان شغله ليل نهار دراسة كتب الحديث والسيرة والإمعان في الإرشادات والأخلاق النبوية والبحث عن كتب السيرة النادرة فكانت كتب الحديث ومؤلفات السيرة تحيط به حيث جلس في السرير أو على الحصير فكان يقضي وقته كله في هذا العمل المبارك وكان العلامة سعيدًا بهذا الشغل المبارك فكان يتخيّل هذا ويتحدّث عن هذا ويراسل لهذا فكأن السيرة النبوية أصبحت شغله الشاغل في هذه الأيام"[1].

وقد اخترنا "سيرة النبي" لإراءة براعة العلامة شبلي في الحديث لأن الأصول التي وضعها في تأليف هذه السيرة أرجحها القرآن الكريم والذي هو فوق كافة مصادر السيرة ثم يأتي الحديث فقد صرف النظر عن روايات السيرة دون الأحاديث الصحيحة فلا يرى الاحتجاج بروايات السيرة أوهن من الاحتجاج بأحاديث البخاري ومسلم فأبرز ميزات هذه السيرة أنه جمع تفصيل معظم وقائع السيرة أخذًا من كتب الحديث.

والأصل الثالث أن الوقائع اليومية تكفيها روايات ابن سعد وابن هشام والطبري تكفي مبيّنة لها إلا أن الوقائع التي لها أهمية بمكان فقد سلكنا طريق البحث والتحقيق لها وقد أجهدنا أبداننا فأذهاننا ما استطعنا[2].

ثم قال:

---

[1] المصدر نفسه، ص 50-51

[2] سيرة النبي، 69/1 (المقدمة)

"الوقائع التي لها أهمية بمكان لم نحل فيها إلا إلى الأحاديث الصحيحة أو كتب التاريخ الموثوق بها وأما الوقائع العامة أو المغازي فلم نقم بما قام به المحدثون من الجهد المضني"[1].

ولقد ألّف معظم أجزاء السيرة السيد سليمان الندوي والذي أشار إلى هذه الأصول بمختلف المناسبات واعتنى بها.

وقد قام العلامة شبلي بتأليف مقدمة طويلة في فن السيرة قبل أن يخوض في أخبار ووقائع النبي المصطفى، وهي تحتوي على أهمّ أصول الرواية والدراية فنبدأ ببعض الأشياء المذكورة فيها.

فن السيرة وفن الحديث مختلفان: كان العلامة شبلي يعتبر السيرة فنًا مستقلًا به ولكن يراه عين فن الحديث فهو يرى أن فن السيرة لا يبنى على الأحاديث الصحيحة فيقول الحافظ زين الدين العراقي:

وليعلـــــم الطالـــــب أن الســـــيرا تجمــع مــا صــحّ ومــا قــد أنكــرا[2]

وموضّحًا هذا الأمر يقول العلامة إن المحدثين وأرباب فن الرجال يرون أن الغزوات الخاصة بالرسول صلّى الله عليه وسلّم تسمّى "المغازي" و"السيرة" ولذا فقد سمّي كتاب ابن إسحاق "المغازي" كما هو يسمّى "السيرة" فقد استخدم الحافظ ابن الحجر في فتح البارئ هذين الاسمين معًا، وكذا هذا من مصطلحات الفقه فباب "كتاب الجهاد والسير" الذي يأتي فيه يريدون فيه أحكام الغزوات والجهاد باسم "السير". والكتب التي ألّف باسم السيرة حتى القرن الثالث الهجري يحتوي معظمها على الغزوات إلا أنه قد انضمّ إليها غير المغازي في القرون الأخرى مثل "المواهب اللدنية" فهو يشمل أشياء أخرى غير المغازي.

فالمغازي والسير شيء يختلف عن فن الحديث عند المحدثين حتى أن أرباب السير والمحدثين يعتبران جماعتين تختلف إحداهما عن الأخرى في بعض الأحيان؛ فنرى في بعض

[1] المصدر نفسه، ص 71

[2] المصدرنفسه، ص 7 و8

الوقائع أن أرباب السير يذهبون مذهبًا يخالفه البخاري ومسلم وفي مثل هذه المناسبات لا يقبل بعض الناس ما يرويه البخاري لمجرد أنه يخالف كافة أرباب السير إلا أن أصحاب التحقيق يرون أن الحديث الصحيح أرجح مما اتفق عليه أرباب السير كلهم فمثلًا:

1. أن أرباب السير يجمعون على أن غزوة ذي قرد وقعت قبل صلح الحديبية ولكن يروى في صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع أنها وقعت بعد صلح الحديبية وقبل غزوة خير بثلاثة أيام، وقد كتب العلامة القرطبي في شرح هذا الحديث أن أهل السير يجمعون على أن غزوة ذي قرد وقعت قبل صلح الحديبية فما جاء في رواية سلمة وهم من أحد الرواة. وقد ناقش الحافظ ابن حجر قول القرطبي فقال أنما ذكر في صحيح مسلم من تاريخ غزوة ذي قرد أصحّ مما ذكره أرباب السير.
ولقد قام المحدث الشهير الدمياطي بتأليف كتاب في السيرة رجّح في غير موضع منه روايات أهل السير ولكنه حينما أكثر التتبع علم أن الأحاديث الصحيحة مرجحة على روايات السيرة ولذا فقد أراد أن يصرّف في كتابه هذا ولكنه لم يسعه بما أنه قد انتشرت نسخه في العالم.
2. وكذا أجمع أرباب السير عن غزوة ذات الرقاع أنها وقعت قبل غزوة خيبر ولكن البخاري صرح أنها وقعت بعد خيبر فخالفه العلامة الدمياطي وادعى أن الحديث موضوع وأن كافة أهل السير يخالفونه فنقل الحافظ ابن حجر قوله هذا وردّ عليه[1].

كتب السيرة أقلّ منزلة من كتب الحديث: والهدف وراء إراءة الفرق بين كتب السيرة وكتب الحديث ليس إلا أنه بما أن فن السيرة ليس بفن الحديث عينه فلا يعتنى بصحتها عنايته بصحاح الحديث ومثله مثل أن الفقه مأخوذ من القرآن والحديث ولكن لا نقول بأنه هو القرآن أو الحديث أو يضاهي بهما.

[1] المصدر نفسه، 6/1 و7 (المقدمة)

3. والتفاصيل الجزئية التي توجد في كتب المغازي والسير لا توافق ومستوى فن الحديث الأعلى وعلى هذا فقد أهبطوا مستوى الجرح والتعديل فانحطت منزلة السير والمغازي من منزلة فن الحديث.
4. وكما اعتنى البخاري ومسلم بأن لا يضبطوا أي حديث ضعيف في كتابيهما فلم يقم بمثلها أي جامع أو مؤلف لكتب السيرة فنجد الآن العشرين كتابًا للقدامى والمتأخرين مثل سيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام وسيرة ابن سيد الناس وسيرة الدمياطي والحلبي والمواهب اللدنية ولكن لم يعتن بذلك أي منها.

ولذا يقول العلامة شبلي بأن كتب السيرة بجملتها لا تضاهي بكتب الحديث إلا أنما يصدق مستوى الجرح والتعديل فهو يليق بالاحتجاج به وهو يرى أن السبب وراء انحطاط منزلة كتب السيرة أن الحاجة إلى الجرح والتعديل قد خصّصت بأحاديث الأحكام أي تناولوا بالجرح والتعديل تلك الروايات التي تثبت الشرائع وأما التي تتعلق بالسير والفضائل فلا تحتاج إلى الحيطة وشدة الجرح[1].

تسامح المحدثين في فن السيرة: ويتقدّم شيئًا فيري هذا التسامح لدى كبار المحدثين أنهم قد حشوا الأحاديث الضعيفة عن المناقب والفضائل وقد سمح كبار العلماء بضبطها في كتبهم فهو ينقل ما كتبه العلامة ابن تيمية في كتاب التوسل من أن هذا الحديث قد رواه من المحدّثين من ألّف الكتب في يوم أو يومين مثل ابن السني وأبي نعيم ومثل هذه الكتب محشوة بالأحاديث الكاذبة التي قد اتفق العلماء على أن لا نثق بها.

ولقد روى الحاكم في المستدرك أنه لما زلّ آدم فقال: اللهم إني أعوذ بك بمحمد صلّى الله عليه وسلّم فقال له الرب: كيف وجدت محمدًا فقال له آدم: لما رفعت رأسي وجدت "لا إله إلا الله محمد رسول الله" مكتوبًا تحت قدمي العرش فظننت أن من ألحقت اسمه إلى جلالتك ليكوننّ أحبّ عبد لديك فقال له الرب: صدقت يا آدم فإن لم يكن محمد لما

[1] المصدر نفسه، 35/1 (على هامش المقدمة)

خلقتك" فقال الحاكم بعدما روى هذا الحديث: هذا حديث صحيح، فيقول العلامة ابن تيمية: قد أنكر المحدّثون قول الحاكم بأن مثل هذه الأحاديث صحيحة وقالوا إن الحاكم يعدّ الكثير من الأحاديث الكاذبة والموضوعة صحيحة وكذا جاء في مستدرك الحاكم أحاديث عدّها صحيحة بينما عدّها العلماء كاذبة".

ويقول العلامة ابن تيمية في موضع آخر وهو يذكر كتاب أبي الشيخ الإصفهاني: وفيه أحاديث قوية وصحيحة وحسنة كما فيه أحاديث ضعيفة وموضوعة ومهملة وكذا فيه أحاديث ينقلها خيثمة بن سليمان في فضائل الصحابة وأحاديث ذكرها أبو نعيم الإصفهاني في فضائل الخلفاء في كتاب "حلية الأولياء" وأحاديث يرويها المحدّثون أمثال أبي بكر الخطيب وأبي الفضل وأبي موسى المديني وابن عساكر والحافظ عبد الغني".

فيلفت العلامة شبلي أنظار الناس إلى أن أبا نعيم وخطيب البغدادي وابن عساكر والحافظ عبد الغني كانوا أئمة الحديث والرواية ولكنهم مع ذلك كانوا يروون الأحاديث الضعيفة في فضائل الخلفاء والصحابة وسبب ذلك ليس إلا أنه عمّ الناس أن لا حاجة إلى الحذر إلا في أحاديث الحرام والحلال وأما الشئون الأخرى فيكفيها ذكر أسناد الرواية.

وقد جاء في موضوعات الملا علي القاري أن واعظًا روى في بغداد أن الله سيجلس محمدًا معه على العرش يوم القيامة فلما بلغه الإمام ابن جرير الطبري فار غضبه وكتب على بابه: لا جليس لله" فسخط منه أهالي بغداد وأمطروا الأحجار على بابه حتى انقضّت جدرانه.

ولنلاحظ هنا أنه لم يولد أحد أفضل من البخاري ومسلم في الحديث والرواية كما كانا أفضل المحدثين لأجل محبة النبي صلّى الله عليه وسلّم التي كانا يطويانها بين جنبيهما ولكنهما لم ينقلا في كتبهما ما روي في البيهقي وأبي نعيم والبزاز الطبراني حتى أنهما لم يذكرا من أحاديث هذا النوع ما جاء ذكره في النسأي وابن ماجة والترمذي فيبدو من هذا أن الأحاديث الضعيفة تقل قدرما تزداد درجة الجرح والتعديل فمثلًا أنما رواه البيهقي وأبا نعيم والخرائطي وابن عساكر وابن جرير من أنه لما ولد النبي صلّى الله عليه وسلّم

انحطت أربعة عشر إفريزًا لإيوان كسرى وأطفيت نار فارس وجفت البحيرة الطبرية لا يوجد في صحيحي البخراي ومسلم حتى لا نجده في الصحاح الستة البتة.

وما ألّف عن السيرة من الكتب والرسائل معظمها مأخوذة من مؤلفات هذا النوع ولذا فقد تسلّل فيها الروايات الكاذبة بكثرة ولقد صرف العلماء النظر عما قرّره المحدثون من الأصول فالأصل الأوّل للمحدثين أن لا تنقطع سلسلة الرواية في أي مكان وتنتهي إلى أصل الواقع فمعظم ما ذكر من الراويات عن مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم منقطعة فليس من بين الصحابة من يكون عمره قابلًا ليروي شيئًا عن مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم فأكبرهم سنًا هو أبو بكر رضي الله عنه وهو أصغر من النبي صلّى الله عليه وسلّم بسنتين ولذا فما ذكر من مولد النبي صلّى الله عليه وسلّم ليس معظمها متصلًا وعلى هذا فقد انتشر من الروايات ما لا يعترف به عقول البشر فمثلًا أن أبا نعيم قد روى عن أمّ النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه لما ولد النبي صلّى الله عليه وسلّم قد حشي البيت بطيور عدة كانت مناقيرها من الزمرد والياقوت ثم جاء سحاب أبيض ورفع النبي صلّى الله عليه وسلّم وتبعه نداء أن يسيّروا هذا الطفل المشرقين والمغربين وكافة البحار كي يعرفه كل ما في الكون.

ومعظم المغازي منقولة من الإمام الزهري ولكن أغلب مروياته والتي ذكرت في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد منقطعة. وتحتوي مقدة "سيرة النبي" على فن الرواية والذي لم نتحدث إلا عن قضية واحدة منه أي الفرق بين السيرة والحديث فنصرف النظر عما كتبه العلامة عن مجموعة الأحاديث المكتوبة في عصر النبي صلّى الله عليه وسلّم والمباحث التي تأتي بالنسبة للسيرة والمغازي أو كتبها الأمهات.

وبما أن العلامة يرى فن الرواية أول أصل من أصول فن التاريخ الإسلامي والذي بني عليه فن أسماء الرجال وهو محمدة مدهشة لا مثيل لها للمسلمين فنجد في كل من "سيرة النبي" و"الفاروق" مباحث قيّمة عن الرواية والدراية مثل "أصول الرواية والدراية

في القرآن الكريم" و"بداية الدراية" و"أصول الدراية لدى المحدثين" وأصول الرواية" وأصول التمييز بين الحديث الصحيح والحديث الموضوع" وغيرها.

ومستعرضًا لكتب فن السيرة فقد قام العلامة بكتابة مباحث حافلة بالموضوعية حول القضايا العديدة المتعلقة بالحديث والرواية ومن عناوينها "فرق الدرجات بين كتب الحديث وكتب السيرة" و"تسامح المحدثين في فن السيرة" و"غفلة كتب الحديث عن السيرة" و"تدليس كتّاب السيرة" و"لم تعمل أصول الرواية في كل مكان" و"اختلاف الدرجات في الرواية" و"مبحث كون كافة الصحابة عدولًا" و"لم تناقش سلسلة العلة والمعلول في الوقائع" و"لم يبن مستوى الشهادة نظرًا لنوع الواقعة" و"رواية الرواة غير الناضجين" و"شرط الفقاهة للرواة" و"وجود شطر القياس في الرواية" و"تأثير الأسباب الخارجية على فن التاريخ والرواية" و"القياس والدراية" و"جماعتان فيما بين الصحابة" و"المحدثون ودراية الحديث" و"الرواية بالمعنى" و"رواية الآحاد".

لقد لخّص السيد سليمان الندوي ما كتبه العلامة من المباحث في 11 بندًا مما يلي:

1. لنبحث عن الواقعة أولًا في القرآن الكريم ثم في الأحاديث الصحيحة ثم عامة الأحاديث وإن لم يوجد شيء فلنرجع إلى روايات السيرة.
2. كتب السيرة تحتاج إلى التنقيح ويجب علينا أن نغربل رواياتها وأسنادها.
3. روايات السيرة أقل من روايات الأحاديث بالنسبة للصحة ولذا فنرجّح روايات الأحاديث إذا وقع الاختلاف.
4. وترجّح روايات الفقهاء الناضجون على روايات غيرهم إذا وقع الاختلاف.
5. لا بد من البحث عن العلة والمعلول بالنسبة لسلسلة وقائع السيرة.
6. يجب علينا أن نقيم مستوى الشهادة بالنسبة لنوع الواقعة.
7. يجب البحث عن أصل محتوى الواقعة في الرواية وعن قدر رأي وفقه الراوي.
8. يجب البحث عن الأسباب الخارجية.

9. لا يحتج بما يخالف وجوه العقل العامة والأصول المعترف بها وقرائن الحال من الروايات.
10. أما بالنسبة للموضوعات المهمة فيجب علينا أن نطمئن بجمع وتطبيق مختلف الروايات عما إذا وهم الراوي في أداء المعنى.
11. لنقبل الآحاد حسب أهمية الموضوع ومطابقة قرائن الحال لها.

حتى الآن حاولنا أن نتحدث عما بيّنه العلامة شبلي من الأصول والمبادئ لصحة وقوة ومستوى الرواية والحديث في ضوء مقدمة "سيرة النبي" والآن سننقل بعض مباحثه من "سيرة النبي" والتي قد تناولها العلامة كمحدّث.

نقد الأحاديث: وقبل كل شيء نذكر موقف العلامة من نقد الأحاديث فنري منزلته في هذا ولهذا أخذنا بعض وقائع السيرة:

واقعة بحيرا الراهب: قد عزم الرسول صلّى الله عليه وسلّم على السفر إلى الشام بالمرافقة لعمّه أبي طالب وكان عمره آنذاك 12 سنة فلما بلغ أبو طالب بصرى نزل بخانقاه راهب نصراني يسمّى "بحيرا" فلما رأى النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: هذا سيد المرسلين" فسأله الناس كيف علمت بذلك فقال: عندما نزلتم من الجبل سجد له كل شجر وحجر.

ذكرت هذه الرواية من مختلف الطرق والعلامة يتحيّر من أن النصارى يرغبون في روايتها أكثر من المسلمين ويعتبرون هذه الواقعة فتحًا عظيمًا للنصرانية ويدعون أن النبي صلّى الله عليه وسلّم تعلم حقائق الدين وأسراره على هذا الراهب وبما أنه قد ذكر له النقاط المهمّة فقد بنى عليها النبي صلّى الله عليه وسلّم دينه "الإسلام" فما يحتويه الإسلام من الأصول الجميلة شرح لتلك النقاط فيقول دريبر في كتاب "النزاع بين العلم والدين":

"قد علّم بحيرا الراهب محمّدًا العقائد النسطورية في خانقاه بصرى. كان النبي ذا عقل حادّ وذهن أخاذ فلم يأخذ من معلّمه الأفكار الدينية فحسب بل أخذ منه الأفكار الفلسفية --- وفيما يعد تشهد معاملته صلّى الله عليه وسلّم كم سيطرت عليه العقائد النسطورية".

ولقد حاول السير وليوم ميور بكل قوة أنما ثار في قلب النبي من التنفر عن الوثنية وما رسمه من خريطة دين جديد يرجع فضلهما إلى هذه الرحلة وتجاربه ومناظره المختلفة التي مارسها خلالها فيقول العلامة إنه إذا اعتبر الكتّاب النصارى هذا الحديث صحيحًا فليعتبروه كما هو فلا يوجد فيه أي ذكر لتعليم بحيرا الراهب للنبي ولا يقاس أن ولدًا لم يبلغ رشده كيف يتمّ تعليم أسرار الدين ورموزه له وإذا كانت هذه خارقة العادة فهل كانت هناك حاجة إلى تأذّي بحيرا لها؟

وبعد النظر في هذا الحديث عن طريق الدراية يثبت أنه لا يوثق به رواية وأن كافة طرقه مرسلة فإن الراوي الأول لم يكن حاضر الواقعة ولا يسمّي الراوي الذي حضر الواقعة.

وأوثق طريق لهذه الرواية ما يوجد في جامع الترمذي فقال فيه ما يلي:

1. يقول الإمام الترمذي إن هذا الحديث حسن غريب فلا نعترف به عن غير هذه الطريقة فيقول العلامة إن الحسن أقلّ درجة من الصحيح وإذا كانت فيه الغرابة فهو تنحطّ درجته مزيدًا.
2. ولو أن عديد المحدثين اعتبروا عبد الرحمن بن غزوان ثقة إلا أن معظمهم لم يطمئنوا إليه فيول العلامة الذهبي في ميزان الاعتدال: إنه يروي الأحاديث المنكرة وأنكرها ما جاء فيه قصة بحيرا الراهب.
3. عدّه الحاكم على شرائط البخاري ومسلم ولكن العلامة الذهبي كتب في تلخيص المستدرك: إني اعتبر بعض أجزاء هذه الواقعة موضوعًا وكاذبًا".
4. والراوي الأخير لهذا الحديث هو أبو موسى الأشعري الذي لم يكن حاضر الواقعة ولا يذكر من سبقه من الراوي، والسلسلة التي جاء ذكرها في طبقات ابن سعد هي مرسلة أو معضلة ففي المرسل أن التابعي الذي ليس بشاهد الواقعة لا يسمّي صحابيًا وأما المعضل فلا يسمّي الراوي من سبقه من الراويين التابعي والصحابي.
5. يعتبر الحافظ ابن حجر هذا الحديث صحيحًا ولكنه بما أن حضور أبي بكر وبلال خاطئ بداهة فيضطرّ إلى الاعتراف بأن هذا القدر من القصة قد ألحق بالأصل خطأ

ولكن دعواه أن رواة هذا الحديث عدول، أيضًا باطلة فقد كتب الحافظ ابن حجر ذاته عن عبد الرحمن بن غزوان في تهذيب التهذيب: إنه يخطئ فيشكّ هل روى المماليك أم لا" ورواية المماليك هي التي يعتبرها المحدثون كاذبة وموضوعة[1].

هذا ما قام به العلامة شبلي من تنقيح هذه الرواية وأما تلميذه السيد سليمان الندوي فقد غربل هذا الحديث في المجلد الثالث لهذا الكتاب بعنوان "درجة رواية عامة الدلائل والمعجرات"[2].

عبادة الأوثان من قبل النبي وزوجته خديجة: هذا ثابت بالبداهة لدى العلامة شبلي أن النبي كان يجتنب الشرك وتقاليده منذ طفولته وفي شبابه ولكن النصارى يقولون أنما حدث من التغير في عقيدته جاء بعد نبوته وإلا فهو كان يعمل من قبلُ طبق عشيرته وأهل مدينته فقد سمّى بكرة أولاده "عبد العزى" والذي يوجد في التاريخ الصغير للبخاري فيقول العلامة إنه لا يستدل بهذه الرواية على ذات النبي إذا كانت هي صحيحة.

فقد كانت خديجة تعبد الأوثان قبل الإسلام فعسى أن سمّت ولده هذا الاسم وأما النبي فلم يعط النبوة حتى الآن فلم يتعرض لهذه التسمية. والواقع أن هذه الرواية لا تثبت أصلًا فأصحّ طريق لهذه الرواية ما جاء في التاريخ الصغير للبخاري فأول رواته إسماعيل والذي اسمه الكامل إسماعيل بن أبي أويس. ولو أن بعض المحدثين وثّقه إلا أن معظمهم يقولون كما يلي:

هو وأبوه ضعيفان. إنه يكذب وليس له أهمية. إنه لا يوثق به وكذاب وضّاع، ويقول الإمام الدراقطني: إني لا أرى صحيحًا أن أروي حديثًا صحيحًا عنه" ويقول سلمة بن شعيب: إنه بنفسه أقرّ لي بأني كنت أضع الحديث كلما اختلفت في أمر ما"[3].

---

[1] المصدر نفسه، 1/126-128

[2] المصدر نفسه، 3/658-660 (الطبعة الجديدة)

[3] المصدر نفسه، 1/135-136

وقد ثبت لدى العلامة شبلي أن النبي قد جعل يذمّ الوثنية قبل النبوة وكان يمنع من كان يؤمن به. هذا في جانب وفي جانب آحر ادّعى مارغوليث ما يحيّر العقول ويعود بتهمة الكذب بمدّعيه فهو يقول إن النبي وزوجته كانا يعبدان وثنًا يسمّى "العزى" واستدلّ عليه بحديث من مسند الإمام أحمد:

"حدثني جار لخديجة بنت خويلد أنه سمع النبي وهو يقول لخديجة أي خديجة والله لا أعبد اللات والعزى والله لا أعبد أبدًا قلا فتقول خديجة خلّ العزى قال كانت صنمهم التي كانوا يعبدون ثم يضطجعون".

فيقول العلامة إن من له أدنى إلمام باللغة العربية يعرف أن "كانوا يعبدون" لا تشير إلى النبي وزوجته بل هي تشير إلى العرب ولو أريد لها النبي وزوجته لجاءت صيغة التثنية لا الجمع، وزدْ على ذلك إنكار النبي عبادة اللات والعزى في هذا الحديث[1].

تلك الغرانيق العلى: لما هاجر إلى الحبشة حوالي 83 مسلمًا عمّها الخبر بأن الكفار قد آمنوا فلما بلغهم أقبل معظم الصحابة إلى مكة ولكنهم كلما دنوا من المدينة وجدوا الخبر كاذبًا. توجد هذه الرواية في الطبري ومعظم كتب التاريخ ويمكن أن تكون صحيحة إلا أنها تقول إن هذا الخبر اشتهر لمجرد أن النبي صلّى الله عليه وسلّم صلّى بالحرم مرة وكان حاضرها الكفار فلما قرأ النبي هذه الآية "ومنوة الثالثة الأخرى" (سورة النجم: 20) فأجرى الشيطان ما يلي من الكلمات على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" ثم سجد النبي وتبعه الكفار كلهم.

يقول العلامة إن هذه القصة تافهة ولا يوثق بها وقد أبطلها وكذّبها كبار المحدثين أمثال البيهقي والقاضي عياض والعلامة عيني والحافظ المنذري والعلامة النووي ومع ذلك إنه متأسف أن العديد من المحدثين قد رووا هذه الواقعة بالأسناد ومنهم الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه وابن إسحاق وموسى بن عقبة وأبو معشر. وأعجب

[1] المصدر نفسه، 136/1-137 (الهامش)

العجاب أن الحافظ ابن حجر الذي أجمع على طول باعه في الحديث يصرّ على صحته فينقل قوله من المواهب ويذكر عادة الكفار بأن النبي كلما تلا القرآن فكان الكفار يلغون فيه ويلحقون جملًا إليه من عندهم فقد جاء في القرآن الكريم "لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون" (سورة فصلت: 26)

وقد اعتاد القريش على قول هذه الجمل حين طواف الكعبة:

"واللات والعزة ومنوة الثالثة الأخرى فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى".

فيقوم العلامة بتوجيه هذه الجملة كما يلي:

"لما تلا النبي هذه الآيات القرآنية فعسى أن أحد الكفار الشياطين حاكى صوته فألحق بها هذه الكلمات وتلاها والتبس من بعد منه صلّى الله عليه وسلّم فظنّها من عند النبي فلما انتشر هذا في المسلمين فقالوا إن أحد الشياطين قد قرأ هذه الجمل من عنده وعلى مرّ العصور تغيّر الأسلوب والطريقة والكلمات حتى أصبحت الجملة أن شيطانًا قد أجرى هذه الجملة على لسان النبي وبما أن عامة المسلمين يقرّون بأن الشيطان يقدر على أن يحاكي صوت أحد فوثق الرواة بهذه الرواية".

ويقول العلامة إنما ذهبت ليس بما يقاس فقط بل قد ذهب مذهبي القدامى فاستدلّ على قوله بما في المواهب اللدنية من أنه لما بلغ النبي هذه الآية (ومنوة الثالثة الأخرى) خاف المشركون أن أوثانهم وأصنامهم ستتعرض لسبّه فخلطوا فقرة النبي بهذه وتلوها كالمعتاد بأن قالوا: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه فالمراد من الشيطان هو شيطان الإنس"[1].

قد فتحت معظم الحصون في غزوة خيبر بسهولة إلا حصن قموص الذي كان عاصمة مرحب فأرسل النبي أبا بكر وعمر للسيطرة عليه ولكنهما رجعا خائبين فقد جاء في

[1] المصدر نفسه، 1/171-172

الطبري أنه لما خرج أهل خيبر من الحصن لم يثبت عمر وعاد إلى النبي قائلًا إن الجيش أثبت جبنه ولكن الجيش شكاه نفس الشيء إليه.

وقد روى الطبري هذه الرواية عن عوف الذي اعتبره الكثير ثقة ولكن بندار كان يقول حينما يروي عنه: إنه رافضي وشيطان" ولو أن هذا الرأي شديد إلا أن تشيعه مشهور للناس ولو أن التشيع ليس بدليل على عدم الثقة ولكن الرواية التي يأتي فيها تولّي عمر عن القتال ظاهر كذبها، وفوق ذلك أن من رواته عبد الله بن بريدة الذي يروي عن أبيه ولكن المحدثين يشكّون في أنما يرويه عن أبيه صحيح أم غير صحيح إلا أنه يصحّ أن كبار الصحابة غير علي قد أرسلوا لهذا الخطب ولكن الفتح كان مكتوبًا في حق قائد آخر[1].

الأمر بقتل البعض بعد فتح مكة: وفي موضع نقل عن أرباب السير أنه ولو أن النبي قد أمّن أهل مكة ولكنه أمر عن عشرة رجال[2] أن يقتلوا حيث وجدوا وكان منهم عبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة ممن ارتكبوا القتل فتم قتلهم بالقصاص ولكن البقية منهم كانوا ممن قد آذوا النبي في مكة أو قرضوا هجوه وكانت على رأسهم امرأة قتلت لما أنها كانت تنشد القصائد في هجو النبي.

يرى العلامة أن هذا الرأي لا يصح نظرًا لانتقاد المحدثين فأولًا انتقده دراية بأن هذه الجريمة ارتكبها أهل مكة كلهم فلم يؤذ النبي من كفار قريش سوى اثنين أو ثلاثة ولكنهم مع ذلك بشّروا بأنهم الطلقاء وأما من قتل فهو كان أقلّ منهم شناعة للجريمة، وقد ذكر عن عائشة في الصحاح الستة أنه لم ينتقم من أحد لنفسه فالمرأة التي سمّمته في خيبر سأله الناس عن قتله فمنعهم فإن تنجّت يهودية من عقاب النبي وهي سمّته فلم لا يحطى بهذا العفو الواسع من كانت جريمته أقلّ مما لها.

---

[1] المصدر نفسه، 1/345-346

[2] وجاء في الهامش أن الحافظ المغلطائي عدّدهم خمسة عشر ولكن العامة أحصاهم عشرة، وقد ذكر ابن إسحاق ثمانية بينما ذكرهم أبو داؤد والدارقطني ستة وأما البخاري فهو لا يذكر سوى ابن خطل. فثبت من هذا أنه كلما اتسع نطاق البحث والتحقيق قلّ عدد المقتولين ثم ذكر السبب وراء قتل الأربعة رجال.

فإن لم نقتنع بالدراية فلا تبقى هذه الواقعة موثوقًا بها حسب الرواية فقد جاء في صحيح البخاري مجرد قتل ابن خطل وهذا مشهور أنه قتل بالقصاص وأما قتل مقيس فهو كان قصاصًا شرعيًا. وأما الأسباب وراء قتل الباقية فهي أنهم كانوا يؤذون النبي في زمن من الأزمان. إن مثل هذه الروايات تنتهي على ابن إسحاق أي أنها منقطعة والتي لا يوثق بها. وقد ذكر العلامة شبلي في مقدمة كتابه أن الكثير من مروياته ضعيفة وغير موثوق بها ولو أنه يذكرها بالإسناد.

وأوثق رواية يمكن تقديمها هي التي ذكرها أبو داؤد بأن النبي قال يوم فتح مكة أن أربعة رجال لا يؤمّنون على أي حال ولكنه كتب بعد نقل هذا الحديث أني لم أجد من أسناده ما كنت أودّه.

ولقد ذكر الإمام أبو داؤد ثلاث روايات في باب قتل الأسير وكتب العلامة شبلي عن أحد رواة الرواية الأولى أحمد بن المفصل أن الأزدي سمّاه "منكر الحديث" كما هناك راوٍ من بينهم يسمّى "أسباط بن نصر" الذي يقول عنه الإمام النسأي "إنه ليس بقوي". ولو أن هذا القدر من الجرح لا يكفي لعدم ثقة رواية[1] ولكن هذا القدر يكفي لتشكيكها نظرًا لخطورة الواقعة[2].

ردّ بعض الوقائع الكاذبة الموضوعة: وهناك عدد ملموس لمثل هذه الوقائع والتي تناولها المحدثون بالجرح والتعديل، ونذكر فيما يلي بعض الأمثلة مخافة التطويل:

---

[1] وقد زاده السيد سليمان الندوي في الهامش أنعلماء الرجال قد تناولوا أحمد بن المفضل وأسباط بن نصر والسدي الكبير بالجرح ولاسيما أسباط بن نصر فقد وجّهوا إليه نقداً خاصاً. وقد رواها بنفس السلسلة الإمام النسأي في باب قتل المرتد والحاكم في كتاب المغازي. ولنعلم أن هؤلاء الرواة الثلاثة من أهل التشيع وقد أشار إلى هذا الجانب الحاكم في مستدركه.

[2] المصدر نفسه، ص 371-374

واقعة ريحانة: قد اتهم المعارضون النبي صلّى الله عليه وسلّم بإدخال إحدى اليهوديات الأسيرة أثناء غزوة قريظة في حرمه ولكن العلامة شبلي يرى إن هذه الواقعة باطلة تمامًا فهو يقول كما يلي:

وكل ما جاء عن إدخال ريحانة في حرم النبي من الروايات أخذت من الواقدي أو ابن إسحاق ولكن الأول صرّح أن النبي قد تزوّج منها، وقد ذكر ابن سعد قول ريحانة ذاتها في رواية الواقدي التي نقلها ابن سعد وقولها هو "ثم أعتقني وتزوّج مني".

والرواية التي نقلها الحافظ ابن حجر في الإصابة آخذًا من تاريخ المدينة لمحمد بن الحسن تشير إلى ما ذهب إليه العلامة شبلي ولكن جاء في طبقات الصحابة للحافظ ابن مندة الذي هو مصدر لكافة المحدثين المتأخرين جاء ما معناه "أسر ريجانة ثم أعتقها فلحقت بأهلها وقامت فيهم مقنعة".

فيقول العلامة شبلي: يبدو جليًا من جملة الحافظ ابن مندة أن النبي قد أعتقها وهي لحقت بأهلها حرة وهذا ما نراه صحيحًا ولو اعترفنا بأنها دخلت في الحرم فهي كانت من المنكوحات لا من الإماء"[1].

نكاح زينب: زوّجت زينب أولًا من زيد الذي كان عتيقًا للنبي ومتبناه وأما زينب فهي كانت بنت عمته ولو أنها لم ترض عنها إلا أنها امتثلت بأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم ولكن لم يسر الأمر كما يرام حتى أراد زيد أن يطلقها فمنعه النبي عن ذلك وعندما اشتدّ الأمر طلقها فتزوّج منها النبي لكي يسلّيها وبذلك محي تقليد الجاهلية بأن المتبنى في درجة الولد الحقيقي فلا يتم الزواج من زوج المتبنى.

هذا ما كان مخّ الواقعة ولكن رواها المعارضون من حيث أصبحت هي وليدًا من الكذب والافتراء إلا أن العلامة يعترف بأن المعارضين قد أخذوا الموادّ من عندما لاختلاق هذه

[1] المصدر نفسه، ص 312-313

الدعاية ثم نقل من تاريخ الطبري تلك الرواية التافهة والتي عزي فيها هذه الكلمات إلى ذات النبي الكريم: سبحان الله العظيم سبحان الله مصرف القلوب".

والآن اقرءوا نقد العلامة النعماني لهذه الرواية فهو يقول:

"نقل الطبري هذه الرواية من الواقدي الذي كذّاب أشر والذي لم يرد بذكر هذه الروايات التافهة سوى تمهيد السبيل إلى ترفيه العباسيين.

وبجانب الطبري فقد روى الآخرون مثل هذه الروايات التافهة ولكن المحدثين لم يعتنوا بها فالحافظ ابن حجر الذي يتعصب للروايات ولكنه يكتب في فتح الباري (تفسير سورة الأحزاب):

"وهناك روايات أخرى ذكرها ابن أبي الحاتم والطبري ونقلها معظم المفسرين. ينبغي لنا أن لا نعتني بمثل هذه الروايات"

ويكتب أشهر المحدثين الحافظ ابن كثير في تفسيره: وقد نقل من بين الأسلاف ابن أبي حاتم وابن جرير روايات نصرف عنها الذكر صفحًا لأنها كاذبة كما نقل الإمام أحمد عن هذا رواية عن أنس وهي أيضًا غريبة ولقد صرفنا عنها الذكر صفحًا.

وبما أن المنافقين كانوا في الأغلبية في تلك المدة وهذه الواقعة تتعلق بالسنة التي اتهم فيها عائشة. يقول العلامة شبلي محيلًا إلى هذه كلها:

"هذه هي الروايات المتبقية التي ذكرت في الكتب الغير متحذرة ولكن المحدثين الذين يعلو مستوى تحقيقهم ولهم حق في تعديل الرواية مثل الإمام البخاري والإمام مسلم لا نجد لها ذكرًا في كتبهم"[1].

وقتل شجاع باسل مثل مرحب في غزوة خيبر واقعة عظيمة ولذا فقد انتشرت أخبار لا صلة لها بالصحة فقد جاء في معالم التنزيل: لما ضرب عليّ سيفه دافعه مرحب بدرعه ولكن قد قطع ذو القفار الخود والرأس معًا حتى بلغ الأسنان فلما هجم اليهود بعد قتل

[1] المصدر نفسه، 1/313-316

مرحّب على جيش الإسلام قد اتفق أن سقطت الدرع من يد عليّ فقلع باب الحصن وهو كان من الرصاص وجعله درعًا له وبعد أن فتح أراد أبو رافع أن يرفعه بمعونة من سبعة رجال فلم يقدروا على إزالته من مكانه" ذكرها ابن إسحاق والحاكم ولكنها من القصص والأساطير فقد صرّح العلامة السخاوي في "المقاصد الحسنة" أنها روايات فيها لغو.

ذكر العلامة الذهبي هذه الرواية في شأن علي بن أحمد فروخ في ميزان الاعتدال ثم قال إنها رواية منكرة فالسلسلة التي روى بها ابن هشام لا يوجد فيها راوٍ ثم يشمل رواتها بريدة بن سفيان الذي لا يوثّقه الإمام البخاري وأبو داؤد والدارقطني.

الدلالة على الأحاديث الصحيحة وترجيحها: وكما دلّ العلامة على الأحاديث الضعيفة الموضوعة وردّها بالدلائل فكذلك دلّ على الأحاديث الصحيحة في موضوع ورجّحها مثلًا أن ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي يذكرون أن مرحب قتله محمد بن مسلمة ويؤيّده رواية في مسند أحمد بن حنبل وصحيح مسلم ولكن الحق أن قاتله علي بن أبي طالب الذي فتح خيبر ويؤيّده مسلم كما جاء في الحاكم (39/2، طبعة حيدراباد). صرح بذلك السيد سليمان الندوي. ويعتبرها العلامة شبلي أصحّ الروايات[1].

وكذا جاء عن الهجرة أنه لما بلغ النبي المدينة ودّ كل من المسلمين أن ينزل بداره النبي فقال لهم النبي: خلّوا الناقة فإنها مأمورة من قبل الله جلّ جلاله فبركت الناقة بدار أبي أيوب الأنصاري فنزل بها النبي. يقول العلامة شبلي إن هذه الرواية ذكرت في وفاء الوفاء، وقد جاء في صحيح مسلم أنه حينما تنازع الناس في التضييف قال لهم النبي إني أنزل ببني النجار الذين هم أخوال عبد المطلب فثبت من ذلك أن النبي قد فعل ذلك متعمدًا وكان أبو أيوب الأنصاري من تلك القبيلة فقد صرّح الإمام البخاري في التاريخ الصغير أن النبي نزل بدار أبي أيوب لأجل تلك القرابة ولو أن العلامة لم يصرح عن صحة أي رواية إلا أنه يميل إلى الرواية الثانية والتي سببها الأصلي ذكرها في صحيح أبي مسلم[2].

---

[1] المصدر نفسه، 1/347-348

[2] وكذا هامش الصفحة 200

ولما استشتار النبي صحابته عن الأذان فأدلى الناس بدلوهم ولكنه رجّح ما ذهب ليه عمر بن الخطاب وأمر بلال أن يؤذّن. لنعلم أن هذه رواية البخاري وقد جاء في بعض الصحاح الستة أن الأذان قد اقترحه عبد الله بن زيد وكذا جاء في رواية أخرى أن عمر قد رأى مثله في المنام فيرى العلامة شبلي أن لا نرجّح أي رواية على رواية صحيح البخاري"[1].

ذكر الاختلاف في بعض الأحاديث: يقول العلامة عن الروايات عن بداية غزوة بدر ومبارزة عتبة قائد الكفار إنه تختلف الروايات في هذه الوقائع وكلها تتساوى درجة فلنعمل على رواية أحببناها"[2].

وقد جاء عن صفية في بعض كتب السير أنها قد وهبها النبي دحية الكلبي أولًا ثم سألها منه حينما أثنى أحدهم على حسنها وعوّضها بسبع إماء. لقد قدّمها المعارضون بأسلوب قبيح للغاية ولما يوجد هذا القدر من الخبر في الواقعة فلنقدّر مدى نشره من قبل الأعداء.

يقول العلامة شبلي إن واقعة صفية هذه مروية من أنس ولكن هناك روايات عديدة عن أنس تخالف بعضها البعض والرواية التي ذكرها البخاري عن غزوة خيبر تصرح أنه لما فتح حصن خيبر فذكر الناس حسن صفية بنت حي للنبي صلّى الله عليه وسلّم والتي قد قتل زوجها في الغزوة فأخلصها النبي له ولكن نظرًا لباب ما يذكر في الفخذ في كتاب الصلوة للبخاري وما زاده السيد سليمان الندوي روى أنس ذاته في صحيح مسلم (باب فضل عتق الأمة ثم التزوج بها) أنه لما جمعت الأسارى بعد الحرب طلب دحية الكلبي من النبي أن يعطيه أمة منهن فخيّره النبي لذلك فاختار صفية ولكن الناس اعترضوا عليه حتى قام أحد فقال إنك فوّضت صفية إلى دحية والحال أنها رئيسة قريظة ونضير فلا يليقها إلا أنت فأعتقها النبي وتزوّج منها. ذكر أبو داؤد هاتين الروايتين وكلتاهما مروية من أنس. وقد نقل قول المازري في شرح أبي داؤد أن النبي قد أخذ صفية من دحية لأنها كانت أعلى منه درجة

---

[1] المصدر نفسه، ص 203

[2] كذا هامش الصفحة 231

وبنت رئيس اليهود فإن وهبها لأحد فسيكون هذا إهانة له وهتكًا لعزتها. وقد كتب ما يشبهه الحافظ ابن حجر في فتح الباري فيقول العلامة بعدما ذكر اختلاف الروايات:

"هذا بديهي أن صفية ستعيش زوجة أو أمة في غير قبيلتها بعد أن خربت أسرتها. إنها كانت بنت رئيس خيبر وكان زوجها رئيس بني نضير وقد قتل الوالد والزوج كلاهما فلم يبق لتسليتها والاحتفاظ بدرجتها وقطع همّها سوى أن يتزوّج منها النبي الكريم وكان بإمكانها أن تعيش أمة إلا أن النبي قد رعى عزة قبيلتها فأعتقها وتزوّج منها وقد أضاف إليه السيد سليمان الندوي أنه قد جاء في مسند أحمد بن حنبل أن النبي قد خيّرها أن تعود إلى بيتها أو تتزوّج منه فاختارت الأمر الثاني. كانت معاملة النبي هذه خير معاملة سياسية ودينية وفوق تلك معاملة إنسانية وهي التي قد رغّبت العرب في الإسلام بأن صاحبه يعامل مع ورثة أعدائه معاملة حسن الخلق.

وقد مضى قول العلامة أن نفس المعاملة قد مارسها النبي مع جويرية في غزوة بني المصطلق وما أثرت هي في الناس قد مضى ذكرها[1].

الجمع والتطبيق والقضاء على التناقض: وقد قام بالقضاء على التناقض بالتطبيق بين الروايات فمثلًا أنه لما دنا النبي من المدينة حين الهجرة بدت النساء المقنعات على سقوف بيوتهن وجعلن ينشدن "طلع البدر علينا" وأحال لذلك إلى وفاء الوفاء لكنه كتب أن هذه الأبيات مذكورة في البخاري ولكنها ذكرت بمناسبة غزوة تبوك ثم يقول: ولكن لا تناقض بين هاتين الروايتين وعسى أنها أنشدت بكلتا المناسبتين[2].

الدلالة على الأحاديث الصحيحة والقوية والمتصلة والمنقطعة والضعيفة والمنكرة: ولقد مضت أمثلة عديدة خلال الحديث عن نقد العلامة شبلي للأحاديث على أن العلامة شبلي يحاول رفع القناع عن قوة وضعف الحديث فيقوم بتعيين درجته فننقل فيما يلي مثالًا واحدًا فحسب:

---

[1] المصدر نفسه، 1/349-350

[2] كذا هامش الصفحتين 199 و200

ومبينًا كيفية نزول الوحي الأول يقول عن حديث في الهامش إنها مروية عن عائشة ولكنها لم تولد حين تلك الفترة فمثل هذه الروايات مرسلة في مصطلحات المحدثين إلا أنهم يقبلون مراسيل الصحابة لأن الرواة الذين فاتوهم سيكونون من صحابتهم[1].

الإشارة إلى قلة وزيادة روايات موضوع واحد: وبجانب الإشارة إلى اختلاف الأحاديث والفرق بينها فهو يشير إلى قلتها وزيادتها فمثلًا أن النبي قد زار أبا طالب حين وفاته وكان يحضرها أبو جهل وعبد الله بن أمية فالتمس منه النبي أن يقول كلمة الإسلام (لا إله إلا الله) قبل أن يموت فإنه سيشهد بإيمانه فقال له أبو جهل وابن أمية: أيا أبا طالب! هل ترتدّ عن دين عبد المطلب فقال أبو طالب في النهاية: إني أموت على دين عبد المطلب ثم قال موجهًا إلى النبي: كان بإمكاني أن أقول تلك الكلمة ولكن القريش ستعيرني أني خفت من الموت فقال له النبي: إني سأستغفرالله لك حتى منعني الله عن تلك.

وبعد أن ذكر هذا التفصيل في المتن يعلّق عليه العلامة في الهامش:

"قد ذكرت جملة أبي طالب النهائية في صحيح مسلم لا في صحيح البخاري"[2].

في شهر محرم سنة 7 للهجرة خرج النبي مع صحابته من المدينة لمواجهة حملة غطفان واليهود فتقدّمهم عامر بن الأكوع وهو يراجز فقال في أبيات الرجز أنها منقولة في صحيحي مسلم والبخاري إلا أن مسند أحمد بن حنبل زادها شيئًا[3].

بعض التوضيحات عن روايات السير: وفي بعض مواضع كتابه أخذ العلامة شبلي بعض الأحاديث من كتب السير وذلك لأنها تقدّم تفصيلًا أكثر مما في مجموعات الحديث فمثلًا أنه لما ارتحل مع صحابته للعمر في سنة 7 للهجرة طبق صلح الحديبية فالتصقت به أمامة ابنة حمزة الصغيرة التي خلّفت في مكة نادية يا عمّي فتقدّم العديد من

[1] كذا هامش الصفحة 143 للمجلد الأول لسيرة النبي

[2] كذا ص 176

[3] كذا ص 343

الصحابة لتبنيها فلما وجد النبي كلهم سواسية في الدرجة أعطاها أسماء التي كانت عمّتها للأم ثم قال إن العمة مثل الأم ثم يوضح في الهامش إن معظم أجزاء هذه الواقعة مأخوذة من باب عمرة القضاء لكتاب المغازي لصحيح البخاري وأما ما زيد فيها فهي مأخوذة من الزرقاني[1].

تحقيق مفردات الحديث: وقد روى الإمام البخاري في كتاب الإجارة (باب رعي الغنم على قراريط) قول النبي أني كنت أرعى غنم مكة على قراريط" فيقول العلامة شبلي: اختلف العلماء في معنى قراريط فيرى شيخ ابن ماجة سويد بن سعيد إنه جمع قيراط و درهم أو دينار فالحديث يعني عنده أن النبي كان يرعى غنم الناس على أجر وعلى هذا فقد ذكر البخاري الحديث في باب الإجارة ولكن يقول إبراهيم الحربي إن قراريط موضع على قرب من أجياد، رجّحه ابن الجوزي وقد تناول العلامة العيني هذا البحث بالتفصيل وأثبت بدلائل قوية أنما يراه ابن الجوزي صحيح وقد جاء تفصيل مزيد في نور النبراس وفيه تم ترجيح الرأي الأخير[2].

وقد تناول العلامة شبلي في "سيرة النبي" وفي غيره من مؤلفاته ومقالاته قضايا ومسائل عن الحديث يصعب للباحث جمعها ثم الحديث عنها في هذه المقالة الوجيزة[3].

الملاحظة: كتب الشيخ ضياء الدين الإصلاحي هذه المقالة بناءً على "سيرة النبي" للعلامة شبلي و"حيات شبلي" للعلامة سيد سليمان الندوي وكل ما أحال إليه من المصادر فهي مذكورة في سير النبي فلا حاجة إلى ذكر المصادر والمراجع.

---

[1] كذا المتن مع الهامش على الصفحة 458

[2] المصدر نفسه، 125/1

[3] المصدر نفسه، 125/1

بعض المباحث الفقهية لدى العلامة شبلي النعماني

- الشيخ كليم صفات الإصلاحي

ترجمة من الأردوية: محمد أحمد بن عبد الله

يتراءى من دراسة التاريخ أن الإسلام، حين وروده في الهند، قد ارتقى نظامه الفكري والعقدي في كافة درجات الرقي والازدهار، فمن ناحية الدين انقسم إلى فرق شتى بينما رتّبت مذاهبه الأربعة الشهيرة من ناحية الفقه، وتمكنت الأشاعرة من عرش علم الكلام والفلسفة، وعلى هذا وذلك فقد انتهت المرحلة الأولى لحرية الفكر والرأي، وأما في عهد العباسيين فقد انقسم العالم الإسلامي إلى قسمين هامّين (العرب والعجم) وفي كليهما بدأ ينمو الشعور بالقومية وتسلّل إلى أهاليهما شيئًا فشيئًا، فكانوا يودّون تحديد رقيّ الإسلام في حدود الطبيعة القومية والتقاليد الوطنية، والذي كان موافقًا للدين الإسلامي مائة بالمائة، ونرى جليًا اختلاف طبيعة العرب عن العجم وبالعكس في جميع نواحي الحياة، سواء كانت أفكار ومباحث الفقه الإسلامي أو مجالس علم الكلام أو محافل الحضارة الإسلامية أو مجال الفلسفة والحكمة.

سعى معتزلة العجم في مضمار علم الكلام، والإمام أبو حنيفة في مسائل الفقه الدقيقة إعطاء عقيدة الإسلام النقية نظامًا فكريًا وصورة قانونية، إلا أن الطبيعة العجمية تبدو فاشلة في التأثير على ميول العرب الحضارية تأثيرًا شاملًا، ويظهر ذلك جليًا بوجود الفقه الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي.

والهند التي كانت بمعزل عن هذه التطورات الفكرية والعقلية لم تلعب دورًا مهمًا في تطوير الفكر الإسلامي، إلا أن هنديًا برز إلى حيّز الوجود في القرن الثامن عشر الميلادي وتسمّى بالشاه ولي الله الدهلوي فسعى سعيًا حثيثًا بكل حماس ونشاط وهمة عالية إلى

ربط أواصر المقتضيات الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الحديثة بالدين الإسلامي، وتصدى لتمهيد السبل للأمور الاجتهادية والفقهية للأمة مع مراعاة قيم سلف الأمة، ثم قامت أسرته العلمية وخلفه الصالح بتطوير فكره وترويجه.

هذه هي الفكرة التي قادت فكرة العلامة شبلي النعماني وبعض معاصريه، فإنهم لا يهملون الفرق الدقيق بين روح الإسلام الحقيقية وبين الشريعة، ويبحثون عن الآثار المرتبة على احتكاك الحضارة والدين، ويرون أن الإسلام يلائم الأوضاع الراهنة ومقتضياتها.

كان العلامة شبلي رجلًا فذًا وصانعًا للتاريخ، والمواهب العالية والمزايا العديدة التي من أجلها ساد على أفق عالم العلم والتحقيق والأدب والتاريخ، والذكاء الموهوب والمؤهلات الموهوبة التي أثبتت آثاره على قلوب وأذهان أهل عصره والذين جاؤا بعد عصره، من أهم هذه المزايا حرية قلمه الساحر واستدلاله الفقهي في العلوم والأفكار الإسلامية، فلم يدوّن قبل العلامة شبلي رحمه الله خطة واضحة على الطراز الجديد للعلوم الدينية والإسلامية في اللغة الأردوية، فإنه قد سبق إلى تقديم خطة تاريخ العلوم الإسلامية وتدوينها على النمط الجديد، يقول الشيخ عبد السلام الندوي:

"أول من وضع خطة لتاريخ العلوم الإسلامية على النمط الجديد هو شبلي رحمه الله، وألّف في تاريخ علم الكلام كتابًا باسم "علم الكلام"، ودوّن تاريخًا شاملًا للشعر الفارسي في أربعة أو خمسة أجزاء، وإن لم يتح له تأليف السيرة النبوية فرصة الالتفات إلى هذا الجانب فيما بعد إلا أنه كان يكرّر ذكر إكمال تاريخ العلوم الإسلامية، ويراه موضوعًا تاريخيًا جديدًا للغة الأردوية"[1].

ليست ناحية من نواحي شخصية شبلي إلا وقد نالت اهتمام الناس بالبحث والتحقيق، إلا أن هناك ناحية مضيئة في حياته لاقت الإهمال وعدم الاهتمام، وهي مكانته وعلوّ كعبه في الفقه، مع أن العلامة شبلي رحمه الله قد بحث هذا الموضوع بحثًا رائعًا فاقد

[1] مقدمة تاريخ الفقه الإسلامي، ص1

النظير لا يتحمله إلا قلمه القوي، فرسالته "الوقف على الأولاد" و"حقوق الذميين" و"الجزية" و"الحجاب والإسلام" وكذا المباحث الفقهية في كتابه "سيرة النبي" لا يسع لأحد إنكار أهميتها وفوائدها، وكتابه "سيرة النعمان" خيرُ مثال لهذه الرغبة والهواية، وكما يقول العلامة السيد سليمان الندوي رحمه الله:

"وهذا الكتاب صورة صادقة لولوعه بالإمام أبي حنيفة رحمه الله والفقه الحنفي"[1].

وبعدما ألّف كتابه "المأمون" بدأ في تأليف "الفاروق" وجمع مادة غزيرة حول هذا الموضوع، إلا أنه كان في حاجة إلى بعض الكتب المهمة التي كانت تحت الطبع في أوربا، فكان في انتظارها، ومن أجل ذلك أخّر تأليف كتابه "الفاروق" وأخذ في تأليف "سيرة النعمان"، يقول:

"وأخيرًا استولى هذا الخيال، وصرفت اهتمامي عن الأسرة الحاكمة إلى الحلقات العلمية، وكانت أمامي أسر علمية شتى من الفقه والحديث والأدب والفلسفة والرياضيات، إلا أنه وقع الترجيح للفقه لأسباب، وجعلت الإمام أبا حنيفة الذي أسّس علم الفقه بطلًا لهذه الأسرة"[2].

والذي أراه أن الهدف المنشود من تأليف "سيرة النعمان" إنما هو توفير الأدلة والشواهد على أهمية علم الفقه والحاجة إليه، ومن هنا نرى أن العلامة رحمه الله بحث في هذا الكتاب عن أصول الفقه وضوابطه، وبداية استنباط الأحكام، وتدوين الفقه وطريقته، وأساطين الفقه من الصحابة، وثبوته في الشرع، بحثَ المتخصصين، وأثبت أن الفقه ليس شيئًا جديدًا في الإسلام، وإنما هو مستمدّ من الشريعة الإسلامية والصحابة الكرام، ويظهر من دراسة "الشبليات" أن الموضوعات المذكورة كانت في الحقيقة مميزات مباحثه وأفكاره الفقهية.

---

[1] حياة شبلي، ص1-8

[2] سيرة النعمان، 3/1

تاريخ الفقه على سبيل الإجمال: الفقه هو معرفة الأحكام والقوانين الإلهية في ضوء الكتاب والسنة وتوضيحات وأدلة الشارع عليه السلام، واستنباط المسائل من هذه الأدلة[1].

لم يكن في عصر الرسول صلّى الله عليه سلّم تقسيم الأحكام والمسائل، وكان الصحابة رضي الله عنهم يعملون كما يرون النبي يعمل، فعصر الرسول صلّى الله عليه وسلّم يبدو فارغًا من تفاصيل الفرض والواجب والسنن المؤكدة وغير المؤكدة، والمستحب والركن وما إلى ذلك، وفي الأحوال الطارئة كان الصحابة يرجعون إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، يقول الشاه ولي الله:

"وكان صلّى الله عليه وسلّم يستفتيه الناس في الوقائع فيفتيهم، ... ويرى الناس يفعلون معروفًا فيمدحه، أو منكرًا فينكر عليه، ... كان في الاجتماعات"[2].

أساطين الفقه من الصحابة: في بداية العهد الإسلامي كان تدوين الفقه محصورًا في الروايات الشفهية، ولم تضبط قواعده في هذا العصر، إلا أن الصحابة الذين ينسب إليهم علم الفقه والذين كانت لهم جهود في الاستنباط والاجتهاد والذين امتازوا كأساطين الفقه يقول فيهم العلامة شبلي:

"الصحابة الذين اهتموا بالاستنباط والاجتهاد وسمّوا مجتهدين وفقهاء امتاز منهم أربعة: عمر وعلي وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، أما علي وعبد الله بن مسعود فكان أكثر مقامهما في الكوفة، وفيها اشتهرت أحكامهما ومسائلهما، ومن هنا أصبحت الكوفة مدرسة للفقه، كما لقّب الحرمان بـ"دار العلوم" بسبب عمر وعبد الله بن عباس"[3].

نشأة تدوين الفقه وأسبابها: وإن كانت العلوم الإسلامية نشأت مع ظهور الإسلام مثل التفسير الذي يعني تفهيم الآيات القرآنية، والحديث الذي يعني شرح أفعال النبي وأقواله في مرآة القرآن، والفقه الذي يعني استنباط المسائل الحادثة في ضوء الكتاب والسنة، إلا

---

[1] مقدمة ابن خلدون، ص488

[2] حجة الله البالغة، 12/1

[3] سيرة النعمان، 177/2

أنه لم يكن في هذا العصر كفنّ، ولم تكن منسوبة إلى شخص معين، وإن كانت معظم مسائل الفقه قد دوّنت في هذا العصر إلا أن هذا التدوين كان مداره على الرواية الشفهية، ولم يكن مدوّنًا كفنّ الحديث ولم توضع قواعد الاستنباط والاستدلال، ولم تضبط أصول تفريع الأحكام، ولم يكن هناك تمييز بين الأحاديث، ولم تدوّن قواعد القياس وشبيه النظير على النظير، وخلاصة القول أن الفقه كان عبارة عن المسائل الفرعية، ووصوله إلى رتبة القانون كان بحاجة إلى درجات عديدة، والمدارج الأساسية للفقه رتّبها الإمام أبو حنيفة مع أصحابه، وأسّس علم الفقه. وكما يقول العلامة شبلي:

"بدأ التدوين والترتيب في أوائل القرن الثاني، والذين قاموا بالتدوين عرفوا كمؤسّس لهذه العلوم، فلقّب أبو حنيفة بـ"مؤسّس الفقه" وكان جديرًا بهذا اللقب، لئن كان أرسطو مخترعًا لعلم المنطق فلا ريب أن أبا حنيفة مخترع لعلم الفقه، والفقه من أكبر مآثر هذا الإمام"[1].

ويقول أثناء ذكره لتدوين الفقه وأسبابه: "لقد توسّعت الحضارة الإسلامية، وكثرت الوقائع عن العبادات والمعاملات ولم تزل في ازدياد حتى احتيج إلى مجموعة قانون مرتبة، وبعد توسع نطاق الحكومة والاحتكاك بالشعوب الأخرى توسّعت الدراسة والتعليم بحيث لم يبق في وسع الأسانيد والروايات الشفهية تحمّلها، ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف أن يتبادر إلى أذهان الناس فكرة ترتيب هذه الفروع في أصول كفنّ مستقل"[2].

يقول العلامة رحمه الله: "اهتم الإمام أبو حنيفة رحمه الله بهذا الفن اهتمامًا خاصًا، وكان قد رزق طبيعة الاجتهاد والتعصب إلى حد أقصى، وتوسعه التجاري وعلاقاته الدولية أكسبته معرفة متطلبات المعاملات، وكانت ترد عليه مآت الاستفتاءات يوميًا من أقصى البلاد، ويتبين له من خلالها حاجة الدولة إلى هذا الفن، وكان يشاهد بعينيه

[1] المصدر نفسه، ص176

[2] المصدر نفسه، ص177

أخطاء القضاة والحكام في فصل القضايا، والحاصل أن هذه هي الأسباب والعوامل التي دفعته إلى تدوين هذا الفن".

كليات أصول الفقه عند العلامة شبلي: وإن توسع علم أصول الفقه عند المتأخرين من حيث الفن وتجدّدت مآت المسائل التي لا يمكن تصورها في القرنين الأول والثاني، إلا أن مهمات مسائل هذا الفن التي يقوم عليها أساس هذا العلم إنما وضعت في القرون الأولى. يقول العلامة شبلي:

"مسائل هذا العلم المهمّة التي يقوم عليها أساس هذا الفن قد وضعت في عصر الإمام أبي حنيفة رحمه الله، فشرح الأصول الأربعة، ومراتب الحديث وأحكامه، وأصول الجرح والتعديل، وحدود الإجماع وضوابطه، وأحكام القياس وشرائطه، وأنواع الأحكام، وتحديد العموم والخصوص، وقواعد دفع التعارض، وطرق فهم المراد، هذه المسائل هي أركان علم أصول الفقه"[1].

دفع شبهة في باب تدوين أصول الفقه: يرى الناس عمومًا أن أصول الفقه الموجود بين أيدينا إنما هي من ترتيب الإمام الشافعي، إلا أن العلامة شبلي رحمه الله ردّ هذه الدعوى قائلًا: لا شك في صحة هذه الدعوى من حيث أن هذه المسائل لم تدوّن في كتاب مستقلّ قبل الإمام الشافعي، إلا أن أساس هذا الفن قد وضع قبل الإمام الشافعي بكثير، ولو رفع شرط الكتابة والتدوين فيمكن أن يقال إن الإمام أبا حنيفة مؤسّس هذا الفن.

قد بدأ استنباط المسائل وتفريع الأحكام في عصر التابعين بل في عصر الصحابة، يقول العلامة رحمه الله إن طريقة الاستنباط والاستخراج لم تكن بشكل علمي، فكما تستنبط النتيجة أو يفرع الحكم من عبارة ما حسب الوجدان، ولا تعرف القاعدة الكلية التي

[1] المصدر نفسه، ص198

يندرج تحتها هذا الاستنباط والتفريع، ولا تعرف شروطه وقيوده[1]، والإمام أبو حنيفة رحمه الله هو أوّل من وضع هذا القانون.

ما هي الحاجة إلى التفقه في المسائل: وهنا يرد سؤال مهمّ حول علم الفقه وترتيب ووضع أصوله وكلياته: ما هي الحاجة إلى ذلك كله؟ وفي الردّ على هذا السؤال اعتمد العلامة شبلي رحمه الله على الشاه ولي الله رحمه الله فيقول:

"توسّعت الفتوح بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم، واتسعت دائرة الحضارة، وكثرت الحوادث فاحتيج إلى الاجتهاد والاستنباط، واضطر إلى تفصيل الأحكام الإجمالية"[2].

أسباب الاختلاف في المسائل الفقهية: ذكر العلامة ابن خلدون رحمه الله أسباب الاختلاف مفصّلة في كتابه "مقدمة ابن خلدون"، ومن هذه الأسباب اختلاف استنباط الأحكام من النصوص؛ لأن هذه الأدلة باللغة العربية، واللفظ الواحد يحمل عدة معانٍ في اللغة العربية، والسبب الثاني أن هذه النصوص وردت من طرق شتى (أي من طرق رواة مختلفين) وهذا يحتمل جانب الترجيح، والسبب الثالث أن هناك مسائل حديثة لا يوجد فيها نصّ صريح، وفي الاستنباط لهذه المسائل لا بدّ من الرجوع إلى الأدلة المنصوص عليها التي تشبه المسائل الحديثة"[3].

وقد عبّر العلامة رحمه الله عن رأي الشاه ولي الله بهذا الخصوص قائلًا:

"ترك أحدٌ في صلاته بعض الأعمال سهوًا، فهل تتم صلاته أم لا؟ ولا يمكن أن تسمّى جميع أعمال الصلاة فرضًا، ففرق الصحابة بين فرائض الصلاة وواجباتها، وسننها ومستحباتها، وكان من المستحيل اتفاق آراء جميع الصحابة في الأمور التي تعتبر أصولًا لهذا التفريق، وهذا منشأ اختلاف الآراء في المسائل، واختلفت آراء الصحابة في معظم

---

[1] المصدر نفسه، ص197

[2] المصدر نفسه، ص177

[3] مقدمة ابن خلدون، ص488

المسائل، ووقعت حوادث لم يكن لها في عصر الرسول عين ولا أثر، فاحتاج الصحابة في هذه الأمور إلى الاستنباط والتفريع وحمل النظير على النظير والقياس، ولم تكن طرق هذه الأصول متحدة فلم يكن بدٌّ من اختلاف"[1].

هل تتغير الأحكام الفقهية حسب الحاجة؟ يقول المؤلفون الأوربيون إن قانون الإسلام (مسائله الفقهية) كيدٍ شلّاء لا يمكن تحريكها، بمعنى أنها لا تقبل التطوير والتبديل، وهذا هو السبب في عدم مسايرتها لمتطلبات العصر، وللإجابة على هذا السؤال لا بدّ من البحث عن العصور المختلفة للفقه الإسلامي، والتطورات والتغيرات التي وقعت في تلك العصور، وأقوال السلف وتصرفاتهم في هذا الأمر، وشرح أسبابها وعللها، يقول العلامة شبلي:

"إذا أردنا أن نقول شيئًا في هذا الشأن فيقول المعارضون: هذا من تأثير الأفكار الحديثة، وإلا فالمسائل الفقهية عند السلف لم تكن صالحة لقبول الإصلاح والتعديل، فلا نريد أن نقول شيئًا من عند أنفسنا في هذا الأمر، بل ننظر ماذا كتب السلف في هذا الموضوع"[2].

ثم نقل عن رسالة "نشر العرف في بناء بعض الأحكام على العرف" للعلامة الشامي والتي ألّفت في هذا الموضوع بصفة خاصة:

"وليعلم أن المسائل الفقهية إما أن تثبت بنص صريح (وقد ذكرناه في الفصل الأول) وإما بالاجتهاد والرأي، وأكثر هذه المسائل وضعها المجتهدون حسب العرف في عصورهم"[3].

ثم يقول: إن مؤلّف هذه الرسالة ذكر أمثلة كثيرة وقع فيها التغيير حسب العرف والعادة، وعلى سبيل المثال: أفتى المجتهدون في القديم بعدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، والآن أفتى الفقهاء بجوازه، والبيع بالوفاء كان محرمًا ثم أبيح الآن، وأثبت العلامة رحمه الله بعرض أمثال هذه الأمثلة والشواهد أن القوانين الاجتهادية تقبل التعديل حسب الحاجة، وأصدر المتأخرون مآت الفتاوى حسب الظروف والأزمان، وإليكم مثال آخر:

---

[1] سيرة النعمان، 177/2

[2] مقالات شبلي، 75/1

[3] المصدر نفسه، ص76

"في القديم كان للوصي حق المضاربة في مال اليتيم بينما أفتى المتأخرون بعدم جوازها، في عصر الرسول صلّى الله عليه وسلّم كانت تحضر النساء في المسجد لأداء الصلاة، ومنعهن المتأخرون عن ذلك"[1].

وهنا يرد سؤال: إن كانت أحكام الشريعة تقبل التبديل حسب الظروف والأزمان فما هي ضوابطه؟ وهل تتغير الفرائض والأحكام حسب الأزمان؟

ولردّ هذه الشبهة رجع العلامة شبلي إلى رسالة العلامة الشامي ونقل آراءه، وخلاصة رأيه أن العرف ينقسم إلى قسمين: العام والخاص، فإذا كان العرف مخالفًا للدليل الشرعي ويلزم من العمل به ترك النص الشرعي فلا شبهة في بطلانه، وإذا لم يكن العرف مخالفًا تمامًا للنص الصريح بل كان الدليل عامًا والعرف متعلقًا بصورة خاصة، ولم يكن هناك نصٌ صريح بل كان القياس فالعرف يكون حينئذ معتبرًا بشرط أن يكون العرف عامًا، فالقياس يترك مقابل العرف العام، مثلًا لو أعطى الحائك ثوبًا بشرط أنه يأخذ ثلث الثوب في الأجرة، فهذه المعاملة غير جائز شرعًا، إلا أن هذه الطريقة كانت سائدة ومعمولًا بها في بلخ فأفتى فقهاء بلخ بجوازها، وقالوا إن الحديث يخصّص بسبب العرف.

يقول العلامة شبلي بعد ذكر هذه التفاصيل: فمن يقول بعد هذا الشرح والتوضيح إن الفقه الإسلامي غيرُ قابل للتطور والملاءمة لمقتضيات الحاجات؟ وحدثت في هذا الزمان مآت وآلاف المسائل الفرعية التي يحكم بجوازها وعدم جوازها تحت قاعدة كلية قديمة، فمثل هذه المسائل الفرعية لم تكن موجودة في العصور الأولى للإسلام، لكن العلامة الشامي أثبت في رسالته باستناد مآت الروايات أن حكم الكليات تخصص بسبب العرف العام.

تأثر العلامة شبلي بالفقه الحنفي: كان الشيخ فاروق رحمه الله (أستاذ العلامة شبلي) حنفيًا متعصبًا، وثبت على الحنفية إلى آخر أنفاسه، وسنحت للعلامة فرصة الاستفادة

[1] المصدر نفسه، 77/1

من علوم الشيخ فاروق إلى مدة، فلا غرو أن يكون العلامة شبلي تأثر بالحنفية بفيض مصاحبته لشيخه، فلما ارتحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج في عمر تسعة عشر عامًا ذهب من مكة إلى المدينة، واستوعب هناك قراءة كتب الفقه الحنفي، وبحث عن مثل هذه الكتب، يقول الشيخ رياست علي الندوي رحمه الله:

"في المدينة المنورة عدة مكتبات، وفي ذلك الوقت كان يغلب على الشيخ طابع الحنفية وكان الجدال قائمًا بين الحنفية والوهابية في الهند، فبحث هناك عن مثل هذه الكتب"[1].

يقول العلامة شبلي نفسه:

"عقيدتي هي عقيدة علماء الحنفية، وأنا حنفي في العقيدة الإسلامية والمسائل الفقهية"[2].

الشك على فتوى الإمام أبي حنيفة والاستفسار عنها: وإن كان العلامة شبلي رحمه الله عدّ نفسه حنفي المذهب، وحاملًا لراية عقيدة الحنفية، إلا أنه لم يعتمد اعتمادًا كليًا على جميع المباحث الفقهية للإمام أبي حنيفة وفتاواه، لأنه لم يكن يرى التقليد الجامد، وإبان تصنيفه للسيرة النبوية التي تعتبر ممثلة لآراءه وأفكاره، إذا وردت عليه أمور لا يدرك كنهها، والمسألة التي تعتريه فيها الشبهة يرجع فيها إلى الشيخ إرشاد حسين، وإليكم نموذج لبعض استفتاءاته:

"كان في مجلسٍ عدةُ رجال، إذ وقعت حية على واحد منهم، فطرحها على آخر، وكذا آل الأمر إلى ثلاثة أو أربعة، وفي نهاية الأمر لسعت الحية واحدًا منهم فمات، فأفتى الإمام رحمه الله بأنه لو لسعت الحية مباشرة مع السقوط فالدية على الذي طرح في الأخير، وإن كانت هناك وقفة فلا تكون على واحد منهم. والشبهة التي تنشأ هنا أن الذي طرح كان مضطرًا إلى ذلك، فكيف يؤاخذ على هذا العمل الاضطراري، وكيف تخريج هذه المسألة في الفقه؟ أرجو الجواب العاجل حتى لا أتعطل عن العمل."

---

[1] معارف، 2/1، ص18، 1916م

[2] حياة شبلي، ص825

وننقل هنا خلاصة فتوى الشيخ إرشاد حسين الذي يقول:

"بما أنه لا يشترط الاختيار للزوم الدية، وكذا لم يكن طرح الحية على الاضطرار بل كان على الاختيار؛ لأن الذي طرح في الأخير كان بإمكانه أن يطرحها في مكان آخر بعيدًا عن أصحاب المجلس، ومن هنا أفتى الإمام رحمه الله بلزوم الدية"[1].

والآن نلقي الضوء على المباحث الفقهية التي تكلم عنها العلامة ودرسها دراسة لا مزيد عليها، ليتجلى لأهل العلم فضله وكماله وشخصيته الشاملة في العلوم الإسلامية (أعني الأمور الفقهية) ونبدأ بالكلام على البحث الذي حرّره العلامة في مسألة "الوقف على الأولاد" ونشير إلى الآراء الفقهية والأفكار والنكات التي وردت في هذا البحث.

ماذا يعني الوقف على الأولاد؟ مسألة فقهية متفق عليها عند المسلمين بأنه لو وقف شخص ضيعته على أولاده، وقصده بذلك أن تدوم ضيعته هذه وينتفع أولاده بربحها، فهذا الوقف جائز شرعًا، فلا يكون بإمكان أحد أن يبيع أو ينقل أو يضيع هذا الوقف، ويتمتع به أولاده ماداموا في هذا العالم"[2].

يقول العلامة شبلي رحمه الله إن هذه الطريقة لم تزل سارية في الإسلام، ولا تزال في جميع البلاد الإسلامية، ولا زالت قائمة في الهند إلى مدة طويلة، ويرى العلامة رحمه الله بأن صورة الوقف هذه لا تخص المسلمين فقط بل يجوز في الأديان الأخرى أيضًا وقف الأملاك، ولا شناعة في ذلك، إلا أن أصحاب الأديان الأخرى فرقوا بين الأقارب والأجانب، يقول:

---

[1] فتاوى إرشادية، 94/1

[2] الندوة، 1/4/6، مايو 1909م

"صورة الوقف موجودة في الأديان الأخرى، إلا أن أصحاب الأديان الأخرى خصّوه بالأجانب، حينما توسع الإسلام في ذلك، وقرّر أن نصرة الرجل نفسه وتربية أولاده فريضة أساسية، وفريضة يثاب الرجل عليها، فوسّع الإسلام دائرة الوقف إلى أولاده وأقاربه"[1].

الأدلة على جواز الوقف عند العلامة رحمه الله: مسألة الوقف على الأولاد عنده مبنية على الأصول التالية:

الأصل الأول: الصدقات والعطايا في الإسلام ليست محصورة في الأجانب بل دفع المال إلى الأهل والعيال يعدّ أيضًا من الصدقات والعطايا.

الأصل الثاني: إن الإسلام وضع للعطايا طريقتين: إحداهما: هبة الأصل، والثاني: أن يكون الأصل مصونًا وينتفع الموهوب له بربحه، وهذا الثاني يسمّى بالوقف، واستنبط العلامة رحمه الله الأصل الأول من الآية التالية:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ) [البقرة : 177]

وكذا أورد الآية التالية: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) [البقرة : 215] ثم يقول:

لما نزلت (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ [آل عمران : 92] جاء أبو طلحة إلى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فقال: يا رسول الله! يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وإن أحبّ أموالي إليّ بيرحاء (وكانت حديقة) فهل أتصدق بها يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: أرى أن تجعلها في الأقربين، فتصدق بها أبو طلحة على أقاربه وبني عمه"[2].

---

[1] رسالة وقف على الأولاد، ص1

[2] صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب من تصدق إلى وكيله، 271/1

وفي رواية لمسلم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ"[1].

وكذا ورد في سنن الترمذي والنسائي وابن ماجه: "الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم ثنتان، صدقة وصلة".

وتبين بهذا أن هذا الأصل وضعه العلامة رحمه الله في ضوء الكتاب والسنة، وبناءً على هذا الأصل أهل الرجل وعياله جزء من المجتمع العام، فالإحسان إليهم بمثابة الإحسان إلى الإنسانية جمعاء.

وقد ذكر رحمه الله للأصل الثاني طريقتين، وسمّى الطريقة الثانية بالوقف وقال: من أحكام الوقف أن الأصل الموهوب لا يكون ملكًا لأحد، ولا يباع ولا ينقل، وفي رأي العلامة رحمه الله أن هذا الأصل بيّنه النبي صلّى الله عليه وسلّم، واستشهد على ذلك بحديث، أن عمر رضي الله عنه استفاد نخلًا فقال يا رسول الله إني استفدت مالًا وهو عندي نفيس فأردت أن أتصدق به، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم "تصدق بأصله لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولكن ينفق ثمره"[2].

يقول العلامة رحمه الله: هذا الوقف وإن كان خاصًا للفقراء والمساكين والضيوف، إلا أنه يدخل في ذلك ذوو الأرحام والأقربون، ففي لفظ عند البخاري:

"فِي الْفُقَرَاءِ وَالْقُرْبَى وَفِي الرِّقَابِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالضَّيْفِ وَابْنِ السَّبِيلِ"[3].

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين الخ، 271/1

[2] صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله عز وجل: وابتلوا اليتامى الخ، 387/1

[3] المصدر نفسه

الأصل الثالث: إن الفقه الإسلامي مبنيّ على النية، وتتغير بسبب النية أحكامه، مثلًا الهبة له حكم خاص، فلو نوى الصدقة في سبيل الله فله حكم آخر، فلو نوى أحد في شيئ الصدقة في سبيل الله فإن هذا الشيئ يحرم على الأغنياء والسادات.

الدليل الثاني للوقف على الأولاد: والدليل الثاني الذي ذكره العلامة للوقف على الأولاد هو أوقاف الصحابة رضي الله عنهم على أولادهم، وأثبت أن كتب الفقه والحديث تصرح بذلك.

فنقل عن فتح القدير: أن الزبير بن العوام رضي الله عنه وقف بيتًا على بناته المطلقات"[1].

ودار الأرقم التي كانت على الصفا وهي التي كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يكون فيها في الإسلام تصدق بها الأرقم على ولده، ونسخة صدقته:

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قضى الأرقم ..... إلى أن قال: لا تباع ولا تورث"[2].

ثم يقول: وتصدق أبو بكر رضي الله عنه بداره بمكة على ولده، وتصدق سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بداره بالمدينة وبداره بمصر على أولاده، وتصدق عمرو بن العاص رضي الله عنه داره بمكة والطائف على ولده فذلك إلى اليوم"[3].

الهدف من تأليف رسالة "الوقف على الأولاد": حينما احتلت الإنجليز بلاد الهند ألغت محاكمهم مسألة الوقف لأنها لم تكن موافقة لدستورهم، وكان دليلهم أن جعل الأملاك غير قابلة للانتقال فيه إضرار بالدولة، وفي جانب آخر في صورة تطبيق قانون عدم جواز الوقف كان التخوف شديدًا على أن تذهب ممتلكات المسلمين وشيئ كثير من أراضيهم في أيدي الآخرين، مع أن في الوقف صلاحًا للأولاد الذين يعبثون بممتلكات آبائهم ولا يبالون بمستقبلهم، وجرت محاولات عدة قبل العلامة شبلي للموافقة على هذا النظام الإسلامي من قبل المحاكم الإنجليزية، يقول السيد سليمان الندوي رحمه الله:

---

[1] فتح القدير، 841/2

[2] المصدر نفسه

[3] هذه المعلومات مأخوذة من كتاب فتح القدير، المصدر نفسه

"كتب القاضي السيد أمير على (القاضي في المحكمة العليا بكولكاتا) جميع الأدلة في جواز هذه المسألة، لكن سلطة مجلس البلاط رأت هذه الأدلة غير كافية، وكذا ألّف المحامي الشيخ محمد يوسف رحمه الله رسالة مفصّلة ومزدانة بالأدلة، وحاول النواب عماد الملك إصلاح هذا الخطأ في مقابلة مع وزير الهند، إلا أن هذه المحاولات لم تُجدِ شيئًا".[1]

وفي سنة 1908م لم يكتف العلامة شبلي بالاعتناء البالغ بهذا الأمر فحسب بل شنّ حملة ضد هذا النظام على مستوى البلاد، وألّف رسالة مفصّلة ومحقّقة حول هذا الموضوع، يقول العلامة رحمه الله: إن قصدي من خلال تأليف هذه الرسالة إظهار أمرين:

(1) وقف الأملاك على الأولاد ثابت بالسنة والفقه، واتفقت مذاهب المسلمين في هذا الأمر.

(2) ما هو منشأ خطأ الحكام الإنجليز وخاصة مجلس البلاط الملكي في فهم هذه المسألة.

إزالة شبهات سلطة مجلس البلاط الملكي: أسباب إلغاء سلطة مجلس البلاط الملكي مسألة الوقف كالتالي:

(1) الشبهة الأولى: أن هبة الولد كيف يكون من أعمال البر والصدقات؟ فأجاب العلامة رحمه الله عن هذه الشبهة في الأصل الأول بالتفصيل، وأثبت أن تربية الأولاد والعائلة يعدّ من أعمال البر في الدين الإسلامي، والعقل يقتضي كذلك أن يعدّ هذا من أعمال البر.

(2) الشبهة الثانية: أن الروايات والأحاديث المروية عن الشارع عليه السلام التي ذكرها الشيخ أمير علي في جواز الوقف كانت مبهمة وتحتاج إلى مزيد من التوضيح والتوثيق، فلم تطمئن سلطة مجلس البلاط بتلك الاستدلالات، لكن العلامة رحمه الله نقل الروايات المتعلقة بوقف الصحابة على أولادهم مفصلة مع ذكر مراجعها.

---

[1] حياة شبلي، ص539

(3) الشبهة الثالثة: أن الإسلام لا يجيز الهبة المشروطة والهبة إلى الحياة وهبة ما لا يمكن نقلها، وطريقة الهبة هذه سارية في الوقف كذلك، فكيف يكون جائزًا؟
يقول العلامة رحمه الله: إن هذا الاعتراض من قبل مجلس البلاط أيضًا غير مسلّم؛ لأن هناك فرقًا بين الهبة والوقف، فلو أعطى أحد شيئًا هبة يعطيه أي واحد من غير قيد، لكن لو سمّى شيئًا زكاة فهذا نوع من الصدقة، ويلزم معها عدة شروط، مثلًا: لا يجوز دفع الزكاة إلى غني أو سيد أو أولاد الأنبياء، لكن المراد بالوقف كفالة مستمرة لطائفة وتهيئة ما يضمن معاشهم، فكأنه مصدر رزق لا يملك أحد إنهاءه.

ما هي بنود الوقف أو قوانينه؟ يرى العلامة رحمه الله أن الموقوف له يلزمه عدة شروط: فلا يحق له نقل الأملاك، ولا الإسراف في نفقاته، ولو تعدّى الموهوب له في استخدام الوقف فلكل مسلم رفع الدعوى إلى المحكمة، ويمنعه القاضي من مثل هذه التصرفات، ويتبين بهذه الصورة وبهذا النظام أن الهبة والوقف يختلفان تمامًا، ولا علاقة بينهما، وهذا هو السبب في اختلاف أحكامهما.

يقول العلامة رحمه الله في نهاية البحث: فإذا تقرّر في ضوء الأحاديث والروايات الفقهية المذكورة أن الوقف على الأولاد جائز في الإسلام وواجب التنفيذ فعلى مجلس البلاط العمل وفقَ الإسلام في مسألة الوقف؛ لأن من أصول حكومة الإنجليز أنها لا تتدخل في الأحكام الدينية لقوم[1].

خطة العلامة رحمه الله: وقد قام العلماء والوجهاء في ذلك الزمان بمحاولات شتى لإقناع سلطات مجلس البلاط بجواز قانون الوقف، إلا أن جميع هذه المحاولات ذهبت سدًى، ولا زالت شبهات مجلس البلاط كما هي، ولم توجد أي مرونة في قانونهم، لكن الخطة التي وضعها العلامة رحمه الله لنيل هذا الهدف لم يكن فيها هذا التخلخل، فإنه

[1] هذه التفاصيل مأخوذة من رسالة وقف على الأولاد

شنّ حملة على مستوى البلاد، وأقنع مجلس البلاط على ذلك بمحاولات مدبرة، والخطة التي وضعها العلامة لذلك كالتالي:

(1) تكوين اللجنة النقابية للوقف، ويكون أعضاؤها الأعيان والمؤظفين الحكوميين والحكام في المديريات والإقطاعيين والمحامين وغيرهم من جميع مناطق الهند.

(2) إعداد فتوى يكون عليها توقيعات علماء جميع مناطق الهند.

(3) تأليف رسالة تحرّر فيها مسألة الوقف على الأولاد في ضوء الأحاديث والروايات الفقهية.

(4) إعداد مذكرة تؤخذ عليها توقيعات مسلمي الهند، وتقديمها إلى نائب الملك مع الرسالة والفتاوى المذكورة، وتكون محتويات المذكرة كالتالي:

"عامة مسلمي الهند يرون أن توجيه مجلس البلاط في مسألة الوقف على الأولاد مخالف للنظام الإسلامي، فنلتمس نحن المسلمين من الحكومة أن تنشئ قانونًا جديدًا في هذه المسألة وفق الشريعة الإسلامية، كما أنشأ حضرة نائب الملك القانون المسمّى بقانون نكاح الأرامل على التماس من الهندوس."

الجزية: من أهمّ المباحث الفقهية للعلامة شبلي النعماني مسألة الجزية، التي نشأت حولها عدة شبهات، وقد ردّ عليها العلامة رحمه الله بقوة، ومن التهم التي ألصقها أعداء الإسلام بالإسلام أن الإسلام هو الذي اخترع نظام الجزية، وهي ضريبة جائرة كانت تفرض على غير المسلمين، وكان يضاعف مقداره حتى يعجز العامة من غير المسلمين عن أدائها ويضطروا إلى الدخول في دين الإسلام.

وقد أجاب العلامة شبلي عن هذه الشبهات المثارة من قبل أعداء الإسلام بأدلة محكمة محقّقة، يقول الشيخ سعيد الأنصاري:

"الشبهات التي كانت توجد في أوساط غير المسلمين أول من ردّ عليها العلامة شبلي رحمه الله بتأليف كتابه "الجزية"[1].

[1] معارف، 13/66، يوليو 1950م

أثبت العلامة رحمه الله بأنه كانت هناك ضريبة تؤخذ من غير المسلمين باسم الجزية دون أهل الإسلام، لكنها كانت بدلًا عن صيانتهم والدفاع عنهم، وقد استثني أهل الذمة من الأعمال الحربية، وكان المسلمون مضطرين إلى ذلك، فلا داعي إلى جبايتها من المسلمين، كأنهم كانوا يضمنون عصمة دمائهم في مقابل هذا المال، وهناك تصريح في أكثر الاتفاقيات أن الجزية كانت ضريبة في مقابل حمايتهم.

وقد بحث العلامة رحمه الله مسألة الجزية من ثلاث نواحٍ: أولاها: الاشتقاق اللغوي لهذه الكلمة ومفهومه، الثانية: متى كانت بداية الجزية في العرب والفرس. الثالثة: وما هو الغرض من اختيارها في الإسلام.

تحقيق كلمة الجزية: أوثق كتاب عربي ألّف في الألفاظ والمصطلحات غير العربية هو "مفاتيح العلوم" وذكر فيه المفهوم الواضح لكلمة الجزية. يقول العلامة شبلي:

"كتب فيه عن الجزية: "وجزاء رؤس أهل الذمة جمع جزية وهو معرب گزيت وهو الخراج بالفارسية"[1].

وكذلك أصحاب القواميس الفارسية ذكروا للجزية المفهوم المذكور:

"گزيت بفتح الأول وكسر الثاني، المال الذي يأخذه الحكام سنويًا، يسمّى عندنا خراجًا يفرض على أهل الذمة[2].

وفي غياث اللغات: لفظ الجزية فارسي معرب من "گزيت"[3].

وبعد هذا الشرح اللغوي يقول العلامة شبلي رحمه الله: فمما لا مرية فيه أن لفظ الجزية كلمة فارسية، وإضافة إلى التحقيق اللغوي توجد عليها شواهد تاريخية، وكذا من المسلمات أن كلمة الجزية كانت معروفة لدى العرب قبل الإسلام[4].

---

[1] مقالات شبلي، 222/1

[2] برهان قاطع، 326/2

[3] غياث اللغات، ص375

[4] مقالات شبلي، 223/1،

قوانين الجزية في عهد أنو شروان: وفي عهد أنو شروان كانت قوانين الجزية سارية قبل الإسلام، يقول الإمام الطبري في باب تنظيم أمور الدولة:

وألزموا الناس الجزية ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والهرابذة والكتاب ومن كان في خدمة الملك، وصيروها على طبقات اثني عشر درهمًا وثمانية وستة وأربعة كقدر إكثار الرجل وإقلاله، ولم يلزموا الجزية من كان أتي له من السن دون العشرين أو فوق الخمسين[1].

واتخذها عمر رضي الله عنه، ففي تاريخ الطبري:

"وهي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطاب حين افتتح بلاد الفرس"[2].

قوانين الجزية في العهد الإسلامي: يقول العلامة شبلي إن أكبر قدر للجزية في العهد الإسلامي كان عشرين درهمًا سنويًا، وإن كان واحد منهم يملك مئات الآلاف، وكان مقدار الجزية على العموم ستة دراهم أو ثلاثة دراهم سنويًا، ومع ذلك استثني من الجزية في الدين الإسلامي النساء والزمنى والمعاقون والعميان والمجانين والمفلسون الذين يملكون أقل من مأتي درهم، ولا حق لأحد في جباية الجزية من هؤلاء نظاميًا[3].

أهداف الجزية ومصارفها: مضى في الأسطر السابقة أن الجزية كانت ضريبة حمايتهم، والنبي صلّى الله عليه وسلّم نفسه كتب إلى والي أيلة: "يحفظوا ويمنعوا"[4].

وكذلك في المعاهدات الأخرى كان هناك تصريح بأن الجزية ضريبة الحماية، ففي معاهدة أهل جرجان:

"إن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال ومن استعنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضًا من جزائه"[5].

---

[1] تاريخ الطبري، 962/2

[2] المصدر نفسه

[3] المصدر نفسه

[4] مقالات شبلي، 231/1

[5] تاريخ الطبري، 2658/5

وإليكم جملة من العهد عند فتح أذربيجان:

"ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة"[1].

والمقصود أن الجزية كانت ضريبة الحماية، وحسب النظام الإسلامي يستحق المسلمون جباية الجزية مدة حمايتهم لأهل الذمة، وإلا فلا يستحقون، فبمناسبة معركة اليرموك لما عجز المسلمون عن حماية أهل الذمة ردوا الجزية التي استلموها إلى أصحابها، فكتب أمير الجيش أبو عبيدة بن الجراح إلى جنود الشام وإلى عمال المناطق المفتوحة أن ردّوا جميع ما جبيتم من الجزية[2].

يقول العلامة شبلي رحمه الله نقلًا عن فتوح البلدان:

"هذا كتاب من خالد بن وليد لصلوبا بن نسطونا وقومه—إني عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة ما منعناكم[3] فلنا الجزية وإلا فلا، كتب سنة اثنتي عشرة في صفر".[4]

فكما أن المسلمين كانوا يستفيدون من الجزية كذلك أهل الذمة كانوا يستفيدون من أنفس المسلمين، يقول العلامة رحمه الله: إن مصارف الجزية كالتالي:

إعداد الجنود، وسدّ الثغور، وتشييد القلاع، فإن بقي شيئ فيصرف في الجسور والشوارع والتعليم[5].

حقوق أهل الذمة: لا زالت الحروب قائمة من بداية عصر النبوة إلى فتح مكة، فلم تسنح الفرصة لإقامة دولة وحكومة في شكلها النهائي، ولو حصل هذا لوضعت القوانين المحكمة بصدد علاقات المسلمين مع مواطنيهم، فلو أخذت الجزية في بداية عصر الحكومة الإسلامية من أهل الذمة فتوفر لهم تسهيلات عوضًا عن هذه الجزية، يقول

---

[1] المصدر نفسه، ص2662

[2] كتاب الخراج، ص81، وفتوح البلدان، ص137

[3] أي مادام منعناكم

[4] مقالات شبلي، 226/1

[5] المصدر نفسه، ص230

العلامة شبلي: الأقوام التي فرض النبي صلّى الله عليه وسلّم عليهم الجزية وفّر لهم الحقوق التالية بشكل مكتوب:

(1) يدفع عنهم في صورة الإغارة عليهم.

(2) لا يكرهون على ترك دينهم.

(3) الجزية التى تؤخذ منهم لا يضطرون لأدائها إلى الجالبين.

(4) تكون دماؤهم مصونة.

(5) تكون أموالهم مصونة.

(6) تكون قوافلهم التجارية مصونة.

(7) تكون أراضيهم مصونة.

(8) كل ما كان ملكًا لهم يبقى في أيديهم.

(9) لا يتعرض للقسيسين والرهبان والعباد بعزلهم عن مناصبهم.

(10) لا تصاب الصبيان والنساء بضرر.

(11) ولا يؤخذ منهم العشر (الزكاة)

(12) لا ترسل الجيوش إلى بلادهم.

(13) لا يضطرون إلى تعديل مذهبهم وعقيدتهم التي كانوا عليها.

(14) ولا تزول الحقوق التي كانت لهم من قبل[1].

وبهذا البيان والتوضيح تقتلع جذور تلك الأكاذيب والمؤامرات التي تحاك من قبل أعداء الإسلام حول حقوق أهل الذمة، الذين يقولون بأن في الإسلام قوانين جائرة في حق المسيحين، ونظام الإسلام في أهل الذمة ليس إلا ما ذكر، لأن أحكام الإسلام وقوانينه مبناها على المسائل والأحكام المستنبطة الثابتة من الكتاب والسنة، وكل ما سوى ذلك

[1] المصدر نفسه، ص188، 189

فإن كان مطابقًا للنصوص الصريحة، وحصل له اعتبار في القوم والدولة فيعتبر جزءًا منها، إلا أن الأساس الأصلي هو الكتاب والسنة.

يقول السيد صباح الدين المدير السابق لمجلة "معارف" معلقًا على مقالة العلامة شبلي (حقوق الذميين):

"كان هذا المقال سببًا في إزالة كثير من الشبهات، كما ذكر في هذا المقال تفصيل التسامح والتوسع اللذين عومل بهما الهندوس من قبل سلاطين المسلمين في الهند، فكان خير عون في تحسين العلاقات بين المسلمين والهندوس عفوًا[1].

والمقال الذي كتبه العلامة شبلي حول موضوع "حقوق الذميين" ردّ فيه ردًا مفحمًا على الاعتراضات التي كانت تثار من قبل أعداء الإسلام بأن الإسلام لا يقول بالديمقراطية، وأن أيدلوجيته في معاملة الآخرين كأهل ذمة أصبحت موضع سخرية في العصر الراهن، فشرح فيه العلامة رحمه الله نظرية الإسلام حول الديمقراطية شرحًا واضحًا، وأجاب عن اعتراضات الأعداء إجابات مقنعة، فمقاله هذا يعتبر تحديًا للحكومات الديمقراطية التي تردّد العلمانية ولكن الفقر والعطالة قد أنهكت المجتمع، والمؤسسات التعليمية فاشلة في أهدافها لأجل التعصب، وتحاك المؤامرات لبثّ سموم اللادينية ونشر روح كتلة معينة عن طريق التعديل في المقررات الدراسية، ففي دستور الهند منح كل ديانة وفرقة إعفاءت حول الحقوق الدينية، إلا أن مسلمي هذه البلاد يعانون من مضايقات، وانظروا إلى الإسلام الذي لا يضمّ أهل الذمة معهم فحسب بل يعتني بصيانة أموالهم وأنفسهم كما يهتمّ بصيانة المسلمين.

لماذا يعيش المسلمون في بلاد غير إسلامية: حكم المسلمون ألفًا وثلاثمائة سنة في شتى بقاع العالم، كما توجد حكومات مسلمة في بقاع شتى في العصر الراهن، وقلما اضطر المسلمون إلى كونهم خاضعين للآخرين، ومن هنا ظن بعض الناس أنه لا توجد تعليمات

[1] مولانا شبلي پر ايك نظر، ص45

حول هذه القضية في كتب الحديث والفقه، ولا توجد في الإسلام أحكام وقواعد حول هذا الأمر، واعتبر العلامة رحمه الله هذه الفكرة خطأ فاحشًا، يقول:

"وهذا خطأ فاحش، ولذا نريد أن نوضح أنه توجد في الإسلام قواعد وضوابط كافية حول هذا الأمر، وكتب الحديث والفقه والتاريخ مليئة بأمثال هذه المسائل والحوادث"[1].

وأثبت العلامة رحمه الله في ضوء أدلة قوية أن المسلم مطالب باتباع أنظمة وقوانين الدولة غير المسلمة التي يلجأ أو يسكن فيها، بل مساندة الجهات الحاكمة في مقاومة القوى المهاجمة ملائمة تمامًا مع التعليمات الإسلامية، ففي عصر الرسول صلّى الله عليه وسلّم لما وقعت مثل هذه الحوادث أثبت الصحابة رضي الله عنهم وفاءهم وولاءهم.

يقول العلامة رحمه الله:

"لما اشتدّ إيذاء الكفار للمسلمين أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة (أي سينيا) وبعد أيام من وصول المسلمين إلى الحبشة أغار عليها ملك من الملوك، فأرسل الصحابة رضي الله عنهم رسولًا من عند أنفسهم من غير طلب لكي يصاحب الجيش، ويطلعهم بأحوال الحرب، ولم يكتف المسلمون بهذا بل كانوا يدعون الله في الصلوات الخمس لانتصار النجاشي"[2].

موقف العلامة شبلي رحمه الله حول الحجاب: يقول العلامة رحمه الله في كلامه حول التاريخ البدائي للحجاب بأن التاريخ البدائي للعالم يسود عليه الظلام، ولا يشك أحد في اتحاد الملابس والمظاهر والسلوكيات بين الرجال والنساء في بداية العصر الإنساني، سوى تلك المميزات التي تميز أحدهما من الآخر طبيعيًا، ومع توسع الحضارات والثقافات ازدادت المميزات بين الصنفين حتى تعسر إدراك الأمور المشتركة بينهما، ولم يبق في هذا

[1] مقالات شبلي، 165/1

[2] المصدر نفسه، ص167

الزمان إلا أمور يسيرة من الأمور المدنية والاجتماعية التي يشترك فيها الرجال والنساء. يقول العلامة رحمه الله:

"التاريخ البدائي للعالم في ظلام حالك، والأزمنة القديمة التي عثرنا على أحوالها لا تجاوز ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، وهذا الزمان قد تأسّست فيه التفرقة بينهما وظهرت مزايا خاصة في مبادئ حياة الجنسين، فيصعب الآن معرفة الأسباب التي تسببت هذه التفرقة"[1].

الحقيقة التاريخية والشرعية للحجاب: كيف نشأت في الإنسان فكرة ستر العورة، وما هي أسباب وقوع الحدود المختلفة بين الرجال والنساء في هذا الأمر؟ وأسئلة أخرى حول أمثال هذه المزايا تدور في خاطر الإنسان، وفي الحديث عن الحجاب من الناحية التاريخية قسم العلامة رحمه الله الحجاب إلى قسمين:

(1) ستر الوجه وجميع الأعضاء.

(2) المشاركة في مجالس الرجال.

ففي رأي العلامة رحمه الله كان النوع الأول من الحجاب موجودًا قبل الإسلام، وكان السبب في اتخاذه الضرورات الطبيعية، يقول:

"في أول الأمر لما نشأ هذا النوع لم يكن خاصًا بالنساء، لأن الضرورات الطبيعية هي التي أوجدته، وكانت تتعلق بالرجال والنساء على السواء، ويغلب على الظن أن قبيلة حمير التي كانت تسكن في اليمن وتحكمها هي التي بدأ عندهم هذا النظام"[2].

وفي رأي العلامة رحمه الله أن هذا النظام في أول أمره لم يكن خاصًا بالنساء، بل كان يشمل الرجال أيضًا، إلا أن الرجال لم يثبتوا على التزام هذا النظام، ولما رفع طريف بن غنم قناعه عن وجهه في سوق عكاظ قلّده سائر العرب، إلا أن النساء لم تزل فيهن هذه العادة إلى الإسلام، ولما جاء الإسلام أكّدها وألزمها، وردّ العلامة رحمه الله

---

[1] المصدر نفسه، ص105

[2] المصدر نفسه

على من يقول إن الحجاب عرف بعد الإسلام، وذكر بعض الأبيات الجاهلية التي تؤكد أن هذا النوع من الحجاب كان موجودًا قبل الإسلام، فمثلًا يقول الشاعر سبرة بن عمرو الفقعسي:

ونســوتكم فـي الــروع بــادٍ وجوههــا يخلـــن إمـــاءً والإمـــاء حرائـــر[1]

يقول العلامة رحمه الله: تقدمت العرب في أمر اللباس في العصر الجاهلي إلى مدى بعيد، وكان هذا التقدم محصورًا في الأمراء ورؤساء القبائل، وأنواع ملابس المرأة التي وجدت في ذلك الزمان كانت سابغة لجميع أعضاء المرأة.

التعديلات في الحجاب في العصر الإسلامي: وبدأ العهد الجديد منذ ظهور الإسلام، وقد أحاط العلامة رحمه الله التعديلات التي حصلت في هذا العصر، يقول: في العصر الجاهلي كانت جيوب المرأة ضافية تبدو منها صدورهن، فنزلت هذه الآية:

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ [النور : 31]

كما سبق في الأسطر السابقة أن الحجاب كان سائدًا قبل الإسلام بكثير، إلا أنه قد ضعف الالتزام به في المدينة بسبب الاختلاط مع اليهود، وتخرج كثير من النساء سافرات، يقول العلامة رحمه الله بأنه نزل حينئذ هذه الآية:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ [الأحزاب: 59][2]

وفي تفسير الكشاف أنه كان هناك فرق بين الإماء والحرائر في الملابس والمظاهر والسلوكيات، وكانت بنات المسلمين ونساؤهم يسترن وجوههن في الجلباب، وكانت الإماء يخرجن سافرات.

---

[1] المصدر نفسه، ص110

[2] المصدر نفسه، ص 115

"وربما تعرّضوا للحرّة بعلة الأمة، يقولون: حسبتها أمة، فأمرن أن يخالفن بزيهنّ عن زي الأماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه"[1].

وكان موقف المسلمين تجاه الحجاب عدم خروج النساء بدون حجاب، وكان الخروج بدون الحجاب معيبًا، وكانت النساء يسترن وجوههن عن غير المحارم إلا في ظروف خاصة.

طريقة الحجاب في بداية الإسلام: في السنة الخامسة من الهجرة نزلت عدة أحكام حول النساء، ومنها حكم الحجاب، في بداية الأمر كانت النساء المسلمات يخرجن سافرات على طريقة الجاهلية، ويلبسن الملابس والحلي السائرة في الجاهلية، ولكن الحجاب الذي ذكره الإسلام، والحجاب الذي كان سائدًا في بداية الإسلام يقول عنه العلامة شبلي رحمه الله:

"كانت النساء إلى الآن يتبرجن تبرج الجاهلية، ويتزيين بزي الجاهلية، فأمرن أن تخرج النساء الحرائر في جلباب واسع يسترن وجوههن بسدله، ويضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يضربن بأرجلهن، ويتحدثن من وراء حجاب، ولا يخضعن بالقول، ومنعت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من الخروج أمام الناس"[2].

وهناك موضوعات أخرى بحث عنها العلامة رحمه الله بحثًا فقهيًا قويًا، في مواضع مختلفة من السيرة النبوية في المجلد الأول والثاني، مثل مسألة الإيلاء واللعان والظهار والطهارة وتحريم الربا وغيرها، واستيعابها يحتاج إلى تأليف مستقل، وهذا الجانب من أعماله التصنيفية والتحقيقة يحتاج إلى عناية خاصة من أصحاب العلم.

---

[1] الكشاف، 2/ 1144

[2] سيرة النبي، 309/1 (الطبعة الجديدة)

المصادر والمراجع

1. ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر، 1329هـ
2. أسد الله خان غالب: برهان قاطع، مطبعة نول كشور، لكناؤ، سنة الطبع لم تذكر
3. السيد صباح الدين عبد الرحمن: مولانا شبلي پر ايك نظر، دار المصنفين، أعظم كره، 1985م
4. العلامة سيد سليمان الندوي: حياة شبلي، دار المصنفين، 2008م
5. العلامة شبلي النعماني: رسالة وقف على الأولاد، طبعة علي كره، 1927م
6. العلامة شبلي النعماني: سيرة النبي، دار المصنفين، الطبعة الجديدة
7. العلامة شبلي النعماني: سيرة النعمان، الطبعة الجديدة، 1998م
8. كريم الدين: غياث اللغات، مطبعة نول كشور، لكناؤ، سنة الطبع لم تذكر
9. مجلة "معارف" الشهرية الصادرة عن دار المصنفين، أعظم كره، الهند
10. الندوة، المجلد6 العدد4، مايو 1909م

العلامة شبلي ومساهمته في نشر علم الكلام

- أ. د. ظفر أحمد الصديقي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

(1)

قال الشيخ السيد أبو الحسن علي الندوي في الجزء الثاني لكتابه "پرانے چراغ" (المصابيح القديمة):

"هذا من أعاجيب تاريخ الآداب أن أديبًا يذيع صيته في شعبة من شعب الأدب يظنّها ما قدّمه في حياته والناس أيضًا يقرّونه إمامًا في تلك الشعبة ولكن الواقع أن له ميزات وخصائص في غيرها من شعب الآداب"[1].

ومثلها أو أشبه بها حدث مع العلامة شبلي فلو أنه أدّى خدمات جليلة في مجالات النقد والشعر والأدب والتاريخ والتراجم وعلم الكلام ولكنه عادة يعتبر فارسًا من فرسان التاريخ[2]. ولا شك أن له رغبة شديدة في التاريخ ولاسيما التاريخ الإسلامي[3] وهو بنفسه كان يحبّ أن يدعى مؤرخًا[4] ولكن هذا من الواقع أن مجاله الخاص لم يكن التاريخ بل كان ميدانه المخصّص هو علم الكلام فهو كان متكلمًا أكثر من كونه مؤرخًا ولكن جانبه التاريخي يبدو غالبًا على جانبه الكلامي لأن معظم كتاباته عن التاريخ أو أقرب من التاريخ أو أخذت موادّها من التاريخ والحال أنه قد استخدم التاريخ، بكل مهارة وحذاقة، كذريعة لعلم الكلام في كل مكان من مؤلفاته.

---

[1] پرانے چراغ، 2/ 170

[2] راجع: إفادات مهدي

[3] نزهة الخواطر، 174/8

[4] علم الكلام، 4/1

هذا في جانب وفي جانب آخر يعتبره بعض المفكّرين والكتّاب المبرزين[1] إمامًا وعنصرًا من عناصر الأدب والإنشاء ويرون أن جانبه الأدبي والإنشائي مفضّل على جوانبه الأخرى. ونرى أنه قد جانبهم الصواب هنا على نفس السبب وهو أن كل كتابة أردوية أو عربية من شبلي تصدق المستوى العالي من اللغة والبيان وهي أسمى نموذج للإنشاء البليغ فهو يبدو في كل مكان من كتاباته أديبًا ومنشئًا ولكن الحق أنه يستخدم الأدب والإنشاء كذريعة ووسيلة وإلا فله غاية أخرى تختفي علينا في معظم الأحيان.

وأكبر دليل وأقواه على كون العلامة شبلي متكلمًا ناجحًا أنه يبدو بذاته من خلال دراسة ممعنة لسيرته وشخصيته، وتحليل دقيق لمؤلفاته ومقالاته أن بعثة حياته الجوهرية ومجال سعيه الأصلي لم يكن إلا دفاعًا عن الإسلام وصيانته ضد اعتراضات المستشرقين الدقيقة وإعادة الثقة بتراثه الحضاري والملي العظيم وهذه هي مسئولية متكلم إسلامي، وقد أيّد ما ذهبنا إليه الشيخ عبد الماجد الدريابادي فيقول بعدما ذكر جانبه الإنشائي والتاريخي:

"وفوق كل هذه الجوانب له جانب ديني وهو كان محبّبًا لديه وهو الذي كان أبرزها وأظهرها فلا تخلو أيّ من كتاباته الأدبية الخالصة من هذا اللون دعْ أن يكون الكلام أو تاريخ علم الكلام أو الفاروق أو الغزالي أو سوانح مولانا روم أو سيرة النعمان أو سيرة النبي وحتى يبتدئ شعر العجم بـ"اسلام ايك ابرِ كرم تها" (كان الإسلام مثل غمامة تحوي بركة ورحمة).

وكان الجزء الكلامي أغلب أجزاء الدين فهو كان يودّ أن يرشّح قلمه ولسانه عن تعضيد الإسلام ومعونته، وغلبة الإسلام وسيطرته ملتزمًا بكافة متطلبات الوقت فكان يجمع المعلومات باختلاط المتضلعين من اللغة الإنجليزية ويستمع إلى ترجمات أردوية للمؤلفات الإنجليزية فيدرسها بإمعان فكانت كل ثانية من ثواني حياته موقوفة على الاطلاع على ما قام به المستشرقون من أنواع الاعتراض على الإسلام ويبحث عن أنواع الردّ عليها والتفنيد لها"[2].

---

[1] نزهة الخواطر (تكملة)، 175/8

[2] الافتتاحية (مجلة أديب، العدد الخاص بشبلي)، ص 9

وبالجملة فيمكن أن نعتبر العلامة شبلي مؤرخًا نظرًا لمصادره ومآخذه، ومنشئًا لأسلوبه وطريقته ولكن لو نظرنا إلى الأهداف والأغراض فكان هو متكلمًا كبيرًا فلا نخطئ إذا ادّعينا أن نرجّح معرفته للكلام على غيرها من العلوم والفنون.

ولا يكون غير ملائم بهذه المناسبة إذا ذكرنا أن الناس لم يعترفوا بمعرفته عن الكلام كما يرام ولا قدّروها خير تقدير. وإن قمنا بتحليل هذه الحالة فنجد عناصر مختلفة وراءها:

فالسبب وراء عدم اعتباره متكلمًا في الجلسات الأدبية الخاصة أنه لا توجد أي نقطة وصل بين علم الكلام وأصناف الأدب ولا توجد صلة مباشرة بينهما بل الواقع أننا نجد شعورًا بنوع من التنافر بينهما فلم تذكر حلقات الأدب أصل وماهية علم الكلام، وأهميته وإفادته، وتاريخ، وخدمات العلامة فيه جنبًا بجنب المتكلمين الأخر.

هذا في جانب وفي جانب آخر فلما نلتفت إلى حلقات العلماء فنجد السبب وراء خمول ذكر شبلي المتكلم أن نظرياته الكلامية مختلفة عن غيره من عامة العلماء وهو بعيد عن الطريقة العامة في بعض مباحث هذا العلم والشيء الآخر أن حياته لا تصدق مقياس التقوى والخشوع والإخلاص لله كما هي المعروف لدى متكلمي الإسلام فلا تزن طبقة العلماء أقواله الكلامية شيئًا.

وبهذه المناسبة يرجع بصرنا بدون وعي إلى أبرّ تلامذة العلامة، السيد سليمان الندوي. ولا شك أنه قد حاول محاولة ناجحة لتسليط الضوء على سيرة وشخصية أستاذه ومختلف جوانب خدماته "حيات شبلي" ولكن الواقع أنه كذلك لم يسعه الإنصاف في جانب الأستاذ الكلامي. والسبب لذلك أن السيد الندوي لم يكن متفقًا مع أستاذه بالنسبة لعلم الكلام بل يبدو إذا قمنا بإمعان النظر في كتاباته أن السيد المذكور أعلاه لم يؤمن بإفادة علم الكلام فهو يقول في مقدمة "حيات شبلي":

"وهنا أودّ أن أقول شيئًا وهو أنما استخدمه متكلمونا من التدابير لتنجية المسلمين من الشكوك والإلحاد ولو أنها ذريعة مهمّة ولكن هذا من الواقع أنها ليست أنجح ذريعة لتبعيد مسلمي زمنٍ من آفات الدهر الذي يسكنون فيه عن طريق العلوم المعروفة في

زمنهم ومن ثم توصيلهم إلى الغاية المنشودة فيمكن أن تبعد بعض عوارض المرض عن طريق معالجة المتكلمين ولكن لن يمكن أن يصلوا بها إلى درجة الصحة الجديدة فقد كانت هذه الشكوك والشبهات للعلوم الفلسفية والإلهيات موجودة في الروم ومصر والشام وإيران في الزمن الذي بعث فيه النبي صلّى الله عليه وسلّم ولكنها لم يتم القضاء عليها عن طريق علم الكلام بل مزّقت أستار هذه الشكوك والشبهات عن طريق نماذج القوة الإيمانية والأعمال الحسنة"[1].

وبالجملة فإلى الآن نحتاج إلى تقديم شخصية العلامة شبلي الكلامية وخدماته في هذا المجال في صورة هي الحسنى.

وعادة تبرز الشخصيات في أوضاع خاصة وأجواء مخصوصة وإن كان العصر مقتصدًا وهادئًا فتبرز شخصيات فيها اقتصاد واتزان وعموم عادة والمراد من العموم أنها تفقد صفة غير عادية وبارزة لأن كل صفة غير عادية تولد لأجل ميل مفقود النظير إلى جانب ما بينما الأوضاع العادية لا تسبّب هذا الميل فاقتصاد العصر يجعل الناس مقتصدين وبالعكس من ذلك فتولد شخصيات غير عادية في جوّ غير هادئ وتظهر هذه الفوضى في صورتين؛ إذا كانت الشخصية فارغة من قوة المقاومة فهي تنجرّ حيث ينجر تيار العصر وإذا كانت فيها قدرة على المقاومة فهي ترفع لوائها ضد العصر.

ولد العلامة شبلي في النصف الأخير من القرن التاسع عشر (يونيو 1857م) وترك هذه الدنيا في بداية القرن العشرين (نوفمبر 1914م) فمن له إلمام بالتاريخ لا يخفى عليه أن القرن التاسع عشر الميلادي كان قرنًا ملؤه النكال والعبرة للعالم الإسلامي لاسيما لمسلمي شبه القارة ليس لأن الحكومة كانت تنزع من أيديهم وكان المسلمون يضطهدون من كل جانب بل كان المسلمون ومن يرجع لهم فضل الدين الإسلامي كانوا يشترونه بثمن بخس.

[1] حيات شبلي، ص 43

وكانت علماء الأفرنج، منذ مدة بعيدة، بالمرصاد لفرصة يسطو فيها على تاريخ الإسلام وحضارته وثقافته ودينه وخلقه وشريعته من جهات مختلفة في صورة البحث والتحقيق بادئ ذي بدء إلا أنهم استهدفوا بها إمطار الاعتراضات وشنّ الغارات على الإسلام وأتباعه، وبما أن الخصوم كانوا هم الغالبين والفاتحين وأن المسلمين كانوا في فوضى وتفرّق وهيمان فلم يجمع أحدٌ منهم خاطره على أن يرجع نظره ويقدّر الحالة خير تقدير وبالتالي فقد أحاط بالعالم الإسلامي الردة الفكرية والثورة الذهنية وجعل المسلمون يبدون غير مطمئنين إلى ماضيهم الزاهر.

والآن يبدو أن هذه أنفاس الإسلام والمسلمين الأخيرة هذه الأيام وبلغت هي الحلقوم ولكنها في جانب آخر قد خلقت هذه الأوضاع الغير ملائمة شخصيات رائعة ذات تفوّق ومقاومة، لها سمعة دولية، والذين قد خافوا المسير العام ودرّسوا المسلمين كيف يوثق بتراثهم الحضاري والعلمي وقاموا بخدمات جليلة لحماية الإسلام والمسلمين والدفاع عنهما. وممن يجدر بالذكر من هذه الشخصيات المكرّمة المصطفاة المفتي محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني والعلامة شبلي النعماني.

وفي جانب آخر بصرف النظر عن العالم الإسلامي فلو درسنا تاريخ الهند فنجد أن هذا كان عصرًا عمّه المناظرة والمجادلة الكلامية فما عقد من الجلسات الكثيرة للمناظرة بين الفرق المختلفة لعلها لا توجد نظائرها في تاريخها الماضي ولن توجد في تاريخها القادم كذلك. ويصدّق قولنا أن معظم رجال الهند المشهورين كانوا يعرفون إما بمتكلم أو مناظر فأوّل ما اشتهر بمتكلم أو مناظر السوامي دياننند سرسفاتي صاحب "ساتيارث براكاش" والميرزا غلام أحمد القادياني والشيخ قاسم النانوتوي والشيخ تشراغ علي والسيد أمير علي والسير سيد أحمد خان في حلقاتهم الخاصة ولو أنهم قد اختاروا سبلهم الخاصة بهم فيما بعد ففي هذه الظروف الجدالية اعتناء العلامة شبلي بعلم الكلام لا يثير العجب من القرّاء بل يجب أن يقوم بهذا.

إلا التي تلعب دورًا فعالًا في إثارة المؤهلات الخفية وإعمال القوى الكامنة هي النزعة الفطرية وبناء الشخصية الخاص وتشكيلها بجانب الظروف المعاصرة والمتطلبات المحلية، وإن قمنا بإلقاء نظرة خاطفة على سيرة العلامة فلا نتجاوز المحلّ.

يبدو من دراسة تاريخ علم الكلام وعلم المناظرة أنه لا بد من وجود عناصر مثل عاطفة المقاومة والتعقّل في شخصية المتكلم أو المناظر وإن فاتها عنصر ما من هذه العناصر فعسى أن يتخلف المرء عن صيرورته متكلمًا أو مناظرًا ذا درجة عليا وإن قمنا بدراسة حياة العلامة شبلي عن هذه الجهة وجدنا أن هذين العنصرين (عاطفة المقاومة والتعقل) كانا موجودين في شخصية العلامة شبلي على أتمّ صورة فكان هو يتصف بشدة المقاومة لأجل نسبته إلى أسرة الراجبوت وقد زاد عاطفته هذه الظروف الغير ملائمة بالإسلام والمسلمين وأما التعقّل فهو كان مفطورًا عليه والذي أنضجته تربية أساتذته المعقوليين. ويمكن لنا تقدير هذا بما يلي:

ينقل السيد سليمان الندوي على لسان أستاذه شبلي واقعة من طفولته:

"كان الليل مقمرًا وكان هو مضطجعًا في الفناء فأراد الناس أن يحملوه إلى المظلة وهو كان يمتنع عن ذلك فقال أحد من الرجال: قم قم عسى أن تمطر السماء" فردّ عليه فورًا: هيا،كيف تمطر السماء والقمر طالع"[1].

يبدو من هذا المقتبس أن العلامة شبلي كان مفطورًا على التعقل ولعل هذا هو السبب وراء عنايته بكتب المعقول في زمن دراسته فهو يكتب في رسالة إلى الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني:

"قد درست الفلسفة بكل جهد مضنٍ ودقة دقيقة وأنفقت مدة غير قصيرة في قراءتها"[2].

[1] المصدر نفسه، ص 70

[2] مكاتيب شبلي، 117/1

وبجانب طبيعته الملائمة بالموضوع فيمكن لنا أن نعدّ المزاج العلمي لذلك العهد وذوق الأساتذة مما لعب دورًا في هذه الرغبة فقد كان للمعقول أهمية كبرى مقابل العلوم الأخرى فقد كانت الطلبة يقطعون مسافات بعيدة لنيل هذا العلم وكانت البراعة فيه تعتبر مستوًى لمؤهلات الأساتذة في تلك الأيام ولم يكن لعالم كبيرًا كان أو صغيرًا أن ينال القبول قبل أن يعترف العلماء ببراعته فيه وعلى هذا فنجد أغلبية المقرّرات الدراسية في تلك الأيام مما كانت متعلقة بالمعقول.

وعلى هذا فقد كان الشيخ علي عباس التشرياكوتي أستاذًا معروفًا ومناظرًا شهيرًا[1] وهو كان من بين أساتذة العلامة شبلي. وكذا كان الشيخ هداية الله خان الجونفوري أبرز معلّمي السلسلة التدريسية لخيراباد وكان على رأس هذه السلسلة العلامة محمد فاروق التشرياكوتي الذي قال عنه السيد سليمان الندوي:

"لم يكن (العلامة فاروق التشرياكوتي) يعلّم المنطق شفويًا فحسب بل كان يعلّمه تجريبيًا فكان يمرّن الأنساب الأربعة[2] والقضايا[3] والأشكال[4] ويخصّ بها تدريس "شرح مطالع" فقد ربّى العلامة شبلي هذه التربية كما علّمه إياها"[5].

وعلى كل حال فقد تعرّف العلامة شبلي بفضل خلفية عهده العلمية وأسلوب تربية الأساتذة المميّزة على الأصول المنطقية والمناظرية في مدة قليلة للغاية ولذا فقد اصطبغت كتاباته بالصبغة المنطقية والمناظرية منذ فجر تاريخها[6]. ولقد كان يناظر مع غيره من الطلبة حيث زار وحيث نزل"[7].

---

[1] حيات شبلي، ص 72

[2] هذا مصطلح المنطق

[3] هذا مصطلح المنطق

[4] هذا مصطلح المنطق

[5] حيات شبلي، ص 72

[6] المصدر نفسه

[7] المصدر نفسه، ص 101

ولقد استمرّت سلسلة المناظرة هذه حتى بعد نيله الفراغ فيقول السيد سليمان الندوي عن أشغاله قبل رحلته إلى علي كره:

"حينما بلغه أن غير مقلّد برز في قرية ما أو زارها فكان يركب الفرس إليه ويتحدّاه للمناظرة"[1].

ولما سكت عنه الرغبة في المعقول حتى لم يكن ينظر إليه لم ينس المباحث الفلسفية وهناك واقعة عنها تجدر بأن تذكر هنا. يقول السيد سليمان الندوي:

"ابتدئ تدريس "شمس بارغة"[2] في صفي في 1950م بعناية كان شيخنا حفيظ الله يعلّمنا بكل إعداد وكان العلامة شبلي يحضر الفصل فيورد اعتراضات عليه وكانا يتجادلان لوقت غير قليل وأما نحن فنشهد، كان كله بأعين رؤسنا"[3].

ولا نخرج من موضوعنا لو ذكرنا عصبيته الحنفية التي يمكن لنا تقديرها من نسبته "النعماني" بجانب كتابه "سيرة النعمان"[4]. وقد أصبحت نسبته "النعماني" جزءً من اسمه، والسبب وراء ميله إلى الفقه الحنفي هو أن فقه الإمام أبي حنيفة أكثر بناءً على الأصول العقلية من المذاهب الفقهية الأربعة.

وكذا مخالفته للأشاعرة في علم الكلام وتعضيد المعتزلة سرًّا وراءهما ميل الاعتزال إلى الأصول العقلية ورغبة الأشاعرة عنها.

وملخّص ما أسلفنا ذكره أن نزعة شبلي الفطرية، وخلفية عصره العلمية، وذوق أساتذته، ورواج التعليم قد لعبت دورها وراء صيرورة شبلي متكلمًا وعلى هذا فهو رغب في علم الكلام أكثر من غيره من العلوم وقرّره مجاله الخاص دون غيره من المجالات العلمية.

---

[1] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

[2] كتاب دراسي شهير للفلسفة ألّفه الملا محمود الجونفوري

[3] حيات شبلي، ص 77

[4] سيرة النعمان مرادف سيرة أبي حنيفة لأن اسم ابي حنيفة الحقيق كان نعمان بن ثابت وهكذا فالنعماني هو الحنفي

(2)

وما ألّفه المعتزلة أول ذي أوّل من الكتب عن علم الكلام كانت باللغة العربية فنجد العديد من أسمائها في كتب الطبقات والتاريخ والفهرس ولكن تنفّر أهل السنة والجماعة عنهم ورواج وقبول مذهب الأشاعرة قد ذهبا بما خلفوه من الكتب. هذا في جانب وفي جانب آخر لم يسهم الماتريدية في التأليف والكتابة إلا قليلًا فما يتعلق بهذا العلم من الكتب الباقية تتعلق بعلم الكلام.

وأما كتب الأشاعرة فهي أكثر من ألف كتاب إلا أن معظمها يعاني من الإيجاز المخلّ أو الإطناب المملّ وذلك أن مؤسس هذا المذهب الإمام أبا الحسن الأشعري أعرب عن آرائه أولًا في "مقالات الإسلاميين" و"كتاب الإبانة" ثم قام إمام الحرمين أبو المعالي الجويني بالمزيد لشرحها وتوضيحها، وكان الإمام الغزالي تلميذًا لإمام الحرمين فلوّن أفكار الأشاعرة ونظرياتهم بلون المنطق والفلسفة وبذل أول محاولة ناجحة لتقديمها في صورة منتظمة.

وتبع الإمام الغزالي الإمام الرازي والشهرستاني اللذان تركا مؤلفات تذكر ثم مضت قرون وقرون ولم يضف إليها شيء يذكر سوى أن المتأخرين أخذوا من مؤلفات سلفهم فأعدّوا المتون ثم شرحوا تلك المتون ومن ثم كتبوا تعليقات على تلك الشروح وفي النهاية كتبت حواشٍ على تلك التعليقات وهذه سلسلة لا نهاية لها وهي استمرّت حتى القرن التاسع عشر في صورة أو أخرى.

وقد ترك علماء الهند ومفكّروها قدرًا ملموسًا من الكتب في هذا الموضع كعادة علماء العالم الإسلامي الآخرين فقد اعتبرها الشيخ عبد الحي الحسني فوق المعدود وأعدّ فهرسًا يشمل حوالي ألف كتاب في "الثقافة الإسلامية في الهند"[1] فيبدو من دراسة هذا الفهرس أن بعض مؤلفاته كتبت على طراز الأشاعرة بينما البعض الآخر وجد نظرًا لمناظرة علماء بعض فرق الهند فالكتب التي ألّفت على طراز الأشاعرة أسلوبها عين أسلوب الكتب التي

[1] إسلامي علوم وفنون هندوستان ميں، ص 302-344

ألّفها الأشاعرة خارج الهند؛ إعداد المتن الجديد في ضوء المتون القديمة في الموضوع، أو كتابة شروحها، أو كتابة التعليقات على تلك الشروح، أو كتابة الحواشي على تلك التعليقات. استمرّت هذه السلسلة بشدة وحماس حتى عصر العلامة شبلي ولو أنها قد فقدت ضوءها وأضبحت ضئيلة إلا أنها تبقى الآن. وألّفت التسعون بالمائة من هذه المتون، والشروح، والتعليقات، والحواشي باللغة العربية وأما ما بقي منها من العشرة بالمائة فهي باللغة الفارسية أو الأردوية.

وأما فيما يتعلق بغيرها من كتب الأساليب الكتابية (أي ما كتبه أرباب الفرق الهندية الأخرى في الردّ على عقائد الآخرين أو تاييد عقائدهم) فهي أيضًا لا تقل عن غيرها في العدّ والقيمة إلا أن لغة معظمها أردوية والقليل منها بالأردوية وأما الكتب بالعربية فهي نادرٌ وجوها.

وكغيره من علماء الهند الأخرى قد كتب العلامة شبلي على موضوع علم الكلام وألّف كتابين مستقلّين "الكلام" و"علم الكلام" كما كتب مقالة بعنوان "الاعتزال والمعتزلة" وكذا جاء ذكر المباحث الكثيرة في كتابي "الغزالي" و"سوانح مولانا روم" ولو أمعنّا النظر فنجد أن معظم مؤلفاته ومقالاته المتعلقة بالتاريخ والترجمة والنقد تصطبغ بالصبغة الكلامية.

ولكن هناك فرق أساسي بين العلامة شبلي وبين الكتّاب الهنود الأخرى بما أن الآخرين لم يدوّنوا نظرياتهم وأفكارهم الكلامية بصورة مستقلة محلّلين تاريخ علم الكلام، وعقائد الفرق المختلفة، وأسباب اختلافهم ولعل هؤلاء حصروا أنفسهم في النطاق الضيّق للمتون والشروح والتعليقات فكتبوا عن المباحث والقضايا التي كانت بدون جدوى فلم يستحقوا، حقًا، أن يعتبروا مهرة في علم الكلام أو متكلمين ولو سمّيناهم لسمّيناهم بكتّاب متون هذا العلم، وشارحيه، ومعلّقين عليها.

وبالعكس من هؤلاء فقد درس العلامة شبلي تاريخ علم الكلام كله وقام باستعراض نظريات وأفكار المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والمحدّثين وأسباب الخلاف بينهم ثم دوّن

أفكاره الكلامية في ضوءها وأول مرة استفاد من علم الكلام القديم وقدّم نظرية لعلم الكلام الجديد. وبناءً على هذا فهو متميّز عن غيره من كتّاب الهند، ولأجل الاستدلال على هذه الدعوى وتنقيحها لا بد لنا من التعريف بنظريته لعلم الكلام.

كان العلامة شبلي يعتقد أن إعمال العقل لازم، مهما أمكن، لبيان العقائد الدينية وشرح الأحكام الشرعية بجانب اتخاذ طريقة لتفسير وتوضيح الآيات والنصوص، يسدّ بها باب الاعتراضات من قبل العدا وعلى هذا فهو كان يعضّد المعتزلة سرًّا في النزاع بين المعتزلة والمحدّثين ويمكن لنا تقدير ما قلنا مما يأتي:

1. يسمّي العلامة شبلي المحدّثين أرباب الظاهر بينما المعتزلة فهو يسمّيهم بأهل النظر[1].
2. ويعتبر اختلاف المحدّثين عن المعتزلة نتيجة لسوء فهمهم[2].
3. ويقدّم المعتزلة كخدّام للإسلام والمسلمين[3].
4. ويوجّه نظريات المعتزلة توجيهًا يثبت أنهم حقّ[4].
5. ويصرّ على أن بعض المحدّثين كانوا من المعتزلة[5].

ومعاملته مع الأشاعرة شبه معاملته مع المحدّثين ولنضع أمام أعيننا ما يلي من الأمور:

1. ويعتقد مذهب الأشاعرة خلافًا للعقل بالعكس من مذهب المعتزلة[6].
2. ويقدّم مجموعة عقائدهم بحيث تبدو ركاكتها وسفاهتها[7].
3. وكثيرًا ما ينقل أقوال الآخرين في ردّ أقوال الاشاعرة[8].

---

[1] علم الكلام، 22/1

[2] المصدر نفسه، ص 21

[3] المصدر نفسه، ص 15 و38 و44

[4] المصدر نفسه (قول الشيخ أبي القاسم الأنصاري)، ص 29

[5] المصدر نفسه

[6] كافة الأشاعرة يرجّحون النقل بينما المعتزلة يرجّحون العقل"، المصدر نفسه، ص 22

[7] المصدر نفسه، ص 64

[8] المصدر نفسه، ص 106 و116-117

4. ويؤكّد على أن بعض الأشاعرة كان غير مطمئن إلى عقائده[1].

ولعل هذا هو السبب وراء اعتبار الشيخ عبد الحي الحسني إياه من المعتزلة بالنسبة لأصول عقائده في كتابه "نزهة الخواطر[2].

وفي غضون الحديث عن نظرية شبلي الكلامية لا بد لنا من الإشارة إلى االواقع أنه قد أحكم رأيه بعد دراسة ما كتب عن علم الكلام أن هناك كثرة كاثرة من الغث في علم الكلام القديم عامة وعلم كلام الأشاعرة خاصة ولا يوجد فيها سمين إلا قليلًا فكان يرى أن هؤلاء المتكلمين لم يعتنوا بإثبات أصول الإسلام مثل التوحيد والرسالة والقيامة كما ترام بل بذلوا جهدهم كله في إثبات العقائد التي لا يوجد لها ذكر في القرآن والحديث ولم يرد بها سوى المناقشات الفلسفية فهو يقول في المجلد الأول لـ"علم الكلام":

"في الواقع أن علم الكلام عبارة عن إثبات العقائد وهو الذي نسمّيه بالروح في تاريخ علم الكلام ولكن من الأسف أن ما ألّفه السلف عنه لا يوجد الآن وأما ما كتبه المتأخرون وهو كثير فهو ما يعبّر عنه الجزء التالي من الشعر:

شـد پريشـاں خـواب مـن از كـثرت تعبيرهـا

ترجمة: حلمي قد أصبح أضغاثَ أحلام لأجل كثرة تأويلاته وتعدّدها.

وأشد ما ارتكبه المتأخرون من الخطأ أنه قد ضُمّ إلى عقائد الإسلام المآتُ من الأمور التي لا تمت إلى الإسلام بصلة وخصّ جزء كبير من هذا العلم بنفيها أو إثباتها"[3].

ويقول في موضع آخر:

---

[1] المصدر نفسه، ص 96

[2] نزهة الخواطر، 175/8

[3] علم الكلام، 209/1

"وقد أضيف إلى العقائد التي شرحها الشارع عليه السلام واعتبرت تلك الزيادات جزءً من العقيدة وبما أن هذه الإبداعات لا تمت إلى الواقع بصلة فقد بذل ما استطاع من الجهود المضنية في إثباتها فمثلًا أنه قد جاء في الروايات والنصوص أن الأموات يحيون يوم القيامة فلم يصرّح فيها هل تكون الأجسام تلك الأجسام القديمة أم تنوبها أجسام أخرى فأضاف إليه المتأخرون من الأشاعرة قائلين إنها تكون تلك الأجسام البالية، وبما أن هذه الحالة توجب إعادة المعدوم فقد اعتبرت هي قضية من قضايا علم الكلام وأقيمت دلائل وبراهين في إثباتها، وغيرها من المسائل التي قد أضيفت إلى العقائد الإسلامية"[1].

وما أقامه المتكلمون من الدلائل على بعض مباحث علم الكلام مثل إثبات البارئ تعالى، وإثبات النبوة والرسالة، وإثبات حقية المعجزات لم يطمئن إليها العلامة شبلي فهو كان يرى أن هذه الدلائل ليست قوية إلى حد لن يتم ردّها فهو يشعر بإقامة دلائل جديدة غير تلك مؤمنًا بتلك العقائد فكان هذا هو السبب وراء تأليف "الكلام" فهو كان سدّ هذا النقص من تأليفه هذا. يقول في الجزء الأول لـ"علم الكلام":

"ولكن بقيت المسائل التي كانت هي المسائل الأساسية للإسلام ولا شك في صحتها ولكن الطريقة التي يختارها المتأخرون في إثباتها لا تؤتي ثمرها بل تورد اعتراضًا على اعتراض ولا تنقطع سلسلة الاعتراضات هذه"[2].

وموضّحًا موقف العلامة شبلي من إثبات البارئ يقول السيد سليمان الندوي:

"ولقد أثبت المؤلف في "الكلام" أن العالم مما خلقه الله وقد خلقه بإرادته واختياره فقد نقل دلائل المتكلمين والفلاسفة، قبل عنوان وجود البارئ، التي أثبت بها وجود البارئ ثم أرى ضعف تلك الدلائل"[3].

---

[1] المصدر نفسه، 211-212

[2] المصدر نفسه

[3] الكلام (المقدمة)، 4/2

ومن أهم نظريات العلامة شبلي عن علم الكلام أنه بما أن علم الكلام القديم قد بني على المنطق والفلسفة وتستخدم فيه الاحتمالات اللايعنية بجانب أن القطعيات لا تبنى عليها فينبغي لعلم الكلام أن يتبع طرق استدلالات القرآن بالرغم من اتكاله على المنطق والفلسفة فمثلًا أنه يقول في إثبات البارئ تعالى:

"وتوجد دلائل خطابية وبرهانية كلتاهما على إثبات الله تعالى في القرآن الكريم ولكنها لا توجد في الكتب الكلامية --- هذه الدلائل الأربعة لا تخلو من النقص والضعف"[1].

والأمر النهائي الجدير بالذكر في هذا الباب أن العلامة شبلي أراد أن يوسّع نطاق علم الكلام والمتكلمين فكان يرى أن يقوم علم الكلام بالدفاع على كل جبهة، ومن يقوم بهذه العملية يجب أن يسمّى متكلمًا وعلى هذا فهو قد اعتبر الشاه ولي الله متكلمًا كما اعتبر تأليفه "حجة الله البالغة" أهم مؤلّف في علم الكلام فهو يقول:

"لم يقم الشاه ولي الله بتأليف كتاب باسم علم الكلام وعلى هذا فلا يسوغ لنا بادئ ذي بدء أن نعدّه من المتكلمين ولكن كتابه "حجة الله البالغة" الذي بيّن فيه حقائق وأسرار الشريعة هو مقدّم علم الكلام إلى الأمام، وفي الواقع أن علم الكلام عبارة عن إثبات الإسلام دينًا منزّلًا من الله والدين مركّب من أمرين؛ العقائد والأحكام فما تم تأليفه حتى عصر الشاه ولي الله يتعلق بالجزء الأول فلم يجترئ أحد على تناول الجزء الثاني فالشاه ولي الله هو أوّل من تناول هذا الموضوع بالحديث والبحث"[2].

وكذا إنه يعتبر كتابة التاريخ والسيرة فرعًا من فروع علم الكلام شريطة أن يشمل الردود على اعتراضات المؤرخين الغير مسلمين على الإسلام وإزالة شكوك وشبهات المترجمين الغير مسلمين وفي هذا الباب يجدر بنا أن ننقل ما يلي من مقتبس مقدمة "سيرة النبي" على طولها فهو يكتب تحت عنوان "الحاجة إلى السيرة عن جهة علم الكلام":

---

[1] علم الكلام، 212/1-213

[2] المصدر نفسه، 119/1

"قد مسّت الحاجة إلى السيرة في الزمن القديم عن التاريخ وضبط الأحداث فلم تكن لها علاقة ما مع علم الكلام ولكن يقول المعترضون في زمننا إنه لو كان الدين عبارة عن الإيمان بالله فينحصر الحديث في هذا الحد ولكنه حينما يصبح الإيمان بالنبوة جزءً من الدين فالآن نحتاج إلى أخبار وأخلاق وعادات من كان حاملًا للوحي وسفيرًا لله لدى الناس؟

وما يقوم به المؤرخون الأوربيون من تصوير النبي صلّى الله عليه وسلّم يكون مجموعًا من كل نوع من المساوئ، وقد حرم المسلمون، لأجل الحاجيات الحديثة، اللغة العربية ولذا حينما تحتاج هذه الجماعة إلى أخبار وقصص الرسول الأمي فيراجعون ما ألّفه الأوربيون من الكتب وهكذا فتتسلّل فيهم هذه المعلومات المليئة بالسمّ شيئًا فشيئًا وهم لا يعلمون حتى برزت في البلاد جماعة تعتبر الرسول مجرّد ناصح مصلح قد أدّى حقه لو قام بإصلاح ما للمجتمع ولا يضرّ بذيل خلقه ما لو تلبّث بالمساوئ والمعائب.

وهذه وغيرها قد أجبرتني على أن أقوم بتأليف كتاب مستقلّ بسيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم"[1].

لم يكتف العلامة شبلي بتقديم نظرياته وأفكاره عن علم الكلام فحسب بل قام بتأليف كتاب مستقل بعلم الكلام بعنوان "الكلام"، الذي كان يوافق ونظريته الكلامية وهكذا فقد نجح في تصوير أفكاره عن تجديد علم الكلام فما قام به من ترتيب وتدوين علم الكلام الجديد يختص بما يلي:

1. قد حاول العلامة إثبات العقائد التي تثبتها النصوص والروايات مباشرة والتي يبنى عليها الإيمان والإسلام مباشرة فلم يبحث في علم الكلام إلا عن إثبات الله تعالى، وتوحيده، ونبوة رسوله وما جاء غيرها فقد جاء بدون مباشرة.
2. العقائد التي ناقشها العلامة لم يوافق الدلائل القديمة عليها فهو يورد الاعتراضات عليها ويقدّم الدلائل الحديثة من عنده.

[1] سيرة النبي، 7/1

3. ولو أن الدلائل التي قدّمها العلامة حديثة إلا أنها لا يمكن إبطالها فإن كتب القدامى تحوي أصلًا لها أو آخر أو على الأقل أنها لا تعارض ما يذهب إليه القرآن والحديث النبوي.
4. وبجانب هذه الدلائل الحديثة فقد أبطل العلامة العديد من العقائد التي قدّمها المتكلّمون القدامى أو أبدى ما كان فيها من ضعف إلا أن هذه العقائد من نوع ما لم يصرّح عنه النصوص والروايات بل قد ضمّها المتكلمون إلى عقائد الإسلام مؤّسسين على عقيدة إسلامية أخرى.
5. علم الكلام القديم قد تم تدوينه نظرًا للفلاسفة والملاحدة والمعتزلة والفرق الضالة الأخرى فشعر العلامة بأن العصر الحديث يفقد مثل هذه الفرق الضالة وعقائدها فالخوض في مباحثها تضييع الوقت فقد شطب من علم الكلام الذي قد قام بترتيبه ما لم يكن لازمًا وردّ على الشكوك والشبهات الجديدة عن الدين نظرًا لأفكار ونظريات ومعتقدات أوربا الحديثة.
6. ولأجل اكتشافات العلوم الجديدة ورعب المسلمين من الغرب قد اغترّ أغلبيتهم بأن لا شكل للتوافق بين الدين والعلوم الجديدة وأن العلوم الجديدة قد قامت بتوجية هزيمة نكراء إلى الدين فقام العلامة شبلي بتقديم أصول الدين في علم الكلام الذي رتّبه بحيث قد بطل التعارض بين الدين والعلوم الجديدة ونجا أغلبية المسلمين من حبالة الشكوك والشبهات.

وقد سلّط السيد مهدي إفادي الضوء الفاضي على هذا الجانب من علم الكلام الذي قدّمه العلامة شبلي النعماني ولا يجمل بنا ألّا ننقل فيما يلي مقتبسًا منه:

"إذا كان هناك حاجة للجيل الجديد إلى الكمال الخقي بجانب الرقي الدفاعي والعقلي فأعتقد أنما قدّمه العلامة شبلي من التراث الديني عن التاريخ قد كفانا مؤنة الحيطة واليقظة لاسيما أنه قد شبع من الدين فأجاب على ما ورد عليه من الاعتراضات بل وقد قد نجح في التوفيق بينهما فهذه المعاملة المقتصدة التي قد اتخذها في هذا النزاع الأدبي

يرجع فضلها إلى العلامة شبلي الفاضل والذي هو كبير علمائنا وفضلائنا فإنه لم ينل من الدين كما أزال ما عارض الدين من أفكار العلوم الجديدة وهكذا فقد جعلها معضّدة للدين وأصوله. وعندما نبلغ ذروة الكمال العقلي في المستقبل فيقوم المتأخرون بالثناء الكامل على ما قام به العلامة شبلي من خدمات نادرة رائعة للدين وأصوله وكذا لا يسوغ للجماعة الحديثة من بين المسلمين، التي تصطبغ بالصبغة الجديدة لا يسوغ لها أن تخرج من الدين وأصوله وما نرى اليوم من حسن التطبيق بين أصول الدين والعلوم الجديدة يرجع فضلها إلى العلامة شبلي النعماني ولا غير"[1].

وملخّص ما قلنا أن من سبق العلامة شبلي من المتلكلمين الهنود إما كانوا محصورين في نطاق الأشعرية الضيّق أم كانوا يجادلون فيما بينهم في الفروع والقضايا اللايعنية وهكذا فلا درسوا تاريخ علم الكلام التام فقاموا بالتمييز بين جيده ورديئه ولا حاولوا تلوين علم الكلام بما يقتضيه العصر الحديث وهكذا فيرجع فضل تدوين تاريخ علم الكلام وتجديده إلى العلامة شبلي النعماني.

ويمكن لأحد أن يقدّم السير سيد وعلم الكلام الذي قام بتدوينه خلافًا لما قلنا آنفًا ويعيد ما قام به السيد مهدي إفادي من الشكوى "قد كتب العلامة شبلي الكلام ولكن لم يذكر السير سيد في مكان ما والحال أن السير سيد هو أوّل من حاول التطبيق بين المعقول والمنقول في هذا العصر ولا ريب في أنه من أوائل الكتّاب في هذا الموضوع"[2] فلا بد لنا من توضيح الفرق بين السير سيد والعلامة شبلي النعماني عن جهة خدمة علم الكلام.

لا شك في أن شبلي والسير سيد كانا ينظران في الأوضاع الراهنة بإمعان نظر وكلاهما كان يشعر أن التعليم الحديث والحضارة الجديدة تصرّان على أن يقضيا على المسلمين وأن الجيل الجديد حاضر على أن تبرأ ذمته عن الدين وفي جانب آخر يورد عليه أعداء الإسلام عديدًا من الاتهامات فالآن جاءهما سؤال: كيف تمكن إزالة الشكوك والشبهات

[1] إفادات مهدي، ص 194

[2] المصدر نفسه، ص 323

عن عقول وقلوب المسلمين وغيرهم؟ وما هي الأسس التي يبنى عليها علم الكلام الجديد نظرًا للأوضاع المتغيرة؟ فنرى أنهما يختلف بعضهما عن البعض حينما يبلغان هذه النقطة والذي يسبّبه اختلاف أمزجتهما وأجوائهما ونفسياتهما.

وبإمكاننا أن نفصّلَ هذا الإجمال أنه بما أن شبلي قد تربّى في الجوّ الديني وفرغ من العلوم الدينية ونال الشهرة كعالم ديني توَّ فراغه منها وزدْ عليها اختلاطه مع العلماء وكانت له علاقة مباشرة مع اللغة العربية ومصادر الدين من القرآن والحديث فكان راسخة عقيدته الدينية وله قدم ثابتة فيها إلا أن ميله الطبعي إلى المعقول لم يدعه أن يوطّن نفسه دلائل الأشاعرة على العقائد وبجانب هذه فكان ذا دراسة واسعة ونظر عميق فرجع إليهم بدلائل من كتب الغزالي والرازي وابن تيمية وابن مسكويه وغيرهم، أحبّها ورضي عنها وصالحة لإزالة شكوك وشبهات الجيل الجديد كما يعتقد وفي النهاية قد نجح في تقديم علم للكلام كان قديمًا طبقًا للعقائد وجديدًا نظرًا للدلائل والذي قد لقي النجاح إلى حدّ بعيد في إزالة شبهات الجيل الجديد.

هذا في جانب وفي جانب آخر مزج القديم بالجديد هذا لم يوحش علم الكلام الذي قدّمه العلامة شبلي جماعة القرّاء ولا يتهم بأنه متنفر عن عقائد السلف إلا أنه بما أن العلماء كانوا واقفين على العقائد بجانب الدلائل القديمة عليها ويعتقدون بها أو بعبارة أخرى تؤمن بالعقائد والدلائل كلتيهما فلم يصبروا على إبطال الدلائل المعلومة أو إنكارها أو تضعيفها ويشعرون كأن عقائدها قد تعرّض للنقاش ويشتدّ شعورهم هذا حينما تتعرض بعض العقائد والتي هي ليست مبادئ وأصولًا للإبطال والإنكار.

والآن خذوا السير سيد فيبدو من دراسة ترجمته أن دراسته الدينية لم تكتمل ولو أن جوّه كان دينيًا ولم يكن له أي علاقة بعلم الكلام وأما علمه باللغة العربية فهو كان قليلًا ولم يكن هو قادرًا على أن يستفيد من المصادر الإسلامية مباشرة وزدْ عليها بعده عن التعليم والتعلم واشتغاله بالوظائف الحكومية فأرادت جدران عقائده أن تنقضّ مقابل السيل الجارف لشكوك وشبهات العهد الجديد ومن ثم فقد أنكر العديد من العقائد

المعترف بها، الأمر الذي أنتج فما قدّمه باسم علم الكلام الجديد أصبح أضحوكة ونشعر بجلاء أنه كان متذبذبًا في العقائد دعْه متذبذبًا في الدلائل بل هو ينكر كل عقيدة تبدو مخالفة للفطرة في أنظاره وعلى هذا فيتململ قارئه في كل خطوة منه ويجبر على الشعور بأن بضاعة عقائده الغالية توضع للمزادالعلني على رؤوس الأشهاد. وإلى اختلاف شبلي هذا عن السير سيد في طراز الفكر وطريق العمل قد أشار الدكتور السيد عبد الله فهو يقول:

"يمكن لنا أن نعتبر هذا الفرق (بين شبلي والسير سيد) فرقًا أساسيًا بأن شبلي محافظ على التقاليد القديمة وعارف بالمزاج الوطني وهو يشعر بعلم الكلام الجديد مثل السير سيد ولكنه لا يترك حبل الأصول التي وضعها السلف وبالعكس منها فالسير سيد يعتدي على التقاليد القديمة علنًا ما لا نجده لدى العلامة شبلي"[1].

ويمضي قائلًا موضحًا هذا الفرق توضيحًا مزيدًا:

"قد درس السير سيد الإسلام نظرًا للمستويات العصرية والغربية والفكرية بينما حاول شبلي أن يقيس القيم العصرية والغربية عن جهة الإسلام"[2].

ويجمل بنا أن ننقل في هذا الشأن استعراض الدكتور عالم خوند ميري التالي فهو يقول:

"وهنا نرى الفرق بين شبلي والسير سيد أو بعض رفقائه فيبدو لنا بعض الأحايين أن أسلوب السير سيد وبعض رفقائه مثل تشراغ علي المرحوم ملؤه الاعتذار وأما شبلي فهو لا يعتذر بل يتمايل مفتخرًا بديانته في بلاط العلوم الجديدة والفلسفية"[3].

وما أدلى به الدكتور مغني تبسم من الرأي عن اختلاف السير سيد عن شبلي في الأفكار يسلّط الضوء على هذا الموضوع فهو يقول:

---

[1] إسلامي فكر كي تشكيل جديد ميں شبلي كا حصه، ص 205

[2] المصدر نفسه

[3] المصدر نفسه، 213

"كان شبلي يختلف عن السير سيد نظرًا وفكرًا إلى حدّ ما وكان بعضهما خصمًا للآخر في هذا المعنى. كانت حركة السير سيد مبنية على حبّ المعقول فهي تبدو ملائمة بمقتضيات عصرها إلا أنها يفوتها إدراك الماضي التام وإبهام الشعور بالمستقبل وأما جهاد شبلي العلمي فهو، كان أصلًا، ردّ فعل رومانسيًا ضدّ حب المعقول المصالح فكانت حركة السير سيد على جهة التيار ولو لم يبد ردّ الفعل الرومانسي هذا في تلك الفترة لفاتنا بعض ميزاتنا الثقافية الخاصة بنا فقد تأثرت حركة السير سيد الإصلاحية بالغرب إلى حدّ ما فاتخذت معاملة سلبية مع حضارتنا القديمة وتاريخنا القديم والتي قد شملها الشعور بالدناءة فبرزت كتابات مخرجة القوم من هذا الشعور وهذه محمدة كبرى للعلامة شبلي"[1].

ونخصّ هذه المناسبة بذكر ما يلي من انطباع رشيد أحمد الصديقي الذي قد هام فؤاده بعلي كره وحركتها فيقول الدكتور في بعض كتاباته الأخيرة:

"لم يتفق حالي ولا شبلي ولا نذير أحمد مع غاية تأثر السير سيد أحمد بالغرب وهذا من العجب أن هؤلاء الثلاثة كانوا علماء أقحاحًا ولكن بدا لنا بعد مضي نصف قرن على هذه الحركة أن هذه الجماعة من العلماء كانت أبعد غورًا من السير سيد والسيد أمير علي نظرًا للحيطة عن الغرب"[2].

ونظرًا لما قدّمناه من الآراء المؤيدة لمذهبنا والدلائل التي ذكرناها عليها لا نشعر بالدناءة في إعادة هذه الدعوى أن فضل تجديد علم الكلام القديم وتدوين علم الكلام الجديد لا يرجع إلا إلى العلامة شبلي النعماني.

حتى الآن تحدثنا عن تجديد علم الكلام القديم وتدوين علم الكلام الحديث ولكن من محامد شبلي الكبرى استخدام التاريخ كوسيلة لعلم الكلام وهذا جانب مذكور من جوانب شخصيته الكلامية لا شريك له فيه لا من الهند ولا من العالم الإسلامي.

---

[1] شبلي نقادون كي نظر ميں، ص 6

[2] مجلة "احتساب" النصف شهرية، أبريل-مايو، 1980م

وقد ذكرنا منذ البداية أن السيد سليمان الندوي لم يكن يوافق مع نظرية شبلي موافقة تامة حتى كان يشكّ في إفادية علم الكلام ذاته ولذا فلم يسعه الاعتراف التام بخدمات شبلي في هذا المجال. ولعل اختلافه النظري قد جرّه إلى ذلك طبعًا ولكنه كما يتعلق باستخادم التاريخ كوسية لعلم الكلام فهو يعترف بخدمات شبلي في هذا الشأن وعظمتها وجلالتها بل الواقع أنه قد سلّط الضوء الفاضي على خلفية جانبه هذا وأماميته بكل تفاصيله وجزئياته في "حياة شبلي" بجودة لا يقدر عليها إلا هو وما كتبه السيد الندوي بهذه المناسبة نموذج جميل لإنشائه الأردوي فلا أرى أي ضرر بأصول الكتابة والاقتباس إذا نقلت هنا ما كتبه بكلماته هي لاسيما إذا أردنا أي تصريف فيها عسى أن يفوتنا تلك القوة والجودة اللتان توجدان في كتابة السيد الندوي فهو يقول:

"في هذا العصر الجديد من أوربا قد تحوّل مركز علم الكلام من الفلسفة إلى التاريخ فقد نال التاريخ في هذا العصر من الأهمية ما لم ينلها من قبلُ حتى قرّر من المقرّرات الدراسية للكليات والجامعات وقسمًا من أقسامها الكبرى وتم التركيز على النيل من عزة هذه البلاد من بين تاريخ البلاد المحتلة لكي يعلنوا عن علوّهم الجيلي والوطني ويسوّدوا وجوه تاريخ وحضارة الأمم المحكومة حتى يتنفروا عن سلفهم ويروا محامدهم الدينية والمدنية والسياسية والوطنية أقلّ مقابل محامد أوربا وهكذا فيثبت دينهم الذي هو روح كافة حركاتهم ميتًا لا حياة فيه.

ولأجل هذا فقد أخذوا أولًا سيرة النبي وأورد عليها كل نوع من اعتراضاتهم وشبهاتهم ثم استهدف الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام وسلاطين الإسلام رحمهم الله ولاسيما دول الملوك المسلمين وحكوماتهم التي قد حاولوا في إثبات ظلمها كل المحاولة حتى تشبثوا بذيل الكذب والافتراء فشوّهوا صورة مآثر الإسلام الاجتماعية والسياسية والمدنية حتى جعل المثقفون المسلمون يتنفرون عن تاريخهم وحينما كان الأطفال والأولاد المسلمون يدرسون هذه وأمثالها من أخبار الإسلام في مدارسهم وكلياتهم فكانوا ينكسون رؤوسهم من الحياء وهكذا فقد جعل المسلمون متنفرين عن دينهم عن طريق شتى الافتراءات العلمية والسياسية.

وبما أن الهند ومصر والمغرب والجزائر وتونس وغيرها من البلاد الإسلامية كانت تحت الحكم الإسلام قبل هؤلاء ولم يسع محامدهم أن تتلألأ بدون تسليط الضوء على جوانبها المسودّة فكانوا يعتبرون من واجباتهم أن يقدّموا الملكوك المسلمين ظالمين وحكوماتهم ظالمة.

وقد بدأت حملة الأعداء في الهند قبل 1857م وكان أولهم الدكتور إسبرنغر الذي كان رئيس كلية دلهي ومدير المؤسسة الآسيوية وتبعه عامل أوترابراديش السير وليم ميو ثم جاءها رجال أوربيّون تترى وقد كانت هذه الخدمة تتم بكل نشاط وتنظيم في أوربا كما كانت هي تعمل عملها في فرنسا وألمانيا اللتين كانتا تدعينا مملكة الشرق وقد أدّى هذه الفريضة كبار رجال أوربا أمثال الدكتور جيه إيه مولر والدكتور ويل ووان كريمر وبرثال سينت هيلر ونولديكي وولهاوسن وغولد زيهر ورينان وانتهت هذه السلسلة على السيد مارغيوليث كبير بروفيسوريي إنجلترا وحتى تبع خطواتهم نصارى مصر وأشنعهم وأرذلهم مدير تحرير "الهلال" جرجي زيدان.

لم يكن هؤلاء من المبشّرين ولا كان من النصارى المناظرين بل كانوا يعتبرون من كبار رجال أوربا وكانوا يضعون غلاف التحقيقات العلمية على أهدافهم الفاسدة وكانوا يجمعون من بين المؤلفات الإسلامية ما يؤيّدهم وعلى هذا فهم كانوا يبذلون قصارى جهودهم وهذا واقع معترف به وكانوا يبحثون عما ندر من الكتب العربية وكانوا يتحملون المشاق في قراءتها ثم يبنون عليها تأليفاتهم وحتى الآن هم مشغولون بأعمالهم كما كانوا من قبل.

وأوّل من خرج من بين علماء العالم الإسلامي لمواجهة هؤلاء الخصوم الحكماء اليقظين هو العلامة شبلي النعماني الذي جعل يردّهم على طريقتهم وأثبت أن الإسلام قد زاد حضارة العالم وثقافته أضعافًا مضاعفة وأحيى بجهوده ما قد مات من علوم اليونان والفرس والهندوس"[1].

[1] حيات شبلي، ص 23-25

وكتابات شبلي ومؤلفاته التاريخية التي تصطبغ بالصبغة الكلامية هي "گذشته تعليم" و"الجزية" و"حقوق الذميين" و"كتب خانه إسكندريه" و"الانتقاد على التمدن الإسلامي" و"أورنگ زيب عالمگير" و"إسلامي كتب خانے" و"هندوستان پر إسلامي حكومت كے أثرات" و"تزك جهانگيري" و"الفاروق".

فكل هذه الكتابات إما ظهرت ردًا على الاعتراضات التي أثارها الأوربيون أو تصويرًا لماضي المسلمين يمكن به إعادة ثقة القوم برواياتهم الحضارية والمدنية والدينية والملية.

ويمكن لنا أن نثير هنا سؤالًا حين ختام هذا البحث: هل أثّر علم الكلام الذي قدّمه العلامة شبلي فيمن تأخر عنه من العلماء والباحثين؟

وللردّ على هذا السؤال أقول نعم فيمكن لنا تقديره مما يلي من الأمر:

1. قد أكّد العلامة شبلي على أن علم الكلام يهدف لتحقيق عقائد الإسلام وحكامه وحقيقتها في ضوء الدلائل العصرية، ولا شك في أن هذه الخدمة يتم أداؤها من بعدُ بصورة مستمرة بل لها تفوق على ما تركه العلامة شبلي نظرًا لأصول الرقي العلمي ونشير بما قلنا إلى العلامة السيد أبي الأعلى المودودي خاصة الذي ما قال الشيخ أبو الحسن علي الندوي:

"كثيراً ما شنّ الغارة على الحضارة الغربية وفلسفة حياتهم ووجّه ضربًا شديدًا على أصولها، الأمر الذي قضى على شعور معظم المثقفين الجدد بالدناءة الذي قد أوجده الثقافة الغربية البحتة"[1].

ولكن لا ننكر أن الفضل للمتقدم فالعلامة شبلي أول من نوّر هذا القنديل الذي قد أحاط بضوءه العالم الإسلامي كله.

2. دلائل الأشاعرة على إثبات عقائد الإسلام، التي ردّها العلامة شبلي لا يذكرها أحدٌ من الباحثين اليوم.

---

[1] پرانے چراغ، 304/2

3. عقائد الأشاعرة التي لا يراها العلامة شبلي فرقانًا بين الكفر والإسلام لا يعتبرها أحدٌ مستوًى للتمييز بين الكفر والإسلام.
4. والعلامة شبلي أوّل من استخدم التاريخ كوسيلة لعلم الكلام ولقد طوّر الباحثون هذا التقليد وحتى الآن يستخدمون التاريخ لهذه الخدمة المباركة.

المصادر والمراجع

1. مهدي حسن إفادي: إفادات مهدي (ترتيب: بيگم مهدي)، مطبعة معارف، 1923م
2. العلامة عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر، دائرة المعارف، حيدراباد، 1830م
3. مجلة "أديب" الصادرة عن علي كره، أوترابراديش، الهند
4. السيد سليمان الندوي: حيات شبلي، دار المصنفين، 1943م
5. السيد سليمان الندوي: مكاتيب شبلي، دار المصنفين، 1916م
6. العلامة شبلي النعماني: علم الكلام، دار المصنفين، 1923م
7. العلامة شبلي النعماني: الكلام، دار المصنفين، 1936م
8. الدكتور ناز الصديقي: شبلي نقادون كي نظر ميں، إلياس تريدرس، حيدراباد، 1976م
9. مجلة "احتساب" النصف الشهرية الصادرة عن علي كره، أوترابراديش

مباحث العلوم في كتابات العلامة شبلي النعماني

- الشيخ كليم صفات الإصلاحي

ترجمة من الأردوية: عظمت الله الندوي

نظرًا إلى الوضع الراهن المتدهور الذي يعيش فيه المسلمون اليوم، يصعب علينا بالفعل أن نفهم أن المسلمين قد حازوا قصب السبق أو قد حقّقوا تفوقًا ملموسًا عانق السماء في مجالات العلم والفن والعلوم والتكنولوجيا في حين من الدهر، لكن الواقع عكس ذلك، بل يمكن القول إذا لم يقم المسلمون بنقل التراث العلمي لجميع أمم العالم إلى لغتهم في العهود الوسطى لضاعت وتلاشت خزائن العلم والمعارف كلها من اليونان ومصر والهند وفارس، فيما جرت نقاشات جادة في هذا الشأن بكل اهتمام وحماس لدى الأوساط العلمية والأدبية في أوروبا خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر من الميلاد، مما دفعهم إلى النظر في سبب اعتناء المسلمين بعلوم الأمم الأخرى في زمن، بهذا القدر من العناية والاهتمام، ويرجع فضل الإنجازات التي حقّقتها أوروبا وأمريكا في مجالات العلم والفن والعلوم ولاسيما في الطب والصناعة والحرف والهندسة، إلى جهود الفلاسفة والعلماء المسلمين، وهنا يجدر بالذكر على وجه الخصوص أن التاريخ خيرُ دالّ على أن المسلمين لم يؤدوا مسؤولية الحفاظ على كافة العلوم والفنون التي تعلموها من الأمم الأخرى فحسب، بل زادوا عليها بفضل قدراتهم الخارقة وجهودهم الجبارة وشغفهم البالغ في العلم ازديادًا ملحوظًا، حتى أنهم قاموا بتطوير بعض العلوم والفنون إلى حدّ لا يمكن وصفها بعلوم الأمم الأخرى، ولا يجوز انتساب هذه العلوم إلى قوم آخرين، كما هو الآن وضع الأمريكان والأوروبيين البارعين في العلوم والفنون، والذين نهلوا من منابع العلم للمسلمين، وبلغوا فيها ذورة التطور والازدهار بجهودهم الجادة وتفانيهم.

ولكن الفرق الأساسي بين المسلمين والمتشوقين الآخرين إلى العلوم والتكنولوجيا، هو أن المسلمين أعلنوا واعترفوا بكل أمانة، كل ما حصلوا على العلوم والفنون من الأمم الأخرى، ولم ينسبوا ذلك إلى أنفسهم، ولم يخونوا الأمانة، ولا تتوقع منهم الخيانة لأن الإسلام لا يسمح بأي نوع من الخيانة، وبالعكس إن كلًا من أمريكا وأوروبا لم تخن في العلوم والفنون التي تلقتها من المسلمين فحسب بل إنهم لم يشعروا بأي عار في نسب هذه العلوم إلى أنفسهم، فمن الواضح أنه لم يقصد هذا العمل الجرئ والغير العادل إلا بغية تعزيز فكرة قديمة تهدف إلى إثبات أن المسلمين هم قوم جاهلون وغير مثقفين، ولم يستفد منهم العالم أي فائدة، بل إنهم امتهنوا دائمًا بأعمال النهب والسلب والقتل. واليوم تسيطر كل من أمريكا وأوروبا على كافة مجالات العلوم والتكنولوجيا وأجهزة الإعلام والنشر والإذاعة، مما لا شك في أن أهل أمريكا وأوروبا قاموا بتطوير العلوم والتكنولوجيا تطورًا مذهلًا، حيث أنهم حققوا بذلك قوة تمكنهم من صياغة العالم كله حسب رغباتهم الخاصة، وإنهم يصفون المسلمين بما يأتي على لسانهم من كلمات الجهل والإرهاب والتطرف وحامل لواء الصورة النمطية، حيث أنهم يحاولون لتسمية كافة الإنجازات المحرزة في مجالات العلم والفن والتكنولوجيا باسمهم، بينما لا تصادق الأحداث والحقائق التاريخية على أقوالهم.

وفيما يتعلق بالانحطاط والتخلف التعليمي الذي يعتري المسلمين في الوقت الحاضر، لا بأس بالقول إن هذا الوضع هو صنيعة أعمالهم بأنفسهم، فيما يدل التاريخ على أن المسلمين ما داموا على اتصال مباشر وقوي مع العلوم والفنون والثقافة والحضارة والتلنولوجيا والتعليم والتعلم، أفادوا العالم بالغ الإفادة، ولكن منذ أن قلّلوا من شأن هذه الصلات والاتصال وركنوا إلى التمتع بالعيش والطرب والنشوة والشباب، فبدأ يعتري الصدأ وعيهم وشغفهم العلمي، حتى يؤكد الوضع الراهن بأن المسلمين قدر ما يسعون لكل عمل غير مناسب في هذه الدنيا، إنهم متخلفون بنفس القدر في مجال التعليم والتعلم.

ويعلم من له بصيرة بأن العلامة شبلي كان يحظى بقدر وافر من الشغف والرغبة في معرفة أعمال أسلافه وإنجازاته العلمية والفكرية قلما حظي أحدٌ من معاصريه بنفس القدر من الشغف والرغبة، ولعل هذا هو السبب الذي جعل العلامة الفاضل أكثر الناس عرفانًا وتقديرًا بهذه الأعمال والإنجازات وأهميتها بشكل جيد، فتعرف العلامة شبلي أولًا، على هذه الإنجازات من حيث التحقيق ثم سعى جاهدًا لينفخ روحًا في جسد الأمة الإسلامية الخالية من الحياة والنشاط، من خلال هذه الأعمال الجليلة والإنجازات القيمة، وتم في هذا المقال، تحليل ودراسة هذا النوع من التحقيقات والأبحاث الهامة التي قام بها العلامة الشبلي في هذا الشأن، إذ قام العلامة بنقل الأفكار والنظريات والقضايا المتعلقة بالعلوم الرائجة باللغات العربية والإنجليزية والفارسية حتى قبل حوالي قرن ماضٍ من الزمن، إلى اللغة الأردوية بحد كبير، ونتيجة لذلك أصبحت اللغة الأردوية قادرة على التعبير عن النظريات والأفكار الدقيقة المتعلقة بالعلوم ليتعرف أهل اللغة الأردوية على هذه النظريات، ولعل أحدًا لن يعترض إذا قيل إن ذلك الفضل والإحسان إلى اللغة الأردوية يرجع إلى العلامة شبلي.

ويلزم هنا التوضيح بأنه لم يستعرض أحدٌ من ذي قبل، رغبة العلامة شبلي في موضوعات العلوم أو مباحث العلوم التي تضمنتها كتاباته استعراضًا مفصلًا إلا أن البروفيسور "شمس الرحمن الفاروقي" كتب في كتابه "جديديت، كل اور آج"، مقالًا بعنوان "الإسلام والمسلمون والعلوم" تناول المؤلف فيه أبحاث ودارسات الأسلاف والقدماء عن فكرة التطور التي قدّمها العلامة شبلي، وكتب أنه تولد أولًا الجنس فقط ثم تطور ذلك تدريجيًا إلى شكل الإنسان، فيما يرى العلامة شبلي أن هذه النظرية لا تعارض مع نظرية جاء بها القرآن الكريم في سياق خلق آدم وحوا، ولو كان هنا أي تعارض لكان قد ذكر العلامة ذلك.

بداية التعرف على العلوم: يبدو أن العلامة شبلي كان يكتب عن الموضوعات والعناوين التي تتعلق بالأدب والشعر والعلوم الدينية والشرعية فقط قبل الوصول إلى مدينة علي

كره، إذ تولدت عنده رغبة وشغف في تناول العلوم العصرية والحديثة بجانب التعرف على ما قام به أسلافه والعلماء المسلمون من الإبداعات والاختراعات والابتكارات في مجال العلوم وذلك خلال إقامته في هذه المدينة، ولاسيما عندما كتب العلامة مقالًا بعنوان "الوضع التعليمي للمسلمين في الماضي" ليقدمه في مؤتمر نظمته جمعية "محمدن إيجوكيشنل" في 8/ مايو عام 1887م، علمًا بأن هذا العنوان كان جديدًا وفريدًا من نوعه، وكان يتطلب التحقيق والتدقيق البالغ لذا استغرق إعداد هذا المقال سنة كاملة[1]، وكان قد حرضه السير سرسيد رحمه الله على كتابة هذا المقال الذي يعدّه العلامة أول تأليف له باللغة الأردوية[2]، إذ يثبت هذا المقال الشعور الناضج الذي حظي به العلامة في مجال التاريخ في جانب، ويؤكد ذلك أيضًا على رغبته واهتمامه بالعلوم منذ بداية عهده بأعمال التأليف والتصنيف في جانب آخر، ولم يستفد العلامة من مؤلفات كتاب الشرق والغرب في إعداد هذا المقال الهام فحسب بل إنه حاول إنجاح جهوده وبحوثه العلمية حسب المستوى المطلوب لدى الأوروبيين من خلال ذكر الاقتباسات المأخوذة من هذه المؤلفات في بعض المواضع، لينال المقال قبولًا حسنًا من ناحية الثقة والشرعية لدى كافة الأوساط العلمية على حد سواء، وقسّم العلامة هذا المقال إلى ثلاثة أجزاء، في البداية تناول العلامة تنمية المسلمين وتطورهم علمًا وعلومهم الخاصة، كما تضمن الجزء الثاني ذكر المدارس المشهورة المنتشرة في العالم الإسلامي، ثم أبدى المؤلف وجهات نظره وآرائه حول المعلومات المختلفة عن التعليم القديم وبعض أهم جوانبه[3]، الأمر الذي يدل على ما يحظى به العلامة من وفرة المعلومات وكثرة المطالعة، ويكتب المؤلف في موضع من كتابه، موضحًا الإنجازات الهامة التي حقّقها المسلمون في مجالات الطب والفلسفة والعلوم:

---

[1] عبد الرزاق كانبوري، ياد أيام، حالي أكيدمي، حيدر آباد، 1946م، ص 68

[2] السيد سليمان الندوي، الجزء الثاني لمكاتيب شبلي، مطبعة معارف، أكاديمية شبلي، أعظم كره، ص235

[3] يادگار شبلي، ص161

لا شك في أن المسلمين ممتنون لأهل الروم واليونان في المرحلة الأولى من مجالي الفلسفة والطب، ويظهر هذا الجميل والامتنان من كافة صحفات تأليفاتهم، والحق أن البلدان الإسلامية أعطت عزة واحترامًا لأسماء الفيلسوف أرسطو والفيلسوف أفلاطون على نحو لم تحظ هذه الأسماء بمثله في اليونان والروم، ولكن وجد المسلمون ذرة وجعلها شمسًا، وقاموا بتطوير علم الهيئة تطورًا ملموسًا، وكشفوا عن أخطاء كثيرة لدى أرسطو فيما يخص مباحث الطبيعات، وقاموا بإعداد المنطلق على شكل فريد، كما أضافوا فيه عدة أصول، واخترعوا آلات وأدوات رصد جديدة، واكتشفوا سرعة الضوء، وعرّفوا قواعد الانعكاس في علم المناظر، واشتغلوا بمادة الجبر والمقابلة التي كانت تتمثل في بعض الأسماء الجزئية فقط، حتى طوروها إلى مرحلة العلم، كما تضم مخترعاتهم كلًا من صناعة الأدوية وإعداد الوصفات الطبية وآلات تصنيع العصير وتحليل المواليد الثلاثة واختبار فرق وتشابه مترابط بين الأحماض، وإنهم وضعوا أساس الكيمياء، كما أنهم أضافوا المزيد من ألفي شجيرة بفضل اختباراتهم وتجاربهم في علم النبات، في الواقع إذا قارن أحد من مؤلفي الكتب العربية واليونانية فيجد فرقًا كبيرًا مثل الفرق بين القطرة والبحر[1].

وكان يرغب العلامة شبلي في إجراء الأبحاث والدراسات في جميع المباحث والنظريات الحديثة إلى جانب العلوم الإسلامية، وإنه لم يكن ملمًا بالدراسات التي جرت في مجالي العلوم والعلم حتى عصره فحسب وإنما كان يدرك بشدة، أهمية هذه الدراسات واحتياجاتها في المستقبل، ومن المعلوم أن العلامة تلقى التعليم الابتدائي على نهج تقليدي وقديم إلا أنه بعد وصوله إلى مدينة علي كره، تغيرت وجهات نظره وتصوراته، حيث أحس العلامة بأن هناك حاجة ملحة ليعرفنّ المسلمون أهمية العلوم الحديثة مثل العلوم والجغرافيا والطب وعلوم الاجتماع والسياسة قدر ما يشعرون بحاجة إلى الحصول على العلوم القديمة من أجل الحفاظ على هوياتهم الإسلامية، فيما قال العلامة في خطاب له ألقاه أمام علماء عصره:

---

[1] الجزء الثالث من مقالات شبلي، ص17

إن شكل الزمان الجديد، وما يظهر في وضع هذا الشكل الموجود من المحدثات والابداعات، إنما هو صورة أجنبية وغير مألوفة تمامًا، والأجنحة التي فتحها الزمان هي أيضًا لأجل الطيران الجديد، ولا تباع الأشياء التي كنا نحسبها غاليةً، بثمن بخس، وتزداد الأشياء التي كنا نظنها تافهة، قيمةً وثمنًا، ويوجد سجل فضلنا وكمالنا بعد البحث عنها، في المهملات، ويصبح أصحاب الرأسمال الصغير أثرياء بينما يصبح الأثرياء بالوراثة، مفلسين[1].

ويبدو في ضوء أسطر المقتبسات المذكورة أعلاه، أن الرغبة والشغف بالعلوم القديمة كانت تتقلص لدى العلامة شبلي، وكان يشعر بقلق إزاء انخفاض شأن وأهمية هذه العلوم في الأسواق والأوساط العلمية، ولكن الأمر ليس كذلك، لأن أهل البصيرة يعرفون أتم المعرفة بأن العلامة شبلي كان له صلة عاطفية حارة بكل أمر من أمور الإسلام وبكل رمز من رموز العلوم والفنون الإسلامية، ولم يكن يريد أن ينحرف أهل الإسلام وأتباعه عن الإسلام انحرافًا ما، وإنما كان يريد من المسلمين أن تتولد لديهم، عواطف المعرفة بمحدثات الزمان وابتكاراته اتباعًا لمسلك الأسلاف، وليتصفوا بميزات الوعي والنشاط العقلي بجانب التعرف على المستقبل ليكونوا أصحاب عقل متفتح ومعلومات متعددة الجوانب، لأنه لا يمكن البقاء في هذه الدنيا المادية إلا للأمم التي تسلك طريق الرقي والازدهار آخذة بتغيرات الزمان بعين الاعتبار، لذا خاطب العلامة شبلي طائفة من الأمة كانت في يدها قيادة الأمة علمًا ودينًا، وحسب تصوراته إذا اسمتعت هذه الطبقة إلى ندائه، فإن سفينة الأمة ستكلل بالنجاح وستتغير أوضاع الأجيال القادمة.

هيّا بنا نلاحظ الآن ظروف الأمة التي يبذل الغرب والأمم الأخرى قصارى جهودهم لتشويه وجهها وصورتها، ويصفها بصفة الإرهاب والجهالة ليتم معاقبة هذه الأمة على الأخطاء التي لم ترتكبها، وزد على ذلك يريد الغرب أن يسلب من هذه الأمة حق الدفاع عنها، إذ يتم إدخال التعديلات والإضافات على صفحات تاريخ هذه الأمة وماضيها اللامع منذ زمن، الأمر الذي يشكل خطرًا كبيرًا لوجود هذه الأمة، حيث قام العلامة شبلي بشق

[1] مشتاق حسين، باقيات شبلي، آزاد كتاب گهر، دلهي، 1964م، ص 16-17

الأنفس، بغسل وإزالة وصمة العار التي لحقت بعظمة هذه الأمة بما كسبته أيادي الغرب النجسة، ثم أعاد رونقها من جديد، والآن أصبح لزامًا علينا أن نقوم بإطلاق حملات على النهج والأسلوب العلمي الذي سلكها العلامة بغية تنظيف الأوضاع المسمومة، إذ اشتدت الحاجة أيضًا إلى إبلاغ العالم بغاية من الحكمة والرشد والصبر والحزم بأن المسلمين قدموا في ذروة عهدهم المزدهر إنجازات وأبحاثًا علمية لا نظير لها، وفيما يلي استعراض موجز لمباحث تتعلق بعناوين العلوم من ناحية النظرية والتجربة، ويجدر بالذكر والاهتمام أنه عندما عقد العلامة شبلي العزم على تقديم إنجازات قومه هذه في زمن لم يكن الجو فيه صالحًا لمثل هذه المهام، حيث كان الناس لا يعتبر دراسة الانجليزية حلالًا ناهيك عن الحصول على العلوم الإنجليزية، لذا يعرف أهل العلم والمعرفة بأن العلامة شبلي تعرض لانتقادات من قبل العلماء المعاصرين، وصدرت فتوى الكفر في حقه، ولكن تخففت هذه الحدة فيما بعد، وزالت عنه هذه الوصمة التي لحقها بسبب الانتقادات، وواصل العلامة شبلي جهوده في هذا الاتجاه، وعندما تم تعيين العلامة شبلي وكيلًا للشؤون التعليمية بمدرسة ندوة العلماء بعد تأسيسها، فإنه قام بإدراج مواد العلوم والإنجليزية وكتاب هام يختص باللغة العربية اسمه "الدروس الأولية" وكذلك كتاب آخر اسمه "الهيئة الجديدة" باللغة الفارسية وكان موضوع هذا الكتاب مادة العلوم، والتمس العلامة من الشيخ حميد الدين الفراهي تدريس هذه المادة[1]، وهذه هي المبادرات التي تعكس رغبة العلامة شبلي في مادة العلوم وموضوعاته، وتم ذكر هذه الخدمة بصورة مستقلة في هذا الكتاب.

حقيقة المادة أي الذرة: قال العلامة شبلي إن آراء المتكلمين الإسلاميين عن مادة الجوهر تتوافق مع الأبحاث التي كانت قد أجريت حتى عصره، وأثبت بأن الأبحاث التي أجرتها أوروبا حتى الآن، هي أيضًا متوافقة مع التحقيقات التي قام بها العلماء

[1] مقالة بعنوان: تدريس الدروس الأولية في ندوة العلماء والعلامة شبلي والفراهي، مطبوعة في الشارق، يناير وفبراير عام 2007م

المسلمون، ووفقًا للشيخ، سيتم إدراك المادة أو الجسم بواسطة الحواس وفق العلوم الحديثة، مما يقتضي ثلاثة أشياء: الحجم والشكل والكمّ، وإن الجسم له نوعان أولهما الذي توجد فيه الحياة مثلًا الإنسان والحيوان وغير ذلك، ويبدو أن الأجزاء التي يحتوي عليها الجسم، لا حياة فيها إلا أنها مليئة بمادة من الحياة، لأن هذه الأجزاء إذا لم تتوافر فيها مادة من الحياة لا يمكن أن تكون جزء من الجسم الحي، وثانيهما تلك الأجسام التي لا توجد فيها حياة مثل الأرض والكواكب وغير ذلك[1]، وتتضمن هذه الأجسام ثلاثة أجزاء أولاها الأجزاء الصغيرة التي يمكن أن تنقسم إلى قطع صغيرة، هي تتشابه مع الجسم الأصل تمامًا، مما يعني أن الجسم إذا كان سائلًا فستكون هذه الأجزاء أيضًا سائلة، وإذا كان الجسم غازًا ستكون أجزاؤه غازًا، وثانيها الأجزاء الصغيرة التي قد تكون أصغر بكثير ولكنها تفني ماهيتها، وذلك على سبيل المثال إذا تم تقسيم أجزاء صغيرة من الأكسيجن فإنها لا تبقى على حالها الأصلي، أما الجزء الثالث فكتب العلامة شبلي إن هذا الجزء هو الذي لا يمكن تقسيمه على الإطلاق، موضحًا أن أبحاث اليوم تعتمد على هذا الجزء، علمًا بأن هذا الجزء أيّده أولًا العالم الأوروبي المشهور "ديكارت"، ثم انتشر هذا الخيال في جميع أنحاء أوروبا، حيث اعترفت أوروبا بأن هذا الجزء يوجد فيه اتصال جذاب متبادل بمعنى أن كل ذرة تشاء أن تنضم في الذرة الأخرى، وتشتد هذه الجاذبية في جوهر بعض الأجسام التي تسمى الصلب أي حديد، وينقسم الجسم إلى ثلاثة أقسام على أساس زيادة جاذبية الاتصال ونقصه: جامد أي صلب كامل وسيال أي ماء وزيت وغيرهما وغاز.

قوة الجاذبية (Gravity): تعني قوة مغناطيسية: تتوافر تفاصيل عن القوة المغناطيسية أي الجاذبية في كتابات العلامة شبلي الذي قدم أدلة على هذه النظرية العلمية الخالصة بشكل جيد، إذ يكتب أن الجاذبية ـ Gravity لها نوعان أولهما جاذبية اتصال وثانيها

[1] وفقًا للأبحاث الحالية، تتوافر أدلة واضحة على ولادة الكواكب وموتها، مما يدل على حياة الكواكب وموتها، ولكن حيوانات أرض ذلك العالم لم يثبت وجودها وفناءها فيما يخص الحياة والموت

جاذبية كيمياوية، وتترابط العناصر والأجزاء فيما بينهما بسبب قوة الجاذبية، كما كتب العلامة مؤكدًا على أهمية ذلك، لو لم توجد هذه الجاذبية لما كان أي شيئ مركبًا، وتوجد لكل عناصر ذرات مستقلة، وتنضم أجزاء من الأرض في النباتات بسبب الجاذبية الكيمياوية لتصبح أجزاء نباتية، وكذلك تتحول الأجزاء النباتية في أجسام الحيوانات، إلى أجزاء حيوانية، وأضاف على ذلك من خلال توضيح الجاذبية الكيمياوية أنه عندما ينضم الأكسيجن إلى الكربون فيصبح ذلك ثاني أكسيد الكربون (الغاز الفحمي)، ويتجاذب كل من الكربون والأكسيجن إلى بعضهما البعض بأثر قوة لأجل تشكيل هذا الاتحاد، وذلك على غرار تلك الطريقة التي تجذب بها القوة الأرضية حجرًا جهة الأرض.

إزالــة ســوء تفاهم: يلزم هنا، إزالة سوء التفاهم الذي يخص عرض نظرية الجاذبية، ومفاده بأن العالم "نيوتن" هو الذي قدّم هذه النظرية أولًا، إنما يعارض هذا القول الحقيقة المطلقة وذلك نتيجة سوء التفاهم الذي بثّه المستشرقون، إذ أثبت العلامة شبلي لأول مرة، من خلال عرض أدلته الدامغة والحكيمة بأن هذه القضية معترف بها منذ مدة طويلة من الزمن، وإنها نظرية قديمة جدًا بأن كل شيء ينجذب إلى مركزه، حيث كانت هذه الفكرة في الفلسفة اليونانية يقتصر على نظرية التجاذب المركزي ولكن علماء المسلمين قاموا بتوسيع هذه النظرية أكثر، وكان يؤيد العالم "ثابت بن قرة" أن أجزاء جميع الأجسام لها تجاذب متبادل، وقد حصل هذا العالم على علم هذه التجربة بنفس الطريقة التي تنتسب إلى العالم "نيوتن"، وفي هذا الشأن، ذكر العلامة شبلي الجمل التي كتبها العالم "ثابت بن قرة"، نقلًا عن ابن تيمية بأنه عندما نرمي الحجر إلى الفوق فيسقط الحجر على الأرض، يرجع سبب هذا العمل إلى أن جزء كل عنصر يبحث عن بقية الأجزاء، كما يميل كل شيء إلى جنسه، وكانت تستخدم آنذاك، كلمة "ميل" على مكان جذب، إضافة إلى ذلك، نقل العلامة بعض الأشعار من آلاف شعر العلامة "رومي" حيث يتضح بذلك كل الوضوح بأن العلامة رومي قام بسرد قضية التجاذب والجاذبية بكل تفصيل، ويكشف من خلال مطالعة جمل العالم "ثابت بن قرة" والتي

نقلها العلامة شبلي في هذا الصدد، بأن العالم "ثابت" كان قد جرب قضية التجاذب والجذب بشكل عملي، وأنه أثبت هذه النظرية بكل حزم ويقين[1].

نظرية التطور (Evolution): صحيح أن نظرية التطور التي عرضها العالم البريطاني "دارون" في كتابه أصل الأنواع . Origin of Species، بأسلوب علمي مؤثر وفلسفي لم يمكن لأحد أن يتناول هذه النظرية بهذه الطريقة التفصيلية من ذي قبل، لذا اعترف رجال ذلك العهد بهذه النظرية النادرة، وخلاصة هذه النظرية أن جميع الكائنات الحية أصلها واحد، مما يعني أن جميع المخلوقات نشأت من خلية واحدة، وشكلها الحالي جاء إلى حيز الوجود بفعل التطور الطبيعي وإن الإنسان هو الشكل الأفضل بفعل هذا التطور بموجب هذه النطرية، وخلاصة القول إن كل سلالة تولدت من سلالة موجودة من ذي قبل، فيما نالت هذه النظرية غير الحقيقية التي طرحها العالم البريطاني "دارون"، قبولًا حسنًا إلى فترة من الزمن، ويعتبر العالم "دارون" موجدًا أيضًا لهذه النظرية، بينما قد كشف العلامة شبلي هذه النظرية قبل قرن من الزمن من خلال مطالعة ما كتبه المتكلمون المسلمون في هذا الشأن، فيما أبلغ العلامة العالم كله بأن العلماء المسلمين كانوا قد تدبروا وتفكروا في هذه النظرية قبل قرون.

ويعتقد عامة المتعلمين المعاصرين والمثقفين الغرب بأن العالم "دارون" قد أوجد هذه النظرية ولكن الذي طالع كتابات العلامة شبلي لن يعترف بهذه الدعوى أبدًا لأنه يعرف كل المعرفة بأن النظرية التي تعتز بها أوروبا كلها بسبب انتسابها إلى العالم "دارون"، قد كشفها العلامة شبلي قبل قرن من الزمن، موضحًا أن هذا الصوت ليس جديدًا بالنسبة للمسلمين، لأن آذان المسلمين قد سمعتها قبل قرن من الزمن، وقام العلامة باستعراض هذه النظرية بأسلوب علمي بأن العالم "دارون" ليس بمن طوّر هذه النظرية بل إن علماء المسلمين كانوا قد عرضوا هذه النظريات قبل مدة طويلة، فيما أورد العلامة بعض الاقتباسات والعبارات من كتب إخوان الصفاء والفوز الأصغر لأبن مسكويه و"جهار

[1] الجزء السابع لمقالات شبلي، ص37، و48-49

مقالة" للنظام السمرقندي، والتي تكشف الغطاء عن حقيقة هذه النظرية وتلقي الضوء عليها، بينما يبدو أن بعض النظريات والتصورات في هذا الشأن هي أبحاث الوقت الحالي على سبيل المثال أن كتاب إخوان الصفا يكشف بأن الدرجة النهائية من الجمادات مربوط بالدرجة الابتدائية للنباتات، ونحن نريد أن نكتب رسالة عن النباتات لنوضح فيها بإيجاز، لماذا تُخلق النباتات؟، وكم لها من الأنواع؟، وما هي ميزاتها ومنافعها ومضراتها؟، ونبين فيها أن الدرجة النهائية من النباتات متصلة بالدرجة الابتدائية من الحيوانات وإن الدرجة النهائية من الحيوانات منضمة إلى الدرجة الابتدائية من الإنسان[1].

من الجدير أن نتذكر بأن العلامة شبلي لم يتناول نظرية التطور إلا من ناحية الأبحاث ووجهة النظر العلمية فقط، لذا من الضروري أن تُقرأ كتابات العلامة من ناحية المبحث العلمي والفكري بدلًا من وجهات النظر الدينية والعقائدية، ليتم التكفير في الطريقة التي تبناها العلامة بفضله الطبيعي والفطري لجعل اللغة الأردوية قادرة على التعبير عن النظريات والتصورات من هذا النوع العلمي، ولم يكن العلامة مبلغًا لهذا النوع من نظريات علماء الإسلام أو العالم "دارون"، وإنما يقصد بذلك إبلاغ وإطلاع عامة أهل العلم والفكر على أن النظرية التي تعتز بها أوروبا اليوم، قد اكتشفها الفلاسفة المسلمون قبل فترة طويلة من الزمن الماضي، وتهدف كتابات العلامة هذه إلى شرح النظريات العلمية والفلسفية فقط، فإذا ساءت سمعة وطبيعة الإسلام السمحاء بسبب هذه الأبحاث والنقاشات أو تؤذي الروح الدينية فلا شك في أن العلامة بريء عن هذه الأغراض، لأن العلامة ما كان يقصد بكتاباته ومباحثه العلمية هذه إلا تحريك النشاط والحماس العلمي لدى المسلمين ليتعرفوا على ميادين ومجالات الفكر والفن والتفكر والتدبر التي حقق فيها أسلافهم إنجازات هامة، كما تهدف هذه المساعي والجهود إلى إزالة سوء التفاهم الذي قام ببثه وترويجه المستشرقون، لأن أصحاب المعرفة والبصيرة يعرفون بأن العلامة شبلي لم يلفظ ولم يكتب أي كلمة إلا بغية إعلاء كلمة الإسلام

[1] الجزء السابع لمقالات شبلي، ص57

وتجليل عظمته وتعظيم مكاتنه في قلوب الأغيار وزيادة أهمية الإسلام وعزته وكرامته لدى أهل الإسلام.

وفي هذا السياق، صدرت بعض الكلمات من قلم الشيخ، التي تلزم الخضوع لبعض الاعتراضات والانتقادات في ضوء الأبحاث الحالية، ولا يمكن لطالب اليوم أن يعتبره مهمًا جدًا ولكن يجب على المعترضين وطلبة اليوم لأجل الشعور بأهمية هذه الآراء والتصورات، أن يعودوا إلى زمن القرن الماضي حينما لم تكن تتسع علوم الوراثة والبيولوجيا والكيمياء الحيوية بهذا القدر من التوسع والتفصيل، وقد أمعن العلامة شبلي النظر في هذه المباحث والأبحاث في ذلك العهد كنظرة الخبير، ومما يزيد أهمية العلامة شبلي هو أن هذه الشخصية العبقرية الذي تلقى التعليم على النهج التقليدي القديم، فكّر وتدبّر في الموضوعات والعناوين الحديثة وفق احتياجات عصره، ليعرّف أمته بهذه العلوم التي تتخلف فيها الأمة الإسلامية، وينبغي أن تكون فطانة العلامة وعقلانيته مشعلًا لطلبة الوقت الحاضر، ويتم عرض آراء العلامة هذه لكي يشعر المعترضون وطلبة اليوم بأهمية هذه العلوم والأبحاث سعيًا على الأقل، تحلي أنفسهم بما كان يتمتع به العلامة من بصيرة.

وكتب العلامة شبلي في مبحث نظرية التطور، أن التمر هو حيوان نباتي، وتوجد في النباتات قوة لامسة، ومن الأشياء التي تعتبر أقل درجة من الحيوان هو التراب والحيوانات التي تعيش في البحار، وتوجد كل من الحيوان والنبات المتسمة بهذه الدرجة، ومن النباتات التي تعتبر أقل درجة من الحيوان هي الأعشاب الطبيعية، وهذه الدرجة النهائية من الجمادات، ويوجد فرق بسيط في مثل هذه الجمادات والنباتات وهو الحركة، وأضاف العلامة بأن النباتات عندما تتجاوز وجهتها فإن درجها الأول هو ابتعادها من الأرض لأنها وفي هذه المرحلة، لا تحتاج إلى أن تكون جذورها راسخة في الأرض، حيث يبدأ أن تنمو قوة الاحساس وذلك الدرجة الابتدائية من الحيوانات، ثم يتعزز الحيوان حتى تنمو فيه حركة، حيث بدأ الحيوان يمشي ويتجول، وإنه يحظى بقوة الاحساس أكثر من حشرات

الأرض، ثم يصبح هذا النوع من الحيوان باكتمال مرحلة النمو والنشو، حيوانًا كامل الحواس، على الرغم من أنه توجد فيه الحواس الخمسة إلا أنها تحتوي على مراحل وطبقات مختلفة من ناحية العقل والفطن والفهم والشعور، ومنهم البعض صاحب العقل والحواس اللطيفة، فإنهم يفهمون كل حديث وكلام، ثم يتطور الحيوان إلى الدرجة النهائية من خلال تحقيق النمو والتطور حتى يصل إلى حد الإنسان، علمًا بأن هذه المرحلة تعتبر المرحلة الأعلى من ناحية الحيوان إلا أنها المرحلة الدنية جدًا من ناحية الإنسان، وإن هذه المرحلة تختص بالقرد وغير ذلك لأنه يتشابه مع الإنسان إلى حد كبير إذ يوجد فرق بسيط بين القرد وبين الإنسان من ناحية الحيوانية[1]، حينما يصل الحيوان إلى هذه المرحلة، يستقيم قده وتتولد له قوة تميز بسيط، ولكن لا توجد لديه قدرة على التعليم، حيث تزيد قوته الروحانية بشكل متزايد، وهذه هي المرحلة القريبة من الإنسان الكامل، والتي تعتبر المرحلة النهائية من الحيوانية، ويوجد هذا الإنسان الحيواني في كل المناطق الأكثر سكانًا على الأرض مثل الوحشي والأقوام المستوطنة في الغابات، لأنه لا يوجد فرق كبير بين هولاء الأقوام وحيوان المرحلة النهائية من الحيوانية، وهكذا يتنامى العقل الإنساني تدريجيًا حتى يصل إلى المرحلة الثالثة والرابعة والخامسة فيتكامل العقل الإنساني كل التكامل، حيث تتولد لديه قدرات على الفهم والفطن والوعي والإدراك في الصنائع والدقة في العلوم وتطوير الفنون.

والحق أن تحسب هذه القدرات أفق القوة المتخيلة التي يتحلى بها الإنسان، ومن المناسب أن تعتبر هذه القدرات الحد الأقصى للتفكير في قضية التطور وإلا من الذي سيعترف بذلك بعد ظهور نتائج دراسات العلوم العملية والتجريبية الحالية مثل (الحمض النووي . DNA)، وقد أثبتت فحوصات الحمض النووي بأن كل مخلوق له ميزة خاصة وذلك مجرد عمل إلهي، لذا لا يتشابه الحمض النووي الإنساني مع الحمض النووي للحشرات الدابة في الأرض، فإن هذه الحشرات لها ميزة خاصة للحمض النووي

[1] المصدر السابق ص 68

ولكل من الإنسان والنباتات والحيوانات ميزات مستقلة، والجدير بالذكر هنا أنه كم تفكر العلامة شبلي بإمعان وعمق، في نظرياته المعاصرة تجاه العلوم، وكان له نظرة عميقة ودقيقة في كل شيئ، إذ حاول أن يوضح هذه النظريات والأفكار مقتبسة من أهم الكتب العربية والانجليزية، ليطلع أمته وقومه على طبيعة الوقت هذه، والتي من المرجح أن يتجلى مستقبلها في مجالات العلوم والنظرية العملية خارجًا عن النطاق الفكري.

حقيقة السماء ونقد العلماء القدامى: لم تأت أبحاث العلوم الحديثة والمتطورة حتى الآن، بأي شيء ثابت وغير قابل للرفض بشأن حقيقة السماء، وإنها لزمت الصمت في هذا الصدد، ولكن يخيل بأن السماء ليس شيئًا وإنما يمثل أقصى حد للنظر، فيما كان قد أبدى علماء اليونان آراء ونظريات عجيبة لا أساس لها، وهي تتمثل في أن السماء صلبة، ولا يمكن أن تنفجر السماء بأي حال من الأحوال، ولها حركة وعقل وروح، ويتصرف العالم كله وفق إشارتها، وقد قدم هولاء العلماء بعض الأدلة العقلية في إثبات هذه النظرية، حيث قام العلامة شبلي بدراسة النظريات التي قدمها كل من الفيلسوف أرسطو والفيلسوف أفلاطون بشأن حقيقة السماء، دراسة نقدية، فكشف أن الدنيا كانت قائمة على هذه النظريات الخيالية عبر آلاف السنين، ولم يمكنها أن تمضي قدما وراء هذه النظرية ولكن المتكلمين الإسلاميين رفضوا هذه النظريات التافهة وغير المقصودة وكشفوا عن أخطاء أدلتهم ولم يتأثروا بهذه النظريات التي لا يمكن أن تصدق، أي تأثير، حيث لم يعترف العلماء المسلمون بهذه النظريات لأنها كانت تتعارض مع التفاصيل والتصريحات التي جاء بها القرآن الكريم في هذا الشأن.

ولا يؤيد القرآن الكريم صفات السماء التي عرضها الفلاسفة اليونانيون، لكونها صاحب عقل وفهم، لأن الكواكب سابحة ومتجولة في السماء وفق التفاصيل القرآنية، فإذا تم الاعتراف بحقيقة السماء حسبما ذكرها اليونانيون فإنها ستعارض ما جاء به القرآن من ميزات السماء وصفاتها، وهكذا انتقد العلامة نظرية خاصة لبُعد حركة السماء، فيما أنه أورد الأدلة التي قدّمها الفلاسفة والعلماء المسلمون في هذا الصدد، مما يرفض الفلسفة

اليونانية، كما كتب العلامة نقلًا عن كتاب "تشريح الأفلاك" للشيخ "عصمت الله"، أنه يتضح مما جاء به القرآن الكريم من التفاصيل أن الكواكب تتحرك في السماء على طريقة سبّاح يسبح في الماء، وإذ شبه القرآن الكريم حركات الكواكب كالسباحة فيبدو أن السماء ماء والكواكب سباحة[1]، علاوة على ذلك أبطل القرآن الكريم نظريات اليونانيين بأن السماء غير قابلة للخرق، كما جاء في سورة المعارج، "يوم تكون السماء كالمهل"، أي يوم ستصبح السماء كثمالة الزيت، مما يدل على أن السماء لن تكون باقية في شكلها الحالي يوم القيامة، بل ستزول مثل الأشياء الأخرى لهذه الدنيا، وستتلاشى في ذلك اليوم.

علم الحركات أوعلم الحيل (Mechanics): كلمة "ميكينكس" هي كلمة يونانية حسب تحقيقات العلامة شبلي، وإن كلمة (Machine) الأنجليزية مشتقة من كلمة ميكينيكس، فيما يقول العلامة إن المسلمين تعلموا هذا الفن من الكتب اليونانية، ولم تقتصر معرفتهم بهذا الفن على مجرد حد العلم فحسب بل إنهم استخدموا هذا الفن بشكل عملي وأوصلوه إلى قمة النجاح والتطور، إذ تطور الوعي العام عند المسلمين تجاه هذا العلم في العهد العباسي، وها هي بعض الكتب الخاصة لهذا الفن، التي قام بترجمتها المسلمون، مثل كتاب حمل الآلة التي تطرح البنادق لأرشميدس وكتاب الدوائر والدواليب قام بتأليفه "هرقل نجار" وكتاب في الأشياء المتحركة من ذاتها لإيرن وكتاب الآلة الزمراء لبوقي وكتاب آلة الزمراء لريحي وكتاب الدواليب لمارطيس وكتاب الأرغنون وكتاب إيرن في الجر الثقيل[2].

وذكر العلامة في هذه المقالة، قصة قديمة وجديدة تخص اهتمام المسلمين ورغبتهم في هذا العلم مع عرض المراجع والاقتباسات المأخوذة من كتب المؤرخين الغرب إذ يقول العلامة مع أن المسلمين تعلموا هذا الفن من اليونانيين ولكنهم قدموا بأنفسهم،

---

[1] المصدر السابق، ص22 و36

[2] الجزء الثاني لمقالات شبلي، ص235-236

اختراعات وابتكارات حديثة في هذا الفن، حيث ألّف العالم "بنوموسى" أحد العلماء المشهورين في العهد العباسي، كتابًا مخترعًا يتسم بغاية من الاختراعات والاتبكارات، فيما كشف المؤلف عن العديد من الأعمال الميكانيكية، وأورد فيه بعض النوادر والعجائب.

ترجمة المصطلحات العلمية واصطلاحات العلوم: تدل هذه الاكتشافات التي قام بها العلامة شبلي، على غاية معرفته بتاريخ تطور العلم والعلوم لدى المسلمين، إذ أنها تشكل في نفس الوقت، تحديًا للمؤرخين الغرب بأن اللغة الانجليزية رغم توسعها، احتفظت بالكلمات اليونانية ولم يمكنها اختراع الكلمات والألفاظ في لغتها، أما المسلمون فإنهم قاموا بترجمتها إلى لغتهم بحيث تحررت هذه الكلمات من اللغة الأصلية سعيًا لتجنب تلك العبودية قدر المستطاع، والتي تعرّض لمشكلتها الشعب الأنجليزي دومًا، مما يعني أن المسلمين اخترعوا كلمات عديدة باللغة العربية مقابل مئات وآلاف المصطلحات الخاصة بمجالات الهيئة والهندسة والطب وما إلى ذلك، كأن هذه العلوم تطورت في هذه اللغة، كما كتب الشيخ:

يعرف كل شخص بوضوح أن المسلمين قد حرروا الترجمة من اللغة الأصلية بحد كبير، وكم توسعت اللغة الانجليزية اليوم ولكن الألفاظ اليونانية ظلت باقية على حالها فيما يخص المصطلحات العلمية، فيما يرجع السبب إلى أنه من الضروري الحفاظ على المصطلحات المشتركة في جميع أنحاء أوروبا، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا عن طريق الاحتفاظ بالألفاظ اليونانية بذاتها، أما الترجمة العربية فإنها محررة من هذه العبودية تمامًا، إذ كانت توجد مئات وآلاف المصطلحات في كل من مجالات المنطق والفلسفة والهيئة والطب والهندسة، ولكن قد تم اختيار ألفاظ وكلمات باللغة العربية مقابل ذلك على نحو يشير إلى أن هذه العلوم قد تطورت في هذه اللغة[1].

لم يكن المسلمون أتباع الفلسفة اليونانية وعلومها: ألقى بعض المستشرقين الأوروبيين اللوم على المسلمين بأنهم اتبعوا في عهدهم، الفلسفة اليونانية وعلومها اتباعًا أعمى،

[1] مقالات شبلي، ص35

ولم يزيدوا منها شيئًا ولم يكن المسلمون إلا حمّالًا لسيارة الفيلسوف أرسطو، أما المواد التي تضمها كتبهم في مجال العلم والعلوم والفسفة، إنها مجرد شرح الفلسفة اليونانية وعلومها وتفسيرها، حيث فنّد العلامة شبلي هذه الاتهامات من خلال عرض الحجج القوية والأدلة التاريخية مؤكدًا أن المسلمين لم يضيفوا في الفلسفة اليونانية فحسب وإنما فندوا بعض نظرياتها وأثبتوا أخطاءها، فيما نقل العلامة أسماء بعض الذين رفضوا تأليفات الفيلسوف أرسطو، وهم يحيى نوبختي والقاضي أبوبكر والعلامة الشهرستاني وابن تيمية وأبو البركات البغدادي وغيرهم، كما نقل العلامة كلًا من مؤلفاتهم والقضايا التي جاء فيها رفض هذه الفلسفة، ويمكن الرجوع إلى الجزء السابع لكتاب "مقالات شبلي"، لمزيد من التفاصيل، ونذكر قصة واحدة على سبيل المثال.

يرى الفيلسوف أرسطو أن الجسم مركب من الهيولي والصورة، أما الفلاسفة المسلمون فإنهم يؤكدون أن الجسم مركب من الأجزاء الديمقراطيسية. ويرى الفيلسوف أرسطو أن الأعراض تبقى دومًا ولن تفن أبدًا، فيما يقول الفلاسفة المسلمون إنها تفنى تدريجيًا، وهكذا إن الزمان هو جوهر وفق فلسفة أرسطو، إذ يعتبره المتكلمون شيئًا خياليًا، وما إلى ذلك.

وقدّم العلامة شبلي أجوبة قاطعة بشكل أساسي، على ما اعترضه المستشرقون في هذا الشأن، وأثبت بأنه إذا تمت مقارنة الفسلفة الإسلامية بالفسلفة اليونانية وبالعلوم الحديثة فيتضح أن الفسلفة الإسلامية قريبة جدًا من العلوم الحالية مقارنة بالفلسفة اليونانية[1].

يعرف صاحب العلم بأن العلامة شبلي أقام في مدينة علي كره، قرابة 16 سنة، واستثمر العلامة ذكاءه الفطري كل الاستثمار خلال تلك الفترة، حيث أدّت أجواء تلك المدينة وما تلقّاه العلامة من عناية خاصة من قبل السير سيد ومصاحبته، إلى تقوية عقل العلامة شبلي وذكائه بحيث تقلل شأن الشخصيات الهامة أمامه، لذا يرجع فضل معرفة العلامة بالأوضاع العلمية والثقافية للعصر الحديث وما يتميز به العلامة من مطالعة

[1] الجزء السابع لمقالات شبلي ص30

واسعة، إلى اتصاله بمدينة علي كره، حيث عرف العلامة قيمة تراثه العلمي والتاريخي وأهميته، كما أنه حظى بفرصة مطالعة نظريات العلماء القدامى وأفكارهم وتأليفات الكتاب الغربيين، كما تولدت لديه مقدرة التمييز بين محاسنها ومآثرها وعيوبها وأخطائها ومكانتها خلال إقامته في هذه المدينة، واعترف بذلك العلامة نفسه، موضحًا أنه إذا وصف أي جزء من حياته علميًا كان أو تعليميًا، فهو نتيجة وأثر تلك الكلية[1]. ولم تمض إلا أربعة أشهر على إقامته في تلك المدينة، حتى قام بتأسيس مدرسة وطنية للعلوم الحديثة والعلوم في مدينته أعظم كره في 20/ يونيو عام 1888م، ويعتبر ذلك التطور أيضًا نتيجة تأثر العلامة بالأجواء العلمية والثقافية في مدينة علي كره، وكذلك عندما زار العلامة البلدان الأجنبية مثل الشام ومصر وروم عام 1892م، وسجل الأوضاع العلمية والثقافية لتلك البلدان على وجه الخصوص، وتزيد مطالعة هذه السجلات حماسًا وشغفًا في هذا السياق لأن كل ما شاهده العلامة من الوعي التعليمي والثقافي في المؤسسات التعليمية لتلك البلدان تجاه العلوم الحديثة، تجدر متابعتها من قبل الأمة الإسلامية، لذا يذكر بإيجاز، كل ما كتبه العلامة في كتب الرحلات من العلوم الحديثة والموضوعات المتعلقة بالعلوم مرجعًا إلى كتب رحلاته.

ممارسات التعليم الحديث (العلوم) في تركيا: يرى العلامة شبلي أن في البلدان الإسلامية منهجين للتعليم، أحدهما المنهج الجديد والثاني القديم، إذ يكتب العلامة عن بداية انطلاق التعليم الحديث في تركيا:

يبدأ نظام التعليم الحديث (العلوم) في تركيا الخاضعة للملوك العثمانيين، في الوقت الذي تحول فيه النظام التركي إلى القالب الأوروبي تخليًا عن القالب الآسيوي، وكان السلطان "محمود" مؤسس هذا الانقلاب، هو الذي اختار لأول مرة، الشكل الأوروبي، وقام بتسليح الجيش على غرار الجيش الأوروبي، وهذا المجدد قام بتأسيس المكتب الحربي عام 1250هـ ليصبح أول كلية للعلوم الحديثة، ولا تزال هذه الكلية موجودة،

[1] يادگار شبلي، ص95-96

وأنها تمثل مركز جميع المدارس الحربية، ثم قام بعده، السلطان "عبد المجيد" بتطوير وتوسيع نظام التعليم الحديث بشكل أكثر من خلال إنشاء المكاتب الرشيدية، ويستمر هذا النظام التعليمي على نطاق واسع منذ ذلك العهد حتى الآن، ويشهد ازدهارًا وتطورًا بشكل متزايد[1].

ولا شك في أن كل ما أشار إليه العلامة شبلي من سرعة التنمية والتطور، يستحق العناية والاهتمام البالغين، لقد زار العلامة تركيا في عهد السلطان "عبد المجيد" وذكر رغبة السلطان في نظام التعليم الحديث وما حققه السلطان من الإنجازات الهامة بكل سخاء ورحابة صدر، لافتًا إلى أنه كان هناك 96 مدرسة رشيدية عند تتويج السلطان ولكن الآن قد بلغ عدد هذه المدارس 405 مدرسة، وقد أنشأ السلطان وحده كل نوع من المدارس الحديثة التي يبلغ إجمالي عددها ألفي مدرسة، وكانت الميزانية السنوية لوزارة المعارف والتعليم ثلاثمائة ألف جنيه عندما تولى السلطان مقاليد الحكم، وقد بلغت الآن هذه الميزانية ثمانيمائة ألف جنيه.

كما كتب العلامة شبلي لافتًا إلى بعض الأمور التي تستحق العناية في الشأن التعليمي، حيث يلزم تعليم مواد الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا في سائر الكليات الكبيرة، ويتم ممارسة هذه المواد بشكل عملي، ولهذا الغرض تتوافر آلات هذه الفنون في جميع الكليات بكثرة، وتُدرس مادة التاريخ بالمستوى العالي، وفي هذا السياق كتب العلامة أيضًا أن جميع العلوم التي تتم دراستها في المدارس التركية، كلها تُدرس باللغة التركية أي لغتهم، حيث أن اللغة الأجنبية ليست لغة تدريس، وذلك هو السبب في ترجمة جميع كتب العلوم الحديثة إلى اللغة التركية، ولا تزال ترجمتها من حين لآخر[2].

---

[1] علامة شبلي النعماني، سفرنامه روم ومصر وشام، أكاديمية شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، ص44

[2] المصدر السابق، ص49

عيوب العلوم الحديثة واحتياجها: كان للعلامة شبلي إلمام جيد ونظرة عميقة على كل من محاسن التعليم الحديث ونقائصه، لذا عندما استعرض العلامة تأثيرات التعليم الحديث خلال زيارته، فإنه أشار إلى بعض عيوب التعليم الحديث ونقائصه بكل وضوح مع تسليط الضوء على تطور التعليم الحديث وتوسعته، ووصل العلامة إلى نتيجة بأنه لا يمكن تطور التعليم الحديث إلى قمة أوج التطور والازدهار ما لم يتم توفير أجواء المنافسة والمسابقة لدى الطلبة، حيث شعر العلامة بعدم توافر هذه الأجواء في المؤسسات التعليمية لتلك البلاد، وكتب العلامة بأن طلبة هذه المؤسسات يعانون من انعدام الشجاعة والبصيرة العالية والنظرة الثاقبة بسبب عدم توافر الأجواء التنافسية في صفوف الطلبة، وفيما يلي توضيح ذلك في ألفاظ العلامة:

هناك نقص واحد بأنه لا توجد جمعية علمية أو نادي نقاش في أية كلية بل في المدينة كلها، فلا يجد الطلبة أي فرصة لتحسين قدراتهم على الخطابة، مما يترتب على عدم قدرة الحاصلين على شهادات هذه الكليات، على إلقاء محاضرة بعنوان ما أمام الحشد العام، ولذلك لا تتحلى مجموعة المثقفين بصفات الشجاعة واللبرالية والبصيرة العالية التي هي زبدة التعليم الحديث[1].

لما ذا ثمة حاجة إلى التعليم القديم؟ من الواقع أن العلامة كان يؤيد ترويج العلوم الحديثة مثل الفيزياء والبيولوجيا والعلوم الاجتماعية وعلم الأفلاك وكان يحب أن يشهد ازدهار هذه العلوم لدى قومه وأمته، ولذلك صب العلامة جل اهتمامه على هذا الجانب في كتاباته، مع ذلك يرى العلامة أنه من الضروري الحصول على العلوم القديمة لأجل الحفاظ على جنسيتهم والهوية الإسلامية، وعندما يلاحظ العلامة عدم اهتمام أمته بتلقي العلوم القديمة أوعدم تقديرهم بذلك في أي مكان، أو يشاهدها بالمستوى المنخفض، يزيد قلقه ويبدي حزنه وتأسفه لهذا الوضع، كما أنه كتب في أحد المواضع من كتاب الرحلة:

---

[1] المصدر السابق، ص54

"الأمر الذي كان يكدر صفو سعادتي ومسرتي خلال هذه الزيارة، هو مشاهدة ذلك التعليم القديم في حالة سيئة، ويجري النقاش حول هذه القضية في الهند في هذه الأيام، حيث يتم التعبير عن القلق والتأسف والحزن على الوضع السيئ للتعليم القديم ولكن تأسفي كان من نوع آخر من التأسف".

ويضيف كاتبًا:

"إنني وإن كنت أحب التعليم الحديث وأعجب به من أعماق القلب، ولكن أؤيد التعليم القديم بشدة، وأظن أنه من الضروري تلقي العلوم القديمة بغية الحفاظ على هوية المسلمين وذلك ضروري جدًا"[1].

وهكذا كتب العلامة في موضع من كتاب رحلته أنه مهما يبلغ المسلمون حد التطور والازدهار في مجال العلوم الغربية (العلوم)، لا يمكن وصف ذلك التطور بتنمية المسلمين ما لم يظهر فيهم أثر العلوم الشرقية، ولا ريب في أن المشروع الحالي للعلوم الشرقية هو سيئ للغاية، وليست الحاجة إليه، ولكن يوجد في نفس التعليم أشياء بمثابة روح لهوية المسلمين، ولا يمكن أن يؤدي التعليم الذي لا يحظى بأي أثر من الروحانية، إلى إحياء أي جانب من جوانب ديانة المسلمين وهويتهم وتاريخهم[2].

ولعل العلامة كان يرى الحاجة إلى تلقي العلوم الحديثة على نحو لا يخلو عن عنصر الديانة والشرقية والهوية، لأنه من الأمر الواقع أن طلبة العلوم الحديثة يحررون أنفسهم من أثر الديانة والهوية، ولا يصلح ذلك الوضع بالنسبة للطلبة المسلمين، ويبدو أن العلامة كان يريد أن يقوي صلته بالتعليم القديم وأن يجعله يتوافق مع احتياجات الحصر الحديث.

---

[1] المصدر السابق، ص67

[2] المصدر السابق، ص160

هذه هي بعض المباحث ذات الصلة بالعلوم والتعليم الحديث في كتابات العلامة شبلي، وثمة حاجة ملحة إلى دراستها بالتفصيل بهدف عرضها أمام الأمة بشكل جيد، لكي يستفيد شباب القوم والأمة الإسلامية من ريادة العلامة شبلي في هذا المجال وليفكروا في تحقيق أحلامهم اتباعًا للخطة التي وضعها العلامة شبلي.

الأفكار والنظريات السياسية للعلامة شبلي النعماني

- د. محيي الدين آزاد الإصلاحي

ترجمة من الأردوية: د. جاويد أحمد بال

كانت الهند في العهد المغولي تخبط في الطريق المظلم الحالك الذي تستحيل الرجعة منه وإن بذلت لأجلها الجهود المضنية، وكان ذلك بسبب ضيق تفكير حكامها وقلة بصيرتهم وحروبهم فيما بينهم بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية الفاسدة المزعجة والاضطراب الذهني في الشعوب. وبالتالي تمكنت القوات المستعمرة البريطانية التي جاءت في غطاء من التجارة، من رسوخ أقدامها تدريجيًا في أرض الهند، وصارت الهند شبه محتلة بسبب مؤامرتها ودسائسها المنظمة، حتى بقيت الدولة المغولية مجرد اسم إلى سنة 1857م. وفي نفس هذه السنة (التي يسمّيها الإنجليز بـ"التمرد" ونسمّيها بـ"حرب التحرير الأولى") ولد المفكر المصلح الشاعر الأديب العبقري العلامة شبلي النعماني في إحدى قرى مديرية أعظم كره التي ما زالت خصبة لنشأة الرجال منذ قديم الزمان، والتي تقع في ولاية أوترابرديش في المنطقة الشرقية للهند، فكانت ولادته في قرية "بندول" يوم كسر فيه مجاهدو الحرية بوابة سجن أعظم كره (3 يونيو، 1857م -18 نوفمبر 1914م). فمفخرة هذه الشخصية الموسوعية هي أنها معلم للعصر الجديد، ويقول عنه السيد سليمان الندوي:

"هو الذي بث روحًا جديدة في حياة المسلمين الخامدة، وعرض العلوم والفنون الإسلامية بالإضافة إلى الوقائع والأحداث للتاريخ والتمدن الإسلامي أمام أبناء العصر، والذي تخرج على يده مجموعة من العلماء الذين قضوا حاجة الإسلام الراهنة في العصر الحديث"[1].

ويقول في موضع آخر:

---

[1] حيات شبلي، ص 18

"كان العلامة شبلي ملتقى القديم والجديد، مزج التياران لهذين النهرين فيه؛ مرج البحرين يلتقيان. كان عالم التراث العلمي الديني بالإضافة إلى اطلاعه الواسع على كثير من الآراء والأفكار للعلوم الجديدة. كان محققًا ومؤرخًا ومتكلمًا ومفكرًا ومصلحًا وشاعرًا وخبيرًا تعليميًا وعلاوة على تلك كان ثوريًا في مواقفه الكثيرة تجاه متطلبات العصر الحديث"[1].

كانت شخصية العلامة شبلي موسوعية، فكان عالم اللغتين: العربية والفارسية، ومبدع فن السيرة على النمط الجديد، وبحر العلوم الشرقية الذي لا ينتهي ساحله. إنه يعدّ من الشخصيات التي قادت المسلمين في زمانهم ودلتهم على ضعفهم عن طريق منظوماتهم ومنثوراتهم الدينية والأخلاقية والسياسية والقومية، وحاولت التآلف بين نظرياتهم السياسية الجديدة والمبادئ الإسلامية كي يمكن التصديق بتحضر المجتمع وبرقيها. وقد قدّم مساهمات هامة في حياة المسلمين الدينية والتربوية، وفي تفكيرهم السياسي والاجتماعي، وظلت عاطفة خدمة الأمة تشغل باله منذ شبابه، فراقب السياسية القومية والعالمية وأبدى رأيه الرزين حول كل قضية، ولم يقتصر على التفكير العميق الجاد في قضايا المسلمين السياسية فحسب بل سعى لإصلاح حياتهم المنحلة ولإرشادهم إلى جادة الصواب. وبذل حياته كلها لعلوّ الإسلام، والرحمة على الأمة الإسلامية، ورفاهية الوطن وإسعاده. مع أنه لم يكن سياسيًا بالعمل، إلا أنه كان يطوي بين جنبيه السياسة الكاملة نظريًا وفكريًا.

كانت تنتشر حركة جديدة في العالم الإسلامي في زمن فرغ فيه العلامة شبلي من دراساته، وهي حركة الوحدة الإسلامية، ودعا إليها سيد جمال الدين الأفغاني الذي كان مقيمًا في آخر عمره بالقسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية ومركز الحكم الإسلامي[2]. وكان شبلي يحبّ الأتراك حبًا جمًا لأن تركيا كانت دولة مستقلة وقوية من بين سائر البلدان الإسلامية، ينظر المسلمون إليها بنظرات عاطفة رغم أنه لا ينطبق عليها اسم

[1] المصدر نفسه، ص 10

[2] المصدر نفسه، ص 94

"الدولة الإسلامية" أو "الخلافة الشرعية". لكنها كانت عمادًا يعتمد عليه المسلمون في جميع أنحاء العالم، وفي رأي شبلي، كانت دولة وحيدة تتجلى فيها أبهة الإسلام ومجده[1]، فكان يعتبرها مهدًا للوحدة الإسلامية. شبّت الحرب بين الروم وروسيا بين 1876م و1878م في الزمن الذي كان شبلي في عنفوان شبابه ولم يلتحق بعلي كره بعدُ، تكاتف العالم الإسلامي مع الأتراك في هذه الحرب وبلغت موجة التحمس ذروتها، وبدأ الناس في الهند كذلك يعبّرون عن عواطفهم تأييدًا لسلطان تركيا عن طريق الكتابة والخطابة، وجمعت التبرعات لإغاثتهم، وكعادة علماء عصره لم يغفل شبلي عن هذه الأوضاع، بل أوقدت هذه الأحوال مزيدًا من نار همّه الكامن لقومه وأمته، فشارك في هذه الحركة منشطًا طماحًا دون ملل أو فتور، وأنشأ لأجلها جمعية عمل نفسه أمينًا لها[2]" وقفى عدة آلاف روبية في مدينته أعظم كره لأجل الأتراك، وأرسلها إلى القسطنطينية بواسطة السفير التركي حسين حبيب الآفندي[3]، وأشهد بذالك على حبّه القومي.

كانت الحكومة البريطانية تعتبر الحديث عن الخلافة أو الأتراك ذنبًا عظيمًا من وجهة نظرها السياسية، وارتكب شبلي هذه الجريمة المزعومة بسبب حبّه لأفكاره القومية وكراهيته للحكومة البريطانية[4]. لم تكن غاية شبلي في تأليف رحلته إلى تركيا علمية وتربوية فقط، بل كانت هناك دوافع وعوامل وراء هذا التأليف، من الممكن أن تقسّم إلى الأبعاد العلمية والتربوية والسياسية. وقد أثرت هذه الأبعاد في حياته القادمة تأثيرًا عميقًا، فكان أول سفير للتضامن الإسلامي كما كان أول زائر إلى الدول الإسلامية بالمقارنة لزعماء القوم الآخرين، وحصل على الجائزة من سلطان تركيا[5]، وبعد هذه الرحلة

---

[1] المصدر نفسه، ص 588

[2] يادگار شبلي، ص 77

[3] حيات شبلي، 95

[4] المصدر نفسه، ص 588

[5] المصدر نفسه، ص 589

ازدادت كراهته للإنجليز سياسيًا، وكان هذا ذنبًا لا يغفر لدى الحكومة البريطانية بالهند، واتهم بأنه أعان سلطان تركيا وعينت الجواسيس لمراقبته[1]، وفي الوقت الذي كان فيه يخاف الناس من ذكر الخلافة العثمانية وحركة الوحدة الإسلامية، عرف شبلي كمبلغ هندي لهما، وصارت الأتراك مركزًا لحبّه واحترامه. يمدح السلطان المعظم قائلًا:

تازگـــــی بـــدر وحنـــین از تـــو هســـت زیـــب وطـــــراز حـــرمین از تـــو هســـت

جـز تـو کـه هسـت اے شـه انجـم سـپاه آں کـــه بـــود شـــرع نـــبی راه پنـــــــاه

فـــــــره دیـــن نبـــوی از تـــو هســـت بـــازوئے اســـلام قـــوی از تـــو هســـت[2]

ترجمة: يتجدد ذكر بدر وحنين بوجودك، وبسببك زينة الحرمين الشريفين ورونقهما.

يا ملك جنود لا تحصى ولا تعد! من سواك يعتبر ملجأ للشريعة الإسلامية.

الدين النبوي مبتسم بوجودك ومسرور به، وساعد الإسلام قوي لأجلك".

كان العلامة شبلي بصيرًا فارسًا بالسياسة الهندية والعالمية فضلًا عن كونه خبيرًا محنكًا لها، إنه كرس بكل لحظات حياته القيمة للأعمال القومية ولو أن هذه المسئوليات لم تمنح له فرصة ليثبت جدارته في السياسية العملية إلا أنه ما كان بمعزل عن الأحداث الراهنة في الهند وخارجها في البلاد الإسلامية، وهل يمكن للرجل مثله أن يغمي العيون عنها مع شعوره العميق لها.

عارض شبلي نظرية السير سيد السياسية رغم أنه كان منتسبًا بكلية علي كره، وشارك في السياسة الهندية والعالمية خلافًا لرغبته، وذلك لأنه كان يحبّ الحرية والاستقلال رأيًا وإرادة، لكنه كان يعترف بعظمة السير سيد وعزته من أعماق القلب رغم اختلافه في الأمور السياسية، وكان يعبر عن ذلك في مقالاته ومنظوماته. ظهرت قضية أرمينيا في فترة بين 94-1895م، وكانت صحيفة من أوربا تنشر ألوانًا من الأباطيل والأكاذيب متهمة بها

[1] مقالات شبلي، 4/6

[2] حيات شبلي، 589

الأتراك لحط مكانتهم في أعين العالم، وبدأت الصحف والجرائد في الهند تنقل مقالات هذه الصحيفة وتنشرها، فلم يصطبر شبلي عليها فنفد صبره فكتب مقالة مسهبة حول قضية أرمينيا ونشرها في 2/فبراير 1896م، وفنّد التهم الموجهة إلى الأتراك وكشف الستار عن الحقيقة[1]. عارضًا أمام العالم الصورة الصحيحة لهذا الأمر، إنه انتقد نقدًا لاذعًا اضطهادات الإنجليز على الأتراك، وذكر تفاصيل الترخيصات التي كان المسيحيون يتمتعون بها وأشار إلى حياد الصحف والجرائد الإنجليزية فانتقدها انتقادًا حادًا. ومن جرأته الإيمانية أنه ما خاف الحكومة وما بالى بها مع التزامه بالسير سيد في علي كره. وخلال قيامه بعلي كره، اندلعت الحرب بين الروم واليونان سنة 1897م فكبت عواطفه مصلحةً، وأما في مجالسه الخاصة فكان يذكر مناقب الأتراك وقصص أبطالهم وتحمسهم الإسلامي في ضوء ما قد قرأ في الصحف والجرائد العربية، وكان يشبه الهزار عندما يلجأ إلى بيان القصص[2].

كان العلامة شبلي مفكرًا عظيمًا، وشغوفًا بقضايا المسلمين، ومضطربًا بأحوالهم. وكان يعتري المسلمين في الهند وفي العالم كله القلقُ الشديدُ، ويصيبهم النكس والهزيمة في كل جبهاتهم، وعلى الصعيد الدولي، كانت قضية تركيا في غاية من الأهمية، وكانت الحكومات الصهيونية تريد الاستيلاء والتغلب عليها، فتتحايل لتحقيق أهدافها الاستعمارية اعتمادًا على قوتها العسكرية والسياسية، وكانت فعلًا تنجح بفضل قوتها العسكرية، وما كان عدوان دول أوربا على الدولة الإسلامية إلا عدوانًا ضد الإسلام، فكانت معارضة المسلمين لهم في الهند من تبعاته اللازمة، وكان العلامة شبلي رجلًا متحمسًا، وكانت الرغبة في الإسلام والقضايا الإسلامية تسري في قلبه، وأحس كالمفكر المثالي بأنه لو فازت هذه القوات في مطامعها للحكم في العالم الإسلامي بأكمله، وسوف تكون حمى الأماكن المقدسة من المستحيل.

---

[1] المصدر نفسه، ص 588

[2] المصدر نفسه، ص 589

وكانت الأوضاع المضادة لتركيا رغم انتهاء الحرب بين الروم واليونان. وما رجع الأمن والهدوء هناك حتى بدأت القوات الصهيونية دسائسها مفاجأة، وهاجمت إيطاليا في 29/ستمبر 1911م على طرابلس بدون حافز[1]، وكافحها ضباط الجيش التركي بقيادة أنور باشا[2] بالشجاعة والبسالة، وتسبب هذا الهجوم في طغيان الغضب والحزن في العالم الإسلامي كما اضطرب مسلمو الهند بهذه الأحداث، وتظاهروا تضامنهم القومي مع الإخوان الأتراك. اهتمّ شبلي بهذا الحادث العظيم، وكان يهدأ عاطفته القومية ببيان القصص البطولية للجيش التركي، أو كما قال السيد سليمان الندوي:

"كلما تجئ الصحف العربية المصرية كل أسبوع، كان يغيب عن كل شئ ما عدا الصحف. فيبين قصص البسالة والشجاعة للأبطال الأتراك بكل شوق، يذكر الضباط الأتراك أمثال أنور باشا وعزيز باشا المصري وغيرهما ممن وصلوا إلى طرابلس مخبئين أنفسهم رغم حصار إيطاليا بينما كانت أرواحهم على أكفهم، وتظهر فيه نخوة الشباب في تلك الشيخوخة وهو يردّد قصص رجولتهم"[3].

ولما أعلنت تركيا عن استقلال طرابلس إثر مفاوضاتها مع إيطاليا، وحمل الشيخ السنوسي وأنور باشا راية حريتها، شاركهما شبلي في الحماس، وأعلن عن دعمه ونجدته لهما، ثم قرأ في الصحف أن أنور باشا يريد أن ينشأ الحكومة الجديدة في طرابلس فاستشعر غاية السرور ودعا تلاميذه، وأخرج النقود من الصندوق، وأرسل واحدًا إلى السوق ليشتري الحلاوي، واستمرت حفلة السرور هذه وقتًا طويلًا[4].

وما انتهت حرب طرابلس التي اندلعت وجرت في أوائل القرن العشرين إلى 1912م، حتى ظهرت غيوم لحرب آخرى على أفق تركيا، ففي أكتوبر 1912م أعلنت الدول البلقانية

---

[1] المصدر نفسه، ص 590

[2] المصدر نفسه، ص 591

[3] المصدر نفسه، ص 591

[4] المصدر نفسه، ص 592

عن الحرب ضد تركيا، وتولت دول أوربا هذه الحرب، وأصابت الحرب والهجومات المستمرة ضررًا لا يتلافى للدولة العثمانية، ووصلت إلى حد أقصى من الضعف، ومارست الأفواج المتحالفة تحت قيادة الإنجليز ألوانًا من الظلم والقهر على الأتراك، يقشعر بها جلود الإنسان إذا قرأ ذلك في التاريخ، ولما أحيط المسلمون في الهند علمًا بهذه الأحداث والوقائع، اشتعلت فيهم العاطفة القومية والإسلامية بصورة متكررة، وطالبوا من حكومة بريطانيا بالشدة والحدة أن تعطل مساعداتها للدول البلقانية وتمنعها من اضطهاد الأتراك، عرض شبلي عواطفه الموجعة أمام الإنجليز كما يلي:

وہ کہتے ہیں کہ ہم کو پاس ہے احساس مسلم کا — مگر اسکا اثر جو کچھ ہے وہ ہندوستاں تک ہے
مگر ہم کیا کریں اس کو عالمگیری ملت — عراق و فارس و نجد و حجاز و قیرواں تک ہے
منافق ہے جو کہتا ہے کہ میں ترکی سے یکسو ہوں — یہ وہ الفاظ ہیں جن کی جہانگیری زباں تک ہے
ہمارا جوش اسلامی انہیں باور نہیں آتا — یہ انداز تغافل جلوہ گاہ امتحاں تک ہے
پڑا سوتا ہے کوئی گنبد خضرائے یثرب میں — کہ جس کا بندہء فرماں زمیں سے آسماں تک ہے
کوئی جاکر یہ کہہ دے ہم گنہگاروں کی جانب سے — کہ اب مسلم کی ہستی تیرے الطاف نہاں تک ہے[1]

ترجمة: هم يقولون: نحن نهتم ونبالي بمشاعر المسلمين، ولكن لا يتجاوز أثر هذه المبالاة حدود الهند.

وكيف نرضى ونطمأن؟ فإن عالمية أمتنا وأخوتنا تتجاوز الهند وتمتد إلى العراق وفارس ونجد والحجاز والقيروان وما إلى ذلك..

ومن المنافقين من يقول: أنا منفصل عن تركيا، لا شأني لي بها. فألفاظه هذه تنحصر فيه ولا وجود لها خارج فمه لأنها تفقد عالمية.

هم لا يصدقون حماسنا الإسلامي ولا يضعونه بعين الاعتبار، ولكن عدم اعتنائنا هذا يلبث فقط إلى ساحة الامتحان.

[1] المصدر نفسه، ص 592

والذي يرقد تحت القبة الخضراء في المدينة المنورة، يطيعه كل ما بين الأرض والسماء.

يا ليتني يذهب أحدٌ نيابة عنا، الآثمين، ويناشده هل وجود المسلم رهين بلطفك الخفي!.

كانت السماء والأرض تهتزان بهذه النائبة التي نزلت على الأتراك، وكلمت هذه النازلة قلوب المسلمين في العالم كله بجروح لا تندمل، وكانت مشاعر المسلمين في الهند وعواطفهم على قمتها وبدأت جذوة للحرية العلنية تشتعل في قلوبهم، فكان من المستحيل أن يبقى العلامة شبلي بمعزل عن كل ذلك. فهل كان هناك أحدٌ يفهم ذلك الألم أكثر منه؟ ويؤلمه الخيال أن المسلم يذلّ في كل مكان، وتمرّ عليه أيام الخزي والعار والهزيمة، وكتب في هذه السنة منظومته الشهيرة (شهر آشوب اسلام) عن فتنة طرابلس والبلقان، أنشدها في حفلة بلكناؤ بلحن مليء بالألم والحرقة، وكانت قد انعقدت هذه الجلسة لجمع التبرعات لتركيا[1] وكانت المنظومة تصوّر القلق الذهني للمسلمين وتثير مشاعر الألم حتى إنه ابتلّت عيون المسلمين في الجلسة بالدموع، فبكى شبلي نفسه وأبكى الآخرين[2]. وإليكم بعض الأبيات من هذه المنظومة:

حکومت پر زوال آیا تو پھر نام ونشاں کب تک — چراغ کشتہ محفل سے اٹھے گا دھواں کب تک
قبائے سلطنت کے گر فلک نے کر دئے ٹکڑے — فضائے آسمانی میں اڑیں گی دھجیاں کب تک
مراکش جاچکا فارس گیا اب دیکھنا یہ ہے — کہ جیتا ہے یہ ترکی کا مریض سخت جاں کب تک
یہ سیلاب بلا بلقان سے جو چڑھتا آتا ہے — اسے روکے گا مظلوموں کی آہوں کا دھواں کب تک[3]

ترجمة: انحلت الحكومة فإلى متى تبقى أحاديثها وبقاياها، وإلى متى يرتفع الدخان من مصباح المجلس الخامد.

ومزّق الدهر رداء الدولة، فإلى متى تطير قطعاتها هذه في جو السماء.

---

[1] كليات شبلي، 59-60

[2] حيات شبلي، ص 589

[3] المصدر نفسه، ص 597

انسلب المغرب وتبعه فارس، والآن نتربّص الأنفاس الأخيرة لتركيا المنازعة"

سيل الآفة هذا الذي يعلو علينا من البلقان، حتى متى يسدّه دخان آهات المظلومين.

وبعد ذلك يخاطب الأقوام الظالمة ويقول:

کوئی پوچھے کہ اے تہذیب انسانی کے استادو — یہ ظلم آرائیاں تاکے یہ حشر انگیزیاں کب تک
یہ جوش انگیزیٔ طوفانِ بیداد وبلا کب تک — یہ لطف اندوزیٔ ہنگامۂ آہ و فغاں کب تک
یہ مانا تم کو تلواروں کی تیزی آزمانی ہے — ہماری گردنوں پر ہو گا اس کا امتحاں کب تک
نگارستان خوں کی سیر گر تم نے نہیں دیکھی — تو ہم دکھلائیں گے تم کو زخمہائے خوں چکاں کب تک
بہ مانا گرمیٔ محفل کے ساماں چاہئیں تم کو — دکھائیں ہم تمہیں ہنگامۂ آہ و فغاں کب تک[1]

ترجمة: من يسأل أساتذة الحضارة البشرية هؤلاء، إلى متى تمارسون أعمال القمع والظلم هذه، وإلى متى تصبّون علينا الشدائد؟

وإلى متى تحمس طغيان الاستبداد والبلاء؟ وإلى متى تلتذون بصخب الآهات والزفرات؟

أقررنا بأنكم تودّون امتحان حدة سيوفكم، ولكن حتى متى تختبرونها على رقابنا؟

وإن لم تزوروا روضة من الدماء، فإلى متى نريكم جروحنا التي تنزف عنها دمائنا؟

ولو تسلمنا أنكم تريدون أسبابًا لزينة حفلاتكم، فإلى متى نمتعكم بضوضاء الآهات والصرخات؟.

وعبّر شبلي فيما بعد عن رأيه، ففكّر أن حروب هذه الأقوام الطاغية ليست سياسية أو قومية في طبيعتها ولكنها دينية بمثابة الحروب الصليبية، ومن الممكن أن نرى صورة هذا الفكر الصائب في خلفية السياسات الدولية في عصرنا هذا، فيتضح لنا كيف ظلت هذه القوات الصهيونية تضعّف المسلمين اقتصاديًا وكيف تحاول بأعمالها الاستغلالية أن تحتلهم وتنهبهم، وما حرب العراق وأفغانستان واحتلال المناطق العربية إلّا جزء من

[1] كليات شبلي، ص 53

الحرب الصليبية، ولكن لا يوجد أحدٌ في عصرنا هذا، يعبّر عن مشاعره بجرأة ويوقظ الأمة مثلما فعل العلامة شبلي، في هذه الخلفية المذكورة، يمكنكم أن تلاحظوا ترجمة بعض الأبيات:

یہ مانا قصۂ غم سے تمہارا جی بہلتا ہے — سنائیں تم کو اپنے دردِ دل کی داستاں کب تک
یہ مانا تم کو شکوہ ہے فلک سے خشک سالی کا — ہم اپنے خون سے سینچیں تمہاری کھیتیاں کب تک
عروس بخت کی خاطر تمہیں درکار ہے انساں — ہمارے ذرہ ہائے خاک ہونگے زرفشاں کب تک
کہاں تک لوگے ہم سے انتقام فتح ایوبی — دکھاؤگے ہمیں جنگ صلیبی کا سماں کب تک
سمجھ کر یہ کہ دھندلے سے نشان رفتگاں ہیں ہم — مٹاؤگے ہمارا اس طرح نام و نشاں کب تک [1]

ترجمة: وأقررنا بأنكم تفرحون بقصة الألم، ولكن إلى متى نقصّ عليكم قصص آلام قلوبنا.

وتسلمنا أيضًا أنكم تشكون إلى السماء الجدبَ والقحطَ، ولكن حتى متى نروي حقولكم بدمائنا.

ولو أنكم تحتاجون إلى الناس لعروس حظكم، ولكن حتى متى ستكون ذرات ترابنا توفّر الذهب لتمويهها.

وإلى متى تنتقموننا من فتح صلاح الدين الأيوبي، وإلى متى تقيمون لنا مشاهد للحروب الصليبية.

وإلى متى تمحون أماراتنا وعلاماتنا زاعمين أننا آثارٌ مدروسة للغابرين.

يزداد يأسه في الجزء الأخير للمنظومة (شہر آشوب إسلام)، فأحس بأن تضامن المسلمين سيتفرق، وستقع الأماكن المقدسة في الخطر، ويضيق مجال حياة الخادمين، أشار إلى مشاعره وأحاسيسه في هذه الأبيات:

پرستاران خاک کعبہ دنیا سے اگر اٹھے — تو پھر یہ احترام سجدہ گاہ قدسیاں کب تک
جو گونج اٹھے گا عالم شور ناقوس کلیسا سے — تو پھر یہ نغمۂ توحید گلبانگ اذاں کب تک

[1] المصدر نفسه، ص 53-54

بکھرتے جاتے ہیں شیرازہ اوراق اسلامی — چلیں گی تند باد کفر کی یہ آندھیاں کب تک
کہیں اڑکر نہ دامان حرم کو بھی یہ چھو آئیں — غبار کفر کی یہ بے محابا شوخیاں کب تک
حرم کی سمت بھی صید افگنوں کی جب نگاہیں ہیں — تو پھر سمجھو کہ مرغان حرم کے آشیاں کب تک
جو ہجرت کرکے بھی جائیں تو شبلی اب کہاں جائیں — کہ اب امن و امان شام و نجد و قیرواں کب تک[1]

ترجمة: لو قضي على العباد الذين يحترمون الكعبة، فإلى متى يبقى الاحترام لهذه الأماكن المقدّسة؟.

وإذا تتردد صدى جرس الكنيسة عبر العالم، فحتى متى تبقى نغمة التوحيد وترنم الأذان.

لم تزل الأوراق لكتاب الأمة الإسلامية تتبعثر، فإلى متي تجري هذه العواصف لرياح الكفر؟

يخشى من أن يمسّ أنواع الهتك الجبارة لغبار الكفر ذيلَ الحرم فإلى متى يرتفع هذا الغبار الظالم؟

وحين ينظر الصياد إلى الحرم حرصًا عليه، فإلى متى تبقى أوكار طيور الحرم حصينة؟

فلو فضّلنا الهجرة فأيّ المهاجر نختاره يا شبلي؟ لأن أمن وأمان الشام ونجد والقيروان كادا أن يلفظا أنفاسهما الأخيرة.

كان شبلي يعتبر هزيمة الأتراك هزيمة جميع الأمة الإسلامية وانحلالها، ويعتبر ترجيح إغاثة الإخوان الأتراك بدرجة أولى من واجباته القومية والإسلامية، وقام مع الأتراك عن طريق هذه الجهود المشكورة، فشارك مسلمي الهند في نشاطاتهم العملية لأجلهم، وإذا غادرت مجموعة من الأطباء تحت قيادة الدكتور مختار أحمد الأنصاري (1880-1936م) إلى تركيا في نوفمبر 1912م، وكانت تشتمل أيضًا على مندوبي طلبة علي كره[2]، فهل يقدر

[1] المصدر نفسه، ص 54

[2] المصدر نفسه والصفحة ذاتها

العلامة شبلي أن ينسى هؤلاء الشبان، فما جرى له مع هؤلاء الشبان شاهد على حبّه العميق، يقول السيد سليمان الندوي بهذا الصدد:

"كان الدكتور مختار أحمد آنذاك فتًى، والعلامة شيخًا، وكان المنظر عجيبًا، وما رأت العيون هو أن الدكتور الأنصاري كان ذاهبًا في طريقه من لكناؤ إلى دلهي، وبعض الوجهاء من لكناؤ كانوا موجودين لوداعه، وحان وقت تحرك القطار، وفي ناحية، العلامة واقف على المحطة، وفي ناحية أخرى، الدكتور يقف على باب الغرفة وهو يسلّم على الجميع، إذ حنى فجأة رأس العلامة الذي لم يحن حتى أمام الجبابرة الكبار على حذاء الدكتور الأنصاري، وغسل غبارها بدموعه، وقبّلتها الشفتان، وتحرك القطار مقلًا فيه هذه الدرر الثمينة من الغيرة والحمية الإسلامية"[1].

وخدم هؤلاء الشبان الشجعان إخوانهم الأتراك المظلومين خلال قيامهم في تركيا، وبذلوا أقصى الجهود لمداواتهم وتوفير المرهم لهم، وقدّموا لهم المساعدات المالية والأخلاقية، ووجد في قلوبهم حبّ مسلمي الهند، وأحسوا بالسلوان والطمأنينة. تأثر شبلي بالعاطفة القومية والأعمال الجليلة التي قام بها هذا الوفد، ولما عاد الدكتور الأنصاري مع زملاء وفده، كان العلامة بالمصادفة موجودًا في بومبائ، وحضره للترحيب به، وأقبل على الدكتور لتقبيل قدميه، فاعتذره الدكتور مانعًا له عن ذلك، فقال شبلي: هاتان ليستا قدميك، بل هما القدمان لجسد الإسلام البائس"[2].

عبّر شبلي عن حنانه وحرقته في أسلوبه الجذاب في حفلة ترحيبية انعقدت بمناسبة عودة هذا الوفد، وذرفت عيون الحضور دموعًا حينما سمعوا إليه، نستطيع أن نقّدر مشاعره القلبية بسهولة في هذه الأبيات:

ادا کرتے ہیں شکر جناب حضرت باری کہ آئے خیریت سے ممبران وفد انصاری

[1] مجلة "البصير"، يونيو-ديسمبر، 1997م/20

[2] حيات شبلي، ص 597

ہزاروں کوس جاکر بھائیوں کی تم نے خدمت کی — یہی تھا درد اسلامی یہی تھی رسم غمخواری
نگاہ حسرت آلود عزیزان کی سنال بازی — فغان سینہ ریشاں محبت کی شرر باری
مگر اک جذبہ اسلام نے سب کو شکستیں دیں — کہ سب کو چھوڑ کر پہونچے وہاں با ایں گراں باری
تمہارا ناز اٹھائیں اہل ملت جس قدر کم ہے — کہ تم نے غازیان دیں کی کی ہے نازبرداری
تمہارے سامنے موتی کی لڑیاں بوت سے کم ہیں — کہ دیکھ آئے ہو تم ترکی یتیموں کی گھرباری[1]

ترجمة: نشكرالله تعالى على أن وفد الأنصاري قد عاد مع السلامة.

لقد سافرتم أميالًا لخدمة إخوانكم، كان هذا هو الوجد الإسلامي، وهذا هو معنى المؤاساة.

ولو صدّكم طعنات من نظرات الأحبة الحاسرات، والشرار من صرخات أصحاب الصدور المكلومة بالحب.

ولكن تغلبت العاطفة الإسلامية بمنفردها على كل هذه، فتركوا كلها، ووصلوا إليها رغم هذه الأثقال المثقلة من المسؤليات والأوهام.

ولو أكرمكم أفراد هذه الأمة كثيرًا فلن يقدروا على أداء حقوقكم، لأنكم خدمتم غزاة الدين المجاهدين.

قلائد الجواهر المعروضة في حضرتكم أقل قيمة من حجرة؟، لأنكم قد عدتم الأيتام الأتراك ورأيتم دموعهم كالدرر فسلّيتموهم عن همومهم.

مع كل ذلك لم يقطع شبلي الرجاء، كانت شرارة الأمل باقية في قلبه، وكان يرجو أن يظهر المدّ يومًا من الأيام في جزر هذا البحر ويعيد تقلب الدهر مجد المسلمين ووقارهم إليهم، يقول:

سہارا ہے اگر امید کا اب بھی کوئی باقی — تو تم نے وہ رموز قوت مکنوں بھی دیکھے ہیں
عجب کیا ہے یہ بیڑا غرق ہو کر پھر اچھل آئے — کہ ہم نے انقلاب چرخ گردوں یوں بھی دیکھے ہیں

[1] المصدر نفسهوالصفحة ذاتها

دعائے کہنہ سالاں ہے اگر مقبول یزدانی تو اب دست دعا ہےاور یہ شبلی نعمانی[1]

ترجمة: وإن وجد لنا رمق باق للأمل، فإنكم قد رأيتم معالم لتلك القوة المكنونة.

لا نستبعد أن يرتفع هذا الأسطول بعد غرقه، لأننا قد رأينا مثل هذه التقلبات للدهر في الماضي، التي رفعت الأسفل إلى الأعلى.

لو يقبل الله دعاء الشيوخ الهرمى، فها أنا شبلي النعماني (العجوز) ويداي هاتان مرفوعتان للدعاء.

كان العلامة شبلي مستعدًا دائمًا لإعانة الأتراك لحبه الشديد لهم، وفي هذا الإطار، إنه اعتمد على اجتهاده في الفقه وعلى المرويات فأصدر فتوى في جواز إغاثة الأتراك بدلًا من أضحية عيد الأضحى واتفق المفتي عبد الله التونكي والشيخ عبد الباري الفرنكي محلي مع رأيه[2]، ولكن لم يوافق بعض العلماء على هذا الرأي، وكان منهم الشيخ ظفر علي خان الذي قرأ علي العلامة شبلي واستفاد منه في زمن علي كره[3]. وكتب إليه شكوكه وشبهاته[4]، وأوضحها العلامة شبلي في رسالة مؤرخة في 16/نوفمبر 1912م هكذا:

"أيها الأخ! إغاثة الأتراك فرضُ عين في هذا الزمان، وأما الأضحية فلا تزيد على كونها واجبة، وأنت تخشى أن تتعطل السنة الإبراهيمية، ولكن أردنا بذلك (الإغاثة) السنة نفسها، أما الفارق فهو أنت تأخذ السنة التي أجريت على الكبش وأما أنا فأعتبر تلك التي قصد بها إسماعيل، فهل أرواح الأتراك أقل قيمة من الكبش"[5].

نشر العلامة شبلي هذه الرسالة في الصحف في 17/نوفمبر 1912م، وأشاع هذه الحركة في الهند على نطاق واسع، ونجح إلى حد كبير فيها، وجمع التبرعات التي بلغت الآلاف من الروبية، وأرسلها للأتراك، وظل يشجع على ذلك بمنظوماته وخطبه، وبقي أثر هذه

[1] كليات شبلي، ص 55

[2] المصدر نفسه، ص 56

[3] حيات شبلي، ص 600

[4] مكاتيب شبلي، 242/1

[5] حيات شبلي، ص 600

المجهودات التي قام بها شبلي في قلوب الناس إلى فترة طويلة، و أحس بالسكينة لما قرأ في الصحف أن الأتراك كانوا قد انسحبوا في هذه الحرب إلى "أدرنه" حتى انسلّت "أدرنه" أيضًا من أيديهم، ولكن ظهرت الظروف ملائمة في الأخيرة وتمكنوا من استيعاد هذه المدينة التي كانت عرشًا أولَ لهم في أوربا، وسرّ المسلمون بهذا الفتح غاية السرور[1]، وأنشد العلامة في 8/دسمبر 1912م بمناسبة هذا السرور هذه الأبيات ترحيبًا:

اے ترک! اے مجسمہ کبریائے حق — اے وہ کہ جس پہ عالم ہستی کو ناز ہے
پشت و پناہ ملت ختم الأمم ہو تم — تو آج زور بازوئے شاہ حجاز ہے
رنگین ہے تیری تیغ سے ہر صفحۂ وجود — مغرب ترا ہے عرصہ گہ ترک تاز ہے
تونے دکھادیا کہ تری تیغ جانستاں — اب بھی فنائے ہستی دشمن کا راز ہے
رنگین جو ہے مرقع عالم کا ہر ورق — شمشیر تیری خامۂ رنگین طراز ہے[2]

ترجمة: أيا تركيا! أيا مظهر كبرياء الحق من الرأس إلى القدم، ويا من يفتخر بها الكون.

أنت ملجأ أمة خير البشر ومأواها، وأنت اليوم قوة سواعد الرسول صلّى الله عليه وسلّم.

وكل صفحة للوجود مخضرة بسيفك، والغرب ليست إلا ساحة لجريان حصانك في الوغى.

وقد أثبتت أن سيفك البتّار ما زال يضمر سرّ فناء العدو.

ولو أن كل صفحة للعالم ملونة مزرقشة بسيفك، وهو حقًا القلم الرسّام بالألوان.

كان العلامة شبلي يعتبر فتح الدولة التركية انتصار جميع الأمة، وكان له حبّ واحترام عميق للأقدار الإسلامية والإسلام نفسه، ويحب تقدم وعلوّ المسلمين على الصعيد الدولي، أفكاره القومية كانت بمثابة مرآة لأفكاره السياسية، وظهر شعوره القومي بسبب بغضه للإنجليز الذين لم تسلم الهند ومسلموها من مؤامراتهم، فتوجد لديه عاطفة حبّ

[1] مكاتيب شبلي، 342/1

[2] حيات شبلي، 601

الوطن والوطنية في كل المواضع، وكانت تجبره هذه العاطفة على المشاركة مع إخوة الوطن في العمل[1]، وينبغي أن تكون الحكومة بأيدي أبناء البلد.

كان العلامة شبلي لا يمتنع عن التفكير في القضايا الوطنية، مع أنه لم يكن رجلًا سياسيًا، ولكنه كان مضطرًا لأجل قلبه الرقيق إلى العمل مثل الوطنيين الآخرين، على الأقل، بكتابته وخطابته، ولم يستطع أن ينفصل عن ذلك، فاجتهد لأجل إثارة اليقظة السياسة والفكر في المسلمين، يقول الشيخ طفيل أحمد المنغلوري:

"حتى الآن أتت أسماء المثقفين الجدد فقط من بين من شاركوا في الأعمال السياسية، ولكن من الصدفة الغريبة أن المسلمين لما دخلوا في السياسة الطائفية، أصبح نصيب المتعلمين على المنهج القديم أبرز فيها، وهم الذين جاهدوا بجدية للإخراج من مستنقع الطائفية، ويأتي اسم الشيخ شبلي في صدر القائمة"[2].

هو أول شخص أثبت قوة قلمه في القضايا القومية والسياسية، وأدلى برأيه أمام الشعب بحرية، ومن شواهد شعوره السياسي أنه رغب في القضايا الراهنة السياسية، ودعا إلى الديموقراطية، وأيّد الكونغرس (حزب المؤتمر الهندي)، وكتب مقالات ومنظومات حول الاتحاد بين المسلمين والهندوس كما كتب أيضًا حول مطالب حزب الرابطة الإسلامية السياسية ومصالحها. وكان في الهند داعيًا إلى التضامن الدولي الشامل، وعرض عدة مسائل قومية مثيرة مثل إلغاء تقسيم البنغال، ووقعة مسجد كانفور، ومسألة الأوقاف والعطلة لصلاة الجمعة أمام الحكومة مبرهنة بالدلائل، وأقنع بها المسؤلين إلى حدّ كبير[3].

كانت أفكار شبلي تماثل بشكل كبير مع الكونغرس، وكان يؤيد الحرية إلى حد كبير ولا يحب سلطة الإنجليز، ويريد من الشعب وخاصة من المسلمين، أن ينضموا إلى الكونغرس

---

[1] كليات شبلي، ص 59

[2] مجلة "البصير"، ص 81

[3] روح روشن مستقبل، ص 63

ويؤدوا دورهم المهم في تحرير البلاد، وكانت له منقاشات مع السير سيد أحمد تجري بين الحين والآخر، وقال لهاري لال شاكر الميرتي رئيس التحرير لـ"أديب" مجيبًا عن سؤاله:

"كنت دائمًا حرًا مستقلًا في آرائي، وصحبت السير سيد أحمد ست عشرة سنة، ولكنني خالفته دائمًا في المسائل السياسية وأحببت الكونغرس وناظرت السير سيد"[1].

كان العلامة شبلي يحبّ الكونغرس منذ البداية، ويؤيد تحرير الهند، وأنشأ الكونغرس سنة 1885م، وساد البلادَ جوٌّ جديد، ففي جانب كان السير سيد معارضًا للكونغرس، وفي جانب آخر كان شبلي النعماني يقدم الحجج القاطعة في حق هذا الحزب، وهذا هو نفس العصر الذي رأى أمثال الشيخ رشيد أحمد الجنجوهي وشيخ الهند محمود الحسن وغيرهما من العلماء الثوريين الذين كانوا يبغون حكومة الشعب في الهند، ولذلك التحقوا بالكونغرس لإيذاع آراء هذ الحزب ونظرياته، وكان الحزب في مراحله الابتدائية، فشعر شبلي أيضًا بأنه لا تغادر الحكومة البريطانية الهند حتى تتضامن كل الفصائل على المحطة الواحدة للمقاومة الدائبة لها، ولذلك أشاد بأعمال الكونغرس وانتقد الأحزاب الطائفية نقدًا حادًا[2].

كان شبلي يتصور النظام الديموقراطي نظامًا كاملًا، وكان دائمًا من رواده، وفي أثناء قيامه بعلي كره، ألقى خطابًا مؤثرًا في تأييد النظام الديموقراطي، رغم أن الحديث عن الديموقراطية والاستماع عنها كانا يعتبران جريمة، فوافقت الطلبة على آرائه[3]، ولم يحبّ السير سيد هذا الرأي، وكتب مقالة طويلة عارض فيها النظام الديموقراطي معارضة شديدة، ونشرها في 28/يونيو 1892م في جريدة رسمية لمعهد علي كره[4]. وكان شبلي يتصور النظام الإسلامي نظامًا ديموقراطيًا كاملًا، لأن الديموقراطية تبنى على المساواة،

---

[1] مقالات شبلي، 4/6

[2] مجلة معارف، نوفمبر، 1923م/610

[3] مجلة "البصير"، ص 181

[4] حيات شبلي، ص 140

ولا يوجد موضع للمساواة أكثر مما في الإسلام، ولما أجريت تعديلات في الدستور في تركيا سنة 1908م، وصارت بموجبها الدولة التركية حكومة ديموقراطية، سرّ شبلي بها أيما سرور[1] وألقى المحاضرة المؤثرة في علي كره في 21/فبرائر 1913م تحت العنوان 'الإسلام ديموقراطية جيدة لكونه دينًا كاملًا[2].

أثبت العلامة شبلي بصيرته السياسية لما تم تقسيم البنغال إلى الجزأين على يد اللورد كرزن، وخالف جميع الفصائل هذا التقسيم في البداية، وانتهز اللورد كرزن الفرصة بهذه المناسبة لتعميق هوة الخلاف السياسي والديني بين المسلمين والهندوس، وقال في "داكه" في 11/مارس 1908م في حفلة عظيمة وكان يخطاب المسلمين: لم يكن الغرض من تقسيم البنغال التخفيف في إدارة الأمور، بل إيجاد محافظة إسلامية بأغلبية المسلمين، واقتنع كثير من زعماء المسلمين بهذا المقترح، ولكن السياسيين الهندوسيين استنكروا قبوله، وأخذ الكونغرس يعارضه، واعتبرها مترادفًا لمحاولة فك الاتحاد بين الهندوس والمسلمين، وألغى القرار فجأة سنة 1911م وأعلن عن الإلغاء بمناسبة اجتماع دلهي، وكان من الطبيعي أن يجرح المسلمون بهذا الإعلان، ورحّب بعض أعيان الناس مثل السير آغا خان بهذا القرار، ولكن مؤسس حزب الرابطة الإسلامية النواب وقار الملك اعتبره نقضًا للوعد مع المسلمين، وتألم العلامة بهذا الحادث، إنه عاب على الحكومة بواسطة مقالاته وخطبه على ذلك، وانتقد نظريات خاطئة لحزب الرابطة الإسلامية، وكتب المقالات تحت العنوان "تقلب المسلمين السياسي"، وكانت هذه المقالات مدلّلة ومؤثرة إلى حدّ أن السيد سليمان الندوي علّق عليها قائلًا "إنها صرفت المسلمين من شملة (الوجهة الخاطئة) إلى القبلة (الوجهة الصحيحة)"[3].

---

[1] شبلي کی علمي وادبي خدمات، ص 160

[2] حيات شبلي، ص 590

[3] شبلي کی علمي وادبي خدمات، ص 173

قرّر شبلي في مقالته أن تقسيم البنغال كان بسبب التفكير السياسي الخاطئ للمسلمين وتحيز زعمائهم للحكومة، ويرى أنه ينبغي للمسلمين أن يرفعوا مطالبهم إلى الحكومة متعاونين مع الكونغرس، وكان من الممكن أن يظفروا بمطالبهم إذا تعاونوا لذلك، ولكن لم يتفق زعيم الرابطة النواب وقار الملك مع رأي العلامة شبلي بأن ينضمّ المسلمون إلى الكونغرس، وكتب في مقالة طويلة وأشار فيها أن المسلمين لو انضموا إلى الكونغرس سيفنى وجودهم، وقال شبلي النعماني ردًّا على هذه المقالة:

"كان من المحتمل أن توصف مقالة جريئة جادة للنواب وقار الملك صوت مسلم باسل، لو لم يمتزج معها المنطق الناقص، وهو قوله "إن انضممنا إلى الكونغرس ليفنى وجودنا كما يفنى نهر صغير في البحر"، لو أمكن لمجموعة ألفٍ من المجوس أن يحتفظوا بوجودهم بين تسعين ومائة مليون هندوسي وخمسين مليون مسلم؛ ولو أمكن لدادا بائي نوروجي أن يكون عضوًا للبرلمان مقابل عموم الهند؛ ولو أمكن لكوكلي أن يقوم بتأسيس حركة إصلاحية واسعة النطاق فردًا؛ فلا ينبغي لخمسين مليون مسلم أن يخشوا على وجودهم"[1].

كل ما أراد شبلي أن يشير إليه في مقالاته هو أن يقدم للمسلمين رأيه الصائب حول تضامنهم ونصيبهم في السياسة، إنه رفع صوته ضد الناس الذين كانوا يحاولون انضمام المسلمين إلى حزب الرابطة، ويفصلهم عن طائفة الأغلبية، وأراد أن يوضح للمسلمين أن زعماء الرابطة الإسلامية يعوزهم الإحساس القومي والعاطفة للأمة والشعور السياسي. وقد كتب:

"السياسة شعور قومي شديد، ولا يظهر عن طريق القسر والإكراه، بل إذا نشأ هذا الإحساس في القلب فيشرع القلب والدماغ والأعضاء أعمالهم له، وتتولد به عواطف للجد والسعي والكفاح والإيثار والتفاني تلقائيًا"[2].

ويقول في موضع آخر عن قلة الإحساس السياسي في الرابطة حيث كتب:

---

[1] حيات شبلي، ص 614

[2] مقالات شبلي، 6/137-138

"سلوك حزب الرابطة يدلّ على أن صوته مصطنع وخارجي"[1].

هكذا نرى أن العلامة شبلي يتعاون مع القوات التقدمية المهمة في الكفاح القومي، وكان يعارض تفرقة السياسة بالطائفية بين المسلمين والهندوس بغية الحصول على الهدف العظيم (الحرية)، ودعا المسلمين إلى السياسة، وكان من بين المسائل التي أشار إليها في مقالته (تقلب المسلمين السياسي) مما يلي:

1 ينبغي للمسلمين أن يوافقوا على الكونغرس ويتعاونوا مع الهندوس للحصول على أهداف الكفاح القومي.

2. أجاب العلامة لبعض زعماء المسلمين مفصلًا عما قالوا أن هوية المسلمين ستفنى بالمقابل للهندوس لو انضموا إلى الكونغرس.

3. ينبغي للمسلمين أن يتجنبوا النعرات مثل "على المسلمين اكتساب الأهلية للسياسة"، و"ما حان الوقت للعمل السياسي" و"حتى الآن نحتاج إلى التعليم فقط"، و"النظام النيابي غير المناسب لنا لأننا قليل عددنا"، وأن يشتركوا في السياسة وأن يطالبوا حقوقهم بالجرأة غير خائفين.

4. ينبغي أن لا نبالي بسياسة الحكومة، ولو بقي فينا أي أثر لعزة النفس، فلا بد أن نُري الحكومة أن تسلطها على أجساد الناس ولا يمكن أن يتجاوز هذا التسلط علي آراءهم.

5. يجب أن نتبنى تلك الأهداف التي يعتمد عليها مصير الهند النهائي.

انتقد العلامة شبلي حزب الرابطة من ناحية، ولكنه، من ناحية أخرى، أسدى لهم نصائح مفيدةً، منها أنه عليهم أن يوسّعوا عضويته لعامة الناس، وأن لا تقصروها على الطبقة الخاصة، وأن يوسّعوا دستوره وأهدافه، وأن لا يقصروه على نيل الضمانات بل يشملوا هدف تقرير المصير للهند وجميع القرارات التي أقرّ بها الكونغرس بالإضافة إلى القرارات التي توجد فيه عن المسلمين.

[1] المصدر نفسه، ص 154

تهيج المسلمون المثقفون بهذه النظريات، حتى أحس حزب الرابطة بضرورة الإصلاح فيه، والمقالات التي كتبها في هذا الإطار كانت سببًا لمقاربة الكونغرس والرابطة بعد محاولات أعيان من المسلمين، وظهر ذلك في صورة معاهدة لكناؤ في دسمبر 1916م[1].

هذا، وللعلامة شبلي سهم وافر في إبراز مسائل المسلمين القومية والسياسية على المستوى الحكومي وإيقاظ المسلمين سياسيًا. كان حادث مسجد كانفور بأغسطس 1913م حدثًا عظيمًا، وقد هدّم جزء خارجي لمسجد واقع في سوق الأسماك بكانفور بواسطة قاضي المدينة لأجل توسيع الطريق، فسرت موجة الغضب والألم في المسلمين، وبدأوا تشييد الجزء المنهدم لهذا المسجد، وشق هذا على سلطات المديرية، وأطلق نائب مفوّض الشرطة بتلر الرصاص على المسلمين المعصومين، واستشهد عدد كبير من المسلين، أضافت السلطات ظلمًا إلى ظلم حين ألقوا القبض على المسلمين واتهموهم بنقض الأمن، وأثّر هذا الحادث على قلوب المسلمين وأذهانهم تأثيرًا عميقًا، وأدان جميع الناس أيًا كان دينهم أو فرقتهم، بهذا الحادث، وخرجوا مظاهرين، وأبدوا مشاعرهم للحكومة، ما كان لشبلي أن يهمل ذلك، ومع أنه كان مقيمًا بمومبائ إلا أنه شارك في الحركة والمظاهرة، وكل من يقرأ عن التأثير الذي تركه خطاباته ومنظوماته الرائعة على قلوب المسلمين، تنهمر دموعه من عينيه، وله منظومة بعنوان "نحن قتلى معركة كانفور"، ومن أبياتها:

کل مجھ کو چند لاشۂ بیجاں نظر پڑے — دیکھا قریب جا کے تو زخموں سے چور ہیں
کچھ طفل خورد سال ہیں جو چپ ہیں خود مگر — بچپن یہ کہہ رہا ہے کہ ہم بے قصور ہیں
آئے تھے اسلئے کہ بنائیں خدا کا گھر — نیند آگئی ہے منتظر نفخ صور ہیں
کچھ نوجواں ہیں بے خبر نشہ شباب — ظاہر میں گرچہ صاحب عقل و شعور ہیں
اٹھتا ہوا شباب یہ کہتا ہے بے دریغ — مجرم کوئی نہیں ہے مگر ہم ضرور ہیں[2]

[1] المصدر نفسه، ص 155

[2] حيات شبلي، ص 628

ترجمة: رأيت بالأمس أجسامًا خامدة لا حركة لها، فقربت منها فإذا هي مصابة بالجروح والكلوم.

ومن بينها أطفال صغار السن، وهم صامتون، ولكن طفولتهم تشهد أنهم لا ذنب عليهم.

قد جاءوا ليبنوا بيت الله، فرمشت عيونهم نيامًا، وينتظرون نفخ صور الحشر.

وأيضًا فيها شبان غافلون في سكرة شبابهم، ولو أنهم يبدون أربابًا للعقول.

ولكن فتوتهم الراهقة تجسر قائلة: إن لم تجدوا جانيًا، فها نحن جناة لا محالة.

وكتب منظومات أخرى تتعلق بهذا الحادث، وعناوينها: ضجة مسجد كانفور، والعلماء المسجونون، وأنتم غير الظالمين مرحبًا! نحن مظلومون، خطاب بلدية كانفور إلى سوق الأسماك بكانفور، وقطرات من الدم، ومكبلو كانفور، ووفد مسجد كانفور، وردّ السير جيمس مستن.

وكانت مسألة "الوقف على الأولاد" مسألة قومية مهمة في عصره، وخطى السير سيد خطوة أولى إليها، فقدّم مسودة القانون خلال عضويته للمجلس التشريعي باسم "الوقف العائلي"، ولكنه أخفق في إرضائها[1] ورفع العلامة شبلي لواءه فيما بعد، وصاغ اقتراحًا وقدّمه في جلسة عامة للمجلس التنفيذي في حضور العلماء بمناسبة تأسيس ندوة العلماء بنوفمبر 1908م، ونال الرضى عن هذا المقترح في الجلسة المفتوحة، وتحرك المسلمون في مسألة "الوقف على الأولاد"، ونال شبلي دعم زعماء الشيعة والهندوس عن هذا المقترح، وقبلت الحكومة أيضًا هذا المقترح وقبل المجلس التنفيذي إثر مبادرة السيد محمد علي جناح فصاغ من هذا المقترح قانونًا[2].

وكما فعل بـ"مسألة الوقف على الأولاد" بدأ التفكير عن "الأوقاف الإسلامية العامة"، وأحس بضرورة تنسيق أموال الأوقاف وممتلكاتها تنسيقًا جميلًا لما رآها عاطلة لا تستخدم للأعمال القومية، وقد أرسلت المنظمات الإسلامية وحزب الرابطة اقتراحاتها إلى

---

[1] كليات شبلي، ص 77

[2] حيات شبلي، ص 538

الحكومة ولكن لم يكتب لها النجاح كما يرام، ولكن العلامة شبلي بدأ هذه الحركة من يناير 1914م فنشرت الحكومة تذكيرًا عن الأوقاف في فبرائر 1914م، واستمرت الحركة بعد وفاته إلى الأمام، وفكرت الحكومات للأقاليم الشتى عنها وبدأت صياغة القانون.

واهتم أيضًا بمسألة العطلة لصلاة الجمعة، وعرضها للحكومة كما عرض مسألة "الوقف على الأولاد"، وقدم تصميم القرار عن هذه المسألة في الجلسة السنوية لندوة العلماء بلكناؤ سنة 1913م[1]، وأعطى هذه الحركة شكلًا عمليًا، واعترفت بهذا القرار عديدٌ من الحكومات على الفور، وأعلنت عطلة للمسلمين لفترة صلاة الجمعة.

لو ندرس أفكار العلامة شبلي ونظرياته المذكورة أعلاه، يصبح من مقدورنا أن نقدّر آراءه عن الأحداث والقضايا المتعلقة بالمسلمين جيدًا سواء أ كانت على المستوى الوطني أو على المستوى الدولي، وأن نقدر أيضًا كيف منح هذه الآراء صور الحركات، وعمل لها في الصف الأول، كل هذه الأشياء تشهد ببصيرته السياسية والقومية وبشعوره الإسلامي الملهوف، ولا ريب أن العلامة نجح إلى حد كبير في إنهاض الحماسة واليقظة في قلوب المسلمين.

[1] مقالات شبلي، 40/6

المصادر والمراجع

1. خليق أنجم: شبلي کی علمی وأدبی خدمات (خدمات شبلي العلمية والأدبية)، أنجمن ترقی أردو، نيو دلهي، 1996م
2. س.م. إكرام: يادگار شبلی (ذكرى شبلي)، إداره ثقافت، لاهور، 1992م
3. السيد سليمان الندوي: حيات شبلی (ترجمة شبلي)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، ص 1993م
4. طفيل أحمد المنغلوري: روح روشن مستقبل (روح المستقبل الزاهر)، نظامي بريس، بدايون، 1944م
5. العلامة شبلي النعماني: مكاتيب شبلی (رسائل شبلي)، دار المصنفين، 1922م
6. العلامة شبلي النعماني: كليات شبلی (مجموعة قريضه الأردوي)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1987م
7. العلامة شبلي النعماني: مقالات شبلی، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2000م
8. مجلة "البصير" الشهرية الصادرة عن باكستان
9. -مجلة "معارف" الشهرية الصادرة عن دار المصنفين، أعظم كره، الهند

مساهمة العلامة شبلي النعماني

في تطوير الفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية

- الدكتور غظريف شهباز الندوي

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري

يعتبر العلامة شبلي النعماني من كبار علماء الإسلام، ولكونه بارعًا في العلم والمعرفة وسعة فكره ونظره، وحبّه للفكر السليم وإطلاعه الواسع يعدّ من عظماء العلماء. وقد ترك في إرثه العلمي أدبًا إسلاميًا حيًا رفع منزلته العلمية والفكرية بالرغم من محاولات قمعه. ومع أن العلامة شبلي يشتهر لكونه كاتبَ سيرة ومؤرخًا وأديبًا إلا أنه كان متبحرًا في علوم القرآن والحديث والفقه. وله دور بارز وملحوظ في تطوير الفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية. ونستعرض في السطور التالية تفاصيل ذلك.

لقد اعتبر الإنجليز المسلمين مصدر وأساس التمرد ضدهم في عام 1857م. وأنزلوا بهم ألوانًا من الظلم والاستبداد، وحاولوا بكل جهد أن يعزلوا المسلمين عن المناصب الأساسية والرئيسية حتى لا يبقى خطر في المستقبل. وقام الإنجليز بإيقاف نظام الأوقاف الذي كان العمود الفقري لنظام تعليم المسلمين بجرة قلم مما أدّى إلى قمع التعليم الإسلامي التقليدي. قاموا بإنهاء نظام الحكم الإقطاعي وبذلك أصبحت الحالة الاقتصادية لجزء كبير من تلك الطبقة في خطر. وقد ضاع من أيديهم السياسة والاقتصاد والتعليم. وتولد لدى المسلمين في هذه الحالة المضطربة إحساس بالعجز، حيث كان الماضي المجيد وآثار العظمة الإسلامية في كل بقعة من الأرض في جهة، أما في الجهة الأخرى فكانوا يعانون من الضعف الاقتصادي والتخلف في مجال التعليم وإحساس شديد بالقمع من الناحية النفسية. وفي هذه الأحوال أحس السير سيد أحمد

خان بحاجة المسلمين إلى تتبع طريق جديد بالحصول على التعليم الحديث والعلوم الجديدة حتى يحجزوا لأنفسهم مكانة في هذه الأحوال المتغيرة. وإن لم يفعل السير سيد ذلك في ذلك العصر لم يكن من الممكن أن تتغير ظروف المسلمين. وقد فعل ما كان سيفعله أي زعيم عظيم. أنشأ في عام 1857م في عليكرة كلية أورينتل الإنجليزية المحمدية التي أصبحت المركز الأول للحياة الاجتماعية للمسلمين في شبه القارة الهندية. وقد ولد العلامة شبلي النعماني عام 1858م حينما كان عمر السير سيد 40 عامًا[1].

حصل العلامة شبلي على التعليم التقليدي من اللغة والأدب العربي والفقه والحديث والعلوم القرآنية من الأساتذة البارعين في عصره[2]. وقد نهل من فيوض أمهر العلماء في علوم وفنون الإسلام من تشرياكوت ورامفور ولاهور وسهارنفور. وقد تفوق على معاصريه بسبب سعة إطلاعه وفكره الاجتهادي وذهنه الأخاذ ومهارات التأمل والتفكير. انتقل شبلي إلى عليكره عام 1882م حينما كان عمره 25 عامًا وارتبط بالسيد أحمد خان. التحق بالكلية وتأثر بأفكار سيد أحمد. وقد اعترف السيد أحمد بحنكة شبلي[3]. مكث شبلي في عليكره لمدة 16 عامًا استفاد خلالها من عليكره وأفاد بعد ذلك حركة النشأة الثانية الإسلامية. وقد ألف في هذه الفترة "المأمون" و"سيرة النعمان" وكتب كثيرًا من المقالات الرائعة. وفي عام 1892م زار كثيرًا من دول العالم الإسلامي وألّف كتابًا لبيان أحوال هذه الرحلات. وقام بأداء فريضة الحج وعمره 18 عامًا. وقد عاش شبلي في

---

[1] معاصر أدب، ص 154

[2] تلقّى العلامة شبلي العلوم العقلية والأدب والفارسية على العلامة محمد فاروق التشرياكوتي كما تلقّى الفقه وأصوله على الشيخ إرشاد حسين الرامفوري وكذا تلمذ على علماء ديوبند.

[3] قال السير سيد عن العلامة شبلي بالنسبة لكتابة "الفاروق": لو كتب عشرة رجال في موضوع لتكون كتابة العلامة شبلي فريدة" (حيات شبلي، ص 235) ولما كتب العلامة شبلي رسالته "الجزية" حيّر العالم بأسلوبه الساحر وحسن معالجته للموضوع فأمر السير سيد بترجمتها إلى الإنجليزية (المصدر نفسه، ص 227) وفي 1891م ارتحل السير سيد إلى حيدراباد مرة أخرى في وفد شمل العديد من كبار المسلمين والمسؤولين كما انضمّ إليهم العلامة شبلي ولو أنه لم يحتلّ منصبًا رسميًا ولا منزلة عالية.

عليكره تجارب التعليم الجديد وجرّب أساليب الحياة الحديثة. حصل على العلوم العصرية وتعلم اللغة الفرنسية من البروفيسور آرنولد. وقد طلب البروفيسور من شبلي أن يساعده في تأليف كتابه "Preaching of Islam" (الدعوة إلى الإسلام) مما خلق في شخصية شبلي شعورًا يجمع بين القديم والجديد[1].

وقد قام السير سيد وحركة عليكره بأعمال عظيمة في بعض الجبهات، ولكن كانت لهما فلسفة وطريقة تفكير معينة مع السياسة الإنجليزية الغربية التي كانت مفروضة على الهند. ولتجنب ذلك كان من الضروري أن تكون هناك حركة فكرية متفهمة والتي تحافظ وتدافع عن التراث الإسلامي وتعرضه بطريقة حديثة مناسبة مع العصر الحديث. وكان ذلك مقدرًا لشبلي الذي قام بهذا العمل بكل تفان وأمانة. وقد بدأ شبلي عمله في عليكره بإخبار المسلمين بماضيهم المجيد، وخلق الثقة فيهم وإيقاظ مشاعر التقدم والازدهار في نفوسهم. وما أنتجه في هذه المرحلة من الأعمال العلمية والأدبية مما جعل صيته ينتشر في الأرجاء كلها[2].

كان العلامة شبلي عالمَ دين متبحرًا، ومؤرخًا واسع النظر ومحققًا وأديبًا لا مثيل له، وخبيرَ تعليم وشاعرًا وناقدًا في وقت واحد.

ولـــــيس علـــــى الله بمســـــــتنكر أن يجمـــــع العـــــالم فـــــي واحـــــد

ولكنه كان شاعرًا بطبعه. وكان يقول إن قرض الشعر فرض طبعي[3].

---

[1] شبلي پر ايك نظر، ص 11

[2] وقد عرّف كتب "گذشته تعليم" و"المأمون" و"سيرة النعمان" بالعلامة شبلي في أنحاء البلاد إلى حدّ كبير، وكان الناس يتحمّسون لكي يروا هذا النابغة الذي يودّ أن يكشف القناع عن ذكريات ومفاخر قومه، حيات شبلي، ص 181

[3] يقول العلامة شبلي في إحدى رسائله: ليس تعقيد الندوة والشعر يرافق بعضهما البعض إلا أني لا مفرّ منهما فالندوة واجب ديني كما أن الشعر واجب طبيعي، خطوط شبلي، ص 104

يعتبر شعر شبلي تعبيرًا عن الفكر الإسلامي حيث نجد فيه صورًا رائعة من الماضي العريق وصفحات من التاريخ المجيد، والحزن على تخلف المسلمين الحالي، وأحلام المستقبل وتخطيطًا للعزائم القومية. ونجد تشابهًا كبيرًا بين شعر شبلي وحالي وإقبال من حيث المواضيع وتكرار المشاكل والتسلسل.

ويقول البعض إننا نستطيع أن نقرأ الشعر القومي لهؤلاء الثلاثة كأجزاء مختلفة لقصيدة طويلة[1].

ويعتبر هذا الشعر شجونًا خرجت من قلوب الأمة المتألمة، الأصوات مختلفة لكن اللحن واحد.

مكث شبلي في عليكره 16 عامًا وكان "ملك الشعراء لبلاط عليكره". وكان من الضروري أن تلقى قصائده في حفلات واجتماعات الكلية. كان ملوك الشعراء في عهد المغول يقرضون القصائد طلبًا للمال والجاه، لكن ملك الشعراء للسيد أحمد كان يحصل على الجوائز لحركة عليكره، إضافة إلى ذلك فإن كل ما ألّفه شبلي أثناء مكوثه في عليكره فقد منح كل ما حصل عليه مقابل ذلك للكلية[2]. وقد تأثر الطلاب والأساتذة في الكلية بعمقه في العلم وفكره الناشط[3].

حثّ شبلي في كتاباته وخطبه على إصلاح المدارس الدينية، وكانت مجلة السيد أحمد "تهذيب الأخلاق" قد قامت بدور عظيم بإزالة الجمود إلى حد كبير. وكان مؤسس ندوة العلماء مولانا محمد علي المونغيري وبعض العلماء والشيوخ من الذين كانوا يحاولون الإصلاح أيضًا.

---

[1] مولانا شبلي اور فارسي شاعري، مجلة معارف، مايو 2004م

[2] المصدر نفسه

[3] ولتقدير هذا ينبغي لنا أن نقرأ خطبة النواب محسن الملك التي ألقاها بمناسبة تشريف العلامة شبلي بلقب "شمس العلماء" في يناير 1891م في الحفلة الترحيبية التي عقدها كلّ من إخوان الصفا ولجنة الأدب وقد حضرها الممثلون الكبار، حيات شبلي، ص 230-241 ولمن استفاد من العلامة شبلي اقرأ: مولانا پر ايك نظر، ص 49-84

وفي هذه الأجواء قام بعض العلماء في عام 1892م بتأسيس مجلس باسم "ندوة العلماء" وذلك لإصلاح التعليم الديني والمجتمع واتحاد المسلمين. وكأن الأمنية القلبية لشبلي قد تحققت بذلك. وعقد الاجتماع الأول لهذا المجلس في أبريل 1894م في مدرسة فيض عام كانفور وقام شبلي بتقديم خطة العمل وتم اعتمادها. وكانت دار العلوم بندوة العلماء الصورة العملية للحركة التي كان شبلي رئيس تعليمها من عام 1905م إلى عام 1913م. وكانت هذه السنوات الثماني من حياة دار العلوم فترة ثورية. ولم يدعم شبلي دار العلوم من الناحية المالية فحسب بل تحمل مسؤولية إدارة الندوة. أدخل العلوم الحديثة في مناهج الندوة وربى الطلاب فكريًا وعلميًا. إن الطلاب الذين تتلمذوا على يد شبلي علميًا وفكريًا أثناء فترة إدارته أصبحوا فيما بعد أعلامًا كلٌ في ميدانه. ويعتبر سيد العلماء السيد سليمان الندوي، وعبد الباري الندوي، وعبد السلام الندوي وغيره من الأعلام البارزة للثقافة والفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية.

حينما نطلع على أفكار شبلي نكتشف أنه كان يعتقد أن المسلمين لن يتقدموا بالتقليد الأعمى للغرب، وكان يؤمن أن المسلمين قد تقبلوا من العلوم اليونانية في الماضي الجزء الذي كان مفيدًا لهم، أما الأجزاء الأخرى فقد رفضوها مع الاستدلال. فكان شبلي يعتقد أن القيم الأخلاقية والتربية الذهنية للجيل الجديد يمكن المحافظة عليه إذا لم يكن هذا الجيل مجرد مدركٍ للتاريخ الإسلامي وعظمته وفكره الأساسي وإنما كان واثقًا به أيضًا. وكانت هذه وجهة نظر صائبة وقد تتبع شبلي هذه الخطوط لتقدم وازدهار المسلمين[1].

وكان فكر شبلي نشيطًا في مجالات متعددة و منها السياسة. كانت حركة عليكرة صامتة في البداية بشأن اشتراك المسلمين في السياسة، وقد خرجت الحركة من هذا الفكر وأصبحت أساسًا للقومية الإسلامية وساعد على ذلك جماعة (Muslim League) بشكل كبير. كان شبلي محبًا صادقًا للوطن ومفكرًا للملة وناشطًا. ولذلك خالف هذين التيارين

[1] معاصر أدب، ص 156

لعليكره. وله دور عظيم في إخراج المسلمين من هذا الفكر الجامد. وقد تأثر مولانا آزاد برأيه وانضم إليه[1]. وتأثر بذلك أيضًا جمعية العلماء و علماء ديوبند (ويعتبر شبلي جزءًا منهم)، واختاروا النهج السياسي الصحيح في تلك الأحوال. وكان العلامة شبلي هو أول من أشار إلى التعليم الديني و إصلاح مناهج المدارس العربية في شبه القارة الهندية. وما نراه من محاولات في هذا المجال ما هي إلا من بنات أفكاره.

قد رفع شبلي صوته ضد التقليد الجامد[2]. وتحدث عن النقائص الموجودة في المنهج العربي القديم وألقى خطابًا في اجتماع ندوة العلماء عام 1894م تحدث فيه عن تطور الفنون والعلوم وطرق التدريس والتطورات التي حدثت في عملية التعليم عبر العصور. ناقش طريقة التعليم واختيار الكتب الدراسية وشدّد على التدريس العملي بدل تدريس الكتاب[3]. وأوضح ما هو ضروري و غير ضروري في التعليم، ثم شد انتباه الحضور إلى أخطاء المنهج بالترتيب[4]. وانتقد بشدة عدم الاهتمام بالقرآن الكريم في مدارسنا[5]. وكان تلميذ شبلي آزاد قد أوضح بشكل جامع ومفصل طريقة التعليم في المدارس الإسلامية وواقع التحقيق والفكر في العلوم الإسلامية عبر القرون في 21/فبراير 1947م حينما كان مديرًا لاجتماع جمعية إصلاح المنهج العربي والفارسي[6].

---

[1] المصدر نفسه

[2] خطبات شبلي، ص 123

[3] المصدر نفسه، ص 20

[4] المصدر نفسه

[5] المصدر نفسه

[6] خطبة المولانا آزاد القيّمة والحافلة بالمعلومات هذه استعراض تاريخي وهدية علمية بالنسبة للمناهج الدراسية للمسلمين فلو أثبت علماء الإسلام شيئًا من حياتهم واستفادوا من تبصّر المولانا لوقعت ثورة في المدارس الإسلامية، جاءت خطبة المولانا آزاد هذه في مجموعة خطبه وقد نشرت مجلة "أفكار ملي" الشهرية نصفها في ملحقها عن المدارس الإسلامية، راجع: أفكار ملي، مايو 2006م

وقد حاول شبلي أن يدخل هذه التغييرات إلى دار العلوم بندوة العلماء. فقام بإدخال اللغة الإنجليزية في المنهج، وحاول إدخال الفلسفة الجديدة، وأحضر معلمًا للغة السنسكريتية، وللأسف فإن العصبية الطائفية أظهرت آثارها، والندوة التي كانت حلم شبلي الذي لم يتحقق في أي عصر من العصور. ولكن بسبب آثار شبلي الفكرية فإن سعة الأفق والتسامح الفقهي وطريقة التأليف الجديدة والاهتمام بآداب اللغة العربية والصحافة من أهم ما يميز الندوة حتى اليوم.

وإذا نظرنا إلى الحياة التأليفية لشبلي نلاحظ تنوعًا في مؤلفاته. فقد حاول عن طريق مؤلفاته مثل "المأمون" و"سيرة النعمان" و"الفاروق" و"سيرة النبي" أن يلفت انتباه المسلمين إلى ماضيهم العريق، وأحيا الفلسفة الإسلامية بمؤلفات مثل "علم الكلام" و"الكلام" و"الغزالي" و"حياة المولانا روم". وفي مجال الأدب نجد "موازنة أنيس ودبير" و"شعر العجم" اللذين يشهدان على تعمقه وتبحره في ميدان الأدب والنقد والأدبين الفارسي والأردوي. ويحمل كتابه (نظرة على أورنغ زيب عالمكير) أهمية خاصة في ميدان التاريخ إضافة إلى مقالاته التاريخية الأخرى. وتعتبر هذه الكتب بسبب محتواها وجدتها وتنوع مواضيعها وأسلوبها الرفيع و قوة بيانها جزءًا لا يتجزأ من التاريخ الفكري والعلمي والأدبي والثقافي لمسلمي الهند.

ويعتبر شبلي أولَ شخص في شبه القارة الهندية (بعد السير سيد) والذي قرأ كتب المستشرقين حول الإسلام وكتب ردودًا حازمة ومحققة في مواضيعه وكتبه على الشبهات المثارة من قبلهم ودافع عن الإسلام. وكان من معاصريه علماء ومحدثون وفقهاء ومفسرون، لكن هذه الخدمة العظيمة كانت من نصيب العلامة. ولا نجد عند أي من العلماء اهتمامًا يذكر بالمستشرقين ومؤلفاتهم. إضافة إلى ذلك فقد أشار العلامة أن الكتب القديمة للعلوم والفنون الإسلامية يطبعها المستشرقون ولكن المسلمين لا يهتمون بها. وقد أرسل العلامة في هذا الشأن خطة مفصّلة إلى (دائرة المعارف) في حيدرآباد.

وحسب قول السيد صباح الدين عبد الرحمن فإن ما تم إنشاؤه باسم (إحياء المعارف العثمانية) في حيدرآباد ما كان إلا نتيجة هذه الخطة[1].

وكذلك يعتبر العلامة شبلي أول شخص بين العلماء الهنود والذي اطلع على الفلسفة الجديدة والكلام بجانب علم الكلام والمنطق والفلسفة القديمة، حتى أنه تعلم قليلًا من اللغة الإنجليزية وبدأ تعلم اللغة الفرنسية من البروفيسور آرنولد لقراءة كتب علماء الغرب مباشرة على القضايا الإسلامية. وكان صديقه وماهر اللغات الغربية سيد على البلغرامي قد أشار عليه بتعلم اللغة الفرنساوية أو الألمانية. وكان يسمي اللغة الإنجليزية لغة التجار[2].

بدأ العلامة يتلقى دروس كتاب التمدن الإسلامي لموسيو سيديو من البروفيسور آرنولد (الذي تتلمذ عليه إقبال أيضًا بعد ذلك) وذلك درسًا بعد درس، والنسخة التي درس منها موجودة حتى الآن في مكتبة دار المصنفين على حسب ما ذكره العلامة السيد سليمان الندوي[3].

وكان آرنولد يتعلم اللغة العربية من العلامة. كانت كتب كثيرة تفد إلى عليكره من الغرب والتي كانت تتعلق بالإسلام وموضوعات أخرى. وكان العلامة يستفيد منها. وكان صديقه في حيدرآباد السيد على البلغرامي يرسل إليه الكتب الغربية. وبسبب هذه القراءة العميقة تولد في كتابات شبلي سعة الأفق والتفكير العلمي وحبّ الحقيقة والتي تظهر جلية في كتاباته. ومع أن العلامة قد ردّ على اعتراضات علماء الغرب جيدًا، ولكنه كان يعترف بخدماتهم العلمية و تفوقهم العقلي وتحقيقاتهم[4].

ولم يسلك العلامة طريق بيان عظمة الماضي العلمية والعملية أمام الأمة كي يعلمها الفخر بالآباء والأجداد وضياع الأمة في عظمة الماضي والعيش فيه دون عمل، ولكنه كان يريد أن يخبر الأمة بمجد أسلافها وأن عليها أن تتقدم إلى الأمام مثلهم. ولكنه كان يعرف

---

[1] شبلي پر ايك نظر، ص 43

[2] حيات شبلي، ص 14

[3] المصدر نفسه، ص 144

[4] المصدر نفسه، ص 141

الفساد الذي دخل الأمة منذ القرون وقد انتقد ذلك. اشتهرت مقالات العلامة التاريخية ونالت القبول، فكتب في مقدمة "رسائل شبلي": اعتقدت بسبب هذا القبول والشعبية بأن الأمة قد تولد لديها الذوق الصحيح لفهم التاريخ والذي يعتبر أساس التقدم العلمي. لكن الحوادث أثبتت أن ذلك كان خدعة. إنما كان سبب الإقبال على هذه المواضيع هو أن الأمة كانت مولعة بشراء تراث بأسلافها وما قيل عنهم يكون مقبولًا لديهم صوابًا كان أم خاطئًا. ونتيجة لذلك فإن الضجة التي تثار بالنسبة إلى التقدم الإسلامي ليست إضافة في تحقيقات جديدة. ولكنها بعض الحوادث التي تذكر مرارًا وتكرارًا. ولا يفكر أحد في إجراء بحوث جديدة[1].

كان تفكير العلامة شبلي يسبق تفكير زمانه بقرن، لذلك لم يكن يعتقد أن اللغة الإنجليزية ضرورية في المدارس فحسب، بل كان يريد تدريسًا مستقلًا للغة الإنجليزية، لأن الطلاب إذا درسوا الإنجليزية لمدة سنتين استطاعوا مساواة خريجي اللغة أنفسهم، ثم يتمكنون من الدعوة إلى الإسلام باللغة الإنجليزية[2].

ولا يقتصر على الإنجليزية، إنما فكر في إصباغ العلم بصبغة الإسلام المثير للصخب في أيامنا هذه. كتب السيد سليمان الندوي: كان أمام العلامة وكما ذكرت آنفًا الشيء نفسه (تحويل العلوم الجديدة إلى الإسلام) ولكن للأسف لم يتم تطبيقه إلى الآن، لأن العلماء لم يحصلوا عليها وزمن المؤلفات بعيد بمراحل. والأساس أن نجعل هذه العلوم مسلمة ثم نروجها بين المسلمين[3].

وتطور تفكيره فأدرك ضرورة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، وقد شجع على ذلك في الاجتماع السنوي لندوة العلماء عام 1910م والذي عقد في دلهي. وجهز

---

[1] المصدر نفسه، ص 239

[2] المصدر نفسه، ص 420

[3] المصدر نفسه، ص 22

تلميذه النواب عماد الملك لهذا العمل العظيم، وقد بدأ العمل وتقدم إلى حدّ ما حتى أنه تمت مراجعة 4 أجزاء، ولكن توفي العلامة بعد ذلك ولم يكتمل العمل، وما تم لم يظهر[1].

وعمل آخر عظيم قام به العلامة شبلي أنه فكر في تجهيز رجال ينصرون الإسلام في هذا العصر الجديد. وقد اجتهد لذلك ونجح وأصبحت مجلة (الندوة) محطة لتجهيز المؤلفين الأكفاء.

كان المشجع الأساسي لمجلة الندوة هو العلامة شبلي. وكان هدفها "إحياء العلوم الإسلامية وتطبيق المعقول والمنقول، ومقارنة العلوم الجديدة والقديمة". وقد صدر العدد الأول من المجلة في أغسطس 1904م واستمرت إلى 1916م. ومن الشخصيات المهمة التي كتبت فيها كان العلامة شبلي بنفسه إضافة إلى السيد سليمان الندوي، العلامة أبو الكلام آزاد، وحبيب الرحمن الشيرواني، وعبدالله العمادي، وعبد السلام الندوي وغيرهم. ومن بعض المواضيع التي عالجتها المجلة علوم القرآن، ومساهمة المسلمين للفلسفة اليونانية، والعلوم الجديدة، وابن رشد، والكتب المروجة لعلم النحو، وآثار احتياجات العصر على المسائل الفقهية، وتسامح المسلمين، والإسلام والحجاب، ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، والعلوم الجديدة، وعلم البلاغة، وجمهرة البلاغة، وسيرة الإمام البخاري ومؤلفاته، وملاحظات على المرأة المسلمة، وإعجاز القرآن، وقضية التطور، وحكماء الإسلام، وكنوز علوم المسلمين وأوروبا، والاحتساب في الإسلام، والاشتراكية في الإسلام وغيرها من المواضيع التي تعتبر خزانة المعلومات باللغة الأردية ومصدرًا قيمًا للتحقيقات. ويكتب السيد سليمان الندوي عن آثار مجلة الندوة فيقول: كأن هذه المجلة قد حركت الساكن لدى العلماء بعد آلاف السنين، فإن مواضيع التحقيق لدى العلماء حتى الآن كانت تنحصر في المنطق والعقائد التي قد كتب عليها الكثير، لكن من يأتي من الكتّاب الجدد يكررها ويضيع وقته ووقت الآخرين كذلك. والندوة مشكورة لأنها قلبت فكر العلماء مهما كانت المجلة محل ازدرائهم وكراهيتهم إلا أنهم قرأوها واضطروا لذلك. وكانت

[1] المصدر نفسه، ص 584

فائدة ذلك أنّ بحوثًا جديدة فتحت أبوابها أمامهم، واكتشفوا طرقًا جديدة لخدمة الإسلام والعلوم الإسلامية. وتعرفوا على الأساليب الجديدة للغة والبيان، والذين كانوا معجبين بها (المجلة) أو لم يكونوا، حاولوا الكتابة بنفس أسلوبها بعد قراءتها. وقد تأثر بأسلوب الندوة خصوصًا العلماء والطلاب الذين كانوا على وشك التخرج، ولا أسمّي أحدًا ولكني أستطيع أن أخبركم أن كتابًا من المدارس الكبيرة قلدوا أسلوب الكتابة وطريقة البيان واشتهروا في مجالاتهم، وقد استفاد الدين والأمة بذلك[1].

هناك كثير من العلماء الكبار ممن عاصر العلامة شبلي ولكن الأكثرية هي التي سيطر عليها الجو المدرسي وكانت أنظارهم محدودة في الكتب الدراسية وشروحها وحواشيها، وكان من عادة العلماء عمومًا كتابة الشروح لكتب المنطق والفلسفة المتداولة، وكتابة الحواشي عليها، وكتابة التعليقات وكتب ومجلات المناظرة. وفي هذا الجو الجامد قام العلامة شبلي بمطالعة كتب كثيرة في جميع العلوم والفنون، وفّر الكتب النادرة بكثرة وبحث في المكتبات وطلب الكتب المطبوعة من أنحاء العالم. جمع ثروة كبيرة في الأدب، والفتوح، وتاريخ الرجال، وفلسفة المنطق والكلام، واتخذها مصادر لمؤلفاته ومقالاته، وأدخل بعضها في المناهج التعليمية، وحثّ العلماء والطلبة، وولّد الذوق لذلك بين الطلاب والأقران[2].

وكان العلامة يعتقد منذ البداية أن لكل عمل جمعيات ودوائر، ولكن ليست هناك جمعية أو مؤسسة للتأليف والتصنيف. ولا توجد مكتبة تحفظ فيها الكتب الكثيرة والقيمة مثل أوروبا. وكانت أمنيته أن يتم تأسيس مكتبة ومعها أكاديمية ويكون عمل أفرادها فقط مطالعة الكتب والتصنيف والتأليف. وقد عقد اجتماع ندوة العلماء في دلهي عام 1910م وقدم فيه شبلي فكرة إقامة دار المصنفين، ولكن لم تتقدم الفكرة بعد ذلك. وعندما انفصل العلامة شبلي عن الندوة بدأ يفكر بجدية لإقامة دار المصنفين. وعرض الفكرة عام 1914م عن طريق (الهلال) التي كانت تصدر من كولكاتا.

---

[1] المصدر نفسه، ص 400-441

[2] المصدر نفسه، ص 36

وقد رغب في ذلك العلامة آزاد أيضًا[1]. وقد أنشأ العلامة دار المصنفين بنفسه حسب ما كان يتخيله. ورتّب له نظامًا ودستورًا واختار لأعمالها العلمية طلابه الخواصّ العلامة حميد الدين الفراهي، والعلامة السيد سليمان الندوي، وأبو الكلام آزاد. ثم توفي العلامة شبلي بعد ذلك بفترة قصيرة في 18/نوفمبر 1914م، ولكن طلابه الأكفاء حوّلوا حلم أستاذهم إلى حقيقة، وقدّمت دار المصنفين خدمات جليلة في المجال العلمي والثقافي قلما يوجد لها نظير.

إن للعلامة شبلي أكبر دور في تطوير الفكر الإسلامي في صورة كتابه (السيرة النبوية)، ويعتبر خير شاهد على موضوعه، ولا نبالغ إذا قلنا إنه لا يوجد كتاب عن السيرة النبوية بهذه الدقة والتحقيق في أي لغة أخرى، حتى في العربية. ولو أن زاد المعاد لابن قيم الجوزية يتفوق على كتاب السيرة النبوية في بعض النقاط. وقد ربط كتاب السيرة النبوية المسلمين بالأسوة النبوية. ولم يؤلفه العلامة لغرض بيان التاريخ والحوادث والحصول على الثواب والرغبة الذاتية ولكنه كان يعتقد أن ذلك ضروري كعلم الكلام. وهذا الكتاب هو تفسير وتشريح كامل للجزء الثاني من الشهادة وهو محمد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فبما أن الإقرار بالنبوة جزء من الدين يطرح الموضوع نفسه بأن الشخص الذي كان حامل الوحي والسفير الإلهي، كيف كانت ظروفه وأخلاقه وعاداته[2]. يعتبر شبلي مفكرًا عبقريًا كبيرًا وعالمًا وأديبًا منفردًا والذي وضع حجر الأساس ليس للتصنيف فقط ولكنه وضع مثالا للعلم والحكمة أيضًا وهو مستمر إلى يومنا هذا. وقد قام بعمل لم يستطع أحدٌ القيام به. إنه المفكر الذي شاهد لمحات من حوادث الأيام القادمة وقد حثّ المسلمين على ممارسة السياسة، وأنار العالم بكتاباته وخطبه وقصائده ومؤلفاته. وبثّ روحًا جديدة في جسد الأمة الميت وبعث في العلوم والفنون قوة ونشاطًا. كان شخصًا

[1] في 1914م أعلن العلامة شبلي بمقترحه هذا في عموم البلاد عن طريق مجلة "الهلال" ولقد رغب فيه المولانا آزاد رغبة شديدة كما وقف العلامة حديقة آبائه في أعظم كره لهذا وهي كانت تحتوي على قصر لهم محليّ.

[2] حيات شبلي، ص 51

نشيطًا يقوم بأعمال علمية وذات فائدة ونتيجة، وكان يعرف ضروريات العصر القادم. وإن كان قولنا بأنه امتداد للسير سيد تنقيص من شأنه، ولكن يمكن أن نقول بأنه وسّع حركة السير سيد بأعماله، وهو المنهج الفكري الذي نال القبول لدى عامة المسلمين.

والطريقة الفكرية التي وضعها شبلي يقلدها الكتاب إلى يومنا هذا في شبه القارة الهندية.

توفي العلامة شبلي عام 1914م وكان عمر إقبال في ذلك الوقت 37 عامًا وبالطبع فإن إقبال قد استفاد من مدرسة شبلي الفكرية[1].

والواقع أن شبلي قد لعب أكبر وأبرز دور في تطوير الفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية، إن الإنجازات التي حقّقها من علمية وفكرية وتاليفية وعملية هي كمثل شموس نيرة، لكن الأعمال التي قام بها طلابه الأكفاء نالت الصيت والشهرة في أنحاء شبه القارة. حيث يعتبر تلميذه العلامة حميد الدين الفراهي مؤسّسًا لإتجاه فكري جديد في العلوم القرآنية. والتلميذ الثاني العلامة أبو الكلام آزاد قدّم للعالم نموذجًا جديدًا بقوة بيانه وإرشاده الفكري والأعمال العلمية الجليلة. وأما تلميذه الثالث سيد الطائفة السيد سليمان الندوي فإن العالم الإسلامي بأجمعه يمكن أن يفتخر بجهوده العلمية. وذلك يعني أنه لو لم يقم العلامة شبلي بأي عمل فإن طلابه الثلاثة كانوا من القدرة بمكان على أن يخلدوا ذكراه إلى الأبد. ومدرسة شبلي لها كل الحق بأن تقدم هؤلاء الثلاثة أمام المدارس الأخرى وتقول على لسان الفرزدق ولكن بتصرف بسيط في شعره[2]:

أولئـــك أبنـــائي فجئـــني بمـــثلهم إذا جمعتنـــا يـــا جريـــر المجامـــع

---

[1] ولو أننا لا نجد دليلًا على استفادة إقبال من شبلي ولكنه قد راسل مع غيره من كبار الهند بمن فيهم العلامة سيد سليمان الندوي ولقد استفاد إقبال من هذه المراسلات كثيرًا فإنه كان يعتبر العلامة سيد سليمان الندوي هائمًا بالعلوم الإسلامية في الهند، تاريخ دعوت وجهاد بر صغیر کے تناظر میں، ص 238

[2] ولقد تطوّر النقائض في عهد بني أمية والذي برز فيه جرير والفرزدق، والشعر المذكور أعلاه للفرزدق وقد قرضه مخاطبًا لجرير. قمنا بتبديل "آبائي" بـ"أبنائي".

المصادر والمراجع

1. جميل جالبي: معاصر أدب، مطبوعات سنگ ميل، لاهور، 1991م
2. السيد سليمان الندوي: حيات شبلي (ترجمة شبلي)، دار المصنفين، أعظم كره، 195م
3. السيد صباح الدين عبد الرحمن: شبلي پر ايك نظر (نظرة على شبلي)، اسم المطبع لم يذكر، 1985م
4. مجلة "معارف" الشهرية الصدرة عن دار المصنفين، أعظم كره، الهند
5. العلامة شبلي: خطبات شبلي (ترتيب: السيد سليمان الندوي)، دار المصنفين، أعظم كره، سنة الطبع لم تذكر
6. مجلة "أفكار ملي" الشهرية الصادرة عن نيو دلهي، الهند
7. الدكتور عبيد الله فهد الفلاحي: تاريخ دعوت وجهاد بر صغير كے تناظر ميں (تاريخ الدعوة والجهاد في منظور شبه القارة)، مطبوعات هندوستان، دلهي، 1996م

الاستشراق والمستشرقون عند العلامة شبلي النعماني

- البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

كان العلامة شبلي النعماني شخصية متعدّدة الجوانب ولم يبق أيّ من العلوم والفنون الإسلامية إلا وقد منّن عليه العلامة منة أدبية أو علمية أو تحقيقية؛ فقد نثر قلم العلامة شبلي لآلي وجواهر من العلم والحكمة في كل من التاريخ والسيرة والترجمة والكلام والتصوف والآداب الفارسية والأردوية وزدْ عليها ذوقه العلمي والتحقيقي الذي قد وهب كتاباته ثقة وعزة فمن أبرز كتبه التي تمتعت من الدرجة العليا للغاية "سيرة النبي" و"الفاروق". فنجد ذوقه التحقيقي على قمته في هذين الكتابين الخالد ذكرهما.

ونفس الميل التحقيقي نجده بارزًا في كتاباته التي تتحدث عن مآثر وأعمال المستشرقين العلمية وتلك الأعمال التي نريد البحث عنها في هذه المقالة الوجيزة:

المستشرقون الذين يسمّون في الغرب بـ"Orientalist" هم العلماء والكتّاب الغرب الذين قد تناولوا بالبحث الأقوام الشرقية وعلومها وفنونها؛ الأقوام التي ماتت والتي ترزق الحياة كذلك ففي الأقوام التي ماتت الكلدانيّون والبابليّون وأهل نينوا والمصريّون والسريانيون واليونان وأما الأقوام الحية فمنها العرب (المسلمون) والهنود وأهل الصين.

ولا يختلف اثنان في أنما قام به المستشرقون من الأعمال هي رائعة وجليلة ففي جانب قد بذلوا جهودًا مضنية في جمع ما تشتّت من تاريخ الأقوام البائدة وتقديمه للباحثين وفي جانب آخر أخرجوا للناس ما قد تم صيانته في مكتبات العالم وذخائر الناس الخاصة من مخطوطات ووثائق علوم وفنون الأقوام الحية حتى إنها أصبحت نسيًا

منسيًا وغير مذكور للعلماء والباحثين فقاموا بإصلاحها وتهذيبها وتحقيقها كما نشروها فشفوا غليل الباحثين والمحققين.

وبما أن العلامة شبلي كان له ذوق علمي وتحقيقي بحت، كما أشرنا إليه آنفًا، فلم يضنّ بإمطار شآبيب ثنائه على خدمات هؤلاء المستشرقين العلمية والاعتراف بروعتها وجلالتها فتشبّث بذيل الإنصاف في كل مكان ومناسبة فهو يقول في مقدمة كتابه الجليل "سيرة النبي" معترفًا بخدمات المستشرقين العلمية:

"نهاية القرن الثامن عشر الميلادي مدة حينما جعلت سلطة أوربا تحيط بالدول الإسلامية، والتي قد ولدت كثيرًا من المستشرقين الذين قد أسّسوا مدارس ألسنة الشرق على مشورة من الحكومة وأقاموا المكتباب لكتب الشرق وبنوا مؤسسات آسيوية وسهّلوا طبع ونشر كتب الشرق كما بدأوا بترجمة الكتب الشرقية فأول من أقام بهذه المؤسسات هولندا التي أسّست مؤسسة آسيوية بجزائرها الشرقية التي احتلها في 1778م فقلّدها الإنجليز فأقاموا مؤسسة آسيوية عامة في كولكاتا في 1784م كما أقاموا مؤسسة بنغال الآسيوية في 1788م ثم بنت فرنسا في 1795م كلية لألسنة الشرق الحية (العربية والفارسية والتركية) ثم تبعها قيام مؤسسات وهيئات ومعاهد عديدة في دول أوربا"[1].

ثم قال: ما قد صانها المسلمون من كتب السيرة والمغازي قد تم طبعها سوى القليل في أوربا في الفترة ما بين نهاية القرن الثامن عشر وختام القرن التاسع عشر كما ترجم معظمها باللغات الأوربية فأولهم رسغ (ت 1774م) الذي قام بنشر تاريخ أبي الفداء مع ترجمته اللاطينية والتعليقات عليه في خمسة مجلدات، وفي 1809م نشر الكبتون إيه ماثوس ترجمة إنجليزية لمشكاة المصابيح من كولكاتا وفي 1856م حقّق وان كريمر سيرة الرسول لمحمد بن الواقدي في كولكاتا ونشرها من كوتنغن. وهو الذي نشر تاريخ المعارف لابن قتيبة. وفي 1862م نشر الدكتور ويل ترجمة ألمانية لابن هشام كما نشر والهوس ترجمة ألمانية لكتاب الواقدي باسم "محمد به مدينه" من برلن في 1882م. وفي 1883م

[1] سيرة النبي، 1/84-86

نشر تاريخ اليعقوبي في مجلدين بعناية ليدن. وقد نشر بارث نولديك وآخرون تاريخ الطبري المشهور النادر الوجود في الفترة ما بين 1889م و1892م وفي النهاية قام المستشرق البروفيسور سخاؤ بالتعاون مع سبعة علماء مستشرقين آخرين بنشر طبقات ابن سعد المصدر المهم عن سيرة النبي منذ حوالي 1900م حتى السنة الماضية"[1].

وقال في موضع آخر متحدثًا عن طبقات ابن سعد المذكور أعلاه:

نعترف برحابة صدرنا أنما تبديه أوربا من العناية بعلومنا وفنوننا وما تبذله من جهود مضنية في البحث عن تراثنا العلمي المجهول وإخراجه للناس لسنا بواقفين عليه ولا قادرين على أداء تلك الخدمة حتى ولا نطلع على ما تم نشره من دفين تراثنا العلمي في أوربا"[2].

وهؤلاء العلماء المستشرقون هم الذين قد برءوا عن ذمة البحث عن نوادر مؤلفات علماء الإسلام ونشرها فيقول العلامة شبلي معترفًا بخدماتهم العلمية هذه:

"وما قام به علماء أوربا من إحياء تراثنا العلمي غير هذا لا يقل قيمة فبفضلهم نشر كتاب "فن الحرب" الذي أخبرنا بتفوّق المسلمين في وضع أصولها العلمية وكان فن حربهم صورة تامة لفن الحرب الحديث، وبفضلهم قد نشر كتاب الزهراوي عن فن التشريح الذي يحتوي على صور المآت من آلات التشريح وطرق استخدامها كما ذكرت خرائط العشرين آلة لإخراج المولود الميت في الرحم وطرق استخدامها. وبفضلهم قد اطلعنا على تاريخ الطبري وطبقات ابن سعد وتاريخ الحكماء التي قد كنا على غفلة عنها"[3].

وفي جانب كان المستشرقون ينشرون علومنا وفنوننا ثم يحيونها بعد موتها وفي جانب آخر كان علماء الإسلام مشغولين في الأشغال الغير علمية بعيدين عن التحقيق والتدقيق فقد كتب العلامة شبلي بأسلوب ملؤه قلقٌ شديدٌ:

---

[1] المصدر نفسه

[2] مقالات شبلي، 1/4

[3] المصدر نفسه، ص 67

"قد بلغ الإسلام كل أنحاء العالم هذه الأيام فتبلغ إحصائية المسلمين عشرات الملايين نسمة وقامت لهم حكومات ودول كبرى وتدرس العلوم العربية بكل شدة ونشاط وعلى هذا فقد كان الناس يرجون منا إلا أننا مشغولون بأشغال نعتبرها لازمة فإننا لم نستطع بحل بعض مواضع "حمد الله" ولم يسعنا تعيين عائد لضمير في "شرح ملّا" ولم نقدر على الفصل عن البعد الزمني والكوني لـ"مير زاهد". نعم، يمكن لنا أن نبحث عن هذه كلها في وقت لاحق إلا أنه يجب علينا تكفير أهل التشيع، ولو أن استئصال الوهابيين ليس بأشد ضرورة من الأول إلا أننا ليس بإمكاننا أن ننكر خطورته"[1].

وقد رثى لهم في مكان آخر بكلمات تالية: في جانب يشتغل علماؤ مدارسنا الإسلامية بتكفير المسلمين ويجاهدون في ذلك جهادَ الصحابة في جعل الكفّار المسلمين وفي جانب آخر بمطر سحاب سخاء أوربا العلمي ما تحيى به أرض العلم فيتم البحث عن كافة علوم الناس وفنونهم وأيامهم الدفين في أدنى الأرض وأقصاها وهكذا فقد تم تزيين معرض العالم العلمي بهذه الجواهر واللآلي كأنه العصر الماضي قد عاد بكل أهبته وشوكته وجماله الساحر"[2].

وبجانب تقدير خدمات المستشرقين العلمية فقد تناولها العلامة شبلي بالنقد والغربال فما يطويه الناس بين جنباتهم من العلاقة الودية لعلومهم وفنونهم لا يجدون مثلها لعلوم غيرهم وفنونهم ولكن يمكن حدوثها البتة فما هو السبب وراء هذا الجهد المضني الذي بذله علماء أوربا الكبار في نشر تراث المسلمين العلمي، والذي لم يسع المسلمين أن يقوموا به ولا قاموا به حقًا فهل قاموا بهذه الخدمات العلمية مخلصين نواياهم؟ وبعبارة أخرى هل كانوا يحبّون العلوم الإسلامية وهل كانوا يودّون إخراج تراث المسلمين العلمي المجهول وصيانته ومن ثم تقديره تقديرًا حقًا وهكذا فقد كانوا يريدون حثّ المسلمين على البحث والتحقيق اللذين قد كادا أن يموتا فيهم؟ لا شك أن الرد على هذه الأسئلة

---

[1] المصدر نفسه

[2] المصدر نفسه، ص 54

كلها سيأتي بالنفي فلم تكن تلعب وراء أنشطتهم العلمية هذه عواطف العلو والشرف بل كانوا يريدون بها ما سيأتي ذكره فيما بعد:

والدافع الحقيقي وراء نشر تراث المسلمين العلمي كان هو الفائدة الدينية والوطنية لهم فكما أن المسلمين لم ينقلوا علوم اليونان وفنونهم في العهد العباسي لأجل حبهم لها بل أرادوا بها صيرورتهم مشرفين عليها ويتعلموها فيوسعوا حضارتهم وينوّعوها فقاموا بهذه الخدمة بطريقة لا نظير لها فكذلك لما سيطر الغرب على العالم سياسيًا وجعلوا يتقدمون في مجال العلم والفن فوجدوا تراث المسلمين العلمي الذي خلفوه في زمن عروجهم ورقيّهم والذي قد أعلى قدرهم في العالم وعلى هذا فقد تحمّلوا كل نوع من المشاق حتى بلغوا هذه الخزينة القيّمة سهّلوا نشرها ويسّروا للاستفادة منها. كانت خدمتهم العلمية هذه تتعلق في الغالب بالتاريخ والأدب والفلسفة والهيئة والطب. كانت خدمتهم العلمية هذه، بدون شك، تستحقّ الثناء والتقدير ولو أن عصبيتهم القومية كانت وراءها كما سنتناولها بالذكر فيما بعد ولكنما قدّموه من الخدمة الجليلة لتحقيق ونشر وصيانة التراث الإسلامي من التفسير والسيرة والتاريخ لم يكن وراءها سوى البغض والعداوة التي كانوا يطوونها ضد الإسلام وأما خدمة العلم فهي كانت في الدرجة الثانية فقد علمت أوربا بعد الحروب الصليبية حق العلم أنما حازه المسلمون من العظمة والشوكة السياسيتين يكمن في كتابهم الديني القرآن وعظيم خلق رسولهم محمد صلّى الله عليه وسلّم فلا بد للغرب من الدلالة على مناقص هذا الدين لكي يفلتوا من سيطرة المجاهدين الإسلاميين عليهم، ومن تحريف معانيه ومدلولاته وفوق ذلك لا بد من تنقيص سيرة رسولهم وتشويه صورته الدولية. لم تكن هذه العملية السيئة إلا بأن يتناولوا المصادر الإسلامية مباشرة فقد أدّى علماء الغرب هذه الخدمة بكل نشاط ورغبة فنشروا كافة المصادر القديمة التي كانت في صورة مخطوط ثم ألّفوا كتبًا على الموضوعات الإسلامية المختلفة، شكّكوا فيها أذهان القرّاء عن الإسلام واستهدفوا بها إلى أنواع الاختلاقات والانتقادات اللاذعة على القرآن وصاحبه عليه الصلاة والسلام.

كان العلامة شبلي يعرف نيات المستشرقين السيئة تلك فلما نشر سخاؤ العالم الألماني المذكور أعلاه طبقات ابن سعد استعرضها قائلًا: هل أحد يقوم بإنكار سعة اطلاع هذا العالم الألماني وقدرته على اللغة العربية فما قدّمه من تحقيق في كتابة مقدمة "كتاب الهند" للبيروني نغتبط به نحن ولكنه قد كتب في نفس المقدمة أشياءً عن الإسلام نسى بقراءتها فضل هذا العالم الألماني. وقد اختص نولديكيه الألماني بدراسة القرآن الكريم ولكن المقالة التي كتبها عن القرآن في الموسوعة (المجلد: 16) تكشف عن عصبيته وجهله المختفي فيها فالمستشرقون الذين قد تخصّصوا بالأدب الإسلامي أمثال بامر ومارغوليو كنا نتوقع منهم الكثير الكثير ولكنهم كما قال الشاعر العربي:

ولكــن عــين الســخط تبــدي المســاويا

ولقد قرأ مارغوليث مجلدات مسند الإمام أحمد الستة حرفًا حرفًا ولا نتجاوز إذا قلنا أن أيًا منا لا يضاهي به في هذا الأمر ولكن الكتاب الذي قام بتأليفه هذا البروفيسور عن سيرة النبي لا يقدّم العالم كتابًا أكثر منه كذبًا وأملأ منه عصبية وتأويلًا وتحريفًا. فإن يتميز هو بشيء فهو أنه يأخذ حدثًا ساذجًا من سيرة النبي فيحوّل ببلاغته وفصاحته إلى شيء نكر.

والدكتور اسبرنغر أشهر عالم ألماني للعربية وقد احتلّ عمادة المدرسة العالية لسنوات طوال وزار لكناؤ فكتب تقريرًا عن المكتبة الملوكية، قد قرأناه وهو أول من نشر "الإصابة في أحوال الصحابة" للحافظ ابن حجر بعد تصحيحه من كولكاتا ولكنه لما ألّف كتابًا ضخمًا في ثلاثة مجلدات عن سيرة النبي فركبنا الحيرة والاستعجاب"[1].

وأحبّ موضوع وأعزّه لدى المستشرقين، كما أسلفنا، هو شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام فلم يبق مستشرق شهير إلا وهو تحدّث شيئًا عن هذا الموضوع وأبرزهم فيه

[1] سيرة النبي، 1/89-91

مارغوليث، والسير وليم ميور[1]، ومونتغمري[2] وات فما كتبه هؤلاء العلماء الأوربيون من سيرة النبي ملؤه العصبية الدينية والكذب والرواية والعداوة ضد الإسلام وأتباعه.

هذا واقع تاريخي لن ينكر أن كل نبي ينتسب بركن كبير من المجتمع سيما عائلة دينية وكان المستشرقون على علم بهذا الواقع التاريخي ولكنهم على الرغم من ذلك فقد طرحوا أسئلة عديدة عن نسب الرسول وحسبه فقد قال مارغوليث: إن محمدًا كان ينتمي إلى أسرة فقيرة ودنيا"[3] ثم ادعى أن النبي لا يبلغ نسبه إلى بني إسماعيل فهو يقول: أن ينتسب الرسول ببني إسماعيل رغبة خطرت بباله وهو كان حيًا وهكذا فقد تم اختلاق أجداد يوصلونهم إلى إبراهيم ومن ثم تم وضع قصص عديدة عن إسماعيل وبني إسرائيل على ألسنة اليهود وبأساليب العربية"[4].

يتعاظم خطأ هذا الاتهام إلى حدّ لا حاجة إلى أي استعراض فقد اتفق العلماء على أن الرسول كان من بني إسماعيل ولم يختلف فيه اثنان البتة وهذا ليس إلا مما اختلقه المستشرقون وعقولهم الشرسة.

ومما يختتم على اختلاقهم أنهم كتبوا أن الرسول كان يعبد الأوثان قبل النبوة فيقول مارغوليث: كان محمد وخديجة يعبدان، قبل المنام، وثنًا يسمّى "عزى"[5]. ولتأييد هذا الافتراء ذكر إحدى روايات مسند الإمام أحمد (232/4) التي كما يلي:

---

[1] لما كتب السير وليم ميور "The Life of Muhammad" شوت قل السير سيد دراسته ولنقدر خطورته أن السير سيد ارتحل إلى إنجلترا لكي يستفيد من مكتباتها فيقوم بالرد عليه ولذا فقد ألّف كتاباً مهماً باسم "خطبات أحمدية" وهو كتاب فاقد النظير في الموضوع

[2] قد كتب هذا المستشرق سيرة النبي بأسماء "Mohammad at Mecca"، "Mohammad at Medina" و"Mohammad the Statesman".

[3] سيرة النبي، 152/1 (على الهامش)

[4] المصدر نفسه، ص 151 (على الهامش)

[5] المصدر نفسه،ص 179-180 (على الهامش)

"حدّثني جار لخديجة بنت خويلد أنه سمع النبي وهو يقول لخديجة، أي خديجة، والله لا أعبد اللات والعزى، والله لا أعبد أبدًا قال، فتقول خديجة: خلّ اللات وخلّ العزى، قال، كانت صنمهم التي كانوا يعبدون ثم يضطجعون".

فمن لم يكن يعرف العربية ولا آمن بالله وحده لا يلبث إلا وهو يعترف بما اتهمه مارغوليث من أن محمدًا وخديجة قد ارتكبا الشرك قبل البعثة ولكن الذي يعرف العربية عندما يقرأ هذا التحقيق فيقعد حيران ويقول: هل مثال آخر أشنع وأنكر من هذا على الجهل والعصبية؟

كتب العلامة شبلي منتقدًا على هذا التحقيق: يمكن لعالم صغير للعربية أن يعرف بسهولة أن "كانوا" ليس لمحمد وزوجته بل للعرب الذين كانوا يعبدون اللات والعزى ومن العجب العجيب أن نفي الرواية تدحّض على عبادة الرسول لهذين الصنمين"[1].

الحدث الذي أعلى المستشرقون ذكره في الرد على دعوى محمد النبوة وذكروه بكل تزيين وطلاوة هو لقاؤه للراهب النصراني بحيره في رحلته للشام فأرادوا أن يثبتوا بهذا الواقع أنما يقوله الرسول قد أخذه من هذا الراهب وبعبارة أخرى أن مصدر التعاليم الإسلامية هو عقل بشري فلا يمت إلى الوحي بصلة فيقول دريبر في كتابه عن النزاع بين القديم والجديد من العلوم:

"قد علّم بحيره الراهب محمدًا عن الإرشادات النسطورية في خانقاه البصرة --- قد تأثر ذهنه الخام الأخاذ بأفكار أستاذه الفلسفية --- ويدل على ذلك معاملته من بعدُ أن سيطر عليه الأفكار والعقائد النسطورية"[2].

قد غفل المحدثون في أخذ هذه الرواية ولم يأخذهم الحيطة فلو أن هذه الرواية تبدي كبر وعظمة الرسول فقبلها المحدثون وثم المؤرخون المسلمون بدون أي جرح ونقد ولم

---

[1] المصدر نفسه

[2] المصدر نفسه، ص 167

يسعهم النظر في المؤامرة التي كانت تعمل عملها وراء هذه الرواية الكاذبة فالعلامة شبلي، على حد معلوماتي، أول عالم قد جرح هذه الرواية التاريخية وانتقدها فأنكرها إنكارًا فهو يقول:

"لو يرى الكتّاب النصارى هذه الرواية صحيحة فليروا كما هي فلم يشملها أي ذكر لتعليم بحيرة النبي محمدًا وكذا لا يخطر ببالنا أن ولدًا لم يبلغ رشده ينال لطائف ودقائق التعاليم الدينية وإن كانت هذه فوق العادة فلا حاجة إلى تأذّي بحيرة لها، والواقع أن هذه الرواية لا يوثق بها فكل طريق لها مرسلة؛ لم يكن الرواي الأول شاهد الأمر حين حدوثه فلا يسمّي الرواي الذي حضر الواقعة"[1].

وبعد رسول المسلمين استهدف المستشرقون كتابهم الديني القرآن فيتلخص معظم المستشرقين أن القرآن ليس بكتاب سماوي. إنه مما ألّفه محمّد صلّى الله عليه وسلّم آخذًا من التوراة والإنجيل كما أشرنا إليه خلال الحديث عن بحيرة الراهب، وكذا يعترض المستشرقون على القرآن أنه ليس بكلام متصف بالمناسبة والنظام بل هو مجموعة أخيلة وأفكار مبعثرة وهو يعكس على الحياة البدوية للعرب وهو لم يبحث إلا عن شئونهم وقضاياهم وبعبارة أخرى أنه ليس بكلام رباني بل خلقه البشر.

والسبب وراء عصبية المستشرقين الدينية ومعاملتهم الفارغة عن العلم واضح للعيان فقد تناول القرآن عقائد اليهود والنصارى وأعمالهم بنقد لاذع وفنّدها وأبطلها مثل عقيدة النصارى عن التثليث وألوهية المسيح والكفارة وأكل الأموال بالباطل والرهبانية وكتمان اليهود الحق وإعراضهم عن أحكام التوراة وعبادة الأصنام وإخفاء حقيقة الذبح وصلب المسيح وإنكار الآخرة من قبل فرقة منهم فإن اعترف المستشرقون بأن القرآن كلام الله فلا بد لهم من الاعتراف أنما ورد في هذا الكتاب من الانتقاد على عقائدهم وأعمالهم

[1] المصدر نفسه

صحيح ولم يكن هذا الاعتراف سوى نوع من الانتحار الوطني فلم ينكروا نزوله من عند الله فحسب بل لم يألو أيّ جهد في ردّه وإبطاله.

فجورج سيل أوّل من قام بترجمة وتفسير القرآن الكريم بالإنجليزية في أربعة مجلدات في 1734م فهو كتب في مقدمتها مبيّنًا هدفه: هذه الترجمة مع التفسير للأساقفة الذين يبذلون قصارى جهودهم للتبشير فيما بين المسلمين"، إنه كذلك كتب أنه لا يغير على القرآن بنجاح سوى أعضاء الكنائس (Protestant) وقد انتخبهم الله كي يهزموه". وتفسيره يتلخص في أن القرآن يدل على اختلاقه وتزويره"[1].

بدت هذه النفسية الكدرة في مقالة منشورة في جريدة لندن تائمز المؤرخة في 25/ أبريل ادّعي فيها أنه قد تم العثور على أجزاء من القرآن قديمة تختلف عما هي للنسخة المتوفرة للقرآن. أعرب العلامة شبلي عن قلقه تجاه هذا الخبر مما قد ثبت صحيحًا فيما بعد بأنه مما أنتجته مؤامرة أعداء الإسلام، وكذا ادعى بعض المستشرقين تزوير القرآن بناءً على مختلف أسماء النبي ولكن هذه الدعوى قد زالت مثل السراب بعد قليل.

وبعد النبي وكتابه المنزل عليه استهدف المستشرقون صحابة الرسول لاسيما الخليفة الثاني عمر الفاروق فقد كان المستشرقون لا يلبثون مطمئنين على ما شاهدوا من النظم السياسية الإسلامية الناجحة في خلافة هذا الخليفة الثاني فاتهموا بأن مكتبة الإسكندرية قد تم تحريقها بأمر من هذا الخليفة وقدّم هذه التهمة جرجي زيدان المسيحي بدلائل جديدة أقوى من ذات قبل في كتابه المشتهر "تاريخ التمدن الإسلامي" فالعلامة شبلي أول عالم مسلم قام باستعراض نقدي لهذا الكتاب وردّ عليه باسم "الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي" فردّ العلامة على كل تهمة وجّهها جرجي زيدان ببراهين تاريخية قوية وبأسلوب علمي متين فيقول الشيخ أبو الحسن الندوي معترفًا بفضل هذا الكتاب الجليل للعلامة شبلي النعماني:

---

[1] اسلام اور مستشرقين،107/2

"لما نشر العالم النصراني الشهير كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي" من مصر في بداية القرن العشرين أثار ضجة في الأوساط العلمية. كان هذا الكتاب يحفل بالمعلومات عن الموضوع كما كان يحوي أنواعًا من الظلم تجاه الخلفاء الأمويين والعباسيين وتحريف بعض الحقائق التاريخية وكذا كرّر تهمة حريق مكتبة الإسكندرية بأمر من عمر الفاروق رضي الله عنه والتي لا أصل لها ولا أساس ومثل هذه التهم قد صارت عادة ثانية للكتّاب النصارى فلما درس العلامة شبلي هذا الكتاب ثارت غيرته الدينية ولم يعرقل سبيلَ العلامة إلى دراسته النقدية ثناءُ الكاتب على فضل العلامة وجهوده العلمية وبعدُه عن دار العروبة وتواجدُ العلماء الكبار في مصر فقام بتأليف كتاب بالعربية في 1912م بعنوان "الانتقاد على التمدن الإسلامي" ردّ فيه على كافة التهم بدلائل قوية. أمطرت الدوائر العلمية في الدول العربية شآبيب الثناء على هذا الكتاب وأعلى ذكره الأدباء والكتّاب العرب الغيّورون مثل العلامة رشيد رضا"[1].

والواقع أنما كتبه العلامة شبلي عن حريق مكتبة الإسكندرية ختام مسك على هذا الموضوع وقد اعترف الكتّاب النصارى بكذب علمائهم القدامى عن هذا الأمر ونقدّر قول المؤرخ الشهير غبن (ت 1794م) فهو أول مؤرخ نصراني من أوربا لم يقم بردّ تهمة النصارى المذكورة أعلاه فحسب بل قد ألزم أن النصارى هم أنفسهم قد ارتكبوا حريق وخراب مكتبة الإسكندرية.

وعلاوة على ما سلف فقد كتب المستشرقون ما يملؤه عداوة عن الأمور الأخرى المتعلقة بالإسلام والمسلمين مثل تعدّد الأزواج، وأخذ الفقه الحنفي من الروم، وتأثير القوانين الرومية في تطوّر القانون الإسلامي، والجزية، وحقوق الذميين، وترفه السلاطين المسلمين وغيرها مما تطول به المقالة ولقد قام العلامة بالرد على هذه كلها بدلائل قوية فيقول البروفيسور النظامي:

[1] المصدر نفسه، ص 280-281

"قد واجه العلامة شبلي ما أحدثه المستشرقون من أنواع الضلالة لمدة غير قصيرة فلما نشرت دعوى عدم صحة القرآن في جريدة لندن تائمز فانتقدها العلامة شبلي نقدًا لاذعًا وقال: ليعلم أن القرآن لن ينحط إلى درجة الإنجيل ولو قدّمت دلائل عديدة على هذه الدعوى" فقد شملت هذه الجملة الوحيدة كل ما حوته أذهان المستشرقين وما بذلوه من الجهود المضنية، ولقد اعترض الأسقف بروتشلي على تعدّد الزوجات فتحرّك قلم العلامة بحماس إسلامي وهو الذي قد كشف الغطاء عن أكاذيب تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان وهكذا فقد حاول المستشرقون أن يثبتوا من خلال معركة أرمينية أن الشعب النصراني قد واجه مشاكل وصعوبات في العصر الإسلامي ولقد أساغ الإسلام هذه المظالم بل قد ألزمها على أتباعه التقاة فقام العلامة شبلي النعماني بكتابة "حقوق الذميين" و"الجزية" مما قد قضى على هذا النزاع العلمي"[1].

يرى بعض العلماء أنه ولو أن المستشرقين قد خلقوا أكاذيب واختلاقات عن القرآن والسيرة النبوية والخليفة الثاني كما أشرنا إليه في الماضي ولكنهم لم يجانبهم الإنصاف والعدل في الاعتراف بما قدّمه المسلمون من إنتاجات وإبداعات عن العلوم الجديدة. يقول البروفيسور النظامي:

"وما قدّمه المستشرقون من جهود مضنية ورغبات فقيدة النظير حين البحث عن العلوم الإسلامية وما أنفقوه من أعمارهم الغالية في دراسة العلوم والفنون الإسلامية وتحقيقها، لا يسوغ لنا أن نصرف النظر عنها فقد قال المولانا آزاد عن منة المستشرقين ذات مرة: والكثرة الكاثرة من كتب التاريخ والأدب التي لو فصلناها عن التراث العربي الإسلامي لبقيت جعبتنا فارغة لا ثروة فيها، لم تر النور إلا بعد الجهد الجهيد الذي بذله أوربا وأشرفت عليه" ولقد حيّ العلامة شبلي المستشرقين على نشر طبقات ابن سعد ومناقب عمر بن عبد العزيز وتجارب الأمم وغيرها من الكتب الأمهات وقدّم الشكر إليهم من أعماق قلبه فما خلفه علماء المسلمين القدامي من أعمال خالدة عن التاريخ

[1] المصدر نفسه، ص 22

والجغرافيا واللغة والطب والفلسفة والأدب قد نجّاه ذوق المستشرقين من الخراب والدمار فبلّغوها الدوائر العلمية"[1].

ولا شك في أن المستشرقين قد بذلوا قصارى جهودهم في صيانة العلوم والفنون الإسلامية النقلية والعقلية وقد اعترف بها كل عالم إسلامي وقد نقلنا اعتراف العلامة شبلي النعماني قبل ذلك ولكنه على العكس من ذلك هذا واقع مرّ أنهم قد حالوا لتقليل عزة أعمال المسلمين وربما إخفائها على الناس، ولم يطلع إلى هذه العصبية العلمية الكثير ولا نستثني منهم البروفيسور النظامي[2].

وقد أعرب أغلبية المستشرقين لعصبيتهم الوطنية المشتهرة عن أن حكماء الإسلام لم يزيدوا شيئًا في علوم اليونان ولم خلفوا أي خدمة جليلة في هذا المجال سوى أنهم قد نجّوها من الضياع ويسّروا دراستها والاستفادة منها بعد تناولهم بالترجمة والتفسير فيقول الماهر في الرياضيات الشهير برترينذر سيل:

"Muhammadan civilization in its great days was admirable in the arts and in many technical ways, but it showed no capacity for independent speculation in theoretical matters. Its importance, which must not be understood, is as a transmitter"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص 23

[2] واما فيما يتعلق بالفلسفة فقد أعلى العلامة شبلي النعماني في مقالاته خدمات المسلمين الفلسفية ومن ثم أشار إلى ما قاموا به من الزيادات فيها وما وجّهوه من الاختلاف في القضايا وقاموا بإصلاحها، مقالات شبلي، المجلد السابع إلا أن أكاذيب المستشرقين في المجالات الأخرى قد بقيت غير مكشوف عنها.

[3] History of Western Philosophy، 498/1

ترجمة: كان التمدن الإسلامي في عصره الزاهر ممتازًا في الآداب والطرق الفنية العديدة ولكنه لم يثبت قدرته على تفكّره المستقلّ في الأمور الأصلية. إنه مهمّ باعتباره ناقلًا للمعلومات والذي لا يوزن كثيرًا.

وقال في موضع آخر:

"Arabs were better as commentators than as original thinkers"[1].

ترجمة: كانت العرب أفضل كمعلّقين على النصوص من كونهم مفكّرين حقيقيّين.

وقد كتب عالم غربي ما يملؤه تحقير وتذليل بأنهم كانوا من حمّالي فلسفة أرسطو[2]. وقد استهدف معظم المستشرقين الغزالي بما أنه قد فنّد قضايا أرسطو الإلهية في كتابه "تهافة الفلاسفة" وذلك لأنهم لم يصبروا على نقد فلسفي غربي كبير كهذا فلم يذمّوه فحسب بل اتهموه بعداوة الفلسفة والعلوم الجديدة وهو الذي تسبّب تخلّف المسلمين في الفلسفة والعلوم الجديدة فيقول ميكس مير هاف:

"في فجر عهود الحكم الإسلامي كان المسلمون قد سمحوا لدراسة كافة العلوم والفنون ولكنهم منعوا عن دراسة العلوم الجديدة منذ عهد العالم الفلسفي الإمام الغزالي (ت 1111م) مخافة أن تشوب الشكوك العقائدَ الإسلامية لاسيما عقيدتهم عن بداية الكون وخالقه"[3].

والأسف كل الأسف أن العديد من علماء الإسلام قد وقعوا في شبكة اختلاق علماء الغرب هذا فيقول، مثلًا، البروفيسور نسيم الأنصاري: لم يتفكر علماءنا في هذا الجانب من القضية فأحيط بهم من كل جانب من مضلّلات الإمام الغزالي وهذا أسفر عن مخافة الناس أن تفسد العلوم الجديدة عقائدنا القديمة"[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص 203

[2] مقالات شبلي، 1/7

[3] The Legacy of Islam، ص 337

[4] تهذيب الأخلاق، عدد يناير، 1988م، ص 25

لعل هؤلاء العلماء لا يعرفون أن الإمام الغزالي لم يكن يخالف الفلسفة البتة فبجهوده قد أدخلت الفلسفة في المقرّرات الدراسية للمدرسة المستنصرية في بغداد وليعلم أن العلوم الجديدة كانت يشملها الفلسفة في البداية فما كان الإمام الغزالي يطويه من الاختلاف عن الفلسفة كان عن بعض قضايا ما بعد الطبيعة فهو يرى أن الفلسفة مع فروعها لا تخالف ما يثبته الدين من حدوث وقدم العالم وعلم الله الكل وحشر الأجساد.

وعلى كل حال فقد حاول المستشرقون كل المحاولة أن لا يرجع فضل أي تحقيق علمي إلى أي عالم وفلسفي مسلم ولذا فلما بلغهم اكتشاف عالم إسلامي لجأوا إلى الكذب وعزوه إلى أي فلسفي يوناني، واكتشافات المسلمين التي لم يجدوا أصولها لدى أي فلسفي يوناني ولو أنهم بذلوا قصارى جهودهم حاولوا كل المحاولة لكي يخفوها على الناس فمثلًا أن العلامة ابن النفيس (علاء الدين أبو الحسن علي بن أبي حزم القرشي الدمشقي المعروف بابن نفيس المتوفى 1288م) قد اكتشف جريان الدم في الرئة (Pulmonary blood circulation) في القرن الثالث العشر الهجري ولكن علماء الغرب قد عزوه إلى ميتشل سرويتس (ت 1553م) ولما ثبت بالدلائل القوية في القرن التاسع عشر أنه مما قام به العلامة ابن النفيس فبقوا مجتنبين الاعتراف به لوقت غير قصير حتى اعترف ميكس ميرهاف على غير رضى أن جريان الدم في الرئة قد اكتشفه العلامة ابن النفيس ولكنه كذلك قال إنه لم يقم بالجراحة بذاته وبعبارة أخرى أنما قام به ابن النفيس من الاكتشاف كان من نوع القياس إذ صدق ظنه فيما بعد[1].

ولا دليل أكبر على عصبية المستشرقين الوطنية ومعاملتهم الغير مثقفة أنهم ارتكبوا تحريف أسماء معظم كبار العلماء المسلمين كيلا ينكشف أنهم كانوا ينتمون إلى ديانة الإسلام وهم كانوا قد ولدوا في العهود الوسطى وإليهم يرجع فضل تعريف العلوم والفنون الجديدة بالغرب فجعلوا ابن سينا (Avicenna) كما جعلوا الرازي (Rhazes)

[1] ابن النفيس، ص 44

والإمام الغزالي (al-Gazel) وابن رشد (Averroes) وابن الهيثم (al-Haizam) ونفس المعاملة السيئة قد مارسوها مع أسماء الآخرين من علماء الإسلام وهذا يكفي تقديرًا لما طواه المستشرقون من عصبية وطنية شديدة حتى بالنسبة للعلوم العقلية البحتة.

فقد اتضح مما قدّمناه آنفًا بالإيجاز: (1) أنما بذله المستشرقون من جهود جبارة في صيانة العلوم الإسلامية بما فيها العلوم الدينة يليق أن نثني عليها إلا أن نياتهم لم تكن خالصة وكانت معاملتهم العلمية غير موضوعية فقد كان يختفي وراءها نفسيتهم الصليبية (2) ووما قدّمه العلامة شبلي النعماني من جهود مضنية جليلة لكشف القناع عن أكاذيب واختلاقات المستشرقين تجدر بأن يثنى عليها وتدعو الباحثين إلى مواصلة السير في هذا الشارع العام.

المصادر والمراجع

1. اسلام اور مستشرقين (الإسلام والمستشرقون)، دار المصنفين، أعظم كره، 1986م
2. برتريندر سيل: History of Western Philosophy (تاريخ فلسفة الغرب)، لندون، 1957م
3. السير ثامس أرنولد وغيره: The Legacy of Islam (تراث الإسلام)، مطبعة جامعة أوكسفورد، 1047م
4. شبلي النعماني: سيرة النبي، دار المصنفين، أعظم كره، 1339هـ
5. شبلي النعماني: مقالات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، 1934م
6. عبد الكريم: ابن النفيس، طبع باريس، 1952م
7. مجلة "تهذيب الأخلاق" الشهرية الصادرة عن جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

عربية العلامة شبلي النعماني

- الشيخ سعيد الأنصاري

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

أبو عثمان عمرو بن محبوب الكناني الليثي البصري (150-255م) عالم حبر شهير بـ"الجاحظ". له مؤلفات ورسائل لا تحصى. إنه كذلك يسمّى بـ"الحدقي" لأن أحداق عينيه تبدو خارجة منهما بجانب قصر قدّه وكراهة منظره وعلى هذا فقد استهزء الناس به فيقول شاعر:

لـــو يمســـخ الخـــنزير مســـخًا ثانيًـــا مـــا كـــان إلا دون قـــبح الجـــاحظ

وقد ذكر الجاحظ بذاته عديدًا من النكت عنه وعن شكله وهيئته وهي كما يلي:

1. يقول الجاحظ: إن امرأة طلبت منه أن يصطحبها إلى دكان أحد الصاغة، فلما وصلت هناك قالت للصائغ "مثل هذا" وانصرفت. فسأل الجاحظ الصائغ: ماذا قد عنت المرأة بقولها ذاك، فأجابه بأنها قد طلبت رسم صورة شيطان على فص خاتمها فاصطحبتك لتمثيل صورته".
2. ما أفجأني أحدٌ قط إلا امرأة أخذت بيدي وحملتني إلى نجار وقالت له "مثل هذا" ثم تركتني وانصرفت فبقيت متعجبًا من أخذها لي مثالًا فسألت الصائغ فقال إن هذه المرأة سألتني أن أصنع لها مثال شيطان تفرغ به ولدها فقلت لها إني لم أر شيطانًا قط حتى أعمل على مثاله وطلبت منها مثالًا فقالت أنا آتيك به فجاءتني بك".
3. ذات مرة سخرت امرأة طويلة من الجاحظ وهو كان يتناول الطعام فقال لها الجاحظ: انزلي من السقف حتى تأكلي معي فقالت لها المرأة: اصعد حتى ترى العالم.

4. ذات مرة رآه ولد يشتغل فسأله ماذا حدث بك؟ فقال له الجاحظ: إني أصبحت سخريًا لدى الناس فأودّ أن ينجّيني الله من هذا فقال له الولد: أن تولد مرة أخرى أسهل من أن تكون بريئًا من هذا العيب".

كانت هذه النكت تتحدّث عن شكله وهيئته وأما عن أدبيته فلننقل نكتة واحدة فهو يقول:

ذات مرة وصّى الجاحظ لرجل إلى أحد أصدقائه فكتب إليه في رسالة: إني لا أدري هذا الرجل فإن تلبِّ حاجته فلك الشكر وإن لم تقض عليها فلا ألومك، وبالصدفة فتح الرجل الرسالة فقرأها ورجع بها إلى الجاحظ فسأله الجاحظ: هل فتحت الرسالة وقرأتها فقال الرجل: بلى، فقال له الجاحظ: هذه عادتي وأقول كذلك كلما أريد التوصية لأحد فقال له الرجل: بتر الله يديك وقطع رجليك" فسأله الجاحظ: لماذا دعوت عليّ كذلك فقال له الرجل: هذه ديدني (معجم الأدباء، 83/16).

وبالجملة فكتابته متأثرة بالفلسفة فنجد في مؤلفاته أسلوبًا يشبه أسلوب أرسطو والكندي بجانب فصاحتها وروعة جملها وجمال عباراتها.

قد نال الجاحظ أخيلة وأفكار المعتزلة من النظام فلم يقم الجاحظ باتباع طريقة أستاذه فحسب بل أسّس مذهبًا له خاصًا ينتسب إليه ويعرف بـ"الجاحظية". لهؤلاء الحكماء أفكار وأخيلة تختصّ بهم وهذا المكان لا يناسب التعبير عنها إلا ما كتبه المعلم بطرس البستاني في دائرة المعارف (349/6) وجرجي زيدان في تاريخ آدا ب اللغة العربية (المجلد الثاني) من نظريته عن القرآن "أن القرآن قد تجسّد بعدما نزل القرآن فعسى أن يبرز في صورة المرء تارة وأخرى في صورة حيوان" فهذه الكتابة تحتاج إلى أن نقوم بنقدها فإن النظيرة تعني أن القرآن كان حديثًا ربانيًا قبل نزوله أي كان قديمًا ولكنه كلما نزل وتحوّل إلى الأحرف والأصوات فتجسّد ومن هنا فدخل في عالم الأجسام فيمكن أن يختار صورًا أخرى مثلما يحدث مع الأشياء الأخرى.

لا شك أن جماعة من الحكماء قد اعترفت بتناسخ الأرواح بالنسبة لعالم الأجسام إلا أن دعوى "قد أوجد الجاحظ تناسخ القرآن" شيء يحتاج إلى إعادة النظر فيه والواقع أن هذا الافتراء قد اختلقه أعداء الجاحظ الذين إما كانوا أهل الصفات أو أهل السنة، وقد ذكرت مذاهب المعتزلة بالتفصيل في كتب علم الكلام والجاحظ لسانهم وحجتهم وناصر مذاهبهم فقد جاء ذكر نظرياته ونظريات المعتزلة الآخرين في غير كتاب فقد كتب الياقوت أربعين صفحة (16/74-114، طبع مصر) في ترجمته ولكنه لم يذكر في موضع منه هذا الأمر التافه فقد شهّر هؤلاء الحمقاء قوله "القرآن مخلوق" القول الذي يعني "بما أن القرآن قد اختار قالب الأحرف والأصوات بعد نزوله فهو ليس مثل كلام الله الذي لم ينزل فإن الحرف والصوت حادثان. والحق أن قضية خلق القرآن بحث لفظي لا يمتّ بالواقع صلة فلا يوزن شيئًا إلا أنها كانت مهمّة في زمن من الأزمان فهذا الاتهام بالجاحظ ينتمي إلى ذلك الزمان، الذي لا يهدف سوى تشهيره.

للجاحظ أسلوب كتابيّ يختص به في الأدب قد اتبعه بعض الأدباء فقد ذكر نفس الشيء في الآمدي (الحسن بن بشر الآمدي) في "الفهرست" (ص 155، طبع أوربا) ويقول المترجم الشهير ثابت بن قرة (221-288هـ) الذي كان من الصابئين عن الجاحظ: كان الجاحظ خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، وسيد المتقدمين والمتأخرين المكرّم، إنه سحبان إذا خطب، ونظام إذا جادل، وعامر بن عبد قيس إذا صمت، ويزيد على الموجود إذا سخر، حبيب القلوب، وعزيز الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب، مؤلفاته حديقة خضراء، رسائله فروع ذات ورد، يتعلّم عليه العلماء، ويعترف به الخواص، إنه جامع للسان والقلم، والحدة والعلم، والرأي والأدب، والذكاء والفهم، وهبه الله الحكمة وفصل الخطاب" (معجم الأدباء، 97-98)

كان الجاحظ إمامًا لكافة أدباء العربية في النصف الأخير للعهد العباسي، وله أساليب تختص به في الأدب واللغة، وكان شهيرًا في زمانه شهرة ابن المقفع في العهد الأوّل من خلافة بني العباس.

والعلامة شبلي النعماني (1857-1914م) كان علّامة هنديًا يتبع أسلوب الجاحظ في كتابته العربية لأسباب وعلل؛ لسعة اطلاعه، وانطلاق فكرته، وسعة معلوماته، وحدّة ذهنه، وظرافته، وجدّته وإبداعه. قد تعلّم الأدب العربي على الشيخ محمد فاروق التشرياكوتي والشيخ فيض الحسن السهارنفوري. ولو كان الشيخ أديبًا فحلًا ولكنه لم يتجاوز ذوقه الأدبي الحريري وأمثاله فكان يكتب جملًا تتصف بالتكلف من الصنائع والبدائع وأما الشيخ فيض الحسن السهارنفوري فكان يسمّى "سفينة الجاهلية"، اللقب الذي يدلّ على أن له اليد الطولى على الشعر الجاهلي. كان العلامة النعماني يكلف بهذين الشيخين كلفًا قد رثى أحدهما بالنثر الأردوي بينما الآخر فقد رثاه بالشعر الفارسي ولكن أسلوبهما للكتابة القديمين العقيمين لم يكفيا ما كان العلامة النعماني أن يعبّر عنه.

وأما مدى عناية العلامة النعماني بالأدب العربي فيمكن تقديرها من رسائله التي كتبها منذ دراسته في لاهور سنة 1872م وإقامته بعلي كره سنة 1883م حتى شهر ديسمبر 1913م وهي مضبوطة في كلا المجلدين لمجموعة رسائل شبلي فننقلها لكي يتمتّع منها القرّاء بتمام معنى التمتع.

وما كتبه العلامة شبلي خلال دراسته في لاهور سنة 1872م من الرسائل هي بالفارسية فقد ذكر السيد سليمان الندوي في هامشها (267/2) أنه قد ارتحل إليها لدراسة الأدب وكان الشيخ فيض الحسن السهارنفوري أستاذ اللغة العربية وآدابها بكليتها الشرقية في تلك الفترة.

وما بعث بها في 1872م من الرسائل موجّهة إلى الشيخ عمر (272/2) فهو يكتب إليه: في هذه الفترة اشتغل بالأدب فأدرس أنا بنفسي شيئًا منه كما أدرس ديوان الحماسة على رجل آخر".

وفي 1886م انعقد مؤتمر للبحوث والتحقيقات الحديثة في الآداب العربية والفارسية في ألمانيا فبعث النوّاب حميد الله خان سربلند جنغ بن الشيخ سميع الله خان ممثلًا فيه من قبل الحكومة الهندية فكتب النوّاب رسالة يكتب عنها العلامة إلى عمّه الشيخ عجيب الله {(12/ أغسطس، 1886م) (18/1)}: معترفًا بأنه لا يقدر على أداء هذه

المسئولية كتب النوّاب حميد الله خان إلى السيد أحمد خان أن يرسل شيئًا مكتوبًا من قبل علماء الوطن وخصّني بالذكر من بينهم وهو لا يقرء هذه المقالة باسمه بل يقرأه نيابة عمن قام بكتابته. أنا متأسف على أني سقيم وقد جعل الصداع يؤلمني وأنا كاتب إليكم وفوق ذلك أنا فاقد الفرصة فأخاف أن تفوتني هذه الفرصة الذهبية. انظر إلى اللغة العربية فهي لما تفقد أهميتها وكونها سببًا لذيوع الصيت وازدياد الكرامة فلو كان النوّاب حميد الله خان عالمًا بالعربية لطار صيته لا في لندن بل في كافة أرجاء أوروبا".

وفي 1902م و1903م و1904م و1912م بعث العلامة النعماني رسائل إلى الشيخ حميد الدين الفراهي، تحتوي على ما يأتي:

1. (بدا من الردّ أن الرسالة كانت بالعربية) إنك تراسل إلى الأخ الفاضل داؤد فهل تودّ أن تخدم مثل هذه المهملات؟ هل تحبّ أن تسرّ ذات صدرك بالكتابة العربية فيبرز منك حريريٌّ آخر؟ ولكن هل يعود هذا إلى فائدة؟ فالمسلمون لا يحتاجون اليوم إلى حريريّ آخر أو أمرئ القيس" {(22/ فبراير، 1902م من حيدراباد الدكن) (13/2)}
2. وكتب رسالة أخرى من نفس المنطقة في 11/ مايو، سنة 1903م/17/2: نظام القرآن --- ما أبدع كتابتك وأسلوب بيانك!
3. ويكتب إلى الشيخ حميد عن الخطاب الموجّه إلى البروفيسور أرنولد بمناسبة عودته إلى وطنه: أما الخطاب العربي فسأقوم بكتابته" {(15/ فبراير، 1904م) (22/2)}
4. وكتب في 8/ فبراير 1912م المذكور في الصفحة 43 لنفس المجلد: قد أدّى عبد الواجد اختبار صفّ تكميل الأدب فأخذ الدكتور هارويز اختباره الشفوي وكتب إليّ رسالة تعجّب فيها عن جدارته".

وفي 1902م و1907م و1909م و1910م و1911م بعث رسائل إلى الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني، تحتوي على ما يأتي:

1. في 1902م كتب رسالتين فقد أصدر العلامة فريد الوجدي مجلة عن مصر تسمّى "الإسلام في عصر العلم". كان العلامة شبلي من مشتركيها فيقول عنها في رسالة كتبها

في 15/ أبريل، 1902م: هذه مجلة رائعة قيّمة" كتب هذه الرسالة في حيدراباد وهي منقولة في الصفحة 149 للمجلد الأوّل لمجموعة رسائله.

2. ويقول في رسالة مؤرخة في 6/سبتمبر، 1902م: قد أطلت التفكير في المنهاج الدراسي وأديم النظر في إصلاحات مصر وقد طلبت منها الإصدارات الحديثة التي لا توجد لدى أحد غيري" (ص 153).
3. وقد ذكر خطبة الشيخ السيد سليمان الندوي المرتجلة بالعربية في رسالة كتبها في 4/ مارس، 1907م وهي مذكورة في الصفحة 165، والتي ألقاها بمناسبة تكرّمه بعمامة الفضيلة والتي قد بهتت كافة الحضور.
4. وفي رسالة كتبها في 29/ نوفمبر، 1909م (مذكورة في صفحة ذ84) ذكر أبرز أساتذة دار العلوم مثل الشيخ شير علي والشيخ محمد عرب والشيخ سيد محمد كما قال عن الشيخ فاروق: مما يقلقني أني لا أفوز بعديل للشيخ محمد فاروق فالشيخ فاروق العباسي كان أديب دار العلوم.
5. وفي 1910م كتب أربع رسائل فقد أخبر في الرسالة المكتوبة في 5/ مايو، 1910م (مذكورة في صفحة 188) بأن أليد قد ترجمت إلى العربية وطلبها من مصر.
6. وقد ذكر عن ذلك الكتاب في رسالة كتبها في 15/ نوفمبر، 1910م (ص 198) أنه قد اشتراه في علي كره من الشيخ الحقي البغدادي.
7. وفي رسالة كتبها في 5/ مايو، 1910م (ص 198) ذكر عن ورود ولدين عربيين في الندوة طلبًا للعلم.
8. وفي رسالة كتبها في 27/ أكتوبر، 1910م (ص 198) كتب عن خريطة العرب أن الخريطة بالعربية يمكن الحصول عليها من مصر.
9. وفي 1911م كتب رسالتين فيخبر في رسالة كتبها في 6/ فبراير، 1911م (ص 200) بأن كتبًا عربية نافعة جاءت من مصر.

10. وفي رسالة كتبها في 14/ يونيو، 1911م (ص 201) يقدّم اسم الشيخ ماجد علي للنيابة عن الشيخ حفيظ الله القائم بشئون الندوة، وقد درس الشيخ حفيظ الله الأدب على العلامة النعماني.
11. وفي رسالة كتبها في 24/ يونيو، 1912م (ص 211) الترجمة العربية لكتاب كارلائل وقال إنها ترجمة جيّدة.

وكتب إلى البروفيسور عبد القادر سرفراز في رسالة مؤرخة في 4/ أبريل، 1908م: إني أعرف نيكولسون من قبل. إن هذا وأمثاله من الكتّاب أخلف منّا خلف الثرى من الثريا.

وقد كتب ثلاث رسائل إلى المنشئ محمد أمين الزبيري تنطق عن هذا الموضوع وهي كما يلي:

1. فيكتب في رسالة مؤرخة في الواحد من يونيو، 1908م (مجموعة رسائل شبلي، 245/1): ما ألّف من رسالتين بمصر عن المعارف (أي تحرير المرأة والمرأة الجديدة) قد تمّ تأليفهما بكل حرية وجودة كما كتبت رسالة "المرأة المسلمة" في الردّ على "تحرير المرأة" بأسلوب علمي وفلسفي ---".
2. وكتب في 31/ ديسمبر، 1913م (مجموعة رسائله، ص 263): قد نشرت ستّ رسائل عربية للشيخ حميد الدين وقد تحيّر علماء مصر منها.
3. ويكتب في رسالة مؤرخة في 30/ يونيو، 1914م (مجموعة رسائله، ص 268): وقد نشر كتاب مفصّل بالعربية عن ظروف نساء المسلمين في مصر. هذا أحفل الكتب بالموضوع.

ويكتب إلى البروفيسور السيد نواب علي الرضوي (كلية بروده): قد كان دوزي أكبر علماء فرنسا فما زاده في معاجم العربية يحيّر العقول وهو عندي. كتبها في 18/ يوليو، 1913م وهي مذكورة في الصفحة 309 للمجلد الأوّل.

ففي هذه الرسائل التي عددها 22 رسالة وعدد المرسل إليهم سبعة رجال تذكر أخبارًا ممتعة عن اللغة العربية حدثت بمختلف المناسبات وهي تعرب عن دراسة الكتب المفيدة كما تنطق عن تطوّر الأدب في مصر ونظرته فيه وتخبر عن سروره بمن برعوا في

اللغة العربية من بين تلامذته وهذا مما يسرّنا أن ذوقه هذا وشغفه هذا وعنايته هذه تستمرّ إلى حين وفاته فصدق القائل الفارسي:

مهـر تـو در وجـودم وعشـق تـو در سـرم بـا شـير انـدرون شـد وبـا جـان بـدر شـود

وحتى الآن لم أذكر لجنة الأدب، بعلي كره وصفّ تكميل الأدب في المنهاج الدراسي لندوة العلماء اللذين كانا من مآثر العلامة البارزة وتجسيد فكرته فلنتصوّرهما بهذه المناسبة.

وبعد ذلك آن لنا أن نذكر ما كان يدلي به العلامة من الرأي عن إنشائه العربي فقد كتب العلامة رسالة عربية في نقد "تاريخ التمدن الإسلامي" لجرجي زيدان وهي تسمّى "الانتقاد". صدرت هي في 1910م فهو يكتب عنها إلى السيد مهدي حسن الإفادي الااقتصادي في رسالة مؤرخة في 22/ نوفمبر، 1910م: ما قمت بالانتقاد على جرجي زيدان بالأردوية ليس بما يعبأ به فهو كان موجّهًا إلى العرب ولذلك فقد بذلت كل جهدي بالعربية وألّفتها في مائة صفحة وأودعتها موادّ يجبر المصريين على تكريم العلماء الهنود". (مجموعة رسائله، 258/2) وقد أشار في بداية هذه الرسالة إلى مقالته الأردوية التي نشرها في مجلة "الندوة" بهذه المناسبة.

ويكتب إلى الشيخ حبيب الرحمن خان الشيرواني عن عدم جودة مقالته الأردوية: والسبب وراء عدم جودة مقالتي الأردوية عن نقد جرجي زيدان أني قد بذلت كل جهدي في كتابة رسالتي العربية فإن المخاطب الحقيقي كان العرب والشاميين". (رسالة مؤرخة في 27/ نوفمبر، 1911م، 205/1 مجموعة رسائل شبلي)

وفي 12/ فبراير، 1912م يكتب من لكناؤ إلى الشيخ محمد رياض حسن خان رئيس رسولفور، محافظة مظفر فور: ستنشر هذه الرسالة في مجلة "المنار" في حلقات ومما يسرّنا أن عزة الهند قد علت في مصر" (مجموعة رسائل شبلي، 217/2).

وبعد ذكر هذه الآراء المباركة لا نقول سوى ما قال الشاعر الفارسي ونحن مسرورون:

حـل ايـن عقـده هـم از رو ئے نگـار آخـر شـد

وقد ألّف العلامة رسائل وكتبًا قبل نزوله بعلي كره أي أنه كان يراسل بالعربية قبل شهر يناير 1883م فما بعث به من الرسائل إلى علماء مصر وغيرها من البلاد العربية لم نجده فما تم ضبطه من الرسائل في مجموعة رسائله قد قام السيد سليمان الندوي بالتحشية على واحدة منها قائلًا إنها كتبت قبل ذهابه إلى علي كره (292/2) وأما الكتب والمؤلفات فهي كما هي بالترتيب التاريخي:

1. إسكات المعتدي
2. بدء الإسلام
3. الجزية
4. الانتقاد

لم أجد من بينها سوى الكتاب الأخير فقد نشره العلامة من لكناؤ على نفقته إلا أن تلك الطبعة لا توجد في مكتبة جامعة بنجاب فتوجد بها طبعته الثانية التي أصدرها العلامة سيد رشيد رضا من مطبع المنار في 1912م/1330هـ. قد صدرت هذه الطبعة في حجم الكتب الإنجليزية الصغير ويحتوي على 176 صفحة. فصفحاتها الثماني الأولى مما كتبها رشيد رضا كناشرها والتي ذكر فيها أسباب تأليف هذه الرسالة واعتذاره إلى جرجي زيدان على لهجته الشديدة والسبب وراء شدة الحاجة إلى نشرها ثم جاء كتاب "الانتقاد على التمدن الإسلامي" في الصفحات من 1-76 وقد كتب بضعة العلماء العرب مقالاتهم حول هذا الموضوع حين تأليف هذه الرسالة فألحقها الناشر بهذا الكتاب فنقد الأستاذ الشيخ عمر الإسكندري من 77-126 وهو نقد موضوعي رائع ثم يأتي نقد الأب لويس شيخو الأديب النصراني الشهير من 127-146 وبعد هذه الانتقادات الثلاثة يأتي نقد آخر للأب شيخو منذ الصفحة 147 حتى الصفحة 167 وقد قام بكتابته على كتاب "طبقات الأمم" لجرجي زيدان وهكذا فهذه المجموعة تراث علمي جميل للنقد الموضوعي وسعة الاطلاع وطول الباع في الموضوع.

ورد العلامة رشيد رضا في الهند في مارس 1912م كرئيس جلسة ندوة العلماء وقد أرفق العلامة شبلي النعماني كتابه "الانتقاد" بدعوته إلى الرئاسة فقد أمر العلامة رشيد رضا بنشره في مجلة المنار قبل مغادرته للهند ثم توجّه نحو الهند فقد أثار أسلوب الكتاب المؤثر ضجة في مصر والعرب والشام فلما قرء جرجي زيدان الردّ على كتابه كتب رسالة إلى العلامة شبلي النعماني وقد رأيت تلك الرسالة وهي كانت مصونة في دار المصنفين حتى 1916م وكانت موضوعة في أحد المؤلفات التي وقفها العلامة ولا أدري هل هي موجودة حتى الآن أم قد ذهب بها الدهر.

وقد كتب العلامة رشيد رضا في فاتحة هذا النقد "أن العلامة شبلي قد أراه رسالة جرجي زيدان فأشار فيها جرجي زيدان إلى علاقته الودية الوطيدة وتأسف على عدم رعايته بها إلا أن العلامة النعماني لم يردّ على رسالته تلك". لم أتذكر محتوى تلك الرسالة فإنه قد مضى زمن طويل على قراءتي لها ولم أتذكر سوى أنها كانت رسالة محتوية على أسطر معدودة وقال فيها إنه سيقوم بتغيير بعض المواضع طبقًا لما أشار إليه العلامة النعماني.

المقارنة بينه وبين الجاحظ: وما ذكرناه بالإيجاز عن أسلوب كتابة العلامة شبلي النعماني يثيرنا على أن نقوم بمقارنته من أسلوب الجاحظ ولكني أخاف عني ما قال الطاهر بن الحسين ذو اليمينين عن الصوفي أبي عبد الله المروزي فقد جاء في كتاب الحيوان (3/3):

ذات مرة زار أبو عبد الله طاهر فسأله أحد الحضور: كم مدة مضت على زيارتك للعراق فردّ عليه أبو عبد الله: أقيم هنا لعشرين سنة وأصوم منذ ثلاثين سنة فقال له طاهر: أبا عبد الله! سألناك عن شيء ولكن أجبت على شيئين؟ ومثلي الآن مثل أبي عبد الله فبدأت مقالتي بعربية العلامة شبلي وأسلوبه العربي ثم انتقلت منها إلى مقارنته من الجاحظ.

وعلى كل حال فننقل فيما يلي نموذجين من كتابات كلا الكاتبين المتشابهة اللون، يتجلّى منهما أن المتذوّق للأدب لا يقلّ عن مصوّر ماهر شيئًا ما وهو يبحث عن طريقة جديدة مختلفة لإبقاء تفرده وسترى في هذين النموذجين موازنة جميلة بين إطناب الجاحظ

وإيجاز النعماني فقد أقلّ إطناب الأوّل أثر الكتابة بينما زاد إيجاز الأخير كتباته تأثيرًا فإنها باقية على لون واحد من بدايتها إلى نهايتها ولا نجد في بحرها مدًا ينتاب الجزر أو جزرًا يقوم مقام المدّ وكذا أزال الإطناب في المدخل أن مخّ الموضوع قد غاب في هذه البداية المطنبة مثل جذب البحر في صحراء وفي جانب آخر فصل إيجاز المدخل نهايته عن بدايته وجعل الختام مؤثرًا للغاية والسبب الآخر وراء اختلاف النموذج الأوّل عن الثاني أن هناك فرقًا كبيرًا بين هدفي النموذجين فالجاحظ لا يدافع سوى عن مؤلفاته وأفكاره ويودّ أن يردّ على اعتراضات علماء الدين التي وجّهوها إليها وأما العلامة فهو يدافع عن الإسلام ويتهمّ الخيانة بالكاتب النصراني الذي قد اختار كافة الأسباب من التدليس إلى التحريف فلا شك في وجود العلو والسفل، القوة والضعف في أسلوبهما وجملهما.

وبالجملة فطبقًا لما قام به الجاحظ من التعريف بالبلاغة فقد اخترت من كتابه الحيوان ما هو أكثر تأثيرًا كما انتقيت كتابة العلامة شبلي نظرًا لهذه الخصوصية فما نجده من الميزات المشتركة بينهما بصرف النظر عن الإطناب والإيجاز، العلو والسفل هي كما يرى الجاحظ مما ذكره أبو حيان التوحيدي في تقريظ الجاحظ وقد نقلها ياقوت الحموي في معجم الأدباء (16/94-95). ضعها أمام عينيك ثم قم بالمقارنة بين الجاحظ والنعماني:

كتاب الحيوان	الانتقاد على التمدن الإسلامي
جنّبك الله الشبهة وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبًا وبين الصدق سببًا، وحبّب إليك التثبت، وزيّن في عينيك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحق، وأودع صدرك البرّ واليقين، وطرد عنك ذلة اليأس، وعرفك ما في الباطل من الذلة وما في الجهل من القلة. ولعمري لقد كان غير هذا الدعاء أصوب في	إن الدهر دار العجائب ومن إحدى عجائبه أن رجلًا من رجال العصر يؤلف في تاريخ تمدن الإسلام كتابًا يرتكب فيه من تحريف الكلم وتمويه الباطل وقلب الحكاية والخيانة في النقل وتعمّد الكذب ما يفوق الحدّ ويتجاوز النهاية وينشر هذا الكتاب في مصر وهي غرة البلاد وقبة الإسلام ومغرس العلوم ثم يزداد انتشارًا

أمرك، وأدلّ على مقدار وزنك وعلى الحال التي وضعت نفسك فيها، ووسمت عرضها بها، ورضيتها لعرضك حظًا ولمروعتك شكلًا، لدينك إذا كان ضارًا العاجل، والكذب إذا كان نافعًا في الآجل. ولم جعل الصدق أبدًا محمودًا، والكذب أبدًا مذمومًا، والفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة، وبين الإفراط في الحمية والأنفة، وبين التقصير في حفظ حقّ الحرمة وقلة الاكتراث بسوء القالة، وهل الغيرة اكتساب وعادة أم بعض ما يعرض من جهة الديانة ولبعض التزيّد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك في طباع الحرية وحقيقة الجوهرية، ما كانت العقول سليمة والآفات منيفة والأخلاط معتدلة.

وعبتني بكتاب الصرحاء والهجناء، ومفاخرة السودان والحمران، وموازنة ما بين حق الخؤلة والعمومة، وعبتني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب وأقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات، وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء وفرق ما بين الذكور والإناث وفي أي موضع يغلبن ويفضلن وفي أيّ موضع يكن المغلوبات والمفضولات ونصيب أيهما في الولد أوفر وفي أي موضع يكون في العرب والعجم ومع هذا كله لا يتفطن أحدٌ لدسائسه، إن هذا لشيئ عجاب.

لم يكن المرء ليجترئ على مثل هذه الفظيعة في مبتدء الأمر ولكن تدرّج إلى ذلك شيئًا فشيئًا فإنه أصدر الجزء الثاني من الكتاب وذكر فيه مثالب العرب دسيسة يتطلع بها على إحساس الأمة وعواطفها ولما لم يتنبه لذلك أحدٌ ولم ينهض لأحد عرق ووجد الجوّ صافيًا أرخى العنان وتمادى في الغيّ وأسرف في النكاية بالعرب عمومًا وخلفاء بني أمية خصوصًا.

وكان يمنعني عن النهوض إلى كشف دسائسه اشتغالي بأمر ندوة العلماء ولكن لما عمّ البلاء وتوسّع الخرق وتفاقم الشرّ لم أطق الصبر فاختلست من أوقاتي أيامًا وتصدّيت الكشف عن عوار هذا التأليف والإبانة عما فيه من أنواع الإفك والزور وأصناف التحريف والتدليس.

إني أيها الفاضل المؤلف غير جاحد لمنتك فإنك قد نوّهت باسمي في تأليفك هذا وجعلتني موضع الثقة منك واستشهدت بأقوالي ونصوصي ووصفتني بكوني من

حقّهن أوجب وأيّ عمل هو بهن أليق وأيّ صناعة هنّ فيها أبلغ.

وعبتني بكتاب القحطانية والعدنانية في الردّ على القحطانية، وعمت أني تجاوزت فيه حدّ الحمية إلى حدّ العصبية، وإني لم أصل إلى تفضيل العدنانية إلا بتنقيص القحطانية. وعبتني بكتاب العرب والموالي، وزعمت أني بخست الموالي وحقوقهم كما أني أعطيت العرب ما ليس لهم، وعبتني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول في فرق ما بين العرب والعجم هو القول في فرق ما بين الموالي والعرب، ونسبتني إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير والجهل بما في المعاد من الخطل وحمل --- وعبتني بكتاب الأصنام وبذكر اختلافات الهند لها، وسبب عبادة العرب إياها، وكيف اختلفا في جهة العلسة مع إنفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عباد البددة والمتمسّكون بعبادة الأوثان المنحوتة والأصنام المنجورة أشدّ الديانين ألفًا لما دانوا به وشغفًا لما تعبّدوا له، وأظهرهم جدًا وأشدّهم على من خالفهم ضغنًا وبما دانوا ضنًا، وما الفرق بين الوثن والصنم، وما الفرق بين الدمية والجثة ولم صوّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم صور عظمائهم ورجال دعوهم، ولم تأنقوا في أشهر علماء الهند مع أني أقلّهم بضاعة وأقصرهم باعًا وأخملهم ذكرًا ولكن مع كل ذلك هل كنت أرضى بأن تمدحني وتهجو العرب فتجعلهم غرضًا لسهامك ودرية لرمحك ترميهم بكل معيبة وشين وتعزو إليهم كل دنية وشر حتى تقطعهم إربًا إربًا وتمزّقهم كل ممزّق وهل كنت أرضى بأن تجعل بني أمية لكونهم عربًا بحتًا من أشرّ خلق الله وأسوأهم يفتكون بالناس ويسومونهم سوء العذاب ويهلكون الحرث والنسل ويقتلون الذرية وينهبون الأموال وينتهكون الحرمات ويهدمون الكعبة ويستخفّون بالقرآن.

وهل كنت أرضى بأن تنسب حريق الخزانة الإسكندرية إلى عمر ابن الخطاب الذي قامت بعدله الأرض والسماء وهل كنت أرضى بأن تمدح بني العباس فتعدّ من إحدى مفاخرهم أنهم نزّلوا العرب منزلة الكلب حتى ضُرب بذلك المثل وأن المنصور بنى القبة الخضراء إرغامًا لكعبة وقطع الميرة عن الحرمين استهانة بهما وأن المأمون كان ينكر نزول القرآن وأن المعتصم بالله أنشأ معبة في سامرا وجعل

التصوير وتجرّدوا في إقامة التركيب وبالغوا في التحسين والنفخيم، وكيف كانت أولية تلك العبادات وكيف افترقت تلك النحل ومن أي شكل كانت خدع تلك السدنة وكيف لم يزالوا أكثر الأصناف عددًا وكيف شمل ذلك المذهب الأجناس المختلفة. وعبتني بكتاب المعادن والقول في جواهر الأرض، وفي اختلاف أجناس الفلز والأخبار عن ذائبها وجامدها ومخلوقها ومصنوعها وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها ويبطئ عن بعضها، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ وبعضها ينصبغ ولا يصبغ وبعضها يصبغ ولا ينصبغ، ما القول في الإكسير والتلطيف. (3/2)	حولها طوافًا واتخذ منى وعرفات. وهبْ أني عدمت الغيرة على الملة والدين وافتخرت كصنيع بعض الأجانب بأني فلسفي بحت عادمٌ لكل عاطفة ووجدان فلا أرضى ولا أغضب ولا أسرّ ولا أغتاظ ولا أفرح ولا أتألّم وهبْ أني حملت نفسي على احتمال الضيم وقبول المكروه والصمم عن البذاء ومجازاة السيئة بالحسنة ومكافاة الخبيث بالطيب فهل كنت أرضى بأن تشوّه وجه التاريخ وتدمغ الحق وتروّج الكذب وتفسد الرواية وتقلب الحقيقة وتنفق التهم وتعوّد الناس بالخرافة. بئس ما زعمت أيها الفاضل فإن في الناس بقايا وأن الحق لا يعدم أنصارًا. (3/1)

فمدخل الجاحظ طويل فلم أنقل إلا نزرًا يسيرًا منه وتركت ترجمته فإنها تذهب بالقوة والحلاوة فاقرءوا الكتابتين واضعين إحداهما مقابل الآخر فستجدون أن هذا الأسلوب عالٍ للغاية، سلس إلى حدّ بعيد وجارٍ على جادة طبيعية وخالٍ عن التكلف كما تجدون أن العلامة شبلي النعماني لم ينجح في اختيار لون الجاحظ فحسب بل قد تجاوزه خطوة ولكن لنعلم أن هناك بونًا شاسعًا بين الجاحظ والنعماني فالأوّل بحر والثاني عين فما يموج في مؤلفات الجاحظ ورسائله من بحر الأدب العربي لا يعادله عين رسائل النعماني ولو كانت صافية إلى حدّ بعيد فهل لا يكفي كاتبًا هنديًا كشبلي افتخارًا أن يضاهي بهذا الكاتب العربي المطبوع على الإنشاء الذي كان مفخرة الإسلام وأبرز كتّاب عصره.

العلامة شبلي النعماني

ومساهمته في تطوير الدراسات العربية

- أ. د. أبو سفيان الإصلاحي

إنّ العلامة شبلي النعماني (1857-1914م) كان آية من آيات الله، وشخصية نموذجية بارزة، لها جوانب متعدّدة ورئاسة في شتى الحقول والمجالات؛ فهو كان مؤرخًا إسلاميًا، وأديبًا بارعًا، وشاعرًا فحلًا، ورائدًا في النقد الأردوي، ومالكًا لناصية اللغات العديدة، وفوق هذه وتلك له عاطفة حبّ جيّاشة للإسلام والمسلمين ولاسيما لمهد العروبة. ترجمت مؤلفاته العلمية والأدبية إلى عدة لغات عالمية. شعره العربي والفارسي والأردوي خيرُ دليل على قدرته الكاملة على الإعراب عن آرائه في هذه اللغات كلها.

وقبل الخوض في اتجاهاته الأكاديمية يناسب لي أن أشير إلى جانب مهمّ من حياته العلمية وهو أن العلامة استفاد كثيرًا من شخصية السيد أحمد العظمى، ومن مكتبته الملآنة بالمصادر النادرة، ومن الأساتذة والباحثين للكلية الشرقية (Mohamdan Anglo-Oriental College) والواقع أن الشرق والغرب قد اجتمعا معًا في رحاب هذه الكلية في تلك الأيام فكانت المناقشات العلمية والأدبية تدور بين العلماء الهنود والكتّاب المستشرقين. ولا غرو أن العلامة شبلي النعماني قد وجد متسعًا في هذا الجوّ العلمي الرحيب فأسّس أوّل نادٍ عربيّ في الهند تسمّى "لجنة الأدب" أسّسه في رحاب هذه الكلية لكي يرسّخ به دعائم اللغة العربية في الهند ويروّجها في أدنى مناطقها وأقصاها فكانت الأساتذة والطلبة معًا يقدّمون فيه مقالاتهم العربية، ويُلقُون خطبهم باللسان العربي بجانب إنشاد القصائد العربية بمناسبة أو أخرى فما قرضه السيد ألطاف حسين حالي

والأستاذ عبد الحميد الفراهي وغيرهما من الطلبة من قصائد التهنئة بمناسبة تشرّف العلامة النعماني بلقب "شمس العلماء" رهين هذا النادي. فيقول الفراهي مثلًا:

يـا خـير مـن يسـمو إلـى العليـاء كالشـمس بازغـة بوسـط سـماء
قـد كنـت قـدمًا للمعمـالي سـامياً أورثتـه عـن شيـمة الآبـاء
فلـئن سـموت إلـى المكـارم والعلـى فلقـد نشـأت بعـزة قعسـاء
لا غـرو نصـل السـيف إن يـك صـارما أو يسـتهل الـبرق باللآلاء
فلأنـت بالعزمـات سـيف صـارم ولأنـت بـرق لامـع بذكـاء
لاذت بجانبـك العـلوم فإنـها لـو لـم تصـنها آذنـت بفنـاء
قـد أمحلـت أرض العلـوم وأصـبحت عرصـاتها كسـمائق البيـداء
لعبـت بهـا هـوج الريـاح تنوبـها مـن كـل عاصـفة مـن النكبـاء

وويقول السيد ألطاف حسين حالي:

يـا وحيـدًا مـن الكـرام فريـدًا وعزيـزًا كمثـل علـق نفـيس
أنـت أولـى بـأن تلقـب شمسًـا بـل بـأن يجعلـوك شـمس الشـموس
أنـت شـمس الهـدى ولسـت بشـمس يعتريهـا الخنـوس بعـد خنـوس
أنـت طهّـرت ذيـل ديـن مبـين لوّثتـه اللئـام بالتـدليس
ثـم دافعـت عـن إمـام تقـي كـان بعـد النـبي خيـر رئـيس
و عـن الحـق قـد كشـفت غطـاء بعـدما أغلقـوه بـالتلبيس
سـرت فـي الارض بـرًا وبحـرًا للمعـالي ولا لأمـر خسـيس

ويقول المولوي داؤد:

حمـــد لمـــن جعـــل النجـــوم دراريـــا والشـــمس نـــورًا للحنـــادس ماحيـــا
حينـــا يحـــبر فـــي العلـــوم رســـائلا حينًـــا يشـــيّد للفنـــون مبانيـــا
وهـــو الـــذي شـــرح المهـــيمنُ صـــدره فغـــدا لأبنـــاء المعـــارف تاليـــا
لله درُّ مـــــــــدرّس تدريســـــــــه ســـيل أتـــى وقـــد يغشـــي واديـــا
ســـحبان وقـــت لا يشـــق غبـــاره مـــن كـــان للفـــرد الوحيـــد مجاريـــا
قُـــسُّ الفصـــاحة لا ينـــال مقامـــه مـــن كـــان للشـــمس المنيـــرة ثانيـــا
إن قـــال فـــي العربـــي شـــعرًا فـــاق حســـانًا وفـــي العجـــمي فـــاق قانيـــا
قـــد يخلـــب الألبـــاب ســـحر بيانـــه إذ مـــا تصـــدى خاطبًـــا أو شـــاديا
هـــو حصـــرم الأخبـــار غـــير مســـاجل يعطـــي الـــورى مرجانـــة لآليـــا

كما أن القصائد قرضت بهذه المناسبة، كذلك ألقيت المحاضرات من قبل المشاركين في هذه الحفلة للتهنئة فممن قدّم انطباعاته بهذه المناسبة الأستاذ نذير أحمد ونقتبس فيما يلي ما يمتّع العلماء والباحثين:

«خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به في طلعت الشمس ما يغنيك من زحل, تفخر اللجنة الأدبية بأن أعظم أركانها بانيها لقّب بشمس العلماء وتهنئه الآن بهذا الإعزاز والإكرام».

لا غرو في أن هذه اللجنة قد أدّت خدمات سامية لإبراز اللغة العربية الحديثة إلا أن إسهاماتها لا يقف عليها الباحثون فيجدر بنا أن نحلّل خدماتها الأدبية مسلّطين بعض الأضواء على مؤسّسيها ومساهميها وأعضائها، وقبل هذا لا بد من الإشارة هنا إلى أن السيد أحمد خان كان يساهم فيها كثيرًا لكي يتطوّر الأدب العربي الحديث بالهند. وبهذا الصدد دعا الأساتذة المستشرقين لتدريس اللغة العربية لكي يعمّ أسلوب التحقيق والتحليل فيما بين العلماء الهنود وطلبة الكلية على السواء. وما قامت به جامعة علي جراه الإسلامية من الأعمال البارزة لرواج اللغة العربية الجديدة دليلٌ حيّ على هذه الدعوى.

كان العلامة شبلي النعماني ساعيًا لتعزيز وتطوير اللغة العربية الجديدة بين العلماء الهنود والمدارس الأميرية لأن اللغة العربية اختارت كلمات جديدة ومصطلحات حديثة وقواميس سياسية وتجارية عصرية لأجل الاختلاط بالأوساط الأجنبية واللغات العالمية فوجب على العلماء والضباط الهنود أن يتعلموا اللغة العربية الجديدة لكي لا تنقطع العلاقات السياسية والعلمية عن البلدان العربية فتواجه بلادنا الهندية خسرانًا تجاريًا مبينًا. فبذلك اعتنى العلامة بهذه الناحية وأبرزها في رحلته الشهيرة الأردية «سفرنامه روم ومصر وشام» ولها أهمية خاصة في إنهاض اللغة العربية بالهند وصوّر العلامة الصور الحقيقية الرائعة لكلياتها ومراكزها العلمية والشخصيات الهامة التي لقيها وكذلك قد ألحق بها قاموس الكلمات مع معانيها القديمة والجديدة لكي نشاهد الإجراءت الجديدة للغة العربية، وتأسف أبلغ التأسف على أحوال وظروف جامعة الأزهر وأساتذتها لأنهم يتكلون على حواشي الكتب ولا يلتفتون إلى إبراز المؤهلات الخفية في الطلبة وأما أصحاب الإدارة فلا يعتنون بإعادة النظر في المقررات الدراسية والحياة السكنية للطلبة فكأن الأزهر تسوق الطلبة إلى الفساد والانهيار.

وينبغي لنا أن نذكر شيئًا عن رسائل الأستاذ العلامة (المطبوعة بعنوان «مكاتيب شبلي») التي تنطق عن مباحث علمية مختلفة وكذلك هي تحيط بالجوانب المتعدّدة التي تتعلق باللغة العربية مباشرة فقد كتب العلامة عدة رسائل إلى تلميذه البارّ عبد الحميد الفراهي وطرح عليه عدة أسئلة لكي يرسل الإجابات المقنعة التي ساعدته في ترتيب كتابه الرائع الشهير «سيرة النبي» فعلى سبيل المثال ننقل استفساره عن كلمة «بكة» والصفا والمروة والذبيح وغيرها من المعضلات القرآنية. وهنا يجب علينا أن نوضّح أن الأستاذ الفراهي أرشد أستاذه العلامة إلى المصادر والمراجع التي بإمكانها أن تعينه في تأليف سيرة

النبي وكذلك استعانه تلميذه العلامة السيد سليمان الندوي الذي أتمّ هذا العمل الجبّار وقدّم إلى الفراهي كلمات الشكر والامتنان في هامش الكتاب.

وقد كتب العلامة كثيرًا من المقالات التي تحتوي على المباحث القرآنية والإسلامية والاجتماعية والأدبية والنقدية والتاريخية ولها أهمية كبرى لدى الأوساط العلمية ويجب الشكر علينا للسيد سليمان الندوي أنه جمعها في مجلدات وعلّق عليها حيث مسّت الحاجة إليه ووضّح حيث أبهم المعنى ومن بين هذه المقالات ما تتعلق بالأدب العربي مثل المقالة المهمة «الانتقاد على التمدن الإسلامي» عن الكتاب الشهير «تاريخ التمدن الإسلامي» لجرجي زيدان وقد حاول زيدان تشويه الصورة البرّاقة للدين الإسلامي وابتعد أشدَّ الابتعاد عن الحقيقة والديانة فالأوساط العلمية اضطربت وأحبّ كل من له جانب ليّن للإسلام وأتباعه أن يردّ على هذا الكتاب الكاذب ولكن لم يصدر منهم سوى النزر اليسير فقام العلامة شبلي النعماني بنقد شديد على الكتاب وردّ ردًّا مفحمًا على آرائه الرديئة عن الثقافة الإسلامية وأتى بدلائل وبراهين ثابتة. قد طبعت هذه الرسالة أولًا في المجلة المصرية «المنار» لمنشئها رشيد رضا المصري (1865-1925م) ثم نقلها العلامة إلى اللغة الأردية وطبعت في المجلة الأردية الشهيرة «الندوة» التي كانت تصدر تحت إدارة العلامة من لكناؤ والآن وضعت هذه المقالة في مجموعة «مقالات شبلي» والعلامة أظهر رأيه عن النقد الأدبي العربي والنقاد الغربيين وكذا مقالته عن العلامة غلام علي آزاد البلجرامي فقد ذكر فيها خصائصه الشعرية مشيرًا إلى هذه النكتة الخاصة أن البلجرامي ما ترك خطوطًا واضحة في مجال الشعر العربي في مجال الأساليب. وعلى هذا فلم يحجز مكانًا ملموسًا كالشاعر العربي إلا أنه نال قبولًا وإعجابًا بين الشعراء الهنود لأجل مدائحه النبوية ويبدو أنه كان غريقًا في حبّ النبي صلّى الله عليه وسلّم.

والعلامة كان وحيدًا بين نقاد اللغتين؛ العربية والفارسية من حيث العثور على الميزات الشعرية والنكت الرئيسية للشعراء العرب والفرس ودرس العواطف الشعرية العربية

والاتجاهات الشعرية الفارسية بإمعان النظر وقدّم المقارنة بينهما مستدلًا بأشعارهما. وبما أن العلامة كان شاعرًا مطبوعًا وناقدًا فذًا فكان يقدر على هذه الموازنة وأنا لا أبالغ إذا قلت إن مثل هذه المقارنة لا توجد لدى أيّ ناقد للأدب وإن الشعراء العرب قد امتازوا بشجاعتهم وبسالتهم بينما الشعراء الفارسيون قد اختصوا بلطافتهم ورقتهم ولينهم وتزويد الروعة والزينة بأساليبهم الكاذبة. يجدر بنا أن نستفيد بهذه المقارنة في كتابيه المعروفين "شعر العجم" و«موازنة أنيس ودبير» ومن ثم نؤمن بانتقاداته العلمية ودراساته العميقة الراسخة الأدبية.

وبهذا الشأن يليق بنا أن نذهب إلى ناحية من نواحي خدماته العربية بأن العلامة قد وجّه الدعوة إلى تلاميذه لدراسة المجلات العربية التي تصدر من البلاد العربية ويريد نقل مقالاتها إلى اللغة الأردية وذكر كثيرًا من المجلات مع أسمائها في رحلته فحاول التلاميذ لترجمة مقالاتها باللغة الأردية فهذه النتيجة الجيدة قد جاءت بفضل المساعي المشكورة للعلامة وطبعت ترجمات شتّى المقالات العربية في مجلات "الندوة" و"الهلال" و"البلاغ" و"معارف" وما عدا ذلك. فبهذه الإجراءات جاءت بالإنتاجات المثمرة المفيدة لازدهار اللغة العربية الحديثة وخاصة تزينت صفحات «الهلال» و«البلاغ» من الذخائر القيمة والجواهر النادرة عن الأدب العربي، والقرّاء قد ناولوا المعلومات الكثيرة بهاتين الجريدتين والأستاذ مولانا أبو الكلام آزاد قد نشر التعريفات للإصدارات الجديدة ونحن نقول بإيقان إن الأستاذ قد أدّى خدمات بارزة لتوسيع الأدب العربي بتوضيح المفردات في تفسيره «ترجمان القرآن» واستشهاده بكلام العرب في تفسيره وفي غبار خاطر ومصنفاته الأخري ولا شك أن فضله هذا يرجع إلى العلامة النعماني الذي قد رغّبه في الأدب العربي.

كما أن ترجمات المقالات والمصنفات والكتابات العربية وسير العلماء والباحثين نشرت في المجلات الأردية بإرشادات العلامة الخالصة كذلك صدرت المجلات العربية بمجهودات

العلامة. ونحن نعرف أن الأستاذ أبا الكلام آزاد أصدر مجلة عربية بعنوان «الجامعة» من كولكاتا ولها هدفان أساسيان؛ (1) دعوة الأمة الإسلامية إلى الجامعة الإسلامية والتضامن الإسلامي لأن الإسلام يريد الاعتصام بحبل الله تعالي ولا يريد الفوضي والفساد في صفوف الأمة البيضاء ويطلب منها القيام على البنيان المرصوص، (2) وإثارة المواطنين ضدّ الإنجليز الطامعين المستعمرين. في الحقيقة كانت هذه المجلة تودّ التحرير لبلدها وقطع دابر كل مسيطر عليه فبذلك توقّف صدور المجلة بسبب الأكياد الفاسدة الإنجليزية ويجدر بنا أن نذكر أن المجلة العلمية الثقافية «ثقافة الهند» بدلهي الجديدة صدرت بالجهود الجبارة لمولانا آزاد بعد الاستقلال. وأنا أقول مستيقنًا إن هذه المجلة ملئت آفاق الهند بالعلوم والفنون وصوّرت المناطق الهندية أمام العرب بأروع صورة وأحسنها فبهذا الطريق قد مهّد العلامة شبلي النعماني عدة سبل لتنمية الأدب العربي الجديد بالهند.

ونحن نضيف بهذا الصدد أن المجلة العلمية الدينية «البيان» كانت تصدر بلكناؤ في اللغتين: العربية والأردية ولكن توقّف صدورها بعد مدة قليلة وما نسيتها الأوساط العلمية حتى الآن بسبب العلامات العلمية الحضارية وطبع بعض من الكتابات للأستاذ الفراهي فيها أيضًا. وكذلك صدرت مجلة «الضياء» بأيدي الأستاذ أبي الليث الإصلاحي الندوي والعلماء الآخرين ولا غرو في أنها ما تركت حاجة ولا داجة لتوفير أهمية الأدب العربي بالهند وأخيرًا صدرت مجلة «البعث الإسلامي» عن دارالعلوم بندوة العلماء بالجهود الجبّارة من قبل الأستاذ البروفيسور محمد راشد الندوي والراغبين الآخرين فيها. إن هذه المجلة لها مجالات عديدة لتوسيع الأدب العربي وترسيخ المعارف القرآنية والإسلامية وهي نالت قبولًا عامًا بين البلاد الإسلامية خاصة في البلاد العربية ومديرها الشيخ الأستاذ سعيد الرحمن الأعظمي قد وجه الباحثين والعلماء إليها لأجل كلماته الافتتاحية الرائعة الجذابة ونحن نحمد الله تعالى على أنها لا تزال تصدر كل شهر

بالمواظبة. وأنا أقول ترددًا إن هذه السلاسل المباركة العربية الجديدة وجدت بالمساعي الجميلة للعلامة شبلي النعماني.

وفي العهد الحاضر اشتهرت ندوة العلماء بالأنشطة المتواصلة لتعميم الآداب العربية في أنحاء الهند وخارجها وقد فاقت جميع المعاهد والمراكز الهندية في هذا المجال وقد امتاز أصحاب الإدارة والأساتذة وطلابها بميزاتهم العربية الأدبية ويؤدي المتخرجون فيها الخدمات الجليلة لنشر اللغة العربية وثقافاتها وآدابها في مختلف الجامعات والولايات الهندية وكذلك في عدة البلاد الأجنبية وقد احتلّت ندوة العلماء هذا المنصب الجليل وفازت بهذه الدرجة الممتازة بفضل الفكر العالي والإخلاص المثالي للأستاذ العلامة شبلي الذي كان يريد أن يكتب الطلبة المقالات باللغة العربية ويلقوا الخطب فيها أيضًا.

وقد أعدّ العلامة شبلي النعماني عدة مقالات للعثور على حقائق الأدب العربي وللمعرفة بخصائص الشعر العربي والنثر العربي وان هذه المقالات مليئة بالذخائر الثرية ومكتنزة بالانتفاعات ومنها المقالة «عربي زبان» (اللغة العربية) التي كتبها العلامة لذكر بداية تاريخ اللغة العربية وقدمها مقابل اللغتين؛ العبرية والسريانية وكذا كتب مقالة حول «فن البلاغة» وأثبت فيها في ضوء الدلائل أن البلاغة نشأت وترعرعت بأيدي المسلمين لا بجهود أرسطاطاليس ويقول إن كتاب «دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجاني أوّل كتاب في فن البلاغة وكذلك قدّم استعراضه عن تفسير القرآن «نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان» و«جمهرة البلاغة» للأستاذ الفراهي وأشار فيه إلى آرائه التفسيرية ونظم القرآن. والأستاذ الفراهي كان ممتازًا عن غيره من المفسرين لأجل فكرته لـ«نظم القرآن». يقول في هذه المقالة إن الفراهي لا مثيل له بهذا الصدد لأنه مثّل البلاغة في ضوء القرآن الكريم والبلاغة القرآنية التي قد فاقت جميع البلاغات العالمية. وفي هذا الصدد وجدت مقالة العلامة بعنوان «شعر العرب» التي تقدم المعلومات الكثيرة عن بداية الشعر العربي وكان

أول شاعر عربي نظم القصيدة المهلهل بن ربيعة وكذلك توجه الأستاذ العلامة إلى الشعراء الجاهليين والمخضرميين والإسلاميين والمحدثين وعبّر عن رأيه عن القصائد المدحية والهجائية والعشقية والفخرية. وهنا أودّ التوضيح أن العلامة يريد أن يعدّ كتابًا جامعًا يحتوي على جميع المباحث والمناهج والاتجاهات الشعرية العربية وينبغي لنا أن نخبر بأن الأستاذ عبدالسلام الندوي قد اعتنى بهذا الموضوع المهمّ بعد وفاة أستاذه العلامة شبلي النعماني وأنا سمعت أيضًا عن الأستاذ المرحوم كبير أحمد الجائسي أن الشيخ الندوي ألّف عديدًا من الأجزاء من هذا الكتاب ولكن ما طبع هذا الكتاب حتى الآن ووجدت في خزينة المخطوطات بدار المصنفين، أعظم جراه هذه المخطوطة فلو طبعت هي فستكون نافعة لدارسي اللغة العربية.

كما أن العلامة أبدى رأيه عن الأدب العربي موضحًا أهمية العديد من الشخصيات الأدبية العلمية ومنها الفلسفي الأندلسي والأديب الفذّ ابن رشد الذي كان رئيسًا للفقهاء الإسلاميين وطار صيته بين الأوساط العلمية فقيهًا وأديبًا وماهرًا في فقه اللغة وإن هذه المقالة وفّرت أخبارًا ملموسة عن شخصية ابن رشد ومساهمته في شتى المجالات العلمية والفكرية. وكذا ألقى العلامة بعض الأضواء، في مقالة وجيزة، على شخصية ابن تيمية وأشار إلى منزلته بين معاصريه بينما خالفه العلماء وعاندوه بسبب علمه الغزير وفكره العالي وكذلك عارضه الأحناف والشوافع والمالكية والحنابلة لأجل صيته الذائع فيما بين المفكرين والمجتهدين.

قد ذكرنا في البداية أن العلامة قد أعطاه الله موهبة النقد وقوة التحليل الشعري وهذه القدرة وجدت في مقالته التي أعدّها عن المتنبي وميزاته الشعرية والفكرية، وكان المتنبي شاعرًا باسلًا ويكره نظم القصائد المدحية وقد ثبت من محامده أنه لم يمت لحتفه بل أصبح ضحية الحرية والحمية. وكذا عبّر العلامة عن حياة فريد وجدي وفلسفته عن الاجتماع والسياسة والمرأة. وأن فريد وجدي له سمعة دولية في الأدب العربي الجديد

وخاصة أهدى المفكرين العالمين بأن الإسلام قد فاق جميع الديانات العالمية وأنه اشتهر بمصنفاته أمثال "الفلسفة الحقة في بدائع الأكوان" و"الإسلام في عصر العلم" و"سفير الإسلام إلى سائر الأقوام" و"تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس الطبيعة". ولا شك أنه اختار طريقة فريدة وأسلوبًا وحيدًا لتقديم آرائه الفلسفية وهو يحبّ الفلسفة حبًّا جمًا. كما نحن نعرف أن العلامة اشتاق إلى أبطال الإسلام وألّف عدة تراجم لبيان عزتهم وشوكتهم فنذكر على سبيل المثال "الفاروق" و"الغزالي" و"المأمون" وما عدا ذلك. وقد أعدّها الأستاذ العلامة في ضوء المصادر العربية.

تاريخ التمدن الإسلامي: ونقول بدون تردد وتذبذب إن جلّ مقالاته ومصنفاته، وخطبه ورسائله الأردية تمثّل الأدب العربي والثقافة الإسلامية وكذلك كتاباته وأبياته العربية قد ساهمت مساهمة ملموسة في إنهاض اللغة العربية وكان العلامة يقدر على التكلم والمحادثة باللغة العربية ولقد حدّث مع علماء الأزهر والباحثين اليسوعيين في أثناء رحلته وشارك معهم في المباحثة العلمية. هنا نريد أن نركّز وجهتي على مصنفاته العربية التي تلقت مكانًا شامخًا لدى الدارسين والباحثين وترجمت بلغات أخرى ومنها «الانتقاد على التمدن الإسلامي» كما ذكرت عنه قليلًا في مستهل المقالة. أشار العلامة بأن جرجي زيدان يذم العرب ويقول عن خلفاء بني أمية وبني عباس أنهم ارتكبوا الإهانة بالدين الإسلامي، وجّهوا إلى الأمة الإسلامية اتهامات عديدة في ضوء الدلائل الرديئة الفاسدة فردّ عليه العلامة النعماني وكشف الستار عن خدائعه العلمية والمفتريات الرذيلة ضد الإسلام.

كتاب الجزية: وأعدّ العلامة رسالة وجيزة (Monograph) عن الجزية التي كان يأخذها المسلمون من شعبهم غير المسلم نظرًا لصيانة دمائهم وأموالهم. في الحقيقة هي أجرة لخدمات الجنود للدولة الإسلامية ولكن المستشرقين اتهموا الإسلام أنه يأخذها من غير المسلمين ليدخلهم في الإسلام جبرًا وكرهًا فقدّم العلامة أولًا معنى الجزية وتاريخ بدايتها

ومن ثم أثبت بالدلائل العديدة أن قانون الجزية اشتمل على العدل والعقل وأن غير المسلمين كانوا يؤدون جميع النشاطات الدينية والإجراءات العائلية بعد أداء الجزية بدون أي تقييد.

تاريخ بدء الإسلام: إن رسالة «تاريخ بدء الإسلام» تتعلق بالسيرة النبوية وذكرت فيها الشمائل النبوية ومراحل السيرة النبوية من طفولة النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى وفاته صلّى الله عليه وسلّم للأطفال الصغار وتترك تأثيرات عميقة على أذهانهم وتصلح أخلاقهم وتهديهم إلى الصراط المستقيم وقد أعدّها العلامة في ضوء تاريخ الفداء والشفاء والكامل لابن الأثير والمصنفات الأخرى التي تتعلق بالسيرة النبوية وكذلك استمد العلامة بالآيات القرآنية لتوضيح الجوانب النبوية وقد نقلها إلى الفارسية تلميذه الأستاذ الإمام عبد الحميد الفراهي لكي يعمّ نفعها كلّ جاء وآتٍ. وهذه الرسالة دلّت على عبقرية العلامة النعماني وقدمه الراسخة في السيرة النبوية.

إسكات المعتدي على إنصات المقتدي: والرسالة الأخرى بعنوان «إسكات المعتدي على إنصات المقتدي» أعدّها العلامة باللغة العربية لكي يثبت أن قراءة الفاتحة لا تجوز خلف الإمام في أي صورة. وفي الحقيقة أعدّها العلامة لتائيد المذهب الحنفي فقد ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وآثار الصحابة رضي الله عنهم لتعضيد رأيه وقبل طبع هذه الرسالة أعدّ العلامة رسالة صغيرة باللغة الأردية وإن كثيرًا من العلماء خالفوا وجهة نظر العلامة وخاصة الأستاذ عبد الحي الفرنجي محلي الذي كتب الرد عليها بعنوان: «إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام» وكذلك كتب تلاميذ عبد الحي الرسائل العديدة ضدّ هذه الدعوى. فاتضح من رسالة العلامة أنه كان واقفًا على المراجع الفقهية وله باع طويل في أخبار الفقهاء وانتشرت هذه الرسالة في أرجاء البلاد العربية ولنوضّح هنا أن العلامة كان متشددًا ومتصلّبًا في مذهبه ولكن السيد أحمد خان جعله رحيب الصدر، عميق النظر، طليق الفكر وأطلعه على آفاق علمية وفكرية واسعة.

طبقات ابن سعد: وكذا أعدّ العلامة رسالة بعنوان «طبقات ابن سعد» وهي في الحقيقة جزء من «طبقات ابن سعد» يتعلق بالسفراء والوفود التي أرسلها النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى قبائل ومناطق مختلفة لدعوة الدين وبعدُ نقلها الأستاذ الفراهي إلى اللغة الفارسية. وإنها تدلّ على شغف العلامة بالسيرة النبوية ومن حسن الاتفاق أن العلامة لبّى دعوة ربّه وهو مشغول في إعداد كتابه الموسوعي الشهير "سيرة النبي" (صلّى الله عليه وسلّم).

الرسائل العربية: وبعد إلقاء الضوء على مؤلفاته العربية يجدر بنا أن نركّز عناية القرّاء برسائله العربية. وقد جاء في الأسطر المذكورة أعلاه أن العلامة ذاع صيته في البلاد العربية وكان يكتب الرسائل إلى علمائها وباحثيها ولكن السيد سليمان الندوي ما نجح في جمع كافتها فلا توجد في «مكاتيب شبلي» إلا ثلاث رسائل ولو وجدت رسائله العربية كلها لثبتت إضافة جيّدة في الأدب العربي وجاءت النواحي الجديدة من الأدباء المصريين. فيناسب لي أن أنقل رسالة منها لكي نشاهد تصويرًا رائعًا عربيًا للعلامة:

«هذا ديوان الصبابة يصل إليكم وأما إني فلا يمكنني حضور لديكم لأني اشتغلت بأمور غير طائلة وقعدت همتي وصرفت عنان العناية إلى الدنيا الدنيئة وبرأت من تحصيل كمال العلم والأدب ذمتي فإني بحمد الله خلقت وكسب الفضل سيط من دمي فهو لا يفارقني إن شاء الله في حالتي وجودي وعدمي. بل لأني لملازمتي هذه العهدة الرذيلة وأتفكر في حالتي فيزيد همي ويزداد ملالتي وبيدكم الإنصاف ما هذا إلا الجور والاعتساف فصبر جميل وهو حسبي ونعم الوكيل».

لا غرو في أن القرّاء تحيّروا من أنّ العلامة كان يقرض القصائد والمنظومات بالعربية كما كان ينظمها في اللغتين؛ الفارسية والأردية واعترف النقاد بمؤهلاته الشعرية الفارسية والأردية. ونحن نقول بإذعان إن العلامة قد نظم عدة قصائد ولكنها قد اختفت عن عيوننا لأجل صروف الدهر. وقد نظم العلامة قصيدة جيدة لإبراز شخصية السير سيد أحمد خان

وخدماته الاجتماعية والتعليمية والإسلامية والأدبية واللسانية البارزة وأنا أنقلها هنا لكي نحلّل قدرته العربية على نظم الشعر العربي و نعرف ولوعه الشديد بالآداب العربية:

المجـد يصـحب علمـاً حيثمـا يصـل ... والعلـم عـن قومنـا لا زال يرتحـل
نـالوا مـن الـذل مـا لا نالـه أحـد ... إذا لا يـرى فـيهم علـم وعمـل
و لا تـزال تـرى ينشـتّ شملهـم ... في كـل يـوم وقـد ضـاقت بهـم حيـل
لا يرغبـون إلـى مـا كـان ينفعهـم ... فجـل صـنعتهم للـغي والخطـل
تـراهم اليـوم فـي كـأب وفـي قلـق ... فـلا أفـاد فتـيلاً مـا بـه اشـتغلوا
لا ينتهـون وقـد ذاقـوا وبالهـم ... عـن سـوء صـنع فقـد بـاءوا بمـا عملـوا
وهـل يجـازيهم إلا بمـا اكتسبـوا ... مـن كـان مـن عنـده الأحكـام تنفصـل
فمـن سـعى اليـوم في إصـلاح حـالهم ... فـالله جازيـه يومـاً يقطـع الأمـل
إن كنـت تسـئلني مـن هـذه صـفته ... قلـت الإمـام الهمـام السـيد البطـل
هـو الـذي فـاق فـي الآفـاق منزلـة ... ونـال مـا لـم تنلـه الأعصـر الأوّل
مـن أقبـل الـدين والـدنيا عليـه معـا ... والآن فـي نجـح مـا قـد رام مشـتغل
نـال المكـارم مـن آبائـه ومـشى ... فـي المكرمـات عـلى آثـار مـا فعلـوا
فجـدّه سـيّد الأعـراب والعجـم ... قـد قـال يـا أمتـي لمـا دنـا الاجـل
وهكـذا صـنعُ هـذا السـيد العلـم ... يقـول يـا لهـف قـومي سـيئ مـا عملـوا
يـاخير مـن سـيط حـبّ القـوم مـن دمـه ... أحسـن ولا تبتـئس مـن سـوء مـا عملـوا
أحسـن إلـيهم ولـو جـازوك سيئـة ... ولا تبـال بمـا قـالوا ومـا فعلـوا

فلا نتردّد في أنّ العلامة ينطلق لسانه في نظم خواطره والإعراب عن عواطفه بالعربية. طبعًا أن الله تعالى قد جمع مواهب متعدّدة في شخصية العلامة وإنه بالفعل استخدمها

في مجالات دينية وسياسية واجتماعية وانتقادية، ويريد سيطرة الأدب العربي على الآداب الأخرى وسيادته في الأوساط العلمية العالمية لأن الاشتغالات الفكرية لا تنكشف بدونه ولا يدخل الفقهاء رموز الشريعة الإسلامية بغيره ويتمنّى العلامة من الباحثين الإسلاميين أن يستوعبوا المصادر والمراجع العربية لتدوين المباحث الإسلامية ويطلب من طلبة المدارس الإسلامية أن يبرعوا في الكتابة وإلقاء المحاضرات فاعتناؤه باللغة العربية قد جاء بإنتاجات نافعة من قبل الجامعة الإسلامية بعلي جراه، ودار العلوم ندوة العلماء بلكناؤ، ودار المصنفين بأعظم جراه، ومدرسة الإصلاح بسرائ مير (أعظم جراه) وكذلك قد جاء تلاميذ كثيرون لرقي اللغة العربية بتربيته الخاصة فمنهم الأستاذ عبد الحميد الفراهي والسيد سليمان الندوي ومولانا أبو الكلام آزاد وغيرهم كثيرون.

وأكتفي بهذه الكلمات وأتوقع من الملمّين باللغة العربية أن يحاولوا في البحث عن جوانبه الأخرى التي سبّبت تطوّر ورواج اللغة العربية. ونودّ أن ننهي هذه المقالة المتواضعة على ما افتتح به الأستاذ أنطون عن العلامة من الكلمات مجلته «البشير»:

«اجتمعنا في هذه الأيام على حضرة العالم الشيخ شبلي النعماني المعلّم الأول للعلوم العربية في بلدة علي كره من بلاد الهند فرأينا فيه رجلًا كثير المعارف وهو حائز النشان المجيدي من الرتبة الرابعة. أقام في الآستانه العلية مدة 3 أشهر وحضر إلى بيروت وتوجّه هذا النهار إلى زيارة بيت المقدس ثم منها إلى مصر ثم إلى بلاد الهند»

المصادر والمراجع

1. إسكات المعتدي على إنصات المقتدي، العلامة شبلي النعماني، مطبع نظامي، كانفور، (بدون تاريخ)
2. آغاز اسلام (ترجمة بدء الاسلام)، العلامة شبلي النعماني، رحماني بريس، دهلي، 1343هـ
3. الانتقاد على التمدن الإسلامي، الشيخ الأستاذ شبلي النعماني الهندي، مطبع آسي، لكناؤ، 1912م
4. تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، الطبعة الرابعة، مطبعة الهلال، مصر، 1903م (المجلد الثاني)
5. تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان، الطبعة الرابعة، مطبعة الهلال، مصر، 1903م (المجلد الرابع)
6. تاريخ بدءالاسلام، محمد شبلي النعماني، مطبع مفيد عام، أكبرآباد (بدون تاريخ)
7. حيات شبلي، سيد سليمان الندوي، الطبعة الثانية، مطبعة معارف، أعظم جراه، 1970م
8. سفرنامه روم ومصر وشام، الشيخ شبلي النعماني، مطبعة معارف، أعظم جراه، 1940م
9. سيرة النبي (طبعة جديدة)، دار المصنفين شبلي أكاديمي، أعظم جراه، 2003م (المجلدان: 1-2)
10. طبقات محمد بن سعد (ترجمة فارسية: الأستاذ حميدالدين الفراهي)، الطبعة الأولي، مطبع مفيد عام، آغره، 1981م
11. رساله بدء الاسلام (ترجمة فارسية: حميدالدين الفراهي)، الطبعة الأولي، تجارتي بريس، علي جراه، (بدون تاريخ)
12. كتاب الجزية، الشيخ شبلي النعماني، مطبعة مفيد عام، آغره، 1312هـ
13. مقالات شبلي (إعداد: سيدسليمان الندوي)، الطبعة الثالثة، مطبعة معارف، أعظم جراه، 1956م، (المجلد الرابع)

14. مقالات شبلي (إعداد: سيدسليمان الندوي)، الطبعة الثالثة، مطبعة معارف، أعظم جراه، 1955م، (المجلد الخامس)
15. مكاتيب شبلي (إعداد: سيد سليمان الندوي)، الطبعة الثانية، مطبعة معارف، أعظم جراه، 1928م (المجلدالاول)
16. مكاتيب شبلي، (إعداد: سيد سليمان الندوي)، الطبعة الثانية، مطبعة معارف، أعظم جراه،1927م (المجلد الثاني)
17. الندوة (المجلة الأردية التي كانت تصدر من ندوة العلماء تحت إدارة العلامة شبلي النعماني ومولانا أبي الكلام آزاد)

مآثر العلامة شبلي النعماني العلمية

(خلال إقامته في مدينة حيدرآباد)

- د. محمد فضل الله شريف

تمتاز الهند عن غيرها من البلاد بإنجابها شخصيات فذة، ذاع صيتهم عبر أرجاء المعمورة، ومن هؤلاء الجهابذة العباقرة "شبلي النعماني" الذي كان يعدّ من طليعة العلماء الهنود كمؤرخ إسلامي وكاتب قدير في العصر الحديث، وهو أحد أعلام النهضة العلمية والأدبية بها، له خدمات جليلة تستحق التحبيذ والتقدير في مضمار التأليف والتحريك، وكانت كتبه ورسائله يملأها العلم الجمّ، وتحتوي على موادّ قيمة ابتكرها قريحته وأبدعها فكره الثاقب، ولقد كانت ذاكرته مخزنًا ورصيدًا للمعلومات المنفردة، ومن يطالع أيّ كتاب له يبهره ويدهشه ما يجمعه ويراكمه من المعلومات الغزيرة بعد تقليب صفحات معدودات منها، إنه ليس كمثل المؤلفين الذين يجمعون من هنا وهناك، ينتخبون ويختارون الموادّ من كتب مختلفة، ومن ثم يؤلفون كتبهم من غير أن يضمّوا إليها فكرتهم النيرة بل كان من موهبة الله عليه أنه حظي بكفاءة وقدرة كاملة على الكتابة في التاريخ والفلسفة الإسلامية، وهو يدّخر في كتبه من نخبات التاريخ ما يبهر العقول ويلحقها الدهشة والحيرة.

نبذة عن حياته:

هو محمد شبلي بن حبيب الله بن سراج الدولة المعروف بـ"شِبْلي النعماني"، وُلِد العلامة شبلي في قرية "بندول" إحدى قرى محافظة أعظم كره بالهند سنة 1275هـ الموافق لسنة 1858م، لأبٍ من أصلٍ برهَمي، وكان جدُّه الثالث عشر "سيفراج سنغ" اعتنقَ الإسلام وتسمّى "سراج الدين" وكان والده الشيخ "حبيب الله" من العلماء فاعتنى بتنشئته ورعايته ليشبّ محبًا للعلم، وقد ارتحل شبلي في طلب العلم وتنقل بين لكناؤ ودلهي ولاهور

ورامفور وسهارنفور وغيرها من المدن الهندية؛ فدرس الأدب والفقه والحديث وعلوم الفارسية والعربية، كما درس الهندسة والمنطق والفلسفة، وتلقّى العلم على عدد من أعلام الهند، منهم الشيخ محمد فاروق التشرياكوتي، والشيخ أحمد علي، والشيخ إرشاد حسين، والشيخ فيض الحسن السهارنفوري.

ثم ولّي التدريس بمدرسة العلوم في عليكره، فصحب الأساتذة الغربيين وأجرى معهم الحديث حول موضوعات شتى، وصحب السيد أحمد بن المتقي الدهلوي وحزبه، ومن ثم حصل له نفور كلي عن المباحثة، ومال إلى التاريخ والسير فصنّف كتابًا في سيرة المأمون العباسي، وسيرة النعمان في سيرة الإمام أبي حنيفة وكتابه الجزية وحقوق الذميين، وكتابًا في تاريخ العلوم الإسلامية وتعليمات الإسلام، وكلها تلقّت بالقبول، وله كتب ورسائل غير هذه، ككتابه في فن الكلام، وكتابه في تاريخ الكلام، ورسائله ومقالاته وكتابه في سيرة الغزالي، وكتابه في سيرة العارف الرومي وفي نقد شعره والحكم عليه، وله كتاب بسيط في سيرة سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، وهو كتاب رائع ممتاز، وله كتاب في الموازنة بين الشاعرين الهنديين المعروفين من شعراء الرثاء أنيس ودبير وله" إزالة اللوم في ذكر أعيان القوم "وله " شعر العجم" في خمسة مجلدات وهو من أروع مؤلفاته، أقرّ له علماء هذا الشأن بالفضل والجودة، وله كتاب في الانتقاد على مقالات جرجي زيدان بالعربية في التمدن الإسلامي، وله مقالة في مكتبة الإسكندرية وله ديوان الشعر الفارسي، ومن مصنفاته المجلدان من السيرة النبوية، وكان يريد أن يصنّفه في خمسة مجلدات فلم يوفّق إتمامَه، فقام بتدوينه بعض تلامذته وعلى رأسهم السيد سليمان الندوي فأقاموا له مؤسسة عظيمة بأعظم كره وسمّوها بـ"دار المصنفين".

وحصلت له شهرة واسعة في بلاد الهند، وسافر إلى بلاد الروم والشام ومصر ولقي رجال العلم والدولة هناك، وأعطاه السلطان عبد الحميد العثماني النيشان من الطبقة الرابعة، ولما رجع إلى الهند لقّبته الدولة الإنكليزية "شمس العلماء" فأقام بعد ذلك زمانًا يسيرًا بمدرسة العلوم، ثم اعتزل وراح إلى حيدر آباد فرحّب به السيد علي البلكرامي وأكرم مثواه

وولّاه نظارة العلوم والفنون فأقام بها خمس سنين، ثم ترك الخدمة واقتنع بمائة روبية شهرية بدون شرط الإقامة بحيدر آباد، فقدم لكناؤ. وأقبل إلى ندوة العلماء وكان عضوًا من أعضائها البارزين، فوله على دار العلوم التي أسّسها أعضاء الندوة سنة1317هـ فاشتغل بالنظارة مدة ثمانية أعوام، وقد فدعت رجله اليسرى من ضرب البندقية التي انطلقت من يده خطأ في بيته بأعظم كره سنة 1324هـ فقطعها الجرّاح الإنكليزي من الساق، ثم صنعت له رجل من أدم وخشب، فكان يدخل فيه رجله المقطوعة ويربطها بالرباطات المحكمة ثم يمشي كالأصحاء.

مات بالإسهال الدموي ضحوة يوم الأربعاء لليلة بقيت من ذي الحجة سنة 1332هـ ببلدة أعظم كره.

خدمات شبلي العلمية والتاريخية والأدبية خلال إقامته في مدينة حيدرآباد

ونتدرج من هنا إلى موضوعنا الرئيسي، خدماته العلمية خلال إقامته بمدينة حيدرآباد، وكان كل من يقف على شبلي يعرف جيدًا أنه من الكتّاب الماهرين والمؤرخين النابغين الذين تجري نفثات أقلامهم ليل نهار من غير تعب ولا ملل، لا يعوقها ولا يعرقلها أيّ عائق من تدهور الأحوال، وتقلب السياسة، لا يستيقن أحد أن شبلي صنّف كتبه الخمسة في التاريخ الإسلامي والفلسفة والشعر والأدب خلال إقامته في مدينة حيدرباد، التي تستغرق أربع سنوات فقط أو أقل منها. على الرغم من أنه أمضى هذه السنوات الخمس بين التردد والتفكر في إقامتها لاضطراب الأحوال السياسية، وكذلك لم تساعده الأحوال السياسية المتدهورة خلال هذه المدة القليلة، ولكن هذا التراث العلمي التاريخي الذي جاء بيد العلامة تنسب إلى مدينة حيدرآباد.

رحلته إلى مدينة حيدرأباد:

قصد شبلي حيدرآباد في أواخر سنة 1901م، فلما وصل إليها حلّ عند عزيز مرزا كضيف له، فلما اطلع المولوي سيد علي البلغرامي على قدومه سار إليه فورًا، وأحلّه في بيته، فلما بلغ الناس نبأ قدوم شبلي إلى المدينة فرحوا، وعقدوا حفلة عظيمة ليخاطبهم هذا الضيف

الكريم، فازدحم الناس وعدّهم نحو خمسة عشر مائة نفر، فخاطبهم شبلي بخطاب مبسوط ومحقّق، وناقش خلاله عن علم الكلام، وجاء هذا الخطاب بعدُ في صورة الكتاب. أولًا فوّض إليه نواب مدار المهام بهادر رئيس الوزراء منصب الشئون الدينية والأوقاف، فلم يقبله العلامة، ورفضه رفضًا باتًا، وقد تم، قبل قدوم العلامة إلى المدينة، تأسيس معهد لنشر الكتب المهمة في العلوم والفنون، ومن أهداف هذا المعهد نشر المؤلّفات الأردية التي تمت ترجمتها من العربية، ثم وُلّي العلامة نظارة إدارة العلوم والفنون، وقد جاء تأسيس هذا المعهد سنة 1894م، وكان يرأسه أولًا مولانا محمد مرتضى، وقد عُزل مولانا بعد مجيئ العلامة عن هذا المنصب.

فلما رفض العلامة منصب الناظر للشئون الدينية، فولّي منصب نظارة العلوم والفنون سنة 1319هـ، فطبع خلال رئاسته مؤلفات شتى مثل" نظام أكبري "سنة 1901م، و"الغزالي" سنة 1901م، و"علم الكلام" سنة 1902م، و"تاريخ دكن" (الجزء الثالث) 1903م، و"الكلام" 1904م، و"موازنه دبير وأنيس" 1904م. وتم تعيين خمسمائة روبية شهريًا كراتب له.

1. الغزالي:

بعد أن تم تفويض قسم العلوم والفنون قام العلامة جاهدًا في دراسة علم الكلام وجمع الموادّ وترتيبه وتهذيبه، فجمع المواد القيمة خلال دراسته حول علم الكلام، فلما فرغ العلامة من تصنيف "الفاروق" طلب منه السير سيد أن يوجّه عنانه فيميل إلى سيرة الغزالي، وعن علم الكلام، لأن الغزالي كان من الذين جعلوا علم الكلام موضوع نقاشهم، وله عدة تصانيف في هذا الفن، وخاصة "تهافة الفلاسفة"، فيقول بنفسه في مقدمته للغزالي:

"علم الكلام من مخترعات ومبدعات المسلمين، إنهم أول من سبقت أيديهم إليه في إيجاد هذا العلم، فإني أحاول أن أكتب حول علم الكلام تاريخًا كاملًا مبسوطًا، وقد قسّمته في أربعة أقسام: الأول: بحثت فيه عن علم الكلام وعهوده وأزمانه المختلفة وتطوره، والثاني:

خصّصته ببيان دور علم الكلام في إثبات عقائد الإسلام وإبطال الفلسفة، وكم حصل له النجاح في هذا المضمار؟، والثالث: نطقت فيه عن حياة أئمة الكلام، والرابع: يدور فيه البحث عن علم الكلام الجديد .فبدأت باسم الله الجزء الأول والثاني، وجعلت أكتب الجزء الثالث عن حياة الإمام الغزالي، هذا الجزء طُوِّلَ وأطنب؛ حتى أصبح كتابًا مستقلًا بحياة الغزالي وعلم الكلام، فقمت بطبعه مستقلًا وعلى حدة."

وقد فرغ العلامة من تصنيف هذا الكتاب حتى 22/ فبراير سنة 1902م، عُلم بذلك أنما جاء هذا الكتاب القيّم في حيز الوجود في أيام قلائل في عدة شهور فقط، ولكنه استعد بنفسه وذهنه لتأليف هذا الكتاب منذ زمن بعيد، عندما طلب منه السير سيد عن تأليف "الغزالي" و"الفاروق" فتناول في هذا الكتاب حياة الغزالي والعناصر والمبادئ التي عملت في بناء شخصية الغزالي، كما ناقش عن كتب الغزالي في الفقه والتصوف وفي الكلام، ولكنه عرض شخصية الغزالي كمتكلم ومبتدع لعلم الكلام، وذكر من كتب الغزالي مثل "حكمة الإشراق"، و"محك النظر" و"مقاصد الفلاسفة" و"المنتحل" وغير ذلك. إن هذا الكتاب طبع أولًا من مطبع منشي رحمة الله رعد في كانبور سنة 1902م، ولما طُبع ونشر لأول مرة حُظي بالقبول في الأوساط العملية.

محتويات الكتاب: هذا الكتاب للعلامة يستغرق مائتين وإحدى وخمسين صفحة، فناقش فيه أولًا من الصفحة الأولى إلى الصفحة الخامسة والثلاثين عن حياة الإمام الغزالي؛ عن اسمه وأبيه، وكيف حصل على العلم، وعن أسفاره في تحصيل العلم وعن أساتذته، وعن نيشابور وأحوالها السياسية، كما ذكر أن الإمام كيف وصل إلى بلاط الملك، وعن تعيينه أستاذًا في المدرسة النظامية، وما كان للعلامة أثر وقبول في الناس وعند الملوك، ثم أورد تركه علائق الناس، وطلبه العزلة والوحدة، وعن حبّه للتصوف والصوفية، والزهد والعبادة، والاشتغال بالله وبذكره تعالى، وعن مناصبه وعن كتبه، وعدّ من كتبه هذه:

1. **في المنطق:** معيار العلم، ومحك النظر، وميزان العمل.

2. **في الكلام:** تهافة الفلاسفة، والمنقذ، وجام العوام، والاقتصاد، والمستظهري، وفضائح الإمامية، وحقيقة الروح، وقسطاس المستقيم، والقول الجميل في الرد على من غيّر الإنجيل، ومواهم الباطنية، وتفرقة بين الإسلام، والزندقة، والرسالة القدسية.

3. **في التصوف والأخلاق:** أحياء العلوم، وكيمائ سعادت، والمقصد الأقصى، وأخلاق الأبرار، وجواهر القرآن الأسني، وجواهر القدس في حقيقة النفس، ومشكوة الأنوار، ومنهاج العابدين، ومعراج السالكين، ونصيحة الملوك، وأيها الولد، وهداية الهداية، ومشكوة الأنوار في لطائف الأخيار، وبعد سرد الكتب ناقش عن بعض الكتب تفصيلًا، وهذا البحث يبتدئ من صحفة 38 وينتهي على الصحفة 52.

ثم أورد الذكر عن العلوم والفنون التي رغب فيها العلامة وتصانيفه فيها، خاصة ذكر فلسفة أخلاقه عن كتابه "إحياء العلوم". فيقول العلامة شبلي عن فلسفة الأخلاق للغزالي:

"لم يقتصر الغزالي أنه مزج الفلسفة في الأخلاق، بل أوسع هذا الفن بحيث يُري فلسفة الأخلاق لليونانين بمقابلته كالقطرة أمام البحر الواسع، أن الحكيم ابن مسكوية جعل ثمانية أقسام للأمراض الأخلافية، اكتفى على الدلالة لمعالجة التهور والجبن والحرص والجمود، والسفاهة والبلادة والظلم والذلة فقط، والأمراض الأخلاقية الباقية لم يدل على طريقة علاجه أو لم يعتن بها أو لم يلتفت إليها، ولكن الغرالي استقصى وأحاط جميع الأمراض الأخلاقية، ثم فصل تفصيلًا لكل مرض، ونبه إلى الأمراض، ودلّ على طرق علاجه المختلفة بكل دقة نظر، أقام لكل مرض عنوانًا خاصًا، مثل الحسد، والجاه والرياء، والعجب، والغرور، والغضب، والبخل، والغيبية، والكذب، واللايعني وغيرها، وإن كان قد فصّل وبسط الكلام حول الأمراض الأخلاقية مثل أبو مكي، والراغيب، والإصفهاني، وغيرهم من أهل الفن، ولكن ما بلغوا الغاية القصوى بلغ إليها الغزالي من جمع الدقائق واللطائف وغيرها (الغزالي : 81)

ثم فصّل ذكر كل رذيلة أخلاقية قد أوردها الغزالي في إحياء العلوم، وذكر نهج الغزالي في معالجة هذه الأمراض الخبيثة. هذه البحث يشرع من الصفحة 52 ويختتم على الصفحة 102.

ثم ركّز عنايته بذكر علم الكلام ودور الغزالي فيه، فأورد فيه عن ذكر كتبه المختلفة في الفلسفة، فقال: إن الغزالي أولًا وجّه عنايته إلى المنطق وإن لم يجعله موضوعًا له، وكتب فيه مثل "محك النظر" و"معيار العلم"، فيذكر فيهما مسائل المنطق ويردّ عليها، وكذلك صنّف كتابه في الفلسفة، وهو "مقاصد الفلاسفة" ثم ألّف كتابًا في الردّ على الفلسفة باسم "تهافة الفلسفة".

فيقول العلامة شبلي: إن من أهم إنجازات الغزالي ومآثره العملية التي أدّت إلى ذياع صيته عبر الآفاق أنه أثبت عقائد الإسلام بالدلائل العقلية بجانب الدلائل النقلية، وهذا من إبداعات الغزالي بحيث أنه مزج الدلائل العقلية بالدلائل النقلية، وهذا العمل لم يقم به أحدٌ قبله، وإن كان أصل أصول الإسلام الجرئين لكلمة " لا إله إلا الله، محمد رسول الله" ولكن المسلمين اختلفوا فيما بينهم في تفاصيل هذين الجزئين، ولكن الإمام الغزالي ينسب إلى الفرقة الأشعرية في الكلام، ولذا اهتم كثيرًا في كتابه "إحياء العلوم" بذكر مسائل الكلام والعقائد وفقًا لفرقته الأشعرية (الغزالي من الصفحة 119 إلى الصفحة 169)

ثم ناقش عن علم التصوف كيف أوجد علم التصوف ومن كانوا ينتسبون إليه وغير ذلك إلى آخر الكتاب إلى الصحفة 250 .

2. علم الكلام:

بعد أن فرغ العلامة خلال قيامه في مدينة حيدرآباد عن الغزالي شرع في كتابه "علم الكلام". إنما جاءت فكرة هذا الكتاب لما طبع مقالته في مجلة " تهذيب الأخلاق" باسم "المعتزلة والاعتزال" سنة 1895م، ثم كتب في هذا الموضوع في حين لآخر، كأن هذا الكتاب من جملة الكتب له في علم الكلام كتمهيد لها، فبحث في هذا الكتاب عن علم الكلام وتاريخه وتدوينه، كيف جاء هذا العلم من العدم إلى حيز الوجود، ومن أسّسها أولًا؟ وناقش عن موضوعات علم الكلام: الإلهيات، والمعاد والآخرة والجنة والنار والبعث بعد الموت وغير ذلك. وقد فرغ عن تصنيف الكتاب فبراير سنة 1902م، أُرسل هذا الكتاب إلى مطبع آكره في فبراير سنة 1902م، أتى على منصة الشهود في مارس سنة 1903م. هذا

الكتاب يحتوي على مائتي صفحة.

محتويات الكتاب: كتب العلامة شبلي في هذا الكتاب عن تاريخ علم الكلام، ولماذا ظهر هذا العلم، وكيف نشأ وتطور، فيقول في هذا الصدد:

"إن الله عز وجل أوجد طبائع الإنسان مختلفة، فمنهم من كانوا يجربون كل شئ على مقياس عقولهم، ومنهم من يقبلون كل شيء من غير طلب دليله وعلته معتمدًا على قائله، لم يخلُ زمان من هذا القسمين من الرجال، ففي زمن الصحابة فمنهم من كانوا يعتقدون أن الميت يعذب ببكاء أهله ومنهم من ينكرونه مستدلًا بالحديث بأن الميت يعذب ببكاء أهله، والمنكرون يستدلون بأنه كيف يعذب أحد باقتراف ذنب آخر، وكذلك فمنهم من يقول إن الميت يسمع، وبعض منهم ينكره مستدلًا بالآية: إنك لا تسمع الموتى ..... هذا اختلاف الأمزجة والطبائع قد أحدث اختلافًا في مسائل العقائد، فأوجد ذلك فرق المعتزلة والأشاعرة والماتردية وغيرها. نبين اختلاف العقائد في المثال هناك.

1- **الدرجة الأولى :** بأن الله جسماني، متمكن على العرش، فله يد وفم، يثبت ذلك بأن الله عز وجل وضع يده على ظهر النبي - صلّى الله عليه وسلّم - فأحسّ النبي - صلّى الله عليه وسلّم - برد يده في جسمه. هذا اعتقاد الظاهرية.

2- **الدرجة الثانية:** بأن الله جسماني، فله يد وفم وساق ولكنها ليست كمثلنا، هذا قول أصحاب الرواية.

3- **الدرجة الثالثة :** بأن الله ليس له جسم، ولا له فم، ولكن المراد بهذه الأعضاء ليس معناها الحقيقي، بل المراد منها معناها المجازي.

4- **والدرجة الرابعة :** بأن لله عز وجل صفات ليس عينها ولا غيرها، هذا اعتقاد الأشعريين.

5- **الدرجة الخامسة :** بأن الله واحد، ليس له الكثرة، وذات الله عز وجل يعمل عمل صفاته، بأن ذاته عليم، بصير، سميع، قدير.

6- **الدرجة السادسة:** أن الله عز وجل ذات مطلق، بحيث أن وجوده عين ماهيته. هذا اعتقاد الصوفية، وهذه مسألة وحدة الوجود" (علم الكلام، 13-17)

يقول العلامة شبلي إن هذا الاختلاف أوجد الخلاف فيما بين المسلمين، فأحدث ذلك علم الكلام. ثم ذكر عن الأدوار المختلفة لعلم الكلام من عهد معاوية إلى عهد العباس، وذكر خلال ذلك الفرق المختلفة في علم الكلام، والمصنفون ومؤلفاتهم حسب عقائدهم، ثم بحث كيف امتزج بالفلسفة الدلائل العلقية بجنب الدلائل النقلية بعد أن كان علم الكلام خاليًا عن الدلائل النقلية. هذا هو الدور الأول.

ثم ألقى العلامة شبلي نظرة خاطفة على علم الكلام للأشاعرة، وهذا هو الدور الثاني لعلم الكلام. فيقول العلامة شبلي وهو يقسم علم الكلام عند الأشاعرة إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول هي المسائل الفلسفية الخالصة، والمسائل الفلسفية يعدها المتكلمون مخالفةً للمدهب، والقسم الثاني هي المسائل الإسلامية الخالصة، ثم بين المسائل الخلافية للأشاعرة التي بذل في إثباتها الغزالي والرازي جهودهما، فردّ شبلي عليهما بأن جهدهما لم يتكلّل بالنجاح كمثل وجود الباري وتوحيد الباري والنبوة ونبوة محمد والمعاد والآخرة وغيرها، وردّ عليها بعد ذكرها، ثم ناقش عن علم الكلام للماتردية والمسائل الخلافية فيما بينهم. ثم بحث عن الدور الثالث لعلم الكلام، وذكر فيه ابن رشد الفلسفي، ومنهج الفلسفة والكلام فيها.

ثم كتب عن حكماء الإسلام وفلسفتهم. ثم بحث عن النفس الناطقة وعن الروح عند المتكلمين. وأورد الدلائل المختلفة لها، كما أتى بذكر النبوة وبيّن حقيقة الوحي.

3. الكلام:

إن هذا الكتاب ليس مستقلًا في فن الكلام؛ بل هذا الكتاب يبحث عن علم الكلام الجديد، وهو من مجموع ما ألّفه العلامة في علم الكلام، ولكنه جاء مستقلًا لضخامته وطوالته، استمد العلامة في تأليف هذا الكتاب من العلماء المعاصرين وكتبهم في الفلسفة والكلام، وعرض كل ما يتصل بعلم الكلام في ضوء العصر الحديث مثلًا من حدوث العالم، وصفات الباري، وعن لا عين ولا غير، وعن العقائد والروحانيات والمحسوسات وغير ذلك، وعرض

فيه عرضًا سريعًا عن علم الكلام الحديث، وقدّم أمام القرّاء أن علم الكلام يساير ويرافق مع كل عصر ومصر. كما اقتبس فيه عن الإمام الغزالي وابن تيمية، والشاه ولى الله الدهلوي وذكر أقوالهم خلال البحث والدراسة في علم الكلام الحديث كشواهد ودلائل. فطبع هذا الكتاب أولًا من مطبع منشي رحمة الله رعد بكانفور.

محتويات الكتاب: هذا الكتاب يتكلم عن علم الكلام الجديد، ولذا يقال أن العلامة أول من تكلم عن علم الكلام الجديد، وأنه يعتبر مؤسسًا أولَ لها، وهو يشتمل على ثلاثمائة صفحة، ناقش العلامة أولًا عن العلوم الجديدة والمذهب وقال: يقول الناس إن العلم الجديد والفلسفة الجديدة حرّكت أسّس الأديان والمذاهب، وقلّبها، لأن الفلسفة القديمة تنطق عن القياسات والظنيات لا غير، ولكن الفلسفة الجديدة والعلوم الجديدة تبحث عن التجربات والمشاهدات، ولهذا لا يوازيها المذاهب ولا يقابلها. (الكلام، ص7)

قد أبطل العلامة فكرتهم وأثبت كل شيء بالبسط والتفصيل مع ذكر اعتراضاتهم، فمثلًا وهو يذكر من الصفحة 40 إلى 55 عن الملاحدة والمنكرين لله عزوجل وذكر اعتراضاتهم وأجاب عليهم بالتفصيل.

وهو يقول في هذا الصدد: نستيقن أنما جاء تركيب العالم عن الأجزاء الديمقراطية، وكذلك نسلم أن العالم قديم، كما يقول بذلك عدد كبير من المعترلة والحكماء وأهل الإسلام يعني الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وهو كما ذكر ابن رشد في تلخيص المقال: يستنبط هذا المعنى من الآيات القرآنية "إن السماوات والأرض كانتا رتقًا، وكان عرشه على الماء، ثم استوى إلى السماء وهي دخان" (الكلام، ص 55)

هكذا ذكر شبلي أفكار الفلاسفة وردّ على أفكارهم، وأثبت الطريق القويم وهو يبحث عن المعجزات وخرق العادة ويثبتها فيقول:

"إنما المعجزات هي الأشياء التي تخرق العادة وهي جزء لازم لكل من المذاهب والأديان ... وأنما استدل المنكرون للمعجزات قائلين بأنها تخالف قوانين القدرة، وكل شيء يخالف

قوانين القدرة يستحيل وجوده، وإنما المعجزات والأشياء الخارقة للعادة يستحيل وجودها ....ولكن اليوم من يتمهر في علم التنويم وهو بقوة نظره وقوة نفسه يقهر الآخر على رؤس الأشهاد، ولا يمكن لأحد أن ينكره" (الكلام، ص 120-121)

ويثبت العلامة المعجزات والأمور الخارقة للعادة في ضوء أفكار علماء الغرب، وهو يذكر قول كاتب في فرنسا "كميل فلا مريان" وهو يكتب في كتابه"Spritulaism " إن من الفطرة الإنسانية أنه ينكر وجود كل شيئ تخالف نفسيته ولا يقبله عقله"، ويقول هيروؤس يالين : كانت امرأة قد خلقت له الثدية في فخذه، وهو يرضع ولده منها، فلما سمعنا بذلك فجعلنا نضحك ونستهزأ بهذا الخبر، ولكن هذه الحادثة جاء تصديقها في ندوة علمية في باريس، عقدت في التاريخ 25/ يوليو سنة1827م، وشهد هذه الحادثة كثير من الناس" (الكلام، ص 123-124)

فكذلك ذكر العلامة الحوادث والحكايات عن خرق العادة، وأثبت في ضوءه المعجزات .فذكر في كل بحث أقوال فلاسفة وعلماء الغرب، ليقيم بذلك الحجة عليهم بقولهم. هكذا عرض كل مسألة في علم الكلام في ضوء اعتراضات المخالفين والمعارضين وأثبت العقيدة بذكر آراء علماء الغرب مثل ذلك، فجاء الكتاب جامعًا لعلم الكلام في ضوء العصر الجديد. فذكرنا هناك نموذجين من هذا الكتاب، وليرجع لمزيد من التفاصيل إلى أصل الكتاب.

4. حياة مولانا روم (ترجمة المولانا الرومي):

لم يكن للعلامة أي علاقة ومسّ بالتصوف والصوفية، ولكنه لما قرأ الغزالي بحيث المتكلم، وطالع كتبه وجد التصوف يدّر من كتبه، فتأثر خلال مطالعته عن شخصية الغزالي وتصانيفه بحيث أنه ما وجده كمتكلم وفيلسوف فقط، بل وبرز أمامه شخصية الغزالي كمتصوف، ولهذا ألحق في كتابه "الغزالي" بعد فراغ تأليفه مقالة عن الإمام الغزالي والتصوف، فجرّه وألجأه دراسة شخصية الغزالي إلى التأثر بالتصوف والصوفية، ويعلم كل من له إلمام بتاريخ مدينة حيدرآباد، أن تاريخها مملوء عن التصوف وأتباعه، وهذا الجانب والإقامة في هذه المدينة أيضًا تراجع فكرته عن علم الكلام إلى أن يكتب عن حياة الرومي المتصوف، إنما شخصية الغزالي قد جرّته إلى شخصية المولانا الرومي.

ومن لم يعلم المثنوي؛ بل هذا الكتاب قد درسه عدد كبير من الناس، وشرحوه وجعلوا ما فيها من المواد موضوع تأليفهم، ولكن ما ألقى أحد نظرته إلى هذا الكتاب بحيث أنه ينطق عن التصوف والصوفية، فالعلامة بحث في كتابه عن شخصية الرومي وكتابه المثنوي بحيث أن له علاقة وطيدة بالتصوف والصوفية، فأدار البحث في الكتاب عن شخصية المولانا الرومي، وما ينطق كتاب" المثنوي "عن التصوف والصوفية، وعما يشمله موضوع التصوف.

اكتمل هذا الكتاب في تلك السنة أعني سنة 1903م، وتم طبعه لأول مرة من مطبع منشي رحمة الله رعد نوفمبر سنة1905 م.

محتويات الكتاب: إن هذا الكتاب للعلامة يحتوي على أربعة ومائتي صفحة، أنه ذكر في أول الكتاب اسمه ونسبه وولادته وتعليمه من الصفحة الأولى إلى الصفحة الخامسة والعشرين، فيقول وهو يتحدث عنه: إنه يسمّى محمدًا، ويلقّب بجلال الدين، ويعرف بمولانا روم، وكان ينتهي نسبه إلى سيدنا أبي بكر الصديق ..... وكان والده يلقّب بهاء الدين، يتوطن بلخ، يعدّ من النابغين ..... ولد مولانا روم سنة 604هـ في بلخ، حصل على العلوم الابتدائية عن والده، وتلمذ على تلميذ والده سيد برهان الدين، وعندما انتقل والده إلى رحمة الله عزوجل كان آنذاك يناهز مولانا من عمره خمسًا وعشرين سنة، وقصد الشام، ودمشق، وحلب لتحصيل اللعوم ..... كان بايع على يد الشيخ شمس تبريز ثم يذكر خلاله عن أحوال شمس تبريز، وملازمته ومصاحبته بعد شمس تبريز صلاح الدين. (ترجمة مولانا روم ، 1-20)

ثم أتى بذكر أولاده وهو يقول : كان لمولانا ولدان، علاء الدين ولد، علاء الدين محمد، واشتهر ولد محمد بحيث أنه قتل شيخه شمس تبريز، وكان ولده الأكبر سلطان ولد يحب التصوف ويشغف بعلوم الظاهرية والباطنية،ثم ذكر عن معاصريه ومصاحبيه.

ثم يتكلم عن أخلاق مولانا روم وعاداته:

فيقول في هذا الصدد: "كان مولانا ذا وجاهة، قبل أن يتعلق بالتصوف، وكان شأنه يظهر بزيه ولباسه وتبحر علمه وجاه، وحينما خرج من بيته في مركبه كان يرافقه العلماء والطلاب ومحبّوه ويغدقون به، وكان يتمهر في المناظرة والمباحثة كغيره من العلماء، كما يصاحب الأمراء والملوك، ولكنه لما انتسب إلى التصوف والسلوك، تبدلت الحال إلى غير الحال، ولكن ما عُلم متى بدأ حياته السلوكية، وكان أولًا بايع السيد برهان الدين، فدرج في منازل السلوك في صحبته عشر سنين، ولكن حياته السلوكية تبتدئ أصلًا بلقاء شمس الدين تبريز، وكان يدرس ويفتى ويفيد الناس؛ ولكنه أقلّ قليل نظرًا إلى حياته من قبل، ولما انتسب إلى التصوف والسلوك كان يجاهد كثيرًا، ويقال عنه: ما رأينا بعد ذلك في لباس النوم قط، وكما لا تستخدم الوسادة للنوم، وكان يكثر ذكر الله عز وجل ومراقبته" (ترجمة مولانا روم، ص 36–35). ناقش العلامة تحت هذا العنوان عن القصص الأخلاقية وسلوكه وتعايشه مع الناس بالرفق واللين.

ثم أورد الذكر عن تصانيفه المختلفة وعن دواينه الشعرية وذكر أشعاره، ثم أتى بذكر ديوانه المثنوي في الفارسية وبسط الكلام عن شرّاحه.

يقول شبلي عن المثنوي: إن المثنوي لمولانا روم قد اشتهرت ولقيت رواجًا ما لم يلق المثنوي للآخرين؛ والأمر الذي يثير العجب أن الناس لا يعلمون عن المثنوي إلا أنه ينطق عن التصوف والصوفية فقط، وليس لهم أي إدراك عن المثنوي بحيث أنه كتاب يتكلم عن علم الكلام، فأول من أسّس علم الكلام الغزالي، ثم رقّاه وأنهضه الرازي؛ وقد صنف في علم الكلام الخلق الكثيرون بعدهما، ولكن مولانا قدّم علم الكلام بأسلوب في"مثنوي" لم يقدم الآخرون مثله، ولكن لا يوازيه الكتب العديدة في شيء، إن مولانا قدّم مسائل الكلام بحيث يصل إلى القلب ويقع فيه قبل أن يصل إلى السمع بكل يسر وسهولة، وغيره من المصنفين يثبتون مسائل الكلام بدقة ومشقة حتى يوصلوا الأرض بالسماء" (ترجمة مولانا روم، ص 104)

ثم قدّم العلامة مسائل علم الكلام التي تكلم عنها مولانا رومي في "مثنوي" في صورة الشعر وأوضح مطلبه ومراده، فأورد الإلهيات، وذات الباري وصفات الباري، والنبوة، وحقيقة الوحي،

ومشاهدة الملائكة، وتصديق النبوة، وسطر عن المعجزات والروح، والمعاد، والجبر والقدر، والتصوف والتوحيد وحدة الوجود، وبحث عن مقامات السلوك، والعبادات من الصلاة والصوم والحج وعن الفلسفة وغير ذلك من الأشياء، هذا البحث يستغرق زهاء 100 صفحة.

5. موازنة أنيس ودبير (الموازنة بين أنيس ودبير):

ويعلم كل من له إلمام بتاريخ حيدرآباد خلال إقامة العلامة هناك، أن لها دورًا مهمًا في تطوير العلوم والفنون حيث يتوجه إليه الناس والأدباء والشعراء والعلماء وأهل العلم والبصيرة وأهل الله وطلبة العلم والدراسون زرافات ووحدانًا، وكان أمراء الدكن يستقبلون قوافل العلم والمعرفة هذه بكل حفاوة واحترام، حتى أصحبت مدينة حيدرآباد مركز العلم والأدب، وكان العلامة بعد فراغه من هذه الكتب الأربعة المذكورة، قفل عنانه وعطف قلمه في ميدان الأدب، وكان للعلامة أصدقاء في مدينة حيدرآباد من الأدباء والشعراء، وكان له ذوق ومهارة كاملة في قرض الشعر ونظمه، ولذا يجمع مع الشعراء من حين لآخر ويباحثهم في الشعر والأدب، ويناقشهم حول كلامهم، ويُنشد لهم الأشعار في حلقة من أحبابه يجتمعون ويعقدون النوادي الأدبية. وهذا الذوق الأدبي قد جرّه ولجأه إلى أن يكتب ويقارن بين شاعرين ويبحث خلاله عن محاسن الشعر وأصنافه، وما يقلّ عن أهميته ويحطّ عن شأنه. فجاء كل ذلك في كتابه خلال موازنة شاعرين ألا وهما أنيس ودبير.

محتويات الكتاب: إن هذا الكتاب "أنيس ودبير "يشتمل على ثلاثمائة صفحة، أنيس ودبير من شعراء الأردية، فناقش العلامة في هذا الكتاب عن محاسن شعر أنيس وما يعلي درجته،وما يقل عن شعر دبير ويحطه بإزاء كلام أنيس، أنه نوّه كثيرًا أنيس وأشعاره، بحيث أنه راعى في أشعاره جميع القواعد البلاغية، أن كلامه مملوء من الاستعارات والتشبيهات، والتمثيل وتقديم الوقائع أمام القراء بشكل أنه يأتي تلك الصورة مخيلة أمامه؛ كأن هذه الحادثة قد حدثت أمام القاريء، أنه بحث أولًا عن التاريخ الإجمالي للصنف الشعري في

المراثي. ثم ناقش عن خصائص شعر أنيس، فدلّ العلامة على اختلاف مراتب الفصاحة والبلاغة بين دبير وأنيس:

فليلاحظ الفرق البيّن في الفصاحة بين أنيس ودبير في الأبيات التالية:

میرزادبیر:	کس نے نہ دی انگوٹھی رکوع وسجود میں.
میر أنیس:	سائل کو کس نے دی ہے انگوٹھی نماز میں.
میرزادبیر:	آنکھوں میں پھرے اور نہ مردم کو خبر ہو .
میر أنیس:	آنکھوں یوں پھرے کہ مژدہ کو خبر نہ.
میرزادبیر:	رویا میں بھی حسین کو رویا ہی کرتے ہیں.
میر أنیس:	حسرت ہے کہ خواب میں بھی رویا کیجئے.
میرزادبیر:	جیسے مکان سے زلزلے میں صاحب مکان .
میر أنیس:	جیسے کوئی بھونچال میں گھر چھوڑ کے بھاگے.(موازنہ انیس ودبیر،29-30)

إنه بيّن من محاسن الشعر أن يبقي أجزاء الجملة على حاله، أي كما يأتي الفاعل، والمفعول، والمبتدأ، والخبر، ومتعلقات الخبر في التكلم والنطق يبقى على حاله في الشعر أيضًا، هذه المحاسن الشعرية توجد في شعر أنيس.

يقول أنيس منظّمًا ما قاله الإمام الحسين عن اليزيديين:

مجھ کو لڑنا نہیں منظور یہ کیا کرتے ہو تیرے چھوڑے ہیں جو تم نے تو خطا کرتے ہو

کیوں نبی زادے پہ غربت میں جفا کرتے ہو دیکھو اچھا نہیں یہ ظلم برا کرتے ہو

شمع ایماں ہوں اگر سر میرا کٹ جائے گا یہ مرقع ابھی اک دم میں الٹ جائے گا

(موازنہ انیس ودبیر،39-40)

وكذلك يوازن بين أنيس ودبير في البلاغة ويقول مضيفًا: من يقرأ هذه الأشعار يعلم جيدًا الفرق البلاغي الجلي بين أنيس ودبير.

فسأل رجل: لما رأى الإمام وما مضى عليه من الأحوال، وما كابد المشاق في ميدان كربلا - من أنت ؟، فأجاب الإمام ناكسًا رأسه، أنا الحسين. ولم يقل الإمام: أنا من ذرية رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - وأنا الحسين حفيد الرسول عليه السلام: بل قال متطاطأ رأسه، يقول أنيس في هذا الصدد:

مولا نے سر جھکا کے کہا میں حسین ہوں

هذه الجملة بلغت ما بلغت إلى ذروة البلاغة، فيه تواضع جمّ من قبل الإمام بأنه لم يظهر نسبه ونسبته، بل اكتفى بذكر اسمه فقط متطاطًا رأسه، وهذه المعاني البديعة لا توجد في شعر دبير.

فرمایا: میں حسین علیہ السلام ہوں

(موازنہ انیس ودبیر(77 – 66)

هكذا ينطق الكتاب كاملًا عن محاسن شعر أنيس في جوانب مختلفة من البلاغة والفصاحة، وأخيرًا أقام العلامة بابًا مستقلًا، وذكر فيها مساوئ شعر دبير.

هذه نبذة يسيرة عن خدمات العلامة خلال إقامته في مدينة حيدرآباد، وهذاجانب مهمّ من حياته، وإن كانت هذه المدة قصيرة بالنظر إلى حياته الكاملة، ولكن هذه الإقامة تحتل مكانة مرقومة بحيث إنه كتب مؤلفاته الخمسة القيمة في الموضوعات المختلفة خلال نزوله في هذه المدينة، وكذا استفاد كثير من الناس والمواطنين بها من وجود شخصيته هنا وخاصة ازدهرت دار العلوم والفنون، فطبع خلال إقامته هناك كتبًا عديدة تحت إشرافه ونظارته.

فهرس المصادر والمراجع

1. حبيب الرحمن الشرواني: ترجمة الشيخ شبلي النعماني، مجلة المنار، مصر.
2. شبلي النعماني: الغزالي، دار المصنفين شبلي أكيدمي، أعظم كره، أوترابراديش، الهند.
3. شبلي النعماني: الكلام، دار المصنفين شبلي أكيدمي، أعظم كره، أوترابراديش، الهند.
4. شبلي النعماني: علم الكلام، دار المصنفين شبلي أكيدمي، أعظم كره، أوترابراديش، الهند.
5. شبلي النعماني: موازنه أنيس ودبير، دار المصنفين شبلي أكيدمي، أعظم جراه، أوترابراديش، الهند.
6. شبلي النعماني، سوانح مولانا روم، نافي بريس، كانفور، أوترابراديش، الهند.
7. ظفر أحمد صديقي: شبلي كي علمي وأدبي خدمات، على كره.
8. علامة عبد الحي الحسني: نزهة الخواطر، دار ابن حزم، بيروت.
9. مولانا سيد سليمان الندوي: حياتِ شبلي، مطبع معارف، دار المصنفين، أعظم كره.

"رحالة هندي في بلاد الشرق العربي" دراسة نقدية

- د. أورنك زيب الأعظمي

هذه ترجمة عربية[1] لرحلة "سفرنامه روم ومصر وشام" للعلامة شبلي النعماني الهندي. قام بها الدكتور الفاضل جلال الدين الحفناوي الذي يعرف فيما بيننا كإخواننا الكتّاب بل ربما نعرفه أكثر منهم لأنه كتب كثيرًا عن بلادنا وأبنائها فهو الآن أصبح كصاحب الدار. عرفناه عن طريق مجلة "ثقافة الهند" ثم لقيناه في الندوات الدولية هنا. قام الدكتور الحفناوي بتعريب كتب عديدة للهنود بما فيها "مقدمه شعر وشاعري" للعلامة الشاعر ألطاف حسين حالي. له أسلوب علمي خاص. وفي هذه العجالة ندرس ترجمته العربية لرحلة العلامة شبلي المكتوبة بالأردوية وهي سفرنامه روم ومصر وشام. ومن ميزة هذه الترجمة أنه اختار الطبعة الصحيحة عنده وهي الطبعة التي صدرت من باكستان فترك الطبعة الهندية قائلًا إنها مليئة بالأخطاء.

العلامة شبلي أديب هندي كبير بجانب كونه كاتبًا إسلاميًا ومؤرخًا فأسلوبه يمتاز من غيره من الكتّاب في الموضوع فهو يصبغ كلامه بالصبغة الأدبية وله لون خاص للكتابة وعلى هذا فهو يعتبر أحد أركان اللغة الأردوية. وفي جانب آخر ليس الدكتور الحفناوي أديبًا للعربية. إنما هو كاتب ومترجم فلا نجد في كتاباته حلاوة أدبية نجدها لدى العلامة شبلي. إنه ينقل معاني الكاتب بلغة عربية سهلة. فلنقرأ نموذجًا من ترجمته فيما يلي:

جس زمانہ میں مجھ کو ہیروز آف اسلام کا خیال پیدا ہوا اسی وقت یہ خیال بھی آیا کہ ہمارے ملک میں

عندما بدرت لي فكرة تأليف سلسلة "أبطال الإسلام" وجدت أن المادة التاريخية

[1] صدرت هذه الترجمة من المجلس القومي للثقافة في 2002م تحت إشراف سمير عبد الحميد إبراهيم

جس قدر تاریخی سرمایہ موجود ہے وہ اس مقصد کے لئے کسی طرح کافی نہیں ہو سکتا یہی خیال تھا جس نے اوّل اوّل اس سفر کی تحریک دل میں پیدا کی کیوں کہ یہ یقین تھا کہ مصر و روم میں اسلامی تصنیفات کا جو بقیہ رہ گیا ہے ان سے ایک ایسا سلسلہ تالیف ضرور تیار ہو سکتا ہے.

المتوافرة في بلادنا في ذلك الوقت لن تكون كافية أبداً لإنجاز هذا العمل، الأمر الذي أنشأ في قلبي الرغبة في الرحلة؛ فقد كنت على يقين أن بقية المؤلفات الإسلامية التي يمكن أن أكتب على أساسها هذه السلسلة موجودة في مصر وتركيا.

وستقدر بهذه الترجمة مدى عربية الترجمة وأمانة المترجم فيها.

والآن نريد أن نريكم بعض المواضع التي زلت فيها أقدام المترجم فلم يقم بالترجمة الصحيحة أو الفصيحة. نبدأ من بداية الكتاب ونأتي بنماذج نريكم عن طريقها مدى معرفة المترجم اللغة المصدر ومن ثم ترجمته منها إلى العربية.

ولنعلم أني لم أناقش الترجمة كلها فانتقدت خمسين صفحة الأولى منها ولكن هذا لا يعني أنما استنتجته من هذه الصفحات يختلف عما بقي من صفحات الرحلة فسترون من خلال مثال أو مثالين أنما قدّمته من نتيجة لا تختلف شيئًا عما لم أشر إليها. وبهذا التمهيد أبدأ الدراسة مبيّنًا أني لم أرد به النيل من عزة الكاتب فهو أكبر منا سنًا وأكثر منا علمًا وأعرف منا لغة ونكرّمه من أعماق قلوبنا.

نذكر هذه المباحث تحت عناوين ومستقلة كي يسهل فهم الموضوع:

الخطأ في فهم الكلمة الأردوية: أخطأ المترجم المكرّم في فهم بعض الكلمات الأردوية ومن ثم فقد زلّت قدماه في الترجمة فمثلًا:

موجودہ عربی قدیم عربی سے اس قدر مختلف ہے کہ ہمارے ملک کا کوئی بڑا عالم اگر مصر وشام کا سفر کرے تو اس کو وہاں کی زبان کے سمجھنے میں

إن اللغة العربية المعاصرة مختلفة إلى حد ما عن اللغة العربية القديمة لدرجة أن أي عالم كبير من الهند لو سافر إلى مصر والشام فإنه سيستغرق في فهم اللغة هناك

قریباً وہی دقت ہوگی جو ایک عامی کو ہو سکتی ہے، ص191

نفس الوقت الذي يستغرقه أحد العوام تقريباً، ص 221

فظنّ المترجم أن "دقت" و"وقت" سواء بينما الأولى تعني المشكلة والأخرى تعني الوقت. فاالترجمة الصحيحة تكون "فإنه سيواجه في فهم اللغة هناك نفس المشكلة التي يواجهها رجل عادي لا يعرف ولو مبادئ اللغة.

وكذا يترجم "سفرنامه يا كتاب الرحلة" كما يلي:

یہ اسباب تھے جنھوں نے مجھ کو ان اوراق پریشاں کی ترتیب پر آمادہ کیا ورنہ ایسے عاجلانہ اور معمولی سفر کے حالات قلم بند کرنے اور ان کو سفر نامہ یا کتاب الرحلہ کا لقب دینا تنگ ظرفی سے خالی نہ تھا، ص1-2

هذه الأسباب هي التي دعتني إلى ترتيب وتدوين هذه المذكرات؛ فتدوين أحداث الرحلة ووقائعها بمثل هذه العجالة والبساطة ومنحها لقب كتاب الرحلة أو السفر لا يخلو من الخداع (ص 11)

فأراد الكاتب أن يترجم كلمة "سفرنامه" بكلمة "كتاب الرحلة" ولكن المترجم وهم في فهمها.

وكذا ترجمته لكلمة "معتد به" فيقول:

--- البتہ معاشرت اور علمی حالت کے متعلق معتد بہ واقعات ہیں---، ص2

إلا أنني قد جمعت من الأوضاع العلمية والاجتماعية شيئاً كثيراً يعتد به ---، ص 12

وكذا لم يفهم معنى كلمة "صاحب" في قول شبلي التالي:

---چونکہ یورپ میں مسلمانوں کا تعصب اور تنگ خیالی علوم متعارفہ کے قریب ہے ان صاحب کو اپنے رہنما کی بات کے یقین کرنے میں کیونکر تامل ہو سکتا تھا، ص4

--- ولكن لما كان التعصب ضد المسلمين في أوربا أمراً متعارفاً عليه فأنى لصديقي أن يشكّ في كلام مرشده، ص 14

فلو ترجمها بـ"أحد" لكان خيرًا.

وكذا يترجم كلمة "برند جانور" في العنوان "برند جانور ذبح كئے جاتے تھے"، ص 11 بـ"ذبح الطيور والحيوانات"، ص 23

والواقع أن العلامة شبلي لا يريد به ذبح الطيور والحيوانات كليهما. إنما هو يري، كما يبدو من المحتوى، ذبح الطيور فإن الطيور أيضًا من الحيوانات.

وكذا يترجم كلمة "اپنے سفرنامه" في قوله "چونكه عام طور پر يه مشهور هے كه جهاز پر پرند ذبح نهيں كئے جاتے اور مولوي سميع الله خان صاحب نے اپنے سفرنامه ميں تجربة سے اسكى تصديق بهى كى هے"، ص 11 فترجمها بـ"أثناء رحلته" بينما الكاتب يريد أن يقول "في رحلته" والفرق بين "أثناء رحلته" و"في رحلته" أن الأول يعني خلال السفر وأما الثاني فهو يعني أنه كتب في رحلته.

وكذا يترجم "طريقه برتنا":

اگرچہ یہ طریقہ کل اسلامی قوموں سے برتا جاتا ہے لیکن اس وقت ہم کو خاص ترکوں سے بحث ہے، ص3

إن هذه الطريقة، وإن كانت تطبق على الشعوب الإسلامية، إلا أن ما يهمّنا الآن من بين هذه الشعوب هو حالة الأتراك، ص 13

فقد ترجمهما بـ"الطريقة" و"التطبيق" بينما هي تعني سياسة وممارسة فمعنى ذلك "ولو أن هذه السياسة تمارس مع الشعوب الإسلامية كلها (العالم الإسلامي كله)

وكذا يترجم كلمة "باغ" في قوله "هم دونوں ان كے باغ ميں ٹهرے"، ص 9 بـ"وقد أقمنا في ضيافته" (ص 21) بينما الكاتب يريد القول بأنه وصاحبه أقاما في حديقته.

وكذا كلمة "موزوں طبع آدمى " في الجملة "موزوں طبع آدمى جهاز ميں خواه مخواه گنگنا اٹهتا هے، ص 11 بالإنسان الشاعري" والترجمة الأقرب من الكلمة هي "الإنسان المطبوع على القريض".

وكذا ترجم كلمة "متصل" في الجملة "قسطنطنية ميں ميں اگرچه متصل تين مهينے رها"، ص 100 بـ"متصلة" (ص 125) والصحيح "متتالية" أو كملة ترادفها

وهكذا ترجم كلمة "مهمان پرستي" في قوله "ان میں سب سے مقدم ترکوں کي مہمان پرستي اور عام خوش اخلاقي ہے"، ص 100 ترجمها بـ"الضيافة" (ص 125) التي لا تؤدي معنى الكلمة تمامًا فأراد الكاتب أن يقول إنهم يضيّفون الضيوف كأنهم عباد لهم فالكلمة المناسبة لها "عبادة الضيوف" وهي مستعارة من قول حاتم الطائي:

وإنــي لعبــد الضــيف مــا دام ثاويــاً ومــا فـيّ إلا تلــك مــن شــيمة العبــد

وكذا يترجم كلمة "رشك" في قوله "مجھسے عربي میں گفتگو کرتا تھا تو مجھکو سخت تعجب اور رشك ہوتا تھا"، ص 13 فترجمها "فقد كان يتحدث العربية معي --- حتى إنني كنت في شك أو حيرة من أمري"، ص 26 فظنّ "رشك" "شك" بينما "رشك" بالأردوية تعني "غبطة" بالعربية.

وكذا يترجم كلمة "پہلے سے" في قوله "ہم کنارے پر پہونچے تو شیمویل نے جو پہلے سے ہمارے انتظار میں کہڑا تھا بڑھکر ہم سے شیك ہینڈ کي، ص 15 فترجمها بـ"وبمجرد أن وصلنا إلى الشاطئ كان صومائيل- الذي كان في انتظارنا منذ البداية- واقفًا علينا وصافحنا، ص 29

فالترجمة الصحيحة: ولما وصلنا إلى الشاطئ صافحنا صومائيل الذي كان في انتظارنا من قبل". حتى ولو حذفنا "من قبل" فلا تكون قاصرة عن أداء المعنى المراد.

وكذا يترجم كلمة "برلب دريا" في قوله "دفترکا مکان برلب دریا ہے"، ص 15 بـ"الذي يقع على شاطئ البحر مباشرة"، ص 29 بينما الترجمة العربية هي "الذي يطلّ على البحر".

وكذا ترجمة "خوش وضع" ليست "في أحسن حال" بل هي تعني أن ملابسهم جيّدة وهكذا لا تؤدي كلمة "أهديت" ما تخفيه كلمة "نذر کی" من البلاغة فما وضعته من الكلمة أقرب إلى المعنى.

وكذا ترجم كلمة "اثر" فيما يلي:

"اس بات کا اثر که اب هم اسلامي دنيا ميں هيں جهاز پر بهی محسوس هوتا تها، ص 19 فترجمة الحفناوي هي: وعلى أثر هذا الأمر كنت أشعر في الباخرة أنني أعيش في قلب العالم الإسلامي، ص 33 فأثر بالأردوية يعني "تأثر" بينما "اثر" في جملة الحفناوي يعني "بعد هذا" فالترجمة الصحيحة هي: فالتأثر بأنني في حدود العالم الإسلامي كنت أشعر به حتى في الباخرة.

وهكذا كلمة "عجيب حالت" في قوله "اور ديرتك ايك عجيب حالت طاري رهي"، ص 20 فترجمها كما يلي: وطرأت عليّ حالة من الوجد"، ص 35

وكذا ترجمة "دانشمندانه" في قوله "انگريزوں کی حکمت عملي نهايت دانشمندانه هے"، ص 21 فترجمها "علمية" بينما الترجمة الصحيحة "حكيمة".

وكذا ترجمة "دس دفعة" في قوله "زمانه کے انقلاب نے اس کو دس دفعة تباه وبرباد کيا"، ص 22 فترجمها بـ"وقد تعرّضت، وعلى مدار العصور، للدمار والتخريب عشرات المرات"، ص 38 بينما هناك فرق بين "دس دفعه" و"دسيوں دفعه" فـ"دس دفعة" تعني "عشر مرات" بينما "دسيوں دفعه" تعني "عشرات المرات" فالترجمة الصحيحة "عشر مرات".

وكذا ترجمة "گهنٹا" في قوله "صحن کے دونوں طرف دو بڑے بڑے ستونوں پر گهنٹے لگے هيں جن سے اوقات نماز معلوم هونے کے ساتھ مسجد کی زيبائش بهی هے"، ص 24 فترجمها "أنه على جانبي الصحن عمودان كبيران مثبت عليهما ساعتين يعرف بهما أوقات الصلوات وتزيّنان المسجد كذلك"، ص 40

فـ"گهنٹا" ساعة يتعلق بأسفلها جرس دقاق فهي تسمّى "ساعة دقاقة" وهي أكثر زينة في المكان الفسيح من الساعة العادية والتي تكون أصغر من الساعة الدقاقة. فالأفضل أن تترجم "ساعتان دقّاقتان".

وكذا ترجمة "كم سن" في قوله "مالك دكان ميز كرسي لگائے بيٹھا ھے، دو تين كم سن خوش لباس لڑكے ادھر ادھر كام ميں لگے ھيں، ص 37 فترجمها بـ"شابّ" بينما تعني كلمة "كم سن" أن الولد لم يبلغ السن فالكلمة المناسبة لها غلام كما يستخدمها القرآن "غلمان مخلّدون" فيتمتع الغلام من النشاط مما لا يتمتع به الشاب.

الخطأ في فهم الفقرات الأردوية: وكذا لم يفهم الأخ الفاضل بعض التعابير والفقرات الأردوية فجانبه الصواب في الترجمة ومنها ما يلي على سبيل المثال لا الحصر:

مسٹر آرنلڈ میرا اور اپنا اسباب لیکر وستن ہوٹل کو گئے میں بازار میں پھر رہا تھا کہ ایک لڑکے سے ملاقات ہوگئی، ص9

وأخذني السيد آرنولد أنا وأمتعتي وذهبنا إلى فندق "وستن" وبينما كنت أمضي في السوق إذا بي ألتقي بشاب، ص 21

والترجمة الصحيحة هي: وأخذ السيد آرنولد أسبابي وأسبابه فتوجّه نحو فندق "وستن" وأما أنا فجعلت أتجوّل في السوق إذ عثرت على ولد ---

وكذا الضمير "أنا" خطأ فعطف "ي" المفعول على "أمتعتي" المفعول كذلك صحيح.

وكذا ترجم الفقرة التالية التي تحتها الخط:

ہندوستان کو خط روانہ کئے. ایک خط کے سرنامہ پر یہ اشعار لکھے جو اسی وقت موزوں ہوئے تھے. ص12

وأرسلت الرسائل إلى الهند، وكتبت عدة أشعار على عنوان إحدى الرسائل كانت مناسبة لذوق ذلك الوقت، ص 25

فلا يريد الكاتب أن هذه الأبيات كانت مناسبة أو غير مناسبة بل يريد فقط أنه قد ارتجلها فالترجمة الصحيحة هي: ارتجلتها بتلك المناسبة.

وكذا يترجم الفقرة التالية: ايك نے خدا جانے كيونكر پہچانا كه ميں هندوستان كا رهنے والا هوں، ص 17 (ترجمة الحفناوي: وكان من بين هؤلاء الناس رجل يعرف الله علم أنني من أهل الهند، ص 31) فلا يريد الكاتب أن يقول أن المرء الذي عرفه هنديًا كان عارفًا

بالله أو لا بل يريد أن يقول إنه عرفني هنديًا ولا أدري السبب وراء معرفته لي بكوني هنديًا فالترجمة الصحيحة: وقد عرفني أحدهم بأني هندي ولا أدري السبب والله أعلم بالصواب ----

وكذا ترجمة هذه الفقرة "اور جهاز والوں میں سے اور کسي نے میرا ساتھ نه دیا"، ص 22 فترجمها "ولم يسمح طاقم الباخرة لأحد أن يرافقني"، ص 37 بينما الكاتب يريد أن يقول إنه لم يجب عليّ أحد الركاب" فالترجمة الصحيحة: ولم يجب عليّ أحدٌ من الركاب".

وكذا ترجم الفقرة التالية: اکثر مسافر جهاز سے اترگئے یا اترتے جاتے تھے، ص ص 26 فترجمها "نزل معظم الركاب من الباخرة أو أنزلوا منها"، ص 43

فقول شبلي "یا اترتے جاتے تھے" تعني أو كانوا في سلسلة نزولهم بينما ترجمة الحفناوي تعني أنهم أجبروا على النزول. فلو اتبعنا ترجمة الحفناوي لتكون جملة شبلي هكذا: یا اتار دئے گئے" فالترجمة الصحيحة هي: أو كانوا ينزلون.

وكذا ترجمة قول شبلي: دوسرے اکثر بلکه قریباً تمام عمده هوٹل یورپین آبادی میں هیں"، ص 27 فترجمها "وثانيًا فإن أكثر الفنادق الجيدة، بل جميعها تقريبًا، يعيش فيها أوربيون"، ص 44 فترجمة "یورپین آبادي" بـ"يعيش فيها أوربيون" خطأ تمامًا فالعلامة شبلي يريد أن يقول إنها تقع في مستوطنات أوربية فلو غيّرناها شيء وكتبناها "تقع حيث يعيش الأوربيون" لكانت أدّت المعنى.

وكذا لم يفهم الفقرة التالية: کتابیں جس قدر هیں مجلد هیں جلدین بهي معمولي نهیں هیں بلکه عمومًا مطلا ومذهب، ص 37 فترجمها كما يلي: والكتب سواء كانت في مجلد أو عدة مجلدات غير عادية وهي عمومًا مذهبة"، ص 53 بينما الكاتب يريد أن يقول إنما تحويه هذه الدواليب من الكتب مجلدة وتجليدها ليس بعاديّ بل مذهّب فالترجمة الصحيحة: الكتب كلها مجلّدة وتجليدها ليس بعادي بل هو عادة مطلّى ومذهّب.

وكذا لم يفهم الفقرة التالية: عام صفائي اور زيب وزينت كا بهي يهي حال هے، ص 37 فترجمها: وجميعها بشكل عام نظيف ومرتب ومزيّن"، ص 53 بينما الكاتب يريد الموازنة بين الكتب والوضع فكما أن الكتب مرتبة وغير مرتبة فكذلك البلاد نظيفة وغير نظيفة فوازن بين غلطة وإستنبول فالترجمة الصحيحة هي: والنظافة والتزيين في البلاد عادة ما تشابه وضع بيع هذه الكتب.

وكذا ترجم قول شبلي "مجهے خيال هوا كه يه وهي غلطه هے جسكي نسبت ابن بطوطة نے ---"، ص 38 فترجمه "وفي رأيّ أنها هي نفسها مدينة غلطة التي ذكرها ابن بطوطة --- "، ص 54 والواقع أن العلامة شبلي لا يريد أن يدلي برأيه بل يذكر رأي ابن بطوطة عن المدينة فلتكن الترجمة "ثم تذكّرت أن هذه هي المدينة التي اشتكى ابن بطوطة من قذارتها ووحلها".

وكذا قوله "لكهنؤ كي خربزے لطافت ميں تو شايد بڑهكر هوں ليكن شيريني ميں يهاں كے خربزوں كي برابري نهيں كرسكتے، ص 39 فترجمها "---- وربما يتفوق (بطيخ القسطنطينية) في جماله على بطيخ لكنؤ، لكن لا يصل إلى حلاوة البطيخ هنا"، ص 55 فقد غيّر المعنى بينما الكاتب يريد أن يقول: يمكن أن يتفوّق بطيخ لكهنؤ على بطيخ القسطنطينية في الجمال ولكنه لا يتفوّق عليه في الحلاوة. فالترجمة الصحيحة: وربما يتفوق عليه بطيخ لكنؤ في جماله، ولكن لا يصل إلى حلاوة البطيخ هنا"

الخطأ في فهم الجمل الأردوية: وكذا لم يفهم أخونا المترجم بعض الجمل الأردوية فأخطأ فيها ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

در حقيقت جهاز كا سفر سو علاجوں كا ايك علاج هے، ص 10 فترجمها بـ"وفي الحقيقة السفر بالباخرة يعدّ علاجًا لمائة مرض"، ص 22 بينما الكاتب يريد أن يقول إن السفر بالباخرة أنفع علاج للأمراض.

وكذا ترجمة الجملة التالية:

کچھ پرواہ نہیں کرتا اور کرنا بھی چاہے تو کامیابی نہیں ہو سکی، یورپ والے اس باب میں اور بھی بے احتیاط ہیں، ص3

ولا يهتم بما إذا كان ذلك الشخص ثقة أو غير ثقة، متسامحاً أو متعصباً، دقيق النظر أو سطحياً؛ لذا لا يمكن له أن يحقق النجاح، والأوربيون في هذا الأمر غير مبالين، ص 16

والترجمة الصحيحة ما يلي:

ولا يهتم بما إذا كان ذاك الشخص ---- أو سطحيًا وإذا أراد العناية بهذا الجانب فلن يمكن له. وأما الأوربيون فهم أسفلهم في هذا الشأن فمعظمهم ممن ----

وكذا أخطأ في ترجمة الجملة التالية:

غرض یورپ کی تحریروں اور سفرناموں سے میرے سفرنامہ کا مختلف ہونا لازمی بات تھی اگرچہ اس اختلاف کے اسباب کے بیان کرنے میں اس قدر اطناب کہ بجائے خود ایک مستقل مضمون بن جائے موزوں نہ تھا ص6

المهم أنه كان من اللازم أن تختلف رحلتي عن رحلات وكتابات الأوربيين، وقد أجملت أسباب هذا الاختلاف بهذا القدر من الإطناب؛ لأنه، في حد ذاته، لم يكن في حاجة إلى موضوع مستقل، ص 17

فالترجمة الصحيحة ما يلي:

وبالجملة فاختلاف رحلتي عن كتابات أوربا ورحلاتها أمر متحتم ولو أن هذا القدر من الإطناب في بيان أسباب هذا الاختلاف بحيث يصبح مقالة مستقلة لم يكن مناسبًا.

وكذا لم يفهم معنى الجملة بكاملها فترجم مثلًا:

یہ دانشمندانہ طریقہ اختیار کیا گیا ہے کہ اسلامی حکومتوں، اسلامی قوموں، اسلامی معاشرت کے عیوب تاریخی پیرایہ میں ظاہر کئے جاتے ہیں اور عام تصنیفات، قصوں، ناولوں، ضرب المثلوں

ومن ثم اختيرت هذه الطريقة بدلاً منها؛ حيث بدأوا في إظهار عيوب الدول الإسلامية والشعوب الإسلامية وذكر النواحي الاجتماعية الإسلامية وسلبياتها بأسلوب تاريخي، ووجد هذا الأسلوب

کے ذریعہ سے وہ لٹریچر میں اس طرح جذب ہو جاتے ہیں کہ تحلیل کیمیاوی سے بھی جدا نہیں ہو سکتے، ص2

طريقه إلى المؤلفات العامة والقصص والروايات والأمثال بشكل يعجز التحليل الكيميائي أن يميزه، ص 12

فلم يفهم معنى الفقرة النهائية وهو: وهي (هذه العيوب) تنجذب في الأدب عن طريق المؤلفات العامة والقصص والروايات والأمثال بشكل يعجز التحليل الكيمائي أن يميزه. وفوق ذلك أن كلمة "داشمندانه" المليئة بالسخر في "يه دانشمندانه طريقه اختيار كيا گيا" قد بقيت غير مترجمة.

وكذا لم يفهم الجملة التالية:

یورپین لٹریچر پڑھ کر ترکوں کی نسبت تحقیر کے خیالات نہ پیدا ہوئے بعینہ ایسا ہے جیسا خواب آور دوا کھا کر نیند کا نہ آنا، ص3

فالكتابات الأوربية توحي إلى القرّاء بعيوب الأتراك ومثالبهم حتى يضطروا إلى تحقيرهم، وهذا بعينه كالذي يغالبه النعاس فيتعاطى الدواء؛ فيطير النوم من عينيه، ص 13

فترجمتها الأولى "فإن لم يثر في أحد دافع التحقير للأتراك بعد قراءة الكتابات الأوربية فمثله مثل من يتعاطى القرص المنوّم فيطير عنه النوم".

وكذا لم يفهم معنى الجملة بكاملها في قول شبلي التالي:

فاطمہ خانم نے اپنی کتاب کے دیباچہ میں لکھا ہے کہ "یورپ کی معزز خاتونیں جن سے مجھ کو ملنے کا اتفاق ہوا جب ترکی خاتونوں کے متعلق واقعات کے طور پر کچھ بیان کرتی تھیں تو مجھ کو گمان ہوتا تھا کہ یہ کسی اور قوم کا تذکرہ ہے یا ناول کے طور کے قصے ہیں"-----ان بیچاروں کا کچھ قصور نہیں، گائڈ

كتبت السيدة فاطمة خانم في مقدمة كتابها "إن السيدات الأوربيات المثقفات اللائي اتفق لي اللقاء بهن كلما تحدثت إليهن عن نساء تركيا خطر ببالي كأنني أقصّ عليهن قصة أمة أخرى، أو كأني أحكي أسطورة من الأساطير" ---- ليس

جو کچھ سیاحوں سے کہہ دیتے ہیں ان کو یقین کرنا پڑتا ہے ص6

هذا الخطأ خطأهن؛ فكل ما يقوله المرشدون للسيّاح مصدّق"، ص 17

فالترجمة من كلما تحدثت إلى مصدّق خاطئة تمامًا والترجمة الصحيحة كما يلي:

"كلما تحدثن إليّ عن نساء تركيا خطر ببالي كأنهن يقصصن أمة أخرى أو أسطورًا من الأساطير ---- ليس هذا خطأ هؤلاء الساذجين فكل ما يقوله المرشدون للسياح يجب علىهم أن يصدّقوه".

وكذا لم يفهم الجملتين التاليتين:

جہاز نے جس وقت لنگر کیا کک کمپنی کا ایک ملازم اپنے مسافروں کی خبر گیری کے لئے جہاز پر آیا جہاز کنارے سے ذرا فاصلہ پر کھڑا ہوتا ہے اس لئے مسافروں کے اتارنے کے لئے کک کمپنی کی طرف سے ایک چھوٹی سی کشتی ہمیشہ تیار رہتی ہے، ص15

وفي وقت إبحار الباخرة، حضر أحد موظفي شركة توماس كوك لمساعدة ركابه يشير إلى أن الباخرة سوف ترسو على مسافة قريبة من الشاطئ، ولهذا يوجد قارب صغير تابع لشركة كوك يقوم دائماً بنقل الركاب. ص 28

مسافر بالکل بدحواس ہوجاتا ہے، بہ ہزار دقت کنارے پر پہونچا تو گھنٹوں کرایہ کی بحث اور تکرار رہتی ہے، ص15

والمسافر قد يفقد وعيه تماماً بسبب تدافعهم وضجيجهم وتخاطف الأمتعة، وقد وصلنا إلى الشاطئ بصعوبة بالغة، وقضينا ساعات في شجار، وبحث حول أجرة الحمالين، ص 28

ففي الجملة الأولى لا يشير الموظف عن رسوّ الباخرة قريبًا من الشاطئ بل الكاتب يبيّن الواقع فالترجمة الصحيحة تكون: وفي وقت إبحار الباخرة، حضر أحد موظفي شركة توماس كوك لمساعدة ركابه. وبما أن الباخرة ترسو على مسافة قريبة من الشاطئ فيوجد قارب صغير تابع لشركة كوك يقوم دائمًا بنقل الركاب.

وأما الجملة الثانية فلم يحك الكاتب قصته بل يحكي ما يكون عادة فتكون الترجمة الصحيحة: والمسافر قد يفقد وعيه تمامًا بسبب تدافعهم وضجيجهم وتخاطف الأمتعة، وإن وصل إلى الشاطئ بصعوبة بالغة فهو يواجه شجارًا طويلًا ومناقشةً حادة حول أجرة الحمل.

وكذا لم يفهم الجملة التالية حيث يقول العلامة شبلي:

یہاں سب سے زیادہ مجھ کو یہ بات پسند آئی کہ تمام دوکاندار اور پیشے والے حتی کہ قلی اور مزدور بھی خوش وضع اور پاکیزہ لباس تھے، تین چار گھنٹے ادھر ادھر پھر کر واپس آیا، ایک اٹھنی رہنما صاحب کی نذر کی، ص18

ومن أكثر الأشياء التي أعجبتني هنا أن جميع البقالين والحرفيين وحتى الحمالين والعمّال في أحسن حال وملابسهم نظيفة وهم يتجوّلون ثلاث أو أربعة (أربع) ساعات هنا وهناك ثم يعودون، ص 32

فلا يريد الكاتب أن يقول إن العمال يتجّولون ثم يعودون بل الكاتب ذاته تجوّل لساعات ثم عاد فالترجمة الصحيحة هي: ومن أعجب ما رأيت أن جميع البقالين والحرفيين وحتى الحمّالين والعمّال ملابسهم جيدة ونظيفة. تجوّلت هنا وهناك لثلاث أو أربع ساعات ثم عدت، ودفعت للمرشد نصف روبية ---- .

وكذا ترجمته لقوله "اور کہیں کہڑا ہوجاتا تو تمشائیوں کی بہیڑ لگ جاتي"، ص 20 فترجمها "وإذا وقفت تجمّعوا حولي ليتفرّجوا عليّ"، ص 35 فهناك فرق بين "کہیں" و"جب" فـ"کہیں" يعني "حيث/حيثما" بينما "جب" يعني "إذا" فالترجمة الصحيحة فكانوا تجمّعوا حيثما وقفت ليتفرجوا عليّ" والأفضل "فكانوا يتجمّعون حيثما وقفت".

فالوجد كلمة عربية تعني "الهمّ والغمّ" وهي غير "الوجد" الأردوي والذي يعني حالة جنونية فالأفضل أن تترجم الكلمة بـ"وطرأت عليّ حالة لا أكاد أبين".

وكذا ترجمته لقوله "اثنائے تقریر میں انکو اندازہ سے معلوم ہوجاتا ہے کہ مخاطب اعتراض سے عہدہ برآ نہیں ہوسکتا تو قصدًا دوسرا تذکرہ چھیڑ دیتے ہیں"، ص 24-25 فترجمها "ففي أثناء الحوار لو أدركت أن المخاطب لا يستطيع أن يؤدي واجبه في

الاعتراض فإننا نثير قضية أخرى عن عمد"، ص 41 فلو ترجم "اندازه سے معلوم هوجاتا هے" بالتفطن بدلًا من الإدراك لكان أبلغ وكذا لم يرد الكاتب أن يبيّن عادته بل أراد ذكر عادتهم فلتترجم الجملة هكذا "ففي أثناء الحوار لو تفطنوا أن المخاطب لا يستطيع أن يبرأ عن ذمته في الاعتراض فهم يثيرون قضية أخرى عن عمد".

وكذا ترجم ما يلي:

اس شہر کی ابتدائی تاریخ (جب وہ بزنطائن کے نام سے پکارا جاتا تھا) نہایت قدیم ہے جس زمانہ سے اس کا نام قسطنطنیہ ہے اس کو بھی کچھ کم عرصہ نہیں گذرا، ص34

إن بداية تاريخ هذه المدينة (التي تسمّى بيزنطينة) مغرق في القدم، ولم يمض عليها وقت طويل منذ أن سمّيت بالقسطنطينية؛ حيث بناها ----، ص 49

فالقائل يريد أن يقول إن هذه المدينة تاريخها قديم للغاية من حيث تسميتها ببيزنطينة ولكن تاريخها منذ تسميتها بالقسطنطينية أيضًا ليس بالقصير" ولكن المترجم لم يفهم الجملة فترجمها ما ذكرناها آنفًا فالترجمة الصحيحة هي: إن تاريخ هذه المدينة الابتدائي (منذ أن كانت تسمّى بيزنطينة) مغرق في القدم، ولكن تاريخها منذ أن سمّيت بالقسطنطينية أيضًا ليس بقصير؛ حيث بناها ----،

الترجمات الخاطئة: ذكرنا حتى الآن خطأه في فهم الكلمة أو الفقرة أو الجملة الأردوية والآن نودّ أن نشير إلى خطأه في الترجمة بجانب فهمه الكلمة أو الفقرة أو الجملة فهو يترجم ما يلي من النص مثلًا:

اگرچہ وہ بھی اس تفصیل کے ساتھ نہیں جس قدر ہونی چاہیے، ص2

لكن ليس بالتفصيل، ص 12

والترجمة الصحيحة: لكن ليس بقدر ما يحتاج إليه من التفصيل

لیکن جب یورپ میں مذہب کا زور گھٹ گیا اور

ولكن لما فقد الدين أهميته في أوربا، وصار

مذہبی ترانے بالکل بے اثر ہو گئے ص2 التغني بأمور بلا تأثير يذكر، ص 12

فالفقرة الثانية لهذه الجملة ليست بواضح معناها فلو بدّل "الأمور" بـ"الدين" أو ترجمها لفظيًا "وأصبحت الهتافات الدينية غير مؤثرة تمامًا" لكان خيرًا فإن الناس في مكان يرفعون هتافات متنوعة للدين.

وكذا ترجمة "دوسرا پہلو" في الجملة التالية:

تو اس پالیسی نے دوسرا پہلو بدلا، ص2 تشكّلت هذه السياسة بصور أخرى، ص 12

فالترجمة الأولى هي فظهرت هذه السياسة في صورة أخرى.

وكذا أخطأ في ترجمة الجملة التالية:

یورپ کا ایک عام سیاح یا پالیٹیشین اتفاق سے ہندوستان میں آنکلتا ہے تو صرف ہفتہ دو ہفتہ کے تجربہ کی بنا پر یورپ کے اخباروں اور میگزینوں میں اس دعوی کے ساتھ بڑے بڑے آرٹکل شائع کرتا ہے کہ گویا ہندوستان کی معاشرت و تمدن کے تمام راز اس پر کھل گئے ہیں ص5

فقد نرى أن سائحاً أوربياً من عامة الناس إذا اتفقت له زيارة الهند، ورجع بعد أسبوع انطباعاته بمزاعم ودعاوٍ عظيمة، وكأنه قد فتحت أمامه جميع الأسرار الاجتماعية والحضارية للهند، ص 16

فالترجمة الصحيحة كما يلي:

أن سائحًا عاديًا أو رجلًا سياسيًا من أوربا إذا اتفقت له زيارة الهند لأسبوع أو أسبوعين فيكتب مقالات رائعة في صحف أوربا بناء على ما حصل له من التجربة القليلة بدعوى أنه فد فتح عليه كافة أسرار الهند الاجتماعية والحضارية.

وكذا ترجم الجملة التالية:

مسٹر آرنلڈ اپنے ایک دوست سے ملنے کیلئے ایک دو وكان السيد آرنولد قد رحل إلى جهانسي قبلي

دن پہلے جھانسی روانہ ہوگئے، جھانسی کے اسٹیشن سے ان کا ساتھ ہوا، ص9

بيوم أو يومين لمقابلة صديق له فرافقته حتى محطة جهانسي وقطعنا كل هذا الطريق باستمتاع وسرور كبيرين، ص 21

فالترجمة الصحيحة: وكان السيد آرنولد قد رحل إلى جهانسي قبلي بيوم أو يومين لمقابلة صديق له فاتصلت به من محطة جهانسي، وقطعنا الطريق كله باستمتاع وسرور كبيرين.

وكذا ترجم الجملة التالية:

چونکہ وقت کم تھا اس لئے میں یہاں اتر نہ سکا، ص17

فلم يكن هناك متسع من الوقت، ولم أستطع النزول هنا، ص 31

فالترجمة الصحيحة: وبما أن الوقت كان ضيّقًا فلم أستطع النزول هنا.

وكذا أخطأ في الترجمة التالية:

میں شروع سفر سے مسلمانوں کی صورت کو ترس گیا تھا، ص18

لقد كنت في بداية الرحلة أخشى على حالة المسلمين، ص 32

فالترجمة الصحيحة هي: لقد حرمت منذ بداية الرحلة رؤية أي مسلم.

وكذا ترجمة الجملة التالية:

یہ معما جب حل ہوا تو میں نے ان لوگوں کے دل سے اس بدگمانی کو رفع کر دیا اور پھر وہ ایسے شیر و شکر ہوئے کہ ایک دم کو مجھ سے جدا ہونا نہیں چاہتے تھے، ص19

ولما انكشف لي هذا السر أزلت سوء الظن بهؤلاء الناس من قلبي وقد رحبوا بي أشد الترحيب، وكنت لا أريد فراقهم لحظة واحدة، ص 33

فالقائل يريد أنه لما انحل هذا اللغز أزلت سوء ظنهم بي ومن ثم اختلطوا بي من حيث لم يصبروا عن فراقي للحظة واحدة فالمترجم غيّر الخطاب و"معما" هو اللغز فالترجمة الصحيحة هي: لما انحل هذا اللغز أزلت سوء ظنهم بي ومن ثم فاختلطوا بي اختلاطًا لم يصبروا عن فراقي ولو لثانية.

وكذا ترجمة الجملة التالية:

جہاز کے افسر اور ملازم عموماً یورپین ہیں ان مسافروں کو دل میں جو کچھ سمجھتے ہوں لیکن ظاہر میں ان سے کوئی برابر تاؤ نہیں کر سکتے، ص19	فقبطان الباخرة وموظفوها أوربيون بصفة عامة ما يضمرونه في قلوبهم نحو هؤلاء الركاب لا يستطيعون أن يظهروه ويعاملون الركاب معاملة سيئة، ص 34

فالترجمة الأولى: فقبطان الباخرة وموظفوها أوربيون بصفة عامة إلا أنهم لا يستطيعون أن يعاملوا مع هؤلاء الركاب معاملة سيئة ولو أنهم يظهرون لهم ما ليس في قلوبهم.

وكذا ترجم الجملة التالية:

خوش قسمتی سے شیخ عبد الفتاح جن کے ساتھ میں نے زبردستی دوستی پیدا کی تھی، بڑے معزز خاندان کے آدمی نکلے، ص28	ومن حسن حظي أن نشأت صداقى وطيدة بيني وبين الشيخ عبد الفتاح وهو من أسرة عريقة بالشام"، ص 45

فقد قام هنا بأداء المعنى فحسب بصورة عادية خالية من البلاغة التي يريدها العلامة شبلي فلم يؤدّ بلاغة "زبردستي" و"نكلے" فيريد الكاتب أن يقول: إن الشيخ عبد الفتاح الذي عقدت معه أواصر الودّ على الرغم من رضاه، قد انكشف لي أنه من أسرة شريفة بالشام" فالآن تشعر بالمعنى والبلاغة كليهما.

الترجمات الناقصة:

ليس هذا فحسب بل في بعض الأحيان لم تؤدّ ترجمته معنى الجملة فبقيت هي ناقصة فمثلًا أنه يترجم ما يلي:

پورٹ سعید سے سفر کی حالت میں جو تجدد ہوا وہ یہ تھا کہ بمبئی سے پورٹ سعید تک جہاز پر کوئی مسلمان نہ تھا یہاں پہونچ کر دو ایک مسلمان نظر آئے اور بیروت	كان الشي الجديد الذي طرأ على الرحلة من بورسعيد حتى وصلنا هنا هو وجود مسلم واحد أو اثنين، أما في بيروت فقد

میں تو سارا جہاز شامی عربوں سے بھر گیا، ص18 اكتظت الباخرة بالعرب الشوام، ص 32

فلو ترجمنا هذه الجملة بما يلي لكانت مؤدية المعنى: والشيء الجديد الذي حدث بشأن الرحلة من بورسعيد هو أنه لم يركب الباخرة أي مسلم من بومبائ إلى هنا ففي بورسعيد بدا لنا مسلم أو مسلمان ولكن حينما وصلت الباخرة بيروت اكتظت بالعرب الشوام.

وكذا ترجم القول التالي: چھ سات دن اس خان میں رهے پهر باب عالي کے پاس ايك عمده مكان كرايه پر لے ليا"، ص 27-28 فترجمها "وأقمنا ستة أو سبعة أيام بالقرب من الباب العالي"، ص 44 فترك ترجمة "پهر ايك عمده مكان كرايه پر لے ليا" فالترجمة الصحيحة هي: وأقمنا بها ستة أوسبعة أيام ثم استأجرنا دارًا للضيافة جيّدة بالقرب من الباب العالي".

وكذا جملة الحفناوي "وجعلت عنوانها: بيان مجمل لأحوال السفر من علي كره إلى القسطنطينية"، ص 47 لا توجد في الأصل فقد جاء في الأصل: جهاز پر جو میں نے قصيده لكهنا شروع كيا تها قسطنطنية پهنچ كر تمام هوا، اس سفر كے حالات كا اجمالى خاكه هے اور چوں كه ناظرين حالات كى تفصيل سے واقف هو كر قصيده كے قصه طلب حوالے به خوبى سمجهه سكيں گے اور ان كو زياده لطف ومزه آئے گا ميں اس قصيده كو بتمامه يهاں نقل كرتا هوں"، ص 29 فترجمته العربية هي: القصيدة التي بدأت كتابتها في الباخرة انتهت بعد أن وصلت إلى القسطنطينية وهي صورة موجزة لما حدث خلال سفري هذا وبما أن القرّاء يفهمون جيدًا ما تحتاج إليه القصيدة من تفاصيل الأمور التي قد عرفوها تمامًا ومن ثم فيجدون لذة ومتعة كبيرتين فـ(ففضّلت) أن أنقلها بإسرها هنا.

ولكن مثل هذه الترجمات قليلة ويمكن أن نعتبرها من نوع اختلاف التعبير والأسلوب.

الزوائد: نجد في ترجمة هذه الرحلة أن المترجم قد زاد حين الترجمة كلمة لا حاجة إليها بل هي تغيّر ما يريد الكاتب أن يقول فمثلًا:

موجوده عربی قدیم عربی سے اس قدر مختلف ہے کہ ہمارے ملک کا کوئی بڑا عالم اگر مصر وشام کا سفر

إن اللغة العربية المعاصرة مختلفة إلى حد ما عن اللغة العربية القديمة لدرجة أن أي عالم

کرے تو اس کو وہاں کی زبان کے سمجھنے میں قریباً وہی دقت ہو گی جو ایک عامی کو ہو سکتی ہے

كبير من الهند لو سافر إلى مصر والشام فإنه سيستغرق في فهم اللغة هناك نفس الوقت الذي يستغرقه أحد العوام تقريباً (ص 223)

فلا يريد الكاتب البحث عن مدى اختلاف العربية القديمة عن اللغة العربية الجديدة بل يريد الإشارة إليه فزيادة "إلى حدّما" لا حاجة إليها. وكذا كلمة "الهند" ليست بصحيحة بل الكلمة الصحيحة "من بلادنا" لأن الكاتب هندي لا عربي.

ومع جودة الترجمة فيمكن لنا أن نختلف عن الأخ الفاضل في الترجمة في العديد من مواضع الرحلة فمثلًا يترجم الأخ الفاضل ما يلي من الجملة:

چونکہ سفر نامہ کے لوازم میں ایک یہ بھی ہے کہ جس ملک کے حالات لکھے جائیں وہاں کی زبان مروجہ سے بھی بحث کی جائے، اس لئے حال کی عربی زبان کی نسبت جو تمام اضلاع شامل اور مصر کی زبان ہے کچھ لکھنا ضروری ہے، اس سے ہمارے ہم وطنوں کو بھی فائدۃ پہنچے گا جو مصر و شام کے اخبارات کے نہایت شائق ہیں لیکن مروجہ عربی زبان نہ جاننے کی وجہ سے ان سے متمتع نہیں ہو سکتے.

لأن إحدى مستلزمات الرحلة هي البحث في اللغة المستعملة والرائجة هناك في البلد الذي تكتب عن أحواله، لهذا من الضروري كتابة شيء عن حالة اللغة العربية، وهي لغة أقاليم مصر والشام، حتى يستفيد منها مواطنونا المتشوّقون دائماً لصحف مصر والشام، لكنهم لا يمكنهم الاستفادة منها بسبب عدم معرفتهم للغة العربية الدارجة. (ص 223)

فلو ترجمناها هكذا ليكون أوجز وأفصح: وبما أن الرحلة تطلب منا البحث عن اللغة الرائجة في البلد الذي نضبط أحواله فيجب علينا أن نكتب شيئًا عن اللغة العربية التي يتم رواجها في أقاليم مصر والشام كلها وذلك لكي يستفيد منه إخواننا المواطنون الذين هم مولعون بجرائد مصر والشام ولكنهم لا يسعهم التمتع منها بسبب عدم معرفتهم للغة العربية الرائجة.

وكذا يترجم الدكتور الحفناوي ما يلي:

زبان موجودہ کی وہ خصوصیتیں جن کی وجہ سے وہ قدیم زبان سے مختلف ہوگئی ہے، مختصر طور پر ذیل میں درج کی جاتی ہیں:

فخصائص اللغة العربية المعاصرة تختلف عن اللغة العربية القديمة، أذكرها فيما يلي بشكل مختصر: (ص 223)

فالترجمة الأولى هي: ففيما يلي نوجز تلك الخصائص التي اختلفت بها اللغة العربية المعاصرة عن اللغة العربية القديمة:

الأخطاء النحوية: وبجانب الأخطاء المطبعية التي لا نودّ الإشارة إليها فإنها تقع في كل كتاب فنرى أن نشير إلى بعض الأخطاء النحوية التي وقع فيها أخونا الفاضل والتي يقع فيها العرب عادة. أشرنا إليها لمجرد تنبيههم إلى هذا الجانب وذلك لأنهم قدوتنا فلو أخطأ المقتدى فماذا يكون مع المقتدي الذي يؤمن بأن المقتدى لا يخطئ. فلننظر إلى بعض أخطاء هذا النوع على سبيل المثال لا الحصر::

"وإنهم، في كثير من الأمور، قريبي الشبه، ص 18 (الصواب: قريبو الشبه)، وبالرغم من أن هذه الذبيحة ليست حلال، ص 23 (الصواب: حلالًا)، وتقع أحد المقاهي على شاطئ البحر، ص 29-30 (الصواب: يقع)، وهم يتجوّلون ثلاث أو أربعة ساعات، ص 32 (الصواب: أربع ساعات)، لا يستطيعون أن يظهروه ويعاملون الركاب، ص 34 (الصواب: يعاملوا)، استنتجت منها تعنت وتطاول، ص 34 (الصواب: تعنتًا وتطاولًا)، وبأمره هاجر إليها اثني عشر ألفًا، ص 34 (الصواب: اثنا عشر ألفاً)، فقال: الهند بلد واسعة، ص 36 (الصواب: بلد واسع)، عمودان كبيران مثبت عليهما ساعتين، ص 40 (الصواب: ساعتان)، وكان هذا المنهج في البحث والنقاش رائج وعام، ص 41 (الصواب: رائجًا وعامًا)، لكننا لم نستطيع، ص 41 (الصواب: لم نستطع)، والتي لا يزال بعضها محفوظ، ص 41 (الصواب: محفوظًا)، وبها يسكن جميع التجار الأوربيون، ص 51 (الصواب: الأوربيين)، لا يذكر فيها شيء ذا بال، ص 52 (ذو بال)، ولم أسمع فيها أحدٌ، ص 53 (الصواب: أحدًا)، ضرائب بلديتنا ضئيل، ص 54 (الصواب: ضئيلة)، لكنهم يلفون عليها شريط، ص 56 (الصواب: شريطًا)، فقد كان عدد المدارس الرشيدية عندما تبوأ السلطان عرش المملكة ستة

وتسعين مدرسة، ص 62 (الصواب: ستًا وتسعين مدرسة)، وهذا المبلغ يعادل عندنا اثنتي عشر مليون روبية، ص 62 (الصواب: اثني عشر مليون روبية)، وكانت المراسيم السلطانية قد صدرت أن يختاروا أبناء القبائل ويرسلونهم، ص 63 (الصواب: يرسلوهم)،

ملخص القول: وبالجملة فبدا مما درسنا:

1. أن الدكتور الحفناوي لا يعرف اللغة الأردوية جيدًا والحال أن من يقوم بعبء الترجمة يجب عليه أن يملك بناصية اللغة المصدر كما يمهر في اللغة الهدف
2. أنه يحوّل الخطاب مرارًا فتارة يتحوّل كاتبًا وأخرى شارحًا بينما يجب على المترجم أن يكون أمينًا في الترجمة أيًا كان المحتوى.
3. أن لغة الترجمة ليست مصطبغة بالصبغة الأدبية كما هي العادة لدى من يكتب الرحلة فيجعلها ممتعة بلغته. وخير مثال لهذا رحلة أمينة السعيد "مشاهدات في الهند".
4. وأنه لم يذكر الأبيات غير العربية ظانًا أنها لا تفيد القراء العرب والحال أنها لو ذكرت لأمتعت من العرب من يعرف اللغة الفارسية.
5. والمواضع التي ترجم فيها الشعر غير العربي لم يذكر الأصل فاكتفى بالترجمة.
6. وأنه ترك العناوين الضمنية العديدة حين الترجمة.
7. وأنه مزج قطعة من الكلام بالقطعة الأخرى له بينما التفريق كان أولى وأكثر تفهيمًا للمحتوى.
8. وبالجملة فلو قام أحد يعرف اللغتين جيدًا بإعادة النظر في هذه الترجمة لكانت أجود ترجمة وأفصحها.

الترجمة العربية لـ"الفاروق" للعلامة شبلي النعماني

- الدكتور مقتدى حسن الأزهري

ترجمة من الأردوية: د. فوزان أحمد مقتدى حسن

سُرِرْتُ كثيرًا باستلام الدعوة للمشاركة في الندوة العلمية التي تقام حول موضوع العلامة شبلي، و مما زاد رغبتي في المشاركة هو أنني سأزور منزل شبلي بهذه المناسبة، وأتشرف بلقاء سعادتكم، ولكن للأسف لم تتحقق هذه الرغبة.

ولا يمكن لأحد أن ينسى المعروف الذي أسداه العلامة شبلي إلى الجيل الحاضر والجيل القادم، وإن من بواعث السرور أن قسم الدراسات الإسلامية بجامعة عليكره الإسلامية قد عقد ندوة مباركة حول كتاب "الفاروق" للعلامة شبلي، ومن مزيد الكرم واللطف من القائمين على هذه الندوة أنهم أصدروا مجموعة من المقالات التي قُدّمت في الندوة، مما يسّر الإطلاع على آراء العلماء والكتّاب وإنتاجاتهم العلمية حول شخصية العلامة شبلي وكتابه المثالي.

وبعد الندوة المذكورة أعلاه كان عقد ندوة أخرى في موطن العلامة شبلي وبالتحديد في المركز الذي أسّسه العلامة لخدمة العلم والتحقيق حول موضوع أشمل من موضوع الندوة التي عقدت في جامعة عليكره الإسلامية، يُعدّ مناسبة عظيمةً وفرصة ذهبية للكتاب والباحثين لإحياء تراث العلامة شبلي وكم أتمنى أن تحقّق هذه الندوه أهدافها المنشودة لكي يجد العاملون في مجال البحث والتحقيق تشجيعًا كافيًا للمضي في أعمال البحث والتحقيق به.

فإن الدراسات جارية حول الجوانب المختلفة للآثار الأدبية والعلمية للعلامة شبلي وأتوقّع أنها سوف تستمر في المستقبل أيضًا، وإن من بواعث الفخر والاعتزاز لكلّ أديب وكاتب أن تحظى أعماله بعناية الكتّاب والباحثين ولا شكّ أن للهند شرفًا كبيرًا أن يستفيد العالم العربي اليومَ من أفكار أحد علمائها وإنتاجاته.

وأثناء إقامتي بالقاهرة طرق مسامعي أن الأستاذ محمد إسماعيل الندوي –رحمه الله- أحد زملائنا الكبار، يترجم كتاب "سيرة النبي" للعلامة شبلي إلى اللغة العربية، وقد أكمل جزءًا منه، ولكن لم أسمع أي تفصيل آخر، حتى رجعت إلى الهند بعد إكمال شهادة الماجستير من جامعة الأزهر.

وقابلتُ الدكتور سمير إبراهيم بمناسبة مؤتمر عقد بالرياض فأفادني أثناء الكلام أن كتاب "الفاروق" للعلامة شبلي يترجم إلى اللغة العربية، ولما ذكرت كتاب محمد حسين هيكل باسم "الفاروق عمر" فأخبر أن مؤلفه المصري قد استفاد من كتاب العلامة شبلي بعد ترجمته إلى اللغة الإنجليزية، ومن ذلك الحين نشأت في نفسي رغبة ملحة للاطلاع على النسخة العربية لكتاب "الفاروق"، وأحمد الله على أن ناشره قد زوّد بنفسه المكتبة المركزية بالجامعة السلفية بنسخةٍ منه، ولما تلقيت دعوة المشاركة في الندوة من قبل دار المصنفين، فخطر ببالي أن أتخذ من الترجمة العربية لكتاب "الفاروق" موضوعًا للندوة، لكي يتضح جانب آخر لهذا الكتاب العلمي المثالي أمام الناس. لقد تُرجم كتاب "الفاروق" إلى اللغة العربية بعد قرن كامل من طبعه باللغة الأردية، ونحن على يقين كامل أنه سيحظى بقبول حسنٍ في العالم العربي، ويشجّع من عندهم القدرة والصلاحية على أن يترجموا عملًا علميًا آخر من اللغات الهندية للعالم العربي لكي تستمر عملية التبادل الثقافي بين الشعبين: الهندي والعربي.

تستحق الترجمة العربية لكتاب "الفاروق" أن يسلّط عليها الضوء بمزيد من التفاصيل، والنقاط التي تناولتها في مقالتي مهمة جدًا، ولكن ما عدا ذلك، يبقى هناك بعض الانطباعات البسيطة التي تخصّ بالبيان والتعبير وصحة الطباعة والفهارس العلمية، سأتناولها فيما بعد وأقدّمها إلى القراء بمناسبة أخرى.

ما قبل الترجمة العربية للكتاب:

ألّف العالم المصري الدكتور محمد رجب البيومي كتابًا باسم "النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين" باللغة العربية، و ذكر العلامة شبلي في الجزء الرابع منه الذي

يحتوي على 424 صفحة، وصدر عام 1999م. يكتب الدكتور البيومي على صفحة107: "قرأت استعراضًا حول كتاب "الفاروق" للعلامة شبلي، بقلم الأستاذ الكبير محمد عبد الله عنان، الذي أشاد به إشادة بالغة مع أنه يتّبع طريقًا معتدلًا وواقعيًا في الإشادة، ويقول الدكتور البيومي ما مفاده، رغم ذلك يمكن أن يقول بعض الناس إن العلامة شبلي كان ممن ساعدوا السير سيد أحمد خان، ودرّسوا في عليكره، ولذلك تعرّض لتهمة تأييد البريطانيين. (النهضة الإسلامية 4/ 107)

ضرورة الترجمة إلى اللغة العربية:

ذاع صيت العلامة شبلي بفضل إنجازاته العلمية في العالم الإسلامي، وكان الناس ينتظرون كتاب "الفاروق" منذ مرحلة تأليفه وطباعته، والباحثون العرب أيضًا كانوا يتطلعون إلى صدور الكتاب لكي يستفيدوا منه. وعندما ترجم الكتاب إلى اللغة الإنجليزية واستعرضه العالم المصري الشهير ازداد شعور الناس بحاجة ترجمته إلى اللغة العربية. يذكر الدكتور محمد البيومي: "وكم كانت اللغة العربية في حاجة إلى ترجمة هذا الكتاب، لأن اعتماد المؤلف على الروايات الصحيحة متنًا وإسنادًا يجعل كتابه مصدرًا لا يتطرق إليه الشك، الخ". (النهضة الإسلامية للدكتور البيومي 4/ 114).

تعريف بكتاب الفاروق:

"كتاب الفاروق لم يترجم إلى العربية، ولكن الباحث الأستاذ محمد عبد الله عنان خصّه بفصل[1] جيد قال فيه تحت عنوان (كتاب جديد بالإنجليزية عن حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب):

"صدر أخيرًا بالإنجليزية كتاب عن حياة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ومؤلف هذا الكتاب هو العلامة الهندي شبلي النعماني الذي قضى أعوامًا طويلة في حياته باحثًا منقبًا في عواصم العالم الإسلامي عن المصادر والوثائق التي تتعلق بحياة أمير المؤمنين عمر. وقد اشتهر العلامة شبلي بين علماء الهند المسلمين، أواخر القرن الماضي، بتبحره في العلوم

[1]طبع هذا التعريف بمجة الثقافة، عدد 65، 3/26/ 1940.

الإسلامية، وفي تاريخ السيرة النبوية، وفي تاريخ العصر الأول من الإسلام، وقد وضع تاريخه عن حياة الفاروق باللغة الأردية، ونقله إلى اللغة الإنجليزية العلامة السيد ظفر علي خان، ونشرت الترجمة الإنجليزية بعناية السيد أشرف ناشر الكتب الإسلامية بلاهور.

وقد أتيح لي أن أقرأ هذا المؤلف الجديد عن حياة الفاروق، فوجدت أنه من أقيم وأمتع ما كتب في موضوعه، وهو يتناول حياة عمر منذ نشأته الأولى في الجاهلية، ثم اعتناقه الإسلام الخ.

إلى أن قال: "ويمتاز بحث العلامة شبلي بنوع خاص من الدقة في تمحيص الروايات والنصوص، وهو محدث بارع يبدي مثل هذه الدقة في استعراض الأحاديث التي هي في الواقع من أهم مصادره، ومع أن الكتاب يمتاز بروحه الإسلامية، فإنه يمتاز في الوقت نفسه بأسلوبه النقدي المحدث، وحين العرض والترتيب." (النهضة الإسلامية، 113/4)

تقديم ناشر الطبعة العربية:

وقد قدّمت مكتبة دار السلام بالرياض الطبعة الأولى للترجمة العربية لكتاب الفاروق أمام القارئين، ولم تحمل هذه الطبعة التاريخ، ولكن في نهاية تقديم مدير هذه المكتبة السيد عبد المالك مجاهد نجد التاريخ مكتوبًا هكذا: شعبان 1419هـ الموافق لديسمبر 1998م.

وقد أوضح الناشر في تقديمه عدة أمور، منها: أنه يتشرف بتقديم الترجمة العربية بعد ما مضى قرن واحد على تأليف كتاب الفاروق، وترجمته إلى ثلاث لغات وهي : اللغة الأردية واللغة الفارسية واللغة الإنجليزية، على الرغم من أن هذا الكتاب يعدّ من أفضل ما كتب في سيرة الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب".

وأوضح في التقديم ما يتعلق بالترجمة ومراجعتها كما يلي:

"ونحن بهذه المناسبة نزجي آيات الثناء والشكر للأستاذ الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم الذي تفضل مشكورًا بقراءة الكتاب ومراجعته والتقديم له، ونشكر الإخوة المراجعين العاملين بلجنة البحث والإعداد العلمي بمكتبة دار السلام".

يدلّ هذا الاقتباس على أن الدكتور سمير قام بمراجعة الترجمة وكتب التقديم لها. ويتطرق إلى الذهن باستخدام صيغة الجمع في "نشكر الإخوة المراجعين" أن المراجعة تمّت مرتين، لعله طبع لفظ "المراجعين" بدل لفظ "المترجمين"، وهذا الاحتمال الأخير يظهر قويًا، لأن غلاف الكتاب يحمل العبارة "تعريب لجنة التأليف والترجمة دار السلام"، ولذا استنتجنا منها أن الترجمة العربية لكتاب "الفاروق" تمت على أيدي جماعة العلماء وقام بمراجعتها الدكتور سمير إبراهيم، وعندما نقوم بمقارنة الترجمة العربية مع الأصل الأردي فهذا أيضًا يؤيد ظننا السابق المذكور آنفًا.

وفي نهاية "التقديم" الذي كتبه الدكتور سمير توجد جملٌ تفيدنا أن عمله يقتصر على المراجعة فقط:

"وفي نهاية هذا التقديم أشكر الإخوة بدار السلام على جهدهم المتواصل في التعريف بعلماء وأدباء شبه القارة الهندية الباكستانية، وعلى ترجمتهم لكتاب الفاروق الخ".

ويمضي قائلًا: "وأشكر الأخ الشيخ عبد المالك مجاهد الذي خصني لمراجعة الترجمة وكتابة هذا التقديم".

تقديم الدكتور سمير إبراهيم:

يبدأ هذا التقديم من الصفحة السابعة وينتهي على الصفحة الواحدة والعشرين، وقد قسمه الدكتور الموقر إلى أربعة أجزاء:

ففي الجزء الأول ألقى الضوء بإيجاز على مولد العلامة شبلي ونشأته وحصوله على التعيلم، والأوضاع السائدة في عصره وانتمائه إلى حركة السير سيد، والخلاف في منهجية الفكر والعمل بين الزعيمين، والقضايا والمشاكل التي كانت تواجهها الأمة الإسلامية في العهد البريطاني، ووصول العلامة شبلي إلى عليكره، ثم الاعتناء بحركة ندوة العلماء بعد اليأس من عليكره وغيرها من النقاط الهامة. و من الواضح أن كاتب سيرة العلامة شبلي وخاصة العلامة سيد سليمان الندوي قد ألقى الضوء على هذه النقاط بإسهاب.

وفي هذا الجزء من المقدمة توجد إشارة موجزة إلى التعقيدات التي نتجت عن الاتصالات والاصطدامات بين الحضارتين: الإسلامية والغربية في المجتمع الهندي. ومن الواضح أن الإدلاء برأي على مواقف الناس بعد ظهور النتائج سهل، ولكن إذا كان المرء يقف على مفترق الطرق ويواجه مسألة تقدّم الأمة الإسلامية بأسرها، ومسالك الفكر والعمل غير واضحة أمامه، فيصعب عليه اختيار موقف حاسم، وربّما لهذا السبب بالذات وعد الله المجتهد بأجر ولو أخطأ في اجتهاده. ولذا أنصح كل من يستعرض أحوال العلامة شبلي والسير سيد أحمد خان أن يأخذ ما جاء أعلاه آنفًا بعين الاعتبار.

وفي الجزء الثاني من التقديم يشير الدكتور سمير إبراهيم إلى استياء العلامة شبلي من التعليم الحديث و"حركة التجديد في عصره" ثم يتطرق إلى ذكر تأثّره بالدعوة السلفية أثناء رحلة الحج، وكتب الدكتور سمير أن العلامة شبلي كان حنفي المسلك، ولكن بعد تأثره بالدعوة السلفية، وجد في نفسه صراعًا داخليًا، و استمر هذا الصراع إلى زمن طويل، ولكن لو طبعت كتب ابن تيمية وتيسر للعلامة الحصول عليها، لزالت حيرته، وقد أدلى العلامة بتصريحه إلى تلميذه سيد سليمان الندوي- رحمهما الله- المؤرخ في شهر يوليو عام 1914م، ويرجى الإطلاع على الترجمة العربية لجملة من جمل الخطاب:

"إنني الآن مستعد لأن أمضي في كل طريق وإلى كل اتجاه ما دمت ممسكًا بيد ابن تيمية".

وبعد النقطة المذكورة ذكر الدكتور سمير اعتناء العلامة شبلي بالتاريخ، وتأليفه كتاب "المأمون" وكتاب "الفاروق" وكتاب "الغزالي" وشعره باللغة الأردية والفارسية، وترجم بعض أشعاره ترجمة منظومة وغير منظومة، وترجم ما ذكر غراهام بيلي في كتابه حول تاريخ الأدب الأردوي تأثره بنثر العلامة شبلي بهذه العبارة: "يعده بعضهم أعظم كتاب النثر في الأردية، وأسلوبه مناسب لما طرق من موضوعات خاصة بالدين والتاريخ".

وإليكم ترجمة العبارة التي تأثر فيها شخص آخر بالعلامة شبلي وكتابه "الفاروق": "ويرى البعض أن شبلي –وهذا حق- يعد رائد كتابة التاريخ الحديث في الأدب الأردي، وإن كتابه "الفاروق" يعد درة في تاج النثر الأردي".

وأوضح الدكتور سمير في هذا الجزء أن العلامة شبلي لم يقدم نفسه كشاعر أمام الناس لأن آثاره العلمية والبحثية حجبت هذا الجانب من شخصيته، ولعل الدكتور سمير يقصد هنا قضايا الأمة الإسلامية التي تتعلق بالسياسة، وورد ذكرها في أشعاره، لأنه هو بنفسه يهتم بالموضوعات المتعلقة بدين الأمة الإسلامية وثقافتها من أشعار العلامة شبلي.

وذكر الدكتور سمير في الجزء الثالث من تقديمه أولًا الموضوعات المختلفة والمتنوعة التي حظيت باهتمام العلامة شبلي، والتي تشمل التاريخ، و النقد، والأدب، والشعر، وعلم الكلام، وأسلوب كتابة الرسائل، والرحلات. وكان قلم العلامة السيّال لا يغادر صغيرًا ولا كبيرًا من الموضوعات، ويستفيد كل شخص بغزارة علمه.

وقد وصف الدكتور سمير العلامة شبلي مشيرًا إلى مكانته المرموقة في مجال التاريخ بأنه يعدّ أبا تاريخ اللغة الأردية الحديث، وذكر من ميزاته البارزة أنه كان يريد أن ينقي الإسلام من الأفكار المزيّفة الباطلة التي أُلصقت بالإسلام، وهذا الأمر واضح في كتابات العلامة التاريخية والجدلية كل الوضوح، وهذه الكتابات ظلت مركز اهتمام العلماء والمفكرين في كل زمان، أعني هنا: العلاقة بين الإسلام وبين التنمية والثقافة، أو بعبارة أخرى: هل الإسلام يمنع عن التنمية والثقافة الجديدة؟ وقد أوضح العلامة بحكم مطالعته العميقة للعلوم الإسلامية، والمجتمع الإنساني وعلم التاريخ، أنه توجد في الإسلام كافة الأسباب المؤدية إلى تطوير الثقافة والحضارة، أذكر على سبيل المثال المساواة والتسامح في العلاقات ونظام الشورى وتقسيم الواجبات بين الذكر والأنثى ومراتب الفرد المختلفة والتطور العلمي، إذا أردت أن تقيّم هذه الأمور فعليك أن تنظر إلى الإسلام كيف نفّذها في الدنيا والآخرة، ثبّط الرهبنة، وأكّد على الحياة العملية والعلاقات العالمية. وقد اختار العلامة سيرة عمر الفاورق لتقديم الصورة الصحيحة

لطريقة الحكومة في الإسلام وتحدّى المؤرخين أن يقدّموا من التاريخ شخصية جامعة مثل عمر الفاروق، فهكذا أثبت العلامة تفوق نظام الحكم في الإسلام على جميع أنظمة الحكم السائدة في العالم، ولذا يحبّ العلامة تأليفه "الفاروق" أكثر من أي تأليف آخر.

الحديث عن الترجمة العربية:

كتب الدكتور سمير أن عبد اللطيف الأعظمي ذكر أثناء كلامه عن مكانة العلامة شبلي في الأدب الأردي تراجم كتاب "الفاروق" باللغة الفارسية والعربية والإنجليزية، ولكن السؤال هو أين توجد الترجمة العربية؟

يذكر الدكتور سمير: إني رأيت الترجمة الإنجليزية لكتاب "الفاروق"، قد كتب عليها أن الطبعة الأولى لها ظهرت عام 1939م، ترجم الجزء الأول منه مولانا ظفر علي خان، وترجم محمد سليم (ماجستير في الآداب) الجزء الثاني، وأما ما يتعلق بالترجمة العربية فأتذكر بهذا الصدد كلام أستاذي الدكتور يحيى خشاب أنه تمت ترجمة كتاب الفاروق وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم واحتفظت بها بدار المعارف بمصر لمدة طويلة في انتظار شخص يراجعها، ومن الممكن أن عبد اللطيف الأعظمي أشار إلى هذه الترجمة أو هو أراد كتاب محمد حسين هيكل باسم الفاروق عمر الذي طبع من دار المعارف في الجزئين ولكن لم يذكر المؤلف في تقديمه أي تاريخ.

وقد أثار الدكتور سمير سؤالًا جادًا بعدما ذكر حديث الترجمة العربية نقلًا عن عبد اللطيف الأعظمي، وهو: هل التقى مولانا ظفر علي خان بمن شاركوا في مجالس العلامة شبلي؟ وهل التقى محمد حسين هيكل بظفر علي خان في اجتماع العلماء المسلمين الذي عقد في المملكة العربية السعودية بدعوة من الملك عبد العزيز، عاهل المملكة العربية السعودية؟

ويشير الدكتور سمير إلى نقطة هامة بعدما وجّه السؤالين المذكورين، وهي أن الدكتور حسين فوزي النجار ينفي كلام أولئك الذين يقولون إن سكرتير الدكتور هيكل، الدكتور

سيد نوفل كان يكتب أكثر مباحث الدكتور هيكل ويصحّح كتاباته، يقول الدكتور نجار: إن سيد نوفل تولى منصب السكرتير بعدما عيّن الدكتور هيكل وزيرًا للمعارف عام 1938م، وهذا الأمر جدير بأن يثق به ويستشهد به باحث، لأن الدكتور هيكل ألّف الجزء الأول من كتابه الفاروق عام 1944م والجزء الثاني منه عام 1945م بعد سبع سنوات من تأليف كتابه "محمد".

وحسب رأي الدكتور سمير إذا قارن أحد كتاب الفاروق للعلامة شبلي وكتاب الفاروق لهيكل فيجد أنه ليست بين مباحثهما مشابهة فقط بل توجد المحاكاة أيضًا، والخريطة التي يحملها غلاف كتاب الفاروق الأردي توجد في نهاية كتاب الفاروق عمر العربي أيضًا، ولكن حكم المشابهة هذا لا ينطبق على مضامين ومحتويات الكتابين، وطريقة معالجة المباحث فيهما، وهذا أمر طبيعي لأن العلامة شبلي خاطب بكتابه أهل الهند أساسًا وهيكل ألف للعرب.

ولا شك في أن هيكل استفاد من المصادر الهندية في تأليف كتابه، ولكنه ذكر في المصادر كتاب مولانا محمد علي فقط، ولم يشر إلى الفاروق للعلامة شبلي، كما استفاد من كتاب حجة الله البالغة لشاه ولي الله، والآن عندما تصدر الترجمة العربية للكتاب فيستطيع القراء أن يقوموا بعمل المقارنة بينهما. ويجب أن يلاحظ بهذه المناسبة أنه يوجد الاتصال والتبادل بين علماء الهند ومصر، كان علماء الهند يقومون بطبع مقالاتهم بالجرائد والمجلات المصرية والعلماء المصريون يعرفون كتابات العلماء الهنود، وكان العلماء المصريون يزورون الجامعات والمعاهد التعليمية الهندية ويقومون بإلقاء المحاضرات فيها.

وليس من الخطأ أن يستنتج من الكلام المذكور للدكتور سمير أن الدكتور هيكل استفاد من الترجمة الإنكليزية لكتاب الفاروق للعلامة شبلي في تأليف كتابه الفاروق عمر.

وأضاف الدكتور سمير أن العلامة شبلي استفاد من المفكرين الإسلاميين في العالم الإسلامي والعربي وأنه اعترف بهذه الحقيقة بصراحة، ولم يحاول أحدٌ من تلاميذ العلامة والباحثين الآخرين أن يخفي هذه الحقيقة، وقد استفاد العلامة شبلي من فريد وجدي في

علم الكلام وكذلك من العلماء المصريين الذين كانوا يدرّسون في دارالعلوم بديوبند، ورشيد رضا وعلماء المدينة المنورة وسوريا وتركيا، إن دلّ هذا على شيء فإنه يدلّ على عظمته.

وفي الجزء الرابع فك الدكتور سمير أولًا عقدة سنة تأليف كتاب الفاروق، وبدأ العلامة شبلي –حسبما بين الدكتور سمير- تأليف كتاب الفاروق سنة 1887م، وانتهى من تأليفه سنة 1898م بعدما توقف الأمر لمدة قصيرة، وطبع الكتاب سنة 1899م.

ولم يقصد شبلي بتأليف كتاب الفاروق إلى عمل فني وأدبي أو ترجمة شخصية عظيمة فحسب، بل إنه جعل نصب عينيه أن يقدم أمام العالم العصر الذهبي من التاريخ الإسلامي مع بيان التفاصيل اللازمة لتتجلّى عظمة الدين الإسلامي وعدالة الفاروق وأهمية طريقة الحكم في الإسلام.

وفي هذا الجزء من التقديم ذكر الدكتور سمير رأي بعض أدباء اللغة الأردية وعلماء شبه القارة الهندية أنه لا يوجد أي كتاب باللغة العربية يوازي كتاب الفاروق لشبلي ولكنه كتب مزيدًا أن هذا الرأي يتطلب مزيدًا من البحث والدقة، وهكذا أبدى تحفظه حول رأي سيد علي شاه أن كتاب محمد حسين هيكل جاء بعد كتاب شبلي وأن منزلته أقل من منزلة كتاب الفاروق لشبلي.

وهكذا أشار الدكتور سمير إلى الانتقادات التي وجهت إلى كتاب الفاروق من قبل بعض العلماء، وأبدى أسباب النقد، وأهمية كتاب الفاروق فيما يلي:

"وهناك انتقادات كثيرة يرجع معظمها إلى خلاف في الرأي بين المدارس الفكرية في الهند، وقد بذل شبلي جهده في كتابة بحث تاريخي على أسس منهجية ثابتة وصحيحة".

وكانت الفترة الزمنية التي ألّف فيها كتاب الفاروق (والفترات الأخرى أيضًا) فترة حرجة من حيث النزاع الذي تفاقم بين الشيعة والسنة، وقد أشاد الدكتور سمير بالعلامة شبلي على أنه تناول القضايا التي يوجد فيها الخلاف بين الطرفين بدقة بالغة وبطريقة ملائمة، تُبرز حصافة العلامة وتيقظه وموهبته الاستثنائية.

والتاريخ الذي كتبه الدكتور سمير على هذا التقديم هو رجب 1419هـ وكتبه في الرياض.

مقارنة الترجمة العربية بالنص الأصلي:

وقد قارنت الترجمة العربية لكتاب الفاروق في صفحات متفرقة، فوجدت أن الترجمة سليمة من حيث التعبير عن المعنى، و لا يخلو من التاثير وجمال العبارة في الأماكن الكثيرة. وقد ساهم فيه حسن موضوع الكتاب والمنزلة الأدبية الرفيعة لمؤلفه أيضًا.

ولمزيد من الطمأنينة قد قرأت الصفحات التالية وقارنتها بالأصل فوجدت أنها لا تخلو من بعض الإهمالات أو الأخطاء البسيطة، وغير أن الترجمة سليمة، والصفحات كما يلي:

49	50
190	192
311	-----
338	339
428	430

الترجمة تتطلب أشياء كثيرة منها إتقان اللغتين، والمهارة والدقة، واستخدام الاستعارات والكنايات تُفضي أحيانًا إلى الغموض في النص المطلوب ترجمته، وعليه تصعب عملية الترجمة، وكذلك لمنظور المترجم دور في المطابقة بين الترجمة والأصل، فهو يفهم أنه قام بتأدية المفهوم بالتعبير الصحيح ولكن الشخص الآخر لا يطمئن لهذا التعبير، وأرى من المعقول أن أشير إلى البعض من مثل هذه الأمكنة وهي كما يلي:

الأمور التي تستحق العناية:

لقد سبق ذكر مقارنة الأصل الأردي بالترجمة العربية بصورة محدودة، والآن أريد أن أذكر بعض الأمثلة التي تتعلق بالترجمة والإحالة إلى المصادر والطباعة. ولغرض تيسير الموضوع لقد قسمت هذه الأمثلة إلى ثلاثة أقسام:

1. الأخطاء البسيطة المتعلقة بالترجمة:

- الترجمة العربية صفحة 33 السطر الثامن والتاسع (صفحة 10 في الأصل الأردي): "كانت لها علاقة إن لم تكن مرتبطة بمختلف العلوم الأخرى" وينبغي أن تكون العبارة هكذا: تكون لها علاقة بمختلف العلوم الأخرى".
- الترجمة العربية، صفحة 41: وردت سبعة أبيات في صفحة 19 في أصل الكتاب باللغة الأردية ولكن المترجم قام بترجمة بيت واحد فقط وكتبه في سطرين.
- على صفحة 78 وفي الأصل على صفحة 59 ترجم العبارة الأردية هكذا: "وتتضاعف الدهشة والغرابة حين نرى أن هذا العمل يصدر ممن كانوا يعتبرون النجوم الساطعة في سماء الإسلام". نرى أن هذه الترجمة قاصرة عن تأدية المعنى كما حقه.
- صفحة 110: في الهامش (1) أخطأ المترجم في ترجمة العبارة الأردية.
- صفحة 246 السطر 12 أضاف سطرين إضافيين إلى الأصل مع المصادر.
- صفحة 262 السطر 8 ترك ترجمة سطر ونصف من الأصل ومصدره.
- صفحة 366: هامش (1) ترجم العبارة الأردية هكذا: "خلط الوعاظ أمورًا كثيرة في قصة أبي شحمة". ونرى أن هذه الترجمة لا تؤدي المقصود.

2. الملاحظات حول المصادر:

يحدّد كتاب الفاروق للعلامة شبلي المعايير الرفيعة لكتابة التاريخ، وقد ذكر المؤلف في بداية الكتاب تعريفًا مؤجزًا بالمصادر وبعد ذلك تقيد بأن يذكر في الهوامش أسماء هذه المصادر مع جزئها وصفحاتها التي أخذت منها المعلومات المتعلقة بالموضوع. ولا يحتاج أي كتاب من كتب العلامة شبلي أن تذكر عنه هذه الأمور ولكن نريد هنا بعض الملاحظات التي تتعلق بالترجمة العربية ولذا سردنا الأسطر المذكورة فيما أعلاه كتمهيد له. وفي الترجمة العربية حينما ترجم المترجم المصادر والمراجع يتضح أنه يراعي الدقة مراعاة كاملة فقد ذكر أجزاء كل المصادر والمراجع وصفحاتها طبق الأصل، ولكن توجد بعض

الهفوات التي تتطلب الإصلاح حسبما تقتضي طبيعة الإنسان، ونأتي بها فيما يلي راجين بأنه سيتم تصحيحها في الطبعة القادمة. ورقم الصفحات الذي جئنا بها فيما يلي لذكر ملاحظاتنا هي صفحات الترجمة العربية، وإذا كانت هناك حاجة المقارنة بالأصل فيمكن الوصول إلى المكان المطلوب بمساعدة من الموضوع والعنوان.

- صفحة 26 من الترجمة العربية: في إضافة الهامش الأول أشار المترجم إلى مكتبة المخطوطة.
- صفحة 26 من الترجمة العربية: في الهامش الثاني أشار إلى مكان الطبع.
- صفحة 27 إضافة في الهامش الأول والثاني والثالث، ذكر في الأول سنة الميلاد والوفاة، وفي الثاني زمن الوفاة والإحالة إلى المصادر وفي الثالث ذكر سنة الوفاة والمصدر.
- صفحة 28 إضافة الهامش الأول ذكر مجلدات الكتاب ومكان الطبع وسنته والطبعة الثانية.
- صفحة 29 إضافة الهامش الأول ذكر عشرة مجلدات للكتاب ومكان الطبع وسنته.
- صفحة 30 في الهامش الأول ذكر مكان الطبع وسنته.
- صفحة 43 في الهامش الأول كتب اسم المصدر فقط ومع ذلك نجد في الأصل أنه ذكر "أن في هذه المصادر توجد الأحوال التفصيلية لزيد".
- صفحة 57 في الهامش الثالث جاء ذكر ابن جرير بدل ابن هشام.
- صفحة 75 في الهامش الثالث ترجم المترجم العبارة الأردية هكذا: "إن وجهة نظر في هذا الموضوع"، وهذه الترجمة غير سليمة.
- صفحة 90 في الهامش الأول كتب "الفردوس" بدل "فردوسي"، وأضاف الجملة الآتية في هامش المؤلف "وينطق حرف الجيم في يزجرد كالجيم القاهرية".
- صفحة 125 في الأصل ثبت المؤلف الهامش على لفظ "جلولاء" ولكن تركه المترجم في الترجمة.

- صفحة 137: أحال المؤلف إلى "فتوح الأزدي" حينما أكمل بحث الحمص، ولكن تركه المترجم.
- صفحة 152 في الهامش الأول لم يترجم المترجم العبارة الأردية وترجمتها كما يلي: "وقد سمى اليعقوبي عثمان بدل علي".
- صفحة 163: الهامش الأول ترك ترجمة عبارة: "جاء هذا المكان في الخريطة". صفحة 165 الهامش الأول ترك ترجمة عبارة: الذي ذكر في الخريطة.
- صفحة 178 عدة أخطاء في ترجمة الهامش الأول.
- صفحة 179 في الهامش الأول ترجمة العبارة الأردية سوف يكون مفادها كما يلي: وقد أفرج عنهم بعد ما أخذت منهم الجزية في خلافة الفاروق. ولكن ترجم هذه العبارة هكذا: "لأنهم امتنعوا عن دفع الجزية في عهد الخليفة عمر".
- صفحة 197: في الأصل استغرق الهامش ما يقارب صفحتين ولكن ترجم من الهامش الأول سبعة أسطر فقط.
- صفحة 238 السطر الخامس: في الأصل أحال إلى اليعقوبي ولكن تركه في الترجمة.
- صفحة 238 السطر الثامن: توجد جملة في العبارة التي نقلت من كتاب الخراج في هامش الأصل هكذا: "ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد" ولكن ترجمت هذه الجملة إلى العربية هكذا: "لم يؤخذ بظلم من مسلم أو من ذمي".
- صفحة 240 السطر التاسع: ذكر اسم بلاذري وفتوح البلدان ولكن في الهامش لم يحل إليهما.
- صفحة 251 في الهامش الثاني ترك أسماء العلامة أبو إسحاق شيرازي وطبقات الفقهاء والعلامة البيهقي.

- صفحة 263 تحت عنوان "تأسيس بيت" أحال إلى فتوح البلدان في الأصل عندما انتهت الفقرة الأولى ولكن أهمل ذكره في الترجمة.
- صفحة 266 أحال إلى فتوح البلدان حينما انتهى مبحث "نهر أبي موسى" ولكن تركه في الترجمة.
- صفحة 271 ترك الإحالة إلى الطبري والبلاذري عند نهاية المبحث تحت عنوان "المخافر والخانات".
- صفحة 283 في الهامش الأول ترجم للعبارة الأردية مفادها "كثير ممن لا يتعمقون النظر" بـ"الكثير من المحللين" وهذا ليس بصحيح.
- صفحة 299 ترك الهامش الثاني، ينبغي أن تكون الإحالة إلى الطبري ولكن ثبت الهامش الآتي بدله وترك هامش صفحة 300.
- صفحة 305 السطر العاشر، كانت الإحالة هنا إلى كتاب الخراج ولكن تركها المترجم.
- صفحة 309 أضاف الدكتور سمير الهامش الأول.
- صفحة 319 كتبت ثلاثة هوامش ولكن تحتاج العبارة إلى اثنين فقط والثالث إضافة.
- صفحة 349 في الهامش الثالث استدراك على العلامة شبلي وجاء نفس الشيء في صفحة 384 تحت الهامش الأول.
- صفحة 361 خلط الأمر بين أنساب الأشراف ومؤطا الإمام محمد.
- صفحة 380 في الهامش الأول ترجم بدل "المصادر الموثوقة" "مصادرها الأصلية".
- صفحة 398 السطر الثالث: لم يحل إلى تذكرة الحفاظ.
- صفحة 415 كتب في الهامش "المصدر السابق" بدل مؤطا الإمام محمد.
- صفحة 420 ترك هامش زاد المعاد.

- صفحة 431 ترك الإحالة إلى كتاب البيان والتبيين للجاحظ.
- صفحة 435 ترك الإحالة إلى كتاب الأغاني.
- صفحة 472 لم يترجم المترجم العبارة باللغة الفارسية للشاه ولي الله المحدث الدهلوي والتي جعلها العلامة شبلي نهاية كتابه.

الأخطاء المطبعية:

كل كاتب يرغب في أن يكون كتابه خاليًا من الأخطاء المطبعية، وبهذا الخصوص يهتم بعضهم اهتمامًا بالغًا، ويأخذ حيطة بالغة، ونتيجةً لذلك تتقلّل الأخطاء، ولكنها لا تختفي كاملًا، ولذا يجب أن يضاف فهرس الأخطاء والتصويبات في آخر الكتاب، ولعل هذا هو السبب وراء ما كتبه العالم المصري عبد السلام محمد هارون الذي ذاع صيته في مجال البحث والتحقيق في مكان ما: إذا لم يضف أي كاتب في كتابه فهرس الأخطاء، فاعلم أنه يدعي بأن كتابه خالٍ من الأخطاء، وهو من المستحيل.

تصل الترجمة العربية لكتاب الفاروق إلى ما يقارب خمسمائة صفحة، وليس بمستبعد أن توجد الأخطاء المطبعية في مثل هذا الكتاب الضخم، ولم أنخل الكتاب من الأخطاء المطبعية، ولكن أذكر بعضها التي وجدتها أثناء تصفّحي للترجمة العربية وهي كما يلي مع صفحاتها:

الترجمة العربية صفحة 26: طبع 43هـ فقط بدل 143هـ.

الترجمة العربية صفحة 26: كتب أبو مخنث بدل "أبو مخنف الكلبي".

الترجمة العربية صفحة 32 السطر الثالث عشر: طبع بدل "لايذكر" فقط "يذكر".

الترجمة العربية صفحة 62: طبع "الرواية" بدل "الدراية".

الترجمة العربية صفحة 89: في الهامش الثاني كتب "أم لم ينتهي" بدون إسقاط الياء.

مقالات العلامة شبلي النعماني

- عبيد الله خان، إيم إيه

ترجمة من الأردوية: ضياء الحق عبد الرشيد

من المعلوم أن العلامة شبلي صنّف عددًا كبيرًا من الكتب، وقام بخدمات علمية لا تجحد ولا تنكر، كما كتب عديدًا من المقالات القيمة التي يمكن الاستفادة منها لمن لا يتسنى له دراسة تصانيفه كلها، إذ أنها تبرز هدفه الإصلاحي وحبّه للإسلام فيما كرّس حياته كلها، وتبرز رغبته في التحقيق وحبّ الاستطلاع بما وهبه الله سبحانه وتعالى، وما يتمرس به منذ نعومة أظفاره، وما يجئ به سريعًا من أعظم كره إلى لاهور، وما يحرّضه على التلمذ لعلامة الزمن الشيخ فيض الحسن، إذ أنه يسافر من بيته لإرواء غليله العلمي مع عشرين روبية التي تنفد كلها وجلها بلاهور، ويضطر إلى إرسال رسالة إلى أبيه قائلًا:

"مرا دو ماه می گذرد که ترک وطن کرده ام وبه ے گانگاں بسر ام بست وپنج روپیه عنایت شده بود سه روپیه به کرایه یکه از اعظم گڑھ تا جون پور رفت، هفت روپیه صرف ریل تا به سهارنپور شده بود وپنج روپیه از آنجا تا به لاهور، دو روپیه باقی می ماند، اول که درین جا رسیدم دو یک روپیه به حوائج ضروریه که در وقت قیام جاے پیش مي آمد صرف شد – مکانے به کرایه یک روپیه گرفتم، دوماه را دو روبیه کرایه می شود، آنچه باقی می ماند به طعام آمد اگر انصاف رود به چنداں کفایت بسر برده ام بیش از ومتصور نیست چوں مزاج عالی اندکے برهمی داشت از تکلیف ارسال صرف باز ماندم اکنون کار مشکل افتاده است، دیگر چه گوئم –"

ترجمة: "أعيش عيشة الغريب بعيدًا عن البيت منذ شهرين، وخرجت من البيت مع خمس وعشرين روبية فقط، وأنفقت منها ثلاث روبيات من أعظم كره إلى جونفور وسبع روبيات منها إلى سهارنفور وخمس روبيات منها إلى لاهور كأجرة السفر على القطار، وأنفقت روبيتين في قضاء احتياجاتي اللازمة بعد الإقامة هناك، واستأجرت غرفة بروبية شهريًا ودفعت روبيتين كأجرة للغرفة للشهرين، وأنفقت ما بقي من الروبية في شراء المأكولات والمشروبات، وفي الواقع أني اقتنعت بالإنفاق القليل على الحاجة الماسة حتى

تتحير على ذلك، ولم أطلب المال منك لأنك كنت غاضبًا خلال المغادرة، والآن أنا في حاجة ماسة إلى روبيات، وماذا أقول لكم".

ورغبته القوية في الحصول على العلم تيسر له مواجهة جميع الأوضاع البائسة من القفر والبؤس والشقاء والغربة في مجرى حياته العلمية للحصول على هدفه الأصيل.

وينبغي لي أن أصرح سوء الفهم عن العلامة بأن جامعة علي كره وصحبة السير سيد جعلته إنسانًا كاملًا كالعلامة شبلي والواقع ليس كذلك، لأن العلامة وجد بيئة علمية وفرصة سانحة لكتابة المقالات المرموقة المحتفلة بالأهداف الإصلاحية والآراء النيرة والأفكار الصافية التي تصقل شخصيته وتشيع نظرياته الإسلامية وأصوله الدينية والعلمية، والتي صارت بها أعظم كره وبندول مرجعين ومصدرين للعلوم والفنون كعلي كره.

منذ ثورة عام 1857م، قد لاحظ العلامة احتلال الإنجليز الغاشم وجبروته وطغيانه وقهره إذ ضعفت أوضاع الأمة المسلمة بعد هزيمتها سياسيًا، وضاق مجرى حياتهم، فوجد العلامة أسباب تخلف الأمة الإسلامية متعددة الجوانب المتأصلة في قلوبها وأذهانها وروحها، وذلك لأجل نسيانها خدماتِ السلف الصالحين وسيرها على صراط غير مستقيم، فحاول العلامة تحريض الأمة على اتخاذ الصراط المستقيم لإعادة مجدها وشأنها الذي فقدته.

وبكونه مصلحًا إسلاميًا وناقدًا دينيًا، يردّ ردًا عنيفًا على الاعتراضات والتهم السيئة ضد الإسلام من قبل الإنجليز والنصارى الخادعين والمستشرقين، وسعى سعيًا كاملًا على كبح دعاياتهم الباطلة ضد الإسلام والمسلمين، بأعماله وأخلاقه ومواهبه العلمية عن طريق الكتابة والخطابة، معبرًا عن حقائق الإسلام وصداقته حتى جاء الحق وزهق الباطل.

كما ردّ العلامة على الاعتراضات الموردة على الإسلام، عن طريق تقديم الدلائل والبراهين من السيرة النبوية وأخلاق الصحابة والسلف، فاعترف بنبوغه العلمي عميد جامعة علي كره وبعض معلّميها الإنجليز أمثال السير بيغ والأستاذ آرنولدكيه، وساعدوا في تنمية شخصيته كشخصية فذة، انبثق من قلمها نور علمي يهزّ الكيان الإنجليزي، كما لاحظ العلامة انحطاط المسلمين وتخلفهم في شتى المجالات، وبعدهم عن الرقي والازدهار، وعدم إسهامهم في الخدمات الرائعة، التي كانت فريضة ومسؤولية أولى ملقاة على

كواتفهم، والتي يقوم بها النصارى بكل رغبة تامة، وفازوا فوزًا عظيمًا، وتفوقوا على الأمم الأخرى تفوقًا بارزًا.

فلاحظها العلامة خلال زيارته بالدول المختلفة، حيث أن الأمم الأخرى توصلت إلى أوج الكمال والرقي والازدهار بأعمالها الرائعة وخدماتها الجليلة، إذ توصل المسلمون في بلادهم إلى الانحطاط والفشل والانهزام الشديد والتخلف سياسيًا وعلميًا وذهنيًا، فعزم على أن يرشد الأمة الإسلامية إلى خدمات السلف النيرة، التي تتولى بها على المناصب العليا، وسيطرت بها على مختلف الأمم كذوي السلطات، فقبلتهم الدنيا طوعًا بكونهم الملوك والأمراء في القرون الماضية.

فبدأ يكتب العلامة رحمه الله مقالاته الإصلاحية والدينية والسياسية والاجتماعية والتاريخية والعلمية والأدبية والنقدية في المجلات والأخبارات الرائعة والمقبولة لدى الطبقة المثقفة والمسلمين خاصة، أمثال معارف علي كره، ودكن ريويو، إنستيتيوت غزت، وتهذيب الأخلاق، والندوة ومسلم غزت، التي كانت تنشر مقالاته فيها أحيانًا فأحيانًا، والتي تم نشر مجموعاتها بأعظم كره في ثمانية مجلدات وترتيبها كما يلي:

المجلد الأول : المقالات الدينية

المجلد الثاني: المقالات الأدبية

المجلد الثالث: المقالات التعليمية

المجلد الرابع: المقالات النقدية

المجلد الخامس: المقالات التاريخية (الجزء الأول)

المجلد السادس: المقالات التاريخية (الجزء الثاني)

المجلد السابع: المقالات الفلسفية

المجلد الثامن: المقالات الإصلاحية والسياسية

ويجدر بنا أن نلقي على مقالاته نظرةً نقديةً قبل استعراضها وقراءتها.

ومن لافت الانتباه إلى أن هدف العلامة الأصيل كان هدفًا إصلاحيًا، وكان أسلوبه سلسًا خاليًا من التكلف والتصنع في البيان والأداء، مختلفًا عن أساليب الخطباء والعلماء في

تحقيق أهدافه الإصلاحية، فينبثق منه لمعان العلوم والفنون غرار كتابة المقالات المتنوعة الآفاق المتفوقة على مقالات المعاصرين علمًا ومعرفة، فيغوص في أعماق المشاعر والأحاسيس، ويخرج منها أدق المعاني، كأنه يغوص في البحر ويخرج منها اللآلي الثمينة، فيقول مفتخرًا : من يستطيع أن يغوص في البحر ويخرج اللآلي أثمن من هذه اللآليء" .

فيمتاز أسلوبه في التحقيق والتدقيق بالعدل المتحتم والإتقان والتثبت في الكلام وبقلة الاقتبسات المليئة بالخشونة والغرابة واللامعقولية، إذ أنه يحقق نوعًا من التوازن والعدل خلال كتابة المقالات، ويؤكد على سرد الوقائع والأحداث المعتمدة على الكلام العقلي الموثوق المفعم بالدلائل القوية، حتى يتلهف كل قارئ وذو عقل بدون التعصب إلى قراءة كلامه، ومن الممكن إذن، أن نرى كل مقالاته محتفلة بالمتانة والدقة والإتقان والتثبت والرعاية والمجاملة، خالية من لوعة التعصب والنزعة العاطفية، إذ يبرز الفرق الشاسع بين كلامه الشيخ شرر، حيث أن الشيخ شرر يهتم بسرد الكلام المفعم بالنزعات العاطفية ولوعات التعصب التي تضعف شخصية أي كاتب أو مؤرخ، بينما العلامة شبلي منزه من هذه الصفات الرديئة.

وكان العلامة شبلي محبًا لوطنه، فيبرز في مقاله حبّه للوطن، ويعتز بذكر خدمات أهل وطنه، كما يفتخر بذكر خدمات العرب والترك سواء بسواء، فهو يقدس المساجد الأخرى كتقديس المسجد الحرام الشريف، فينهض بكل قوة علمية وذهنية وجسدية للدفاع عن مسجد كانفور الذي تم هدمه قبل الاستقلال، فيتهيأ العلامة لتكريس حياته كلها والتضحية بأمواله الطائلة للذود عن المسجد ويقول حماسيًا: إن هذه الحادثة وقعت بكانفور ليست بحادثة فقط تتعلق بمسجد كانفور، بل هي حادثة تدعو محبي الوطن إلى العمل المشترك في المواجهة والمناضلة والمجابهة ضد الحكومة الإنجليزية، لكي تتسنى لأهل الوطن الفرصة الجميلة للقيام بالحكومة المستقلة المنجية من جبروت الإنجليز وقهره وطغيانه وعنفه".

وتمتاز لغة العلامة بكونها واسعة الدائرة مطابقة لمقتضى الحال والثقافة الراهنة في تلك العصور، إذ هو يراعي فيها سياق الكلام وقواعد اللغة النحوية بكل دقة وتعمق باتخاذ التعبيرات جميلة المعنى والمفهوم، كأنه يركب الألفاظ الملائمة بعضها ببعض تركيب الفص بالخاتم، عن طريق استخدام الألفاظ الإنجليزية إزاء كتابة المقالات في شتى

الموضوعات أمثال ريمارك (ملاحظة)، آيديل (مثالي)، لكچر (محاضرة)، پوزيشن (وضع)، ديسكوريز (اكتشافات)، پوليٹيكل (سياسية)، اسسپيشلسٹ (اختصاصي)، رپورٹ (تقرير)، پوليٹكس (سياسة)، ليٹريچر، (أدب) وغيرها من الألفاظ الملموسة التي كان يستخدمها الناس عادة خلال المحادثة والتكلم والحوار في ذلك الحين، متأثرين بالثقافة الإنجليزية، فيهدف العلامة باستخدام الألفاظ الإنجليزية إلى تطوير اللغة الأردية وتوسيع إطارها، مثلما اتسعت دائرتها باللغات الفارسية والعربية والبرتغالية والسنسكريتية.

وينبغي لنا الآن أن نتحدث عن المقالات المدونة في المجلد الأول الذي يحتوي على المقالات الدينية، فمنها ما يتركز على الإجابات على الاعتراضات أمثال "ادعاء أهل أوروبا عن عدم صحة القرآن" ويقولون "لماذا قسم الله سبحانه وتعالى في القرآن"، ومنها ما يتركز على ما يخاطب الأمة الإسلامية، ويدعوها إلى إصلاح نفسها وتزكيتها من جميع الأدران والمعاصي والآثام.

وفي الخامس والعشرين من شهر أبريل عام 1914م نشرت صحيفة "لندن تائمز" خبرًا عن الادعاء "بأن بعض نسخ القرآن الكريم القديمة انكشفت والتي هي مختلفة عن نسخة القرآن الكريم السائدة، ويمكن أن تكون صحتها أكثر اعتبارًا من نسخة القرآن السائدة" فأجاب العلامة عن هذا الادعاء بكتابة مقالة، ما يزيل جميع الشكوك والشبهات الطارئة على أذهان الناس بدلًا من اتخاذ القرار عن منع إصدار الصحيفة كالعالم العام فحسب، بل إنما أثبت صحة القرآن قائلًا: إن نسخة القرآن الموجودة هي نسخة أصيلة وصحيحة بأسباب مختلفة، حيث أن العرب كانوا ذوي الأذهان القوية، وكان هناك آلاف من الحفاظ الثقاة من الصحابة رضي الله عنهم، الذين كانوا يحفظون القرآن اتباعًا لسنة الرسول صلّى الله عليه وسلّم التي تحرضهم على فضيلة حفظ القرآن الكريم، وترغبهم في تعلّمه وتعليمه، وتؤكد على فهم آيات القرآن والاستدلال بها واستنباط المسائل عنها من ناحية، ومن ناحية أخرى أن القرآن الكريم معجزة كبرى والذي لا يزال يبقى على أصالته إلى يوم القيامة، لعله هذا هو السبب وراء توافق الآلاف من الحفاظ على نفس نسخة القرآن التي كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يملي منها الصحابة رضي الله عنهم أمثال زيد بن ثابت وغيره رضي الله عنهم، وكانوا يحفظونه منها بكل دقة وإتقان، فحصص الحق لنا، ولا حاجة إلى الانصراف من نسخة القرآن إلى النسخة الموضوعة المكتشفة.

كما أجاب العلامة على اعتراض المخالفين بأن الله قسم في القرآن ومنع الناس عنه، فيقدم الدلائل والبراهين المصرحة عن هذا الشأن، ويثبت أن الألفاظ الواردة في القرآن الكريم للقسم لله سبحانه وتعالى بالشمس والقمر والكواكب وغيرها من الخلائق، هي آية من آيات الله سبحانه، التي يجعلها الله شهادة على خلقها فهي تشهد بأن الله خالقها.

فكتب مقالة بعنوان "علوم القرآن" يتناول فيها الدلائل القاطعة المفعمة بإعجاز القرآن ورموز آياته الكريمة ومعجزاتها البارزة، إذ هو اتجاه نادر وأنيق للعلامة يعود إلى رغبته الشديدة في تدبر القرآن والتفكر عن آياته ورموزه، أمثال العلماء الآخرين كالجاحظ، ومحمد بن فريد الواسطي، وعبد القاهر الجرجاني، والرماني، والخطابي، وابن سراقة، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وغيرهم ممن ألّف على هذا الموضوع كتبًا عديدة وضخمة، ترشد القارئ إلى تدبر القرآن والتفكر عن آياته ورموزه، لكننا أصبحنا غافلين عن تعلم القرآن وتعليمه، وتركنا تلاوته وحفظه للحصول على البركة، فضلًا عن اتباع الإرشادات القرآنية واستنباط المسائل من آياته الكريمة.

من الملفت إلى أن العلامة كتب مقالة بعنوان "قضية تعدد الزواج" وهي قضية مهمة كثيرة المناقشة بين الناس من ذوي الشهوات النسائية، الذين يتزوجون أكثر من امرأة، مستدلين بآية تعدد الزواج، وينسون الآية الأخرى التي تثيرهم على الاهتمام بالعدل عند التزوج بامرأة ثانية، والتي تغلق الباب لجماعة تعمل لتحرير المرأة التي تسعى دائمًا في منع تعدد الزواج قانونًا عداوة وبغضًا للشريعة الإسلامية، فعالجها العلامة بكل صراحة مع السعي التام في إبراز مفهوم القرآن ومعناه، مع التركيز الخاص على إثبات العدل عند التزوج بامرأة ثانية، ويقدّم لنا المثال الأصلح والأجدر عن الخليفة العباسي المنصور الذي أراد أن يتزوج امرأة ثانية، فتألمت زوجته بإرادته، وقالت له "التزوج بامرأة ثانية حرامٌ في الإسلام"، فاستفتى الخليفة الإمام أبا حنيفة عن هذه القضية، قائلًا: "بكم امرأة يجوز لمسلم أن يتزوج؟"، فقال الإمام بأربع، فنظر الخليفة نظرة السخط إلى زوجته المستورة وراء الحجاب، وقال لها بسخرية هل سمعت قول الإمام؟ فقال الإمام: لا يجوز للخليفة أن يتزوج بأكثر من امرأة واحدة، فاستفسره الخليفة عن السبب، فقال الإمام بصراحة: لأن كلامك القاسي ونظرتك الغاضبة والساخطة إلى زوجتك الكريمة مما يدل دلالة واضحة على أنك لا تعدل معها، ولك الخير في الاقتناع بها، فهذا المثال قدّمه

العلامة شبلي كنموذج أحسن وأصلح لكل من يريد أن يتزوج بامرأة ثانية، فهو غير مسموح بناء على عدم الإيفاء بالشروط المذكورة في القرآن.

وكتب العلامة مقالة مرموقة بعنوان "حقوق الذميين"، ورد فيها ردًا عنيفًا على اعتراض أعداء الإسلام بأن الإسلام يخالف الديموقراطية، وأن نظام الإسلام المنحصر على جعل غير المسلمين الذميين، فهو نظام غير قابل للبقاء وجدير بالسخرية اللاذعة، فأجاب العلامة عن هذا الاعتراض بكل صراحة في مقالته، بتقديم صورة الحكومات الديموقراطية السائدة في البلدان المختلفة التي يتناول دستورها المساواة والحقوق والمباديء الأساسية، فتسوء فيها أوضاع الناس، وتنتشر فيها البطالة والإفلاس والأمية، ويوجد فيها حرمان من التعليم الأساسي، وقلة التسهيلات الطبية، ويسود فيها عدم توافر الفرص والحوائج الأساسية سواء بسواء، ثم يقع فيها التمييز والتفريق بين الفرق والأقليات في جميع التسهيلات والفرص، ويسوء السلوك معها، فهي صفات الديموقراطية المتواجدة في جميع الحكومات الديموقراطية، فلا تتنزه بلادنا الديموقراطية منها، فهي تمثل وجهها المتلوث بالتمييز والتفريق بين الهندوس والمسلمين في جميع المجالات، إذ تسوء فيها أوضاع المسلمين يومًا بعد يوم، وتحدث أحداث طائفية في كل مكان، وتضيق حياتهم، وتنتهك أعراضهم، وتنتهب أموالهم، فسوف تكاد ترتعد يدُ كلّ مؤرخ في المستقبل ندامة وخجلًا على كتابة الأوضاع السيئة للمسلين في أوراق التاريخ، بينما يعطي نظام الإسلام الذميين حقوقهم كلها، ويحافظ على مالهم وعرضهم وجسدهم، فهم يتمتعون بجميع التسهيلات والمساعدات في جميع المجالات، من التعليم والتدريس والصحة والسياسة وكسب المعاش وغير ذلك، فيقدّم لنا العلامة الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه كنموذج أحسن في حسن المعاملة مع الذميين، مع أنه استشهد بيد ذمي، ولكنه أوفى بالعهود معهم، وأوصى للإيفاء بالعهود معهم بثلاث وصايا وهي: يجب على أن يوفى بالعهود مع الذميين، ولا يضطروا إلى العمل ما فوق قواتهم، وان ينصروا عند المقاومة ضد العدو".

وتوجد نماذج عديدة للعدل والمساواة في النظام الإسلامي الذي لا يفرّق بين الفرق والديانة كالحكومة الديموقراطية التي تفرق بين الأديان والمذاهب والفرق في تعيين الأفراد في مختلف المناصب والحقول، ويمكن أن نرى مثالًا أوضح في عهد الخليفة الأموي الأمير معاوية رضي الله عنه الذي عيّن ابن آثال النصراني حاكمًا وناظرًا للمال،

ونرى في حياة عبد الملك بن مروان نموذجًا أحسن إذ أنه جعل ابن سرجون النصراني الأمين العام له، كما يمثّل التاريخ الهندي نماذج عديدة للعدل من قبل الملوك والسلاطين المسلمين أمثال أكبر وجهانغير وشاه جهان وعالمغير الذين جعلوا قلوبهم رحبة خالية من التعصب والبغض والعداوة الدينية والطائفية، واهتموا بالعدل بتعيين غير المسلمين في المناصب العليا، وأشاعوا إرشادات الإسلام الصادقة المفعمة بالأمن والسلام وسعة النظر وحفاوة القلوب وطلاقة الوجه، فهي ملامح بارزة وقيم واضحة في نظام الإسلام حاول العلامة ذكرها في مقالاته المرموقة النافعة للجيل القادم.

أما المجلد الثاني، فهو يتناول المقالات الأدبية، فيعالج العلامة فيها الموضوعات الأدبية مع طرح النقاط الصحيحة حول الأدب بعيدًا عن جميع الاختلافات السائدة في المجتمع لقلة المعلومات لدى الناس وتعصبهم التعمدي.

وكتب مقالة بعنوان "اللغة العربية" لإنهاء الخلافات الطارئة في اللغات السامية التي أصبحت محلًا للمناقشة والدراسة لدى الناس، فيقول البعض إن اللغة السريانية والعبرانية لغة أصيلة بينما يقول البعض الآخر إن اللغة العربية لغة أصيلة إذ أثبت العلامة بأسلوب منطقي أن اللغة العربية لغة أصيلة بكونها أقدم لغة وأشملها للمواد والألفاظ من اللغات السريانية والعبرانية، وبكونها لغة خالصة وحية بعد مضي القرون العديدة، بينما اللغات السريانية والعبرانية لغتان ميتتان إلا اللغة العبرانية التي تنمو وتتطور على المستوى الأضيق بفضل الحركة الإسرائيلية التي تحاول إحيائها بعد موتها.

وكان للعلامة شغف كثير ورغبة شديدة في فهم اللغة وفن البلاغة مما أدّاه إلى فهم الشعر وعناصره، إذ هو يؤكد على أن النغمة هي عنصر من العناصر اللازمة للشعر العربي، فيقول: من المستحيل أن يخلو الشعر العربي من النغمة كوزن الشعر الذي هو جزء لا يتجزأ للشعر، وقسم من أقسام النغمة المتواجدة في الشعر، وغالبًا ما كان العرب يحبون أن يقرضوا الشعر بنغمة جميلة، فيقال لها الأنشاد عندهم".

وكذلك يلغي العلامة رأي "حلقة أرباب الذوق" الذين يقولون بأنه يجب أن يقرض كل بيت من أبيات الشعر العربي مراعة لصياغة الألفاظ بدون النغمة، فهذه هي طريقة موضوعة من قبلهم، فأحسن طريقة لقرض الشعر هي أن ينشد بالنغمة الجميلة.

كما أنه كتب مقالة بعنوان "شعر العرب"، فعبر فيها عن تأسفه وشكواه، مركزًا على رأيه، بأن شعر العجم يجب أن يوضع على المرتبة الدنيا من الشعر العربي بعد مئة ألف درجة للمبررات العديدة، فيقول: "لو أكتب شعر العرب فمن يقرأه؟ فلا يوجد الذوق السليم لدى أهل المدارس وطلابهم من ناحية، ومن ناحية أخرى ساءت أوضاع الطلاب الدارسين في الكليات والجامعات الرسمية، إذ أنهم يضطرون إلى دراسة اللغة العربية للحصول على التسهيلات المتوفرة لهم إلى الميعاد، ثم ينسونها كل النسيان بعد الامتحان، كلقمة طعام تقاء بعد أكلها". فهذا الرأي للعلامة ينطبق أحسن تطبيق على مجرى حياة العلماء الخريجين من المدارس الإسلامية، الذين يبذلون قصارى جهودهم في قراءة الكتب المحددة في المقررات الدراسية، ولا يلتفتون إلى قراءة الكتب المشتملة على الموضوعات الحديثة المكتوبة من قبل المؤرخين الإسلاميين، فعدم معرفة الطلاب عن المعارف والعلوم المتواجدة في التاريخ الإسلامي، سيؤديهم إلى نسيان وجودهم وتجاهلهم عن خدمات السلف وإسهاماتهم في الجغرافيا والهندسة والطب والعلوم الاجتماعية، كما أصبحت أوضاع طلاب الكليات الرسمية أسوأ من أوضاع طلاب المدارس، بكونهم جاهلين عن القواعد اللغوية العامة فضلًا عن عدم مؤهلاتهم في التكلم باللغة العربية الفصحى وكتابة المقالة والتأليف والتصنيف، فسعى العلامة شبلي للاهتمام بالتوافق والتناسق الجميل العلمي بين هاتين الفئتين من المتعلمين والمثقفين، بإنشاء "ندوة العلماء"، وكرّس حياته كلها في تنمية مستوى "الندوة " وتطورها، لكي تنجب إنسانًا كاملًا يتحلى بجميع الأوصاف الجميلة ظاهرًا وباطنًا.

ويمتاز "شعر العجم" للعلامة بنواحٍ عديدة في المجتمع عامة، وعند المستشرقين الكبار خاصة، إذ أنه يختار مسلك التواضع وعدم الافتخار، فيعتبر خدمته في كتابة "شعر العجم" خدمة قليلة الأهمية فلا جدوى للافتخار بشعر العجم، غير أن شعر العرب أجدر بأن يفتخر به أشد الافتخار، فيصرح عن الفرق البيّن بين الشعر الفارسي والشعر العربي، فالأول شعر مصنوع، والآخر شعر أصيل كالفرق بين المعلم والتلميذ، ومن أوضح مثال للشعر الفارسي، مما طرئ عليه من التصنع والخشونة والتكلف لفظًا ومعنًى هو مجموعة الشعر في" شاهنامه" للفردوسي، الذي يقرض شعره كأنه يسمر الحكايات عن المعارك العديدة المستمدة من الحكايات الأخرى القديمة، ولا يوجد أي أثر بالغ فيها، بينما يقرض الشاعر العربي الشعر من نفسه ومشاعره العميقة، وبكونه شاعرًا عربيًا

يكون جنديًا كبيرًا في المعركة الجياشة، كأنه يقرض الشعر هدفًا إلى إثارة قلبه وقلوب زملائه وأصحابه الغزاة على المجابهة والمقاتلة في المعركة الطائشة، فالشاعر العربي يعمل بما يكتب ويصيغه في قالب الشعر بينما الشاعر العجمي يقرض الشعر بلسانه المتفوه كأنه رجل ثرثار وليس بمن فُطِرَ على المواجهة والمقاتلة في المعركة، كما يدلّ على ذلك الفكاهة المنقولة من العلامة شبلي رحمه الله، فيقول:

"ذات مرة لقي أنوري وحاكم وخياط معًا بجماعة قطاع الطريق، ففرّ الحاكم والخياط إلى النجاة، فوقف أنوري، وبدأ يقول لهم متواضعًا ومعبرًا عن مؤهلاته الشاملة للعلوم والمعارف: حكيم وشاعر ودرزي چگونه جنگ كنند" (أي كيف يمكن للشاعر والحكيم والخياط أن يجابهوا معكم). وفي ذلك الحين لو كان هناك شاعر عربي لجابههم مجابهة شديدة، حتى أن يقتلهم أو يقتل، فيفضل العلامة الشعر العربي على الشعر الفارسي إذ أن الشعراء العرب يقرضون الشعر عن عواطفهم الملتهبة من لوعة الحب والغرام مع عشيقاتهم وذكرياتهم الحلوة في الأمكنة المعروفة والأراضي الخضراء والجبال والهطل والتلال والغابات التي هي مفقودة في الشعر الفارسي.

وكتب العلامة أيضًا حول تعلم اللغة السنسكريتية والهندية في المجتمع المسلم فيحاول إزالة الشكوى الناشئة في أذهان الهندوس فيما يتعلق بعدم رغبة المسلمين في تعلم اللغتين، ويقدّم المثال الأحسن للملك الأصولي المتعصب بالدين عالمغير الذي كان يثير المسلمين في عهده على دراسة لغة "بهاشا" وتعلمها حق التعليم، فانتهى المجلد الثاني بذكر بعض المقالات الأدبية للعلامة وبقيت تفاصيل بعضها.

وأما المجلد الثالث فهو يحتوي على المقالات التعليمية التي حاول فيها العلامة تقديم خدمات المسلمين الواسعة والرائعة في مجال العلوم والفنون التي أوصلتهم إلى المنازل العليا في القرون الماضية، وبكونه مصلحًا اجتماعيًا يقول مخاطبًا للأمة الإسلامية ومؤكدًا على "أن الاختراعات التي ترونها أشياء جديدة هي خدمات رائعة اهتم بها أجدادكم وآباؤكم منذ قرون غابرة، فهذا هو تكاسل جيلكم الجديد الذي يرفض هذه الخدمات الجليلة نائمًا في سبات عميق".

كما يناقش عن الصعوبات والمشاكل في مجال التعليم في العصر الراهن، إذ يواجه الطلاب التحديات الكبيرة في الحصول على التعليم، ويتعرض معظم الناس من الطبقة السفلى والطبقة المتوسطة للمشاكل العديدة في المجتمع في توفير التعليم الأعلى لأبنائهم وبناتهم في المدارس والكليات والجامعات إذ أن معظم نظام التعليم المعاصر يشتمل على نظام الرأسمالية الذي ينفذ بعض الرسومات الكبيرة ويفرض الضرائب الهائلة على المتعلمين حتى يحرم عدد كبير من الطلاب من التعاليم الأساسية ويقضون حياتهم خائبين وبعيدين عن منهل من مناهل التعليم ومصدر من مصادره إلى منتهى الحياة، بينما كان معظم نظام التعليم في القرون الماضية شاملًا لجميع التسهيلات، فكانت تقسم الهدايا والتحائف بين الطلاب تشجيعًا على محاولتهم وجهودهم المكثفة، وتقسم الحلويات والثمرات بينهم لإنعاشهم ذهنيًا، وتمنح لهم النقود شهريًا كتعاون مالي.

وأما المجلد الرابع فيحتوي على المقالات النقدية التي تلمع منها سليقة العلامة وأسلوبه الأنيق في مجال النقد، فهو يجتنب الإفراط والتفريط خلال النقد مثل النقاد الهنود في اللغة الأردية، كعبد الرحمان البيجنوري وحكيم أحمد، فيحاول العلامة أن يسير مسير التوازن والعدل في نقده، ويسلك على نهج الكاتب البارز والناقد العظيم طه حسين الذي يفرق بين الصحيح والباطل كالتفريق بين المعلم والتلميذ، ويكتشف الأخطاء أمام الناس بدون المراعاة عن العلاقة والصداقة والقرابة عنهم، فيبرز العلامة أعمال الإنسان المنقود مع التحسين والتشجيع على أعماله الجميلة، ومع النقد اللاذع على أعماله الرديئة، فيقول عن عمر الخيام ناقدًا على شخصيته البارزة: أنه كان بارعًا في فن الرياضية، مع كونه شاعرًا بارزًا وموجدًا كبيرًا، فهذه الصفات البارزة للخيام موجودة في كتاب طبع في باريس، واستفاد منه العلامة شبلي.

ومن الملاحظ أن العلامة يحترم كل ذي علم حق الاحترام بغض النظر عن دينه ومسلكه، كما فعل خلال نقد كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" لجرجي زيدان، فيمدحه على خدماته الجليلة، ويعترف بها كل الاعتراف من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه ينتقد نقدًا لاذعًا التحريفات والأكاذيب والروايات الموضوعة الورادة في التاريخ الإسلامي، والتي تشوه صورة الإسلام وتجرح قلوب المسلم وعواطفه إلى حد بعيد.

أما المجلد الخامس والسادس فهما يتناولان المقالات التاريخية التي برع فيها العلامة شبلي كمعاصره الشيخ شرر، إذ نزه المؤرخان الفاضلان أنفسهما عن التعصب في ذكر الوقائع

والأحداث التاريخية في مقالاتهما، وبكونهما كاتبين نابغتين يركزان عنايتهما على الكتابة والإبداع الأدبي، بينما يهتم العلامة شبلي خلال كتابة المقالات التاريخية اهتمامًا بالغًا بالإبداع الأدبي الذي لا يلغي الأهداف التارخية وحقائقها، وذكر في مقالاته من خدمات العرب الرائعة من الرجال والنساء عامة، ومن هذه الخدمات الملموسة هي خدمات الرجلين البارزين والنابغتين العظيمين اللذين هما معروفان بإسهاماتهما القيمة التي يشجع عليها الشاعر العربي فيقول:

فلســنا علــى الأعقــاب تــدمى كلومنــا ولكــن علــى أقــدامنا تقطــر الــدما

ومن الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي، التي تكلم عنها العلامة شبلي رحمه الله شخصية ابن الرشد الذي كرس حياته كلها على كتابة الموضوعات الممزوجة بالتعليمات والفلسفة الإسلامية، التي يدرسها أهل أوربا شغفًا، ويعتبرونها فلسفة حية مثمرة. ومنها شخصية العلامة ابن تيمية رحمه الله الذي يتحدث العلامة عنه بأنه نابغة من نوابغ الأمة وعالم وفاضل وبارع من مهرة الأمة وصفوتها وفضلائها ومصلح إسلامي ومجدد ديني، قلما يظهر في أديم السماء مثله، كأنه مجدد ألف الثانية الذي رفع شأن الدين الإسلامي، وكرس حياته كلها على إصلاح الدين الإسلامي، وقام بالخدمات الواسعة بالكتابة والخطابة، ولم يخف من لومة اللائمين، إذ أنه تمسك بالصدق والأمانة في حياته في السجن، فيقول الشاعر الهندي إقبال رحمه الله، مشيرًا إلى خدمات ابن تيمية الرائعة التي انقطع فضلها بعد انتقاله إلى رحمة الله:

تین سو سال سے ہیں ہند کے میخانے بند اب مناسب ہے ترا اذن عام اے ساقی

ترجمة:الحانات مغلقة في الهند منذ ثلاثمائة سنة، وينبغي الآن إذنك العام، يا أيها الساقي!

وفي هذا القرن يظهر إمام الهند مولانا أبو الكلام آزاد كشخصية بارزة قوية الإرادة متحلية بالصدق والأمانة، بعيدة عن الشعور بالخوف من مصائب الدهر وسلطات الحكومة، كأنه تلميذ من تلامذة ابن تيمية حيث إنه يرفع شعار الإسلام، ويثبت حقائقه أمام القاضي في محكمة كولكاتا بدون الشعور بالخوف والخطر، ويكأنه أسد يرفع زئيره

هدفًا إلى الدفاع عن الإسلام، ولو اجتمع الناس ضده من الشرق والغرب، فلا ينصرف عن الحق والصراط المستقيم.

ومن السعي المكثف للعلامة شبلي هو القيام بالرد على الاعتراض "أن المسلمين أعداء العلم" إذ أنهم أحرقوا الكتب الموجودة في مكتبة الإسكندرية، فقال بكل صراحة أن التهم الملقاة على المسملين حول العلم غير مبنية على الدلائل الثابة فإن المسلمين يحبون العلم أكثر حبًا، وقاموا بخطوات عديدة لإشاعة التعليم في المجتمع، بغض النظر عن الفرقة والدين، فأوضح دليل لنشر التعليم بين الناس هو غزوة بدر التي صدر الأمر فيها عن أسارى البدر ممن لم يستطع منهم تقديم الفدية لسراحهم من الحياة المعتقلة، فلهم أن يعلّم كل منهم عشرة أطفال.

وأما المجلد السابع فهو ينحصر على مجموعة المقالات الفلسفية للعلامة، وكان بارعًا في فن الفلسفة، فعالج في مقالاته كل قضية من القضايا المتعلقة بالفلسفة، وناقش أيضًا الأخطاءَ الواردة في فلسفة الفلاسفة الآخرين. كما عالج العلامة نظرية داروين عن تخليق الإنسان وتنميته، عن طريق تقديم النظريات المنقولة من الحكماء والفلاسفة للإسلام الذين أثبتوا حق الإثبات نظرية تخليق الإنسان قبل عصور طويلة من اكتشاف نظرية داروين، حيث أن الإنسان مرّ بمراحل مختلفة إلى أن يصل إلى تنميته بصورة تدريجية، وله العلاقة الشديدة مع الجمادات والنباتات.

وأما المجلد الثامن فهو يشمل مجموعة مقالات العلامة السياسية والاجتماعية والإصلاحية، فعبّر العلامة فيها عن نظرياته الإسلامية المتعلقة بسياسة الهند قبل الاستقلال، ويسير على نهج العلماء المفكرين الثوار مثل الشيخ رشيد أحمد الغنغوهي، وشيخ الهند الشيخ محمود الحسن وغيرهما ممن سعى سعيًا حثيثًا في القيام بالحكومة المستقلة الحرة من احتلال الإنجليز، وساعد في ذلك حزب المؤتمر الوطني الذي لم يبدِ الرغبة التامة في استقلال الهند، إذ كان العلامة يثير حزب المؤتمر الوطني على الاستقلال، ويشجعه على حركاته البطيئة، كما أنه كان يحاول حشد جميع الفرق السائدة في البلاد على موقف، بما يمكن الحصول على الاستقلال بعد المجابهة الشديدة ضد الإنجليز معًا، مع الرغم من ذلك لم يكن العلامة متفقًا مائة بالمائة مع استراتيجية حزب المؤتر الوطني حول السياسة الهندية، ولا مع فلسفة غاندي اللاعنفية، بينما الشيخ حسرت الموهاني الذي أيّد بهما. بينما سار العلامة مسير الإسلام، وتمسك

بالنظريات الإسلامية، وبصفته مفكرًا إسلاميًا كان يعالج كل قضية سياسية حسب الإسلام، لكي لا تكون الأمة الإسلامية عرضة للخطر والخسارة الفادحة في مجال السياسة في المستقبل.

ومجمل القول أن مقالات العلامة شبلي المشتملة على ثمانية أجزاء تمتاز بصفات عديدة، فينبغي للمختصين بالتعليم أن يلحقوها بالمقررات الدراسية الثانوية، كما ينبغي لكل ذي علم أن يطبعها بإذن دار المصنفين ويبيعها بثمن رخيص حتى يمكن لكل راغب متوسط المستوى ماليًا، أن يشتريها، ويستفيد من مناهل العلم والمعرفة المملوئة بالأفكار الإسلامية النيرة.

سوانح مولانا روم، دراسة تحليلية

- الشيخ كليم صفات الإصلاحي

تلخيص من الأصل الأردوي: محسن عتيق خان

عندما توجه العلامة شبلي النعماني إلى الكتابة، اختار في أول الأمر التاريخ الإسلامي، أكبر خزينة الحقائق والمعارف في الدنيا، فأنتج أعمالًا قيمة في مجال السيرة مثل "الفاروق"، و"المأمون"، و"سيرة النعمان"، ثم التفت إلى علم الكلام وأخرج كتبًا هامة مثل "علم الكلام"، و "الكلام"، و"الغزالي"[1]. و سيرة المولانا جلال الدين الرومي المسماة بـ"سوانح مولانا روم" حلقة من هذه السلسلة الكلامية الذهبية[2].

في فبراير عام 1901 شد العلامة شبلي الرحال إلى إمارة حيدرآباد الهندية ونزل عند عزيز مرزا، وزير الأمور الداخلية بالإمارة، وفي اليوم التالي التقى مع السيد علي البلغرامي في بيته. بمناسبة قدومه الميمون، عقدت حفلة خطاب في مارس تحت رئاسة وزير الإمارة فألقى العلامة شبلي خطبة بليغة حول علم الكلام، و بعد ذلك عرض عليه رئيس الوزراء النواب مدار المهام بهادر منصبًا وطلب منه الإقامة المستقلة في الإمارة. كان السيد علي البلغرامي قد أسّس دائرة لتوفير العلوم والفنون عن طريق التأليف باللغة الأردية في عام 1894م، فقام بتعيين العلامة شبلي مديرًا لهذه الدائرة في عام 1901م، فتحوّل العلامة شبلي من التاريخ إلى علم الكلام، و أعدّ خططًا لعدة مؤلفات في أربعة أجزاء كما يلي:

1- نشأة علم الكلام وتطوره عبر القرون

2- مدى نجاح علم الكلام في إثبات العقائد وإبطال الفلسفة

---

[1] سوانح مولانا روم (مقدّمة)

[2] مجلة "الندوة"، عدد نوفمبر 1906م، ص25.

3- سير أعلام علم الكلام

4- علم الكلام الحديث[1]

سيرة مولانا جلال الدين الرومي المعنونة بـ"سوانح مولانا روم" حلقة من الجزء الثالث المذكور أعلاه، فقد كان أمين الدائرة قد أعلن في تصدير كتاب "علم الكلام" بأن "الكلام" حلقة تاسعة من السلسلة الكلامية، وكتاب "موازنه أنيس ودبير" سيكون حلقة عاشرة، وكتاب "سوانح مولانا روم" سيكون الحلقة الحادية عشرة، ولكن انقلب ترتيب نشر الكتب، فظهرت سيرة مولانا روم قبل "موازنه أنيس ودبير" إلى حيز الوجود[2]. وقبل أن نستعرض في هذا المقال كتاب "سوانح مولانا روم"، لا بد من أن نلقي ضوء على وجهة العلامة شبلي في علم الكلام.

وجهة نظر العلامة شبلي في علم الكلام: عند العلامة شبلي، يتكون الإسلام من ثلاثة أشياء؛ وهي المعتقدات، والعبادات، والأخلاق[3]. كان الصحابة –رضي الله عنهم- قد بدأوا يفكرون في العقيدة الإسلامية ولكنهم لم يقرروا العقل ميزانًا للصحة، وكان إيمانهم بالكتاب والسنة يكفيهم إذا لم يفهموا شيئًا ما، ولكن عندما اتسع نطاق الإسلام ودخل فيه أمم أخرى بما فيها الإيرانية والقبطية واليونانية، و نقلت الفلسفات والعلوم والفنون الفارسية واليونانية إلى العربية في العهد العباسي، تأثرت بها المعتقدات الإسلامية، ونشأت الفرق والمذاهب المختلفة بسبب حرية النقاش وبدأت تهجم المسلمين هجومًا فكريًا وعقليًا فوقع المسلمون الذين كانوا ضعفاء في العقيدة في حبالهم. اختار العلماء المسلمون الفلسفة نفسها لرد الفلسفة على سبيل العلاج بالمثل وفيما بعد سمّيت هذه المجهودات التي أوجدها العلماء لرد الفتنة بعلم الكلام.

---

[1] حياة شبلي، ص 57-64.

[2] نفس المصدر

[3] الكلام (مقدّمة)

في العهد العباسي، كانت الفلسفة على أوجها، ولكن عندما ارتقى المستوى الفكري والعقلي للإنسان، وحلت العلوم التجريبية محل الفلسفة القياسية والظنية، حدث تغير ملحوظ في الاعتراضات و أجوبتها، فلم تعد الاعتراضات تنحصر في العقيدة فقط، بل تجاوزت إلى التاريخ والثقافة والمدنية، وأصبح النظام الديني بأكمله عرضة للخطر، ووجدت حاجة ماسة إلى علم الكلام الحديث، فشعر بتلك الحاجة العلامة شبلي وقام بترتيب علم الكلام الحديث على طراز علم الكلام الفكري ليواجه التحديات الحديثة[1].

وقد شعر العلماء في البلدان الإسلامية الأخرى أيضًا بالحاجة إلى علم الكلام الحديث، و أنتجوا فيه كتبًا قيمة، وعندما اعتنى العلامة شبلي بهذا الفن كان بين يديه إنتاجات العلماء المتقدمين في هذا الموضوع، وكذلك مساعي السيد أحمد مؤسس جامعة علي كره الإسلامية في الهند، ولكن الطريق الذي اختاره السيد أحمد لتوضيح العقائد الإسلامية لم يكن يليق بالاتباع، فقد كان يؤدي إلى تشويه العقائد الإسلامية لأن السيد أحمد سعى في تطبيق العقائد والأخلاق الإسلامية بأصول الفطرة، وركز على أن تتضامن العقائد والتعاليم الإسلامية مع العلوم والفنون الحديثة، وفي حال الخلاف بينهما أنكر صداقة العقائد والتعاليم الإسلامية[2].

فطريقة السيد أحمد لم تكن تليق بأن يتبعها العلامة شبلي، فتفرغ لدراسة تأليفات أجلة علماء علم الكلام بمن فيهم العلماء المتقدمون والمتأخرون، وجاء بترتيب علم الكلام الحديث على أساس علم الكلام العقلي القديم وأنتج أعمالًا مهمة في هذا المجال، ويوضح آفتاب عالم الصديقي نظرية العلامة في علم الكلام فيقول "الدلائل التي اختارها العلامة شبلي لإثبات عقائد وقضايا علم الكلام تختلف عن دلائل المتكلمين الآخرين الذين كانوا يختارون طريقة استدلات تكون أكثر تعقيد وأكثر مشكلة، ولكن هذه الطريقة لم تعجب العلامة شبلي.[3]" وقد

---

[1] مجلة "البصير" (عدد ممتاز عن العلامة شبلي النعماني)، ص 25

[2] المصدر نفسه، 26

[3] المصدر نفسه، ص 27-28.

ركز العلامة شبلي على الأمور التالية التي تلقي الضوء على نظريته في علم الكلام كما يقول بنفسه "يجب أن يكون ذكر الدلائل والبراهين في صورة ساذجة تسرع إلى الفهم، وتؤثر في القلب. الطريقة القديمة تستخدم المقدمات والمصطلحات المعقدة والأخيلة الرقيقة، وقد ترعب المعارض بهذه الطريقة، ولكنه لا يدخل في قلبه اليقين والوجدان[1].

وقد عرّف العلامة شبلي بعلم الكلام بأنه توضيح العقائد الإسلامية وبيان الحقائق والمعارف في صورة تتطرق إلى القلب وترسخ فيها وقد أدّى مولانا الرومي هذا الواجب في أسلوب لا مثيل له[2]. وبنظريته هذه في علم الكلام، إنه وضع مولانا الرومي في قائمة المتكلمين، وباستعراض مثنويه إنه عرضه أمام العالم بصفة متكلم.

الطبعات المختلفة لـ"سوانح مولانا روم": خلال إقامته لأربع سنوات في حيدآباد (فبراير 1901م حتى فبراير 1904م) غاص العلامة شبلي في محيط علم الكلام وقام بتأليف عدة كتب في هذا المجال، وهي "الغزالي" في سيرة الأمام الغزالي، وكتاب "علم الكلام"، وكتاب "الكلام"، وكتاب "سوانح مولانا روم" يأتي أخيرًا في هذه القائمة. إنه كتب مقدمة هذا الكتاب عام[3] 1904م وأرسله إلى المطبع ولكن لم يوفق له النشر في ذلك الحين، ونشر بعد عامين في سنة 1906م للمرة الأولى من مطبعة نامي بريس بكانفور[4]، فتلقى بقبول حسن في الأوساط العلمية، و يقول العلامة السيد سليمان الندوي عن إقبال الناس على هذا الكتاب "حصل لهذا الكتاب صدى بين الناس، فكنا نستلم عشرات من البريدات كل يوم تطلب هذا الكتاب، ونرسل نسخها إلى أنحاء البلاد.[5]" تواترت طبعاته بعد ذلك، فنشر من مطبع نول كشور بلاهور عام 1909م، ومن مطبع رنگين بدهلي عام 1344ھ

---

[1] علم الكلام (مقدّمة)، ص 6

[2] سوانح مولانا روم (مقدّمة)

[3] مكاتيب شبلي، 18/2، حيات شبلي، ص 377

[4] مجة "البصير"، ص 33

[5] حيات شبلي، ص 377

و1348هـ، ومن مطبع مجتبائي بدهلي عام 1922م، و1938م، وفي عام 1908م من مدينة أمرتسر، ومن مطبع هلالي بدهلي في عام 1922م، ومن مطبع مدينة بريس بجنور ومن مكتبة نذيرية بدهلي عام 1927م، وفي عام 1938م من دار المصنفين بأعظم كره، وفي عام 1971م من مجلس ترقي أدب بلاهور مع مقدمة السيد عابد علي[1].

عندما أعدّت دار المصنفين بأعظم كره خطة لنشر جميع إنتاجات العلامة شبلي بما فيها العربية والأردية، نشرت كتاب "سوانح مولانا روم" في طبعة خلابة مع المراجعة وثبت المراجع والمصادر، ثم صدرت له طبعتان أخريان في السنوات العشرة الأخيرة.

حاجة الكتاب والغرض منه: إنه كتب هذا الكتاب لتوضيح العناصر الخفية لعلم الكلام في مثنوي مولانا الرومي، فدرس العلامة أولًا سيرة مولانا روم، وتأريخ السلاطين الذين عاصروه، واستقصى مباحث مثنويه كله[2]، وكذلك درس كتبه الأخرى دراسة عميقة وعرض باقة أدهشت محبي مولانا الرومي.

قبل العلامة شبلي، كان العلماء يظنون أن مثنوي مولانا الرومي تحتوي على موضوعات الفقر والتصوف، وكانوا يعتبرونه أجود كتاب فيه، ولكن العلامة شبلي كان أول من غاص في محيط التصوف هذا، وأخرج منه لآلي علم الكلام، وأخرجه لأول مرة من حصار التصوف الضيق وعرضه أمام أصحاب اللغة الأردية كمتكلم[3]، وفي رأي العلامة شبلي، قد عبر مولانا الرومي عن حقائق الإسلام ومعارفه في صورة جميلة وإذا لم نضعه في مقدمة المتكلمين فقصرنا في حقه[4].

الاعتراضات على كتاب سوانح مولانا الروم: كما ذكرنا في بداية المقالة، هذا الكتاب من الإنجازات التي أحرزها العلامة شبلي خلال إقامته بحيدرآباد، ولذلك نجد فيه ما نجد في

---

[1] مجلة "فكرونظر" (عدد ممتاز عن العلامة شبلي النعماني)، ص 323-324

[2] مجلة "الندوة"، المجلد: 3، عدد نومبر 1906م، ص 26

[3] المصدر نفسه

[4] سوانح مولانا روم (مقدّمة)

أهالي حيدرآباد من الذوق الصوفي وقضايا وحدة الوجود كما يقول العلامة السيد سليمان الندوي "تجري قضايا التصوف ووحدة الوجود في عروق مواطني حيدرآباد مجرى الدم.[1]" وقد تكون هذه البيئة التي استمالت العلامة شبلي إلى هذا الموضوع.

غاص العلامة شبلي في محيط الطريقة والشريعة، مثنوي مولانا الرومي وأخرج منها اللآلي التي عرضها أمام العالم، فأشاد به العلماء الكبار، وعامة الناس وخاصتهم، ولكن هناك أشخاص انتقدوا هذا الكتاب، وهذا ليس بجديد، فلم يأمن الحكماء والفلاسفة الكبار من النقد. فيرى بعض النقاد أن كتاب "سوانح مولانا روم" من حيث كتاب السيرة أنقص كتاب للعلامة شبلي[2]، ولكن في الحقيقة ليس كذلك، كما ذكرنا أعلاه أنه كان من غرض هذا الكتاب، البحث عن العناصر المغمورة لعلم الكلام في مثنوي مولانا الرومي، وسيرته جاء ضمنًا، وفي عرض السيرة واجه العلامة المشاكل والعوائق، فكُتاب تراجم الأولياء يوردون دائمًا الموارد الخرافية والوقائع الخارقة للعادة، ويعتبرونها الإنجازات الحقيقية لهم، ولكنهم في الحقيقة يحرمون عامة الناس عن الاستفادة بخصائص الأولياء الحقيقية. والباحث الجاد لا يجد في هذه التراجم والتذاكر المواد التي يبني عليها صرحًا شامخًا للسيرة، فإذا عرض هذه القصص الخرافية تجرح الروح التقليدي والعملي وتصبح شخصيات الأولياء صنمًا للقصص الخرافية بدلًا من أن تكون مشعلًا للهداية، ويبدو أن هذه هي الأسباب التي أدّت العلامة شبلي إلى الاجتناب عن الخوض في تفاصيل سيرة مولانا الرومي، ولكن من الأسف الشديد احتياطه هذا اعتبر من نقص الكتاب. أورد العلامة شبلي نواحي حياة مولانا الرومي الأساسية المستندة من الولادة إلى الوفاة في خمس وأربعين صفحة من الكتاب، وهي تكفي لفهم حياته وتغني القاريء عن المزيد، ولكنه لم يقدم شخصية مولانا الرومي كشخصية من العالم الآخر مثلما قدّمه الآخرون، وقد أشار إلى ذلك الأستاذ حبيب الرحمن خان الشيرواني في الفقرة التالية

---

[1] حيات شبلي، ص 377.

[2] سر سيد احمد خان کے نامور رفقاء کی نثر کا فکری وفنی جائزہ، ص 168

فيقول "إذا قابلنا أحوال السيرة في هذا الكتاب بالمصادر الأصلية، وجدنا طبيعة المؤلف الصائبة تخرج الوقائع من تحت الاعتقادات المزيفة كما تخرج الأحجار الكريمة من تحت الأغلفة المتلونة. ندرك بعد قراءة هذه السيرة أن مولانا الرومي كان إنسانًا، وكان يسكن على أرض الإنسان، وكان رجلًا من رجال التاريخ وليس من رجال الخيال والقصص.[1]"

وفي السطور التالية نقوم بتحليل "سوانح مولانا روم" بقدر من التفصيل اعتمادًا على نسخته الجذابة التي نشرت من مطبعة نامي بريس بكانفور. وهذا الكتاب يأتي في جزئين، الجزء الأول الذي يتكون من خمس وأربعين صفحة يحتوي على سيرة مولانا الرومي، فنجد فيه الاسم واللقب، والولادة، والدراسة، وذهاب والد مولانا الرومي الشيخ بهاء الدين إلى مدينة بلخ، وسلاطين الروم، وورود في مدينة قونية، وولادة مولانا الرومي واستفادته من السيد برهان الدين، ولقاءه مع شمس تبريز وغيبوبته، وملازمة صلاح الدين زركوب، وحسام الدين الجلبي، وإصابته بالمرض، وأولاده، وسلسلته الباطنية، ومعاصريه، وأخلاقه وعاداته، ورياضته الشاقة، وزهده وقناعته، ومعاشه، واجتنابه عن مصابحة الأمراء، والوجد والاستغراق. وهكذا جاءت سيرة مولانا الرومي صافية وخالية من كل زائف، وعرضه العلامة شبلي في صورة يظهر أمام أعيننا التاريخ الواضح للقرن السابع للهجرة، ومن ميزات العلامة شبلي أنه يحيط بعصر الشخصية التي يكتب عنها.

يكتب العلامة شبلي عن مولانا الرومي فيقول "كان اسمه محمد، ولقبه جلال الدين، وعرف بمولانا الرومي. إنه نقل عن جواهر مضيئة أن نسبه ينتهي إلى سيدنا أبي بكر الصديق –رضي الله عنه-[2]، وكان قائد قواد الجيش من أقرب مريدي مولانا الرومي فكتب سيرته، وفي رواية كان جدّ مولانا الرومي الشيخ حسين البلخي صوفيًا كاملًا وكان الملك خورزم شاه قد زوجه بابنته، ومن بطنها كان والد مولانا الرومي[3]."

---

[1] مجلة "الندوة"، ص 27

[2] جواهر مضيئة، 2/123-124

[3] سوانح مولانا روم، ص 1

ولد مولانا الرومي في عام 604هـ بمدينة بلخ[1]، وبعد أن تلقى دروسه الابتدائية، ذهب به أبوه إلى السيد برهان الدين، فلازمه مولانا وتربى في حضنه، وتعلم عليه معظم العلوم والفنون، وعندما بلغ خمسًا وعشرين سنة من عمره شد الرحال إلى بلاد الشام، فنزل بمدينة حلب وسكن في داخلية المدرسة الحلاوية، واغترف منها ومن مناهل المدارس الأخرى هناك حتى حصلت له يد طولى في جميع العلوم الرائجة في ذلك الحين، فأصبح مرجعًا للخلائق يأتونه الناس إذا لم يستطع أحد عن حلّ قضية. ثم سافر إلى دمشق ومكث هناك سبع سنين ثم أضطر أن يرجع إلى وطنه إذ بلغه نعي أبيه، وهو كان في الأربعين من عمره[2]. لقي في طريقه إلى وطنه أستاذه الشيخ برهان الدين بمدينة "قونية"، فاختبر الأستاذ تلميذه وبعد أن وجده كاملًا في جميع العلوم المتداولة، هداه إلى حصول العرفان (العلم الباطني)، فاشتغل مولانا الرومي بالسلوك والتصوف لمدة تسع سنوات ودخل في حلقة مريديه[3].

لقاؤه مع شمس تبريز: عند العلامة شبلي لقاء مولانا الرومي بشمس تبريز من أهم حوادث حياته، فقد تغير عالمه بعد لقائه إذ بدأت المرحلة الثانية من حياته، وهي تنقله من المعرفة إلى العرفان، واختيار الحياة الصوفية. وقد سلط العلامة شبلي الضوء على لقاء مولانا الرومي بشمس تبريز وملازمته لمدة سنتين ثم غياب شمس تبريز أو قتله كما في بعض الروايات[4]، وحزن مولانا عليه. وإثر فراقه الشاق تحركت مشاعر مولانا الشعرية التي كانت مخفية حتى الآن فبدأ يقول الغزل والمثنوي[5].

---

[1] مجلة "البصير"، ص35.

[2] سوانح مولانا روم، ص 6-7

[3] المصدر نفسه، ص 8

[4] جواهر مضيئة، 124/2

[5] سوانح مولانا روم، ص 18

لقاؤه مع زركوب: بعد فراق شمس تبريز، خرج مولانا الرومي في يوم من الأيام من بيته، ومرّ بدكان صلاح الدين زركوب الذي كان من زملاء درسه ومن تلاميذ أبيه، فتأثر بصوت دق أوراق الفضة، وطرأ عليه حالٌ من الوجد. وعندما رأى ذلك زركوب، ضيّع أوراق الفضة، ووزع محتويات دكانه وصحب مولانا لمدة تسع سنوات ثم توفي في عام 662هـ.[1]

لقاؤه مع جلبي وكتابة المثنوي على طلبه: بعد وفاة زركوب، إنه اصطحب الشيخ حسام الدين جلبي الذي اقترح عليه كتابة المثنوي[2]. كان مولانا الومي يحترم جلبي احترامًا بالغًا حتى خيل إلى الناس أن جلبي مرشد لمولانا[3].

وفاته: في عام 672، نزلت بمدينة "قونية" زلزلة شديدة استمرت لأربعين يومًا[4]، وخلالها أصاب مولانا مرض شديد، فأقبل عليه أهالي قونية بمن فيهم الأمراء والمشايخ، والعلماء، ورجال من الأديان الأخرى كالنصارى واليهود باكين، وغمر الحزن الشديد المدينة كلها، ومحاولات الأطباء المهرة لم تتوج بالنجاح، فلفظ أنفاسه الأخيرة عند غروب الشمس، في يوم الأحد، 5/ جمادي الثاني، سنة 672هـ، وصلّى جنازته الشيخ صدر الدين حسبما أوصاه.[5]

أولاده: كان لمولانا ابنان؛ علاء الدين وسلطان محمد. كان سلطان محمد عالمًا جليلًا ولكن أخلف جلبي مقام أبيه، وعندما توفي جلبي جلس على مسند والده للتعليم والإرشاد.

رجال عاصروه: القرن السابع للهجرة قرن المحنة والفتن للمسلمين، فقد حوى السيل التتري العالم الإسلامي كله وقلبه رأسًا على عقب، وخرب ألوفًا من المدن، وقتل حوالى تسعين مئة ألف مسلم، وسقطت في أيديهم مدينة بغداد، مركز الخلافة الإسلامية، ولكن الجناح العلمي للمسلمين كان على حاله، فنجد أن هذا العصر لا يخلو من مشاهير

---

[1] المصدر نفسه، ص 22

[2] تذكره دولت شاه سمرقندي، ص 195، ونفحات الإنس، ص 417

[3] سوانح مولانا روم ص 23

[4] سوانح مولانا روم، ص 23.

[5] نفحات الإنس، ص 413

العلم وعباقرة الفن بمن فيهم المحقق الطوسي، والشيخ سعدي، والخواجه فريد الدين عطار، والشيخ شهاب الدين السهروردي، والشيخ محي الدين العربي، وصدر الدين القونوي، وغيرهم، وقد ذكر كتاب ترجمة مولانا بأنه التقى بأكثر مشاهير عصره، ولكن تفاصيل ذلك غير متوفرة في كتب التراجم.

أخلاقه و عاداته: كان مولانا الرومي قبل اتخاذه الطريقة الصوفية، يشتغل بالخطابة والمناظرة، ولكن بعد اختيار الحياة الصوفية، تفرغ للمراقبة والمجاهدة فلم يكن يلبس لباس الليل، ولا يستلقي على الفراش بل كان ينام جالسًا إذا طرأ عليه النوم[1]. كان يصوم كثيرًا ويصلّي الصلوة بخشوع بالغ حتى إذا نوى للركعتين عند العشاء أصبح ولم ينته منهما[2]. كان قانعًا و زاهدًا بالفطرة، يحول هدايا الأمراء والسلاطين الموصولة إلى زركوب وجلبي، ولا يبقي لنفسه شيئًا. وإذا لم يجد في بيته شيئًا يومًا ما يقول "تنبع رائحة الرهبانية"، ولكن لا تجد روايات ترك اللذة والرهبانية عنه. وكان مبلغ سخائه أن يعطي السائل كل ما كان يجد على بدنه من الملابس، ورغم عظمته الظاهرية، كان متواضعًا. إنه كان لا يحب الأكل بدون الأجرة، فكان يحرّر الفتوى لوظيفته المعطاة من الحكومة، وكذلك كان يجتنب اقتراب الأمراء، ولا يلتقي بهم إلا لخلقه الحسن. وإذا كان طرأ عليه الوجد والحال يقوم فيبدأ بالرقص، وفي بعض الأحيان يخرج من بيته ويغيب لعدة أسابيع.

بعد أن ألقينا نظرة على الجزء الأول من الكتاب، نتطرق إلى الجزء الثاني منه، وقد قام العلامة شبلي في النصف الآخر من الكتاب بتعريف ثلاثة إنتاجات مولانا الرومي، وبصفة خاصة استقصى المباحث الكلامية والفلسفية في مثنوي مولانا الرومي بالتفصيل. إنه تناول ديوان مولانا، ومجموعة فيه ما فيه، وديوان مثنويه، وذكر سبب تأليفه، وترتيب المثنوي، وتشابه بعض المحتويات بين المثنوي والحديقة، وخصائص مثنوي، والأمثلة، والمناظرة، وعلم الكلام، وصحة مذهب واحد من المذاهب المختلفة، والإلهيات، وصفات

[1] رسالة سپه سالار، ص 17

[2] المصدر نفسه

الله، والنبوة، وحقيقة الوحي، ورؤية الملائكة، وتصديق النبوة، والمعجزة، وكون المعجزة دليلًا على النبوة، والروح، والمعاد، والجبر والقدر، والتصوف، والتوحيد، ووحدة الوجود، والمقامات، والسلوك، والفناء، والعبادات، والصلوة، والصوم، والحج، والفلسفة، والعلوم، وتجاذب الأجسام، وتجاذب الذرات، وتجدد الأمثال، ومسئلة الارتقاء.

1- فيه ما فيه: يقول العلامة شبلي "هذا الكتاب مجموعة للرسائل التي كتبها مولانا إلى الشيخ معين الدين، وقد ذكره قائد القوات في ضمن كتابه." ولم يقع هذا الكتاب بيدي العلامة شبلي ولذلك ذهب إلى أن هذا الكتاب قد فقد، وقد تم نشر هذا الكتاب عن دار المصنفين فيما بعد عندما وجدت عند الأديب الأردي الشهير عبد الماجد الدريابادي.

2-الديوان: هذا يحتوي على خمسين ألف بيت، وقد نشر منتخب منه من مدينة أمرتسر، وهذا المنتخب يحتوي على ألفي بيت[1].

إزالة سوء الظن فيما يتعلق بالديوان: قد نسب بعض كتاب التراجم هذا الديوان إلى شمس تبريز بسبب وجود اسمه على لوحه، ولكن العلامة شبلي قرر أن هذا خطأ فاحش، وأورد الدلائل الواضحة لإثبات أن الديوان من إنتاج مولانا الرومي.

ملخص استعراض العلامة شبلي للديوان: يقول العلامة شبلي "إن الديوان يحتوي على خمسين ألف بيت للغزل، وليس فيه أي بيت للقصيدة أو القطعة، ويخلو شعر مولانا من نواقص المدح والثناء، وقد حصل عراقي وعرفي شهرة واسعة في هذا المجال، ولم يكن الغزل قد تطور في ذلك الحين كفن مستقل، ولذلك كان الشعراء يستخدمونه لكسب القوت فقط، فلا نرى لدى شعراء ذلك العهد إلا التصنع اللفظي، والتزين بالكلمات، ويخلو شعرهم عن الحماسة والأثر. وعندما انقطع السخاء والعطاء من قبل الأمراء، اتجه الشعراء من القصيدة إلى الغزل، وحينئذ ولدت في شعرهم ميزات الغزل." ونرى أصحاب التراجم متفقين على أن الشيخ سعدي ومولانا الرومي في مقدمة الذين طوروا

[1] سوانح مولانا روم، ص 46-47

الغزل، ولكن العلامة يذهب إلى أنه لا مقارنة بين مولانا الرومي و الشيخ سعدي لأن مولانا الرومي أجبر على نفسه الشعر[1].

نقد العلامة شبلي على غزل مولانا الرومي: عند العلامة شبلي للغزل موضوعات وألفاظ، وتراكيب تختص به، ولا يخرج الشاعر منها عندما يقرض الغزل، ولكن مولانا الرومي لم يراع بذلك، فغزله مملوء بالألفاظ الغريبة والثقيلة، ويغلب الجناح الحقيقي على الجناح المجازي إلى حدّ أن نقاد الغزل لا يجدون فيه ما يلائم ذوقهم إلا نادرًا، وفك الإضافة الذي يعتبر من نقائص الغزل يوجد في شعره الغزلي كثيرًا[2].

خصائص ديوانه: ورغم النقائص المذكورة أعلاه، أشار العلامة إلى بعض ميزات غزل مولانا الرومي التي تميزه من بين معاصريه وتعطيه مكانًا عاليًا.

- أولًا: معظم شعره الغزلي كتب بمناسبة خاصة أو إثر حالة خاصة، ولذلك لا تختلف أبيات غزل ما في المعاني خلافًا لما هو معروف في الغزل.
- ثانيًا: كان مولانا الرومي بالفطرة شخصية متحمسة، ولذلك نجد في كلامه كيفية عدم الرشد، والوعي ما لا يوجد غزل الآخرين.
- ثالثًا: وأكبر ميزان غزله تصوير الحالة التي يمرّ بها العاشق وعشيقته بصورة كأن القاريء يشاهد ذلك المنظر بعينيه، وفي هذا لا يضاهيه أحدٌ.
- رابعًا: توجد في شعره الدعاوي الجريئة والصوت العالي ما لا يوجد في كلام المتصوفين الآخرين.

---

[1] المصدر نفسه، ص 50

[2] المصدر نفسه، ص 51

- خامسًا: ميزة شعره الغزلي الخامسة هي الرد بالدلائل الفلسفية على إنكار الشاعر الشهير عمر خيام للمعاد، والروح، والجزاء، والعقاب[1].

3-مثنوي: المثنوي الذي يقاربه في اللغة العربية "المزدوج" من حيث البناء أعطى مولانا الرومي الحياة الدائمة كما يقول العلامة شبلي "يرجع فضل شهرة مولانا الدائمة إلى هذا الكتاب." وحسب رواية كشف الظنون يحتوي مثنوي مولانا على 26660 بيتًا[2]، وينقسم إلى ستة دفاتر أو كتب، ويرى بعض النقاد أن مولانا لم يتمكن من إكمال الدفتر السادس لإصابته بالمرض، ولكن العلامة شبلي أثبت بالدلائل أن مولانا أكمل الدفتر السادس بنفسه بعد أن شفاه الله من المرض، وكان قد بدأ يكتب دفترًا سابعًا له[3].

إيجاد المثنوي: في أول الأمر ألقى العلامة شبلي الضوء على أنواع الشعر المختلفة من منظور تاريخ كما يقول "برز الشعر الفارسي إلى الوجود لترويح نفوس السلاطين أولًا، ولذلك أول ما قيل في الشعر الفارسي هي القصائد، وبما أن القصائد تبدأ بتشبيب الغزل، برز الغزل أيضًا إلى حيز الوجود." وقد استنظم سلاطين آل سامان، والسلطان محمود الغزنوي مآثر أجداده لتجري على ألسنة الناس كضرب المثل، ولذا برز إلى حيز الوجود المثنوي الذي يعتبر أفضل صنف من أصناف الشعر لتسجيل الوقائع التاريخية[4].

تطور المثنوي وموضوعاته في البداية: حسب العلامة شبلي بلغ هذا الصنف أوجه على يدى الشاعر الفارسي الشهير فردوسي، ولم يضف إليه أحد بعده، ولكن رقى المثنوي في ذلك الحين كان من حيث تصوير الوقائع، والتعبير عما في القلب، والصنائع والبدائع، ولم يكن عبارة عن الذوق والكيفية، وكان السلطان أبو الخير أول من أدخل شعر الوجد والسرور في الشعر الفارسي، ثم قام الحكيم سنائي بتأليف كتابه المعروف بـ"الحديقة" في

---

[1] سوانح مولانا روم، ص 51-58.

[2] المصدر نفسه، 2/ 377

[3] سوانح مولانا روم، ص 47

[4] المصدر نفسه، ص 60

التصوف، ثم كتب فريد الدين العطار مثنويات عديدة على هذا العنوان وقد اشتهر من بينها مثنوي "منطق الطير"، ومثنوي مولانا الرومي حلقة أخيرة من هذه السلسلة[1].

أسباب التأليف: قد ذكرت كتب التراجم أن مولانا كتب هذا المثنوي على طلب من الشيخ حسام الدين جلبي، فقد كان اقترح عليه أن يكتب مثنويًا على طراز مثنوي "منطق الطير". كما سقنا أعلاه أن هذا المثنوي يحتوي على ستة دفاتر، وكل دفتر معنون باسم حسام الدين جلبي ماعدا الدفتر الأول، وقد ألقى العلامة شبلي الضوء على هذا السبب فيقول "عندما انتهى مولانا من كتابة الدفتر الأول، توفيت زوجة جلبي، فشق ذلك على جلبي وكذلك على مولانا لعلاقته الحميمة مع جلبي، فانقطع عن كتابة المثنوي لسنتين، وأخيرًا أصرّ جلبي على كتابته مرة أخرى.

أسباب ذيوع صيت المثنوي: يقول العلامة شبلي أنه ذاع صيت مثنوي مولانا على نطاق أوسع ما لم يوفق لكتاب فارسي بعده، وأكبر دليل على ذلك اعتناء العلماء به اعتناء لم يلقه كتاب آخر، فقد أنتجوا له شروحًا مختلفة وقد ذكر بعضها صاحب كشف الظنون[2]، ونظرًا للعلامة شبلي سبب ذيوعه على النطاق الواسع يرجع إلى السذاجة، والبساطة، والروعة التي جعلته في متناول اليد، فقد أقبل عليها الخواص بسبب النقاط والدقائق التي لا يستطيع فهمها عامة الناس. وقد ادعى العلامة شبلي أن المثنوي يحمل في طياته الأسرار الدقيقة، والقضايا العظيمة، والمسائل التي تقل في المؤلفات العربية، ولذلك اتجه نحوه العلماء وأصحاب الفن أكثر من غيره من الكتب[3]. وقد ذكر مير عباس لصيته وهو حلاوة الشعر فيه.

---

[1] المصدر نفسه، ص 61.

[2] كشف الظنون، 2/ 376-377

[3] سوانح مولانا روم، ص69

ترتيب المثنوي: يقول العلامة شبلي "ليس هناك أي ترتيب أو تبويب في المثنوي، وتقسيمه في الدفاتر لا يأتي من باب الموضوعات بل مثل أجزاء القرآن المختلفة أو مثل الدواوين المختلفة لشاعر، ويختلف أسلوب المثنوي اختلافًا كليًا عن مثنوي منطق الطير، وبوستان، والحديقة التي كتبت في نفس العهد، وكانت مليئة بعناوين الأخلاق والتصوف المختلفة[1]."

جواب مولانا الرومي لاعتراض على مثنويه: قد اعتر بعض العلماء على مثنوي مولانا الرومي بأنه ملأه بقصص الطفل بدلا من إلقاء الضوء على الفقر والتصوف، فأجاب مولانا قائلا أن نفس الاعتراضات ألصقت بالقرآن الكريم أيضا[2].

ميزات مثنوي مولانا الرومي: عند العلامة شبلي أكبر ميزة للمثنوي هي طريقة استدلاله، وأسلوب إفهامه، فقد استخدم مولانا القياس التمثيلي الذي يعتبر أسهل طريقة لإفهام عامة الناس. وقد قام مولانا الرومي بتفهيم بعض المسائل الفلسفية وقضايا التصوف التي يستطيع فهمها عامة الناس، وذلك عن طريق استخدام التشبيهات بأسلوب يقع في القلب موقعًا حسنًا[3].

كانت هناك طريقة متبعة منذ قديم الزمان لتعليم القضاي الخلقية، وهي ذكر المسائل الخلقية في ضمن القصص الموضوعة، ولكن مولانا الرومي بلغ بهذه الطريقة أوجها، فقد أظهر في مرآة الحكايات النقائص الخفية لنفس الانسان، وعبر عنها بطريقة يقول كل قارئ أنه هو الذي خاطبه مولانا[4]. والميزة الثالثة لهذا المثنوي هي ذكر قضايا التصوف عن طريق تمثيل المناظرات وذكر دلائل الجانبين ثم الحكم عليها بطريقة يزول سوء الظن.

---

[1] نفس المصدر، ص 70

[2] مثنوي مولانا روم، تفسير حديث إن للقرآن ظهرًا إلخ، دفتر سوم، ص305.

[3] سوانح مولانا روم، ص 84

[4] المصدر نفسه، ص 89

والآن نتطرق إلى تناول مباحث ونظريات مولانا الومي في الكلام، والفلسفة، والتصوف، والعلوم التطبيقية التي ذكرها العلامة شبلي في كتابه بقدر من التفصيل، وهذه هي الموضوعات التي أدت العلامة إلى تناول هذا الموضوع.

عند العلامة شبلي لعلم الكلام نوعان، وهما النقلي والعقلي ، والمراد بعلم الكلام النقلي هو إثبات العقائد بدلائل القرآن والحديث، نشأ ذلك نتيجة للفرق الإسلامية المتشاجرة، وعلم الكلام العقلي نشأ لمواجهة الفلسفة والمذاهب الأخرى. وكان الإمام الغزالي أول من دمجهما في مؤلفاته ثم برزت مؤلفات كثيرة على هذا الموضوع بما فيها مؤلفات مولانا الرومي وكما يقول العلامة شبلي "نجد عند مولانا الرومي الأمثلة لكلا النوعين، إنه عرض العقائد الإسلامية والتعاليم الخلقية في الاستدلالات العقلية والنقلية أي بكلا النوعين من علم الكلام." إنه يضيف قائلًا "أمامنا كتب كثيرة لعلم الكلام ولكنها لا تبلغ مستوى المثنوي في طريقة إثبات العقائد، نحن نعترف بكمال أولئك المؤلفين في العلم وإدراكهم في الفلسفة، ومعرفتهم، ولكن كتبهم لا تستطيع الإقناع وتوليد اليقين في نفوس الدارسين، أما مولانا الرومي فدلائله تقع في القلب موقعًا حسنًا وتؤثره، وتعطي الدارس الاطمئنان واليقين."

وجود الله تعالى: قد قام الحكماء والفلاسفة بإثبات وجود الله تعالى بعدة طرق، ومولانا الومي – كما يقول العلامة-بنى وجود الله تعالى على فهم ترتيب الكون وخصائصه، والاستدلال الثاني لمولانا على وجود الله تعالى هو ترجيح العلة على المعلول، يعني هناك ميزة في العلة لا توجد في المعلول، وكان كلاهما على السواء، فيكون الفرق بين العلة والمعلول بدون المعنى. وكذلك تبرز الممكنات إلى الوجود بسبب العلة، فليس للمكنات صفتها الخاصة بها، وسلسلة العلة والمعلول تنتهي على ذات لا بدّ من كونه واجب الوجود، يعني الوجود صفته الخاصة به، و هكذا يثبت وجود الله تعالى.

مسألة النبوة: مسألة النبوة من أهم مسائل علم الكلام، وحسب العلامة شبلي كتب مولانا الرومي حول جميع أجزاء هذه المسألة بما فيها حقيقة النبوة، ورؤية الملائكة، والمعجزة، وتصديق النبوة، وغيرها، وذلك في أسلوب كأنه أفشى عن سر.

حقيقة الروح: مسألة الروح أكبر مسألة من مسائل العقائد لأنها أساس للنظام الدين كله، فلا يمكن الإيمان بالله والنبوة، والجزاء والعقاب إلا بالتفكير في الروح، وقد جاء في القرآن بصورة واضحة أن الروح من أسرار الله تعالى المكنونة، ولكنه لم يمنع من التفكري فيه، ولذلك نرى لدى العلماء والمشائخ الصوفية نقاشات ممتعة في مسألة الروح. وقد أكد مولانا الرومي على هذه المسألة فسلط الضوء مرة بعد مرة على حقيقة الروح، وحالته، وخصائصه، ومسألة الروح مهمة من حيث أنها تتعلق بعقيدة الآخرة، وإنكار الروح يؤدي إلى إنكار المعاد.

عرض العلامة شبلي في هذه المسألة أولًا آراء بعض العباقرة الأوربيين على سبيل المثال جالينوس، وفيثاغورس، ثم استعرض مذهب المتكلمين الكبار من المسلمين، الإمام الغزالي، وبو علي سينا، والمشائخ الصوفيين الآخرين، ونقدم هناك ما استخرج من آراء مولانا الرومي حول هذه المسألة اعتماده على مثنويه، فيقول العلامة شبلي"عند الحكماء الآخرين، الروح جوهر مستقل يستخدم الجسم كآلة، وعند فناء الجسم لا تفني الروح، بل ينقطع عملها، وهذا هو ما ذهب إليه مولانا الرومي "

عقيد الآخرة والمعاد: لا ينكر أحد من منظور أخلاقي ضرورة الاعتقاد بأن هناك من يراقب أعمال الإنسان، وكل حركات قلبه، في الجلوة والخلوة، في الظلام والنور، ويستطيع أن ينظر إلى أعماق القلب من خلال ألوف الستار، وهذه هي العقيدة التي يبنى عليها الصرخ الخلقي، وإذا فقد الإنسان هذه العقيدة، انهدم مبنى الأخلاق الشامخ بأكمله.

يقول العلامة شبلي "لم ينكر أحد من الفلاسفة والحكماء والمتكلمين ضرورة المعاد، ولكنهم اختلفوا في إمكانيته، واستبعاده، وحياة الإنسان بعد الممات، وقد رفع مولانا

الرومي ستار استبعاد المعاد بالتشبيهات، والتمثيلات الجيدة بصورة يتيقن من يقرأها بوقوعها من أعماق قلبه، وأمام دلائله العلمية والعقلية لا يستطيع أحد إنكار المعاد.

التصوف: تناول العلامة شبلي مباحث التصوف بإيجاز، وقد ظن بعض الناس أن ذلك كان بسبب عدم معرفته بفنون التصوف كما كتب ذلك بنفسه "تناولت مباحث التصوف بإيجاز لأنني لا ألمّ بهذا الفن." ولكن قوله هذا لم يكن من منطلق عدم إلمامه بفنون التصوف، بل نبع من سذاجته، ومن ينكر أنه إذا أراد أن يكتب حول موضوع لا يأخذ قلمه إلا اذا استقصى ذلك الموضوع وأحاط به إحاطة دقيقة كما أشار إلى ميزته هذه العالم الهندي الشهير حبيب الرحمن خان الشيرواني "إن كل سطر من سطوره يحتوي في طياته عصارة عشرات من الصفحات." وفي رأي هناك سببان آخران لاختياره الإيجاز في تناول التصوف، أولًا: كان العلماء قد بذلوا جهودهم على المثنوي من هذا المنطلق كثيرًا حسب مقدورهم، وثانيًا: لا يوجد في مؤلفات العلامة شبلي تكرار الموضوعات، فقد كانت سيرة "الغزالي" قد عرفت طريقها إلى النشر، وكان العلامة قد سلط الضوء فيها على تاريخ التصوف وحقيقته، وبداية التصوف وتدوينه من حيث الفن، وغير ذلك من موضوعات التصوف الأساسية، فلم ير من المناسب أن يكتب كل هذا من جديد، ولكنه أوجز هنا حقيقة التصوف، وماهيته، وامتزاج الشريعة والطريقة، والمجاهدة والسلوك، والفناء من منظور مولانا الرومي إيجازًا شاملًا.

رأي العلامة شبلي عن التصوف: رأي العلامة شبلي عن التصوف يدل على سعة معرفته، وعمق دراسته، فعنده التصوف في البداية كان عبارة عن الزهد، والعبادة، وعندما تطور الزهد بمرور الزمن نشأت معه الأوصاف العرفانية (الروحانية) بما فيها الصبر والشكر، والتوكل، والرضا، والألفة، والمحبة، وغيرها، وعندما ازدادت الإنابة إلى الله وجدت المجاهدة، وبالمجاهدة ظهر الكشف، والإلهام، والأشياء الأخرى الخارقة للعادة، وهكذا أصبح التصوف مجموعة أشياء كثيرة[1].

[1] الغزالي، ص 172

تعريف الشريعة والطريقة والحقيقة: هناك جدال كثير حول تطبيق وتشريح الشريعة والطريقة بين العلماء والصوفيين، ولذلك عرض العلامة شبلي آراء مولانا الرومي عنها، فيقول "يحصل الاعتقاد بثلاثة طرق، وهي التقليد، والاستدلال، والكشف عن الحال، فالتقليد والاستدلال شريعة، والقسم الثالث يعني الكشف طريقة، وهي جزء لا يتجزأ من أجزاء الشريعة، وقد سمى هذا القسم الثالث باسم خاص لأنه لا يحصل إلا بالسلوك والمجاهدة"، وقد قام مولانا الرومي بإفهامه في الدفتر الخامس من مثنويه فيقول: قرأة رجل لعلم الطب شريعة، واستخدامه الأدوية طريقة، والشفاء من المرض حقيقة، وبالإيجاز، الشريعة علم، والطريقة عمل، والحقيقة أثر العمل.

مسألة وحدة الوجود: هذه المسألة تتعلق بذات الله تعالى، وقد فكر فيها العلماء والفلاسفة، والمشائخ الصوفيين كثيرًا، وعند العلامة شبلي ينبع الاختلاف فيها بين العلماء والمشائخ الصوفيين من اعتقاد العلماء بأن شخصية الله تعالى مستقلة عن الكون، ومن اعتقاد المشائخ بأن الله جزء من أجزاء الكون[1].

الفرق بين وحدة الوجود ووحدة الشهود: مما سقنا أعلاه يظهر أمامنا معتقدان؛ وحدة الوجود ووحدة الشهود، وكما يقول العلامة شبلي، معنى وحدة الوجود أن كل شيئ إله، ومعنى وحدة الشهود عكسه يعني ليس كل شيئ إلهًا، فلا يمكن أن نعتبر ظل الإنسان إنسانًا[2].

مولانا الرومي يعتقد بوحدة الوجود: يقول العلامة شبلي "كان مولانا الرومي يعتقد بوحدة الوجود، عنده الكون كله صور مختلفة لله، ويرى في علاقة الله بمظاهر الكون أن فهم علاقة الله تعالى بالممكنات ما وراء العقل الإنساني والقياس، ولا يمكن بيانه في الكم والكيف." يوضح مولانا الرومي فيقول "للجسم علاقة بالروح، و للبصارة بالنور، و للفرح بالقلب، و للهم بالكبد، وللرائحة بالشم، وللتكلم باللسان، وللهوى بالنفس، وللشجاعة بالقلب، ونجد نفس علاقة الممكنات بالله وهو بري عن الكم والكيف".

---

[1] سوانح مولانا روم، ص 110

[2] المصدر نفسه

رأي الفلاسفة الأوربيين: قد ذهب العلامة شبلي إلى أن هناك تطابقًا في هذه المسألة بين العلماء الأوربيين ومولانا الرومي، فعندهم هناك ثلاثة أشياء في الدنيا تعتبر من المحسوسات، أولًا المادة، وثانيًا الطاقة، وثالثًا العقل، والعقل يجري في الأشياء مثل الروح في الجسم، ووجود الترتيب والنظام في العالم تحت أثر العقل، فالعقل إله، وبالإيجاز، العالم رجل واحد، والعقل فيه إله كما يعتبر الإنسان شخصًا واحدًا رغم أعضاءه المتعددة، وكما فيه عقل واحد، وهكذا العالم بأكمله، عقل واحد وهو الإله[1].

بحث في الفلسفة والعلوم: يقول العلامة شبلي "علم الكلام، والتصوف، والأخلاق تعتبر من فروع الفلسفة، ومولانا الرومي قد أحاط بها في مثنويه، فمن هذا المنطلق، المثنوي فلسفة بأكله. وقد تناول العلامة شبلي بعض مسائل الفلسفة والعلوم التي جاءت في المثنوي ضمنًا، ومنها تظهر نظرية مولانا الرومي عن العلوم فعلى سبيل المثال الكشف، ونظرية تجاذب الأجسام، ونظرية تجاذب الذرات، ونظرية تجدد الأمثال، ومسألة الارتقاء.

وبدراسة كتاب "سوانح مولانا روم" يتضحلنا أن العلامة شبلي بإدراكه الدقيق، وفهمه العميق يتجاذب الأطراف والنواحي المختلفة لمبحث، ويأتي بالتشكيك فيه، ثم يعرض حلولها ببيان آراء مولانا الرومي بحيث لا يجد أصحاب العلوم الحديثة مشكلة في العصر العلمي الحديث في فهم المعتقدات الإسلامية المهمة على سبيل المثال وحدة الوجود، و صفات الله تعالى، والنبوة والمعجزات كما يقول البروفيسور محمد خان "إن العلامة شبلي غاص في محيط المثنوي المواج، وأخرج منه اللآلي الصافية التي لا تعد، وعرضها في صورة يطمئن بها القلب، وتقر بها العين، وسوف يبقى ذكر العلامة شبلي مع مولانا الومي إلى يوم القيامة، ويفتخر الناس بهما[2]."

[1] سوانح مولانا روم، ص 184-185.

[2] شبلي نقادوں کی نظر میں، ص147

المصادر والمراجع

1. السيد صباح الدين عبد الرحمن: مولانا شبلي پر ايك نظر (نظرة على العلامة شبلي)، دار المصنفين، أعظم كره، 1985م
2. العلامة سيد سليمان الندوي: حيات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، 2003م
3. العلامة شبلي النعماني: الكلام، دار المصنفين، أعظم كره، 1992م
4. العلامة شبلي النعماني: سوانح مولانا روم، دار المصنفين، أعظم كره، 2010م
5. العلامة شبلي النعماني: مكاتيب شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، 2012م
6. مجلة "البصير" الشهرية الصادرة عن لاهور، باكستان
7. مجلة "الندوة" الشهرية الصادرة عن ندوة العلماء بلكناؤ
8. مجلة "فكر ونظر" الفصلية الصادرة عن علي كره، الهند
9. ناز الصديقي: شبلي نقادوں کی نظر میں (شبلي كما يراه النقاد)، إلياس تريدرس، حيدراباد، 1976م

إسكات المعتدي على إنصات المقتدي

(دراسة تحليلية)

- د. محمد إلياس الأعظمي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

أول ما ألّفه العلامة شبلي بالعربية هو "إسكات المعتدي على إنصات المقتدي"[1]. هذه رسالة تحتوي على 24 صفحة في الحجم الكبير صدرت باعتناء محمد عبد الرحمن بن الحاج محمد روشن خان من المطبعة النظامية بكانفور في محرم سنة 1298هـ/ديسمبر سنة 1880م وطبعت على نفقة عمّ الكاتب الشيخ مجيب الله[2].

وقد أثبت العلامة في هذه الرسالة أن قراءة الفاتحة خلف الإمام مكروهة دعْها أن تكون واجبة سواء كانت الصلوة جهرية أو سرّية، وقد استدلّ العلامة على دعواه بقوله تعالى "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا" قائلًا إن المراد من القراءة هو الاستماع والإنصات، وأما الاستماع فهو لا يمكن سوى الصلوات الجهرية بينما الإنصات يمكن في كلا النوعين من الصلوات وقد ذكر العلامة معظم دلائل الأحناف.

تبتدئ الرسالة بذكر أهمية سنة الرسول قبل ذكر قراءة الفاتحة خلف الإمام ثم ذكر بالتفصيل خدمات الصحابة الكرام والفقهاء الكبار.

---

[1] مكاتيب شبلي، 235/2

[2] المصدر نفسه، ص 255

وكذا فنّد العلامة النعماني الموقف المقتصد للشيخ أبي الحسنات محمد عبد الحي الفرنغي محلي (ت 1887م) من هذه القضية[1]. كان الشيخ الفرنغي محلي عالمًا كبيرًا. يقول الشيخ السيد سليمان الندوي عن هذه الرسالة:

"يرى الأحناف أن قراءة الفاتحة خلف الإمام ليست متفقًا عليها كما يزعم الآخرون بل هي بين بين فهي ليست بمحرمة كما هي ليست بمكروهة إلا أنها ليست بواجبة على المقتدي كما يرى الشوافع، وبرز فيما بين المتأخرين عالمٌ كبير يسمّى "عبد الحي" فجاء بوجهة نظر معتدلة تقول بقراءتها في السرية وعدمها في الجهرية"[2].

أدلى الشيخ عبد الحي برأيه في رسالته المسمّاة بـ"إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام" (صدرت من المطبعة المجتبائية سنة 1877م) فاستدركها العلامة النعماني في رسالته "إسكات المعتدي" وعلى ذلك فقد اشتهرت الرسالة في الدوائر العلمية فصدرت ردود متعدّدة عليها وقد فصّل الأمر الشيخ السيد سليمان الندوي في "حيات شبلي" (ترجمة شبلي) كما يلي:

"لما بلغت هذه الرسالة الشيخ عبد الحيّ وتلامذته فقاموا بالردود عليها وأصدروها فأول هذه الردود ما كتبه الشيخ نور محمد الملتاني تلميذ الشيخ عبد الحيّ باسم "تذكرة المنتهي في ردّ إسكات المعتدي" وله رسالتان أخريان في الردّ عليها وهما "الإفادات في ردّ الإسكات" و"التنبيهات على هفوات الإسكات" وأما الرسالة الرابعة فهي "الإيماضات إلى أغلاط مصنف الإسكات". كتبها الحافظ الملا شعيب الحنفي الكابلي الباجوري. صدرت هذه المجموعة في 1298هـ/1880م من مطبعة أنوار محمدي، لكناؤ. وبنهايتها تاريخ منظوم لأحد تلامذة الحافظ عبد الله الغازيفوري فلو أن الشيخ عبد الحيّ لم يكتب هو بنفسه أيّ رسالة في الرد على رسالة شبلي ولكنه حينما أعاد نشر رسالته "الكلام" بعد سنوات في

[1] إسكات المعتدي على إنصات المقتدي، المطبة النظامية، كانفور، 1298هـ

[2] حيات شبلي، ص 105

1885/1303م من المطبعة العلوية بلكناؤ فكتب عليها حاشية بعنوان "غيث الغمام" لم يتعرض لما قال الشيخ وردّ على كلّ ما قام به اللكناوي من الاعتراضات على رسالته"[1].

وكان العلامة شبلي يودّ أن يردّ على هذه الردود فهو يقول في إحدى رسائله:

"وسأبرئ ذمة عن كتابة الردّ على هذه الردود إن شاء الله، وقد بلغني أن "الإيماضات" وغيرها من الرسائل كتبها الحافظ المكرّم. كنت معترفًا بقابلية الحافظ وجدارته حتى اليوم إلا أن هذا اليقين قد زال عن قلبي اليوم ---- سأبلغ في غضون مدة قصيرة إلى غازيفور فأدرس ما ارتكبه المؤلف من الأخطاء وما مرّ به من الزلات في هذه الرسائل".[2]

ثم لقي العلامة شبلي الشيخ عبد الحي فأعرب عن أسفه على الحروب الأهلية الكلامية فيما بين الأحناف فظنّ العلامة النعماني أن هذه الإشارة إليه فندم على ما فعل[3] ولعل هذا هو السبب وراء رغبته عن هذا الأمر بعدُ.

يبدو من دراسة "إسكات المعتدي" أن للعلامة شبلي يدًا طولى على اللغة العربية وآدابها بجانب تضلعه من الفقه والفتاوى وما استخدمه من اللغة العربية هي فصيحة بليغة فلغة الإسكات مسجّعة وأسلوبها أسلوب المتكلمين والمناظرين بشيء من مشابهة الواعظين فما كتبه من الحمد والثناء في بدايتها هو نموذج لأسلوبه الكتابي وتضلعها من اللغة العربية فلنقرأ مقتبسًا منها:

"الحمد لله المفيض الوسمي المذلّل الآبي المسيل الآذي بسطوته وسلطانه رافع العنان باسط الدجان ساقي الظمآن في هواجر الطلب ومعماته والصلوة على رسوله الهادي صاحب اللهى والأيادي أحمس من خضب بتامور الأعادي ومهج المعادي شفار القراضب وسنان الهوادي وأفضل من امتطأ سنام اليعامل واقتعد

---

[1] المصدر نفسه، ص 105-106

[2] مكاتيب شبلي، 2/247-248

[3] حيات شبلي، ص 107

غوارب الخوادي وعلى آله وأصحابه ولاة الدول كماة الملل هداة السبل ما انهمر السواري وانسكب الغوادي على بقاع العمران وعراض البوادي"[1].

وقد ذكر السيد سليمان الندوي ميزتين لهذه الرسالة فقال:

"في هذه الرسالة أمران يدلّان على براعة العلامة شبلي وفضله؛ ترتيبها المنطقي وحسن استدلالها، وإنشاءه العربي وعلى هذا فمن قام بالردّ عليها قد اعتنى بهذين الأمرين في ردّه"[2].

انكشف لنا من دراسة "إسكات المعتدي" أن العلامة شبلي بدأ يكتب الشعر العربي منذ عنفوان شبابه فقد نقل فيها أبياتًا صرّح في بعض منها بأنها من قريضه وهي كما يلي:

وهـــل ذاك إلا موعظـــات ورحمـــة ونـــور هـــدًى للعـــالمين مســـائله

وقـــد جـــاء يهـــدي للـــتي هـــي أقـــوم ويغنيـــك عمـــا كنـــت دهـــرًا تداولـــه

لعمـــرك طـــلّ منـــه يشفـــي غلـــيلهم فكيـــف إذامـــا جـــاد للنـــاس وابلـــه

والآن يندر وجود هذه الرسالة فلما ير الكاتب نسختها المطبوعة ولو حاول كل جهده إلا أن نسخة خطية من تلك المطبوعة توجد في مكتبة دار المصنفين، تمّ نسخها في 1940م على يدي الكاتب الحافظ السيد واجد حسين الرامفوري، وكتب في نهايتها المحقّق الشهير إمتياز علي خان العرشي (ت 25/ فبراير، 1981م) في 19/ نوفمبر، 1940م "قد قابلتها أنا والشيخ عبد الله من الأصل"[3].

وقد تجاوز ذكر رسالة شبلي هذه حدود الوطن فبلغ الدول الإسلامية الأخرى وتقبّلها علماؤها وأعلوا قدرها فلما ارتحل العلامة إلى الروم ومصر والشام في 1892م لعبت هذه الرسالة دورًا كبيرًا في شهرته فيقول العلامة بنفسه:

---

[1] إسكات المعتدي (مخطوط)، ص 107

[2] حيات شبلي، ص 107

[3] إسكات المعتدي (مطبوع)، ص 24

"ذات يوم جاء الشيخ علي ظبيان الذي أبو كان صوفيًا شهيرًا لكي يلتقي مع الشيخ عبد الفتاح، وكنت حاضر الجلسة وكان بين يديّ رسالتي "إسكات المعتدي" التي كتبتها بالعربية فأخذها وأثنى عليها وقال: قد مضى زمن طويل على رؤية هذه الرسالة لدى شيخي وقال عن كاتبها: شكر الله مساعيه" ولما علم أن كاتبها أنا فقام وصافحني برحابة صدره وأكرمني وعظّمني ولقد سررت بوصول رسالتي هذه إلى هذا البلد النائي وثناء الناس عليها واهتبلت غنيمة بتعريفي بفضل هذه الرسالة المتواضعة"[1].

يرى مقتدى خان الشيرواني (ت 6/ ديسمبر، 1968م) أن العلامة طار صيته في العالم بفضل رسالته "إسكات المعتدي" فهو يقول:

"مما قام العلامة شبلي بكتابته من الرسائل العربية في بداية عمره "إسكات المعتدي" وهي التي وصلت بذكر كاتبها إلى العالم الإسلام فلما سافر العلامة شبلي إلى الروم ومصر والشام بعد سنوات من تأليفها فتعرّف عليه الناس كبروفيسور كلية علي كره كما تعرّف عليه العلماء ككاتب "إسكات المعتدي"[2].

وبالجملة فقد اعتنى العلماء والمفكرّون بكتابة شبلي البدائية هذه وتقبّلوها بقبول حسن من الهند إلى القسطنطينية ودمشق فيجب علينا أن نحتفظ بهذه الذكرى.

---

[1] سفرنامه روم ومصر وشام، ص 30

[2] مجلة "البصير"، العدد: 151 لعام 1957م

تاريخ بدء الإسلام، دراسة تحليلية

- د. محمد إلياس الأعظمي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

في 1883م تعيّن العلامة شبلي النعماني بروفيسورًا في كلية علي كره الشرقية وما ألّفه بها من الكتب العربية بجانب التدريس هنا أوّلها تاريخ بدء الإسلام. قام بتأليفه على طلب من السير سيد أحمد خان (ت 1898م) لكي يتمّ وضعه في المقرّرات الدراسية وطبع من مطبع مفيد عام، علي كره في 1891م[1]. يقول السيد سليمان الندوي مشيرًا إلى الحافز على تأليفه:

"لأجل ترغيب الطلبة في شخصية النبي وإعلامهم عنه قام بتأليف هذه الرسالة الموجزة بالعربية ومن ثم وضعت في المقرّرات الدراسية ولعلها تدرّس حتى اليوم"[2].

ولو أن هذه الرسالة كتبت نظرًا لتدريسها للطلبة ولكنها اعتبرت مفيدة لعامة الناس ولذا فقد أحبّ السير سيد أحمد الذي قرّر تأليفها، أن تترجم إلى الفارسية، الأمنية التي حقّقها الشيخ حميد الدين الفراهي (ت 11/ نوفمبر، 1930م)[3] والتي طبعت من مطبعة مفيد عام، علي كره في 1891م ثم قامت بترجمتها الأردوية بعنوان "آغاز إسلام" ميمونة سلطان شاه بانو زوجة النوّاب حميد الله خان، بوفال والتي طبعت من مطبعة ظل السلطان، بوفال في 1915م فتقول الميمونة مشيرة إلى الباعث على ترجمتها:

"كنت أرى منذ زمان أن أقوم بأداء خدمة دينية تجاه أخواتي وكانت عليا حضرت (سلطان جهان بيغم) تعرف نيتي فلذا أعطاني السلطانة الممدوحة نسخة من الترجمة

---

[1] ياد رفتغان، دار المصنفين، 1993/، ص 116

[2] حيات شبلي، ص 149

[3] مقالات شبلي، 13/2

الفارسية لـ"بدء الإسلام" لشمس العلماء العلامة شبلي النعماني وأمرتني بترجمتها الأردوية ونشرها فيما بين الناس فامتثلت بأمرها وأرسلت الترجمة لنشرها"[1].

قد نالت ترجمة ميمونة سلطان شاه بانو هذه قبولًا واسعًا فصدرت لها طبعات تالية:

1. طبعة مطبع سلطاني، بوفال، سنة 1915م في 62 صفحة
2. طبعة مطبعة مهتاب، دلهي، سنة غير مذكورة في 62 صفحة
3. طبعة مطبع رنگين، دلهي، سنة 1924م في 72 صفحة
4. طبعة يونيورسل بوكس، لاهور، سنة 1982م (عنوانها سيرة طيبة)
5. طبعة أكادمية السند الأردوية، كراتشي، سنة 1987م (ترتيب: جميل أحمد النقوي)

وكذا نشرت شركة التاج بكراتشي ترجمة أردوية أخرى لها باسم "حيات النبي" قام بها محمد حميد الله[2].

هذه الرسالة تحتوي على 54 صفحة ولو أنها موجزة إلا أنها تحوي كافة مباحث سيرة النبي المهمة اللازمة. يعرّف بها كاتبها قائلًا:

"هذه نبذة من وقائع النبوة وجملة من حوادث الرسالة جردتها من تاريخ أبي الفداء والكامل لابن الأثير والشفاء لقاضي عياض واقتبست شيئًا صالحًا من آيات القرآن فجاءت مع كونها جزءًا من كلٍ وغيضًا من فيض، كاملة للقدر الواجب جامعة لشتات المطالب"[3].

ذكرت حياة النبي المكية والمدنية تحت موضوعات مختلفة فضبطت كافة تفاصيل العهد المكي ومظالم أهل مكة تحت عنوان "إسلام عمر" وأما العناوين الأخرى فهي ابتداء الدعوة والهجرة إلى الحبشة ومقاطعة بني هاشم وموت أبي طالب وخديجة والرحلة إلى الطائف ودعوة القبائل إلى الإسلام وبيعة العقبة الأولى والثانية والهجرة إلى المدينة.

---

[1] آغاز إسلام، ص 2

[2] كتابيات شبلي، ص 41

[3] بدء الإسلام، ص 2

ثم تأتي أحداث الحياة المدنية التي موضوعاتها هي بناء مسجد قبا والمواخاة ووجوب الصلاة وغزوة بدر وغزوة السويق وغزوة أحد وغزوة حمراء الأسد وغزوة الرجيع وغزوة بئر معونة وغزوة بدر الثانية وغزوة الخندق وغزوة بني قريظة وغزوة بني المصطلق وبيعة الرضوان ورسائل النبي إلى الملوك والعمّال لدعوتهم إلى الإسلام وغزوة خيبر وإسلام خالد وغزوة موتة وفتح مكة وغزوة حنين وغزوة تبوك ووفود العرب ومرضه ووفاتهﷺ.

وبعد تاريخ هذين العهدين ذكر العلامة النعماني أسماء كاتبي الوحي والفهرس الموجز لبيت أسلحة النبي وعمّال الصدقات وتعيينهم وغيرها وكذا ذكر جدول شمائل النبي فيمكن بها تقدير احتواء هذه الرسالة على أهمّ مباحث السيرة النبوية وبها يتجلّى للقرّاء نبذة مقنعة من سيرة النبي بأسرها وبما أن هذه الرسالة كتبت للطلبة فروعي فيها مستواهم العلمي والعقلي فقد صرف النظر فيها- مثلًا- عن كافة المباحث التي لم تزل موضوع النقاش لدى أعداء الإسلام ومعاديه فلم يذكر فيها سوى تفصيل نكاح النبي من خديجة فلم تذكر فيها البقية من أزواجها وكذا أوجز ذكر غزوة بني المصطلق بما أن بعض مشتملاتها قد اعترض عليها المستشرقون والبديهي أنه لو ذكرت مثل هذه المباحث لطال حجم الكتاب فأملّ وأقلق وضاع الهدف وراء تأليف الكتاب.

يبدو من هذا الكتاب الأولي للعلامة شبلي النعماني أنه كان يكلف بسيرة النبي وأحواله وظروفه منذ عنفوان شبابه فيقول الدكتور أنور محمود خالد:

"لم تخلق هذه الرسالة عاطفة الحب والهيام في النبي في قلوب الطلبة فحسب بل قد فازت في إشعال سراج حبّ الرسول في قلب كاتبها ذاته"[1].

لم تزل هذه المحبة تنمو في قلب العلامة شبلي النعماني حتى برزت في صورة "سيرة النبي" فيمكن لنا أن نعتبر "بدء الإسلام" بذرة لـ"سيرة النبي"[2] ولمن يريد قراءة حبّ الرسول لدى

[1] اردو نثر مين سيرت رسول، ص 38

[2] مقالات يوم شبلي، ص 11

العلامة شبلي النعماني فلينظر في كتاب كاتب هذه الأسطر "متعلقات شبلي" الذي صدر من أدبي دائرة، أعظم كره في سنة 2008م.

وكذا يخمّن من "بدء الإسلام" أن العلامة شبلي كان يتعرف على مصادر ومراجع سيرة النبي خير معرفة وكان يرغب في الحصول على ما يوثق به من مصادرها والبحث على ما يعتمد عليه فقد ضبط على لوح هذه الرسالة:

"مقتبسًا من آيات القرآن وملتقطًا من كتب العلماء ذوي الصدق والإيقان كتاريخ أبي الفداء والشفاء للقاضي عياض والكامل لابن الأثير"[1].

قد قام العلامة شبلي النعماني بتأليف مقدّمة مسهبة في "سيرة النبي" تناول فيها بالبحث المشبع أصول كتابة السيرة والحيطة فيها ومصادرها ومراجعها ويلمح لنا في هذه الرسالة ما فصّله في كتابه الجامع لسيرة النبي فيقول مثلًا:

"فأما الأسفار التي دوّنت في ذلك فهي كساحة الملوك ويقع فيها الجوهر والخذف فلا تجدي إلا لمن كان من تنقيد الرواية وإمعان النظر في أعلى محل وبلغ في سعة العلم وجودة الذهن أعظم درجة وأبعد غاية وأما الذي فاتته دقة النظر وصيانة الرأي فحق أن يحجر عن الاقتحام في تلك المهامه الفجاء التي يجار فيها القطا وتقصر بها الخطا وإلا فيكون كراكب متن عمياء بل يخبط خبط عشواء"[2].

فقد كتب العلامة سيرة النبي بهذه الحيطة والعناية وكما قال الشيخ عارف العمري "إن العلامة شبلي قد مزج الآيات القرآنية بأحداث السيرة بحيث أنها أصبحت مجموعة رائعة موجزة عن السيرة النبوية"[3].

---

[1] تاريخ بدء الإسلام (لوح الكتاب)

[2] المصدر نفسه، ص 2-3

[3] مجلة "الرشاد"، عدد إبريل/2002م/8

والآن نقوم بذكر بعض مباحث هذه الرسالة فيقول العلامة عن أديان العرب حين بروز الإسلام:

"وكانت للعرب يومئذ ديانات مختلفة فمنهم من كان يميل إلى الدهر ويقول "إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدهر" ويقول إذا ذكر له البعث والنشر "أإذا كنّا عظامًا ورفاتًا أئنّا لمبعوثون" ومنهم من كان يقرّ بالوحدانية ولكن مع ذلك يعتقد أن هنالك أشخاصًا من الملائكة والأرواح تدبّر أهل الأرض فيما يرجع إلى منافع الناس وعوايدهم ولذلك اتخذوا أصنامًا على هيئاتهم المفروضة وقالوا "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" ومنهم من كان يسمّي الملائكة تسمية الأثنى. فأما الفسوق والتفاجر وسوء التعامل والتظالم بالسبي وشيوع الربوا وكثرة النكاح وتعاود الحروب والوأد وقتل الأولاد فكانوا كلهم في ذلك على محجّة واحدة وديدنٍ مشتركة"[1].

وموقف العلامة شبلي النعماني من غزو بدر مختلف عما للآخرين من المؤرخين وأصحاب التراجم والسير فيرى عامة المؤرخين أن النبي قد خرج من المدينة لكي يهجم على قافلة أبي سفيان ولكن العلامة النعماني خالف هذا الرأي مستدلًا بالقرآن. ولو أنه اختار هذا الموقف في كتابه "سيرة النبي" إلا أن نفس الموقف قد اختاره في رسالته "بدء الإسلام" فيقول موجزًا عن هذه القضية:

"ومن أمرها أن قريشًا بعدما هاجر المسلمون إلى المدينة لم يزالوا في جدّ وطلب ليدركوهم ويكيدوا بهم فجاء أبو جهل سرًا وخادع عياش ابن ربيعة وردّه إلى مكة فحبسوه وهكذا كانت صنيعتهم. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أيضًا يبعث السرايا ليعرفوا أخبار قريش ويمنعوهم فجرّت إلى الحرب وكانت وقعات ثم إنه قدم لقريش قفلٌ من الشام يقودهم أبو سفيان ومعه ثلاثون رجلًا وبلغ أبا سفيان أن محمدًا يريده فأرسل إلى مكة وأعلم قريشًا بذلك فخرج الناس من مكة سراعًا ولم يتخلف من الأشراف غير أبي لهب وكانت عدتهم تسعمائة وخمسين رجلًا فيهم مائة فرس، ولما بلغ ذلك رسول الله صلّى الله

[1] تاريخ بدء الإسلام، ص 4-5

عليه وسلّم ندب الناسَ فخفّ بعضهم وثقل بعضهم وفيهم من أراد أن يغير على القافلة فما ارتضى بذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وخرج من المدينة ليمنع قريشًا وذلك قوله تعالى "كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك في الحق بعدما تبيّن كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين" ومن أمرها أن قريشًا"[1].

ولنقرأ مقتبسًا آخر أوضح فيه العلامة شبلي معاملة المشركين والردّ عليها تحت عنوان "دعوة التوحيد" فهو يقول:

"ولما دعاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى التوحيد والإسلام وأنكر عليهم عبادة الأصنام أخذتهم العزة بالإثم فأعرضوا واستهزءوا وأكثروا من الجدل واللجاج وتشبثوا بحجج واهية وشبهات ساقطة فمنهم من يقول "أ جعل الإلهة إلهًا واحدًا" ومنهم من تمسّك بالتقليد الجامد فقال "ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا" فلما أحسّ منهم الكفر أثبت عليهم حجة الحق باستدلالات لطيفة سهل المأخذ سمح التعاطي لا تبعد عن محجتهم ولا تخرج عن نطاق دركهم فاستدلّ على وجود الخالق بشواهد الفطرة وعجائب آثارها ولما دعاهم"[2].

وفي ضوء هذه المقتبسات يمكن لنا تقدير أسلوب هذه الرسالة الكتابي بجانب مباحثها ومحتوياتها وهي حتى الآن مفيدة للطلبة ونافعة لهم، وبما أن هذه الرسالة يندر وجودها اليوم فالحاجة إلى نشرها بأسلوب تحقيقي علمي حديث وسيكون هذا عملًا مفيدًا لمن يودّ أن يعمل شيئًا عن السيرة النبوية وعن كتابات العلامة شبلي النعماني.

---

[1] المصدر نفسه، ص 20-21

[2] المصدر نفسه، ص 5

الجزية، دراسة تحليلية

- د. محمد إلياس الأعظمي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

أشنع اتهام أورده المؤرخون الأوربيون على الإسلام وحكّامه هو عن الجزية. والجزية خراج كانت تأخذه الحكومة الإسلامية من الشعب غير المسلم لصانته والدفاع عنه وقد اعتبرها الأوربيون ضريبة ملؤها ظلم وتخضيع وشهّروا عنها بأنها مما أبدعه الإسلام والتي كان يجبيها الحكّام المسلمون من شعبهم غير المسلم ظلمًا وهي كانت وسيلة ناجحة لجعلهم مسلمين.

وقد اعتنى بها المؤرخون المعادون للإسلام هذه العناية لكي ينفّروا الهندوس عن المسلمين فيقول العلامة شبلي النعماني:

"اعلم أن الجزية من أعظم ما تعلق به الأربّاويّون في القدح على الشريعة الإسلامية والحطّ عن شأنها. فمن ظانٍ يظنّ أن الجزية لم يكن لها عين ولا أثر في جيل من الأجيال ودولة من الدول وإنما الشريعة الإسلامية هي التي أحدثت هذه البدعة وأسّست بنيانها ومهّدت لها أصولها وأركانها. ومن زاعم يزعم أن وضع هذه القاعدة لم يكن إلا إذلالًا لأهل الذمة وإهانة لهم فهي آية الذل وسمة الهوان وشعار الخزي وعلامة العار حتى أنه هان على كثير من الأقوام الدخولُ في الإسلام هربًا عن احتمال الضيم والرضاء بالذل. ولأجل هذا ترى الأربّاويين إذا قرع سمعهم هذا اللفظ يمجّه سمعهم وتشمئزّ منه نفوسهم."[1].

[1] كتاب الجزية، مطبعة مفيد عام، آغره، 1312هـ/1898م، ص 2

وقد كتب العلامة هذه الرسالة القيّمة في الرد على هذا الاتهام الشنيع في 1889م وحلّل ثلاثة أمور بحيث تم الردّ على كافة التهم والاعتراضات. وهي:

الأوّل: في تحقيق لفظ الجزية والفحص عن مادته وصيغته.

والثاني: في تحقيق أن الجزية متى كان حدوثها ومن أسّسها أولًا.

والثالث: في تحقيق الغرض الذي كان سببًا لاختيارها في الإسلام.

وتحليل هذه الأسئلة تحقيقيًا وتاريخيًا أثبت العلامة شبلي أن الجزية أصلها "گزيت" وهي كلمة فارسية تعني الخراج[1] فقد تم تحديد أصولها وقوانينها في العرب وإيران قبل الإسلام فالإسلام ليس بمبدعها بل قام بإيجادها أنوشيروان والذي قرّرها لأن الجنود تخاطر بأنفسها فتصون الدولة وحدودها فكأنها أجر لخدمتها[2].

فلما فتح المسلمون بلاد غيرهم أبقوا ما قرّره أنوشيروان من الجزية بشيء من التصريف فإنّ كل مسلم كان مضطرًا إلى صيانة البلاد والدفاع عنها إلا أن الشعب غير المسلم كان بريئًا منها، وبما أن الحكومة كانت مسئولة عن هذه الخدمة فكانت تأخذها منهم أجرًا لما قامت بهذه الخدمة للدفاع عن البلاد وحدودها[3]، وكذا أثبت العلامة شبلي في ضوء المصادر التاريخية أنه إذا اتفق أن الشعب غير المسلم خدم البلاد عن هذه الجهة فلم تؤخذ الجزية منهم حتى ولو قام رجل غير مسلم بخدمة عسكرية في سنة ما عفي عنه الجزية في تلك السنة[4].

وكذا أشار العلامة إلى قدر الجزية وقال إنه لم يتجاوز عشرين روبية وحتى لم يؤخذ أكثر من هذه ممن كان يمتلك مئة ألف روبية وكانت نسبة الجزية ست روبيات عادة وهي لم تكن

---

[1] مقالات شبلي، 223/1

[2] المصدر نفسه، 224/1

[3] المصدر نفسه، 225/1

[4] المصدر نفسه، 229/1

تؤخذ ممن كان عمره أقلّ من عشرين سنة أو أكثر من خمسين سنة وكذا لم تكن تؤخذ من النساء والمعوقين والعميان والمجنونين وهكذا لم تؤخذ ممن لم يتجاوز دخله مئة درهم[1].

وقد أثبت العلامة شبلي مستدلًا بوقائع من تاريخ الإسلام أن الجزية لم تكن سوى أجر الدفاع عن البلاد وحدودها وهكذا فصّل الأقسام التي كانت تستخدم فيها الجزية كما كشف الغطاء عن الاعتراض البارز منها فهو يقول:

"من مرافق الجزية تنظيم الجيش والذب عن حمى الدولة وبناء الحصون والشوارع والقناطرة للدفاع عنها وتعميم المعارف. ولا شك أن المسمين قد استفادوا من هذا المبلغ وهم كانوا مستحقين لأنهم كانوا يحضرون الحروب فكانوا يضحّون بأنفسهم ويذبون الدولة عن كل خطر فكما استفاد أهل الذمة من أنفسهم فكذلك استفادوا من أموالهم، ولا بأس بذلك وعلى الرغم من ذلك أن مبلغ الصدقة الذي كان يجبى من المسلمين كان يشاطرهم أهل الذمة"[2].

فيتضح من هذه الشواهد والدلائل أن الجزية لم تكن ضريبة ملؤها ظلم وتخضيع ثم يسأل العلامة شبلي مؤرخي أوربا قائلًا:

"فلنسأل هل الخراج الذي مبلغه زهيد إلى هذا الحد والذي أداؤه ينجّي الجنود من المخاطر والذي قد أسّسه أنوشيروان يكون شنيعًا إلى حدّ يراه علماء أوربا؟ وهل ترك أحد دينه للهروب منه؟ وهل اعتبر أحد دينه أزهد من هذا المبلغ؟ وإن فعل أحد كما يراه المعارضون فلنفرح بخروجه من دينه. وأما ما أعطت الحكومة الإسلامية من التسهيلات والحقوق من أدّى الجزية هل حكومة أخرى تعادلها؟"[3].

فقد أثبت هذا التحقيق البديع للنعماني أن اعتراضات أوربا كانت عبثًا لا أساس لها وعلى هذا فقد تقبّل الناس هذا التحقيق البديع ونشره المطبع المجتبائي، دلهي في

[1] المصدر نفسه، 1/221-231

[2] المصدر نفسه، 1/230

[3] المصدر نفسه، 1/231

1891م في صورة رسالة وقام العلامة بترجمتها العربية لكي يعمّ الناس فائدتها فنشرت هذه الترجمة باسم كتاب الجزية من مطبعة مفيد عام، آغره في 1312هـ/1894م في 18 صفحة. لغتها سهلة سلسة وننقل فيما يلي مقتبسًا منها فيقول العلامة شبلي مشيرًا إلى سوء فهم أوربا:

"والحق أنهم غير ملومين في ذلك فإن من أحاط علمًا بنصوص المتأخرين من الفقهاء يستبين له في أول الأمر أن وضع أمثال هذه الرسوم أقصى ما يقصد به إذلال قوم وإرغام أنفها مع أن الشريعة الإسلامية أبعد محلًا وأرفع شأنًا من أن يمسّها عارٌ أو يلحقها عيب. وأبى الله إلا براءتها عن كل جور وحيف"[1].

وأعجب السير سيد أحمد خان بتحقيق العلامة شبلي هذا وكتب ما يلي:

"لا شك في أن الشيخ محمدًا شبلي بروفيسور كليتنا قد أفاد البلاد بمؤلفاته كثيرًا فالمامون وسيرة النعمان وكتبخانة إسكندرية والجزية مؤلفات فاقدة النظير فلو خاطب المسلمين وقال لهم - نعوذ بالله من ذلك- بالنسبة عن رسالته "الجزية": فأتوا بسورة من مثله" لما أتى نكرًا فلم يسع أحدًا من الكتّاب المسلمين حتى الآن أن يقوم بمثل هذا الردّ المفحم على هذا الاتهام التافه ضد المسلمين"[2].

ونظرًا لأهميتها وعموم فائدتها أمر السير سيد أحمد خان بترجمتها الإنجليزية باسم " The Jizia or Capitalion Tax" ونشرها من مطبعة علي كره انستيتيوت في عام 1884م. لم نظفر بهذه الترجمة كما لم نعثر على من قام بها[3].

وبفضل ترجمتها العربية والإنجليزية بلغ صيت تحقيق العلامة شبلي هذا إلى العالمين؛ الشرقي والغربي ونشر ملخّصها ومقتبساتها في أشهر جرائد مصر ومجلاتها ومؤلفاتها.

---

[1] كتاب الجزية، مطبعة مفيد عام، آغره، 1312هـ/1898م، ص 3

[2] مقالات سر سيد (ترتيب: محمد إسماعيل باني بتي)، ترقي أدب أردو، 1991م، 325/7

[3] حيات شبلي، ص 227

وبعد مضي مدة غير قصيرة عليها قام السيد صباح الدين عبد الرحمن بترجمتها الإنجليزية غير تلك والتي نشرت في "Islamic Culture" بحيدراباد وكذا قام الشيخ شمس الدين نامي من دهوليا (خانديش) بترجمتها المراثية والتي نشرت في مجلة "شكشك" المراثية[1].

وثم أجمع الكتّاب والمؤلفون على موقف العلامة شبلي النعماني من الجزية إلا القلائل من الكتّاب الذين لم يرجعوا عن موقف الأوربيين منها وعلى هذا فقد قام الشيخ سعيد الأنصاري أحد تلامذة شبلي المبرزين بكتابة مؤلف حافل بالموضوع لم يترك فيها جانبًا من جوانبها المتعددة فنشره مكتبة خدابخش الشرقية العمومية بفتنة (بيهار) في 1995م ومن المؤسف جدًا أننا يبلغنا صدى ما أورده الأوربيون من الاتهام ضد المسلمين، الأمر الذي يجبرنا على أن نقوم بترجمة هذه الرسالة إلى اللغة الهندية عسى أن ننجح في سدّ هذا السيل الجارف.

[1] مجلة "معارف"، يوليو/1924م؟4

المأمون، دراسة تحليلية ونقدية

- السيد صباح الدين عبد الرحمن

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

ألّف العلامة شبلي كتاب "المأمون" في 1087م حينما كان يدرّس في كلية M.A.O وكان وراء كتابته عواطف بعضها يختلط بالبعض فكان علماء أوربا يسمّمون الجوّ العلمي بغاراتهم المنشورة على خلفاء الإسلام وسلاطينه فأراد العلامة شبلي أن يوفّر ترياق هذا السمّ كما تفكّر على قدم ظهور الإسلام وسعة نطاق فتوحه فحكم المسلمون من مكة إلى الهند واتسع الحكم الإسلامي البر والبحر كليهما ودخلت الأجيال العديدة المختلفة في الإسلام حتى أصبح جيلٌ يسمّى المسلمين وأصبح تاريخ هؤلاء المختلفين لونًا ولغة، تاريخَ الإسلام وأتباعه، وضبطت أيامهم وأخبارهم في معظم لغات العالم إلا أنّ اللغة الأردوية محرومة منها بينما أصبحت هذه اللغة لغة علمية وأدبية. والعائق الكبير في هذا السبيل كان هم العلماء الهنود الذين كانوا قد عضّوا نواجذهم بالعربية فلم يكونوا يكتبون شيئًا إلا بها وكتابة شيئ أو تأليفه بالأردوية كانوا يعتبرونها عارًا عليهم. هذا وكان الجيل الجديد يودّ من أعماق قلبه تطوير لغته الأمّ فكان المحدثون ينشرون كلّ ما ينشرونه بهذه اللغة وفي جانب آخر أنهم كانوا لا يعرفون اللغة العربية فكانوا يجهلون عن خزينتها تاريخ الإسلام وأتباعه. وعلى هذا فقد مال الكتّاب إلى تأليف التراجم والكتب التاريخية بهذه اللغة إلا أنها حتى الآن حرمت ما ادّخرته العربية والفارسية من تراجم الحكم الإسلامي وخلفائه وسلاطينه المسهبة فأراد العلامة شبلي تدوين تاريخ مفصّل للحكم الإسلامي بهذه اللغة. كان هذا مشروعًا كبيرًا للغاية ويتطلب وقتًا كافيًا لا يسعه كاتبٌ واحدٌ فضيّقه في تاريخ بني العباس وبلغ الخليفة المعتصم حتى تيقّن ضخامته فتركه ومال إلى كتابة تاريخ بطل من خلفاء كل عهد وسمّاه بـ"أبرز أبطال الإسلام" وانتخب من بين العباس المأمون فكتب بالأردوية ما يفقد نظيره في احتوائه وثقة مراجعه.

وقد قرأ، قبل تأليفه، كتابات غبن وكارلائل وبكل وهيغل وغيرهم وكان متأثرًا بإبداعاتهم الفلسفية ونتائجهم التاريخية وكان يعتبرها روحَ فنّ التاريخ، وبالعكس من ذلك فإنه كان

يسوء ظنه بأسلوب تدوين تاريخ المؤرخين الآسيويين فهو يقول: إذا أردت أن تتعرف على مدنية عهد ما وقوته العسكرية ومناصبه الحكومية ونظم دولته وقوانين محكمته وعادات الناس والتقاليد فيه فيصعب عليك المعرفة بها فهم يكتبون الآلاف من الصفحات في تولّي العرش والنزاع الداخلي وفتوح الدول والعدوان المحلي وعزل العمّال ونصبهم فهم لا يستنبطون بها نتائج تاريخية دقيقة، ولو أن العلامة شبلي يرى مع ذلك أنّ هذا خطأ تاريخيًا أن نجعل نظم الدولة الحاضرة ميزانًا لنظم الدول الآسيوية القديمة فننال من عزتها ونقلّل من منزلتها.

وفي ضوء هذه العواطف المختلطة والعزائم العالية شرع العلامة شبلي يؤلّف "المأمون" ولكنه حينما فرغ من تأليفه يقول: لم نكتب عشر ما ينبغي ضبطه (ص 244) ومع أنه أتمّ منه جزئين ففي الجزء الأوّل تحدّث عن مولد المأمون وتعليمه وتربيته وولاية العهد وتولّي العرش وفتوحه ووفاته وأما الجزء الثاني فيفصّل تلك الأمور التي يقدّر بها أوضاع الدولة في ذلك العصر وأخلاق المأمون كما يفصّل تلك المآثر التي تميّز بها عهد المأمون عن عهود كافة ملوك العالم.

وعند دراسة هذا الكتاب يخلّ بأذهان العامة أشياء: فقد كتب العلامة في فاتحته أنه يعترف ببطولة عمر فيما بين الخلفاء الراشدين، والوليد بن عبد الملك فيما بين خلفاء بني أمية، مأمون الرشيد فيما بين خلفاء بني العباس، وعبد الرحمن الناصر فيما بين خلفاء بني أمية في الأندلس، وسيف الدولة فيما بين خلفاء بني حمدان، وملك شاه فيما بين الملكوك السلاجقة، ونور الدين الزنغي فيما بين السلالة الملوكية النورية، والسلطان صلاح الدين فيما بين السلالة الملكوية الأيوبية، ويعقوب بن يوسف فيما بين موحّدي الأندلس، وسليمان الأعظم فيما بين الترك الروم فينبغي له أن يبدأ هذه السلسلة بعمر الفاروق، ولكنه بما أنْ عزم على تأليف كتابٍ مستقلّ به فلنسمحه تركه ولكنه يجب عليه أن يبدأ بالوليد بن عبد الملك ولكن ما هو السبب وراء تجاوزه إلى المأمون فهو يعتذر كما يلي:

"فالجزء الذي أقدّمه للقرّاء يتعلق بتاريخ مأمون الرشيد ولذا فقد سمّيته بـ"المأمون" متأسفاً كذلك على أني لم ألتزم بالترتيب المذكور أعلاه لأسباب وبواعث فتركت الخلفاء الراشدين وبني أمية وتجاوزت إلى الأسرة التي كانت على الدرجة الثالثة ولعلي لا أقدر على

الالتزام بالترتيب في الأيام القادمة ولكني عازم على أني مكمّل كافة أجزاء هذه السلسلة بأيّ طريقة كانت، لو ساعدني الدهر ورافقني العمر" (المأمون، ص 9)

ولكن لم يوافقه الدهر فلم يوفّق إتمام هذه السلسلة. والأمر الثاني الذي يخلّ بأذهاننا هو لِمَ فضّل مأمون الرشيد على هارون الرشيد بينما يبدو من كتاباته أنه قد تأثر بهارون الرشيد شديدًا فما كتبه في أسطر لا يعادله كتابات الآخرين في صفحات فهو يقول:

"كان هارون الرشيد خليفة ذا شوكة وأبهة فشنّ غارة على الروم خلال الأمارة وبلغ خليج القسطنطنية مسخّرًا البلاد ولما تولّى عرش الخلافة وسّع في حدود الإسلام الدولية إلى حيث لم يبلغها الدولة العباسية قط. أنكر قيصر الروم دفع الخراج مرارًا عديدة إلا أنه قد كسر كبحه كل مرة. إنه قام بتدمير هرقلة (Hergla) عاصمة القيصر[1] وأجبره على أن لا تستعمر من بعدُ وبما أنه كان ذا شوكة وأبهة وأشرف على العلوم والفنون فقد طار صيته في الآفاق ولقد أثار تقديره للعلم والفن شوقًا في قلوب العلماء والفنّانين إلى ورود بلاطه وهكذا فقد أصبح بلاطه مركزًا للعلم والفن. كان هو ذاته موهوبًا ومؤهّلًا وجلساته العلمية هي التي نفخت روحًا جديدة في الإبداعات الأدبية" (المأمون، ص 19)

ولكنه مع ذلك لا يبدو راضيًا عن اعتباره بطلًا له فذكر السبب كما يلي:

"والواقع أنه لو لم يكن ذيل عدله مصبوغًا من دماء البرامكة لما وقعت عيننا على خيار أحد آخر سواه" (المأمون، ص 19-20)

ولكن يخلّ بأذهان القرّاء أنّ ذيل المأمون لم يكن بريئًا من دماء العديد من الرجال فقد جعل أمين الرشيد ولي العهد للهارون باتفاقية بينهما فأعطي المأمون خراسان وهمدان ولكن الاختلاف وقع بين الأخوين فتبعه الحرب الأهلية التي قتل فيها طاهر الأمين وقدّم رأسه في جنة للمأمون وأما ما حدث بعد ذلك فلنسمع بقلم العلامة ذاته:

[1] كانت هريكلي مدينة معمورة وشهيرة للغاية في آسيا الصغرى، وكانت هي عاصمة القياصرة للأسرة اليونانية الملوكية. يسمّيها المؤرخون العرب بـ"هرقلة" وقد تم خرابها الآن وضاق نطاقها في مدينة عادية للغاية.

"-- فقد جعله سرور هذا الفتح المفاجئ صلب القلب إلى حدّ نظر إلى رأس أخيه المقطوع بعين السرور وسجد شكرًا لله وأعطى عشرة آلاف درهم للرسول كجائزة ثم عقد جلسة عظيمة حضرها كافة أركان الدولة ومسئولي الجيش لتهنئته بهذا الفتح فقرأ ذو الرياستين كتاب الفتح على رؤوس الناس فهنأه الحضور من كلّ جانب. ولو أن السرور قد غلب المأمون آنذاك إلا أنه قد تأثر بقتل أخيه بعدما تذكّره وقتَ نهاية هذه الجلسة فكان المأمون يتأسف على هذا الحدث فلم توزن محاولات الطاهر في عينيه فتيلًا.

كانت زبيدة أمّ الأمين حاضرة القصر إذ جاء أحد الخواص وقال لها: أنت جالسة هنا والحال أنّ أمير المؤمنين قد قتل" فقالت زبيدة: ثم ماذا أفعل؟ فأثارها على أن تأخذ ثار ولدها كما ادّعت عائشة أخذ ثأر عثمان فقالت زبيدة: لا أملك ما للناء وطلب الدماء"[1] ثم كتب هذه الرسالة المنظومة إلى المأمون[2]:

لـــوارث علـــم الأولـــين وفهمـــــــــهم ... وللملـــك المأمـــــــون مـــن أمّ جعفـــر

كتبـــت وعيـــني تســـتهلّ دموعـــــــها ... إليـك ابـن عمّي مـن جفـوني ومحجـر

وقـــد مسّـــني ذلّ وضـــــــــرّ كآبـــة ... وأرقّ عينـــي يـــابن عمّـي تفكـــــــــر

إنـــي طـــاهر لا طهّـــر الله طاهـــــــــراً ... فمـــا طاهـــــــــر فيمـــا أتـــى بمظهـــر

فـــأخرجني مكشـــوفة الوجـــه حاصـــرًا ... وأنهـــب أمـــوالي وأخـــــــــرب أدوري

بعـــــــــر علـى هـــارون مـــا قـــد لقيتـــه ... ومـــا مـــرّ بـي مـــن نـــاقص الخلـق أعـــور

---

[1] تبتدئ خلافة المأمون المستقل بها من هذا اليوم فقد ذكر الكاتب العباسي ابن الواضح الذي كان زمانه أقرب من زمن المأمون، ذكر خلافة المأمون المستقل بها من هذا اليوم ونقل زيجاً لتولّيه عرش الحكم طبقاً لأصول العلم النجوم، وبما أني لا أعرف مصطلحات النجوم جيداً وزدْ عليه ترغيب العصر الحديث الناس عن هذا العلم فلم أنقل ذلك الزيج هنا.

[2] وقد نسب ابن الأثير هذه الأبيات إلى خزيمة ابن الحسن بينما عزاها صاحب "العقد الفريد" إلى أبي العتاهية، راجع: العقد الفريد، 2/2

فــإن كــان مــا أبــدى بأمــــــــر أمرتــه صــبرت لأمــر مــن قــدير مقــــــــدّر

فلما قرأ المأمون هذه الأبيات بكى وقال: بالله سأخذ ثأر أخي"، ثم اتهم المأمون بقتل هرثمة ذي الرياستين، ابن عائشة، ومالك، وزريق. وقد تناول العلامة جلسات لهو المأمون بكل تفصيل وهو لم يكن يرضى عن عقائده الدينية فهو يقول: يصرح المؤرخون السنيون عن محاسنه وفضائله ثم يتحسّرون على تشيعه بينما لا يرضى عنه أهل التشيع فيتهمونه بقتل علي الرضا" (المأمون، ص 212) ويمضي العلامة قائلاً: العاطفة الدينية قوة شديدة وهي دائمًا جاءت بآثار معجزة في التاريخ ولكن من الأسف أن المأمون لم يستخدمها لعمل مفيد بل لا نتجاوز الحق لو قلنا أن هيامه الديني هو الذي ذهب بكافة محامده" (المأمون، ص 28)

وعلى الرغم من هذه المساوئ فقد اعتبره العلامة بطلًا له فيقعد القارئ حيران في البداية ولكنه إذا صفحنا عن مساوئه فتصبح كفة محاسنه راجحة فسعة حدود حكمه، ونظام جباية الخراج، وجباية أموال الزكوة، ورواتب الجيش وإقناعهم، ورواج الأمن والإنصاف في استعمار البلاد، واحترام حقوق الأجانب، وذوقه العلمي، وبناء المراصد، وترجمة الكتب الفلسفية، ونشر العلوم، وتقدير أرباب الفضل، وعقد المجالس العلمية، وفصاحته وارتجاله وبلاغته وشعره وحلمه وسذاجته وسخاؤه وحبّه للرسول وأهل بيته وغيرها من المحاسن التي قد أقلّت درجة الخلفاء العباسيين دونه فإن لم يتفق أحدٌ بما فعله العلامة إلا أنّ له حقاً لإحكام أمر أو آخر.

لا يني قلم العلامة في الثناء على المأمون ولكن تقتيل أخيه الأمين وأنواع لهوه وجنونه الديني لم يحاول العلامة أنْ يخفيها على القرّاء بل فصّلها تفصيلًا فقد انتقد الجانب المتجاوز لرحمته قائلًا: لم يكن هذا يلائم وشأن الخلافة (ص 195) وهو أيضًا قال: بجانب محاسنه العديدة فقد صدر منه أنواع من المظالم لاستقلاله بالحكم، تقشعرّ بتخيلها القلوب وتنمحي بها محاسنه كلها أمام الأعين (ص 128) هذا كله دليلٌ على عدم عصبيته التاريخية ولكن هذا من إعجاز قلمه البليغ الفصيح أنّ القرّاء يتأثرون بمحاسن المأمون، كما حدث مع العلامة، ولو أنهم ينظرون بأعين رؤوسهم ما ارتكبه المأمون من أنواع الظلم.

قد مضى أنّ العلامة قد اعترف حين نهاية هذا الكتاب أنه لم يكتب عشر ما ينبغي أن يكتب فلنر، صارفين النظر عما جابنه تفصيل أحداث التاريخ، أنما كتبه العلامة كيف هو وأيّ أسلوب اختاره والذي أفاد النثر الأردوي فالبديهي أن هذا تاريخ ينبغي أنْ يكون أسلوبه فيه ما قد اختاره المؤرخون فنرى العلامة ناجحًا في هذا فيودّ العلامة أنْ يثبت أنّ بطله وحيد عصره ولإرساخ هذه الحقيقة يختار العلامة أسلوبه المؤثر فيقول مثلًا:

"وهو الذي قد خلف ذكريات ملموسة وذات شهرة في أرجاء العالم المعلومة بفضل فتوحه المليئة بالرجولة والشجاعة. فمن ير محامده في معارك الشجاعة فلن يتيقن أنّ هذه الأيدي الشديدة قد مسّت القلم مرة ما كما أنّ أخلاقه الشخصية طاهرة وعالية تفقد نظيرها لدى القليل من النسّاك والدرويشين" (المأمون، ص 127-128)

"قد مضى ثلاثة عشر قرناً أو أكثر على وجود الإسلام ولم يمض خليفة خلال هذه المدة الطويلة يضاهي بالمأمون في الفضل والكمال، وهذا من الأسف الشديد أن نسبته بالحكم قد ألحقته بالملوك والسلاطين وإلا فهو من الرجال الذين يرحّب بهم بكل عزة واحترام في كل جلسة من جلسات الشعر وأيام العرب والأدب والفلسفة" (المأمون، ص 178)

ثم أثبت هذه الدعوى بأشياء لا مناص للقراء من الاعتراف بها. وفي موضع نقل العديد من أقواله الحكيمة التي تنبئ عن أسرار حكمه وهو كان يقول إن الشريف من يخضع الكبار ويخضع للصغار، ولا منظر أمتع لعقول من مشاهدة الحرب، والتذلل لا يسوغ للملوك، وأشدّ من ذلك أن القاضي لا يقدر على إقناع الخصمين فيقلق وأشدّ من كليهما ظرافة المسنين، وكسل الشباب، وجبان الجنود، وأمتع مجلس يتعرف فيه البعض على أخبار الآخر.

وبعد إمتاع القرّاء بهذه الأقوال الحكيمة يقول العلامة:

"قد أجمع المؤرخون عن المأمون على أنه لم يمض خليفة عباسي أفضل منه حلمًا وعزمًا وعقلًا وتدبيرًا وصورة وشجاعة وعلوًّا في الهمة وجودًا، ولم يكذب المأمون في دعواه إذ قال: كان معاوية يتحمّل عمرو بن العاص بينما يستاس عبد الملك من الحجاج، وأما أنا فأتحمّل نفسي" (المأمون، ص 194)

قد احتوت هذه الجمل القصيرة ما لن يمكن تفصيلها في صفحات، ولإحكام هذه الدعوى يقول هو:

"كان هارون الرشيد يكثر القول أني أرى في المأمون جزم المنصور وعبادة المهدي وشوكة الهادي" (المأمون، ص 194)

ويمضي قائلًا:

"وإن زيدت عليها صفاته من العفو والتواضع وعدم التكلف والسذاجة فسيحيط المأمون بفضله بكافة ملوك وحكّام الإسلام دون الخلفاء العباسيين" (المأمون، ص 154)

ولعل مؤرخًا ملمًّا بالموضوع لا يتفق مع هذه الآراء ولكن العلامة قد ذكر أخبار ووقائع تواضعه وحلمه وعفوه ومصانعته الدينية وسخائه وعلوّ همته وشجاعته وعقله بأسلوب ممتع للغاية لا يقعد القرّاء غير متأثرين بكلامه مع الشعور بعصبيته للمأمون فكأن العلامة أراد أن يثبت المأمون بطلًا وقد فعل ما شاء فلو كان الناس يمطرون شآبيب اعتراضهم عليه إلا أنه قد أثبت ما ادّعاه بأسلوبه الممتع الجذّاب فعندما يضبط أحداث التاريخ فيختار جوًّا لا يخلو القرّاء من التمتع به ولنر بعض نماذج أسلوبه وخلقه جوًّا ملائمًا. إنه يلقّن القرّاء إنصاف المأمون كما يلي:

"فذاتَ يوم قبض شرطي على أحد لكي يستخدمه بدون أجر فلما علم العامل عن الأصل استغاث عمر رضي الله عنه فلما علم عنه المأمون دعا الرجل وقال لو كان شعبي مثل شعب عمر لأوليت نعمًا أكثر مما قام به عمر ثم أعطاه جوائز وعطايا وعزل الشرطي عن خدمته" (المأمون، ص 150)

ولنسمع قصة سخاء المأمون على لسان العلامة كما يلي:

"وإن يمكن الاعتراض على جانب المأمون للجود فهو أن شفقته قد تجاوزت حدّ الاقتصاد، الأمر الذي قد شغفه عن أشغاله الشخصية فقد كانت الشعراء القادحون يقرضون القضائد في هجائه ولكنه لم يستأ من حديثهم وحتى قد كان خدّامه يسيئون إليه ولكنه لم يتوجّه نحوهم. فقال دعبل[1] في بعض أبياته في هجو المأمون:

شــادوا بــذكرك بعــد طــول خمولــه واســتنقذوك مــن الحضــيض الأهــد

[1] دعبل من أشهر شعراء زمنه في الهجاء

فلما سمع المأمون هذا الهجو لم يقل إلا "دعبل! تكذب هذا القدر، أفلا تستحي، هل كنت خمولًا يومًا ما فإني قد ولدت في حضانة الخلافة وارتضعت منها وترعرعت في بحبوحتها" (المأمون، ص 152)

ويصوّر العلامة سعة اطلاع المأمون كما يلي:

"ذات مرة تجمّع على خوان المأمون العديد من الضيوف الكرام يوم عيد الفكر، وكان أكثر من مئة نوع من الأطعمة موضوعة على المائدة. كان المأمون يشير إلى خصائص كلّ طعام بأنّ هذا مفيد لمن مزاجه بلغمي وأنّ هذا نافع لمن مزاجه سوداوي، ومن يعاني من شدة الصفراء فليحذر هذا النوع من الطعام ومن يعتاد على تقليل الغذاء فليأكل هذا الطعام. كان الحضور متحيّرين من اطلاع المأمون على هذه الأنواع من الأغذية. لم يصبر القاضي يحيى بن أكثم على هذا فقال فورًا: أمير المؤمنين! على أيّ صفة منك نثني؟ فإن ذكر الطبّ فأنت جالينوس وقتك، وإن ذكر النجوم فأنت هرمس زمانك، وإن ذكر الفقه فأنت تضاهي بعلي المرتضى، وإن ذكر السخاء فأنت تسبق حاتمًا، وإن ذكر الصدق فأنت كمثل أبي ذر الغفاري، وإن ذكر الوفاء فأنت تسبق السموأل" فلما سمع المأمون هذا الثناء الصادق غمره السرور فقال: نعم، كلما يتصف به المرء يناله بعقله وإلا فأيّ خصوصية تكمن في الدم واللحم" (المأمون، ص 184)

وقد قدّر المأمون علماء عصره تقديرًا فيذكره العلامة كما يلي:

"كانت صحبة المأمون مع العلماء صحبة الصديق لصديقه فهو كان يكرّم الفضلاء في أيّ علم وفن وكان يمطر عليهم شآبيب جوده وسخائه فقد كتب الواقدي إمام فن السيرة ذات مرة وشكا فيه بؤسه وعدّد القروض التي كانت عليه فردّ عليه المأمون هكذا: فيك عادتان؛ الحياء والسخاء فقد فتحت السخاء يديك فبذلت ما كنت تمتلك وأما الحياء فلم تشر إلى حاجتك كلها. إني أمرت فسيصلك ضعف ما أشرت إليه وإن لم يكف هذا القدر حاجتك فهذا نقص قلمك القانع وإن كفاك فأنت مسموح في بذل ما بيديك وكيف شئت فلا قلة لدى الله فقد روي لي أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال لزهير إن مفاتيح الرزق في العرش فيرزق الله عباده قدرما يبذرونه فإن بذّروا فيعطيهم أكثر من ذلك وإن أظهروا الشحّ فلا

يعطيهم إلا قليلًا". قد كان نسي الواقدي هذا الحديث فقد سرّه تذكير المأمون حديثًا نسيه هو ذاته أكثر مما سرّه العطايا التي وصلت إليه" (المأمون، ص 191-192)

وكذا يصوّر الحروب التي وقعت بين الأمين والمأمون بحيث لا يشعر القرّاء بالخشونة أو الملال فعندما يدرس القرّاء تفاصيل يقظة المأمون ولهو الأمين فيجدون لذة قصة ممتعة. والواقع أن الإنشاء يري سحره حين بيان الشعر والأدب ولكن يتجلّى كماله وجوهره حينما يتناول موضوعات مملّة أمثال اعتداءات البلاد أو جباية الخراج أو تنظيم الأراضي أو مسح الأرض فقد أرى العلامة في كتابه هذا ما يثبت أنه كاتبٌ فصيح ممتع ولو يتحدث عن مثل هذه الموضوعات، ونعم وعندما تأتي مناسبات الطرب فتتحوّل كتاباته إلى أجذب وأمتع مما ذات قبل فمثلًا إنه يذكر مناسبة زواج المأمون فهو يقول إن زواجه أكمل نموذج للتبذير في المناسبات ولكنه إن تجنب تفاصيله مبغضًا له لكان خيرًا للعلامة ولكنه قد تأثر بما حدث كمؤرخ ولذا فهو يقول إن المؤرخين العرب يدّعون أن هذا الزواج يفقد نظيره في الماضي والحاضر وقال إن أحدًا لم يقم بالاعتراض عليه كما أدري ثم يميل إلى التعريف بالعروس كما يلي: أن هذه البنت السعيد التي تزوّج بها المأمون كانت إحدى بنات الحسن بن سهل الذي أصبح وزيرًا بعد موت الفضل. إنها كانت تسمّى "بوران" وكانت مثقفة للغاية ثم يرجع إلى من موكب العريس فيقول:

"توضّف المأمون مع كافة أفراد أسرته وأعضاء الدولة ومسئوليها وخدامها لدى الحسن فوضّفهم لتسعة عشر يومًا بكل نوع من الجود حتى بدأ كل وضيع وشريف يقضي حياة الترف لبضعة أيام، وقد نثرت الآلاف من قروص المسك والعنبر على كل ضيف وخادم، كتب عليها النقود والأعداد المعيّنة من الإماء والأرقاء والممتلكات والملابس والفروس والخواص والعقارات.

وقد أمر من خلال التهافت على النثر بأن يحضر المرء بما يظفر به من القروص إلى وكيل المخزن فينال نصيبه بينما نثرت قروص المشك والعنبر والدراهم والدنانير على العامة. وقد وضع للمأمون فراش جميل موضوع من الخيوط الذهبية ومرصّع بالجواهر واليواقيت

فلما جلس عليه المأمون فنثرت على قدميه درر ثمينة زادت الفرش المذهّب زينة على زينة فأنشد المأمون شعر أبي نواس الشهير وقال كأن أبا نواس قد رأى بعينيه ما قال:

كــأن صــغرى وكــبرى مــن فواقعهــا حصــباء درّ علــى أرض مــن الــذهب

ولما جلس العريس والعروس معًا ليل الزفاف فنثرت جدة بوران ألف درّ ثمينة على كلّ منهما، وقد خمّنت تكاليف هذه المناسبة خمسين مليون درهمٍ" (المأمون، ص 201-202)

لا يوجد في هذه الجمل أي تكلف ولا كلمات فخمة كما توجد في جمل الكتّاب العباسيين إلا أنها أصبحت فصيحة وجذّابة فقد بذّر المأمون مما يحتسب في هذه المناسبة فلم يأل العلامة أي جهد في تصويرها مما أصبح الآن نموذجًا صالحًا للنثر المنظوم، اقرأ ترجمته:

"وكانت هناك طائفة أخرى غير هؤلاء المغنين كانت تزيّن جلسات المأمون الخاصة وزدْ عليها عذارى آسيا الجميلة اللاتي كنّ يأسرن في الحرب كن يبعن بثمن بخس على أيدي السماسرة وكانوا يعلّمونهن الموسيقى والشعر وأيام العرب والأدب وجودة الخط والفكاهة والارتجال وبعد ذلك كانوا يبيعونهن بأثمان باهظة في الأسواق. كانت هذه الحور يجتمعن في حجرة المأمون الخاصة اللائي قد أثقل شراؤهن بيت المال فذات مرة عرضت أمة للبيع وطلب البائع ألفي دينار على فضلها وكمالها وفصاحتها وأدبها وقريضها فقال المأمون: إني أنشد شعرًا لو أنشدت الأمة شعرًا آخر في الردّ عليه مرتجلة لأعطيتك أكثر مما تطلبه فأنشد المأمون الشعر التالي:

مـــا تقـــولين فـــيمن شقّـــه أرق مــن جهــد حبّــك حــتى صــار حيرانــا

فارتجلت الأمة ما يلي:

إذا وجـــدنا محبًّـــا قـــد أضـــرّ بـــه داء الصـــبابة أوليـــاه إحســـــانا

(المأمون، ص 209-210)

كان العلامة يرى أن مثل هذه التنظيمات والتنسيقات لا يسيغها الإسلام فهو كتب ما كتب أولًا بعواطب مؤرخ أديب:

"ولو أن أنواع اللهو والترف كانت من خصائص جلسات المأمون ولكن من العدل أن هذه الجلسات لم تكن خالية من الذوق العلمي البتة. فمثل هذه الجلسات التي تثير في الحضور عواطف شعرية لو عقدت بأدب واتزان لتركت أثرًا قويًا واسعًا على الأدب فقد كان المأمون نفسه شاعرًا وبارعًا في الموسيقى وكذا كان ندماؤه وجلساؤه لطيفي الخيال وفاهمي الأدب وكانوا يبدعون نكتًا شعرية بكل كلام كما كانوا يناقشون الموسيقى وتارة كان الشعراء يقرضون أبياتًا على بيت شعري مرتجل للمأمون فذات يوم كان الشعراء مجتمعين فيشربون ويأكلون وكانت عشرون أمة نصرانية حاضرة الجلسة في ملابس من الديبا الرومية ومعلّقات صليبًا ذهبيًا في أعناقهم وفي ظهورهن زنانير ذهبية وفي أيديهن باقات للأزهار، لم يكن هذا المنظر مما يصبر عليه المأمون فارتجل أبياتًا ودعا مغنيًا اسمه أحمد بن صدقة وأمره بتغنيتها فلما بدأ أحمد الغناء تبعته الإماء راقصات فكانت عيونهم الحوراء وشدة الخمور لم تدع المأمون إلا نشوان سكران فغمره السكر حتى أمر بأن تنثر ثلاثة آلاف جنيه على أقدام هذه الإماء" (المأمون، ص 210)

ينبغي لنا أن نتجنّب الرأي الديني على هذه التنسيقات ولا ما صدر من هذا القلم هل يليق بقلم العلامة أم لا. والآن لنر ماذا كتب العلامة كعالم ديني فهو يقول:

"ويتعجب قرّاء هذا الكتاب الذين قد وجدوا المأمون متحدثًا عن الفقد والحديث تارة وأخرى سمعوا عن إصغائه إلى أحاديث العلماء البارعين يتعجبون من أنه جالس بين الندامى ويتحدث مع أحبائه بدون تكلف ولا حياء فهو يشرب الخمر بين ظهراني العذارى البيضاء، ويرى أنواع الرقص ويسمع إلى الأغاني الموسيقية" (المأمون، ص 205)

ثم يقول:

"ولقد كان المأمون مجتنبًا عن الأغاني والرقوص في بداية الخلافة للعشرين من الشهور ثم تاقت نفسه إليه بعد مدة ولكنه لم يخض فيه إلا قليلًا. بقي على هذه الحالة حتى أربعة أعوام ومن ثم وقع في هذه الورطة حتى لم يكن يصبر بدونها" (المأمون، ص 205)

ثم يصوّر لهو المأمون فيقول:

"ولكن لو أنصفنا فلا نتعجب من هذه كلها فإن الحرية وعلوّ الهمة ولطافة الطبيعة ووفور الشباب كلها كنت ولا تزال تعتدي على الحكومة الزاهدة فلا نخصّص المأمون في

هذا الشأن فإن المجتمعات الإسلامية في تلك الأيام كانت غريقة في مثل تلك الأوهام والبلايا" (المأمون، ص 205)

هذا ما بيّنه عن الواقع فقد خاض في مثل هذه الخرافات كل الحكّام والملوك سوى القليل النادر ولكن الأسف كل الأسف أن المأمون كان حاكمًا للحكومة الإسلامية وكان يسمّي نفسه خليفة للمسلمين فهل كانت معاملته هذه صحيحة فقد علّق عليها العلامة بكل أسف بالغ:

"فإن المجتمعات الإسلامية في تلك الأيام كانت غريقة في مثل تلك الأوهام والبلايا" (المأمون، ص 206)

المراد من المجتمعات الإسلامية ليست العلماء والفضلاء بل هي الطبقة الحاكمة كما يكتب العلامة فيما يلي:

"فالمأمون كان قد تيسّر له في تلك الأيام الأمن والفراغ والطمأنينة والمال، هل بقي شيئ يعرقل سبيلهم إلى المكاره فلم يكن سوى الدين الذي يرجى منه صدّ السبيل ولكن الطبائع المجتهدة تيسّره لما هي تريد ولو بعد تأويل فكان النبيذ يقوم مقام الخمر، والذي قد سوّغه فقهاء العراق عادة. وتشريع الإماء قد كفى كافة سبل اللهو وأما الموسيقى فهي كانت جزءً لا يتجزأ من الروعة والكمال" (المأمون، ص 206)

هذه الجمل يملأها القلق البالغ فيقال أنما كتبه العلامة قد صدر منه في الدفاع عن بطله فإن نعتبره دفاعًا فهذا هزء بالمجتمع العام في ذلك العهد بل بالعلماء مما لن يمكن تحريره إلا بقلم العلامة المؤرخ الواقعي.

هذا من إعجاز قلم العلامة أن يخلق الألم في جوّ اللهو فمثلًا الفترة التي كانت الجنود تقاتل ضد الأمين وقد أحاطوا بمدينة المنصور وقصر زبيدة وقصر الخلد وكان يناصر الأمين عمّه إبراهيم الذي كان أبرع العرب في الموسيقى فهو يقول:

" في هذا الحصار كان يرافق الأمين إبراهيم بن المهدي أخو هارون الرشيد وكان فاقد النظير في فنّ الموسيقى فهو يروي أن الأمين خرج ذات يوم من القصر لكي ينتزه فقال لي مخاطبًا: إبراهيم! انظر ما أرفه ليلة هذه فالقمر يطلع على صفو ويبدو أجمل وأحسن كلما يعكس على دجلة فأي شيء نحتاج إليه في هذه المناسبة اللطيفة، الخمر فقلت له:

سمعًا وطاعة، فجيئ بالخمر فقدّم الأمين الكأس فأنشدت بعض الأبيات طربًا فقال الأمين: إذا كانت هناك نغمة فلا بدّ من ضرب الأوتار فجيء بمغنية فسألها الأمين عن اسمها فقالت: ضعف، فتوحش الأمين بهذا الاسم القبيح ثم طلب منها أن تغنّي فغنّت ما يلي:

كليـــب لعمـــري كـــان أكثـــر ناصـــراً وأيســـر حزمـــاً منـــك مـــزّح بالـــدم

فتكدّر صفو الأمين مزيدًا وطلب منها أن تغنّي شيئًا آخر فغنّت ما يلي:

أبكـــي فـــراقهم عيـــني فأرقهـــا إن التفـــرق لأحبـــاب بكـــاء

فأنغض الأمين مزيدًا وقال ساخطًا: ويل لك! هل بإمكانك أن تغنّين غير هذا فقالت: إني غنّيت من الأبيات ما سيسرّ جلالتكم ثم غنّت بضعة أبيات محزنة فغضب منها الأمين وطردها فلما قامت عثرت من كوب بلوري كان يسمّيه الأمين بـ"زب الرياح" فسقطت على الأرض وبسقوطها تكسّر الكوب فخاطبني الأمين وقال: انظر ماذا حدث اليوم، لعله قد انقضت أيامي ومن خلال هذا الحدث جاء صوت من جانب "قضي الأمر الذي فيه تستفيان" فسألني الأمين: هل سمعت شيئًا. فقلت له: لم أسمع شيئًا ولكني مع ذلك قمت إلى النهر ولكن لم أجد أحدًا فرجعت إلى مكاني وشغفني الحديث فجاء الصوت نفسه مرة أخرى فقام الأمين يائسًا من الحياة وقتل بعد ذلك بيومين أو ثلاثة" (المأمون، ص 54)

فقد خلق الألم في هذا الجوّ المليء باللهو ولقد أخذ العلامة ما كتب من المصادر العربية فإن نقم بالموازنة بينه وبين ما كتب بالعربية فلعلنا نجد أن أسلوب العلامة أجود وأجذب منها فيجعل قلم العلامة يغنّي حينما تأتي مناسبة اللهو فكتابته ترقص مثل أمة حسناء وتبدو كلماته مجموعة الحور العين وأما البلاغة فهي تقوم أمامه بالخمر المسكرة. ولكن نحتاج إلى أن ندرس هذا الكتاب من حيث إنه حينما تأتي مناسبة المأساة فكيف يتحوّل قلم العلامة، وخير نموذج لهذه المناسبة منظر وفاة المأمون. إقرأ وتلذّذ بكتابة العلامة بهذه المناسبة:

"---- جمع المأمون مسئولي الجنود والعلماء والقضاة وأفراد الأسرة الملكية كلهم ثم أوصى بكلمات مؤثرة ملخصها: إني أقبل ما اقترفته ويحيط بي الخوف والرجاء ولكني حينما أتفكّر في عفو الله فتعلو كفة الرجاء فاغسلوني جيّدًا حينما متّ ووضّئوني وليكن

الكفن جيّدًا ثم ضعوني في التابوت بعد حمد الله وتعجّلوا في دفني كيفما أمكن وليؤمّ من هو أكبر سنًا من ذوي قرباي وليكبّر خمس مرات في صلاة الجنازة وليدخلني في القبر من هو أقرب مني رحمًا وأكثر محبة لي وليكن وجهي مقابل القبلة في القبر ولينزح الكفن عن وجهي ورجليّ الكفن ثم ليسوّوا القبر وليرجعوا ويكلوني إلى ما قدّمته فإنكم جميعًا لن تستطيعوا توجيه الراحة إليّ ولا تزروا عني ولتذكروني بالخير لو أمكن لكم وإلا فاسكتوا فإنكم ستحاسبون على ما قلتم عني إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ولا ينح أحدّ عليّ كيلا يعذّب معه" (المأمون، ص 123-124)

هذه صورة ملك صرفت خمسون مليون درهم بمناسبة زواجه فما اختاره العلامة من أسلوب مؤثر لنزعه يبدو أنه يريد السفر إلى بلد دون انتقاله من هذا العالم إلى الآخرة فيرشد إلى ما يجب العمل عليه للتدفين ثم يرجع إلى الله ويقول:

"ولا يحقّ الحمد سوى الله الذي كتب لي الموت وكتب لنفسه الخلود، أنظروا إليّ أمير البلاد ولكني عاجز أمام الله والحال أن الحكومة قد زادت حياتي الآخرة أخطر، ليت عبد الله لم يولد" (المأمون، ص 124)

ليست هذه بتوبة نصوح يمارسها زاهد ناسك بل هي توبة ملك أحاط بكل العالم الإسلامي فيقرّب المأمون ولي عهده منه ويقول:

"يا أبا إسحاق: جئ إليّ واعتبر مني فقد جعل الله طوق الخلافة في عنقك فكن كأنك تخاف حساب الله كل ثانية فرجّح رفاهية الشعب على كافة الأشغال ولا تدع القوي يظلم الضعيف وعامل مع الضعفاء معاملة المحبة والصداقة، واصفح عن أخطاء وزلات أقربائك وحواشيك، ولا توقف رواتب الناس ومنحهم" (المأمون، ص 124)

يبدو من هذا أنه لم يصرف النظر عن حكومته ورفاهيته ولو أنه قارب الموت فلما أنهى كلامه تلا بعض آيات القرآن ثم غشي عليه فلقّنه بعض الحضور كلمة التوحيد فتعجّب منه طبيب نصراني ابن ماسويه فنبّهه عليها ومنعه عنها فإن الله وماني سيّان لديه ثم يصوّر العلامة ردّ فعل المأمون كما يلي:

"---فتنبّه المأمون فجأة وفار غضبه إذ جعلت تقشعرّ كافة أعضائه واحمرّ الوجه والعينان وبسط يديه ليأخذ ابن ماسويه ويعاقبه على سوء الاعتقاد هذا ولكن لم

تساعده أعضاؤه فأراد أن يقول شيئًا بلسانه ولكن لم يرافقه اللسان فنظر إلى السماء متحسّرًا وامتلأت عيناه بالدموع فأطلق الله لسانه فخاطب الله وقال: أيا من لا يزول سلطانُه للأبد ارحم من تزول سلطته اليوم" وعلى هذه الكلمات تلفظ نفسه الأخيرة وتغمدّه الله برحمته" (المأمون، ص 124-125)

والمأمون أحق باعتباره بطلًا للملوك على ما توفّي هو.

فما صوّره العلامة من ألم موته نرى مثله حينما يصوّر مجالس لهوه فلا فرق بينهما سوى الألم والسرور، فما أبدى العلامة إعجاز قلمه على قصر اللغة الأردوية في الأساليب والتعابير لا يوجد نظيره لدى معاصريه من أدباء الأردوية إلا قليلًا نادرًا فقد ألّف العلامة هذا الكتاب حينما لم يتجاوز عمره الثلاثين سنة والشباب يودّ أن يحيط بكل لهو وسرور فقد برز عصير شبابه في هذا الكتاب المعجز فلو أنه ألّف كتبًا أخرى ولكنها تفقد ميزته هذه سوى "شعر العجم" إلا أنّ الكتاب الأخير كتابُ أدب وتاريخه حيث يحضره كافة الأساليب والتعابير اللذيذة الممتعة الجذابة بينما "المأمون" كتابُ تاريخ وترجمة حيث يملّ القرّاء في كل خطوة منه ولكن على الرغم من ذلك فقد جعله العلامة صحيفة للأدب والإنشاء.

والمقدّمة التي كتبها السير سيّد لهذا الكتاب قد أدّتْ حق اعتبار العلامة مؤرخًا أديبًا وقد اعترض عليه الشيخ حبيب الرحمن الشيرواني فقال إن هارون الرشيد أجدر بأن يعتبر بطلًا فيما بين خلفاء بني العباس فهو أجدر من المأمون من كل جهة وأثبت فضل الهارون على المأمون فردّ عليه العلامة في جريدة "آزاد لكهنؤ" المؤرخة في 24/ فبراير 1889م مما يغلبه شدة اللهجة فهو يقول:

"بإمكاننا أنْ نقوم بالموازنة بين الهارون والمأمون بكل تدقيق وتحقيق ولن يقوم بها إلا من رزق الدقة والإلمام بأصول التاريخ --- ما رضيت عن ثناء العلامة ولا تأذيت عن اعتراضهم --- ليدعوني كي أتمّ ما بقي من سلسلة أبطال الإسلام".

ولكن لا ننس ما وجد بينهما من العلاقة الوطيدة بعد هذا العتاب وبالتالي فقد صعب لنا الحكم على أيّهما حبيب.

الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي

(دراسة تحليلية)

- الشيخ محمد عارف العمري

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي كتاب رائع للعلامة شبلي النعماني. فيه انتقد العلامة "تاريخ التمدن الإسلامي" لكاتب نصراني أقام بمصر يسمّى جرجي زيدان. كشف فيه العلامة القناع عن أنواع الخيانة العلمية والاختلاق التاريخي. قال الشيخ السيد سليمان الندوي عن جرجي زيدان وكتابه هذا:

"وبما أنّ الكاتب كان نصرانيًا فلم يأل أيّ جهد لتشويه صورة الحضارة الإسلامية إلا أنه اختار أسلوبًا يبدو حسنًا ولكنه يكمن فيه سوءة"[1].

هذا الكتاب في خمسة مجلدات ونال قبولًا حسنًا بين ظهراني المستشرقين حتى قام البروفيسور ماغوليث بترجمته إلى اللغة الإنجليزية، والتي قد بلّغت مشتملاته كلّ نحو من أنحاء العالم وقد حاول جرجي زيدان أن يوطّن وزراة المعارف لمصر لكي تلحقه في المقررات الدراسية إلا أن معارضة بعض العلماء قد حالت دون تحقيق أمنيته[2].

---

[1] حيات شبلي، ص 578

[2] مجلة المنار، 1/15/مقدمة

كان العلامة شبلي وجرجي زيدان يعرف بعضهما البعض قبل تأليف هذا الكتاب فكان يراسل بعضهما إلى البعض كما صرّح به السيد سليمان الندوي وكانت مقالات العلامة شبلي النعماني تنشر في مجلة "الهلال" التي كان يدير تحريرها جرجي زيدان ذاته[1].

لقد استفاد جرجي زيدان من كتابات العلامة شبلي النعماني في تأليف كتابه تاريخ التمدن الإسلامي، الواقع الذي اعترف به هو نفسه فهو يقول:

"فإذا رأينا في كتب الأفرنج مآثر منسوبة إلى العرب لم نجد لها ذكرًا في كتبهم ضعفت ثقتنا في صحتها إذ قد تكون منقولة عن بعض الرحلات الأفرنجية في العصور الوسطى وأكثرها يحتاج إلى تمحيص --- ووقفنا على كتاب في اللغة الهندوستانية (الأردية) للنعماني سمّاه "رسائل شبلي" ذكر فيه فصولًا في مدارس العرب ومارستانهم ومكاتبهم وكتبهم وذيّلها بالأسناد وهو كتاب جليل وبعد الاطلاع على آراء العلماء وأبحاثهم في هذا الموضوع رجعنا إلى المصادر العربية فتفحصناها بإمعان وتدقيق فعثرنا فيها على ما أدهشنا من ضخامة ذلك التمدن خصوصًا في العلم والأدب مما ستراه مفصلًا في هذا الجزء"[2].

وبالجملة فكتابات العلامة شبلي النعماني هدت جرجي زيدان إلى المصادر الأولوية إلا أنه فضّل الكذب والخيانة وأعمل التحريف والتصحيف في نقل الروايات واختار جانب السوء في الاستدلال فشوّه صورة الحضارة الإسلامية مستعينًا بالعصبية الدينية.

ولقد نبّهه العلامة شبلي على أخطائه في البداية ولعله ظنّ أن الكاتب قد جانبه الصواب بدون وعي ولم يتعمّد إليه فأرشده إلى ضبط المصادر التي يأخذ منها وقد نقل جرجي زيدان رسالة من العلامة تشير إلى ذلك في مقدمة المجلد الثاني لكتابه هذا كما صرّح في مقدمة المجلد الثالث أنه قد عمل طبقما دلّ عليه صديقه العلامة النعماني فهو يكتب:

---

[1] حيات شبلي، ص 578

[2] تاريخ التمدن الإسلامي، 2/مقدمة

"وهذا ما نبّهنا إليه صديقنا النعماني العالم الهندي في كتابه الذي نشرنا خلاصته في مقدمة الجزء الماضي إذ اقترح علينا أن نذيّل صفحات كتابنا هذا بالمآخذ التي تنتقل عنها وقد أطعناه ---"[1].

وبجانب تنبيه جريجي زيدان مباشرة فقد أمر العلامة النعماني تلميذه الرشيد السيد سليمان الندوي بأن يكتب مقالة أو مقالتين في الرد عليه فيقول السيد سليمان الندوي كما يلي:

"في 1908م بلغ العلامة رسالة من عالم مصري من برلن وهو الدكتور محمود لبيب سأل فيها العلامةَ عن رسالة في الآلات الإسلامية فوجّه العلامة تلك الرسالة إلى مدير تحرير الهلال آمرًا إياه أن يفوّضها إلى الدكتور المذكور أعلاه، وبهذه المناسبة كتب العلامة أشياءً عن أكاذيب جرجي زيدان وافتراءاته فردّ عليه الدكتور الآنف الذكر رسالة مسهبة من برلن أيّد فيها العلامة وكشف القناع عن مكنونات كتب جرجي زيدان فحفزته هذه الرسالة إلا أن العلامة لم يجد الفرصة آنذاك فأمرني بكتابة مقالة وجيزة عن أهداف كتب جرجي زيدان ودرجتها العلمية، تم نشرها في مجلة "الندوة"، عدد أكتوبر عام 1908م ثم نشرنا الردّ على ما كتبه عن مكتبة الإسكندرية في كتابه هذا في عدد أغسطس عام 1910م"[2].

ولما تمّ هذا الكتاب في 1910م وبدا للعلامة شبلي ما بطن فيه وما ظهر فعزم على أن يقوم بتحليله من جديد وذلك لأن ترجمته الإنجليزية قد بلغت صداه بلاد الهند فيقول السيد سليمان الندوي:

"على مشورة من الدكتور يوسف هارفيز تم تقرير بعض أجزاء هذا الكتاب في اختبارات "مولوي" و"فاضل" لولاية أوترابراديش وكذا لما ترجم هو إلى الإنجليزية على يدي مارغوليث فنشرت مقالة في تائمز أنما ارتكبه الخليفة الثاني عمر من حريق مكتبة الإسكندرية ثابت بدلائل جديدة كما هي مذكورة في كتاب جرجي زيدان"[3].

---

[1] المصدر نفسه، 3/مقدمة

[2] حيات شبلي، 578-579

[3] المصدر نفسه، ص 579

قد أغضب هذان الأمران العلامة شبلي فترك كافة أشغاله بما فيها ندوة العلماء وراء ظهره وانشغل باستعراض الكتاب بإسره ولقد بيّن السيد شليمان الندوي ما قد شهده من تأليف هذا الانتقاد فهو يقول:

"لعله قد اشتغل بهذا العمل منذ 1911م والذي قد استمرّ لأشهر في مقارنة الآلاف من المصادر ومختلف طبعاتها وما كمن في الكتاب من سوء نيات الكاتب. كان الشهر شهر رمضان وكانت حرارة شهر سبتمبر على شدتها ولكن لم يتولّ العلامة عن عمله حتى غاص الماء في العين وذهب بصره إلا أن العلامة يرجع عنه إلا وقد أتمّه"[1].

معونة السيد سليمان الندوي في تأليف هذا الكتاب: وقد مضى أن السيد سليمان الندوي قد كتب مقالتين في الرد على هذا الكتاب واللتين نشرتا في مجلة الندوة وقد كتبهما تحت إشراف العلامة النعماني وكذا أعان أستاذه في تأليف الانتقاد فهو يقول:

"والكاتب مسعود بأن باب إشراف بني أمية على العلوم والذي على الصفحات 47 حتى 53 من الطبعة الهندية[2] قد تم بقلم هذا العاجز"[3].

نشر الانتقاد: وبما أن تاريخ التمدن الإسلامي قد نشر في كل أنحاء العالم فقد اعتنى العلامة شبلي بنشر هذا الانتقاد فطبعه أولًا في مطبعة "آسي" بلكناؤ في 1912م كما أرسل بعض أجزائه إلى العلامة رشيد رضا صاحب مجلة "المنار" والتي نشرت فيها في حلقات عديدة ثم نشره رشيد رضا في صورة رسالة مستقلة وكذا قام العلامة بتلخيصه إلى اللغة الأردوية والذي قد نشر في مجلة "الندوة" عدد أكتوبر عام 1911م.

وقد استعان العلامة، كالمعتاد، أحبائه وأصدقائه في نشر هذا الانتقاد فيقول السيد سليمان الندوي:

---

[1] المصدر نفسه، ص 580

[2] عنوانه "نشر المعارف والعلم، ص 44

[3] حيات شبلي، ص 581

"لما تم الكتاب جاءت مرحلة نشره فأرسل الحكيم نور الدين 50 روبية من قاديان وأما ما بقي فقد كتب له إلى أصدقائه الشيخ الشيرواني، والنوّاب مزمل الله خان، والشيخ حميد الدين وقد شاركهم العلامة نفسه وهكذا فقد نشر الكتاب"[1].

وحين نشره في مجلة المنار كتب له رشيد رضا مدخلًا اعترف فيه بأن واجب النقد على كتاب جرجي زيدان لم يؤدّ حقًا في مصر فلم تنشر إلا مقالات في مجلة "المؤيد" فقد قام العلامة شبلي بأداء هذا الواجب من قبل العالم الإسلامي كله. وقد كتب السيد سليمان الندوي محيلًا على الشيخ الشيرواني أن رشيد رضا ذاته أراد أن ينتقده إلا أن مكائد ودسائس وأكاذيب جرجي زيدان كانت منتشرة ومتنوعة لم يسعه انتقادها فناب منابه هذا العلامة الهندي[2].

والكلمات التي استخدمها رشيد رضا للعلامة شبلي النعماني نقدر بها متى بلغ سرور ومرضاة المدير بهذا النقد العلمي الرصين فهو يقول:

"وقد انبرى في هذه الأيام الشيخ شبلي النعماني العلامة المصلح الشهير مؤسس جمعية ندوة العلماء في الهند ومحرّر مجلتها إلى الردّ على هذا التاريخ وكتب إلينا أنه يريد أن يرسل إلينا ما يكتبه ويطبعه من هذا الرد بالتدريج لنشره في المنار كلما طبع منه شيئًا في لكناؤ إلى أن يتمّ ولما كان الانتقاد من مثل هذا العالم المؤرخ هو ضالتنا وضلة صديقنا وصديقه المؤلف بادرنا إلى نشره"[3].

وبالجملة فقد نشر الانتقاد بكل اهتمام بالغ من كلا البلدين الهند ومصر وهو رجع بآثار مفيدة على القرّاء فيقول السيد سليمان الندوي:

---

[1] المصدر نفسه، ص 581 و582

[2] المصدر نفسه، ص 581

[3] مجلة المنار، المصدر نفسه (مقدمة)

"قد أثر هذا الكتاب في الهند ومصر وكل أنحاء العالم الإسلامي والتي قد عمّها سمّ كتاب جرجي زيدان تأثير الترياق لمن لدغته الحية وقضى على فتنة كبرى فينا، والحمد لله على ذلك"[1].

الطبعة الجديدة للانتقاد: منذ وقت غير قصير نفدت نسخ الانتقاد سوى ملخّصه الذي أعدّه العلامة النعماني بعنوان "تمدن اسلام مصنفه جرجي زيدان كي پرده دري" فقد نشر في المجلد الرابع لمجموعة "مقالات شبلي" ولكن الكتاب الحقيقي لم يكن متوفرًا لا في الهند ولا في مصر بينما لم يزل تاريخ التمدن الإسلامي ينشر حتى أصدرت مطبعة الهلال بمصر طبعته الجديدة التي أعاد النظر فيها الدكتور حسين مونس أستاذ تاريخ الإسلام، كلية الآداب، جامعة القاهرة فلو أن الدكتور حسين مونس قد ردّ على العديد من أكاذيب جرجي زيدان ولكنه لم ينظر إلى الانتقاد وعيًا أو بدون وعي واعتبر كتاب جرجي زيدان فريدًا من نوعه فقال:

"لم يؤلف أحدٌ من العرب في الموضوع كتابًا يشبهه إلى الآن --- كان هذا الكتاب فريدًا في بابه يوم صدر لأول مرة ولا زال فريدًا في بابه إلى اليوم"[2].

ولذا فقد اعتنت دار المصنفين بنشر هذا السفر الكريم من جديد وبالتالي فقد برزت طبعته الجديدة قبيل أيام[3]. وضع مدخل رشيد كمقدمة وجعل الكاتب مسئولًا عن مقارنة النصين؛ الهندي والمصري وهو سعيد بهذه الخدمة العلمية.

أسلوب الكتاب: أسلوب هذا الكتاب يشبه أسلوب القدامى فلو أن العلامة شبلي كان على اطلاع تام على أساليب العربية الجديدة ولكنه فضّل أسلوب القدامى على هذه الأساليب الجديدة فيقول السيد سليمان الندوي:

---

[1] حيات شبلي، ص 582

[2] تاريخ التمدن الإسلامي، 1/مقدمة الدكتور حسين مونس

[3] وقد صدرت طبعته المحقّقة من نفس الدار في 2014م، قام بها أخونا الفاضل الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي

"عربية هذه الرسالة مليئة بالإنشاء فقد كان العلامة يتبع الجاحظ في عربيته فقد كان يكثر دراسة البيان والتبيين والحيوان حين تأليفه لهذا الكتاب"[1].

إلا أننا لا نستحي من الإعراب عما قد ورد في هذا الكتاب من عصير العرب والعجم فقد قام العلامة رشيد رضا بتصريف قليل في بعض الجمل والتعابير ومن ثم بجعلها جملًا وتعابير عربية خالصة.

أهم مباحث الانتقاد: قد أحصى العلامة شبلي من أهداف وأغراض كتاب جرجي زيدان الأساسية ما يلي:

1. تحير العرب وذمهم
2. وعزو الاستهانة بالدين إلى خلفاء بني العباس وأمية
3. واعتراضات عامة على المسلمين
4. وعزو عداوة العلم وحريق مكتبة الإسكندرية إلى العرب

وقد تناول العلامة شبلي هذه المباحث بالتفصيل فهو يشير إلى أهداف هذا النقد في ملخصه الأردوي:

"من الأسباب والحوافز التي دفعتني إلى الرد على الكاتب المحترم ما يلي:

1. يؤلّف الكاتب هذا الكتاب كمؤرخ لا كنصراتي ومن ثم فيقدّمه إلى العالم كله ---
2. ولم يرد الكاتب الكشف عن مساوئ بني أمية بل أخفى من خلاله هدفه للعرب والكشف عن مساوئهم
3. ومن خلال بني أمية دلّ الكاتب على مساوئ مسلمي القرن الأول فيجب على كل مسلم أن يردّ على مثل هذه الاتهامات
4. مما قد أقلّ من درجة هذا الكتاب العلمية هو تحريفه وكذبه واللذان قد استخدما ضدّ بني أمية فقد مسّت الحاجة إلى الاهتمام بهما"[2].

---

[1] حيات شبلي، ص 581

[2] مقالات شبلي، 160/4

يشير إلى هذه الأمور العلامة شبلي النعماني بأسلوب يملؤه الحماس الديني والغيرة له فهو يقول:

"هل كنت أرضى بأن تمدحني وتهجو العرب فتجعلهم غرضًا لسهامك ودرية لرمحك ترميهم بكل معيبة وشين وتعزو إليهم كل دنية وشر حتى تقطعهم إربًا إربًا وتمزّقهم كل ممزّق وهل كنت أرضى بأن تجعل بني أمية لكونهم عربًا بحتًا من أشرّ خلق الله وأسوأهم يفتكون بالناس ويسومونهم سوء العذاب ويهلكون الحرث والنسل ويقتلون الذرية وينهبون الأموال وينتهكون الحرمات ويهدمون الكعبة ويستخفّون بالقرآن.

وهل كنت أرضى بأن تنسب حريق خزانة الإسكندرية إلى عمر ابن الخطاب الذي قامت بعدله الأرض والسماء وهل كنت أرضى بأن تمدح بني العباس فتعدّ من إحدى مفاخرهم أنهم نزّلوا العرب منزلة الكلب حتى ضُرب بذلك المثل وأن المنصور بنى القبة الخضراء إرغامًا للكعبة وقطع الميرة عن الحرمين استهانة بهما وأن المامون كان ينكر نزول القرآن وأن المعتصم بالله أنشأ كعبة في سامرا وجعل حولها طوافًا واتخذ منى وعرفات"[1].

دور بني أمية وجرجي زيدان: لقد بذل جرجي زيدان قصارى جهده في اتهام دور بني أمية فيقول العلامة شبلي النعماني:

"كانت بنو أمية هدفًا خاصًا لهجو وتحقير الكاتب فقد تنوّع في هذا البحث وتلوّن وأفرغ كلما أودع فيه من صفات الكذب والتحريف والافتراء والتدليس والخداع"[2].

وقد اعترف الدكتور حسين مونس هذا السوء من جرجي زيدان ولو بكلمات غير صريحة فقال في موضع من تعليقاته:

---

[1] الانتقاد، ص 2 (طبعة جديدة)

[2] مقالات شبلي، 154/4

"كان هذا هو الرأي السائد عن بني أمية ولكن البحث الدقيق يبين أن بني أمية لم يكونوا بهذه العصبية للعرب"[1].

ويرى العلامة شبلي أن الكاتب استخدم أسلوبًا لطيفًا جذابًا للغاية للهزء بالأمة الوسط والسخر منها فهو لا يريد البحث عن مناقص بني أمية بل يودّ البحث عن مناقص الأمة كلها فهو يقول:

"إن الغاية التي توخّاها المؤلف ليست إلا تحقير الأمة العربية وإبداء مساوئها ولكن لما كان يخاف ثورة الفتنة غيّر مجرى القول ولبّس الباطل بالحق بيانُ ذلك أنه جعل لعصر الإسلام ثلاثة أدوار: دور الخلفاء الراشدين ودور بني أمية ودور بني العباس فمدح الدور الأوّل وكذلك الثالث (ظاهرًا لا باطنًا كما سيجيء) ولما غرّ الناس بمدحه للخلفاء الراشدين وهم سادتنا وقدوتنا في الدين وبمدحه لبني العباس وهم أبناء عمّ النبي وبهم فخارنا في بثّ التمدن وأبهة الملك ورأى أن بني أمية ليست لهم وجهة دينية فلا ناصر لهم ولا مدافع عنهم تفرّغ لهم وحمل عليهم حملة شنعاء فما ترك سيئة إلا وعزاها إليهم وما خلّى حسنة إلا وابتزّها منهم"[2].

وقد حاول جرجي زيدان أن يثبت بكل قوة أن استكبار العرب وتحقيرهم للآخرين قد بلغا نهايتهما في عهد بني أمية فهم كانوا يعاملون مع الموالي معاملة العبيد، والكنية آية للشرف والمجد عند العرب فلم يكونوا يدعون الموالي سوى أسمائهم ولم يكونوا يودّون أن يقوموا بجنبهم حتى في الصلوات فقولهم: ثلاثة تقطع الصلوة؛ الحمار والكلب والمولى، والحال أنهم كانوا يتفوّقون عليهم في صناعة الجسد فهم كانوا يدعون أن الفالج لا تصيب العرب، وكذا اتهم جرجي زيدان خلفاء بني أمية أنهم قد فصلوا الأجانب عن كل

[1] تاريخ التمدن الإسلامي، 23/2 (تعليق الدكتور حسين مونس)

[2] الانتقاد، ص 2

مناصب دينية بل كانوا يودّون أن يوذوهم بطريقة أو أخرى حتى أمر معاوية بقتلهم بعدما رأى زيادة عددهم.

وبعدما نقل العلامة شبلي اتهامات جرجي زيدان المذكورة أعلاه انتقدها بدلائل وبراهين وأثبت أن الأسس التي بنى عليها ظنونه ليست سوى أقوال عرب متعصبين، عمّمها الكاتب من عنده فهو يقول:

"غير خافٍ على من له إلمام بتاريخ الفرس والعرب أن الفرس كانت قبل الإسلام تحتقر العرب وتزدري بهم --- ثم لما شرّف الله العرب بالإسلام انتصفت العرب من العجم واستنكفوا من سيادتهم عليهم --- وجاءت الشريعة الإسلامية ماحية لكل فخر ونخوة --- وحينئذ ارتفع التمايز وتساوى الناس ولكن مع ذلك بقيت في بعض الناس من كلا الطرفين حزازات كامنة في صدورهم كانت سببًا لحدوث حزبين متقابلين يسمّى أحدهما الشعوبية وهي التي تحتقر العرب وترميهم بكل معيبة حتى أن أبا عبيدة صنّف كتبًا عديدة يطعن فيها على أنساب كل قبيلة من قبائل العرب، والثاني المتعصّبون للعرب وقد عقد العلامة ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد بابًا في حجج كلا الطرفين وأقوالهما ومعظم ما نقله المؤلف في إثبات عصبية العرب هي أقوال ذكرها صاحب العقد في هذا الباب --- ثم إن المؤلف ما اقتنع بذلك بل ربّما نسب قول رجل معيّن معلوم الاسم إلى العرب عامة"[1].

وعلى الرغم من تأييده فقد اعترف الدكتور حسين مونس بأن عامة العرب لم يكونوا يعاملون مع الموالي حسبما ذكره الكاتب فهو يقول:

[1] المصدر نفسه، ص 4-5

"لم يكن عامة العرب بهذا الاحتقار للموالي وكل ما يرويه أبو العباس المبرد في الكامل وابن عبد ربه في العقد الفريد مبالغ فيه وجدير بالملاحظة إن هذين المؤلفين كانا من الموالي"[1].

وكذا كتب ما يلي:

"والموضوع كله في حاجة إلى دراسة جديدة".

ولو درس الدكتور المكرّم الانتقاد فلعله لم يحتج إلى القول الآنف الذكر وكذا حاول أن يوجّه ما جاء في كتاب الكامل والعقد الفريد بأن صاحبي هذين الكتابين كانا من الموالي وعلى هذا فقد حشيا مؤلفاتهما بمثل هذه الروايات المليئة بالمبالغة بينما نقل العلامة شبلي رواية طويلة من كتاب الكامل وأثبت أن معاملة عامة العرب كانت خلاف ما ذكره جرجي زيدان[2].

ولم ينقل العلامة ابن عبد ربه مثل هذه الروايات إلى هذا الباب الخاص فيقول العلامة شبلي النعماني:

"وإذا تصفحت الكتب يظهر أن الأقوال التي نسبها إلى العرب عمومًا إنما هي أقوال شرذمة خاصة موسومة بأصحاب العصبية وصاحب العقد حيثما ذكر هذه الأقوال صدّرها بقوله "قال أصحاب العصبية من العرب" وأنت تعلم أن هذه العصبية ليست كافة العرب ولا أكثرها بل ولا عشر معشارها فإنك سترى أن هؤلاء أناس شزرة مغمورون في الناس، ثم إن المؤلف ما اقتنع بذلك بل ربّما نسب قول رجل معيّن معلوم الاسم إلى العرب عامة.

فقال ناقلًا عن كتاب العقد "وكانوا يكرهون أن يصلوا خلف الموالي وإذا صلّوا خلفهم قالوا إنا نفعل ذلك تواضعًا لله" فإن صاحب العقد نسب هذا القول إلى نافع بن

---

[1] تاريخ التمدن الإسلامي، 23/2

[2] الانتقاد، ص 13-15

جبير فأخذه المؤلف وجعله قولًا عامًا للعرب وهذا الصنيع أعني تعميم الواقعة الجزئية هي أكبر الحيل التي يرتكبها المؤلف لترويج باطله بل هي قطب رحى تأليفه"[1].

وقد أرى العلامة شبلي بتفصيل مشبع ما هي المناصب العليا التي احتلها الموالي في عصر بني أمية فهو يقول:

"اعلم أن البلاد التي كانت عواصم الأقاليم وقواعدها في عصر بني أمية هي مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان وكان لكل هذه الأصقاع إمامٌ يقودهم ويسود عليهم --- وكل هؤلاء غير إبراهيم النخعي كانوا الموالي وبعضهم أبناء الإماء ومع كونهم أعجامًا وكونهم أولاد الإماء كانوا سادة الناس وقادتهم تذعن لهم العرب وتحترمهم خلفاء بني أمية وولاة الأمر"[2].

وحين ختام هذا البحث لخّص العلامة شبلي ما يلي:

"إن إكرام الموالي كان من ديدن العرب عامة وقريشها خاصة. لم يكن الإكرام للموالي وأكثرهم العجم عند جفاة العرب ونباتها كما لم يكن الإكرام للعرب عند الشعوبية وأكثرهم العجم. كان نافع بن جبير وأمثاله من جفاة العرب فلا يصحّ الاستدلال بأقوالهم على استحقار العرب للموالي والعجم"[3].

استهانة الكعبة وشعائر الإسلام: وقد حاول جرجي زيدان أن يثبت في غير موضع من كتابه أن خلفاء بني أمية وبني العباس ومسئولهم كانوا يحقرون الشعائر الدينية. وقد مضى آنفًا أن الهزء ببني أمية أغلب محتويات هذا الكتاب وعلى هذا فقد أفرد الكاتب

[1] المصدر نفسه، ص 6

[2] المصدر نفسه، ص 9-10

[3] المصدر نفسه، ص 15

مثل هذه الوقائع بعنوان مستقل "الاستهانة بالقرآن والحرمين" إلا أن الكاتب لم يحدّد نطاق اتهامه في بني أمية فحسب بل قد تجاوز خلفاء بني العباس الذين قد أثنى عليهم.

وفي هذا الشأن كتب العلامة شبلي كاشفًا عن سرّ مكر الكاتب وافترائه أنه لما أفرد بمثل هذه الوقائع بابًا في بني أمية فلم لم يفرد بابًا لبني العباس ولكنه لم يفعل كذلك فقد أثنى على بني العباس لأنهم، كما يرى، قد قضوا على عزة العرب وشرفهم وهكذا فقد نال من عزة العرب في غشاوة الثناء على بني العباس حتى لم يترك خلفاء بني العباس فاصابهم نقده اللطيف لهم[1].

وقد كتب جرجي زيدان عن عبد الملك أنه لما بلغه أنه استخلف فكان يتلو القرآن الكريم فطواه وقال: هذا آخر لقائي معك".

وكذا سمح عامله الحجاج بن يوسف أن يوجّه المنجنيق نحو الكعبة فيرميه بالحجر ويقتل عبد الله بن الزبير بحيث يفصل رأسه عن جسده وهو في الكعبة ---- فقام جيش الحجاج بالقتل العام في حدود الكعبة لمدة ثلاثة أيام فهدموها وأشعلوا النار في مبناها وأحجارها[2].

وكذا كتب عن المنصور أن مسئوليه الإيرانيين قد وطّنوا نفسه على أن يقوم بمبنى يشبه الكعبة في العراق ففعل المنصور كما أشاروا عليه وبنى مبنى فخمًا في العراق سمّي بالقبة الخضراء.

وكذا جاء عن المنصور أنه حجز غلة المدينة المنورة فهتك عزتها[3].

وكذا كتب عن المعتصم العباسي أنه لما تمنّى مقرّبوه أن يحجّوا بيت الله فضاق خاطره بفراقهم فقام ببناء كعبة في سامراء وبنى منى وعرفات حولها[4].

---

[1] المصدر نفسه، ص 50-51

[2] المصدر نفسه، ص 17

[3] تاريخ التمدن الإسلامي، 35/2

[4] المصدر نفسه، 36/2-37

ونفصّل ما مضى في ضوء ما كتبه العلامة شبلي:

وما اختاره الكاتب من أسلوب مزوّر في بيان توديع القرآن من قبل عبد الملك وهدم الكعبة بيدي الحجاج بن يوسف وقتل عبد الله بن الزبير يدلّ على أن عبد الملك قد عزم على الاستهانة بالإسلام وأتباعه فور تولّيه الخلافة.

وقد اشتهر عن عبد الملك أنه كان منقطعًا إلى العبادة وتلاوة القرآن قبل خلافته وكان يعتبر من كبار فقهاء المدينة والكاتب نفسد يؤيد ذلك بأنه كان يتلو القرآن لما بلغه استخلافه والبديهي أن الانقطاع إلى العبادة لن يمكن جنبًا بجنب الاشتغال بأمور الخلافة فتلفظ بالحسرة ما زوّره جرجي زيدان فيقول العلامة شبلي النعماني:

"فلما جاءته الخلافة وهو يقرء القرآن تصوّر خطارة الأمر وإن مثل هذا العبء لا يمكن تحمّله إلا لمنقطع إليه فقال تحسّرًا هذا آخر العهد بك أي الآن لا يمكن الانقطاع إلى العبادة وقراءة القرآن كما كان دأبي أوّلًا، وليس هذا على سبيل الاستهانة بالدين مطلقًا فإنا نرى اشتغال عبد الملك بالفرائض والسنن فيما بعد فهو يصوم ويصلّي ويحجّ"[1].

وكذا يوضّح العلامة شبلي ما كتبه جرجي زيدان عن رمي الحجارة على الكعبة ومن ثم هدمها بيدي الحجاج فيقول:

"كان عبد الله بن الزبير وعبد الملك من مدعي الخلافة وكانا يوسّعان نطاق فتوحهما فقد شنّ عبد الملك الغارة على عبد الله بن الزبير عن طريق الحجاج بعد أن أتمّ ثماني سنوات من خلافته فاستقرّ عبد الله بن الزبير في مكة وأعدّ العدة لمواجهته فحاصره الحجاج ورمى الأحجار بالمنجنيق وأثناء هذه الحملة آن أوان الحج فأراد الحجاج أن يحجّ البيت الحرام فمنعه عبد الله بن الزبير وبما أن الأحجار الماطرة كانت تؤذي الحجاج

[1] الانتقاد، ص 19

فقال عبد الله بن الزبير للحجاج أن الناس يعوق طوافهم رميك بالأحجار فامتنع الحجاج عنه فلما انتهى الحج نادى الحجاج أن لا يرجع الناس إلى وطنهم فإني سأرمي عبد الله بن الزبير بالأحجار.

من قضايا الفقه هل يجوز القبض على باغٍ لجأ إلى الكعبة وشنّ الغارة عليه؟ يجيزه معظم الفقهاء وكان أنصار بني أمية يعتبرون عبد الله بن الزبير باغيًا ولكن مع ذلك لم يرم الحجاج الأحجار على الكعبة بل وجّه المنجنيق ذلك الركن من الكعبة الذي بني بعد هدمها وذلك أنه لما انهدمت الكعبة لأجل السيل بناها القريش ولكنه بما أنهم لم يمتلكوا أموالًا فادحة فبنوا جزءًا منها وتركوا ما بقي فارغًا وأحاطوا به وتسمّى الحطيم ولما قام عبد الله بن الزبير بمرمتها من جديد فألحق ما بقي إلى المبنى الأصلي فلم يعتبر أهل الشام جائزًا وعدّوه زيادة في الكعبة فقام الحجاج بهدمه"[1].

يرى العلامة شبلي لأنه لما لم يلحق النبي الكريم الحطيم بالكعبة بعد أن كان يتمنّاه فليحذر عبد الله بن الزبير في ذلك لأنما حدث كان ردّ فعل لهذه الغفلة من قبل عبد الله بن الزبير فهو يقول:

"لعل ابن الزبير كان مضطرًا كل واحد قسطه من الحق فإذا اعتذرنا لابن الزبير فعبد الملك أحق منه بالاعتذار"[2].

وكذا صرّح العلامة شبلي أنه ولو أن الحجاج قد حاصر عبد الله بن الزبير واستهدف المحلق بالحجارة ولكنه قد عزلها عن الكعبة بعد نهاية الحملة[3] وبنى ما هدم من الكعبة من جديد وهي حتى الآن كما هي.

وقد نقل الكاتب رواية قتل عبد الله بن الزبير في داخل الكعبة من العقد الفريد والحال أنه ليس بكتاب يختص بالتاريخ بل هو مجموعة الأدب والمحاضرات بينما جاء ذكر

---

[1] مقالات شبلي، 4/157-158

[2] الانتقاد، ص 18

[3] المصدر نفسه، ص 20

شهادة عبد الله بن الزبير في كتب التاريخ ولكنه بما أنها لا تؤيد ما يريد الكاتب ذكره فصرف النظر عنها. يقول العلامة شبلي النعماني:

"استند المؤلف في هذه الرواية بالعقد الفريد لابن عبد ربه والاستناد بمثل هذه الكتب في مثل هذه الوقائع هو من إحدى حيل المؤلف المعتاد بها فأنت تعلم أن حادثة قتل ابن الزبير مذكورة في الطبري وابن الأثير وغيرها من المصادر التاريخية المتداولة الموثوق بها وعليها المعوّل وإليها المرجع لكن لما لم تكن كيفية الحادثة في هذه الكتب وفق هوى المؤلف أعرض عن هذه كلها وتشبث بكتاب هو في عداد المحاضرات وإنما يرجع إلى أمثاله إذا لم يكن في الباب مستند غيره ومتى ما لم يخالف الأصول، والمذكور في الطبري وغيره أن عبد الله بن الزبير أصيب في الحجون وقتل هناك، قتله رجل من مراد وما احتزّ رأسه داخل الكعبة"[1].

وكذا لم يستند الكاتب ذكر بناء القبة الخضراء إلى كتب التاريخ بل بناه على خطبة عدوّه محمد النفس الزكية التي ذكرها تاريخ الطبري فيقول عنها العلامة شبلي:

"هذه كلمات خرجت من في عدّو للمنصور فهل هي مستند إليها في وقائع التاريخ"[2].

وقد علّق على هذا الحدث في الطبعة الجديدة لتاريخ التمدن الإسلامي:

"لم أجد عند الطبري أو ابن الأثير ما يؤيد القول بأن المنصور ابتنى القبة الخضراء --- وواضح أنها من الدهاوي التي استخدمها محمد النفس الزكية لتأييد دعوته وليست حقيقة تاريخية"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص 20

[2] مقالات شبلي، 142/4

[3] تاريخ التمدن الإسلامي، 35/2 (تعليق الدكتور حسين مونس)

ونفس الأمر عن منع غلة المدينة المنورة فلم يرد به تحقير المدينة بل كان هذا من سياسة المنصور التي اختارها فيقول العلامة شبلي النعماني:

"والواقع أن محمد بن عبد الله كان يودّ الخلافة منذ مدة طويلة فلما اعتدى على الحكومة علنًا فمنع المنصور وصول الغلة إليها بما أنه كان مقيمًا بالمدينة المنورة"[1].

قد استدل العلامة شبلي بتاريخ الطبري على ما قال وهذا من العجب أن الكاتب قد حرّف الواقعة وجعل هذا المنع سببًا لعدوان محمد النفس الزكية على الحكومة.

وأما رواية بناء الكعبة وتقرير منى وعرفات بيدي المعتصم فهي أخذت من أحسن التقاسيم للمقدسي ولكنها لا تلقى أيّ تصديق من مصدر آخر وبالعكس من ذلك أن الطبري يذكر تكرار حج المعتصم بيت الله كما هي العادة.

وفوق ذلك هناك سؤال عن سكوت الإمام أحمد بن حنبل الذي قد تصدّى لمن قال بخلق القرآن بجانب وجود العلماء والفقهاء ولكن لم يتهم المعتصم بهذا فلن يمكن إحقاق هذا الأمر بناء على رواية واحدة فقط.

نظام الإيرادات وجرجي زيدان: وقد حاول جرجي زيدان في غير موضع من كتابه هذا لاسيما في ذكر بني أمية أن نظام الإيرادات كان مليئًا بالظلم لدى الخلفاء المسلمين فيرى الكاتب أن خلفاء بني أمية وعمّالهم كانوا يمارسون كل نوع من الظلم حين جمع الضرائب وبخصوص أموال الأجانب التي كانوا يعتبرونها حلالًا لهم فما كانوا يأخذون من الضرائب من مثل الجزية قد صوّرت طريق الحصول عليها بأسلوب لا يليق به. إنه يقول إن هذا هو الظلم الذي أجبر العديد من الأجانب على اعتناق الإسلام ولكنهم لم يكونوا براء عن هذه فكانوا يؤدونها بعد دخولهم في الإسلام وكذا اتهم الخلفاء المسلمين أنهم في البداية لم يكونوا يأخذون الضرائب من الرهبان فلما جعل الناس يتحوّلون إلى الرهبان مخافة أداءها قد تم إجبارها عليهم كذلك.

---

[1] مقالات شبلي، 146/4

وقد تناول العلامة شبلي الجزية وحقيقتها وهدفها بشيء من التفصيل وأثبت بنقل كتابات جرجي زيدان العديدة أنه قد شوّه صورة طريقة حصول الجزية بكذبه ومكره[1].

وأما قول الكاتب أن الجزية كانت تؤخذ من الأجانب بعد دخولهم في الإسلام افتراء كله إلا أن العلامة شبلي قد اعترف أن هناك مثالًا أو مثالين، طوال حكم بني أمية، أن بعض العمّال أرادوا ذلك ولكن الخلفاء ثم المسلمين قد منعوهم عن ذلك ولقد أخذ جرجي زيدان هذه الأمثلة فصرّف فيها ثم عمّمها.

ويسرّنا أن معلّق تاريخ التمدن الإسلامي الدكتور حين مونس قد ردّ على اتهامات الكاتب تلك فهو يكتب:

"والواقع أن الضرائب كانت معتدلة جدًا في أيام بني أمية والحجاج نفسه لم يضع ضريبة جديدة وإن كان قد اشتدّ في جمع الخراج وهو لم يشتد على الموالي فقط بل على العرب أيضًا وكان أعداء بني أمية هم الذين ينادون بالتشديد على الموالي واختصاص العرب بمعاملة خاصة --- ولم تعرف الدولة الإسلامية المكوس والجبايات غير الشرعية أيام بني أمية على أي حال بل أيام العباسيين"[2].

ولقد اختار طريق الحيطة في الدفاع عن الحجاج بن يوسف عامل عهد بني أمية ولكن الدكتور حسين مونس قد صرّح أنما قيل عن جباية الأموال بيدي الحجاج بهتان كله فهو يقول:

"أساء العرب جملة الحكم على أعمال الحجاج واتهموه بالظلم والإجهاف في جمع الضرائب مع أن الرجل لم يفعل أكثر من التدقيق في جمع المستحق للدولة"[3].

ولقد استدل جرجي زيدان على دعواه تلك بالمقريزي فقال عن عمر بن العاص أنه قد رفع مبلغ الضرائب حتى عشرة ملايين ومائة ألف دينار.

---

[1] الانتقاد، ص 26-36

[2] تاريخ التمدن الإسلامي، 23/2

[3] المصدر نفسه، 24/2

ونهّئ الدكتور حسين مونس أنه قد ردّ على اتهام الكاتب هذا بدلائل قوية فقد قام بإعداد فهرس لما جبي من أموال مصر بناء على بيانات المؤرخين والتي لم تزل تقل سنويًا حتى أصبحت أربعين مئة ألف في غضون سبع سنوات فيقول الدكتور المكرّم مستعرضًا لهذا الانحطاط:

"يبدو أن المقريزي يبالغ في هذا الكلام ونحن نشك في أن عمرو بن العاص قد جبى من مصر 2000000 دينار ---"[1].

وفي ضوء هذا الفهرس طرح الدكتور المحترم سؤالًا ممتعًا للغاية على كاتبه الممدوح فقال:

"إن الخيانة كانت في تناقص أيام بني أمية ولم تكن في زيادة فأين ذهب إذن المال الذي كان يجبى بالعسف وأين ضريبة الرهبان؟"[2].

وقد قال جرجي زيدان في مبحث الجزية أن بعض الناس قد ارتدّوا لأجلها واستدل على دعواه بأهالي سمرقند الذين آمنوا شريطة أن لا تؤخذ الجزية منهم ولكنهم لما أجبروا عليها ارتدوا.

قول الكاتب هذا يملؤه الكذب وعلى هذا فلم يتعرض له العلامة شبلي في كتابه الانتقاد ولكن الدكتور حسين مونس قد اعترف بكذب جرجي زيدان هذا فقال:

"لم أجد في المراجع ما يؤيد ذلك"[3].

عداوة المسلمين للعلم: ولو أن جرجي زيدان قد أثنى على الخلفاء الراشدين ولكنه حاول بأسلوب دقيق للغاية أن يثبت أنهم لم تكن لهم أي صلة بنشر العلم بل كانوا يبغضونه فقال العلامة شبلي مشيرًا إلى قول الكاتب الكاذب هذا:

---

[1] المصدر نفسه، 25/2

[2] المصدر نفسه

[3] المصدر نفسه، 25/2

"المؤلف حرفته تأليف الكتب متكسبًا به وهو يعرف حق المعرفة أنه لو انتقد على الخلفاء الراشدين ونال منهم تصريحًا كسد سوقه وخابت صفقته فدبّر لذلك حيلًا لا يكاد لا يتفطن لها اللبيب المتيقظ فضلًا عن البليد المتساهل فعمد إلى رؤس المثالب ونسبها إليهم بأنواع الاحتيال فتارة بتبديدها في ثنيّات الكلام وإبعادها عن موضع العناية وتارة بإيرادها عرضًا موهمًا عدم الاعتناء بها وتارة يذكرها محتالًا لها عذرًا وإذا كرّرت النظر في كلامه وتصفحت ما فيه وجمعت ما هو مبدّد ونظمت ما هو مفرّق تكاد تستيقن أن الخلفاء كانوا من أشدّ أعداء العلم وأنهم أبادوا الكتب والخزانات واضطهدوا أهل الذمة وجعلوها أذلّاء لا يؤذن لهم ولا يؤبه بهم"[1].

وكذا صرّح العلامة أن الكاتب قد خص ذكر حريق مكتبة الإسكندرية لهذا السبب لأن بعض الرويات تعزوه إلى الخليفة الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه.

ولنذكر هنا أن علماء أوربا قد ناقشوا كثيرًا عن حريق مكتبة الإسكندرية إلا أن العلامة شبلي هو أول عالم إسلامي ردّ على هذه الدعوى الباطلة ببحث مسهب مقنع كما تناول العلامة قول جرجي زيدان ودلائله بالبحث وردّ عليها ردًا مفحمًا[2].

ولقد اعترف الكثير من علماء أوربا أن مكتبة الإسكندرية قد لقيها الخراب قبل دخول المسلمين فيها إلا أن جرجي زيدان ومؤيديه يستدلون بما كتبه عبد اللطيف البغدادي وجمال الدين القفطي ويطلبون من المسلمين أن يعترفوا بجريمتهم هذه.

فقال العلامة شبلي مستعرضًا لهذا القول:

---

[1] الانتقاد، ص 45

[2] المصدر نفسه، ص 54-67

"وتجد كتب القدماء من مؤرخي الإسلام كلها أو أكثرها كتاريخ البخاري وسيرة بن إسحاق وتاريخ الطبري وابن قتيبة وغيره مسلسل الأسناد مبنية الأسماء ليمكن نقد الرواية ومعرفة جيّدها من زيّفها.

فأوّل شيء يهمّنا في هذا البحث هو أن نرى هل ذكر القفطي والبغدادي هذه الرواية مسندة وذكرا مصدر الرواية وأسماء رواتها أم لا؟

وأنت تعلم أن البغداي والقفطي من رجال القرن السادس والسابع فأيّ عبرة برواية تتعلق بالقرن الأوّل يذكرانها من غير سندٍ ولا رواية ولا إحالة على كتاب.

أما كتب القدماء الموثوق بها فليس لهذه الرواية فيها أثر ولا عين"[1].

ويسرنا الاعتراف بأن معلّق كتاب تاريخ التمدن الإسلامي قد اعترف بما قال العلامة النعماني كما أضاف إليه فتناول رواية القفطي بالبحث وقال إنها تخالف حقائق التاريخ. إنه يقول:

"وهذه الرواية تدور حول حديث عمرو بن العاص ويوحنا النحوي وهي واضحة الاختراع لأن يوحنا مات قبل دخول مصر بثلاثين أو أربعين سنة"[2].

وما قام به الدكتور المحترم من استعراض رأي عبد اللطيف البغدادي يناسب الموقع بأنه رحّال فهو ينقل الغث والسمين من الروايات فلا يعول على كلامه. إنه يقول:

"لا يعول على كلامه في التاريخ لأنه كان يأخذ ما يسمعه من الناس ويثبته ضمن مشاهداته"[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص 64-65

[2] تاريخ التمدن الإسلامي، 51/2

[3] المصدر نفسه

وقد فصّل العلامة شبلي ما أثبته مسلمو القرن الأول من حبهم للعلم ونشره لكي يقضي على ما اتهمه جرجي زيدان به كما ألحق بالكتاب مقالة استكتبها تلميذه السيد سليمان الندوي بعنوان "نشر المعارف والعلم".

هذا موجز ما كتبنا عن مباحث الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي. إنه كذلك يشتمل على موجز ترجمة بعض خلفاء بني أمية الذين قد استهدفهم الكاتب بنقده اللاذع.

ولا شك في أن الطبعة الجديدة لتاريخ التمدن الإسلامي قد أدخلت فيها إصلاحات عديدة ولكنه بالرغم منها فلا تقل بها أهمية الانتقاد وذلك لأن الدكتور حسين مونس قد أصلح ما فحش من أخطاء هذا الكتاب ولكنه جانبه هدف هذا الكتاب الأصلي فلا بدّ من دراسة العلماء وعامة الناس لهذا السفر الجليل.

المصادر والمراجع

1. شبلي النعماني: حيات شبلي، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، سنة الطبع لم تذكر
2. مجلة المنار الشهرية الصادرة عن مصر
3. جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، مطبعة الهلال، مصر، 1968م
4. شبلي النعماني: مقالات شبلي (جمع: السيد سليمان الندوي)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1934م

"تراجم" للعلامة شبلي، دراسة تحليلية

- د. أورنك زيب الأعظمي

مدخل في الموضوع:

العلامة شبلي النعماني (1857-1914م) كان آية من آيات الله، وشخصية يضرب بها المثل في تعدّدية الجوانب. كانت له رئاسة في شتى الحقول والمجالات؛ إنه كان مؤرخًا ومتكلمًا إسلاميًا، وماهرًا في القرآن والحديث والفقه، وكانت له اليد الطولى في الأدب العربي والفارسي والأردوي، كما كان يقرض الشعر الجيّد في العربية والفارسية والأردوية، وإليه يرجع فضل تطوير النقد الفارسي والأردوي في الهند وباكستان. ترجم بعض أعماله إلى اللغات المحلية والعالمية. إنه تأذّى لسوء حال المسلمين التعليمية فسعى سعيَه لرفع مستواهم الثقافي بالقيام بزيارات متعدّدة لبلاد الهند وخارجها.

وبجانب كتبه ورسائله التي نالت القبول الحسن من قبل علماء الهند وخارجها فقد أثر العلامة مقالات علمية وأدبية قيّمة بعضها قصيرة بينما البعض منها طويلة إلى حدّ تضاهي بالرسالة فمقالته عن القرآن وجمعه وترتيبه، ومقالته عن حريق مكتبة الإسكندرية، ومقالته عن حقوق الذميين مقالات طويلة لا تقلّ عن الكتاب وزنًا لو طبعت منفصلة عن المجموعة. ومن مثل هذه المقالات الطويلة الرائعة تلك التي كتبها عن الترجمات العربية التي تمّت في العصور الإسلامية لاسيما العصر العباسي فقد أثبت العلامة من خلالها أن المسلمين قد اعتنوا في كل عصر من عصورهم بتراث الأجانب العلمي والأدبي، ولو لم يبرز المسلمون على ساحة التاريخ العالمي لذهب الدهر بهذه الخزينة العلمية التي كادت أن تدفن في القبور التي زيّنها جهل أبنائهم وحفدتهم ففضل صيانتها ثم نقلها إلى الجيل الجديد يرجع كله إلى خلفاء المسلمين وسلاطينهم الذين قد

اعتنوا بها خير اعتناء فأمروا بجمعها من حيث وجدت ومن ثم بترجمتها وصيانتها في مكتباتهم الخاصة أو توفيرها لمن كان له رغبة في مثل هذا التراث العلمي الثمين.

السبب وراء كتابة هذه المقالة:

مما لا يخفى على كل باحث عن حياة العلامة شبلي وخدماته العلمية والأدبية أن معظم كتاباته ظهرت كردّ على ما وجّهه أوربا وعلماؤها والمستشرقون في العالم من اعتراضات واختلاقات إلى الإسلام ورسوله وأتباعه وخلفائه وحاكميه فكتابه "الفاروق" وكتابه "الغزالي" وكتابه "المأمون" وفوق تلك كتابه "سيرة النبي" كلها صدرت كردود على اعتراضات وافتراءات واختلاقات المستشرقين وليس هذا فقط بل مقالاته العديدة أيضًا تحتوي على هذا الموضوع المركزي فمقالته "الجزية" ومقالته "مكتبة الإسكندرية" ومقالته "زيب النساء" ومقالته "حقوق الذميين" ومقالته "جمع القرآن" وغيرها من المقالات التي كُتِبَتْ ردًّا على ما قام به المستشرقون من اعترضات وافتراءات عن الإسلام ونبيّه وأتباعه وخلفائه وحكّامه. والمقالة التي نريد البحث عنها أيضًا قد كُتِبَتْ ردًّا على اعتراضات المستشرقين المتنوعة وافتراءاتهم الشتى فيقول العلامة شبلي مشيرًا إلى السبب وراء كتابة هذه المقالة:

"ونظرًا لما ما نرى من تنفّر المسلمين عن غيرهم من الأقوام والملل وعلى هذا فهم محرومون عن كافة علوم وفنون العالم النافعة يصعب لنا خيال أنهم قد استفادوا في زمن من الأزمان من اللغات الأجنبية ولكن الحق الذي لن ينكره أيّ باحث أنّ المسلمين قد نقلوا إلى لغتهم التراث العلمي لكافة أقوام العالم وأممه في عهودهم المتوسطة ولو لم يظهروا للعالم لبادتْ كافة ذخائر اليونان ومصر والهند وفارس العلمية واختفتْ عن أعين العالم الحديث. وبما أنّ أوروبا لن تنكر هذه الحقيقة فقد قام المؤرخون النصارى بمناقشات عديدة حول هذا القدر من عناية المسلمين باللغات الأجنبية في زمن من الأزمان حتى ألقى كاتب فرنساوي مقالةً عنها في المؤتمر الشرقي، ويذكر نوفل آفندي مؤرخ

نصراني من بيروت والذي ألّف كتابًا مستقلًا بحضارة وثقافة المسلمين بعنوان "صناجة الطرب" يذكر تقدّم المسلمين العلمي بهذه الكلمات:

"مما يعجبني أنّ العرب الذين كانوا يبيدون كل حضارة، والذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية بأمر من الإمام عمر بن الخطاب وخرّبوا علوم الفرس بأمر من عثمان بن عفان كما اندرست مكاتب أنطاكية وبيروت بمجرد رؤيتها إلى أعلامهم وكذا خرّبوا مكاتب دمشق في 101 للهجرة بأمر من يزيد بن عبد الملك الأموي وأرادوا إزالة أهرام مصر ومحو أبي الهول، لِمَ وكيف رغبوا في علوم وفنون الأجانب؟ (فيقوم الكاتب المذكور أعلاه بحلّ هذه العقد) بأن العرب كانوا مولعين بالنجوم منذ جاهليتهم فالموظفون النصارى واليهود الذين كانوا في أبلطة الخلفاء المسلمين أيقنوهم بأنّ الكثير من أخبار الغيب ستنكشف لهم إذا تُرْجِمَتْ كتبُ النجوم المصونة في اليونان وغيرها من البلاد. هذه هي الرغبة التي لفتت أنظار العرب إلى ترجمة علوم الأجانب" (كتاب صناجة الطرب في تقدّمات العرب لنوفل آفندي، ص 381-382).

ولا نودّ الآن أن نناقش ما قام به الآفندي من الافتراءات والاختلاقات الكثيرة التي أمطرها بهذه المناسبة إلا أن القضية الأصلية تحتاج إلى التفكير ونحبّ أن نكتب عنها بشيئ من التفصيل"[1].

فيبدو من هذا المقتبس أنّ العلامة تحدّث في هذه المقالة عن جهود المسلمين المتنوعة لترجمة تراث الأجانب االعلمي. ولا يردّ على كافة اعتراضات المستشرقين لاسيما نوفل آفندي. ولعله قد أخّر الردود على اعتراضاته الأخرى فكتب من بعدُ عن مكتبة الإسكندرية مقالة طويلة تمّت ترجمتها إلى الإنجليزية والعربية كما كتب مقالات أخرى في المواضيع الأخرى وهكذا أوقف حياته كلها على الردّ على ما قام به المستشرقون من الاعتراضات والاختلاقات على الإسلام ورسوله وأتباعه.

[1] مقالات شبلي، طبعة جديدة من دار المصنفين، أعظم كره، 2009م، 6/1-2

ولو أنه لم يذكر في هذه البداية الموجزة ماذا يكتب وكم يكتب إلا أننا نجد بعد دراستها أنه كتب ما يزيد على هذا فبجانب تفصيل مجهودات المسلمين في عصورهم المختلفة لترجمة تراث الأجانب العلمي والأدبي تحدّث العلامة شبلي عن صيانة النصوص الأصلية ومقابلة البعض من بعضها وإعداد النسخة الموثوق بها وشروح المعضلات منها وفوق تلك تطوير العلوم والفنون والآداب التي كانت تحويها هذه الكتب المترجمة فكأنّ المسلمين لم يحاولوا ترجمة هذه النصوص الأجنبية فحسب بل قد اعتنوا بها اعتناء بالغًا حتى قاموا بالبحث عن نُسَخِ كتابٍ قيّم عديدة ومقارنة بعضها من البعض وإعداد نسخة جامعة لها ومن ثم ترجمتها على يدي من مهر فيها وتضلّع، وإعادة النظر في الترجمة الأولى لو وجدت فيها أخطاء وزلات وهكذا شرحها وتفسيرها وبيان معضلاتها ومشكلاتها، وليس هذا فقط بل قاموا بتأليف الكتب المستقلة في العلوم والفنون التي نقلوها إلى لغاتهم فكأنهم طوّروا هذه العلوم والفنون وبلّغوها إلى العالم في أحسن صورة وأسهلها وأعلاها.

محتويات هذه المقالة:

هذه المقالة تحتوي على مائة صفحة تقريبًا ونشرت تارة في مجموعة مقالاته العلمية كما ضمّت، تارة أخرى، في مجموعة كتاباته في الردّ على المستشرقين. إنها نُشِرَتْ أوّل ما نُشِرَتْ في سنة 1898م في مجموعة مقالات شبلي المسمّاة بـ"رسائل شبلي" من مطبعة "مفيد عام" بآغره ثم نشرت من مطبعة "روز بازار" بأمرتسر في سنة 1911م كما نشرت في مجموعة مقالاته المسمّاة بـ"مقالات شبلي" في مجلدها السادس وفي النهاية تم نشرها في مجموعة مقالاته عن الاستشراق والمستشرقين وهكذا فهي نشرت في ضمن أربع مجموعات منذ 1898م حتى يومنا هذا.

يبدأ العلامة هذه المقالة بالإشارة إلى تخلّف المسلمين في هذه الأيام، والحديث عن تقدّمهم في الأيام الخالية ثم يشير إلى اعتراف علماء أوربا بمنتهم على العالم بجانب الإشارة إلى اعترافهم البخيل بهذه المنة وعمومها فهم لا يعترفون بأنهم هم المحييون

للتراث العلمي العالمي فيشير إلى وضعهم الراهن كما يقتبس قولًا لنوفل آفندي المستشرق النصراني الشهير الذي ألّف كتابًا حول الموضوع بعنوان "صناجة العرب" فاعترض فيه على المسلمين بأنهم أحرقوا مكتبة الإسكندرية وخرّبوا علوم الفرس ودمّروا مكتبة أنطاكية وبيروت وأرادوا إزالة أهرام مصر ومحوَ أبي الهول. ومن هنا يتخلّص إلى البحث عن شغف رسول الإسلام وأسوة المسلمين ﷺ بالأخذ مما صفا لدى غيره من الأمم والأقوام من الأفكار والآراء والطرق فيشير إلى أخذه ﷺ طريقَ حفر الخندق من الفرس وأمره زيدَ بن ثابت الأنصاري لتعلّم اللغة العبرية وتعليمها لأصحابه. تبعه المسلمون في هذا الأمر فأخذوا قوانين الآخرين من غير المسلمين؛ أخذوا الخراج من أنو شيروان وأبيه وساروا في ترتيب الدفاتر سيرَ سلاطين الشام فوضعوا الدواوين لكلّ منها.

وبعد الإشارة إلى هذه البداية الحسنة يقول:

"وبالجملة فلا يحتاج إلى دليل أنّ مسلمي القرن الأوّل قد اختاروا قوانين غيرهم من الأمم والأقوام المتعلقة عن الاجتماع والمدنية حسب المناسبة والحاجة إلا أننا نحتاج إلى مناقشة حول تحديد زمن عناية المسلمين بعلوم غيرهم وفنونهم والأسباب التي كانت وراء هذه العناية"[1].

ففصّل قدرما أمكن له في هذه المقالة الطويلة فبدأ الحديث باستفادة عمر بن العاص من يحيى النحوي ثم أشار إلى انطلاق معاوية في توظيف الأجانب في الإدارة، الأمر الذي مهّد السبيل إلى ترجمة كتب الطب ثم تكلّم عن شغف خالد حفيد معاوية بكتب الطب والكيمياء وتلمذه على الأطباء النصارى وتأليفه ثلاثةَ كتبٍ في هذا الفن وقد خصّ ذكر رغبته في ترجمة العلوم والفنون الأجنبية فتُرْجِمَ بأمره الكتب من اليونانية والقبطية إلى العربية، ومن بين المترجمين البارزين في عصره أصطفن. ثم أشار إلى ترجمة ماسرجيس قرابادين أهرن من السريانية إلى العربية في عصر مروان بن الحكم وهو أول خلفاء بني

[1] المصدر نفسه، ص 3

أمية، ثم فصّل عن هذه القرابادين ولكني أغضّ الطرف عنها وكذا رغب عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الشهير في الكتب اليونانية كما أسلم على يديه أبجر حكيم وبروفيسور اليونانية وكبير مسئولي الإسكندرية ومما يمتعنا أنّ تعليم العلوم اليونانية قد انتقل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران عامَ ولّي عمر بن عبد العزيز الحكمَ فكأن ولاية الخليفة الإسلامي قد خلقت ثورة في نشر العلوم والفنون ونقلها إلى الناس عامة.

ثم تحدّث عن ترجمة هذه الدواوين التي وضعت في عهد عمر بن الخطّاب من اللغات الأجنبية إلى العربية فترجمت هي من الفارسية واللاطينية والقبطية. ويذيّل قوله هذا بما يلي:

"فيبدو من هذه الوقائع أنه قد برز في المسلمين حتى نهاية القرن الأوّل الهجري رجال كانوا متضلعين من اللغات الفارسية واللاطينية والقبطية وغيرها"[1].

ثم يلتفت إلى هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي الذي أحسن نظم الدولة كما طوّر هذا الفن فألجأ خالد بن عبد الله القسري ووظّف سالمًا المتضلع من اللغات الأجنبية، والأخير قام بتعريب رسائل أرسطو إلى الإسكندر كما قام ولده جبلة بترجمة العديد من كتب الفارسية إلى العربية وهكذا أمر هشام ذاته بترجمة سير وتراجم ملوك العجم إلى العربية.

ثم تحدّث عن العصر العباسي ومجهوداته عن ترجمة العلوم والفنون والآداب فتناول بالبحث المنصور والهارون والمأمون والمعتصم والواثق بالله والمتوكل على الله والذي قد انتهت عليه الخلافة العباسية حقًا. هذا البحث يحتوي على إحدى عشرة صفحة وهو مشبع للغاية فتناول فيه العلامة رغبة الخلفاء العباسيين في هذا الفن وجهودهم وذكرياتهم فيه، كما عدّد المترجمين والمشجّعين والمسبّبين وهكذا تحدّث عن الجوّ العلمي الملائم له، والواقع أن العصر العباسي قد وجّه إلى فن الترجمة خدمة لن ينساها العالم إلى أبد الآباد.

[1] المصدر نفسه، 5-6

ثم أوجز الحديث عن الأمراء الآخرين فتحدّث عن سيف الدولة والأسرة السامانية وعبد الرحمن الناصر كما تحدّث عن فيروز شاه، وخصّ الذكر فيها الإمبراطور أكبر ثم رجع إلى الأسَر والعائلات والوزراء الذين خدموا هذا الفن فخصّ بالذكر البرامكة وأسرة موسى بن شاكر ثم ذكر عامة الشعب فأحصى أسماءهم حتى لم ينس الجهود الشخصية فذكر سعيد بن يعقوب ومتي بن يونان ويحيى بن عدي وأبا علي بن زرعة وبهوجر ومحمد بن إسماعيل التنوخي وأنهى هذه الجهود الشخصية على أبي ريحان البيروني الذي يعدّ أبا المترجمين لكتب السنسكريتية والذي لم يترجم علومَ وفنونَ السنسكريتية إلى العربية فحسب بل عرّف الهندوس بعلوم العربية وفنونها وآدابها فكأنه كان مترجمًا ثنوي اللغات.

ثم ذكر فهرسًا لمترجمي اللغات الأجنبية على حدة فذكر فهرس مترجمي الفارسية وهم 23 مترجمًا وذكر فهرس مترجمي السريانية وهو يحوي 11 مترجمًا كما ذكر أربعة مترجمين للسنسكريتية و50 مترجمًا للغات اليونانية واللاطينية وليعلم أن معظم هؤلاء المترجمين كانوا ماهرين للغات الأخرى فكانوا مترجمين ثنويّ اللغات على الأقل.

والمهم في ذلك أنه أشار إلى وجود المترجمين المسلمين في كل موضع من مقالته وهي تدلّ دلالة واضحة على أن المسلمين لم يتخلفوا في هذه العملية كذلك وأنهم كانوا مخلصين في هذا العمل على عكس بعض المترجمين الأجانب.

وبعد ذلك تناول طرق الترجمة وصحتها لأن المستشرقين قد اعترضوا على صحة هذه التراجم فيقول بعدما أشار إلى طريقتين قد استخدمهما المترجمون في هذه العصور:

"وفي يومنا هذا يعير كتّاب أوروبا الكافرون أنما قام به المسلمون من المنة على العالم المثقف ليست إلا ترجمة الكتب اليونانية كما هي، الأمر الذي صان هذه الكتب وما احتوته ولكنهم يصرفون النظر عن أن المسلمين لم يفعلوا هذا القدر من الخدمة بل فهّموا العالم معاني هذه الكتب التي لم تبلغها أذهان شارحي هذه الكتب اليونانية فقد كانت طريقة كتابة أرسطو وأفلاطون وغيرهما أنهم كانوا يؤدّون المعاني السهلة بأسلوب

ملؤه التعقيد حتى أنه لما قام أرسطو بشيء من التوضيح في كتاباته فكتب أفلاطون إليه رسالة مليئة بالتنبيه أنك تذلّ العلم وتحقّره فردّ عليه أرسطو قائلًا: وبعد ذلك وضعت فيها من التعقيدات التي لن يمكن للناس بلوغ المفاهيم الحقة".[1]

واستدلّ على قوله هذا بترجمة رسالة دسيوقوف التي مرّت بمراحل عديدة قبل وصولها إلينا وكذا استدلّ بأقوال العلماء الأوربيين على صحة دعواه.

والشيء المهم الذي أشار إليه العلامة شبلي النعماني هو تحرير المسلمين عن اللغة المصدر فنحتوا لكل كلمة وتعبير ومصطلح كلمات وتعابير ومصطلحات عربية بحتة فيقول:

"ولا يسعنا أن نحكم على صحة هذه الترجمات أو خطأها من عندنا ولذا فقد اتبعنا فيه علماء أوربا ولكن لا يخفى على أحد أن المسلمين قد حرّروا الترجمة عن اللغة المصدر. انظر إلى الإنجليزية وسعة نطاقها ولكنها تحتاج إلى اليونانية في مصطلحاتها العلمية ولو أن العلماء يأوّلون أن وجود المصطلحات المشتركة لا محيص منها في أوربا كلها، الأمر الذي لا يمكن بدون هذه الوحدة وعلى كل حال فالترجمات العربية براء من هذا الاسترقاق فتوجد مصطلحات لا تحصى في المنطق والفلسفة والهيئة والهندسة والطب إلا أنها يقابلها كلمات ومصطلحات عربية منحوتة تبدو بها هذه العلوم ذات أصل عربي"[2].

فلم يبق من الكلمات والتعابير والمصطلحات الأجنبية في الترجمات العربية إلا قليلٌ نادرٌ.

وبعد ذلك التفت إلى علوم وفنون الأجانب التي انتقلت إلى العربية عن طريق الترجمة فأخذ كل أمة على حدة وتحدّث عن تراثها العلمي ومن ثم ترجمته العربية فتناول بالبحث اليونان وتحدّث عن الفلسفة والهيئة والجبر والمقابلة والحساب وعلم الآلات والموسيقى والجغرافيا والطب والهندسة والأدب والتاريخ كما تحدّث عن أعلام الكتّاب

[1] المصدر نفسه، ص 27-28

[2] المصدر نفسه، ص 29

فيها وكافة مؤلفاتهم المترجمة إلى العربية، وأنه كيف أحيى المسلمون هذا التراث العلمي القيّم فترجموه وشرحوا معضلاته وألّفوا كتبًا في موضوعاته.

ولو أنّ مباحثه كلها مهمّة قيّمة إلا أنّ البحث الأخير وهو ترجمة التاريخ والأدب اليونانيين يجدر بأن نقرأه مرارًا وتكرارًا فقد أثبت من خلاله أنّ المسلمين لم يترجموا الكتب العلمية فقط بل قاموا بترجمة تاريخ الأجانب وأدبهم بالرغم من أنهم كانوا يعتبرون العربية وآدابها قيّمة وكانوا يفضّلونها على غيرها وهكذا فترجموا من الآداب كلام هومر والقصص اليونانية مثل سمسة ودمن، ومور ويانوس وأنطوس السياح وديوان ودراجيل وغيرها من القصص اليونانية. وهذه حقيقة لا يعرفها الكثير منّا.

ثم تحدّث عن فارس وخدماتها في المجالات العلمية والفنية والأدبية وترجماتها على أيدي المسلمين. يبتدئ البحث بعدم وجود المنطق والفلسفة والهيئة والهندسة فيما بين التراث الفارسي ويستدل بقول حمزة الإصفهاني الذي يقول:

"فأما تواريخ من كان قبل الساسانية فلم أشتغل بها للآفاق المعترضة فيها وذلك أن الإسكندر لما استولى على أرض بابل وقهر أهلها حسد على ما كان اجتمع لهم من العلوم التي لم تجمع قط لأمة من الأمم مثلها فأحرق من كتبهم ما نالته يده ثم قصد إلى قتل الموابدة والهرابذة والعلماء والحكماء ومن كان يحفظ عليهم في أثناء علومهم وتواريخ حتى أتى على عامتهم"[1].

فترجم المسلمون تاريخ إيران ودينها وطبها وأدبها وفن حربها وهي كلها متعلقة بعهد أردشير. أحصى العلامة أكثر من ثلاثين كتابًا في مختلف العلوم والفنون والآداب الفارسية.

ثم كشف الستار عن تراث اللغات الكلدانية والنبطية والسريانية وذكر ما ترجم منها بكل دقة ثم تحدّث عن اللغة العبرية وما ترجم منها ثم ذكر اللغة القبطية وأشار إلى ما ترجم منها حتى وصل إلى اللغة السنسكريتية فذكر بدايتها من العصر المأموني حيث أهدى

[1] المصدر نفسه، ص 68

برهمن هندي من بلاط المأمون كتاب "سدهانتا" إليه فتمت ترجمته إلى العربية كما أرسل يحيى البرمكي رجلًا إلى الهند والذي عاد بتراثها العلمي والأدبي فتمت ترجمة كل منها. هذا البحث مهمّ للغاية ويحتوي على عشرة صفحات فذكر فيه بعد الإشارة إلى رغبة الخلفاء والوزراء والعامة في ترجمة الكتب السنسكريتية فذكر أبا ريحان البيروني الذي ترجم أكثر من 26 كتابًا سنسكريتيًا ثم التفت إلى الإمبراطور جلال الدين أكبر الذي كان راغبًا للغاية في نقل التراث السنسكريتي فنقل في عصره من الكتب السنسكريتية ما لا يحصى فيقول العلامة شبلي:

"ولو قمنا باستقصاء المؤلفات السنسكريتية لكل نوع من العلوم والفنون، التي ترجمت إلى العربية والفارسية لاحتجنا إلى تأليف رسالة مستقلة بذاتها وعسى أن أتحمّل هذه المشقة"[1].

ثم ذكر أسماء بعض الكتب السنسكريتية التي ترجمت إلى العربية. وأنهى بحثه الجامع على هذا.

رجع البصر إلى هذه المقالة

وعندما نرجع البصر إلى هذه المقالة نجد ما يلي:

أولًا: يبدو من هذا السرد الوجيز أن المسلمين في كل عصرهم اهتمّوا بترجمة تراث الأجانب العلمي والفني والأدبي وأن هذه العملية قد بدأت منذ الخلافة الأموية ولو أن بذورها قد نُشِرَتْ في عهد الرسول الكريم ﷺ، وأن العصر العباسي كان عصرًا مزدهرًا في هذا المجال فترجم فيه القدر الهائل من تراث الأجانب العلمي والفني والأدبي حتى مالوا إلى ترجمة اللغو والخرافة، وأن الإمبراطور جلال الدين أكبر كان كمثل الخليفة مأمون الرشيد في رغبته في تراث الأجانب ونقله إلى اللغات الأخرى، وأن أبا ريحان البيروني لم يتخلف عن حنين بن إسحاق في هذا المجال بل فاقه في ترجمة علوم العربية وفنونها وآدابها إلى السنسكريتية وبالجملة فالمقالة جيّدة قيّمة تحتفل بالموضوع.

[1] المصدر نفسه، ص 78

وثانيًا: أن العلامة لم يكن متعصبًا في بحثه القيّم هذا بل قد أشار إلى مناقص المسلمين ومترجميهم بجانب الإشارة إلى مننهم ومحامدهم فأشار إلى خطأ الترجمة الحرفية كما أشار إلى تعريبهم للأسماء السنسكريتية وعدم ذكرهم لمؤلفيها حتى صعب له معرفتها في هذه الأيام، وكذا يثبت أنه كان يعرف اللغة السنسكريتية جيدًا بجانب براعته في العربية والفارسية.

وثالثًا: ولو أن هذه مقالة وجيزة حاول فيها العلامة أن يتناول بالبحث والنقاش ما اعترض عليه المستشرقون من العهود لا سيما العصر العباسي الذي ترجم فيه كافة العلوم والفنون الأجنبية ولكنه مع ذلك تحدّث عن العصور الأخرى حتى لم يترك الخليفة عبد الرحمن الناصر والإمبراطور جلال الدين أكبر اللذين خدما هذا الفن خدمة جليلة وهكذا لم يغفل عن أبي ريحان البيروني الذي أثنى عليه المسشرقون أيضًا.

ورابعًا: أنّ ما كتبه العلامة في الموضوع أكثر وأدقّ مما كتبه الآخرون من العرب والأوربيين فقد قرأت مؤلفات العلماء الآخرين في هذا الموضوع فهي لا تقوم وزنًا مقابل هذه المقالة الوجيزة، وفوق ذلك أن العلامة قد أشار إلى ما كتبه الأوربيون ومن حذا حذوهم في الاعتراض على الإسلام وأتباعه كما قام بالردّ عليهم ردًّا مفحمًا.

وخامسًا: أن معظم ما كتبه العلامة شبلي مأخوذ من المصادر الأولوية فذكر في مقالته هذه فتوح البلدان والفهرست وطبقات الأطباء وكتاب التنبيه والإشراف ومروج الذهب وكتاب الملل والنحل وتاريخ الحكماء ورسائل الفارابي وتاريخ اليعقوبي واالآثار الباقية وكتاب الهند ومختصر الدول وتاريخ حمزة الإصفهاني والكشول للعاملي وآئين أكبري وميزان الحق وناسخ التواريخ وكشف الظنون ودائرة المعارف وسياحة المعارف وصناجة العرب وجامع القصص الهندية وكتاب مونك الفرانسيسي وغيرها من المصادر العربية والأجنبية.

وسادسًا: أنه قد صدرت كتب ورسائل مقالات أردوية في الموضوع بعد نشر هذه المقالة أمثال كتاب "دور العصر العباسي في نقل التراث الطبي" وكتاب "خدمات بيت الحكمة الطبية" ومقالة "عناية العرب بتراث الأجانب" ومقالة "ترجمات الكتب السنسكريتية في

عهد الإمبراطور جلال الدين أكبر" وكتّابها إما منحدرون من مدينة أعظم كرة أو منتمون إلى مدرسة العلامة شبلي النعماني الفكرية.

وسابعًا: وبجانب هذه المحاسن فقد وردت فيها زلات أو جَانَبَ العلامة ما لو التفت إليه أو قام به لأصبحت المقالة أجود وأوفى بالموضوع وهي كما يلي:

1. صرف العلامة شبلي النظرَ عن المدارس الموجودة في تلك الأيام والتي كان لها دور كبير وراء تقديم هذا التراث العلمي القيّم فلا نجد عنها في هذه المقالة ولو كلمات معدودات.
2. وأنه ذكر مجرد طريقتين للترجمة تداولها المترجمون والحال أنْ قد عمّها طرق أخرى للترجمة والنقل والتي تبدو خلال دراستنا هذه الكتب.
3. وأنه قد نشر البواعث والأسباب وراء هذه العملية وهي أربعة أو خمسة عنده بينما كانت هناك أسباب وحوافز أخرى فصلّتها في كتابي "حركة الترجمة في العصر العباسي" ولو هي ذكرت في موضع واحد لكان خيرًا.
4. وأنه لم يُشِرْ إلى ما ترجم عن الزراعة والبريد والألعاب والحيوان كما أنه سمّى "بيت الحكمة" بخزانة الحكمة بينما الاسم الأول عامّ متداول كما أن الاسم الثاني قد اشتهر به "خزانة الحكمة" لعلي بن يحيى المنجم أو "خزانة الحكمة" لفتح بن خاقان.
5. وأنه لم يفصّل إلا عن ثلاثة أو أربعة مترجمين فلو فصّل على الأقل عن تراجم رؤساء بيت الحكمة وسير مديري البيمارستانات لكان قد برأ عن أداء الذمة.
6. وأنه لو واصل هذه الحركة إلى العصر الجاهلي فذكر بعضَ ترجمات هذا العصر لكان قد ربط هذه السلسلة بماضي العرب السحيق ولكنه قد غفل عنه لأجل حديثه الخاص بمجهودات المسلمين.

وعلى الرغم من هذه الأشياء التافهة فإنها مقالة جيدة وتجدر بأن تتم ترجمتها إلى اللغات الأخرى ولقد قمت بنقلها إلى اللغة العربية وسأقوم بترجمتها إلى الإنجليزية إن شاء الله تعالى.

إسكات المعتدي على إنصات المقتدي

للفاضل العلّام محمد شبلي النعماني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المفيض الوسمي المذلّل الآبي المسيل الآذي بسطوته وسلطانه رافع العنان باسط الدجان ساقي الظمآن في هواجر الطلب ومعماته والصلوة على رسوله الهادي صاحب اللهى والأيادي أحمس من خضب بتامور الأعادي ومهج المعادي شفار القراضب وسنان الهوادي وأفضل من امتطأ سنام اليعامل واقتعد غوارب الخوادي وعلى آله وأصحابه ولاة الدول كماة الملل هداة السبل ما انهمر السواري وانسكب الغوادي على بقاع العمران وعراض البوادي وبعد فهذا نبذ من الكلام بل بلل للأدام لمن حام حول تحقيق المقام في أمر القراءة خلف الإمام حرّرت ليحتمي به ثغر حنفاء الإسلام فجاء بلطف الله مراحًا لمن حاول المرام وكفاحًا لمن بارز الكرام، أبيات للمؤلف:

وهـــل ذاك إلا موعظـــات ورحمـــة ونـــور هـــدًى للعـــالمين مســـائله

وقـــد جـــاء يهـــدي للـــتي هـــي أقـــوم ويغنيـــك عمـــا كنـــت دهـــرًا تداولـــه

لعمـــرك طـــلّ منـــه يشفـــي غلـــيلهم فكيـــف إذامـــا جـــاد للنـــاس وابلـــه

فنشرع في المقصود وبعد تمهيد مقدمة وهو حسبي ونعم المعبود أما المقدّمة فهي أنه من يؤمن بالله تعالى شأنه وسرح النظر إلى جلاله وسطو برهانه يتتبع آياته ويتقلّد بمرضاته فما يجده يوافق رضاه يأتي به وما يخالفه يأباه والآثمون والفسقة وإن كانوا دائبين من المعاصي لا ينكرون هذه القضية بل يخضعون لها الرقاب ويتطأطؤون لها النواصي فقضية أن الواجب على الناس الائتمار بأمره والانتهاء بنهيه والبغي إلى رضاه والفرّ من سخطه مما اتفق عليه العقول وأخذه الناس بالقبول لكن لما لم يكن لتفصيل جزئياته

بداهة على الأنظار وجلوة على النواظر بل هي خفية على الأبصار ومخفية عن البصائر فاحتاجوا في فحص مرماه إلى ذرائع ووسائل وفي قنص ظباها إلى فخاخ وحبائل فمن الناس من يعرف عزّ الرسل وجلالهم ويلوذ في ذيولهم في اقتناص العرفان ويتشبث في تحصيل الرضوان بعروة هداهم ومنهم من أنكر واستكبر فعارض هداهم وباراهم وما انقاد لهم ولا داراهم فحرم توفيق الاهتداء وهام في سملق بيداء وهم كجماعة المتفلسفة الذين لم يرتبطوا بربقة انقياد نبي ولم يهتدوا بدلالة الشرع إلى سبيل مرضي، أما الذين تلوا بلسان السعادة آيات التحقيق وحسوا بأيدي التوفيق كاسات الرحيق تقمصوا بقميص القبول وتقلدوا أمر الرسول وهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وهؤلاء حين إجالتهم قداح النظر في تحقيق الحق لا بدّ لهم من قضية مسلمة أعني كلّ ما جاء به الرسول حق لا يتوسع إنكاره لأنه عليه السلام لا يأتيه في تلقي الأمور عن الحق غلط وشين ولا يحوم حول تبليغه الأحكام وهن ومين فالقياس يترتب على أن هذا مما جاء به النبي عليه السلام وكل ما جاء به النبي عليه السلام فهو من الله تعالى فذا من الله تعالى ثم إن الناس في أخذ الحق وتلقي الصدق على مراتب فالرسل الكرام عليهم الصلوة والسلام في تلك القضايا بمعزل عن تجشم الفكر فهم على مناظر الشهود بمرأى من المشهود وأما من دونه فيستحيل أن يهتدي إلا بدلالته ومن تخلف وجرى على رأيه فقد تاه بضلالته وأما اللائذون بجنابه والمستمسكون بفضل خطابه ففئتان؛ الأولى المدركون لصحبته والسامعون لكلامه كصحبه الذين بذلوا جهدهم في حماية ذماره وهداية رسمه وآثاره ومن نزل منزلتهم بقرب العهد وقوة الفهم وجودة الرأي وهم لقلة الوسائط كأنهم صاحبوا الرسول الكريم وشافهوا النبي المعصوم ولما كثر الوقائع والمعاملات في زمنهم احتيج إلى أن يستنبط من كلام النبي تصريحًا وإيماءًا وتلويحًا وقد خفي المهيع وتوعر المسلك وكانت هذه الثانية من الأولى في جودة الرأي وإصابة الذهن في أعلى محل فلا جرم اجتمعت المسائل عليهم من كل باب وهم بعد الصحابة أقوى الناس عصمة من الارتياب والزلل وأوفاهم أمنًا للخطأ والخطل بحيث لا يمكن أن يحصى خطاهم إلا من يخطو خطاهم ويعلو علاهم ويسري

سراهم وأما من سواهم فلا يصل إلى سرّ فتواهم إلا بدلالتهم وهداهم ولذا ترى الناس يأتونهم من كل فجّ عميق ويرومونهم من مرمًى سحيق ومن دونهم إذا عرف مقداره لا يرخصه ديانته أن ينكر هداهم ويأخذ فطانته فإن فعل فهو كمريض عضيك آصٍ يخالف بمجرد رأيه طبيبًا حاذقًا يواسي. الثانية المؤمنون الذين لم يتيسّر لهم أن يبلغوا مبلغ الأولى فنهاية مسعاتهم وغاية جهدهم في تحصيل مرضات الله تعالى والاستنان بسنة رسوله أن يتشبثوا بالذين هم أقوى الأئمة أمنًا من الخطأ ولجودة الرأي أكشفهم للخطأ فكأنهم يجيبون لكل سؤل ويسعفون لكل مأمول ولما كانوا مختلفين في أجوبة المسائل ولا بدّ للنقيضين من صدق إحداهما وكذب الأخرى فعلى المستجدي بهم أن يختار ما رآه أحدهم ويتحرّى به فإنه كالواسطة لكلّ ما يأخذه من مسائل وأحكام ويقول هذا ما رأى موئلي ومجتهدي وكل ما رأى موئلي ومجتهدي فهو يوافق مرضات الله فالكبرى الكلية لما سلم في مسألة لا بد من تسليمها في كل باب فمثله كمثل متحرٍّ في الصحراء لا بد أن يتحرّى سمتًا رجّحه على غيره فما دام الترجيح باقٍ لا بدّ له أن يجعلها سمت القبلة فنسبة الفئة الثانية إلى الأولى كنسبة الأولى إلى صاحب الشرع إلا أنّ هناك الكبرى بقينبته وههنا ظنية لكنه لما كان نهاية مسعاة الثانية وغاية جهدهم والناس لم يؤمروا بما عدا طوقهم وبما لم يسعه باعهم فلا جرم تعيّن لهم أن يستنيروا بما اقتبسوا من أنوار المجتهدين ويقفوا آثارهم فمذهبهم للناس كجيع وسبيل وبيانهم وإشارتهم خريت لهم ودليل فمن يعمل برأيه وأعرض عنهم بعينه وخيلائه فقد هام في أوهامه وتاه وأهواه بضلالته هواه. أما المقصود فهوأنه لا يقرأ المؤتم خلف الإمام لا في الجهرية ولا في السرية والحجة على ذلك الآية الكريمة "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا" فإن المطلوب أمران: الاستماع والإنصات فيعمل بكل منهما والأول يخص بالجهرية والثاني لا فيجري على إطلاقه فيجب السكوت عند القراءة مطلقًا كذا في فتح القدير. والمنكرون قد بذلوا سعيهم في هدم بناء الاحتجاج وإني أذكر ما عرض لهم ثم أبطله بما يكون مسكتًا لكل من خاصم وحاجّ ويظهر لك أن هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج فنقول إنهم تفرقوا في

وجه الاعتراض شيعًا فمنهم من أثبت نزول الآية في الخطبة ومنهم من اختار ورودها في كلامهم في الصلوة مع أن سعيهم لا يكاد يرجع إلى طائل فإن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص المعنى وهذا على سبيل التنزّل وإلا فقد اتفق العلماء ومن يعتدّ به منهم على أن الآية وردت في الصلوة كما نقله البيهقي ويؤيدك ما وردت به الأخبار؛ قال علي بن طلحة عن ابن عباس قوله "وإذا قرئ القرآن" يعني في الصلوة المفروضة، رواه عماد بن كثير في تفسيره وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في القراءة عن أبي العالية أن النبي ﷺ كان إذا صلّى بأصحابه فقرأ قرأ أصحابه فنزلت هذه الآية فسكت القوم وقرأ النبي ﷺ كذا في الدر المنثور ثم اعترضوا على وجه الاستدلال بأن الآية تعارض قوله تعالى "فاقرؤا ما تيسّر من القرآن" وإذا تعارضا تسامحًا فلا يصلح الآية للاحتجاج على الإنصات وأجيب عنه بأن آية القراءة بعدما خصّ منه البعض وهو المدرك في الركوع إجماعًا حكمه فيما عدا المقتدي قلت الجواب: قد ارتضى به محقّقو الحنفية كابن الهمام ومن يحذو حذوه ويردّ عليه إما أولًا فلأنّ آية القراءة لا نسلم أنها مختصة في حق المدرك في الركوع فإن حكمها وجوب القراءة في الصلوة مطلقًا لا في كل ركعة منها والمدرك أنما فات منه القراءة في الركعة التي أدرك روعها لا في سائر الركعات فإذا أتى بالقراءة فيما بقي من الركعات فقد اشتمر بأمر فاقرءوا وما خصّ منه وإما ثانيًا فلأنه إن سلم تخصيص آية القراءة بالمدرك في الركوع تكون الآية ظنية لما ثبت في الأصول أن العام الخصوص منه البعض تصير ظنيًا وعلى هذا التقدير أي كونها ظنية لا يفرض القراءة على الإمام والفذ أيضًا فإن الثابت بالظني لا يتجاوز الوجوب ولا يثبت منه الفرضية قط مع أن الحنفية قد حكموا بفرضية القراءة على الإمام والفذ مستدلًا بهذه الآية فالصواب أن يقال أن حكم الآية وجوب القراءة في كل صلوة وقد تحقّقت في الصلوة التي أقيمت مع الإمام من الإمام فقراءة الإمام قراءة للمقتدي بمعنى أن القراءة فرض على المقتدي ولكن طريقة الأداء أن يؤديه الإمام يشهد على ذلك الحديث الصحيح من صلّى خلف الإمام فقراءة الإمام له قراءة ومن أقوى شبهات المنكرين أن الإنصات ترك الجهر العرب تسمّي تارك الجهر منصتًا وإن كان يقرأ في نفسه إذا لم يسمع أحد قراءته فيجوز للمقتدي أن يقرأ

سرًا وهذا مما أورده الواحدي في البسيط على ما نقله الإمام الرازي في تفسيره وتصدّى الإمام للجواب عنه فقال السماع غير والسماع غير فالاستماع عبارة عن كونه بحيث يحيط بذلك الكلام المسموع على وجه الكمال كما قال تعالى لموسى عليه السلام "وأنا اخترتك فاستمع لما يوحي" وإذا ثبت هذا وظهر أن الاشتغال بالقراءة مما يمنع من الاستماع علمنا أن الأمر بالاستماع يفيد النهي عن القراءة مطلقًا وقد نقل ذلك الجواب بعض العلماء فارتضى به مع أنه محل نظر بعد فإن للخصم أن يقول إن أردت أنه لا معنى للاستماع إلا هذا فهو في حيز المنع مع كونه مخالفًا لتصريح أهل اللغة ففي الصحاح استمعت كذا أي أصغيت وفي الصراح الاستماع گوش داشتن وصلته باللام قوله تعالى "فاستمعوا له" وإن أردت أن الاستماع يستعمل في ذلك المعنى أيضًا كما أنه مستعمل في مطلق السمع فلا يفي للمقصود فإن الخصم يمنع إرادة ذلك المعنى وأيّ دليل يدلّ على إرادة ذلك المعنى فالحق في الجواب ما نقول إنه لا شك في أن الإنصات حقيقة في السكوت أي ترك القراءة مطلقًا قال الجوهري الإنصات هو السكوت وكذا في أكثر كتب اللغة المتداولة وقال عبد الله بن عدب الله بن عتبة بن مسعود من شعراء الحماسة، شعر:

إن كنـــت لا ترهـــب ذمـــــي لمـــا تعلـــم صـــفحي عـــن الجاهـــل

فـــاخش ســـكوتي إذ أنـــا منصـــت فيـــك لمســـموعي خنـــا القائـــل

وكفاك شاهدًا على ذلك قول ابن مسعود أنصت فإن في الصلوة شغلًا سيكفيك ذاك الإمام رواه محمّد في الموطأ بسند جيد وإذا تقرّر أن الإنصات حقيقة في السكوت فلا يخلو من أن يكون حقيقة في ترك الجهر أيضًا أو مجازًا فيه إن سلمنا أن العرب يسمّي تارك الجهر منصتًا على قول الواحدي وإن كنّا نستحقّ طلب السند على ذلك الاستعمال من كلام العرب العرباء فعلى الثاني وهو الظاهر عندي فإن كتب اللغة ليس في أحد منها، فيما علمنا، أن الإنصات هو ترك الجهر فإن ثبت في بعض استعمالات العرب كونها بمعنى ترك الجهر فلعله من باب المجاز كأنهم نزلوا تارك الجهر منزلة المنصت وأطلقوا

عليه اسم المنصت مجازًا ويؤيّده أن اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز والمشترك يحمل على الحقيقة والمجاز فإن الاشتراك خلاف الأصل كما تقرّر في الأصول وإذا كان الإنصات مجازًا في ترك الجهر والمجاز لا يصار إليه إلا بدليل يمنع إرادة المعنى الحقيقي فلا بد من دليل يدلّ على إرادة ذلك المعنى وإن معناه الحقيقي لا يمكن أخذه في الآية وأنى للخصم إقامة الدليل على ذلك وعلى الأوّل أي كون الإنصات حقيقة في ترك الجهر أيضًا فأما أن يكون كلا المعنيين مرادًا في الآية وهو باطل لما ثبت أن المشترك لا عموم له وأما أن يكون المراد أحد المعنيين الحقيقيين فإن كان السكوت مرادًا فذلك ما ندّعيه وإن قصد ترك الجهر فأما إن أراد به معناه الأعمّ الشامل للسكوت والقراءة سرًّا أو يراد به القراءة سرًّا بالخصوص وعلى التقديرين يلزم أنه إذا قرأ الإمام مثلًا قدر نصف القرآن أو ثلثه يجب أو يجوز للمقتدي أن يقرأ شيئًا من القرآن سرًّا من غير الجهر به ما دام الإمام قارئًا وذلك مما لم يقل به أحد بل لا يتفوّه به عاقل فإذن قد ثبت أن لا محيص من إرادة السكوت في الآية فلا حمد لله على ذلك. وأورد المنكر أيضًا أن الآية تدلّ على الاستماع والسكوت فيختص بالجهر إذ لا يمكن الاستماع إلا في حالة الجهر فلا يتم الاستدلال فإن المقصود إثبات وجوب السكوت في كلتا الحالتين أي الجهر والسرّ قال القاضي بن عبد البرّ في ذكر الاستدلال على مذهب مالك وحجته قوله تعالى "وإذا قرئ القرآن الآية" لا خلاف أنه نزل في هذا المعنى دون غيره، ومعلوم أنه في صلوة الجهر لأن السرّ لا يسمع فدلّ على أنه أراد الجهر خاصة كذا في الزرقاني على الموطأ ونظن أنك يمكنك الجواب عن الإيراد بما ذكرناه سابقًا تحت الاستدلال بالآية من قبل الحنفية فتذكره واعترض بعض العلماء على الجواب فقال وفيه نظر وهو أن الأمر استماع القرآن والسكوت ليس أمرًا تعبديًا غير معلّل كما هو ظاهر بل هو حكم معلّل بإجماع القائسين والمعلّلين كوجوب السكوت عند الخطبة والقراءة خارج الصلوة ونحو ذلك ولا يظهر له علة ولو بعد التأمل إلا كون القرآن منزلًا للتدبر والتأمل وهو لا يحصل بدون الاستماع والإنصات ومن المعلوم أن هذا خاص بالجهرية التي يقرأ فيها الإمام جهرًا فيلزم المقتدين التدبر فيجب عليهم الإنصات وأما في السرية فلا يقرأ الإمام إلا سرًّا بحيث لا يقرع صماغ

المقتدين فلا يمكن أن يحصل التدبر لهم فيها وإن كانوا منصتين فلا يظهر لوجوب السكوت عليهم فيها وجه معتدّ به والقول بأن وجوب السكوت في السرية أمر تعبّدي غير معقول مطالب بالدليل المعقول على أن كثيرًا من أصحابنا وغيرهم أخذوا بعموم الآية المذكورة وعدم اختصاصها بالموارد المأثورة حتى فرعوا عليه كون سماع القرآن مطلقًا ولو خارج الصلوة فرض عين أو كفاية فلو كان المأمور به فيها الأمرين: الاستماع والسكوت الأول في الجهر والثاني في السرّ لزم أن يقال بوجوب سكوت من يقرأ القرآن عنده خارج الصلوة سرًّا كفاية أو علنًا وهو خلاف الإجماع بلا نزاع، انتهى بعبارته قلت ظاهر النص أنه يحبّب الاستماع والإنصات عند القراءة وأما أنه حكم معلّل وليس تعبديًا فلم يثبت وهذا البعض اكتفى بكونه ظاهرًا والخصم لا يسلمه ولو سلمنا فلم يقم دليل على أن العلة ليست إلا كون القرآن منزلًا للتدبر ولم لا يجوز أن يكون العلة التأدب مع كلام الله تعالى عند التلاوة سرًا وجهرًا ويختص الجهر بزيادة الاستماع للتدبر والتفكر وعدم ظهور علة سوى التدبر عند هذا البعض لا يستلزم ظهور عدم ما سواها مع أنّ العلة التي بيّنها هذا النص لا يجري فيمن اقتدى في الجهرية ولا يمكنه الاستماع مثلًا لبعده عن الإمام فهل يرفع حكم الإنصات عن مثل ذلك المقتدي وما أدري ما يصنع هذا البعض في قوله عليه السلام وإذا قرأ فأنصتوا فإن حكم الإنصات فيه عامّ لا يختصّ بالجهر وما هو جوابه في هذا الحديث فهو جوابنا في تلك الآية ثم ما قال في علاوته أنه يلزم أن يقال بوجوب سكوت من يقرأ القرآن عنده خارج الصلوة سرًا لا يكفي للنقض فإن كذب الثاني لم يبين بعد وأما قوله خلاف الإجماع بلا نزاع فلا بدّ من بيان الإجماع ومجرّد الاستبعاد وعدم رؤيته تصريح الفقهاء بوجوب سكوت من يقرأ القرآن عنده خارج الصلوة سرًا لا يفي لبيان الإجماع ولو ثبت فلعله لدفع الحرج وأورد أيضًا وقد قرّره بعض العلماء بأن الآية لا تدلّ إلا على وجوب الإنصات حال قراءة الإمام لاستماعه لا على السكوت مطلقًا فيجوز أن يسكت الإمام ما بين القراءة والتكبير أو ما بين الفاتحة والسورة أو ما بين القراءة والركوع سكتة فيقرأ المأموم في سكتات

الإمام في الجهرية الفاتحة وينصت عند القراءة ليكون عاملًا بالقرآن والسنة جميعًا كما قالت به جماعة من الأئمة نعم لو دلّت الآية على وجوب الإنصات بالكلية ولو عند السكتة لزم عدم جواز القراءة خلف الإمام مطلقًا، انتهى بعبارته قلت وكان يكفي في وجه الإيراد أن الآية لا تدلّ إلا على وجوب الإنصات حال قراءة الإمام لا على السكوت مطلقًا إلى آخر ما قرّره ولكنه لما أشرب في قلبه أن الإنصات ليس إلا للاستماع ولذا جوز القراءة للمؤتم في الصلوة السرية فإن السرية لا يمكن فيها استماع حتى يجب الإنصات ويمنع القراءة زاد هذه العبارة أي لاستماعه في الإيراد وأنت تعلم أن هذا هوس منه فإن الآية فيها أمران: الاستماع والإنصات فالأوّل يخص الجهرية والثاني لا كما قد بيّنا فيما مضى ثم أجاب هذا البعض عن الإيراد ناقلًا عن الإمام بأنّ سكوت الإمام أما أن نقول إنه من الواجبات أو ليس من الواجبات والأوّل باطل بالإجماع والثاني يقتضي أن يجوز له أن لا يسكت فبتقدير أن لا يسكت لو قرأ المأموم يلزم أن تحصل قراءة المأموم مع قراءة الإمام وذلك يفضي إلى ترك السماع وترك السكوت عند قراءة الإمام وذلك على خلاف النص وأيضًا فهذا السكوت ليس له حدّ محدود ومقدار مخصوص والسكتة مختلفة بالثقل والخفة فربما لا يتمكن المأموم من إتمام الفاتحة في مقدار سكوت الإمام وحينئذ تلزم المحذور المذكور، انتهى ثم قال بعيد ذلك والإيراد أن الأوّلين واردان على الشافعية وغيرهم قلت لا شكّ في أنه من أراد أن الفاتحة يمكن أداؤها بطريق الوجوب في سكتات الإمام فقد غلط وأما من رام أن دليل الحنفية لا يوافق دعواهم فإنهم أوجبوا السكوت على المؤتم مطلقًا والثابت من دليلهم أن السكوت يجب للمقتدي حال القراءة والسكتة ليس فيها قراءة حتى يجب الإنصات له فجواب الإمام لا يصلح دفعًا له والجواب القاطع لعروق الشبهة أن الثابت من الأحاديث سكتتان فإن أراد المورد أنه يجوز للإمام أن يسكت في غير تينك السكتتين الثابتين من الحديث فإنا نمنع الجواز ومن ادّعى الجواز فعليه الإثبات وإن أراد أن الإمام يسكت كما ورد به الحديث ويقرأ فيها المقتدي فنقول السكتة الأولى أي بعد التكبير لا نمنع القراءة فيها فإن شاء المؤتم قرأ فيها دعاء الافتتاح كما هو معمول عند الأئمة أو يقرأ الفاتحة بقدر ما يسعه إذ الإنصات

يجب على المقتدي من زمان شروع القراءة لا قبلها وأما السكتة الثانية فهي مبينة لم تثبت طولها بل قالوا إنها كانت للتأمين قال الطيبي الأظهر أن السكتة الأولى للثناء والثانية للتأمين كذا في شرح المشكوة للقاري وقال في حجة الله البالغة الحديث الذي رواه أصحاب السنن ليس بصريح في الإسكاتة الذي يفعلها الإمام لقراءة المأمومين فإن الظاهر أنها كانت للتلفظ بآمين عند من يسرّ بها أو سكتة لطيفة تمييزًا بين الفاتحة وآمين لئلا يشتبه غير القرآن بالقرآن عند من يجهر بها أو سكتة لطيفة ليرد إلى القارئ نفسه انتهى بقدر الحاجة فالقراءة للمؤتم في مثل تلك السكتة إن جوزنا فلا ضير فيه ثم نقول هذا كله على طريقة المحدثين وإلا فالسكتة الثانية مكروهة عندنا قال القاري في شرح المشكوة والسكتة الثانية عند الشافعي وأحمد كالسكتة الأولى ومكروهة عند أبي حنيفة ومالك انتهى بلفظه وأما السكتات الواقعة عند مقاطع الآي أو لانقطاع النفس فهي ليست من السكتة في شيء ولا يقطع القراءة وهذا لا يخفى على من عرف حقيقة الحركة والسكون فإن الحركة يقع في أثنائه أيضًا سكتات وهي لا يقطع الحركة أصلًا تذيب قال بعض العلماء حين أنصف في وهمه أن الآية لا تدلّ على عدم جواز القراءة في السرية انتهى ولا يخفى عليك أنه تفريع على الباطل فتذكر ما قدّمناه ولما شيدت مباني الاستدلال وكشفت الغطاء عن حقيقة الحال حان بنا أن نتوجّه إلى الأحاديث الواردة في هذا الباب ونحق الحق ونبطل الباطل بفصل الخطاب ولكنك إن ظهر لك حديث مخالف لما ألقيناه عليك فلا تغلط فإن الأمر بيّن وتقديم الكتاب على الآحاد أمر بيّن مع أن الأحاديث متعارضة والضعف فيما يخالفنا عارضة قال المخالف إن الآية المحتج بها تخالف كثيرًا من الأحاديث الصحيحة الدالة على لزوم قراءة الفاتحة للمقتدي فيجب أن يخصّ الآية بغير الفاتحة فمنها الحديث المرفوع الذي رواه جمع من الأئمة بطرق جيّدة فأخرج البخاري من طريق سفيان ابن عيينة عن الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة قال قال رسول الله ﷺ لا صلوة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب وأخرجه مسلم به سندًا ومتنًا وبالجملة فهو حديث صحيح لا يرتاب في ثبوته ومنها حديث أبي هريرة

مرفوعًا من صلّى صلوة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداج خداج خداج أخرجه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب أنه سمع أبا السائب مولى هشام بن زهرة يقول سمعت أبا هريرة يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول من صلّى صلوة الحديث وأخرجه النسأي قال أخبرنا قتيبة عن مالك عن العلاء بن عبد الرحمن إلى آخر السند وأخرجه مسلم في صحيحه قال حدّثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي قال انا سفيان بن عيينة عن العلاء ابن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال من صلّى صلوة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خداج ثلاثًا فإن قلت سفيان بن عيينة اختلط قبل موته بسنتين كما في التقريب للنواوي وعلاء بن عبد الرحمن متكلم فيه قلت أما الجواب عن الأوّل فهو أن أصحاب الصحاح رووا عنه قبل اختلاطه قال في تدريب الراوي ويغلب على الظن أن سائر شيوخ الأئمة الستة سمعوا منه قبل ذلك والعلاء بن عبد الرحمن موفق محتج به وقد بسط الكلام فيه بعض العلماء فأجاد ونحن لا نطول البيان بذكره ورواه أبو داؤد في سننه قال حدّثنا الأميني عن مالك عن العلاء بن عبد الرحمن أنه سمع أبا السائب إلى آخر السند ومنها حديث عبادة بن الثابت قال كنا خلف رسول الله ﷺ في صلوة الفجر فقرأ رسول الله ﷺ فثقلت عليه القراءة فلما فرغ قال لعلكم تقرءون خلف إمامكم قلنا نعم يا رسول الله ﷺ قال لا تفعلوا إلا بفاتحة الكتاب فإنه لا صلوة لمن لم يقرأ بها رواه أبو داؤد في سننه من طريق محمد بن إسحق عن مكحول عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت يرفعه ورواه أيضًا من طريق مكحول عن نافع بن محمود بن الربيع الأنصاري ورواه أيضًا من طريق مكحول عن عبادة نحو حديث الربيع وأخرجه الترمذي من طريق محمد بن إسحق عن مكحول عن محمود ابن الربيع عن عبادة بن الصامت وقال حديث عبادة حديث حسن وفي شرح المشكوة لعلي القاري قال ميرك نقلًا عن بن الملقن حديث عبادة بن الصامت رواه أبو داؤد والترمذي والدار قطني وابن حبان والبيهقي والحاكم وقال الترمذي حسن وقال الدار قطني إسناده حسن ورجاله ثقات وقال الخطابي إسناده جيد لا مطعن فيه وقال الحاكم إسناده مستقيم وقال البيهقي صحيح انتهى قلت الأحاديث المذكورة تعارضها أحاديث أخر فمنها حديث من صلّى خلف

الإمام فقراءة الإمام قراءة له رواه محمد في المؤطا عن أبي حنيفة عن أبي الحسن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر عن النبي ﷺ قال من كان له إمام فقراءة الإمام قراءة له وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين قاله ابن الهمام في فتح القدير وقال شيخ الإسلام بدر الدين العيني هو حديث صحيح قلت أما البحث عن الرواة فأبو حنيفة أبو خيفة وأبو الحسن من الثقات الأثبات ومن رجال الصحيحين كذا في البناية لبدر الدين العينيي وقال الحافظ ابن حجر في تهذيب التهذيب في ترجمة موسى ابن أبي عائشة قال علي بن المديني سمعت يحيى بن سعيد يقول كان سفيان الثوري يحسن الثناء عليه وقال الحميدي عن بن عيينة حدثنا موسى بن أبي عائشة وكان من الثقات قال إسحاق بن منصور عن بن معين ثقة وقال محمد بن حميد عن جرير كنت إذا رأيت موسى ذكرت الله تعالى لرؤيته انتهى وعبد الله بن شدّاد من كبار الثالثة وثقاتهم كذا في العيني وقال الخافظ في تهذيب التهذيب روى عن أبيه وعمرو يعلى وطلحة ومعاذ والعباس وابن مسعود انتهى ثم ذكر بعيد ذلك قال العجلي والخطيب وهو من كبار التابعين وثقاتهم وقال أبو زرعة والنسأي ثقة انتهى بقدر الحاجة والحديث رواه ابن أبي شيبة في مصنفه قال حدّثنا مالك بن إسماعيل عن الحسن بن صالح عن أبي الزبير عن جابر رفعه قال علي بن عثمان المارديني في الجوهر النقي بعد ذكر الإسناد المذكور وهذا سند صحيح وكذا رواه أبو نعيم عن الحسن بن صالح عن أبي الزبير ولم يذكر الجعفي كذا في أطراف المزي وتوفي أبو الزبير سنة ثمان وعشرين ومائة ذكره الترمذي وعمرو بن علي والحسن بن صالح ولد سنة مائة وتوفّي سنة سبع وستين ومائة وسماعه من أبي الزبير ممكن ومذهب الجمهور إن أمكن لقاؤه لشخص وروى عنه فروايته محمولة على الاتصال فيحمل على أن الحسن سمعه عن أبي الزبير مرة بلا واسطة ومرة أخرى بواسطة الجعفي والليث انتهى ما في الجوهر النقي قلت وأما البحث عن الرواة فمالك بن إسماعيل النهدي أبو غسّان الكوفي سبط حماد بن أبي سليمان ثقة متقن صحيح الكتاب عاد كذا في التقريب وقال في تهذيب التهذيب عن ابن معين قال هو أجود كتابًا

من أبي نعيم وقال يعقوب بن شيبة ثقة صحيح الكتاب وكان من العابدين وقال مرة كان ثقة متقنًا وقال أبو داؤد كان صحيح الكتاب جيّد الأخذ وقال النسأي ثقة وذكره ابن حبان في الثقات وقال ابن شاهين في الثقات قال عثمان بن أبي شيبة أبو غسان صدوق ثبت متقن إمام من الأئمة انتهى قلت فإذن لا يقدح فيه ما قال الذهبي في الميزان على ما نقله في التهذيب فقال ذكره ابن عدي واعترف بصدقه وعدالته لكن ساق قول الثوري كان سيئًا يعني الحسن ابن صالح على عبادته وسوء مذهبه انتهى فإن هذا القدر من الجرح وإن سلم فلا يقدح في الاحتجاج به وحسن بن صالح ثقة فقيه عابد رمي بالتشيع من السابعة كذا في التقريب وقال في التهذيب قال ابن سعد كان ناسكًا عابدًا فقيهًا حجة صحيح الحديث كثيره وكان متشيّعًا قال الدارقطني ثقة عابد وقال أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي عجيب لا قوام قدموا سفيان الثوري على الحسن انتهى وأما أبو الزبير فهو محمد بن مسلم الأسدي المكي مولاهم صدوق وقال ابن معين ثقة وقال أحمد لا بأس به وقال أبو عمرو ثقة حافظ متقن روى عنه مالك والسفيانان والليث وابن جريج وجماعة من الأئمة ولا يلتفت إلى قول شعبة فيه كذا في الزرقاني على الموطأ وقال الساجي صدوق حجة في الأحكام قد روى عنه أهل النقل وقبلوه واحتجوا به قال وبلغني عن يحيى بن معين أنه قال استخلف شيبة أبا الزبير المكي بين الركن والمقام أنك سمعت هذه الأحاديث من جابر فقال والله إني سمعتها من جابر يقولها ثلاثاً كذا في تهذيب التهذيب قلت وهو من رجال مسلم قال النووي في مقدمته للمسلم فإذا كان الحديث رواته كلهم ثقات غير أن فيه أبا الزبير المكي أو سهل بن أبي صالح أو العلاء بن عبد الرحمن أو حماد بن مسلمة قالوا فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم انتهى بقدر الحاجة ووجه المعارضة بين الأحاديث المتقدمة الموجبة لقراءة الفاتحة على المؤتم وبين هذا الحديث أي حديث الكفاية أن حديث الكفاية يدلّ على عدم وجوب قراءة الفاتحة الكتاب حتى المقتدي فيتعارضان قال بعض العلماء والأحاديث الموجبة لقراءة الفاتحة منها على كون ذلك للمؤتم فيمكن أن تخصّص بغير الفاتحة كما ذهب إليه جابر بن عبد الله مع إمكان حملها على ما لا تثبت اللزوم انتهى وهذا القول مفضٍ إلى

العجب فإن لفظه من عام صرّح به أهل الأصول والعام يتناول بالقطع لما هو تحته فقول هذا البعض منها لا يدل على كون ذلك للمؤتم مبني على عدم فهمه حقيقة العام وإن أراد أنه لا يدلّ تصريحًا بيّنًا على وجوب الفاتحة للمقتدي فكذا حديث جابر ونحوه لا يدلّ على إجزاء قراءة الإمام الفاتحة للمقتدي بالتصريح البين فتخصيص حدث عبادة بغير المقتدي ليس بأرجح من تخصيص حديث جابر بغير الفاتحة وأما قوله مع إمكان حملها على ما لا يثبت اللزوم فنداء من مكان بعيد كيف والظاهر من الحديث أن الصلوة لا تصحّ بغير الفاتحة وظاهر أن ما لا تصح الصلوة إلا به فهو لازم في الصلوة البتة ومنها حديث الإنصات رواه جمع من الأئمة فأخرجه أبو داؤد في سننه من طريق أبي خالد عن بن عجلان عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال إنما جعل الإمام ليؤتم به الحديث وزاد فيه وإذا قرأ فأنصتوا قال أبو داؤد وهذه الزيادة وإذا قرأ فأنصتوا له ليست بمحفوظة الوهم عندنا من أبي خالد وأخرجه النسأي قال أخبرنا الجارود بن معاذ الترمذي ثنا أبو خالد إلى آخر السند قال قال رسول الله ﷺ إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبّر فكبّروا وإذا قرأ فأنصتوا وأخرج أيضًا قال أخبرنا محمد بن عبد الله بن المبارك ثنا محمد بن سعد الأنصاري قال حدثني محمد بن عجلان بذلك السند والمتن فإن قلت هذه الزيادة أي وإذا قرأ فأنصتوا لا يصح الاحتجاج به قال النووي في شرح صحيح مسلم اعلم أن هذه الزيادة مما اختلفت الحفاظ في صحته فروى البيهقي في السنن الكبرى عن أبي داؤد أن هذه اللفظة ليست بمحفوظة وكذلك رواه عن يحيى بن معين وأبي حاتم الأرزي والدارقطني والحافظ النيسابوري شيخ الحاكم أبي عبد الله قال البيهقي قال أبو علي الحافظ هذه اللفظة غير محفوظة قد خالف سليمان التيمي فيها جميع أصحاب قتادة انتهى وقال البيهقي في السنن الكبرى وكذلك رواه أبو خالد الأحمر عن ابن عجلان وهو وهم من ابن عجلان انتهى قلت الكلام يدور على أمرين الأوّل إن الزيادة وهم من أبي خالد أو تخليط من ابن عجلان والثاني إن سليمان التيمي خالف فيها جميع أصحاب قتادة فالجواب عن الأوّل أن أبا خالد ثقة

حجة قال في الجوهر النقي وأبو خالد ثقة أخرج له الجماعة وقال إسحاق بن إبراهيم سألت وكيعًا عنه فقال وأبو خالد ممن يسأل عنه وقال أبو هشام الرفاعي ثنا أبو خالد الأحمر الثقة الأمين انتهى وقال في تهذيب التهذيب قال ابن أبي مريم عن ابن معين ثقة وكذا قال علي بن المديني وقال ابن سعد كان ثقة كثير الحديث وذكره ابن حبان في الثقات وقال العجلي ثقة ثبت انتهى وقد ثبت أن زيادة الثقة مقبولة قال النوي زيادات الثقة مقبولة مطلقًا عند الجماهير من أهل الحديث والفقه والأصول انتهى وقال في الجوهر النقي وبهذا يظهر أن الوهم ليس من أبي خالد كما زعم أبو داؤد وقد ذكر المنذري في مختصره كلام أبي داؤد وردّ عليه بنحو ما قلنا انتهى وكذلك محمد بن عجلان المدني حجة قال في التهذيب قال أبو زرعة ابن عجلان من الثقات وقال أبو حاتم والنسأي ثقة وقال العجلي مدني ثقة وقال الساجي هو من أهل الصدق وقال ابن عيينة كان ثقة صائمًا وقال الدوري عن ابن معين ثقة انتهى وقال في الجوهر النقي ابن عجلان وثقة العجلي وفي الكمال لعبد الغني ثقة كثير الحديث وذكر الدارقطني إن أخرج له مسلم أخرج له في صحيحه فهذا كما مرّ زيادة ثقة وقد تابعه عليها خارجة بن مصعب ويحيى بن العلاء كما ذكره البيهقي والجواب عن الثاني أن سليمان التيمي ما خالف جميع أصحاب قتادة قال في الجوهر النقي وقد تابعه على روايته سعيد بن أبي عروبة وعمرو بن عامر فرواه عن قتادة كذلك أخرجه البيهقي من حديث سالم بن نوح عنهما فبطل قول أبي علي خالف أصحاب قتادة كلهم انتهى وإن سلّم فسليمان التيمي ثقة حجة والزيادة منه مقبولة قال في الجوهر النقي والتيمي جليل المقدار قال شعبة ما رأيت أصدق منه ثم نقول الحديث صحّحه مسلم صاحب الصحيح حيث قال هو صحيح عندي وصحّحه ابن عزم أيضًا وأحمد بن حنبل الإمام أيضًا قال في الجوهر النقي قلنا وابن حزم حصّح حديث ابن عجلان وذكر أبو عمرو في التمهيد بسنده عن ابن حنبل أنه صحيح الحديثين يعني حديث أبي موسى وحديث أبي هريرة هذا انتهى وأيضًا صحّحه ابن خزيمة قال في البناية وصحّح ابن خزيمة حديث ابن عجلان المذكور فيه تلك الزيادة انتهى وأما وجه المعارضة بين الأحاديث الموجبة لقراءة الفاتحة خلف الإمام وبين هذا

الحديث فلأن الظاهر من حديث الإنصات أن المقتدي ممنوع عن القراءة مطلقًا حين قراءة الإمام والظاهر من الأحاديث المتقدمة أن المقتدي يجب عليه قراءة الفاتحة وهل هذا إلا التعارض البيّن. قال بعض العلماء وبعد اللتيا والتي الذي يظهر بالنظر الدقيق ويقبله أصحاب التحقيق هو أن الأحاديث التي استدلّ بها أصحابنا ليس فيها حديث يدلّ على النهي عن قراءة الفاتحة خلف الإمام خصوصًا حتى يعارض به الأحاديث الواردة في قراءتها خلف الإمام خصوصًا فيدفع ذلك بالجمع أو الترجيح أو التساقط أو النسخ بل هي متنوعة إلى أنواع ثلاثة فمنها ما يدلّ على وجوب الإنصات عند القراءة كالحديث الأوّل وهو إن كان بظاهر لفظه وعمومه يدلّ على الإنصات مطلقًا لكن النظر الدقيق يحكم بأنه يمنع من القراءة مع قراءة الإمام في الجهرية بحيث يخل بالاستماع والتدبر ولا يدلّ على وجوبه في الجهر أثناء السكتات ولا على وجوبه في السرّ وكذا الآية القرآنية وكذلك الحديث الثاني والثالث والرابع وإثبات وجوب السكوت مطلقًا من هذه الأحاديث وكذا من الآية وإن قال به جمع من أصحابنا عند التنازع لكنه لا يخلو عن تكلف وتعسف انتهى وقال هذا القائل بعد ذكر الوجه الخامس من الجواب للحنفية وفيه أن ليس هناك حديث ينصّ على النهي عن قراءة الفاتحة خصوصًا حتى يعارض به حديث قراءتها خصوصًا بل منها ما هي واردة بالنهي مطلقًا وليس سنده بذلك فيكون مرجوحًا ومنها ما هي واردة لإفادة كفاية قراءة الإمام فلا يعارضه حديث عبادة إذا حمل على إجازة القراءة خلف الإمام انتهى قلت وفيه أما أولًا فإنا لا نسلم أن يشترط في التعارض كون النهي لخصوص الفاتحة بل إذا كان النهي واردًا لمطلق القراءة يكون للفاتحة أيضًا وأن شئت زيادة تفصيل فاستمع لما نقول لا شكّ أن مفهوم حديث المنع أن هل قراءة ممنوعة خلف الإمام ومفهوم الأحاديث المتقدمة أن بعض القراءة أي قراءة الفاتحة ليست بممنوعة بل هي واجبة وهل نظنّ أن لا تعارض بين الموجبة الكلية والسالبة الجزئية فقول هذا البعض ليس فيها حديث يدلّ على النهي عن قراءة الفاتحة خصوصًا حتى يعارض به الأحاديث الواردة في قراءتها خلف الإمام خصوصًا لا يرجع إلى طائل فقد

بيّنا أن الدلالة على النهي عن قراءة الفاتحة خصوصًا لا يشترط في التعارض بل يكفي فيه كون الحديث دالًا على النهي عن مطلق القراءة والعجب كل العجب أن هذا البعض قال بعيد ذلك ومنها ما يدلّ على كفاية قراءة الإمام للمقتدي وإنه لو لم يقرأ المقتدي صحّت صلاته بقراءة إمامه كالحديث الثامن والحادي عشر والثالث عشر فيمكن أن يعارض ما صحّ منه بإطلاقه الأحاديث الواردة في إيجاب قراءة الفاتحة خلف الإمام بعمومها أو خصوصها ويختار طريق الجمع بينهما انتهى ووجه العجب أن هذا البعض قد اعترف بأن حديث الكفاية بإطلاقه يعارض الأحاديث الواردة في خصوص الفاتحة ولم يشترط كون الحديث دالًا على كفاية الفاتحة خصوصًا وأما ثانيًا فإن تخصيص هذا القائل حديث الإنصات والآية القرآنية بالصلوة السرية وتقييد قراءة المقتدي بكونه مخلًا في التدبر والاستماع في الصلوة الجهرية تخصيص بلا دليل ولا أدري كيف يجترئ هذا القائل بتخصيص عموم الحديث والآية من غير حجة بينة بمجرد رأي من عند نفسه ولا أدري هل يقدم هذا القائل فهمه على فهم الصحابة حيث يقول إن حديث المنازعة أيضًا لا يدل على وجوب الإنصات في الجهر أثناء السكتات فإن الصحابة تركوا القراءة مطلقًا في الجهرية وأما ثالثًا فلأن قوله بل منها ما هي واردة بالنهي مطلقًا وليس سنده بذلك فيكون مرجوحًا انتهى. ليس إلا من قلة اعتنائه بالأحاديث فإن حديث الإنصات والتنازع مرويتان في الصحاح ويصحّ الاحتجاج بهما ومفهومهما النهي عن القراءة صريحًا وأما رابعًا فلأن قوله ومنها ما هي واردة لإفادة كفاية قراءة الإمام فلا يعارضه حديث عبادة إذا حمل على إجازة القراءة خلف الإمام انتهى خرق للإجماع فإن حمل حديث عبادة على إجازة القراءة من غير تأكد ووجوب حمل غير مرضي ومنها حديث المنازعة أخرجه مالك عن ابن شهاب الزهري عن أبي أكيمة الليثي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلوة جهر فيها بالقراءة فقال هل قرأ معي منكم من أحد فقال رجلٌ إنا يا رسول الله فقال إني أقول ما لي أنازع القرآن فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيما جهر به من الصلوة حين سمعوا ذلك وأخرجه أبو داؤد والنسأي من طريق مالك وأخرجه الترمذي من طريق مالك وقال هذا حديث

حسن وأخرجه ابن ماجة من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري عن ابن أكيمة سمع أبا هريرة يقول صلّى النبي ﷺ صلوة نظن أنها الصبح فقال هل قرأ منكم من أحد فقال رجل أنا يا رسول الله فقال إلى أقول ما لي أنازع القرآن وأما وجه التعارض فهو أن الأحاديث المتقدمة تدل على وجوب قراءة الفاتحة في السرّ والجهر كليهما وحديث المنازعة يدل على النهي عن مطلق القراءة في الجهرية وهل هذا التعارض يقول العبد الخاطئ الجاني الشبلي الأعظمي النعماني عندي أن مفهوم هذا الحديث منع القراءة في السرية أيضًا قال أبو الوليد الباجي ومعنى منازعتهم له أن لا يفردوه بالقراءة ويقرأوا معه من التنازع بمعنى التجاذب كذا في الزرقاني للموطأ وقال في غرائب الحديث صلّى صلّى الله عليه وسلّم فلما سلّم من صلوة قال ما أنازع القرآن أي أجاذبه وذلك أن بعض المأمومين قرأ خلفه انتهى وهذا يدلّ على أن التنازع واقع أيضًا إذا أسرّ الإمام ويقرأ المؤتم خلفه ولو سرًّا كيف لا ويصدق على المقتدي حينئذ أنه لا يفرد الإمام في القراءة بل يقرأ معه وهذا هو معنى التنازع ولعلك تقول لو كان مفهوم الحديث المنع في السرية لكانوا تركوا القراءة في السرية أيضًا فإنهم أحقّ بفهم كلام الرسول ﷺ منا فنقول ليس في الحديث ما يدلّ على أنهم تركوا القراءة في السرية بل فيه بيان تركهم القراءة في الصلوة الجهرية وأما السرية فمسكوت عنها هذا وإذا ظهر لك أن الأحاديث الموجبة لقراءة الفاتحة خلف الإمام تعارضها أحاديث أخر وليس لأحد منها مزية على الآخر فلا يصلح واحد منها للاحتجاج فضلًا عن أن يخصّ به الآية ونقول إن شئت سبيل الجمع بين الأحاديث فاعلم أن حديث عبادة المتقدم من غير ذكر الجملة الاستثنائية فيها وحديث أبي هريرة محمولان على الإمام والفذ قال الترمذي في جامعه وأما أحمد بن حنبل فقال معنى قول النبي ﷺ لا صلوة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب إذا كان وحده واحتجّ بحديث جابر بن عبد الله حيث قال من صلّى ركعة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فلم يصل إلا أن يكون وراء الإمام قال أحمد فهذا رجل من أصحاب النبي ﷺ تأوّل قول النبي ﷺ لا صلوة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب أن هذا إذا كان وحده انتهى ولعلك تقول بل نترك الأحاديث

الموجبة لقراءة الفاتحة على عمومها ونتأول الأحاديث التي تعارضها كحديث الإنصات والمنازعة وأمثالهما قلت فحينئذ يلزم مخالفة الآية القرآنية فتذكر ما قدّمنا وأما حديث عبادة الذي وقع فيه الجملة الاستثنائية فهو ضعيف لا يصلح للمعارضة حتى نحتاج إلى التوفيق بينه وبين الأحاديث الماضية فإنها رويت من طرق عديدة ولا يخلو واحد منها من الضعف فأما الطريقة التي فيه محمد بن إسحاق فلان ابن إسحاق ضعيف وقد أطال بعض العلماء بتوثيق محمد بن إصحاق بن يسار ناقلًا عن عيون الأثر ونحن نقول إذا وقع الخلاف في تعديل أحد وجرحه فإن صدر الجرح مبينًا من عارف بالأسباب فلا شك أن الجرح يقدم على التعديل ولو كان التعديل من عارف بأسباب الجرح والتعديل قال الحافظ ابن حجر في شرح نخبة الفكر والجرح مقدم على التعديل وأطلق ذلك جماعة ولكن محله أن صدر مبينًا من عارف بأسبابه لأن من كان غير مفسّر لم يقدح فيمن ثبت عدالته وإن صدر من غير عارف بالأسباب لم يعتبر به أيضًا انتهى وسرّه أن المعدّل العارف بالأسباب يمكن أن لا يطلع على الجرح وأما الجرح فإذا صدر مبينًا من عارف بأسبابه فلا يكون في غائب الأوقات إلا بعد الاطلاع على وجه الجرح فنقول قد صدر الجرح مبينًا من العارف بالأسباب في محمد بن إساحق فقال يحيى أشهد أن محمد بن إصحاق كذاب كذا في ميزان الاعتدال للذهبي وقال سليمان التيمي كذاب كما في عيون الأثر فيقدم هذا الجرح على التعديل وإن صدر التعديل من عارفي الأسباب وكيف يظن أن أمثال يحيى بن القطان وسليمان التيمي قد تساهلا وبل هذا إلا ظن السوء بالثقات وما في عيون الأثر وأما ترك يحيى القطان حديثه فقد ذكرنا السبب في ذلك وتكذيبه إياه روايته من وهب بن خالد عن مالك عن هشام فهو ومن فوقه في هذ الإسناد تبع لهشام انتهى فلا يجدي نفعًا فإن الحكم بأن سبب تكذيبه ليس إلا رواية من وهب بن خالد عن مالك عن هشام ظن من ابن سيد الناس ويحتمل أن يكون سببه غير ذلك فإن يحيى لم يبين أن سبب تكذيبه ذلك بل المذكور في الرواية أن وهب بن خالد أخبر يحيى القطان بتكذيب ابن إسحاق فاستفسره القطان حتى جرّ التكذيب إلى هشام وليس فيه أن يحيى كذبه لأجل تكذيب وهب بن خالد إياه وأما الطريقة التي فيها نافع بن محمود

فلان نافعًا مجهول قاله ابن عبد البر كما في تهذيب التهذيب وقال في الجوهر النقي قال ابن عبد البر مجهول وقال الطحاوي لا يعرف انتهى وأما الطريقة التي روى فيها مكحول عن جامعة من الصحابة عن عبادة وأبي الدرداء وحذيفة وأبي هريرة وجابر ولم يسمع منهم انتهى وقال فيه أيضًا قال الترمذي سمع مكحول من واثلة وأبي هند وأنس ويقال أنه لم يسمع من واحد من الصحابة إلا منهم والحديث ضعّفه أحمد وجماعة قاله الزيلعي وقال يحيى بن معين الجملة الاستثنائية لهذا الحديث ليس سنده بذلك كذا في الدليل القوي للإمام الفاضل الهمام الحبر الحلاحل أستاذي وملاذي أحمد علي المحدث السهارنفوري اللهم إذا وقيته في حايته غوائل الدهر وريب المنون فمنّ عليه بعد مماته بأجر غير ممنون وهذا آخر كلامي في هذا الباب والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

تاريخ بدء الإسلام

للعلامة شبلي النعماني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلوة على رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد فهذه نبذة من وقائع النبوة وجملة من حوادث الرسالة جردتها من تاريخ أبي الفداء والكامل لابن الأثير والشفاء للقاضي عياض واقتبست شيئًا صالحًا من آيات القرآن فجاءت مع كونها جزءًا من كلٍ وغيضًا من فيض، كاملة للقدر الواجب جامعة لشتات المطالب فأما الأسفار التي دوّنت في ذلك فهي كساحة الملوك ويقع فيها الجوهر والخذف فلا تجدي إلا لمن كان من تنقيد الرواية وإمعان النظر في أعلى محلّ وبلغ في سعة العلم وجودة الذهن أعظم درجة وأبعد غاية وأما الذي فاتته دقة النظر وصيانة الرأي فحق أن يحجر عن الاقتحام في تلك المهامه الفجاء التي يجار فيها القطا وتقصر بها الخطا وإلا فيكون كراكب متن عمياء بل يخبط خبط عشواء.

وها أنا معترف حق الاعتراف أن حظي في جمعها ليس إلا للتأليف المحض ولا التقاط البحت وأصرح بأني بعدما ذكرت ابتداء الدعواة جئت بعباراتهم على أصلها وما زدت عليها شيئًا إلا ما ألجأني إليها شأن التأليف بين أشتاتها وقصدي إتيان الروايات على وجوهها وهباتها. ونشرع في المقصود والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

قال الله عزّ وجلّ "وما محمّد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل" هو محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وأمه آمنة بنت وهب ولد يوم الاثنين لاثني عشر خلون من ربيع الأول من عام الفيل وهي السنة الثانية والأربعون من ملك كسرى.

أرضعته الحليمة السعدية وتوفي أبوه عبد الله بعد شهرين وتوفي عبد المطلب بعد عام الفيل بثمان سنين وأوصى أبا طالب برسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقام أبو طالب بأمره وربّاه في حجره ولما ترعرع وبلغ أشدّه ظهر من صدق لهجته وصفاء طويته ما اشتهر به صيته وعلا ذكره حتى جرت به المثل ولقّبوه بالأمين. تزوّج بخديجة بنت خويلد وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ ابنة أربعين سنة. وكان من أمره أن خديجة كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال ولما بلغها عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق استأجره بأفضل ما كانت تعطيه غيره فخرج بمالها إلى الشام وتجر وربح ولما عاد إليها ورأت من حسن صنيعته وصدق أمانته عرضت عليه نفسها فدخل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أبيها خويلد بن أسد ومعه عمّاه أبو طالب وحمزة وغيرهما من عمومته فخطبها إليه وتزوّجها وولدت له زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم (وبه كنّي) والطاهر والطيب فأما القاسم والطاهر والطيب فماتوا قبل بعثته وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام. ولما بلغ أربعين بعثه الله نبيًا وأوحى إليه قرآنًا عربيًا وأمره أن ينذر قومه ويهديهم إلى الدين القويم الذي لا عوج فيه وكانت للعرب يومئذ ديانات مختلفة فمنهم من كان يميل إلى الدهر ويقول "إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما يهلكنا إلا الدهر" ويقول إذا ذكر له البعث والنشر "أإذا كنّا عظامًا ورفاتًا أئنّا لمبعوثون" ومنهم من كان يقرّ بالوحدانية ولكن مع ذلك يعتقد أن هنالك أشخاصًا من الملائكة والأرواح تدبّر أهل الأرض فيما يرجع إلى منافع الناس وعوايدهم ولذلك اتخذوا أصنامًا على هيئاتهم المفروضة وقالوا "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" ومنهم من كان يسمّي الملائكة تسمية الأثنى. فأما الفسوق والتفاجر وسوء التعامل والتظالم بالسبي وشيوع الربوا وكثرة النكاح وتعاور الحروب والوأد وقتل الأولاد فكانوا كلهم في ذلك على محجّة واحدة وديدانٍ مشتركة.

ولما دعاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى التوحيد والإسلام وأنكر عليهم عبادة الأصنام أخذتهم العزة بالإثم فأعرضوا واستهزءوا وأكثروا من الجدل واللجاج وتشبثوا

بحجج واهية وشبهات ساقطة فمنهم من يقول "أ جعل الإلهة إلهًا واحدًا" ومنهم من تمسّك بالتقليد الجامد فقال "ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا" فلما أحسّ منهم الكفر أثبت عليهم حجة الحق باستدلالات لطيفة سهل المأخذ سمح التعاطي لا تبعد عن محجتهم ولا تخرج عن نطاق دركهم فاستدلّ على وجود الخالق بشواهد الفطرة وعجائب آثارها وقال كما أوحى الله إليه "أ في الله شكّ فاطر السماوات والأرض الذي جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناءً"، "الذي يرسل الرياح فتثير سحابًا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفًا فترى الودق يخرج من خلاله وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحمًا طريًا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارًا وسبلًا لعلكم تهتدون" "والله أنزل من السماء ماءً فأحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون" و"وإنّ لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربّك وذللًا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكّرون والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" "ألم يروا إلى الطير مسخّرات في جوّ السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون" "وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد وتفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" "أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدًا رابيًا، إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابّة وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ويتفكّرون قي خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلًا أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيئ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسك أزواجًا

لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ومن آياته منامكم باليل والنهار ومن آياته يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينزل من السماء ماءً فيحيي به الأرض بعد موتها" وكذلك أثبت له صفاتٍ تلائم عظمة شأنه وعلوّ مرتبته من القدرة والخلق وسعي الرحمة والإحاطة بكل شيئ ونزهه مما لا يليق بجنابه وهكذا استدلّ على وحدانيته بحجة واضحة فقال "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا" "وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق" وأنكر عليهم عبادة الأصنام بقوله "واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا" وأما البعث والنشر فمع أنه أبعد شيئ عن مدارك العامة قرّره بمقدمات جلية يتلألأ عليها البداهة فمن ذلك قوله تعالى "ألم تك نطفة من مني يمنى" وقوله "من يعيد الخلق قل يحيها الذي أنشأها أول مرة"ولما كان أمر النبوة انقطعت من زمان اشتبهت على الناس مسائلها فاخترعوا لها من عند أنفسهم أحكامًا وما كان مستندهم في ذلك إلا ظنونًا وأوهامًا فكانوا يزعمون أن النبوة شيئ لا يسعها نطاق البشرية وإنها آخذة بطوق الإلهية ولذا أنكروا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتعجبوا من ادعائه النبوة فقالوا "أ بعث الله بشرًا رسولًا" "ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق" وقالوا يخاطبونه "لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار من خلالها تفجيرًا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا أو تأتي بالله والملاكة قبيلًا أو ترقى في السماء" فكشف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن جلية الحال وبيّن لهم حقيقة النبوة بأوضح تفصيل وأصدق مقال فقال كما أوحى الله إليه "لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسّني السوء إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد إن أتبع إلا ما يوحى إليّ إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون إني أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين وأمرت أن أكون من المسلمين وإني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ولا يأمركم أن

تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله" وبعدما أشرب في قلوبهم التوحيد وتهيأوا لكسب السعادة علّمهم من مكارم الأخلاق وخصائل الفطرة وتهذيب النفس وآداب المعاش ما فيه كفاية لكل أحد وليس فوقه غاية فقال لهم ما قال الله له "ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبّه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب".

"لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقًا من أموال ناس بالإثم، وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالهم، وإذا حيّيتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه" "لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق" "لا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق" "لا تقف ما ليس لك به علم" "لا تمش في الأرض مرحًا" "قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون" "عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا" "الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا" "وإذا مرّوا باللغو مرّوا كرامًا" "وأمرهم شورى بينهم".

ابتداء الدعوة

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يدعو سرًّا فآمن به خديجة وعليّ بن أبي طالب وكان تربّى في حجره صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر واسمه عبد الله ثم أسلم بعد أبي بكر عثمان بن عفّان وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير وطلحة. كان دعاهم إلى الإسلام أبو بكر فأجابوا وأذعنوا ثم بعد ثلاث سنين أوحى الله إليه "وأنذر عشيرتك الأقربين" فدعا عليًا وقال اصنع لنا طعامًا واجمع لي بني المطلب فدعاهم وهم أربعون رجلًا وفيهم أعمامه حمزة وأبو طالب وعباس فحضروا وأكلوا ولما فرغوا من الأكل وأراد النبي صلّى الله عليه وسلّم أن يتكلم بدره أبو لهب إلى الكلام وأغراهم به فتفرقوا

ثم أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليًا أن يصنع له في غد وبعدما فرغوا من الأكل قام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقال أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يوازرني على هذا الأمر فأحجم القوم جميعًا قال عليّ أنا يا رسول الله مع أني أجدعهم سنًا وأرمصهم عينًا وأحمشهم ساقًا. فقام القوم يضحكون وذهبوا إلى سبيلهم واستمرّ النبي على ما أمره الله يعيب أصنامهم ويذكر آلهتهم فأجمعوا على عداوته وذبّ عنه عمّه أبو طالب فجاء رجال من قريش أبا طالب وفيهم عتبة وشيبة وأبو جهل والوليد بن مغيرة فقالوا يا أبا طالب! إن ابن أخيك قد عاب ديننا وسفه أحلامنا وضلّل آبائنا فانه أو خلِّ بيننا وبينه فردّهم أبو طالب ردًّا حسنًا واستمرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ما هو عليه فعظم عليهم وأتوا أبا طالب ثانيًا وقالوا إن لم تنه نازلناك وإياه حتى يهلك أحد الفريقين فقال أبو طالب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما شأنك يا ابن أخي فظنّ أن عمّه خاذله فقال يا عمِّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما كنت لنترك هذا الأمر، ثم استعبر فبكى وقام فولّى فناداه أبو طالب يا ابن أخي قل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيئ أبدًا فأخذت كل قبيلة تعذب من أسلم منه.

ثم أسلم عمر وكان شديد البأس والنجدة وكان يبغض الإسلام فأراد قتل النبي صلّى الله عليه وسلّم وتقلّد السيف فلقيه رجل وقال له ما تصنع بمحمّد وقد أسلم ختنك وابن عمّك فقصدهم عمر وهم يتلون القرآن فسمع شيئًا منه ولما أحسوا به أخفوا الصحيفة وسكتوا وأخذ عمر يضرب أخته حتى شجّها فقالت افعل ما شئت ولسنا نرجع عن دين محمّد ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم وقال لها أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون حتى أنظر إلى ما جاء به محمّد فأعطته وقرأها فلما قرأ بعضها تأثر واعتراه روعة فقال لخباب وهو كان يعلّمهم القرآن دلّني على محمد فجاء إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم وضرب عليهم البابَ فأذن له ونهض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليه وأخذ بمجامع ثوبه وقال ما جاء بك يا ابن الخطاب قال عمر جئت لأؤمن بالله ورسوله فكبّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكبّر معه المسلمون ولما أسلم قال أيّ قريش أنقل

للحديث قالوا جميل بن معمّر فجاءه وأخبره بإسلامه فمشى جميل إلى الكعبة وعمر وراءه وصرخ يا معشر القريش ألا إن ابن الخطاب قد صبا، ويقول عمر من خلفه كذب ولكني أسلمت قاموا فلم يزل يقاتلهم ويقاتلونه حتى أعيا فقال افعلوا ما بدأ لكم فلو كنّا ثلث مائة نفر تركنا مكة لكم أو تركتموها لنا، فبينا هم كذلك إذ أقبل عاص ابن وائل وقال لهم خلّوا عن الرجل فإن بني عدي لا يسلمونه فكفّوا عنه ووثب كل قبيلة على من فيها من مستضعفي المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار ليفتنوهم عن دينهم فمنهم بلال كان يعذّبه أمية بن خلف فكان إذا حميت الشمس يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره ثم يأمر بالصخرة فتلقى على صدره ويقول لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمّد. ومنهم بسنية وكان يعذّبها حتى تفتن ثم يدعها ويقول إني لم أدعك إلا سآمة فاشتراها أبو بكر وأعتقها ومنهم زنيرة عذّبها أبو جهل حتى عميت فقال لها إن اللات والعزى فعلا بك فقالت وما يدري اللات والعزى من يعبدهما ولكن هذا أمرٌ من السماء. وهكذا جرى على كثير من المسلمين فصبروا واستقاموا.

أما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فكان في أشدّ شيئ وأعظم أمرٍ من أذاهم يستهزءون به ويأخذونه سخريًا فمنهم من يقول له "يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون"، "قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب" ومنهم من يقول "أ بعث الله بشرًا رسولًا"، "إن هذا لسحر مبين"، "أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر"، "إن هذا إلا أساطير الأوّلين لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه"، "إنما يعلّمه بشر"، "وكانوا إذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أ نؤمن كما آمن السفهاء"، ولم يكتفوا بالقول بل كانوا يؤذونه بأنواع الأذى، وأشدُّهم في أذاه أبو لهب وأبو جهل وأمية بن خلف وحارث بن قيس ووليد بن مغيرة وعاص بن وائل وغيرهم كانوا يستهزءون به ويسبّونه ويطرحون على بابه القذرة والنتن، وإذا قام للوعظ والتذكير كانوا يكذّبونه ويضربونه بالحجارة ويصيحون عليه ويلغون في كلامه.

ولما رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما يصيب أصحابه من البلاء أذن لمن ليس له عشيرة تحميه في الهجرة إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكًا لا يظلم عنده أحدٌ حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة فكانت أوّل هجرة في الإسلام فخرج عثمان بن عفّان ومعه زوجته رقية بنت النبي صلّى الله عليه وسلّم والزبير بن عوّام وغيرهم تمام عشرة رجال فركبوا البحر وتوجّهوا إلى النجاشي وكان مسيرهم في رجب سنة خمس من النبوة ثم خرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون فكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلًا وثماني نسوة فأرسلت قريش في طلبهم عبد الله وعمر بن عاص وأرسلوا معهما هدية إلى النجاشي ملك حبشة فوصلا وطلبا من النجاشي المهاجرين فلم يجبهما فرجعا خائبين.

ولما رأت قريش ذلك وإن الإسلام يفشو في القبائل ويتزايد حينًا بعد حين، تعاهدوا على بني هاشم وبني عبد المطلب أن لا يناكحوهم ولا يبتاعوهم وكتبوا بذلك صحيفة وتركوها في جوف الكعبة وانحازت بنو هاشم كافرهم ومسلمهم إلى أبي طالب ودخلوا معه في شعبه إلا أبا لهب (واسمه عبد العزّى بن عبد المطلب) فإنه خرج إلى قريش مظاهرًا لهم.

وأقامت بنو هاشم ومعهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نحو ثلاث سنين وبلغ المهاجرين أن أهل مكة أسلموا فقدم منهم ثلاثة وثلاثون رجلًا ولما قربوا من مكة ولم يجدوا ذلك صحيحًا لم يدخل أحدٌ منهم مكة إلا مستخفيًا ثم إن القريش بدأ لهم في ذلك فقام في نقض الصحيفة نفر منهم فاجتمعوا عند حجون وتعاهدوا على القيام في نقضها فقال زهير ابن أبي أمية المخزومي أنا أبدءكم فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال يا أهل مكة أ نأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم والله لا أقعد حتى نشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة قال أبو جهل كذبت والله لا نشقّ قال زمعة بن الأسود أنت والله أكذب ما رضينا بها حين كتبت وقام المطعم إلى الصحيفة فشقّها.

ثم توفي في شوال سنة عشر من النبوة أبو طالب عمّ النبي صلّى الله عليه وسلّم وبعده خديجة فاشتدّ الأمر وتتابعت المصائب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فكانت جيرانه يؤذونه بأنواع الأذى حتى ينشر بعضهم التراب على رأسه وحتى أن بعضهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلّي ولما اشتدّ عليه الأمر خرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة فعمد إلى جماعة من أراف ثقيف فجلس إليهم ودعاهم إلى التوحيد فقال واحدٌ منهم أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك وقال آخر والله لا أكلّمك أبدًا لأنك إن كنت رسولًا كما تزعم لأنت أعظم خطرًا من أن أردّ عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغي أن أكلّمك فقام رسول الله من عندهم وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي يا أرحم الراحمين ثم قدم إلى مكة وقومُه أشدّ مما كانوا عليه.

وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج ويدعوهم إلى الله فيقول يا بني فلان إني رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به وعمّه أبو لهب ينادي أنما يدعوكم إلى أن تتركوا اللات والعزى فلا تطيعوه. وأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كندة وكلبًا وبني حنيفة وبني عامر فلم يقبلوا ما عرض عليهم وقال رجل من بني عامر إن تابعناك وأظهرك الله على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك قال الأمر إلى الله يضعه حديث يشاء فقال الرجل أ تهدف نحورَنا للعرب فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا.

واستمرّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ما كان عليه من عرضه للقبائل فبينما هو عند العقبة إذ لقي نفرًا من الخزرج من أهل المدينة فعرض الإسلام عليهم وتلا عليهم القرآن وكانوا ستة رجال فآمنوا به وصدّقوه ثم انصرفوا إلى يثرب وذكروا ذلك لقومهم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشى فيهم الذكر، ولما كان العام المقبل وافى الموسم اثنا عشر رجلًا من الأنصار فبايعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أن لا يشركوا بالله ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم فبعث معهم رسول الله مصعب بن عمير ليعلّمهم

شرائع الإسلام وفشى الإسلام بينهم حتى لم يبق دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ثم إن مصعب بن عمير عاد إلى مكة ومعه ثلاثة وسبعون رجلًا من المسلمين فلما وصلوا إلى مكة واعدوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يجتمعوا به ليلًا في أوسط أيام التشريق بالعقبة فجاءهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعه عمُّه عباس وهو إذ ذاك مشركٌ فقال العباس يا معشر الخزرج إن محمدًا منا حيث علمتهم وهو في عزٍّ ومنعة ومع ذلك فإنه أبى إلا الانحياز إليكم فإن كنتم تقيمون بأمره وتمنعونه ممن خالفه فأنتم وما تحمّلتم من ذلك وإن كنتم لا تستطيعون ذلك فدعوه من الآن وقال رجل من الأنصار يا معشر الخزرج هل تدرون على تبايعون هذا الرجل؟ تبايعونه على حرب الأحمر والأسود فإن كنتم ترون أنكم خاذلوه حينئذ فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة وإن كنتم وافون له فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ثم بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نسائهم وأولادهم ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة وأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالًا وبقي مع النبي أبو بكر وعليّ رضي الله عنهما فأقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمكة بقية ذي الحجة والمحرم والصفر وهاجر إلى المدينة في ربيع الأول ولما بلغ قريشًا إسلام من أسلم من الأنصار اشتدّوا على المسلمين فأصابهم جهدٌ شديدٌ.

ولما علمت قريش أنه قد صار لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنصار خافوا من خروجه إلى المدينة فاجتمعوا في دار الندوة (وهي دارٌ بناها قصي بن كلاب وكانت العرب يجتمعون فها إذا كانوا على أمر جامع) فقال بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد كان من أمره ما كان وما نأمنه إن يثب علينا بمن اتبعه فأجمعوا فيه رأيًا فقال بعضهم احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه البابَ وقال آخر ننفيه من بلدنا ولا نبالي أين وقع وقال أبو جهل أرى أن نأخذ من كل قبيلة رجلًا ليضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ليضيع دمه في القبائل فلا يقدر بنو هاشم على حرب قومهم جميعًا. فاتفقوا على ذلك وبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأمر عليًا أن ينام على فراشه وكان الكفّار قد اجتمعوا على باب النبي

صلّى الله عليه وسلّم فخرج وهم نائمون وقصد دار أبي بكر فصحبه أبو بكر واستأجر عبد الله بن أرقط (وكان مشركًا) ليدلّ على الطريق ومضيا على غار بثور (وهو جبل بأسفل مكة) فأقاما فيه ثلاثة أيام وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بطعامهما مساء وجدّت قريش في طلبه حتى وصلوا إلى باب الغار ولما أحسّ بهم أبو بكر أحزن وقال أدركنا الطلب فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لا تحزن إن الله معنا ثم خرجا من الغار بعد ثلاثة أيام وتوجّها إلى المدينة وقدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المدينة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول يوم الاثنين حين كادت الشمس تعتدل فنزل قباء على كلثوم بن هدم وأقام بقبا الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسّس مسجد قبا وهو الذي نزل فيه لمسجد أسّس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه وخرج من قباء يوم الجمعة فما مرّ على دار من دور الأنصار إلا قالوا هلمّ يا رسول الله إلى العدد والعدة ويعترضون ناقتها فيقول خلّوا سبيلها حتى انتهت إلى موضع مسجده فبركت هناك فنزل عنها النبي صلّى الله عليه وسلّم واحتمل أبو أيوب الأنصاري رحل الناقة إلى بيته وأقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عند أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، وفي هذه السنة ولد عبد الله بن زبير وكان أوّل مولود للمهاجرين في المدينة وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار حتى كانوا شركائهم في الإرث والمال ثم دخلت سنة اثنتين وفيها حوّلت الصلوة إلى الكعبة وكانت بمكة وبعد مقدمه إلى المدينة بثمانية عشر شهرًا إلى بيت المقدس وفي هذه السنة فرض صوم شهر رمضان وفيها كانت غزوة بدر الكبرى.

ومن أمرها أن قريشًا بعدما هاجر المسلمون إلى المدينة لم يزالوا في جدّ وطلب ليدركوهم ويكيدوا بهم فجاء أبو جهل سرًا وخادع عياش ابن ربيعة وردّه إلى مكة فحبسوه وهكذا كانت صنيعتهم. وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أيضًا يبعث السرايا ليعرفوا أخبار قريش ويمنعوهم فجرّت إلى الحرب وكانت وقعات ثم إنه قدم لقريش قفلٌ من الشام يقودهم أبو سفيان ومعه ثلاثون رجلًا وبلغ أبا سفيان أنّ محمدًا يريده فأرسل إلى مكة وأعلم قريشًا بذلك فخرج الناس من مكة سراعًا ولم يتخلف من الأشراف غير أبي لهب وكانت عدتهم تسعمائة وخمسين رجلًا فيهم مائة فرس، ولما بلغ ذلك رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم ندب الناسَ فخفّ بعضهم وثقل بعضهم وفيهم من أراد أن يغير على القافلة فما ارتضى بذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وخرج من المدينة ليمنع قريشًا وذلك قوله تعالى "كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقًا من المؤمنين لكارهون، يجادلونك في الحق بعدما تبيّن كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحقّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين" وكان مسيرة عليه السلام لثلاث ليالٍ خلون من رمضان سنة 2 الهجرية ومعه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا منهم سبعة وسبعون من المهاجرين، والباقون من الأنصار ولم يكن فيهم إلا فارسان مقداد وزبير بن العوام وكانت الإبل سبعين يتعقبون عليها فكان بين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعلي وزيد بعير وبين أبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف بعير وعلى مثل هذا وكان اللواء مع مصعب بن عمير والراية مع علي بن أبي طالب وبلغه صلّى الله عليه وسلّم أنّ قريشًا بين تسعمائة إلى الألف وأن فيهم عتبة وشيبة والوليد وأبو جهل وعمرو بن عبدد وغيرهم من وجوه قريش. أقبل على أصحابه وقال هذه مكة قد ألقت إليكم أ فلا نكيدها ثم استشار أصحابه فقال أبو بكر وأحسن ثم قال عمر فأحسن ثم قام المقداد فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون" فو الذي بعثك لو سرت بنا إلى برك الغماد (مدينة الحبشة) لجادلنا معك ثم قال رسول الله أشيروا عليّ أيها الناس وإنما أراد الأنصار فقام سعد بن معاذ وقال كأنك تريدنا يا رسول الله قال أجل قال آمنا بك وصدّقناك فامض يا رسول الله فو الذي بعثك إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضنّه ثم انحطّ على بدرٍ فنزل قريبًا منا ولما التقى الجمعان برز من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة فخرج إليهم عوف ومعوذ ابنا عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا من أنتم قالوا من الأنصار فقالوا أكفاء كرام وما لنا بكم من حاجة ليخرج إلينا أكفاءنا فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم قم يا حمزة، قم يا عبيدة ابن الحرث بن عبد المطلب، قم يا

علي فأما حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله وهكذا فعل عليّ مع قرنه وليدٍ واختلف عبدة وعتبة ضربتين كلاهما قد أثبت صاحبه وكرّ حمزة وعليّ عتبة فقتلاه واحتملا عبيدة إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم قال ألستُ شهيدًا يا رسول الله قال نعم. قال لو رآني أبو طالب لعلم أننا أحقّ منه بقوله:

ونســـــلمه حـــــتى نصـــــرع حولـــــه ونـــــذهل مـــــن أبناءنـــــا والحلابـــــل

ثم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض واقتتل الناس قتالًا شديدًا وكانت الهزيمة على المشركين وعاد رسول الله فلقيه الناس يهنّئونه بما فتح الله عليه ولما قدم بالأسارى المدينة وكان فيهم سهيل بن عمر قالت له سودة زوج النبي صلّى الله عليه وسلّم أعطيتم بأيديكم كما تفعل النساء ألا متّم كرامًا فسمع رسول الله فقال لها يا سودة على الله وعلى رسوله قالت يا رسول الله ما ملكت نفسي حين رأيته إن قلت ما قلت وقال رسول الله استوصوا بالأسارى خيرًا فكان أحدهم يؤثر أسيره بطعامه ثم إن قريشًا أرسلت في فداء الأسرى فأطلقوا وكانوا سبعين، وكان جميع من قتل من المسلمين ببدر أربعة عشر رجلًا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار. وناحت قريش على قتلاهم ثم قالوا لا تفعلوا فيشمت محمد وأصحابه وكان الأسود بن عبد يغوث قد أصيب له ثلاثة من ولده زمعة وعقيل والحرث وكان يحبّ أن يبكي على بنيه فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة فقال لغلامه وقد ذهب بصره انظر هل أحلّ البكاء لعلي أبكي على زمعة (ابنه) فإن جوفي قد اخترق فرجع إليه وقال له إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلّته فقال عدة أبيات:

أ تبكـــــي أن يضـــــل لهـــــا بعـــــير ويمنعهـــــا مـــــن النـــــوم الســـــهود

ولا تبكـــــي عـــــلى بكـــــر ولكـــــن عـــــلى بـــــدر تقاصـــــرت الجـــــدود

فبكّـــــي إن بكيـــــت علـــــى عقيـــــل وبكّـــــي حارثًـــــا أســـــد الأســـــود

ثم إن أبا سفيان حلف أن لا يمس الطيب والنساء حتى يغزو محمدًا صلّى الله عليه وسلّم فخرج في مائتي راكب وبعث قدامه رجالًا فوصلوا إلى المدينة وقتلوا رجالًا من الأنصار فلما سمع النبي صلّى الله عليه وسلّم بذلك ركب في طلبه وهرب أبو سفيان

وجعلوا يلقون جرب السويق تخفيفًا فسميت لذلك غزوة السويق، وفي هذه السنة تزوّج عليّ بفاطمة رضي الله عنهما ولم يزل المشركون بعد ذلك يجتمعون ويريدون أن يصيبوا بالمسلمين فتجمع من ثعلبة ومن بني سليم ومن غيرهم في أوقات مختلفة ولكن لم تكن لهم شوكة وما أحدثوا شيئًا يذكر. ثم دخلت السنة الثالثة وكانت فيها وقعة أحد وكان من أمرها أنه مشى نفر من وجوه قريش فأتوا أبا سفيان وسألوه أن يعينه ومن معه من أهل التجارة فأجابوا وأرسلوا أربعة نفر منهم عمر بن العاص وغيره فساروا في العرب ليستنفروهم فجمعوا جمعًا من ثقيف وكنانة وغيرهم واجتمعت قريش بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل ودعا جبير بن مطعم غلامه وحشي بن حرب وكان حبشيًا يقذف بالحربة قلما يخطئ فقال له اخرج مع الناس فإن قتلت عمّ محمد بعمّي فأنت عتيق وخرجوا معهم بالظعن لئلا يفرّوا وكان أبو سفيان قائدهم فخرج بزوجته هند بنت عتبة وغيره من رؤساء قريش خرجوا بنسائهم وكان مع النساء الدفوف يبكين على قتلى بدر يحرّضن بذلك المشركين وكان مع المشركين أبو عامر الأنصاري وكان خرج إلى مكة مباعدًا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأقبلوا حتى نزلوا ذا الحليفة مقابل المدينة وكان وصولهم يوم الأربعاء لأربع ليالٍ مضين من شوال سنة 3هـ وكانوا في ثلاثة آلاف فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس فلما سمع بهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أراد المقام في المدينة وقالهم بها ولكن رأى باقي الصحابة الخروج لقتالهم فخرج النبي صلّى الله عليه وسلّم في ألف رجل واستخلف على المدينة ابن أمّ مكتوم فلما كان بين المدينة والأحد عاد عبد الله بن أبيّ بثلث الناس (وكان مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكان يضمر النفاق) وسار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى نزل بعدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وكان المسلمون في مائة دارع ولم يكن من الخيل غير فرسين وأرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول خلّوا بيننا وبين ابن عمّنا فنصرف عنكم فردّوا عليه ما يكره وأعطى اللواء مصعب بن عمير وأمر الزبير على الخيل وخرج حمزة بالجيش بين يديه. ولما

التقى الناس ودَنَا بعضهم من بعض قامت هند زوج أبي سفيان مع النساء وضربن بالدفوف وهندٌ تقول:

نحـــــن بنـــــــات طـــــارق نمشـــــي علـــــى النمـــــارق

مشـــــي القطـــــا البـــــوارق والمســـــك فـــــي المفـــــارق

والـــــدر فـــــي المخـــــانق إن تقبلـــــوا نعـــــانق

أو تـــــــــــدبروا نفـــــــــــارق

فاقتتل الناس قتالًا شديدًا وأمعن في الناس حمزة وعلي وأنزل الله نصره على المسلمين وانهزم المشركون فطمعت الرماة في الغنيمة وفارقوا المكان الذي أمرهم النبي ملازمته فأتى خالد بن وليد مع أصحابه من خلف المسلمين فحمل على الرماة وقتلهم وحمل على أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من خلفهم فأتى المسلمون من جانبين ووقعت الهزيمة عليهم وكسرت رباعيته صلّى الله عليه وسلّم السفلى وشقّت شفته وكلم في وجنته وجبهته وسقط صلّى الله عليه وسلّم فحجشت ركبته وقاتل دونه نفر خمسة من الأنصار فقتلوا وترس أبو دجانة رسول الله بنفسه فكان يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه وقاتل مصعب بن عمير ومعه لواء المسلمين فقُتِلَ وظنّ قاتله أنه قتل النبي صلّى الله عليه وسلّم فرجع إلى قريش وقال إني قتلت محمدًا فوقع الصريخ واشتدّ الأمر وتفرّق الناس وثبت نفرٌ منهم أبو بكر وعمر وعليّ وغيرهم وانتهى أنس بن نضير إلى رجال من المهاجرين قد ألقوا بأيديهم فقال ما يحبسكم قالوا قتل رسول الله قال فما تصنعون بالحيوة بعد موته موتوا على ما مات عليه ثم استقبل القوم فقاتل حتى قوتل وقتل حمزة ومثلت هند وصواحبها بالقتلى من المسلمين وبقرت هند عن كبد حمزة ولاكتها وصعد أبو سفيان ومن معه في الجبل وصرخ بأعلى صوته الحرب سجال يوم بيوم أعلُ هبل ولما انصرف أبو سفيان نادى إن موعدكم العام المقبل وأمر رسول الله رجلًا أن ينظر في القتلى فرأى سعد الأنصاري وبه رمق فقال للذي رآه بلّغْ رسولَ الله عني السلام وقل جزاك الله خير ما جزا نبيّنا عن أمته وأبلغ قومي السلام وقل لهم لا

عذر لكم عند الله إن أصاب رسول الله أذًى وفيكم عين تطرف". قال ذلك ثم مات وأقبلت صفية أخت الحمزة فقال رسول الله لابنها الزبير لتردّها لئلا ترى ما بأخيها فلقيها الزبير وأعلمها بأمر النبي صلّى الله عليه وسلّم فقالت بلغني أنه مثّل بأخي وذلك في الله قليل فأتت حمزة وصلّت عليه ولما دفن الشهداء انصرف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومرّ بامرأة من الأنصار قد أصيب أبوها وزوجها فلما نعى لها قالت ما فعل رسول الله قال هو بحمد الله كما تحبّين قالت أرونيه فلما نظرت إليه قالت "كل مصيبة بعد جلل". وكان رجوعه إلى المدينة يوم السبت وفيها كانت غزوة حمراء الأسد وكان من أمرها أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما كان أمن رجعة الكفار فخرج مستسبقًا ليظنّ المشركون أن به قوة وشوكة فسار مع أصحابه حتى بلغ حمراء الأسد وهو على سبعة أميال من المدينة وكان خرج أبو سفيان مع جمع من المشركين ليستأصلوا المسلمين بزعمهم فبلغوا روحاء ومرّ عليهم معبد الخزاعي فسألوه ما وراءك قال محمّد خرج مع جمع لم أرَ مثله فثنى أبو سفيان ورجع إلى مكة وفي سنة 4 في صفر كانت غزوة الرجيع وكان سببها أن رهطًا من عضل والقارة قدموا على النبي صلّى الله عليه وسلّم وطلبوا أن يبعث معهم من يفقّههم فبعث رسول الله معهم ستة نفر فلما وصلوا إلى الرجيع (ماء لهذيل) غدروا بهم وأرادوا بهم كيدًا فقاتلهم أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقتل ثلاثة وأسر ثلاثة فأخذوهم إلى مكة وباعوهم من قريش فقتلوهم صبرًا وفيها (في صفر) أيضًا كانت غزوة بير معونة وكان سببها أن ابا براء قدم على النبي صلّى الله عليه وسلّم وقال لو بعثت إلى أهل نجد رجوت أن يستجيبوا لك فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخاف على أصحابي فقال أبو براء أنا لهم جارٌ فبعث رسول الله منذر الأنصاري في أربعين رجلًا من خيار المسلمين فمضوا ونزلوا بير معونة (وهو على أربع مراحل من المدينة) وبعثوا بكتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم إلى عامر ابن طفيل وكان رئيسهم فقتل حامل الكتاب وجمع الجموع وقصد أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم فتقاتلوا وقوتلوا من آخرهم إلا كعب بن زيد فإنه بقي فيه رمق وتوارى في القتلى

ثم لحق بالنبي صلّى الله عليه وسلّم وفيها (في شعبان) كانت غوة بدر الثانية خرج رسول الله لميعاد أبي سفيان فنزل بدرًا وأقام ثماني ليال وخرج أبو سفيان إلى مرّ الظهران ثم بدا له الرجوع وفيها أمر رسول الله زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة يهود وفيها ولد الحسين بن علي في قول، وفي السنة الخامسة في شوال كانت غزوة الخندق وكان من أمرها أن نفرًا من يهود بني نضير حزبوا الأحزاب وقدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقالوا نكون معكم حتى نستأصله فأجابوهم إلى ذلك ثم أتوا غطفان فدعوهم إلى ذلك فأجابوهم فخرجت قريش وقاعدها أبو سفيان وخرجت غطفان وقائدها عتبة فلما سمع بهم رسول الله أمر بحفر الخندق وكان أشار به سلمان الفارسي وأقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة في عشرة آلاف وأقبلت غطفان ومن تابعهم حتى نزلوا إلى جنب أحد وكان بنو قريظة عاهدوا النبي صلّى الله عليه وسلّم فما زال عليهم قريش حتى نقضوا العهد وصاروا مع الأحزاب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثم إن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبي جهل أقبلوا حتى وقفوا على الخندق وتيمّموا مكانًا ضيقًا فاقتحموه فجالت بهم خيولهم وخرج عمرو بن عبدود معلمًا ليعرف مكانه وطلب البراز فخرج إليه علي فتجادلا وقتله علي وخرجت خيلهم منهزمين ثم إن الله رمى الاختلاف بينهم وازداد على ذلك هبوب الصبا وكانت الأيام شاتية فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم وهذا ما قال الله "يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنود لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرًا إذ جاءواكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا وهنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا" فرحلت قريش وسمعت غطفان ما فعلت قريش فرحلوا راجعين إلى بلادهم.

وفيها كانت غزوة بني قريظة وكان من أمرها أن اليهود كانوا أشدّ شيئ على المسلمين لا يقومون بعهد ولا يوفون بوعد وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما قدم المدينة عاهدهم فنقضوا العهد عند وقعة بدر فخرج إليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

وجمعهم وقال احذروا ما نزل بقريش فقالوا يا محمّد لا يغرنك أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب ثم إنهم نبذوا العهد إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فحاصرهم في منتصف شوال سنة 4 الهجرية وكانت المحاصرة عشرة ليال ثم إنهم نزلوا على حكم رسول الله فكلّمه عبد الله بن أبيّ المنافق وأدخل يده في جيبه وقال أحسن يا محمّد فأمر رسول الله بإجلائهم وهذه هي الغزوة المسمّاة بغزوة بني قريظة ثم إن كعب بن أشرف اليهودي سار في سنة ثلاث إلى مكة وحرّض على رسول الله وبكى على أصحاب بدر وظاهره أبو رافع اليهودي فأثار الفتنة ثم إن بنو النضير لما خرج النبي صلّى الله عليه وسلّم إليهم في السنة الرابعة من الهجرة يستعينهم في أداء دية توامروا على قتله فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأجلاهم بعدما عجزوا عن القتال وضجروا من المحاصرة.

أما بنو قريظة فمع أنهم كانوا وادعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لما أغراهم قريش في وقعة الأحزاب نكثوا العهد وجاهروا بمخالفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فخرج إليهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صبحة وقعة الأحزاب وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة وقذف الله في قلوبهم الرعب ولما اشتدّ بهم الحصار نزلوا على حكم رسول الله فقال الأوس (وكانوا حلفاء بني قريظة) يا رسول الله افعل في موالينا مثل ما فعلت في موالي الخزرج يعني بني قينقاع فقال أ لا ترضون أن يحكم فيكم سعد بن معاذ قالوا بلى فأمر بإحضار سعدٍ فحملت الأوس سعدًا على الحمار ثم أقبلوا به إلى رسول الله وهم يقولون لسعدٍ يا أبا عمرو أحسن إلى مواليك فقال سعدٌ أحكم فيهم أن يقتل الرجال ويقسم الأموال ثم رجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى المدينة وحبس بنو قريظة في بعض دور الأنصار ثم إنهم قتلوا من آخرهم.

ثم دخلت سنة 6 وكانت فيها غزوة بني المصطلق وسببها أنه بلغ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن بني المصطلق تجمّعوا له وكان قائدهم الحرب فلما سمع بهم خرج إليهم رسول الله فلقيهم بماءٍ لهم فاقتتلوا وانهزم المشركون.

وفي هذه السنة خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم معتمرًا في ذي القعدة لا يريد حربًا ومعه جمع من المهاجرين والأنصار زهاء ألف وأربعمائة وساق الهدي مع سبعين بدنة ليعلم الناس أنه جاء زائر البيت فلما بلغ غسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال يا رسول الله هذه قريش سمعوا بمسيرك فاجتمعوا بذي طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبدًا ثم إن قريشًا أرسلوا عروة ابن مسعود الثقفي وهو سيد أهل الطائف فأتى رسول الله وقال إن قريشًا لبسوا جلود النمور وعاهدوا الله أن لا تدخل عليهم عنوة أبدًا ثم إن عروة جعل يتناول لحية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يكلّمه والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فجعل يقرع يده يقول كفّ يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا ترجع إليك فقال له عروة ما أقطعك وأغلظك فتبسّم رسول الله ثم قام عروة وهو يرى ما يصنع أصحابه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءَه ولا يسقط من شعره شيئ إلا أخذوه ورجع إلى قريش وقال لهم إني جئت كسرى وقيصر في ملكهما فو الله ما رأيت ملكًا في قومه مثل محمّد في أصحابه ثم إنّ رسول الله بعث عثمان ابن عفان إلى أبي سفيان وأشراف قريش أنه لم يأت لحرب فلما وصل إليهم عثمان حبسوه فبلغ النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه قد قتل فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ثم دعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة على الموت وكانت بيعة الرضوان ثم بعثت قريش سهيلًا إليه ليصالحه على أن يرجع عنهم عامه ذلك فجرى الصلح ودعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم علي بن أبي طالب وقال له اكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سهيل" لا نعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم" فكتبها ثم قال اكتب "هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سهيلًا" فقال سهيل "لو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك" فقال رسول الله لعلي "امح رسول الله" وكانت المصالحة على وضع الحرب عن الناس عشر سنين وإنه من أتى منهم رسول الله بغير إذن وليّه ردّه إليهم ومن جاء قريشًا ممن مع رسول الله لم يردوه ومن أحبّ أن يدخل في عهد رسول الله دخل ومن أحبّ أن يدخل في عهد قريش دخل وأن يرجع رسول الله عامه ذلك فإذا كان عام القابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا وسلاح الراكب السيوف

في القرب فبينما النبي صلّى الله عليه وسلّم يكتب الكتاب إذ جاء أبو جندل ابن سهيل يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل أخذه وقال يا محمّد قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا قال صدقت وأخذه ليردّ إلى قريش فصاح أبو جندل يا معشر المسلمين أردّ إلى المشركين ليفتنوني قال رسول الله احتسب فإنا قد أعطينا القوم عهودنا فلا نغدر بهم" واسترّاب المسلمون ودخلهم من ذلك أمر عظيم ولما قدم رسول الله المدينة جاءه عتبة ابن أسيد وهو مسلم وكان حبس بمكة فردّه رسول الله إلى مكة وقال لا يصلح الغدر في ديننا.

وفيها بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الرسل إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس صاحب مصر وغيرهم فأما المقوقس فإنه قبل كتاب النبي صلّى الله عليه وسلّم وأهدى إليه هدايا وأما النجاشي فأسلم على يد جعفر بن أبي طالب وأما قيصر فكاد أن يسلم ولكن خاف الروم على نفسه وأما كسرى فمزّق الكتاب وقال أ يكتب هذا وهو عبدي وأما المنذر والي البحرين فأسلم وأسلم جميع العرب بالبحرين وأما من كان فيها من اليهود والمجوس والنصارى فصالحوا على الجزية.

ودخلت سنة سبع وفيها كانت غزوة خيبر ولما عاد رسول الله من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم وكان لا يأمن يهود الخيبر فإنهم كانوا في شوكة وعز يتربصون بالمسلمين فخرج إليهم في ألف وأربعمائة رجل معهم مأتا فارس فحاصرهم وافتتحها حصنًا حصنًا فأوّل ما افتتح حصن ناعم ثم حصن القموص ثم حصن المصعب ثم الوطيح والسلالم، وكان الفتح على يد علي بن أبي طالب فإن رسول الله أعطى الراية لأبي بكر فقاتل ورجع ثم أعطى عمر فقاتل قتالًا شديدًا ورجع فقال رسول الله والله لا لأعطينّها غدًا رجلًا يأخذها عنوة فأعطى عليًا فنهض بها وعليه حلة حمراء فأتى خيبر وخرج مرحب صاحب الحصن وعليه مغفر يماني قد نفيه مثل البيضة على رأسه وهو يقول:

قـــد علمـــت خيـــبر أنـــي مرحـــب شـــاكي الســـلاح بطـــل مجـــرب

فقال علي:

أنـــا الـــذي ســـمتني أمـــي حيـــدره كليـــث غابـــات كريـــه المنظـــره

أكلـــــيهم بالســـــيف كيـــــل الســـــندره

فاختلفا ضربتين فبدره عليّ فضربه فقدّ المحفة والمغفر ورأسه حتى وقع على الأرض وكان الفتح في صفر وسأل أهل خيبر الصلح على أن يساقيهم على النصف من ثمارهم ويخرجهم متى شاء ففعل ولم يزل يهود خيبر كذلك إلى خلافة عمر فأجلاهم منها.

ثم كانت سنة ثمان وفيها أسلم خالد بن الوليد وعمر ابن العاص وفيها كانت غزوة موتة وسببها أن النبي صلّى الله عليه وسلّم بعث الحارث بن عمير رسولًا إلى ملك بصرى بكتاب كما بعث إلى سائر الملوك فلما نزل بموتة عرض له عمرو بن شرحبيل الغساني فقتله فجهّز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في جمادى الأولى من السنة جيشًا زهاء ثلاثة آلاف وأمّر عليهم زيد بن حارثة فإن قتل فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة فساروا حتى نزلوا معان فبلغهم أن هرقل سار إليهم في مائة ألف من الروم ومائة ألف من المستعربة ونزلوا مآب من أرض البلقاء فأقام المسلمون بمعان ليلتين ينظرون في أمرهم وقالوا نكتب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم نخبره الخبر وننظر أمره فشجّعهم عبد الله بن رواحة على المضي وقال يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم إياه تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعددٍ ولا قوة ولا كثرة ما نقاتلهم إلا بهذا الذين أكرمنا الله به فقال الناس صدق والله وساروا فالقتهم جموع الروم والعرب بقرية من البلقاء يقال لها شارف وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها موتة فالتقى الناس عندها فاقتتلوا قتالًا شديدًا فقاتل زيد ابن حارثة براية رسول الله حتى شاط في رماح القوم وقتل ثم أخذها جعفر بن ابي طالب فقاتل وهو يرتجز فلما اشتدّ القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ثم قاتل القوم حتى قتل ولما قتل أخذ الراية عبد الله بن رواحة ونزل عن فرسه وقاتل حتى قتل واشتدّ الأمر على المسلمين ولما قتل ابن رواحة أخذ الراية ثابت بن أرقم الأنصاري

وقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم فقالوا رضينا بك قال ما أنا بفاعل فاصطلحوا على خالد بن وليد فأخذ الراية ودافع القوم وعاد بالناس إلى المدينة.

وفيها كان نقض صلح حديبية وفتح مكة وكان السبب في نقض الصلح أن بني بكر كانوا في عقد قريش وعهدهم وخزاعة في عقد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفي هذه السنة لقيت بنو بكر خزاعة فقتلوا منهم وأعانهم على ذلك جماعة من قريش فانتقض بذلك عهد قريش وقدم أبو سفيان إلى المدينة لتجديد العهد ودخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي صلّى الله عليه وسلّم فكلّمه فلم يرد شيئًا وأتى كبار الصحابة فما أجابوه فعاد إلى مكة وأخبر قريشًا بما جرى وتجهّز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فخرج من المدينة لعشر مضين من رمضان سنة ثمان ومعه المهاجرون والأنصار وطوائف من العرب فكان جيشه عشرة آلاف حتى قارب مكة فركب العباس بغلة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلما خرج سمع صوت أبي سفيان وحكيم بن حزام قد خرجا يتجسّسان فقال العباس يا أبا حنظلة (يعني أبا سفيان) قال لبيك فداك أبي وأمي ما وراءك قال العباس أتى رسول الله في عشرة آلاف. قال فما تأمرني قال العباس أصحبني لاستأمن لك رسول الله فردفه وجاء به إلى رسول الله وسأل فيه فقال رسول الله أما آن أن تعلم أن لا إله إلا الله قال بلى بأبي وأمي يا رسول الله لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئًا قال ويحك أ لم يأنك أن تعلم أني رسول الله قال أما هذا ففي النفس منها شيئ ثم أنه تشهد وأسلم وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من دخل بيت أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن وقال رسول الله للعباس اذهب فاحبس أبا سفيان عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود الله فخرج به العباس ومرّت عليه القبائل من بني غفار أربعمائة ومن مزينة ألف وثلاثة نفر ومن بني سليم سبعمائة ومن جهينة ألف وأربعمائة ومن تميم وقيس وأسد فمضوا رافعين أعلامهم يكبّرون ويهلّلون حتى مرّ رسول الله في كتيبة الخضراء مع المهاجرين والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق فقال أبو سفيان من هؤلاء فقال العباس هذا رسول الله في المهاجرين

والأنصار قال أبو سفيان لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا فقال له العباس ويحك إنها لنبوة ثم خرج أبو سفيان فأتى مكة ومعه حكيم بن حزام فصرخ في المسجد بأعلى صوته يا معشر المشركين هذا محمّد قد جاءكم بما لا قبل لكم به قالوا فما قال؟ قال من دخل داري فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ثم قال يا معشر قريش أسلموا تسلموا.

فأقبلت امرأته هندٌ فأخذت بلحيته وقالت يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق وبعث رسول الله الزبير وسعد بن عبادة ليدخلا مكة فقال سعد اليوم يستحلّ الكعبة فسمع رجل من المهاجرين فأعلم رسول الله فقال لعلي بن أبي طالب أدركه فخذ الراية منه وكن أنت الذي تدخل بها وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة، ولما وصل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى ذي طوى وقف على راحلته وهو معتجر بشقة برد أحمر وقد وضع رأسه تواضعًا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ثم تقدّم ودخل من أذاخر بأعلاها وضرب قبة هناك وكان عكرمة بن أبي جهل وغيره قد جمعوا ناسًا بالخدمة ليقاتلوا ومعهم الأحابيش وبنو بكر وبنو الحرث فرموا الخالد بالنبل ومنعوه من الدخول فقاتلهم فقتل من المسلمين ثلاثة نفر وقتل نفر من المشركين ثم انهزم المشركون ولما انهزموا وأراد المسلمون دخول مكة قام في وجوههم نساء كانت يلطمن وجوه الخيل بالخمر وقد نشرن شعورهن فلما رآهن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تبسّم ولما دخل رسول الله مكة كانت عليه عمامة سوداء فوقف على باب الكعبة وقال لا إله إلا الله وحده. ألا كل دم أو مأثرة أو مال يدعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ثم قال يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم قالوا خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم قال اذهبوا فأنتم الطلقاء وطاف بالكعبة سبعًا ودخلها وصلّى فيها ورأى فيها صور الأنبياء فأمر بها فمحيت وكان فيها ثلاثمائة وستون صنمًا فكان يشير إلى الأصنام ويقول "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا" ثم جلس للبيعة على الصفا وعمر بن الخطاب تحته فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فكانت هذه بيعة الرجال ثم إنه بايع النساء وكانت فيهن هند ابنت عتبة زوج أبي سفيان فقال لهن رسول الله

تبايعني على أن لا تشركن بالله شيئًا قالت هند أنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال قال ولا يأتين بفاحشة قالت وهل يفعل الحرة قال ولا تقتلن أولادكن قالت ربّيناهم صغارًا وقتلتهم يوم بدر كبارًا فأنت وهم أعلم قال ولا تأتينّ ببهتان قالت والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق قال ولا تعصينني في معروف قالت ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد إن نعصيك فقال رسول الله لعمر بايعهن واستغفر لهن.

ولما جاء وقت الظهر أمر رسول الله بلالًا أن يؤذن على ظهر الكعبة وقريش فوق الجبال فمنهم من يطلب الأمان ومنهم من آمن فلما أذّن وقال أشهد أن محمدًا رسول الله قالت جويرية بن أبي جهل لقد أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة فقال الحرث بن هشام ليتني متّ قبل هذا اليوم وقال جماعة مثل هذا القول ثم إنهم أسلموا بعد ذلك بقريب وحسُن إسلامهم.

وفيها في شوال كانت غزوة هوازن بحنين (وادٍ بين مكة والطائف) وسببها أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله من مكة أشفقوا من أن يغزوهم رسول الله وقالوا لا مانع له فالرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا فتجمّعوا وكان عليهم مالك بن عوف واجتمع إليه ثقيف يقودها قارب بن الأسود وبعث مالك عيونه ليأتوه بالخبر ولما بلغ رسول الله اجتماع الهوازن أجمع المسيي إليهم وسار إليهم من مكة في ألفين من مسلمة الفتح ومع عشرة آلاف من أصحابه فكانوا اثني عشر ألفًا ولما رأى المسلمون كثرة من معهم قالوا لن نغلب اليوم وذلك قوله تعالى "ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلن نغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت" ولما استقبل المسلمون وادي حنين انحدروا في وادٍ أجوف خطوط كأنما انحدروا في عماية الصبح وكان المشركون قد سبقوا المسلمين إلى الوادي فكمنوا في شعابه ومضايقه ولما انحطّ المسلمون فاجأتهم صفوف المشركين وشدّت عليهم شدة رجل واحد فانهزم المسلمون لا يلوى أحد على أحد وانحاز رسول الله إلى ذات اليمين وبقي معه نفر من المهاجرين والأنصار منهم عليّ وأبو بكر وعمر والعباس وغيرهم ثم قال أيها الناس هلمّوا إليّ أنا رسول الله انا محمد بن عبد الله وكان العباس

مع النبي صلّى الله عليه وسلّم آخذًا بلجام بغلته دلال وكان العباس جسيمًا جهوري الصوت فقال له رسول الله يا عباس اصرح يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة فأجابوه وقالوا لبّيك لبّيك فكان الرجل يريد أن يثني بعيره فلا يقدر فيأخذ سلاحه ثم ينزل عنه ويؤمّ الصوت فاجتمع على رسول الله مائة رجل فاستقبل بهم القوم وقاتلهم ولما رأى شدة القتال قال:

أنـــــا النـــــبي لا كـــــذب أنـــا ابـــن عبـــد المطلـــب

الآن حـــــــــمي الـــــــــوطيس

وأخذ من تراب فرمى به في وجوه المشركين ثم انهزم الكفار ورجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وذلك قوله تعالى "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" ومرّ رسول الله في الطريق بامرأة مقتولة فقال من قتلها قالوا خالد بن الوليد فقال لبعض من معه أدرك خالدًا وقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل امرأة أو وليدًا أو أجيرًا وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا.

وكانت في السبايا الشيماء بنت الحارث وكانت أخت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الرضاعة فعرفته بذلك فعرفها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبسط لها رداءه وزوّدها وردّها إلى قومها حسبما سألت.

ثم إن وفود هوازن أتت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وقالوا يا رسول الله قد أصابنا ما لم يخف عليك فامنن علينا منّ الله عليك وقام زهير من بني سعد وهم الذين أرضعوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال يا رسول الله إنما في السبايا عمّاتك وخالاتك وحواضنك ولو أنا أرضعنا نعمان المنذر لرجونا عطفه وأنت خير المكفولين فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم فإذا أنا صلّيت بالناس فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فلمّا صلّى الظهر فعلوا ما أمرهم فقال رسول الله أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم فقال المهاجرون والأنصار ما كان لنا فهو لرسول الله فأطلقت السبايا وكانت ستة

آلاف ثم قسم الأموال وأعطى المؤلفة قلوبهم ولما أعطى رسول الله تلك الغنائم في قريش وقبائل العرب ولم يعط الأنصار شيئًا وجدوا في أنفسهم حتى قال قائل لقي رسول الله قومه فقال رسول الله لسعد بن عبادة اجمع قومك لي فجمعهم فأتاهم رسول الله وقال "بلغني ما قلتم، أ لم آتكم ضلالاً فهداكم الله بي وفقراء فأغناكم الله بي وأعداء فألّف الله بين قلوبكم بي" قالوا بلى والله يا رسول الله فقال "ألا تجيبوني" قالوا بماذا نجيبك فقال "والله لو شئتم لقلتم وصدّقتم فيه، أتيتنا مكذّبًا فصدّقناك ومخذولًا فنصرناك وطريدًا فآويناك وعائلًا فواسيناك أ وجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألّفت بها قومًا أ فلا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم والله لو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار" فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا رضينا برسول الله قسمًا وحظًا.

ثم دخلت سنة تسع وفيها كانت غزوة تبوك وكان سببها أن النبي صلّى الله عليه وسلّم بلغه أن هرقل ملك الروم ومن عنده من متنصرة العرب قد عزموا على قصده فتجهّز وكان الحرّ شديدًا والبلاد مجدبة والناس في عسرة فأمر رسول الله بالنفقة في سبيل الله فأنفق أبو بكر جميع ما عنده من الناطق والصامت وأنفق عثمان ثلاثمائة بعير وألف دينار وهكذا فعلوا، وانتهى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى تبوك فأتى يوحنا صاحب إيلة فصالحه على الجزية وصالح أهل أذرح على مائة دينار في كل سنة وصالح أهل جرباء على الجزية وأقام رسول الله بتبوك بضع عشر ليلة ولم يجاوزها ولم يقدم عليه الروم فعاد إلى المدينة.

ثم دخلت سنة عشر وفيها قدم وفود العرب من كل وجه ودخل الناس في الدين أفواجًا وذلك قوله تعالى "إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا" فقدم وفد بني أسد ووفد بلي ووفد بني تميم ووفد زبيد ووفد بني قرارة وغيرها وقدم كتب ملوك حمير مقرين بالإسلام وفيها بعث رسول الله علي ابن أبي طالب إلى اليمن فسار إليها وقرأ كتاب رسول الله عليهم فأسلمت همدان كلها في يوم واحد ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام.

وفي هذه السنة خرج رسول الله حاجًا لخمس بقين من ذي القعدة فحجّ ونحر وخطب خطبته المشهورة.

ولما قدم رسول الله من حجة الوداع أقام بالمدينة حتى خرجت سنة عشر وابتدأ به مرضه في أواخر صفر من هذه السنة وازدادت كل يوم فخرج يومًا بين الفضل بن العباس وعلي ابن أبي طالب حتى جلس على المنبر فحمّد الله ثم قال أيها الناس من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي ليستفد منه ومن أخذت له مالًا فهذا مالي فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلي فادعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه ثم استغفر لأصحاب أحد وأوصى بالأنصار ولما اشتدّ به وجعه قال ايتوني بدواة وبيضاء فأكتب لكم كتابًا لا تضلّون بعدي فتنازع الناس وجعلوا يعيدون عليه فقال دعوني فما أنا فيه خير مما تدعوني إليه فأوصى أن يخرج المشركون من جزيرة العرب وأن يجاز الوفد بما كان يجيزهم ولما اشتدّ مرضه أذنه بلال بالصلوة فقال مروا أبا بكر فليصلّ بالناس وصلّى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلوة.

وقيل ثلاثة أيام ثم إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خرج يوم توفي فيه في صلوة الصبح فكاد الناس يفتنون في صلوتهم فرحًا برسول الله وتبسّم رسول الله فرحًا لما رأى من هيئتهم ثم رجع ولما ثقل واحتضر جعل يأخذ الماء بيده ويجعله على وجهه ثم توفي وكان آخر كلمة قالها "بل الرفيق الأعلى" وكان وفاته يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة 11 ودفن من الغد نصف النهار وتولّى غسله علي والعباس والفضل والقثم (ابن عباس) وأسامة بن زيد وكفن في ثلاثة أثواب ودفن حيث قبض وهو بيت عائشة ونزل قبره عليّ والفضل والقثم وكان عمره حين توفي ثلاثًا وستين سنة.

كتّابه

عليّ، عثمان، خالد بن سعيد، إبان بن سعد، علاء بن الحضرمي، أبيّ بن كعب، زيد بن ثابت، معاوية بن أبي صفيان، حنظلة الأسيدي.

أسماء سلاحه

ذو الفقار غنمة يوم بدر، وعلى من بني قينقاع ثلاثة أسياف سيفًا قلعيا وسيفًا يدعى بتارًا وسيفًا يدعى الحنف وكان له ثلاثة رماح وثلاثة قسي الروحاء والبيضاء والصراء وثلاثة أدرع الصعدية، فضة، ذات الفضول.

عمّاله على الصدقات

أبو أمية بن المغيرة على الصنعاء، زياد بن لبيد الأنصاري على حضر موت، عدي بن حاتم الطائي على طيّ وأسد مالك بن نويرة على حنظلة، علاء بن الحضرمي على البحرين، خالد بن سعيد على زبيد ومذحج.

نبذة من شمائله صلّى الله عليه وسلّم

كان رسول الله أحسن الناس خلقًا وأكملهم محاسن وفضلًا، قد جمع من الحلم والصبر والعفو والتواضع والحياء والمروة والرحمة والوقار وحسن الأدب والسماحة والشجاعة ما لم يجتمع في أحد وكان نظيف الجسم نقي الثوب فصيح اللسان ذكي الحواس معتدل الحركات حسن الشمائل.

قال أنس خدمت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عشر سنين فما قال لي أفّ ولا لم صنعت ولا ألا صنعت، وأدركه يومًا أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة حتى رجع النبي صلّى الله عليه وسلّم في نحره وأثرت حاشية البرد في عاتقه ثم قال يا محمّد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه رسول الله وضحك ثم أمر له بعطاء.

وكانت أمة من إماء أهل المدينة تأخذه بيده ليقضي لها حاجة في السوق فتنطلق به حيث شاءت، ولما أصابه في أحد ما أصاب به قالوا ادع على المشركين فقال لم أبعث لعانًا اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون.

وما ضرب أحدًا بيده ولا امرأة ولا خادمة وما نيل منه شيئ قط فينتقم من صاحبه إلا أن يجاهد في سبيل الله.

ومن عظيم خبره في العفو عفوه عن اليهودية التي سمّته في الشاة بعد اعترافها، وعفوه عن أهل التنعيم لما همّوا بقتله وأخذوا فأطلقهم، وكان إذا صافح رجلًا لم ينزع يده حتى ينزع الرجل يده ولم يُرَ مقدمًا ركبتيه بين يدي جليس له. وكان طويل الصمت، وكان أشدّ حياءً من العذراء فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفوا في وجهه، وكان من حياءه لا يثبت بصره على وجه أحد وكان لا يواجه أحدًا بما يكره ولا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح. وكان من الشجاعة في أعلى محل قد حضر المواقف الصعبة وفرّ الكماة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، وكان سهل الخلق ليّن الجانب حسن المعاشرة بالناس يؤلفهم ويكرم كريم كل قوم ويتفقد أصحابه ويعطي كل جلسائه نصيبه من سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول. وكان إذا دعاه أحدٌ يقول لبيك وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ويجيب دعوة الحرّ والعبد والأمة والمسكين وكان يأكل مع خادمه ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر ويبدر أصحابه بالسلام والمصافحة ويكرم من دخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة. ويكني أصحابه ويدعوهم بأحسن أسمائهم ولا يقطع على أحد حديثه وكان أكثر الناس تبسمًا وأطيبهم نفسًا ولما جيئ بأخته من الرضاعة الشيماء بسط لها رداءه وأقبل أخوه من الرضاعة فقام وأجلسه بين يديه وكان يبعث إلى ثوبية مولاة أبي لهب (وهي التي أرضعته أولًا) بصلة وكسوة فلما ماتت سأل من بقي من قرابتها فقيل لا أحد، وكان يحبّ التواضع لكل أحد وخرج يومًا على أصحابه فقاموا له فقال لا تقوموا كما يقوم الأعاجم وكان يقول لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله. وكان يقول لا تفضّلوني بين الأنبياء ودخل يومًا السوق فاشترى سراويل فوثب صاحبه إلى يد رسول الله يقبّلها فجذب يده وقال هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست إلا رجلًا منكم وقال له وفد بني عامر أنت سيّدنا فقال السيّد الله وكان حسن المجلس لا ترفع في مجلسه الأصوات ولا توبن فيه الحرم

وإذا تكلم طرق جلسائه كأن على رؤوسهم الطير، وكان لا يوطن الأماكن وإذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس وكان خافض الطرف، جلُّ نظره الملاحظة وكان طويل السكوت وإذا تكلّم تكلّم فصلًا لا فضولًا فيه ولا تقصير وكان في كلامه ترتيل وترسيل لو عدّه العادّ أحصاه وكان يحبّ الطيب والرائحة الحسنة ويستعملها كثيرًا وكان ضيق العيش. فروت عائشة أنه ما شبع ثلاثة أيام تباعًا من خبز. وروت أيضًا أنه ما شبع من خبز بر حتى لقي الله تعالى وكان أكثر رزقه التمر والماء وكان فراشه أدمًا حشوُه ليف وكان يحبّ الإيثار والجود فكان لا يدّخر شيئًا لغد وحُمِل إليه مرة تسعون ألف درهم فوضعت على حصير وقام إليها يقسّمها حتى فرغ منها وجاءه رجل فسأله فقال ما عندي شيئ ولكن اتبع عليّ فإذا جاءنا شيء قضينا فقال عمر ما كلّفك الله ما لا تقدر عليه فكره النبي صلّى الله عليه وسلّم ذلك ثم قال رجل من الأنصار يخاطبه يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالًا فتبسّم النبي صلّى الله عليه وسلّم وعرف البشر في وجهه وكان أوتي جوامع الكلم وخصّ ببدائع الحكم فلنختم الكتاب بذكر بعض أقواله الشريفة فإنها مع كونها جامعة لمحاسن الأخلاق لا يوازي فصاحة ولا يباري بلاغة: الأعمال بالنيات، الناس معادن، ما هلك امرؤ عرف قدره، المستشار مؤتمن، المرء مع الخيار ما لم يتكلم، لا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له، رحم الله عبدًا قال خيرًا فغنم أو سكت فسلم، ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا، الناس كأسنان المشط، المرء مع من أحبّ، المسلمون تتكافؤ دماؤهم، اليد العليا خير من اليد السفلى، خير الأمور أوساطها، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، السعيد من وعظ بغيره، الوحدة خيرٌ من جليس السوء، إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب، قل الحق وإن كان مرًّا، غضّوا أبصاركم وكفّوا أيديكم، أكرمهم عند الله أتقاهم، حبّك الشيئ يعمي ويصمّ، لا يرحم الله من لا يرحم الناس، المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضًا، خير العمل ما قلّ ودام، إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، أنزلوا الناس منازلهم، المؤمن مرآة المؤمن، كبرت خيانة إن تحدّث أخاك حديثًا هو لك مصدّق به وأنت كاذبه.

كتاب الجزية

للشيخ شبلي النعماني

الحمد لله رب العالمين والصلوة على رسوله محمد وآله وأصحابه أجمعين.

اعلم أن الجزية من أعظم ما تعلق به الأرنباويّون في القدح على الشريعة الإسلامية والحطّ عن شأنها. فمن ظانٍ يظنّ أن الجزية لم يكن لها عين ولا أثر في جيل من الأجيال ودولة من الدول وإنما الشريعة الإسلامية هي التي أحدثت هذه البدعة وأسّست بنيانها ومهّدت لها أصولها وأركانها. ومن زاعم يزعم أن وضع هذه القاعدة لم يكن إلا إذلالًا لأهل الذمة وإهانة لهم فهي آية الذل وسمة الهوان وشعار الخزي وعلامة العار حتى أنه هان على كثير من الأقوام الدخول في الإسلام هربًا عن احتمال الضيم والرضاء بالذل. ولأجل هذا ترى الأرنباويين إذا قرع سمعهم هذا اللفظ يمجّه سمعهم وتشمئزّ منه نفوسهم.

والحق أنهم غير ملومين في ذلك فإن من أحاط علمًا بنصوص المتأخرين من الفقهاء يستبين له في أول الأمر أن وضع أمثال هذه الرسوم أقصى ما يقصد به إذلال قوم وإرغام أنفها مع أن الشريعة الإسلامية أبعد محلًا وأرفع شأنًا من أن يمسّها عارٌ أو يلحقها عيب. وأبى الله إلا براءتها عن كل جور وحيف.

ولما رأيتهم يتهافتون في أمثال هذه الأغلاط أردت أن أكشف لهم عن جلية الحال حتى لا أترك لنفسهم ريبة ولا شكًّا.

فنقول إن لنا في إثبات دعوانا أبحاث:

الأوّل: في تحقيق لفظ الجزية والفحص عن مادته وصيغته.

الثاني: في تحقيق أن الجزية متى كان حدوثها ومن أسّسها أولًا.

الثالث: في تحقيق الغرض الذي كان سببًا لاختيارها في الإسلام.

الأوّل

لم يتعرض الجوهري ولا المجد لبيان أصله واشتقاقه. ومال بعضهم (وهم ليسوا ممن يثبت بهم اللغة) إلى أنه مشتق من الجزاء بناءًا على أنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أي يقضوه وهذا ما اختاره الزمخشري في تفسيره. أما العارفون بلغة الفرس فأطبقوا على أن اللفظ فارسي محض وأن أصله گزيت وأن الجزية إنما هي تعريب له واستشهدوا في ذلك بورود هذا اللفظ كثيرًا في كلام شعرائهم على زنته الأصلية. قال الحكيم سوزني:

كتاب خويش نخوانيم وزو عمل نكنيم كه تا گزيت ستانند نانخور اهل كتاب

وقال النظامي:

گهش قيصر گزيت ازين فرستد گهش خاقان خراج چين فرستد

ونقول لما ثبت من تصريحاتهم (وهم أعرف بلسانهم) أنها فارسية فأما أن يقال أنها عربية أيضًا كما هو شأن توافق اللغات وذلك احتمال بعيد لا يلجأ إلى أمثاله إلا عند ضرورة محوجة. وأما أن يقال أنها فارسي الأصل. وإنما سبيله في تداوله عند العرب سبيل الدعي والدخيل في القوم وهذا لاحتمال تعاضده قرائن وأمارات منها أن العرب خالطوا العجم قديمًا وعاشروهم فأغاروا على جانب عظيم من لغتهم واستباحوها وتصرفوا فيها كيف ما شاءوا ولعبوا بها كلّ ملعب. وذلك كالكوز والإبريق والطست والخوان والقصعة وغيرها مما أحصاها الثعلبي في كتابه فقه اللغة. فليس من المستنكر أن يكون الجزية أيضًا من جملتها.

ومنها أن العرب كانوا قبل الإسلام أصحاب البؤس والشقاء رعاة الإبل والشاء ما ملكوا أرضًا ولا استعبدوا قومًا. فلم يتفق لهم وضع الألفاظ بإزاء المعاني التي هي من مختصات المدنية والعمران ولذلك لا تجد في كلام العرب العرباء ألفاظًا تقوم مقام الوزير والصاحب والعامل والتوقيع والدست وغيرها ولما كانت الجزية أيضًا من خصائص الملكية كفوا مؤنة وضع لفظ بإزائها.

ومنها أن الحيرة (وكانت منازل آل نعمان) كانت تدين للعجم وتؤدّي إليهم الإتاوة والخراج، ولما كان كسرى أنوشيروان هو الذي سنّ الجزية أولًا كما نبيّنه فيما سيأتي يغلب على الظن أن العرب أوّل ما عرفوا الجزية في ذاك العهد وتعاوروا اللغة العجمية بعينها. ومن مساعدة الجدّ أن اللفظ كان زنته زنة العربي فلم يحتاجوا في تعريبه إلى كبير مؤنة فإنه بعدما أبدل كافها جيمًا صارت كأنها عربيّ الأصل والنجار.

ومع هذه كلها فإن البحث لا يهمّنا ولا يتعلق به كبير غرض فإن إثبات ما نحن بصدده لا يتوقف على الكشف عن حقيقة اللفظ فنحن في غنًى عن إطالة الكلام وإسهابه في أمثال هذه الأبحاث.

الثاني

أوّل من سنّ الجزية فيما علمنا كسرى أنوشيروان وهو الذي رتّب أصولها وجعلها طبقات.

قال الإمام العلامة المحدّث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري يذكر ما فعله الكسرى في أمر الخراج والجزية "وألزموا الناس الجزية ما خلا أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة والهرابذة والكتّاب ومن كان في خدمة الملك وصيّروها على طبقاتٍ اثني عشر درهمًا وثمانية وستة وأربعة بقدر إكثار الرجل وإقلاله ولم يلزموا الجزية من كان أتى له من السن دون العشرين أو فوق الخمسين".

ثم قال "وهي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطّاب حين افتتح بلاد الفرس[1]" وقال المؤرخ الشهير أبو حنيفة أحمد بن داؤد الدينوري (وهو أقدم زمانًا من الطبري) في كتابه "الأخبار الطوال" في ذكر كسرى أنو شيروان "ووظّف الجزية على أربع طبقات وأسقطها عن أهل البيوتات والمرازبة والأساورة والكتّاب ومن كان في خدمة الملك. ولم يلزم أحدًا لم يأت له عشرون سنة أو جاوز الخمسين"[2].

---

[1] تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ص 662

[2] الأخبار الطوال، ص 73

وقريب من هذا ما ذكره شاعر العجم ولسانهم فردوسي في كتابه شاهنامة:

همـــه بادشاهـــــاں شـــدند انجمـــن زمـــيں را بسنجيـــــد وبـــر زورســـن
گزيتـــــى نهـــــادند بـــر يـــك درم گرايـــدون كـــه دهقـــاں نبـــودى دژم
گـــــــــزيت رزبـــارور شـــش درم بخـــرما ســـتان بـــر همـــين زد رقـــم
كســى كـــش درم بـــود ودهقـــاں نبـــود نبـــودى غـــم ورنـــج كشـــت ودرود
گزارنـــده از ده درم تـــا چهـــــــار بســـــــالى ازو بســـتدى كـــاردار
دبـــير وپرســـتندۀ شهـــــــــريار نبـــودى بـــديواں كســـى را شمـــــار

ومن وقف على هذه النصوص يظهر له:

1. أن الجزية مأثورة من آل كسرى وأن الشريعة الإسلامية ليست بأوّل واضع لها.
2. وأن الكسرى رفع الجزية عن الجند والمقاتلة.
3. وأن عمر بن الخطاب اقتدى بهذه الوضائع.

أما المعنى الذي توخّاه كسرى في هذا الاستثناء فبيّنه العلامة ابن الأثير في كتابه الكامل ناقلًا عن كلام كسرى فقال "ولما نظرت في ذلك وجدت المقاتلة أجراء لأهل العمارة وأهل العمارة أجراء للمقاتلة فأما المقاتلة فإنهم يطلبون أجورهم من أهل الخراج وسكّان البلدان لمدافعتهم عنهم ومجاهدتهم عن وراءهم فحقّ على أهل العمارة أن يوفّوهم أجورهم فإن العمارة والأمن والسلامة في النفس والمال لا يتمّ إلا بهم ورأيت أن المقاتلة لا يتم لهم المقام والأكل والشرب وتثمير الأموال والأولاد إلا بأهل الخراج والعمارة فأخذت للمقاتلة من أهل الخراج ما يقوم بأودهم وتركت على أهل الخراج من مستغلّاتهم ما يقوم بمؤنتهم وعمارتهم ولم أحجف بواحدة من الجانبين".

وحاصله أنه يجب على كل فرد من أفراد الملة المدافعةُ عن نفسه وماله فمن كان يقوم بهذا العبء بنفسه فليس عليه شيء. وهؤلاء هم أهل الجند والمقاتلة. وأما من كان

يشغله أمر العمارة وتدبير الحرث عن المخاطرة بالنفس فيحقّ عليه أن يؤدّي شيئًا معلومًا في كل سنة يصرف في وجوه حمايته والدفاع عنه، وهذا هو المعني بالجزية فإنها تؤخذ من أهل العمارة وتعطى للمقاتلة والجند اللذين نصبوا أنفسهم لحماية البلاد واستتباب وسائل الأمن والسلامة لكافة العباد.

الثالث

إن الشريعة الإسلامية وإن لم تكن شأنها شأن الملكية والسلطنة بل الغاية التي توخّاها الشرع ليست إلا تكميل النفس وتطهير الأخلاق والحثّ على الخير والردع عن الإثم ولكن لما كانت هذه الأمور يتوقّف حصولها على نوع من السياسة الملكية لم تكن الشريعة لتغفل عنها كليًا فاختارت جملة من الوضائع تكون مع سذاجتها كافلة لانتظام أمر الناس وإصلاح ارتفاقاتهم. ومن ذلك الجهاد والقتال المقصود بهما الذبّ عن حمى الإسلام والدفع عن بيضة الملك وإزاحة الشر وبسط الأمن واستتباب الراحة فجعل الجهاد فرضًا محتومًا على كلّ أحد ممن دخل في الإسلام،إما كفايةً وهذه إذا لم يكن النفير عامًا، وعينًا إذا هجم العدوّ البلدَ وعمّ النفير.

قال في الهداية "الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به فريق من الناس سقط عن الباقين فإن لم يقم به أحدُ أثم جميع الناس بتركه إلا أن يكون النفير عامًا فهو يصير من فروض الأعيان".

فالمسلم لا يخلو من إحدى الخطتين؛ إما مرتزق وهو من دخل في العسكر ونصب نفسه للقتال، أو متطوّع وهو من لم يأخذ نصيبه من الجهاد ولكن إذا جاءت الطامة ووقع النفير لا يمكنه الاعتزال عن القتال والتنحّي عنه بل عليه أن يدخل فيما دخل المسلمون طوعًا أو كرهًا، وإذا كان من المسلَّم الثابت أن المرتزق والمتطوّع سيّان في الحقوق الكلية التي تمنح للعسكر كان من الحق الواضح أن يعفى المسلمون كلّهم عن ضريبة الجزية. أما أهل الذمة فما كان يحقّ للإسلام أن يجبرهم على مباشرتهم القتال في حال من الأحوال بل الأمر بيدهم إنْ رضوا بالقتال عن أنفسهم وأموالهم عفوا عن الجزية وإنْ أبوا أن يخاطروا بالنفس فلا أقلّ من أن يسامحوا بشيء من المال وهي الجزية.

ولعلّك تطالبني بإثبات بعض القضايا المنطوية في هذا البيان أي إثبات أنّ الجزية ما كانت تؤخذ من الذميين إلا للقيام بحمايتهم والمدافعة عنهم وأنّ الذميين لو دخلوا في الجند أو تكفلوا أمر الدفاع لعفوا عن الجزية فإن صدق ظني فأصغِ إلى الروايات التي تعطيك الثلج في هذا الباب وتحسم مادة القيل والقال فمنها ما كتب خالد بن وليد لصلوبا ابن نسطونا حينما دخل العراق وأوغل فيها، وهذا نصّه:

"هذا كتاب من خالد بن وليد لصلوبا بن نسطونا وقومه— إني عاهدتكم على الجزية والمنعة فلك الذمة والمنعة ما منعناكم[1] فلنا الجزية وإلا فلا، كتب سنة اثنتي عشرة في صفر".

ومنها ما كتب نوّاب العراق لأهل الذمة وهاك نصّه:

"براءة لمن كان من كذا أو كذا من الجزية التي صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد وقد قبضت الذي صالحهم عليه خالدٌ والمسلمون. لكم يدٌ على من بدّل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكنتم أمانكم أمان وصلحكم صلح ونحن لكم على الوفاء".

ومنها ما كتب أهل ذمّة العراق لأمراء المسلمين وهذا نصّه:

"إنّا قد أدّينا الجزية التي عاهدنا عليها خالدٌ على أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم".

ومنها المقاولة التي كانت بين المسلمين وبين يزدجرد ملك فارس حينما وفدوا على يزدجرد وعرضوا عليه الإسلام وكان هذا في سنة أربع عشرة في عهد عمر بن الخطاب. وكان من جملة كلام نعمان الذي كان رئيس الوفد "وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم".

ومنها المقاولة التي كانت بين حذيفة بن محصن وبين رستم قائد الفرس. وحذيفة هو الذي أرسله سعدُ بن أبي وقاص وافدًا على رستم في سنة أربع عشرة في عهد عمر بن الخطاب وكان من جملة كلامه "أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك".

[1] أي مادام منعناكم

فانظر إلى هذه الروايات[1] الموثوق بها كيف قارنوا بين الجزية والمنعة وكيف صرّح خالد في كتابه بأنا لا نأخذ منكم الجزية إلا إذا منعناكم ودفعنا عنكم وإن عجزنا عن ذلك فلا يجوز لنا أخذها.

وهذه المقاولات والكتب مما ارتضاها عمر وجلّ الصحابة فكان سبيلها سبيل المسائل المجمع عليها. قال الإمام الشعبي وهو أحد الأئمة الكبار "أخذ (أي سواد العراق) عنوة وكذلك كل أرض إلا الحصون فجلا أهلها فدعوا إلى الصلح والذمة فأجابوا وتراجعوا فصاروا ذمة وعليهم الجزاء ولهم المنعة وذلك هو السنة كذلك صنع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بدومة"[2].

ولا تظنن أن شرط المنعة في الجزية إنما كان يقصد به مجرد تطئيب نفوس الذمة وإسكان غيظهم ولم يقع به العمل قط فإن من أمّر انظر في سير الصحابة واطلع على مجاري أحوالهم عرف من غير شك أنهم لم يكتبوا عهدًا ولا ذكروا شرطًا إلا وقد عضوا عليها بالنواجذ وأفرغوا الجهد في الوفاء بها، وكذلك فعلهم في الجزية التي يدور رحى الكلام عليها.

فقد روى القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج عن المكحول أنه لما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشدّاء على عدوّ المسلمين وعيونًا للمسلمين على أعدائهم فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالًا من قبلهم يتجسّسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون أن يصنعوا فأتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعًا لم ير مثله فأتى رؤساء أهل كل مدينة الأمير الذي خلفه أبو عبيدة عليهم فأخبروه بذلك فكتب والي كل مدينة ممن خلفه أبو عبيدة إلى أبي عبيدة يخبره بذلك وتتابعت الأخبار على أبي عبيدة فاشتدّ ذلك عليه وعلى المسلمين فكتب أبو عبيدة إلى كل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردّوا عليهم ما جبى منهم من الجزية والخراج وكتب إليهم أن يقولوا لهم إنما رددنا عليكم

[1] كل هذه الروايات ذكرها العلامة الطبري في تاريخه، ص 12

[2] الطبري، ص 2372

أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وأنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم فلما قالوا ذلك لهم وردّوا عليهم الأموال التي جبوها منهم قالوا أردّكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردّوا علينا شيئًا وأخذوا كل شيئ بقي لنا حتى لا يدعوا شيئًا"[1].

وقال العلامة البلاذري في كتابه "فتوح البلدان" حدّثني أبو حفص الدمشقي قال حدّثنا سعيد بن عبد العزيز قال بلغني أنه جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردّوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فقال أهل حمص لَولايتُكم وعدلُكم أحبّ إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ونهض اليهود فقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن تغلب ونجهد فأغلقوا الأبواب وحرسوها وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا على ما كنّا عليه وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد"[2].

وقال العلامة الأزدي في كتابه فتوح الشام يذكر إقبال الروم على المسلمين ومسير أبي عبيدة من حمص "فلما أراد أن يشخص دعا حبيب بن مسلمة فقال اردد على القوم الذين كنا صالحناهم من أهل البلد ما كنّا أخذنا منهم فإنه لا ينبغي لنا إذ لا نمنعهم أن نأخذ منهم شيئًا وقل لهم نحن على ما كنّا عليه فيما بيننا وبينكم من الصلح، لا نرجع عنه إلا أن ترجعوا عنه وإنما رددنا عليكم أموالكم أنا كرهنا أن نأخذ أموالهم ولا نمنع بلادكم --- فلما أصبح أمر الناس أن يرتحلوا إلى دمشق ودعا حبيب بن مسلمة القوم الذين كانوا أخذوا منهم المال فأخذ يردّ عليهم وأخبرهم بما قال أبو عبيدة وأخذ أهل

[1] كتاب الخراج للقاضي أبو يوسف، ص 81

[2] فتوح البلدان للبلا\ري، ص 137

البلد يقولون ردّكم الله إلينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم ولكن والله لو كانوا هم ما ردّوا علينا بل غصبونا وأخذوا مع هذا ما قدروا عليه من أموالنا"[1].

وقال أيضًا يذكر دخول أبي عبيدة دمشق:

"فأقام أبو عبيدة بدمشق يومين وأمر سويد بن كلثوم القرشي أن تردّ على أهل دمشق ما كان اجتبى منهم الذين كانوا أومنوا وصالحوا فردّ عليهم ما كان أخذ منهم وقال له المسلمون نحن على العهد الذي كان بيننا وبينكم ونحن معيدون لكم أمانًا"[2].

أما ما ادّعينا "أن أهل الذمة إذا لم يشترطوا علينا المنعة أو شاركونا في الذب عن حريم الملك لا يطالبون بالجزية أصلًا فعمدتنا في ذلك أيضًا صنيع الصحابة وطريق عملهم فإنهم أولى الناس بالتنبه لغرض الشارع وأحقّهم بإدراك سرّ الشريعة، والروايات في ذلك وإن كانت جمة ولكن نكتفي هنا بقدر يسير يغني عن كثير.

فمنها كتاب العهد الذي كتبه سويد بن مقرن أحد قوّاد عمر بن الخطاب لمرزبان وأهل دهستان وهاك نصّه بعينه:

"هذا كتاب من سويد بن مقرن لمرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان أن لكم الذمة وعلينا المنعة على أن عليكم من الجزاء في كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال ومن استعنا به منكم فله جزاءه في معونته عوضًا عن جزائه ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم ولا يغير شيئ من ذلك. شهد سواد بن قطبة وهند بن عمر وسماك بن محرمة وعيبة بن النهاس وكتب في سنة 108هـ"[3].

ومنها الكتاب الذي كتبه عتبة بن فرقد أحد عمّال عمر بن الخطاب وهذا نصّه:

---

[1] فتوح الشام للأزدي، ص 137-138

[2] فتوح الشام للأزدي، ص 142

[3] الطبري، ص 2658

"هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل آذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدّوا الجزية على قدر طاقتهم --- ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك"[1].

ومنها العهد الذي كان بين سراقة عامل عمر بن الخطاب وبين شهر براز كتب به سراقة إلى عمر فأجازه وحسّنه وهاك نصّه:

"هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان آرمينية والأرمن من الأمان أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضارّوا ولا ينقضوا، وعلى أهل أرمينية والأبواب الطرّاء منهم والتنّاء ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رأه الوالي صلاحًا على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك، ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ما على أهل آذربيجان من الجزاء فإن حشروا وضع ذلك عنهم. شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير بن عبد الله وكتب مرضي بن مقرن وشهد"[2].

ومنها ما كان من أمر الجراجمة وقد أتى العلامة البلاذري على جملة من تفاصيل أحوالهم فقال حدّثني مشائخ من أهل أنطاكية أن الجراجمة من مدينة على جبل لكام عند معدن الزاج فيما بين بياس وبوقا يقال لها الجرجومة وإن أمرهم كان في استيلاء الروم على الشام وأنطاكية إلى بطريق أنطاكية ووالها فلما قدم أبو عبيدة أنطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهمّوا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم فلم يتنبه المسلمون لهم ولم ينبهوا عليهم ثم إن أهل أنطاكية نقضوا وغدروا فوجّه إليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية وولّاها بعد فتحها حبيب بن مسلمة الفهري فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها ولكنهم

[1] الطبري، ص 2262

[2] الطبري، ص 2665-2666

بدروا بطلب الأمان والصلح فصالحوه على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية" ثم إن الجراجمة مع أنهم لم يوفوا ونقضوا العهد غير مرة لم يؤخذوا بالجزية قط حتى أن بعض العمّال في عهد الواثق بالله العباسي ألزمهم جزية رؤسهم فرفعوا ذلك إلى الواثق فأمر بإسقاطها عنهم.

ولما بلغت من التعمق في البحث والإمعان في الفحص إلى هذا الحد حان لي أن أقول أطفِ المصباح فإنه قد طلع الصباح وماذا بعد الحق إلا الضلال وبالله ثقتي وعليه اعتمادي وهو العلي الكبير المتعال.

الانتقـــــاد

على

كتاب التمدن الإسلامي للفاضل جرجي زيدان

للشيخ الأستاذ شبلي النعماني الهندي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على رسوله محمّد وآله وصحبه أجمعين.

إن الدهر دار العجائب ومن إحدى عجائبه أن رجلًا من رجال العصر يؤلّف في تاريخ تمدن الإسلام كتابًا يرتكب فيه من تحريف الكلم وتمويه الباطل وقلب الحكاية والخيانة في النقل وتعمّد الكذب ما يفوق الحدّ ويتجاوز النهاية وينتشر هذا الكتاب في مصر وهي غرة البلاد وقبة الإسلام ومغرس العلوم ثم يزداد انتشارًا في العرب والعجم ومع هذا كله لا يتفطن أحدٌ لدسائسه، إن هذا لشيئ عجاب.

لم يكن المرء ليجترئ على مثل هذه الفظيعة في مبتدء الأمر ولكن تدرّج إلى ذلك شيئًا فشيئًا فإنه أصدر الجزء الثاني من الكتاب وذكر فيه مثالب العرب دسيسة يتطلع بها على إحساس الأمة وعواطفها ولما لم يتنبه لذلك أحدٌ ولم ينبض لأحد عرق ووجد الجوّ صافيًا أرخى العنان وتمادى في الغيّ وأسرف في النكاية بالعرب عمومًا وخلفاء بني أمية خصوصًا.

وكان يمنعني عن النهوض إلى كشف دسائسه اشتغالي بأمر ندوة العلماء ولكن لما عمّ البلاء وتوسّع الخرق وتفاقم الشرّ لم أطق الصبر فاختلست من أوقاتي أيامًا وتصدّيت الكشف عن عوار هذا التأليف والإبانة عما فيه من أنواع الإفك والزور وأصناف التحريف والتدليس.

معذرة إلى المؤلف: إني، أيها الفاضل المؤلف، غير جاحد لمنتك فإنك قد نوّهت باسمي في تأليفك هذا وجعلتني موضع الثقة منك واستشهدت بأقوالي ونصوصي ووصفتني بكوني من أشهر علماء الهند مع أني أقلّهم بضاعة وأقصرهم باعًا وأخملهم ذكرًا ولكن مع كل ذلك هل كنت أرضى بأن تمدحني وتهجو العرب فتجعلهم غرضًا لسهامك ودرية لرمحك، ترميهم بكل معيبة وشين، وتعزو إليهم كل دنية وشر حتى تقطعهم إربًا إربًا وتمزّقهم كل ممزّق وهل كنت أرضى بأن تجعل بني أمية لكونهم عربًا بحتًا من أشرّ خلق الله وأسوأهم يفتكون بالناس ويسومونهم سوء العذاب ويهلكون الحرث والنسل ويقتلون الذرية وينهبون الأموال وينتهكون الحرمات ويهدمون الكعبة ويستخفّون بالقرآن.

وهل كنت أرضى بأن تنسب حريق خزانة الإسكندرية إلى عمر ابن الخطاب الذي قامت بعدله الأرض والسماء وهل كنت أرضى بأن تمدح بني العباس فتعدّ من إحدى مفاخرهم أنهم نزّلوا العرب منزلة الكلب حتى ضُرب بذلك المثل وأن المنصور بنى القبة الخضراء إرغامًا للكعبة وقطع الميرة عن الحرمين استهانة بهما وأن المأمون كان ينكر نزول القرآن وأن المعتصم بالله أنشأ كعبة في سامرا وجعل حولها طوافًا واتخذ منى وعرفات.

وهبْ أني عدمت الغيرة على الملة والدين وافتخرت كصنيع بعض الأجانب بأني فلسفي بحت عادمٌ لكل عاطفة ووجدان فلا أرضى ولا أغضب ولا أسرّ ولا أغتاظ ولا أفرح ولا أتألّم وهبْ أني حملت نفسي على احتمال الضيم وقبول المكروه والصمم عن البذاء ومجازاة السيئة بالحسنة ومكافاة الخبيث بالطيب فهل كنت أرضى بأن تشوّه وجه التاريخ وتدمغ الحق وتروّج الكذب وتفسد الرواية وتقلب الحقيقة وتنفق التهم وتعوّد الناس بالخرافة. بئس ما زعمت أيها الفاضل فإن في الناس بقايا وأن الحق لا يعدم أنصارًا.

إن الغاية التي توخّاها المؤلّف ليست إلا تحقير الأمة العربية وإبداء مساوئها ولكن لما كان يخاف ثورة الفتنة غيّر مجرى القول ولبّس الباطل بالحق. بيانُ ذلك أنه جعل لعصر الإسلام ثلاثة أدوار دور الخلفاء الراشدين ودور بني أمية ودور بني العباس فمدح الدور الأوّل وكذلك الثالث (ظاهرًا لا باطنًا كما سيجيء) ولما غرّ الناس بمدحه للخلفاء

الراشدين وهم سادتنا وقدوتنا في الدين وبمدحه لبني العباس وهم أبناء عمّ النبي وبهم فخارنا في بثّ التمدن وأبهة الملك ورأى أن بني أمية ليست لهم وجهة دينية فلا ناصر لهم ولا مدافع عنهم تفرّغ لهم وحمل عليهم حملة شنعاء فما ترك سيئة إلا وعزاها إليهم وما خلّى حسنة إلا وابتزّها منهم ثم لو كان هذا لأجل أنهم من آل مروان أو لكونهم من سلالة أمية لكنّا في غنًى عن الذب عنهم والحماية لهم ولكن كلّ ذنبهم أنهم عرب على صرافتهم ما شابَتهم العجمية مطلقًا كما قال:

"ويمتاز (أي دولة بني أمية) عن الدولة العباسية بأنها عربية بحتة (الجزء الثاني من تمدن الإسلام)

"وجملة القول أن الدولة الأموية دولة عربية أساسها طلب السلطة والتغلب" (الجزء الرابع، ص 103)

عصبية العرب على العجم: أطال المؤلف وأطنب في إثبات هذه الدعوى فذكر طرفًا منه في الجزء الثاني مدسوسًا (انظر صفحة 18) ثم جعل له عنوانًا خاصًا في الجزء الرابع (58) وهذه نصوصه:

"فإن العرب كانوا يعاملونهم معاملة العبيد"

و"إذا صلّوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعًا لله"

"وكانوا يحرمون الموالي من الكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون في الصف معهم"

"وكانوا يقولون لا يقطع الصلوة إلا ثلاثة حمارٌ أو كلب أو مولًى"

"فكان العربي يعدّ نفسه سيدًا على غير العربي ويرى أنه خُلِق للسيادة وذاك للخدمة"

"فتوهم العرب في أنفسهم الفضل على سائر الأمم حتى في أبدانهم وأمزجتهم فكانوا يعتقدون أنه لا تحمل في سنّ الستين إلا قرشية وأن الفالج لا يصيب أبدانهم"

"ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء فقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي وحرّموا منصب الخلافة على ابن الأمة ولو كان أبوه قرشيًا"

"ولا يزوّجون الأعجمي عربية ولو كان أميرًا وكانت هي من أحقر القبائل"

"وكان الأمويّون في أيام معاوية يعدّون الموالي أتباعًا وأرقّاء وتكاثروا فأدرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب فهمّ أن يأمر بقتلهم كلهم أو بعضهم"

اعلم أن للمؤلف في إنفاق باطله أطوارًا شتى:

فمنها تعمّد الكذب كما سترى.

ومنها تعميمه لواقعة جزئية.

ومنها الخيانة في النقل وتحريف الكلم عن مواضعها.

ومنها الاستشهاد بمصادر غير موثوقة مثل كتب المحاضرات والفكاهات وهاك أمثلة من كل نوع منها قال:

"إذا صلّوا خلفهم في المسجد حسبوا ذلك تواضعًا لله وكانوا يحرمون الموالي من الكنى" إلخ

"وكانوا يقولون لا يقطع الصلوة إلا ثلاثة"إلخ

غيرُ خافٍ على من له إلمام بتاريخ الفرس والعرب أن الفرس كانت قبل الإسلام تحتقر العرب وتزدري بهم ولما أرسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كتابه إلى كسرى العجم اشمأزّ وقال عبدي يكتب إليّ وكتب يزدجرد إلى سعد بن أبي وقاص فاتح القادسية أن العرب مع شرب ألبان الإبل وأكل الضبّ بلغ بهم الحال إلى أن تمنّوا دولة العجم فأفّ لك أيها الدهر الدائر" وكانت ملوك الحيرة تحت إمرة ملوك العجم.

ثم لما شرّف الله العرب بالإسلام انتصفت العرب من العجم واستنكفوا من سيادتهم عليهم.

وجاءت الشريعة الإسلامية ماحية لكل فخر ونخوة فقال رسول الله في خطبته الأخيرة في حجة الوداع أن لا فضل للعربي على العجمي ولا للعجمي على العربي كلكم أبناء آدم".

وحينئذ ارتفع التمايز وتساوى الناس ولكن مع ذلك بقيت في بعض الناس من كلا الطرفين حزازات كامنة في صدورهم كانت سببًا لحدوث حزبين متقابلين يسمّى أحدهما الشعوبية وهي التي تحتقر العرب وترميهم بكل معيبة حتى أن أبا عبيدة صنّف كتبًا عديدة يطعن فيها على أنساب كل قبيلة من قبائل العرب، والثاني المتعصّبون للعرب وقد عقد العلامة ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد بابًا في حجج كلا الطرفين وأقوالهما ومعظم ما نقله المؤلف في إثبات عصبية العرب هي أقوال ذكرها صاحب العقد في هذا الباب كما لوّح به المؤلف في هامش الكتاب. وإذا تصفحت الكتب يظهر أن الأقوال التي نسبها إلى العرب عمومًا إنما هي أقوال شرذمة خاصة موسومة بأصحاب العصبية وصاحب العقد حيثما ذكر هذه الأقوال صدّرها بقوله "قال أصحاب العصبية من العرب" وأنت تعلم أن هذه العصبية ليست كافة العرب ولا أكثرها بل ولا عشر معشارها فإنك سترى أن هؤلاء أناس شزرة مغمورون في الناس، ثم إن المؤلف ما اقتنع بذلك بل ربّما نسب قول رجل معيّن معلوم الاسم إلى العرب عامة.

فقال ناقلًا عن كتاب العقد "وكانوا يكرهون أن يصلوا خلف الموالي وإذا صلّوا خلفهم قالوا إنا نفعل ذلك تواضعًا لله" فإن صاحب العقد نسب هذا القول إلى نافع بن جبير فأخذه المؤلف وجعله قولًا عامًا للعرب وهذا الصنيع أعني تعميم الواقعة الجزئية هي أكبر الحيل التي يرتكبها المؤلف لترويج باطله بل هي قطب رحى تأليفه.

قال المؤلّف "فأدرك معاوية الخطر من تكاثرهم على دولة العرب فهمّ أن يأمرهم بقتلهم كلهم أو بعضهم" (الجزء الرابع، ص 59) إن نصّ معاوية الذي نقله المؤلف بعد هذه العبارة هو هذا "كأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فرأيت أن أقتل شطرًا

وأدع شطرًا" فأنت ترى أن الرواية على تقدير صحتها ليس فيها إلا أن معاوية رأى أن يقتل شطرًا منهم ولكن المؤلف زاد على العبارة وقال إن معاوية همّ أن يأمر بقتلهم كلهم.

قال المؤلف "فكانوا يعتقدون أن الفالج لا تصيب أبدانهم" (الجزء الرابع، ص 60)

استشهد في هذه الدعوى بطبقات الأطباء كما لوّح في هامش الكتاب وأيم الله لو كنت تقف على عبارة الطبقات لوقعت في أشدّ حيرة من اجتراء المؤلف على قلب الحكاية وتغيير الرواية. ذكر صاحب الطبقات تحت ترجمة عيسى الطبيب (الراجح أنه نصراني) أن المهدي ضربه فالج فحضر المتطبّبون ومنهم عيسى صاحب الترجمة فقال المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس يضربه فالج لا والله لا يضرب أحدًا من هؤلاء ولا نسلهم فالج أبدًا إلا أن يبذروا بذورهم في الروميات والصقلبيات وما أشبههن".

قد نقل صاحب الطبقات بعد الحكاية المذكورة عن يوسف الطبيب أن إبراهيم بن المهدي لما اعتل بعلة شبيهة بالفالج ودعا يوسف وقال له ما العلة عندك في عرض هذه العلة بي علمت أنه كان حفظ عن أمه قول عيسى أبي قريش في المهدي وولده أنه لا يعرض لعقبه الفالج إلا أن يبذروا بذورهم في الروميات وأنه قد أمّل أن يكون الذي به فالجًا لا عارض الموت، فقلت لا أعرف لإنكارك هذه العلة معنًى إذا كانت أمّك التي قامت عنك دنباوندية ودنباوندأشدّ بردًا من كل أرض الروم فكأنه تفرّج إلى قولي وصدّقني وأظهر السرور".

فأنت ترى أن الظن ببراءتهم عن الفالج إنما كان مبناه حرّ أرض العرب وليس له أدنى مساس بشرف النسل ولو كان كما يتبادر إلى الذهن من عدّ أسماء آباء المهدي فهو يختص بعائلة النبي عليه السلام لا يفهم منه العموم مطلقًا ولذلك لما ذكر لإبراهيم (وهو ابن الخليفة المهدي) أن أمّه من دنباوند وهو أشدّ بردًا من أرض الروم ذهب عنه استغرابه عروض الفالج له.

فانظر كيف كان مجرى الحكاية فغيّرها المؤلف وارتكب لذلك خيانات تترى.

ثم إن هذا قول عيسى الطبيب ولا يدرى أنه عربي أم لا وغالب الظن أنه نصراني. وهبْ أنه عرب فهو رجل من حاشية الدولة يريد التزلف إلى الخليفة والتملق له فهل يكون قوله قول العرب كافة.

قال المؤلف "ومنعوا غير العرب من المناصب الدينية المهمة كالقضاء فقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي (الجزء الرابع، ص 60) وأسند هذه الرواية إلى ابن خلكان.

حقيقة هذا القول أن الحجّاج لما أسر سعيد بن جبير التابعي المشهور وكان من الموالي قال له ممتنًا عليه أما جعلتك إمامًا للصلوة في الكوفة ولم يكن في الكوفة إلا العرب، قال ابن جبير: نعم، ثم قال له الحجاج: أ ليس أني لما أردت أن أولّيك قضاء الكوفة ضجّ العرب وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي، وقد ذكر الرواية ابن حلكان بطولها ولا يخفى عليك أن الكوفة لم يكن إذ ذاك فيها إلا العرب وظاهر أن القضاء لا يصلح له إلا من كان عارفًا بعوائد الأمة مطلعًا على خصائصهم وكيفية تعاملهم فيما بينهم وسعيد بن جبير لم يكن من العرب ولو كان استنكاف أهل كوفة من قضائه لأجل كونه من الموالي استنكفوا من إمامته للصلوة فإن الإمامة أعظم شرفًا وأرفع محلًا من القضاء وهذا أبو حنيفة كان من الموالي وأرادوا أن يولّوه القضاء في عصر بني أمية فامتنع ولم يرض بذلك وقد ذكر الواقعة ابن خلكان مفصّلًا.

قال المؤلف "وحرّموا منصب الخلافة على ابن الأمة ولو كان قرشيًا"

نعم ولكن لم يكن هذا للاستهانة به قال الأصمعي كانت بنو أمية لا تبايع لبني أمهات الأولاد فكان الناس يرون أن ذلك للاستهانة بهم ولم يكن لذلك ولكن لما كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن أمّ ولد"[1] أما ما استدلّ به المؤلف من قول هشام بن عبد الملك لزيد بن علي أنك ابن أمة ولذلك لا تصلح للخلافة فقد ردّ عليه زيد وقال إن إسماعيل كان ولد الجارية وكان سيد البشر محمد من سلالته ومن المعلوم أن زيدًا وهو ابن الإمام

[1] انظر: الجزء الثاني من العقد الفريد، طبع مصر، ص 330

زين العابدين أرفع شأنًا وأعظم محلًا وأطيب أرومة وأصدق قولًا من هشام ثم لو كان هذا الأمر حقًا ما كانوا يولّون الخلافة يزيد بن الوليد الأموي ومروان الحمار وهما ابنا أمة.

ولما فرغنا عن إبداء شطر من خيانات المؤلف ليكون كالعنوان على دأبه في تأليفاته حان لنا أن نحقّق أصل المسئلة أي أن العجم والموالي هل كانوا أذلّاء ساقطين مرذولين يعاملون معاملة العبيد في عصر بني أمية كما يدّعيه المؤلف أو كانوا بمحل من الشرف والعزة يعترف لهم العرب بالفضل والسؤدد ويوفّى لهم أوفى قسط وأكمل حق؟ اعلم أن البلاد التي كانت عواصم الأقاليم وقواعدها في عصر بني أمية هي مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان وكان لكل هذه الأصقاع إمامٌ يقودهم ويسود عليهم وهذه أسماؤهم:

مكة المشرفة	عطاء بن أبي رباح وهو أستاذ الإمام أبي حنيفة
اليمن	الطاؤس
الشام	المكحول
مصر	يزيد بن أبي حبيب
الجزيرة	الميمون بن مهران
خراسان	الضحاك بن مزاحم
البصرة	الإمام الحسن البصري
الكوفة	إبراهيم النخعي

وكل هؤلاء غير إبراهيم النخعي كانوا الموالي وبعضهم أبناء الإماء ومع كونهم أعجامًا وكونهم أولاد الإماء كانوا سادة الناس وقادتهم تذعن لهم العرب وتحترمهم خلفاء بني أمية وولاة الأمر.

فأما العطاء بن أبي رباح فمع كونه ابن سندية كان شيخ الحرم وإليه المرجع في الفتوى وعليه المعوّل في المسائل. قال ابن خلكان في ترجمته: قال إبراهيم بن عمرو بن كيسان أذكرهم في زمان بني أمية يأمرون في الحج صائحًا يصيح "لا يفتي الناس إلا العطاء بن أبي رباح" وهل يمكن أن ينادى بمثل ذلك من غير رضى الخلفاء وأما الطاؤس فلما قضى نحبه بمكة ازدحم الناس في جنازته حتى تعذرت الصلوة عليه وكان إبراهيم بن هشام إذ ذاك واليًا على مكة فاستعان بالشرطة ومشى في جنازته عبد الله بن الإمام الحسن عليه السلام واضعًا نعشه على عاتقه وصلّى عليه الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي. ذكر كل هذا العلامة ابن خلكان في ترجمة الطاؤس فهل يكون منزلة أعظم من ذلك.

وأما المكحول الشامي فأحد الأئمة المتبوعين وقال الزهري: العلماء أربعة فلان وفلان والمكحول وأما يزيد بن أبي حبيب فهو الذي أرسله عمر بن عبد العزيز ليفقه الناس في مصر ويفتيهم في المسائل وهو المعلم الأوّل لهم كما صرح بذلك السيوطي في حسن المحاضرة وأما الميمون بن مهران فمع فضيلته وسيادته كان أميرًا على الخراج في الجزيرة كما صرح به ابن قتيبة في المعارف. أما الحسن البصري فحدّث عن البحر ولا حرج، يذعن له الملوك والسادة والقوّاد وعليه المعول وإليه المنتهى.

ذكر السخاوي في شرح ألفية الحديث للعراقي (طبع لكهنؤ، ص 498-499) أن هشامًا قال للزهري من يسود أهل مكة قال العطاء قال بم سادهم قال بالديانة والرواية قال هشام نعم من كان ذا ديانة حقّت الرياسة له ثم سأل عن اليمن قال الطاؤس وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة فأخذ الزهري يعدّ أسماء سادات هذه البلاد وكلما سمّى رجلًا كان هشام يسأل هل هو عربي أم مولى وكان يقول الزهري مولًى إلى أن أتى على النخعي وقال إنه عربي فقال هشام الآن فرجت عني والله ليسودنّ الموالي العرب ويخطب لهم على المنابر والعرب تحتهم".

إن التابعين لهم أعلى محل في تاريخ الإسلام ورأسهم سعيد بن جبير وهو أسود وقد ولّاه الحجاج بن يوسف إمامة الصلوة في الكوفة كما ذكره ابن خلكان في ترجمته والكوفة إذ ذاك جمجمة العرب وقبة الإسلام وهل يصحّ بعد ذلك دعوى المؤلف أن العرب كانت تستنكف عن الصلوة خلف الموالي.

وهذا سليمان الأعمش أستاذ الثوري كان عبدًا عجميًا وكان بمنزلة من العز والشرف أنه لما كتب إليه الخليفة هشام بن عبد الملك أن يكتب له مناقب عثمان ومساوئ عليّ أخذ كتاب هشام وألقمه عنزًا كان عنده وقال للرسول قل لهشام هذا جواب كتابك (ابن خلكان، ترجمة الأعمش)

وهذا حماد الراوية الذي دوّن المعلقات وله المكانة الكبرى في الأدب والشعر كان عبدًا أسود وكانت ملوك بني أمية تقدّمه وتؤثره وتستزيره كما ذكره ابن خلكان.

وهذا سالم بن عبد الله بن عمر كان ابن أمة ولما دخل الخليفة هشام بن عبد الملك المدينة أرسل إليه يدعوه فاعتذر فدخل عليه هشام ووصله بعشرة آلاف ثم لما حجّ ورجع كان سالم إذ ذاك مريضًا فذهب لعيادته ولما توفي صلّى عليه وقال: لا أدري بأي الأمرين أنا أسرّ بحجتي أو بصلوتي على سالم[1].

ذكر أبو العباس المبرّد في كامله ما هو قول فصل في هذا الباب لا يدع مجالًا للريب ولا متسعًا للشك، قال:

"وإنما ذكرنا هذا لتقدم قريش في إكرام موالِيها، ولّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جيش موتة زيدًا مولاه --- وأمّر رسول الله أسامة بن زيد فبلغه أن قومًا قد طعنوا في إمارته فقال لقد طعنتم في إمارة أبيه وقد كان لها أهلًا وأن أسامة لها لأهل وقالت عائشة لو كان زيدٌ حيًا ما استخلف رسول الله غيره وقال عبد الله بن عمر لأبيه لم فضّلت أسامة عليّ وأنا وهو سيّان؟ فقال كان أبوه أحبّ إلى رسول الله من أبيك وكان

[1] العقد الفريد (ترجمة هشام بن عبد الملك)

أحبّ إلى رسول الله منك وأوصى رسول الله بعض أزواجه لتميط عن أسامة أذى من مخاط أو لعاب فكأنها أنكرته فتولّى منه ذلك رسول الله --- وكان أدّى إلى بني قريظة مكاتبة سلمان فكان سليمان مولى رسول الله فقال علي ابن أبي طالب سليمان منا أهل البيت، ويروى أن المهديّ نظر إليه ويد عمارة ابن حمزة في يده فقال له رجل من هذا يا أمير المؤمنين فقال أخي وابن عمّي عمارة بن حمزة فلمّا ولّى الرجل ذكر ذلك المهدي كالممازح لعمارة فقال له عمارة انتظرت أن تقول "ومولاي" فانفضّ والله يدك من بين يدي فتبسّم أمير المؤمنين المهدي ولم يكن الإكرام للموالي في جفاة العرب. زعم الليثي أنه كانت بين جعفر بن سليمان وبين مسمع بن كردين منازعة وبين يدي مسمع مولى له، له بهاء ورواء ولسن فوجّه جعفر مولى له لينازعه ومجلس مسمع حافل فقال إن أنصفني والله جعفر أنصفته وإن حضر حضرت معه وإن عند عن الحق عندت عنه وإن وجّه إليّ مولى مثل هذا وأومأ إلى مولى جعفر فقال مولى مثل هذا عاضًّا لما يكره وجّهت إليه أومأ إلى مولاه فعجب أهل المجلس من وضعه مولاه ذلك الذي تبها بمثله العرب وقيل الرجل لأبيه والمولى لمواليه وفي بعض الأحاديث أن المعتق من فضل طينته المعتق ويروى أن سلمان أخذ من بين يدي رسول الله تمرة من تمرات الصدقة فوضعها في فيه فانتزعها رسول اله فقال يا أبا عبد الله إنما يحلّ لك من هذا ما يحلّ لنا ويروى أن رجلًا من موالي بني مازن يقال له عبد الله بن سليمان وكان من جلة الرجال نازع عمرو بن هداب المازني وهو في ذلك الوقت سيد بني تميم قاطبة فظهر عليه المولى حتى أذن له في داره فأدخل الفعلة دار عمرو فلما قلع من سطحه سافًا كفّ عنه ثم قال يا عمرو قد أريتك القدرة وسأريك العفو وقد كان في قريش من فيه جفوة ونبوة كان نافع بن جبير أحد بني نوفل بن عبد مناف إذا مرّ عليه بالجنازة سأل عنها فإن قيل قريش قال وا قوماه وإن قيل عربي قال وا مادتاه وإن قيل مولى أو عجمي قال اللهم هم عبادك فأخذ منهم من شئت وتدع ويروى أن ناسكًا من بني الهجيم بن عمرو بن تميم كان يقول في قصصه الله اغفر للعرب خاصة وللموالي عامة فأما العجم فهم عبيدك والأمر إليك وقال الأصمعي

قال سمعت أعرابيًا يقول لآخر أ ترى هذه العجم تنكح نساءنا قال أرى ذلك والله بالأعمال الصالحة قال توطأ والله رقابنا قبل ذلك" انتهى (صفحة 710-713، طبع أوربا)

تدلّ هذه النصوص على أمور:

1. إن إكرام الموالي كان من ديدن العرب عامة وقريشها خاصة.
2. لم يكن الإكرام للموالي وأكثرهم العجم عند جفاة العرب ونباتها كما لم يكن الإكرام للعرب عند الشعوبية وأكثرهم العجم.
3. كان نافع بن جبير وأمثاله من جفاة العرب فلا يصحّ الاستدلال بأقوالهم على استحقار العرب للموالي والعجم كما لا يسوغ الاستدلال بأقوال علّان وأمثاله على ازدراء العجم العرب.

ولو أخذنا في تعداد أمثال هذه الوقائع لطال الكلام وملّ الناظرون ويظهر مما مرّ عليك أن الموالي كانوا في أيام بني أمية بأعلى محل من الشرف والمكانة وكانت العرب تذعن لهم وتقدّمهم وتقتدي بهم وترفع شأنهم فهل يصحّ قول المؤلف بعد ذلك أن الموالي وأبناء الإماء كانوا في عصر بني أمية مرزولين ساقطين يزدرى بهم ولا يقام لهم وزن وكان العرب وبنو أمية يعاملونهم معاملة العبيد.

مثالب بني أمية: المقصد الذي جعله المؤلف نصب عينه ومرمى غايته هو أن الأمة العربية إذا بقيت على صرافتها فهي جامعة لجميع أشتات الشر أي الجور والقسوة والهمجية وسفك الدماء والفتك بالناس ولكن لما كان لا يقدر على إظهار هذا المقصد تصريحًا احتال في ذلك فغمّض المذهب وجعل الكلام طيّب الظاهر وذلك بأن قسّم عصر الإسلام إلى ثلاثة أدوار فمدح سياسة الخلفاء الراشدين وقال بعد مدحها:

"على أن سياسة الراشدين على الإجمال ليست مما لا يلائم طبيعة العمران أو تقتضيه سياسة الملك وإنما هي خلافة دينية توقّفت إلى رجال يندر اجتماعهم في عصر فأهل العلم للعمران لا يرون هذه السياسة تصلح لتدبير الممالك في غير ذلك العصر العجيب وإن انقلاب تلك الخلافة الدينية إلى الملك السياسي لم يكن منه بدّ" (الجزء الرابع، ص 29-30)

فأثبت بذلك أن سياسة الخلفاء الراشدين ليست فيها أسوة للناس وإنها من مستثنيات الطبيعة. أما دور العباسيين فمدحه ولكن لا لأجل أنه دولة عربية بل لكونها فارسية مادة وقوامًا موتلفًا ونظامًا وصرّح بذلك فقال:

"دعونا هذا العصر فارسيًا مع أنه داخل في عصر الدولة العباسية لأن تلك على كونها عربية من حيث خلفائها ولغتها وديانتها فهي فارسية من حيث سياستها وإدارتها لأن الفرس نصروها وأيّدوها ثم هم نظموا حكومتها وأداروا شؤونها ومنهم وزراؤها وأمراؤها وكتّابها وحجّابها" (الجزء الرابع، ص 106)

ثم أشار في غير موضع أن الدولة العربية الساذجة إنما هي دولة بني أمية فقال:

"وجملة القول أن الدولة الأموية دولة عربية" (الجزء الرابع، ص 103)

"وظلّ العرب في أيام بني أمية على بداوتهم وجفاوتهم وكان خلفاؤها يرسلون أولادهم إلى البادية لإتقان اللغة واكتساب أساليب البدو وآدابهم" (الجزء الرابع، ص 61)

ولما ثبت أن خلافة الراشدين لم تكن يلائم النظام الطبيعي وأن دولة بني العباس دولة فارسية وأن الباقي على صرافتها هي الدولة الأموية أخذ يعدّد مثالب بني أمية تحت عنوانات مستقلة منها الاستخفاف بالدين وأهله ومنها الاستهانة بالقرآن والحرمين ومنها الفتك والبطش ومنها قتل الأطفال ومنها خزانة الرؤس وأتى في مطاوي هذه العنوانات من الإفك والاختلاق والتحريف والتبديل بما تجاوز الحدّ وخرج عن طور القياس والآن أذكر نبذًا منها وأكشف عن جلية حالها:

الاستهانة بالقرآن والحرمين: قال المؤلف تحت هذا العنوان:

"أما عبد الملك فكان يرى الشدة ويجاهر بطلب التغلب بالقوة والعنف ولو خالف الدين لأنه صرّح باستهانة الدين منذ ولّي الخلافة --- ذكروا أنه لما جاؤه بخبر الخلافة كان قاعدًا والمصحف في حجره فأطبقه وقال هذا آخر العهد بك أو هذا فراق بيني وبينك فلا

غرو بعد ذلك إذا أباح لعامله الحجاج أن يضرب الكعبة بالمنجنيق وأن يقتل ابن الزبير ويحتزّ رأسه بيده داخل مسجد الكعبة --- وظلّوا يقتلون الناس فيها ثلاثًا وهدموا الكعبة وهي بيت الله عندهم وأوقدوا النيران بين أحجارها وأستارها" (الجزء الرابع، ص 78-79)

الحكاية على الإجمال أن ابن الزبير ادّعى الخلافة فملك الحرمين والعراق وكاد يغلب على الشام وكان أمره كل يوم في ازدياد وبإزائه بنو أمية في الشام فلما تولّى عبد الملك الخلافة أرسل الحجاج إلى ابن الزبير فحاصره ولاذ ابن الزبير بمكة فنصب الحجاج المنجنيق على الزيادة التي كان زادها ابن الزبير (كما يجيء تفصيله).

يعرف كل من له أدنى إلمام بالتاريخ أن الحجاج ما أراد إلا قتال ابن الزبير ولكونه لائذًا بالكعبة اضطرّ إلى نصب المنجنيق على الكعبة ولكن مع ذلك تحرز عن رمي الكعبة فحوّل وجهها إلى زيادة ابن الزبير فانظر كيف غيّر المؤلف مجرى الحكاية فصدّر الباب بالاستهانة بالقرآن والحرمين ثم ذكر أن عبد الملك قال للقرآن هذا فراق بيني وبينك وأنه أباح للحجاج ضرب الكعبة بالمنجنيق وهدم الكعبة وإيقاد النيران بين أستارها فالناظر في عبارته يتوهّم بل يستيقن أن عبد الملك تفرّغ من بدء الأمر للاستهانة بالدين والقرآن والحرمين وجعل الاستهانة نصب عينه ومرمى غايته، وقتلُ ابن الزبير كان إما لأنه دافع عن مكة أو لكونه أيضًا من جنس الاستهانة بالحرم. أما تفصيل الواقعة وتعيين بادئ بالظلم فهو أن ابن الزبير لما استولى على الحرمين أخرج بني أمية من المدينة فخرج مروان وابنه عبد الملك وهو عليل مجدّر فاستولى على الشام وصدرت من ابن الزبير أفعالٌ نقموا عليه لأجلها فمنها أنه تحامل على بني هاشم وأظهر لهم العداوة[1] والبغضاء حتى أنه ترك الصلوة على النبي في الخطبة ولما سألوه عن هذا قال إن للنبي أهل سوء يرفعون رؤسهم إذا سمعوا به ومنها أنه هدم الكعبة ومع هدمها لم يكن إلا لرمّتها وإصلاحها ولكن لم يكن هذا مالوفًا للناس ولذلك تحوز النبي عليه السلام عن إدخال الحطيم في الكعبة فاتخذ الحجاج هذه الأمور وسيلة لإغراء الناس على ابن الزبير ولعل ابن الزبير كان مضطرًا إلى

[1] اليعقوبي، طبع أوربه، صفحة 311 من الجزء الثاني

هذه الأعمال ولكن من شريطة العدل أن نوفي كلّ أحد قسطه من الحق فإذا اعتذرنا لابن الزبير فعبد الملك أحق منه بالاعتذار فإن ابن الزبير هو البادئ، والبادئ أظلم، ويظهر من هذا أن عبد الملك ما أراد الحط من شأن الكعبة ومسّ شرفها ولكن اضطرّ إلى قتال ابن الزبير فوقع ما وقع عرضًا غير مقصود بالذات ولذلك لما نصب الحجاج المناجيق على الكعبة حوّلها عن الكعبة وجعل الغرض الزيادة التي كان زادها ابن الزبير. صرّح بذلك العلامة البشاري في أحسن التقاسيم ثم إن من مسائل الفقه أن البغاة إذا تحصّنوا بالكعبة لا يمنع هذا عن قتالهم ولذلك أمر النبي في وقعة الفتح بقتل أحدهم وهو متعلق بأستار الكعبة وابن الزبير كان عند أهل الشام من البغاة والمارقين عن الدين.

ولو كان أراد الحجاج الاستهانة بالحرم فما كان مراده من رمّته وإصلاحه بعد قتل ابن الزبير، ومعلومٌ أن تعمير الحجاج هو اليوم كعبة الإسلام وقبلة المسلمين كافة.

أما قول عبد الملك للقرآن "هذا فراق بيني وبينك" فحقيقته أن عبد الملك كان قبل الخلافة ناسكًا منقطعًا إلى العبادة لا يشتغل بشيئ من الدنيا قال نافع ما رأيت في المدينة أشدّ نسكًا وعبادة من عبد الملك ولما سألوا ابن عمر إلى من نرجع في الفتوى بعدك قال ولد للمروان وكان يقول ابن الزناد الفقهاء في المدينة سبع أحدهم عبد الملك وقال الإمام الشعبي ما جالست أحدًا إلا وجدت عليه الفضل إلا عبد الملك بن مروان. ذكر كل هذه الأقوال العلامة السيوطي في تاريخه الخلفاء فلما جاءته الخلافة وهو يقرء القرآن تصوّر خطارة الأمر وإن مثل هذا العبء لا يمكن تحمّله إلا لمنقطع إليه فقال تحسّرًا هذا آخر العهد بك أي الآن لا يمكن الانقطاع إلى العبادة وقراءة القرآن كما كان دأبي أوّلًا، وليس هذا على سبيل الاستهانة بالدين مطلقًا فإنا نرى اشتغال عبد الملك بالفرائض والسنن فيما بعد فهو يصوم ويصلّي ويحجّ. قال اليعقوبي في تاريخه وأقام الحج للناس في ولايته سنة 72هـ الحجاج بن يوسف وسنة 73 وسنة 74 الحجاج أيضًا وسنة 75 عبد الملك بن مروان وسنة 76 إبان بن عثمان بن عفان وسنة 77 إبان أيضًا وسنة 78 وسنة 79 وسنة

80 إبان أيضًا وسنة 81 سليمان بن عبد الملك (وسرد باقي السنوات فتركناها) وعبد الملك هو الذي كسا الكعبة الديباج فهل هذا صنيع من يريد الاستهانة بالحرم؟

قال المؤلف:

"ويحتزّ رأسه بيده داخل مسجد الكعبة" (الجزء الرابع، 79).

استند المؤلف في هذه الرواية بالعقد الفريد لابن عبد ربه والاستناد بمثل هذه الكتب في مثل هذه الوقائع هو من إحدى حيل المؤلف المعتاد بها فأنت تعلم أن حادثة قتل ابن الزبير مذكورة في الطبري وابن الأثير وغيرها من المصادر التاريخية المتداولة الموثوق بها وعليها المعوّل وإليها المرجع لكن لما لم تكن كيفية الحادثة في هذه الكتب وفق هوى المؤلف أعرض عن هذه كلها وتشبث بكتاب هو في عداد المحاضرات وإنما يرجع إلى أمثاله إذا لم يكن في الباب مستند غيره ومتى ما لم يخالف الأصول، والمذكور في الطبري وغيره أن عبد الله بن الزبير أصيب في الحجون وقتل هناك، قتله رجل من مراد وما احتزّ رأسه داخل الكعبة.

قال المؤلف "وهدموا الكعبة".

قدّمنا أن الكعبة لم تكن غرضًا للحجاج وإنما كان نصب المناجيق على الزيادة التي زادها ابن الزبير ولما كانت متصلة بالكعبة نالت الأحجار من الكعبة ولكن بعدما استتب القتال أوّل ما فعله الحجاج كان أمره بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم كما نص عليه ابن الأثير فهل كنسُ المسجد الحرام من الحجارة والدم وهدمُ الكعبة شيئ واحد.

أما ما نقل المؤلف عن كفر الوليد وأنه أمر بالمصحف فعلقوه وأخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزّقه وأنشد:

أ توعـــد كـــل جبّـــار عنيـــــد فهـــا أنـــا ذاك جبّـــار عنيـــد

إذا لاقيـــت ربّـــك يـــوم حشـــر فقـــل لله مزّقنـــي الوليـــد

ونقل هذه الرواية عن الأغاني فهي من خرافات الأغاني، ومعلومٌ أن صاحب الأغاني شيعيّ ديانته شنآن بني أمية والحطّ منهم. أما الأبيات فأثر التوليد ظاهر عليها ومن له أدنى مسكة

بالأدب يشهد أن نسجها غير نسج الأوائل فأما جهابذة المحدثين المرجوع إليهم في نقد الروايات والذين قولهم فصل في هذا الباب فيجدون أمثال هذه الروايات المختلفة. قال العلامة الذهبي وهو رأس الحديث ومرجع الرواية "لم يصحّ عن الوليد كفرٌ ولا زندقة بل اشتهر بالخمر والتلوط فخرجوا عليه لذلك". (تاريخ الخلفاء للسيوطي ترجمة الوليد)

ثم أن هناك أمرًا آخر وهو أن الناقم على الوليد وقاتله هو خليفة أموي فكيف ينسب استهانة الدين إلى خلفاء بني أمية عامتهم ثم أن هذا الذي عزا إليه صاحب الأغاني الاستهانة بالقرآن قد ذكر له صاحب العقد ما ينبئ عن تعظيمه للقرآن وتفخيمه شأنه وحثّ الناس على حفظه وتعهده، قال صاحب العقد[1] أنه شكا رجل من بني مخذوم دينًا لزمه فقال (الوليد) اقضيه عنك إن كنت لذلك مستحقًا قال يا أمير المؤمنين كيف لا أكون مستحقًا في منزلتي وقرابتي قال قرأت القرآن قال لا قال فادن مني فدنا منه فنزع العمامة عن رأسه بقضيب في يده فقرعه قرعة وقال لرجل من جلسائه ضمّ إليك هذا العلج ولا تفارقه حتى يقرء القرآن فقام إليه آخر فقال يا أمير المؤمنين اقض ديني فقال له أ تقرء القرآن قال نعم فاستقرأه عشرًا من الأنفال وعشرًا من براءة فقرء فقال نعم نقضي دينك وأنت أهلٌ لذلك" فأنت ترى أن الوليد يعدّ من لا يقرء القرآن علجًا والمؤلف يعدّ الوليد علجًا.

فأما ما ذكره المؤلف من أقوال الحجاج وخالد القسري وإنهما كانا يفضّلان الخلافة على النبوة فمع أن أكثر هذه الأقوال مأخوذ من العقد الفريد وهو من كتب المحاضرات لسنا نحتاج إلى الذب عن الحجاج وخالد فإنهما من أشرار الأمة حقًا ولكن كم لنا من أمثال هؤلاء الملاحدة في الدولة العباسية كالعجاردة وابن الراوندي الذي عمل كتابًا ردّ فيه على القرآن وسمّاه بالدامغ فإذا كان العباسية غير مسئولين عن أوزار هؤلاء عند المؤلف فكذلك بنو أمية وإن كان عبد الملك والوليد يرتضيان بسوء أعمال الحجاج فمعلوم أن

[1] الجزء الثاني، ص 258

غيرهما من بني أمية كانوا ناقمين عليه كافة حتى أن هشامًا قال "هل الحجاج استقرّ في جهنم أو يهوي إلى الآن" ولما وصل هشام أن خالدًا القسري استخفّ بامرأة مؤمنة عزله عن الأمارة وسجنه كما ذكره ابن خلكان.

والحاصل أن المؤلف، إن خصّ رجلًا أو رجلين من بني أمية، بالمطاعن لاعترفنا به ولكن من سوء مكيدة المؤلف أنه يجعل الفرد جماعة والفذ توءمًا والنادر عامًا والشاذّ مطردًا.

جور بني أمية: سمعنا بمظالم بخت نصر وأحطنا علمًا بشنائع چنگيز خان واطلعنا على ما جنته أيدي التتر فوالله (لو صدق المؤلف) هم ما كانوا أشدّ قسوة ولا أفظع أعمالًا ولا أسفك دماءً ولا أجمع لأنواع الفتك من بني أمية.

قال المؤلف:

"--- حتى في أيام معاوية فإنه أرسل بسر بن أرطأة --- وأرسل معه جيشًا ويقال أنه (أي معاوية) أوصاهم أن يسيروا في الأرض ويقتلوا كل من وجدوه من شيعة علي ولا يكفّوا أيديهم عن النساء والصبيان" (الجزء الرابع، ص 82)

قبل أن أكشف عن جلية الأمر لا بدّ من تقديم مقدمة وهي أن المؤلف مدح بني العباس وجعل أعمالهم مناطًا للعدل ودلالة على الرفق فقال:

"ولا غرابة فيما تقدّم من عمران البلاد في ظل الدولة العباسية فإن العدالة توطد دعائم الأمن وإذا أمن الناس على أرواحهم وحقوقهم تفرغوا للعمل فتعمر البلاد ويرفه أهلها ويكثر خراجها" (الجزء الثاني، ص 81)

وعلى هذا فإذا وجدنا بني أمية معادلين لبني العباس في جميع أعمالهم سواء بسواء كان اختصاصهم بالذم دون بني العباس جورًا فاحشًا وميلًا عظيمًا، ثم إن هناك أمرًا آخر وهو أن المؤرخين بإسرهم كانوا في عصر بني العباس ومن المعلوم أنه لم يكن يستطيع أحدٌ أن يذكر محاسن بني أمية في دولة العباسيين فإذا صدر من أحد شيئ من ذلك فلتة كان يقاسي قائلها أنواعًا من الهتك والإيذاء وخامة العاقبة وكم لنا من أمثال هذه في أسفار

التاريخ، ومع أننا نفخر بأن مؤرخي الإسلام كانوا أصدق الناس رواية وأجرؤهم على إظهار الحق ما كان يمنعهم عن بيان الحقيقة سلطة ملك ولا مهابة جائر ولكن مع ذلك فرق بين تعمّد الكذب والسكوت عن الحق ولذلك نعتقد أنهم ما قالوا شيئًا افتراءً على بني أمية ولكن إن قلنا إنهم كثيرًا ما سكتوا عن محاسنهم فذلك شيئ لا يدفع وليس فيه غضّ منهم.

أما بنو العباس فكانوا في عصرهم ولاة البلاد وملاك رقاب الناس. رضاهم الحياة وسخطهم الموت، فالوقيعة فيهم والأخذ عليهم ما كان يمكن إلا بعد مخاطرة النفس والاقتحام في الهلاك ونصب النفس للموت.

رجعنا إلى قول المؤلف أن معاوية أمر بقتل النساء والصبيان، اعلم أن هذه الواقعة أي إرسال بسر ابن أرطأة إلى شيعة عليّ من أشهر الوقائع المذكورة في سائر كتب التواريخ وليس في أحد منها قتل النساء والصبيان بل فيها ما يخالف هذه الرواية قال المؤرخ اليعقوبي "ووجّه معاوية بسر بن أرطأة وقيل بن أرطأة العامري من بني عامر بن لوى في ثلاثة آلاف رجل فقال له سر حتى تمرّ بالمدينة فاطّرد أهلها وأخف من مررت بها وانهب مال من أصبت له مالًا ممن لم يكن دخل في طاعتنا وأوهم أهل المدينة أنك تريد أنفسهم وأنه لا براءة لهم عندك --- حتى تدخل مكة ولا تعرض فيهما لأحد وارهب الناس فيما بين مكة والمدينة --- ثم امض حتى تأتي صنعاء فإنّ لنا بها شيعة وقد جاءني كتابهم فخرج بسر فجعل لا يمرّ بحيّ من أحياء العرب إلا فعل ما أمره معاوية (اليعقوبي، طبع أوربا، ص 231 من الجزء الثاني)

فترى في هذه العبارة أنه لم يكن هناك إلا تخويف وتهديد وإيهام ولما رأى المؤلف أن المصادر التاريخية الموثوق بها لا توجد فيها ما يوافق هواه جنح إلى الأغاني ونقل أمر معاوية بقتل النساء والصبيان ثم اعتذر عن معاوية بأن المظنون خلاف ذلك لحلمه ودهائه، والظن أن معاوية أطلق يد بسر ولم يعيّن له حدودًا وكان بسر سفّاكًا للدماء فلم يستثن طفلًا ولا شيخًا.

قد قلنا إن الأغاني من كتب المحاضرات فإذا كان الأمر هيّنًا وكان الحديث فكاهة أو تسلّلًا من كدّ العمل إلى استراحة فلا بأس به وبأمثاله أما إذا كان الأمر ذا بال وكانت الواقعة معترك الاختلاف ومتعفر الأهواء رافعةً لشأن أو هادمةً لأساس فأمثال هذه الكتب لا يؤذن لها ولا يلتفت إليها مطلقًا.

ثم إن الرجل (أي صاحب الأغاني) شيعي إذا جاءه شيئ مما يشين معاوية ويدنّسه وجد من نفسه ارتياحًا إلى قبوله ولو كان من أوهن الأحاديث وأكذبها.

نعم إن بسر بن أرطأة قتل طفلين ولكن القتل لم يتجاوز الاثنين فأين هذا من قول المؤلف.

"وكان بسر سفاكًا للدماء فلم يستثن طفلًا ولا شيخًا"

قال المؤلف:

"فإذا كان هذا حال العمّال في أيام معاوية مع حلمه وطول أناته فكيف في أيام عبد الملك مع شدته وفتكه فهل يستغرب ما يقال عن فتك الحجاج وكثرة من قتلهم صبرًا ولو كانوا 120000" (الجزء الرابع، ص 83)

نعم قتل الحجاج مائة ألف أو مائتين ولكن أين هذا من صنيع أبي مسلم الخراساني القائم بدعوة بني العباس المؤسس لدولتهم فإنه قتل صبرًا بدون حرب ما يبلغ عدده ستمائة ألف وقد اعترف به المؤلف في هذا التأليف نفسه (الجزء الرابع، ص 112) والمؤلف يحتال لذلك عذرًا ويحسبه من طبيعة السياسة فالحجاج أحقّ بالعذر وأجدر بالعفو فإن الحجاج عرب قحّ طبعه الجفاء والقسوة أما أبو مسلم فعجمي تربّى في حجر التمدن وغذّي بلبان الظرف ودماثة الأخلاق.

أما قوله "عبد الملك كان أشدّ وطأة منه" (أي من الحجاج) فلم يأت عليه بشاهد غير غدره بعمر بن سعيد وأين هذا من غدر المنصور العباسي بأبي مسلم الذي هو ربّ الدولة العباسية ولولاه لما قامت للعباسيين قائمة ولا كان لهم ذكر وكذلك غدر المنصور بأبي هبيرة.

وغاية ما يقضى منه العجب أن المؤلف بعدما ذكر فتك بني أمية بقوله "وقد نفعتهم هذه السياسة (أي سياسة الفتك) في تأييد سلطانهم ثم قال فصارت سنة في من ملك بعدهم من بني العباس وغيرهم وأنت تعلم أن المؤلف يبرّئ ساحة العباسية من الجور والظلم فضلًا عن الفتك فهل هذا تناقض في القول أو أراد بهم نفعًا فضرّهم من حيث لا يعلم. لا والله لا هذا ولا ذاك بل هي من مكائد المؤلف التي لا يهتدي إليها إلا فطن خبير بطوية الرجل وكامن ضغنه.

جور العمّال: ذكر المؤلف تحت هذا العنوان أنواعًا من الجور والشدة الصادرة من عمّال بني أمية ونحن نذكر بعضًا منها مع كشف الحقيقة.

قال يذكر جور العمّال "وإذا أتى أحدهم بالدراهم ليؤدّيها في خراجه يقتطع الجابي، منها طائفة ويقول هذا رواجها وصرفها" (الجزء الثاني، ص 22 واستند في الهامش بكتاب الخراج لأبي يوسف، ص 62)

أيها الفاضل المؤلفّ: أ ليس لك وازع من نفسك، أ ليس لك رادع عن ديانتك، أ تجترئ على مثل هذا الكذب الظاهر والمين الفاحش جهرة فإن القاضي أبا يوسف ما تكلّم في شأن عمّال بني أمية ببنت شفة وإنما ذكر عن عمّال هارون الرشيد وإسائتهم العمل في جباية الخراج وكتاب الخراج لأبي يوسف بين أيدينا وقد طبع في مصر وتداولته الأيدي وتناقلته الألسن.

قال المؤلف:

"وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصية للرشيد بشأن عمّال الخراج ما يبيّن الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها قال "بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل أو الوالي جماعة منهم لربه حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجّههم في أعماله، يقتضي بذلك الذمامات فليس يحفظون ما يوكلون بحفظه ولا ينفقون من يعاملونه، إنما مذهبهم أخذ شيئ من الخراج كان أي من أموال الرعية ويقيمون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلّقون

عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلوة وهذا عظيم عند الله شنيع في الإسلام (الجزء الثاني، ص 23-24 مستندًا إلى كتاب الخراج، ص 61-62)

الله أكبر! هل سمع أحدٌ بأعظم من هذا التدليس والتلبيس، يشتكي القاضي أبو يوسف من عمّال هارون الرشيد ويرفع القضية إليه ويبيّن ما بلغه مما يرتكب عمّاله في أخذ الأموال من الرعايا فيأخذ المؤلف أقواله وينقلها من حيث إنها هي الطرق التي كان عمّال بني أمية يجمعون الأموال بها، ها هو كتاب الخراج بأيدينا قرأناه وقلبناه ظهرًا عن بطن وكرّرنا فيه النظر لا كرّة أو كرتين بل مرّات متوالية متتابعة فما وجدنا فيه كلمة في شأن عمّال بني أمية وإنما قال ما قال أبو يوسف يعظ الرشيد بما بلغه عن عمّاله إلى أن خاطبه بقوله:

"فلو تقرّبت إلى الله عزّ وجلّ يا أمير المؤمنين! بالجلوس لمظالم رعيتك في الشهر أو الشهرين مجلسًا واحدًا تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم رجوت أن لا تكون ممن احتجب عن حوائج رعيته ولعلك لا تجلس إلا مجلسًا أو مجلسين حتى يسير ذلك في الأمصار والمدن فيخاف الظالم وقوفك على ظلمه فلا يجترئ على الظلم --- مع أنه متى علم العمّال والولاة أنه تجلس للنظر في أمور الناس يومًا في السنة ليس يومًا في الشهر تناهوا بإذن الله عن الظلم وأنصفوا من أنفسهم" (كتاب الخراج، ص 63-64)

لا فُضّ فوك يا أبا يوسف! فقد صدعت بالحق وأمرت بالمعروف واجترأت على النهي عن المنكر وأخذت على ملك جبار كهارون الرشيد صاحب النكبة بالبرامكة، وأكبر جرأتك أيها الفاضل (جرجي زيدان) تتبعت سيرة عمّال بني أمية وبالغت في الإمعان وكابدت في ذلك محنة التقصّي فأعوزك كل هذا وما وجدت في أعمالهم شيئًا من مثل تلك الفضائع فعمدت إلى سيرة عمّال الرشيد وأوهمت الناظرين أنها سيرة عمّال بني أمية.

قال المؤلف:

"وكان العمّال لا يرون حرجًا في ابتزاز الأموال من أهل البلاد التي فتحوها عنوة لاعتقادهم أنها فيء لهم كما تقدّم" (الجزء الرابع، ص 75) الذي أشار إليه بقوله "تقدّم" هو قوله في الجزء الثاني وهذا نصّه "وكان من جملة نتائج تعصب بني أمية للعرب

واحتقارهم سائر الأمم أنهم اعتبروا أهل البلاد التي فتحوها وما يملكون رزقًا حلالًا لهم يدلّ على ذلك قول سعيد بن العاص عامل العراق ما السواد إلا بستان قريش ما شئنا أخذناه منه وما شئنا تركناه وقول عمرو بن العاص لصاحب أخنا لما سأله عن مقدار ما عليهم من الجزية فقال عمرو إنما أنتم خزانة لنا إن كثّر علينا كثّرنا عليكم وإن خفّف عنا خفّفنا عنكم" (الجزء الثاني، ص 19)

تشبّث المؤلف بهذه الأقوال في غير موضع مستدلًا على أن العرب وبني أمية كانوا يتصرفون على أموال الناس كيفما شاءوا ظنًا منهم أن أموالهم وأعراضهم أبيحت لهم مطلقًا.

حقيقة القول أنه لما فتتحت البلاد في خلافة الفاروق تقدّم بعض الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وبلال وغيرهما وقالوا إن الأرض مقسومة بيننا كما قسم رسول الله خيبر وكان الفاروق رأى غير هذا فقام النزاع حتى وفّق إلى الاستناد بنصّ القرآن فسكتوا ورضوا والقصة مذكورة بتفاصيلها في كتاب الخراج للقاضي أبي يوسف ثم إن بعض البلاد فتحت صلحًا فمتى كان الخراج أو الجزية شيئًا مسمًّى معيّنًا ما كانوا يرون الزيادة عليه وإن أكثرت الأرض خيراتها وزادت غلاتها وفتح بعضها عنوة فكان الخراج أو الجزية عليها بقدر النقص والزيادة وهذا هو قول عمر "إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفّف عنا خفّفنا عنكم" وقد أشار إلى ذلك المقريزي في تاريخه والعلامة السيوطي في حسن المحاضرة فأما قول سعيد بن العاص الذي استند به المؤلف فتحريف الكلام عن موضعه على جاري عادته فإن المؤلف نفل هذه الرواية من الأغاني والمذكور فيه ما حاصله "إن أحدًا مدح السواد عند سعيد بن العاص وبالغ فيه فقال بعضهم نعم ويا ليته كان لأميرنا فقال بعض من حضر لا تعطِ أرضنا للأمير فقال الرجل ولو شاء الأمير لأخذه فأنكروا قوله فقال سعيد بن العاص "السواد بستان قريش إلخ" فقال الرجل لا إنه من منايح رماحنا" فأنت ترى أن النزاع بين الجند وأمير البلد هنا هو النزاع الذي كان بين بعض الصحابة وعمر الفاروق وأيّ متشبّث في ذلك للمؤلف فإن سعيد بن العاص

قال ما قال ردًّا على الجند بدعوى أن الأرض لا تقسم بين فاتحي البلاد" هي تحت يد الخليفة أو من ينوب عنه وإنما ذكر سعيد قريشًا لأن الخلافة على زعمهم لقريش خاصة.

قال المؤلف:

"فكان الخلفاء يكتبون إلى عمّالهم بجمع الأموال وحشدها والعمّال لا يبالون كيف يجمعونها فقد كتب معاوية إلى زياد "اصطف لي الصفراء والبيضاء فكتب زياد إلى عمّاله بذلك وأوصاهم أن يوافوه بالمال ولا يقسموا بين المسلمين ذهبًا ولا فضة" (الجزء الرابع، ص 75 وأحال الرواية في الهامش على العقد الفريد، ص 18 من الجلد الأوّل)

ننقل مأخذ هذه الرواية كما صرّح به المؤلف في الهامش لترى خيانات المؤلف واحدة بعد واحدة، قال صاحب العقد:

"ونظير هذا القول ما رواه الأعمش عن الشعبي إن زيادًا كتب إلى الحكم بن عمر الغفاري وكان على الطائفة أن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أصطفي له الصفراء والبيضاء فلا تقسم بين الناس ذهبًا ولا فضة فكتب إليه أني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ثم نادى في الناس فقسم لهم ما اجتمع من الفيء" (العقد الفريد، 18/1)

فانظر أولًا أنه ليس في هذه الرواية أن معاوية كتب إلى زياد بل أن زياد كتب إلى الحكم أن أمير المؤمنين كتب إليّ" ولعل زياد كذب في ذلك أو فهم غير ما أراد معاوية بقوله.

ثانياً أن المؤلف حذف كل ما قال الشعبي وما عمل به من تقسيم الفيء لدلالته على أنّ في عمّال بني أمية من لا يمنعه عن الصدع بالحق وأداء الواجب أحدٌ، لا ولاة الأمصار ولا من فوقهم أي الخليفة نفسه.

ثالثاً إنه ليس في هذه العبارة ما يستدلّ به على استيثار معاوية المال لنفسه فإنّ مراده أن العمّال ليس لهم تقسيم الفيء بل الأمر موكول إلى الخليفة فعلى العامل أن يجمع الأموال ويرسلها إلى الخليفة وللخليفة أن يضعها موضعها.

قال المؤلف:

"فكان العمّال يبذلون الجهد في جمع الأموال بأية وسيلة كانت ومصادرها الجزية والخراج والزكاة والصدقة والعشور وأهمّها في أوّل الإسلام الجزية وكثرة أهل الذمة فكان عمّال بني أمية يشدّدون في تحصيلها فأخذ أهل الذمة يدخلون في الإسلام فلم يكن ذلك لينجيهم منها لأن العمّال عدوّا إسلامهم الفرارَ من الجزية وليس رغبة في الإسلام فطالبوهم بالجزية بعد إسلامهم وأوّل من فعل ذلك الحجاج بن يوسف واقتدى به غيره من عمّال بني أمية في إفريقية وخراسان وما وراء النهر فارتدّ الناس عن الإسلام وهم يودّون البقاء فيه وخصوصًا أهل خراسان وما وراء النهر فإنهم ظلّوا إلى أواخر بني أمية لا يمنعهم عن الإسلام إلا ظلم العمّال بطلب الجزية منهم بعد إسلامهم" (الجزء الرابع، ص 76)

ذكر المؤلف هذه الواقعة أي أخذ الجزية بعد الإسلام في غير موضع بعبارات متنوعة قوية الأخذ بالنفس شديدة الوطأة على القلب يترآى للناظر فيها أن الناس أحيطوا من كل جانب جورًا وعدوانًا فإذا بقوا على الكفر يعانون من الشدة ما يلجيهم إلى الإسلام وإذا أسلموا فالجزية باقية على حالها لا يخفّف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

اعلم أن الجزية ليست إلا بدلًا عسكريًا فمن يذبّ عن بيضة الملك بنفسه فهو غير مأخوذ بها، أما من ضنّ بالنفس أو لا يصلح لذلك فعليه أن يؤدي شيئًا من المال ليكون عدة للعسكر وعونًا له وأوّل من سنّ الجزية وجعل لها وضائع كسرى نوشيروان كما ذكره ابن الأثير وصرّح بأنها هي الوضائع التي اقتدى بها عمر بن الخطّاب وكم تجد في البلاذري والطبري وغيرها أن أقوامًا من النصارى في عصر عمر بن الخطّاب لما قاموا بالدفاع عن الملك أو دخلوا في الجند سقطت عنهم الجزية وأعفي عمر بن الخطاب نصارى تغلب عن الجزية وأضعف عليها الصدقة وجملة القول أن الجزية لم يكن في الأصل شيئ يحدّ بين الكفر والإسلام ولكن لما كان غالب الحال أن أهل البلاد من النصارى والمجوس واليهود كانوا أصحاب حرث وزرع وعمّالًا في الديوان وكانوا لا يرضون بمخاطرة النفس واقتحام الحرب ولذلك كانوا مطالبين بالجزية والمسلم لا يمكن له

الاعتزال عن الحرب فإنه مضطرّ إلى الذب عن بلاد الإسلام طائعًا أو مكرهًا، صارت الجزية كأنها حدّ فاصل بين الرئيس والمرءوس ثم بين المسلم وغير المسلم.

2- ولما ينفصل الأمر بتة وبقي للاجتهاد موضع ومتّسع كان بعض العمّال يضرب الجزية على حديثي العهد بالإسلام.

3- ولكن مع هذا لم يتفق ذلك في مدى الخلافة الأموية إلا مرات معدودات يشهد بذلك الفحص والتقصي وإمرار النظر والكدّ في البحث والتنقيب ومع ذلك فكلما وقع مثل هذا لم يكن له بقاء فأما أن يكون الأمة هي التي تقيم النكير على العامل أو يصل الخبر إلى الخليفة فيردّ عمله ويمنعه عن الوقوع في مثله آتيًا ففي سنة 101هـ لما كتب الحجاج إلى البصرة بردّ من أسلم من أهل القرى إلى مساكنهم وضرب الجزية عليهم ضجّ القرّاء وخرجوا يبكون مع البكاة من أهل القرى وبايعوا عبد الرحمن بن الأشعث مشمئزّين من عمل الحجاج منكرين عليه كما هو مشروح في تاريخ الكامل لابن الأثير وكذلك لما اقتدى الجراح الحكمي بصنيع الحجاج كتب إليه عمر بن عبد العزيز يأمره بإسقاط الجزية والواقعة مذكورة في حوادث سنة 100هـ في تاريخ الكامل وكذلك لما فعل يزيد بن أبي مسلم في إفريقية سنة 102هـ تألّب الناس عليه وقتلوه وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك فكتب إليهم أني ما كنت مستحسنًا عمل يزيد والقصة مذكورة في الكامل تحت حوادث سنة 102هـ وكان آخر ما وقع مثل ذلك ما فعل الأشرس في خراسان فأورث ثورة واشترك العرب مع الثائرين ونصروهم. أما خلفاء بني أمية فلم يثبت من أحد منهم مثل ذلك وإنما كان أراد عبد الملك وضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة فكلّمه ابن حجرة فترك والقصة مذكورة في المقريزي بنوع من التفصيل (انظر صفحة 78 من الجزء الأوّل) والآن نقصّ عليك بعض خيانات المؤلف.

(1) ذكر واقعة الحجاج وترك نكير القرّاء عليه وبيعهم على يد ابن الأشعث إنكارًا على صنيع الحجاج.

(2) ذكر واقعة الجراح (الجزء الثاني، ص 20) وترك إنكار عمر بن عبد العزيز عليه ومنعه عن ذرب الجزية عليهم.

(3) ذكر واقعة يزيد بن أبي مسلم وترك أن الناس قتلوه وأن الخليفة يزيد بن عبد الملك استصوب صنيعهم أي قتلهم يزيد بن أبي مسلم.

(4) ذكر واقعة الأشرس ولم يذكر أن العرب قاموا عليه وكانوا مع الثائرين عليه.

ولما ثبت أن ضرب الجزية على حديثي العهد بالإسلام لم يأمر به أحدٌ من خلفاء بني أمية وإنما كان اجتهادًا من بعض العمّال بناءًا على أن إسقاط الجزية يورث نقصًا في الخراج وأن الخلفاء كلما عثروا على ذلك منعوا العمّال عن ضرب الجزية وردّوا عملهم وأنه كلما وقع مثل ذلك تألّب العلماء والخيار من الناس وأقاموا النكير على ضارب الجزية حتى قتلوا بعض العمّال واستحسن الخليفة قتله فهل للمؤلف أن يحمل أوزار بعض العمّال على بني أمية كافة وهل يصحّ قوله:

"ولم يكن عمّال بني أمية يأتون هذه الأعمال من عند أنفسهم دائمًا بل كثيرًا ما كانوا يفعلونه بأمر خلفاءهم كما قد رأيت مما كتبه معاوية إلى وردان" (الجزء الثاني، ص 22)

أما كتاب معاوية إلى وردان فقد مرّ ذكره وليس فيه للمؤلف موضع حجة.

قال المؤلف:

"أنه لما رأى أهل الذمة أن الإسلام لا ينجيهم من ذلك فعمد بعضهم إلى التلبس بثوب الرهبنة لأن الرهبان لا جزية عليهم فأدرك العمّال غرضهم من ذلك فوضعوا الجزية على الرهبان وأوّل من فعل ذلك منهم عبد العزيز بن مروان عامل مصر فأمر بإحضار الرهبان وفرض على كل راهب دينارًا" (الجزء الثاني، ص 20 مستندًا إلى المقريزي، ص 492 من الجزء الثاني)

أيها الفاضل المؤلف! ما هذا الاجتراء؟ ما هذا الاختلاق؟ ما هذا الكذب الظاهر؟

هاك نصّ المقريزي "ثم قدم اليعاقبة في سنة إحدى وثمانين الإسكندروس فقام أربعًا وعشرين سنة ونصفًا وقيل خمسًا وعشرين سنة ومات سنة ستّ ومائة ومرّت به شدائد صودر فيها مرتين أخذ منه فيهما ستة الآن دينار وفي أيامه أمر عبد العزيز بن مروان فأمر بإحصاء الرهبان فأحصوا وأخذت منهم الجزية على كل حالم دينار وهي أوّل جزية أخذت من الرهبان" (الجزء الثاني من المقريزي، ص 492)

فهل تجد في هذه العبارة أدنى إشارة إلى أن عبد العزيز أو أحدًا غيره شدّد في الجزية فاختاروا الرهبنة طلبًا للنجاة من الجزية فما نفعهم وإنما فيها أن عبد العزيز بن مروان وضع الجزية على الرهبان وهذا ليس فيه كبير شيئ فإن الرهبان وإن كانوا معافون عن الجزية لكن لما لم يكن الأمر منصوصًا لا في الكتاب ولا في السنة كان للاجتهاد فيه مساغ فاجتهد عبد العزيز وأخطأ.

خاتمة هذا البحث: لو سردنا كل ما قال المؤلف عن جور بني أمية وعمّالهم واستيثارهم الأموال وإسرافهم في استلابها وبيّنا ما في كل قول من التحريف والتدليس وتغيير المعنى والخيانة في النقل وصرف العبارة عن وجهها لطال الكلام واحتجنا إلى عمل كتاب منفرد بنفسه فلأجل ذلك اقتصرنا على كشف بعض دسائسه مع أنه قُلّ من كلّ وغيضٌ من فيض[1].

[1] ومما يناسب ذكره في هذا المقام أن المؤلف لما أنجز الجزء الأوّل من كتابه أرسله إليّ فكتبت إليه بعد الإعجاب به أنه لا بدّ من ذكر مصادر الروايات في كل موضع وذلك لأجل أني كنت أخاف عليه التدليس، فأظهر المؤلف في مقدمة الجزء الثاني أنه عمل بذلك ويذكر الكتاب والجزء والصفحة ولكن من الأسف أن كل هذا ما أجدى نفعاً فإنه ما يذكر المطبعة ولأجل هذا كابدت في تطبيق مصادر كتابه محنة عظيمة فإن النسخ مختلفة ولا يدرى أي نسخة أرادها وبسبب ذلك ما اهتدنا إلى أكثر خياناتها ومن المحقق المستيقن به أنه ما نقل عبارة إلا وعمل فيها شيئاً من التحريف والتغيير ومن كان في ريب من ذلك فليراجع الأصول ويكابد محنة التطبيق ليؤمن بما قلته مع حيرة واندهاش.

ونقول بعد كل ذلك أن موضوع الكتاب ليس إلا بيان تمدن الإسلام فأي متعلق في ذلك لإبداء مساوئ بني أمية ولعلك تقول لا بد في تاريخ تمدن الإسلام من بيان منهج السياسة وإنها هل كانت مؤسسة على الاستبداد والجور والعدل والنصفة فجرّ ذلك إلى كشف عوار بني أمية عرضًا ولكن أناشدك بالله أما كان لأحد منهم مأثرة تذكر ومنتقبة تنقل وسياسة تنفع البلاد ومعدلة تعمّ الناس. نعم إن بني أمية لا يوزنون بالخلفاء الراشدين وليس هذا عارًا عليهم ولا فيه حطّ لمنزلتهم فإن إدراك شأو الراشدين واللحوق بهم أمر خارج عن طوق البشر وليس فيه مطمع لأحد ولا موضع رجاء لمجتهد ولكن التوازن والتكايل بين الأموية والعباسية وإنما هم ملوك فيهم المحسن والمسيء، والعادل والجائر، والناسك والخليع، والحازم والمغفل، بل الذي أعدلهم سيرة وأمثلهم طريقة وأوفاهم ذمًا وأرضاهم طورًا لا يخلو من عثرات لا تقال وهنات لا تذكر. فلو لزم المؤلف جادة الإنصاف ووفّى لكل أحد قسطه وأعطى كل ذي حق حقه لاستراح واسترحنا ولكنه مال إلى واحد فأطرى في مدحه ونال من الآخر فأسرف في تهجينه وذمه ثم إنه لم يفارق في مدحه وذمه عمود الكتاب أي ذمّ العرب والحطّ من شأنهم فإنه ذمّ بني أمية لأنهم عرب بحتة ومدح العباسيين لا لأنهم عرب أو أنهم من سلالة هاشم أو من أقرباء النبي بل لأنّ دولتهم دولة عجمية وقد مر نصُّه في ذلك سابقًا.

وحان لنا أن نذكر طرفًا من مآثر بني أمية وسيرتهم ومبلغهم من حسن السياسة وتعمير البلاد وتمهيد السبل وتوطيد الأمن وإقامة المرافق وتعميم المعارف.

اعلم أن دولة بني أمية عبارة عن معاوية ويزيد وعبد الملك بن مروان والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وهشام فأما ما عداهم فلم تطل مدتهم وليس العبرة بهم إن أحسنوا أو أساءوا.

فأما معاوية فنذكر من سيرته ما ذكره المؤرخ المسعودي في مروجه بنوع من الاختصار، قال:

"كان من أخلاق معاوية أنه كان يأذن في اليوم والليلة خمس مرات؛ كان إذا صلّى الفجر جلس للقصّاص حتى يفرغ من قصصه ---- فيخرج إلى المسجد فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسي ويقوم الأحداث فيتقدّم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول ظُلِمْتُ فيقول أعزّوه ويقول عدي إليّ فيقول ابعثوا معه ويقول صنع بي فيقول انظروا في أمره حتى إذا لم يبق أحدٌ دخل فجلس على السرير ثم يقول ايذنوا للناس على قدر منازلهم فإذا استووا جلوسًا قال يا هؤلاء أنما سُمِّيتم أشرافًا لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس ارفعوا إلينا حوائج من لا يصل إلينا فيقوم الرجل فيقول شهد فلان فيقول افرضوا له ويقول آخر غاب فلان عن أهله فيقول تعاهدوهم واقضوا حوائجهم ثم يؤتى بالغداء والكاتب يقرء كتابه فيأمر فيه حتى يأتي على أصحاب الحوائج كلهم وربما قدم إليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغذاء".

وأطال المسعودي في بيان أعمال معاوية يوميًا ثم قال بعد حكاية معترضة "فلنرجع الآن إلى أخبار معاوية وسياسته وما أوسع الناس من أخلاقه وما أفاض عليهم من برّه وعطائه وشملهم من إحسانه مما اجتذب به القلوب واستدعى به النفوس حتى آثروه على الأهل والقرابات" ثم ذكر بعد ذلك عدة وقائع تركناها هربًا عن الإطناب.

فأما عبد الملك فقال المدائني "كان يقال معاوية أحلم وعبد الملك أحزم وهو الذي جعل على بيوت الأموال والخزائن رجاء بن الحيوة ذلك المحدّث المشهور وعلى كتابة الخراج والجند سرحون بن منصور الرومي (وهو نصراني) وحوّل الدواوين من الرومية والفارسية إلى العربية وزاد على ما كان فرض معاوية للموالي خمسة فبلغها عشرين ودخل في بيعته عبد الله بن عمر ومحمّد بن الحنفية" ذكر كل ذلك صاحب العقد في ترجمته وقد سبق من نسكه وعبادته ما فيه كفاية فيما مرّ".

ومما ينقم عليه تأميره الحجاج ولكنّ الدولة تحتاج في إبانها وأوّل نشاءتها إلى أمثال ذلك وهذا أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة العباسية قتل ستمائة ألف رجل صبرًا وهذا

أبو جعفر المنصور فعل بالهاشميين ما لم يسبق له نظير في الإسلام ومع ذلك فإني أعوذ بالله أن أقوم ذابًّا عن الحجاج ومدافعًا عنه".

أما الوليد فكان أهل الشام يفتخرون به وحقّ لهم ذلك. قال صاحب العقد الفريد "كان الوليد عند أهل الشام أفضل خلفائهم وأكثرهم فتوحًا، وأعظمهم نفقة في سبيل الله بنى مسجد دمشق ومسجد المدينة ووضع المنابر وأعطى المجذومين حتى أغناهم عن سؤال الناس وأعطى كل مقعد خادمًا وكل ضرير قائدًا وكان يمرّ بالبقّال فيتناوله قبضة فيقول بكم هذه فيقول بفلس فيقول زد فيها فإنك تربح" وهو الذي وسّع مسجد النبي وذهّب البيت، قال اليعقوبي إن الوليد بعث إلى ملك الروم يعلمه أنه قد هدم مسجدَ رسول الله فليعنه فيه فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهبًا ومائة فاعل وأربعين حملًا فسيفساء -- وبعث الوليد إلى خالد بن عبد الله القسري وهو على مكة بثلاثين ألف دينار فضربت صفائح وجعلت على باب الكعبة --- فكان أوّل من ذهّب البيت في الإسلام وحجّ الوليد سنة 91 لينظر إلى البيت وإلى المسجد وما أصلح منه وإلى البيت وتذهيبه".

وقال اليعقوبي كان أوّل من عمل البيمارستان للمرضى ودار الضيافة وأوّل من أجرى على العميان والمساكين والمجذومين الأرزاق".

وقال السيوطي في تاريخه للخلفاء "وكان مع ذلك (أي كونه جبّارًا ظلومًا) يختن الأيتام ويرتّب لهم المؤدّبين".

ثم إنّ الدول تعرف أقدارها بآثارها وتقضى بفضلها بعملها وأخلد الآثار التي تتفاضل بها مقادير الملوك وتتطاول بها رتب الدول كثرة الفتوح واستتباب أمور الملك والرعية وتوطد دعائم العدل وانتشار العلم ودولة بني أمية قد أخذت من كل ذلك قسطًا وضربت في كل ذلك بسهم.

أما كثرة الفتوح فقد بلغت دولتهم منها غاية ليس وراءها مطّلع لطامح انقضت أيام الخلافة الراشدة والإسلام يزخر عبابه في جزيرة العرب وديار الشام ومصر وبلاد الفرس فلمّا تسنّمت بنو أمية عرش الخلافة ازداد الإسلام فتوحًا واتسعت ممالكه وغلب

سلطانه وامتدت سطوته ودخلت البلاد النائية المترامية الأكناف في حوزة حكمه فملكوا ما لم يملكه أحدٌ من ملوك الإسلام قبلهم ولا بعدهم فتحوا طرابلس وطنجة وسائر بلاد المغرب والأندلس وبلاد الديلم والأتراك والمغول والسند وقبرص وإقريطش ورودس وغيرها من جزائر البحر وغزوا صقلية وصالحوا النوبة وتوغّلوا في بلاد الروم حتى بلغوا سور القسطنطنية وضربوا السيف على أبوابها وافتتح السند محمد الثقفي أحدُ أبناء قوّادهم وهو ابن سبع عشرة سنة وقد وطئت جيوشهم ثغور الصين وثغور بلاد الأفرنج وعاصمة بلاد الروم وحدود بلاد الهند وملكوا من السند إلى ثغور بلاد الأفرنج طولًا ومن البحر الأحمر إلى بلاد الخزر عرضًا ودخل في حوزة ملكهم العرب وديار الشام والعراق والجزيرة ومصر والبجة وبرقة وتونس ومراكش وطرابلس والأندلس وأرمينية وخراسان وفارس وتوران والديلم وبلاد الران وطبرستان وجرجان وسجستان وخوارزم وما وراء النهر وبلاد الخزر وأفغانستان والسند وبعض بلاد الهند فمن يدانيهم من الملوك في سعة الملك ومن يباريهم في كثرة الفتوح.

استتباب أمور الملك والرعية: ليس في سعة الملك كبير فضل إذا لم يكن هناك تأنق في أمور المملكة ونظرٌ في أمور الرعية وقيام بمصالح العباد وتشمير في عمارة البلاد ولذلك الذين فتحوا البلاد ولم ينظروا في أمور أهلها ليسوا عند ذوي الخبرة من أهل التاريخ أسمى منزلة وأعلى مكانة من قطّاع الطريق الذين يعثون في الأرض مفسدين أما ملوك بني أمية فقد جمعوا بين بيعة الملك والنظر في أمور العباد وكثرة الفتوح وعمارة البلاد، حفروا الأنهار وعمروا الطرق وشادوا المصانع وابتنوا المساجد وبذلوا الأموال وقضوا الحوائج وكشفوا المظالم وأغمروا المجذومين والعميان والمقعدين والصعاليك بالجزيل من الإحسان وأجروا لهم الأرزاق ثم رتّبوا المصالح ودوّنوا الدواوين وحصّنوا الحصون وبنوا المدن والقصور.

فقد مرّ من ذلك شيئ كثير فيما تقدّم من سيرهم وأعمالهم وإليك هذه العجالة التي هي كالطل من الوبل أما المصانع فإنه حصّن هشام المثقب على يد حسّان بن ماهون الأنطاكي

وحفر له خندقًا وبنى حصن قطرغاش وحصّن مورة وحصّن بوفا من عمل أنطاكية وبنى سعيد بن عبد الملك سور الموصل وهو الذي هدمه الرشيد وفرش الموصل بالحجارة ابن تليد صاحب شرطة المروانيين وسار العباس بن الوليد إلى مرعش فعمرها وحصنها ونقل الناس إليها وبنى لها مسجدًا جامعًا وأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب أربعة وعشرين ألفًا من أهل الشام على العطأ وبني هريا (مخزنا) للطعام وهريا للشعير وخزانة للسلاح وأمر بكبس الصهاريج ورمّ المدينة وشرفها وأحدث الحجاج أحد أمراءهم في سنة 83 مدينة واسط بين الكوفة والبصرة وبنى مسجدها وقصرها والقبّة الخضراء بها وأحدث سليمان بن عبد الملك في ولايته مدينة الرملة ومصّرها وبنى فيها القصور ومسجدًا وحفر الآبار والقنى والصهاريج وبنى أحد قوّادهم عقبة بن نافع الفهري بإفريقية قيروانها وأحدثوا غيرها من المدن والحصون والأرباض في الأندلس وحدود بلاد الروم والسند.

ثم أمّنوا الطرق وعمّروا السبل فكان موضع قيروان غيضة ذات طرفاء وشجر لا يرام من السباع والحيات والعقارب القتّالة فأحدثوا فيه تلك المدينة الزهراء فأصبحت طرق إفريقية آمنة مستأنسة بعدما كانت مستوحشة ذات مخاوف ومهالك وكانت الطريق فيما بين أنطاكية والمصيصة مسبعة يعترض للناس فيها الأسد فوجّه الوليد إليها أربعة آلاف جاموسة وجاموس فنفع الله بها وأذكر ما كتب ابن الأثير في حوادث سنة 88 "أن الوليد كتب إلى البلدان جميعها بإصلاح الطرق وعمل الآبار" وكان الموضع الذي فيه نهر سعيد بن عبد الملك غيضة ذات سباع فأقطعه إياها الوليد فحفر وعمر ما هناك ولما بغى سيل الجراف بمكة في سنة 80 في زمن عبد الملك أمر عامله بعمل ضفاير الدور الشارعة على الوادي وضفاير المسجد وعمل الروم على أفواه السكك وحفر عدي عامل البصرة من قبل عمر بن عبد العزيز بأمره نهر عدي.

ومن الأخبار التي تدلّ على شدة حبّهم للرعية وكثرة بذلهم في إزاحة خللها وإماطة أذاها أنه شكا أهل البصرة إلى عامل يزيد على العراق ملوحة مائهم فكتب بذلك إلى يزيد فكتب إليه أن بلغت نفقة هذا النهر خراج العراق فأنفقه عليه فحفر لهم النهر الذي

يعرف بنهر ابن عمر وحفر عمّالهم الجابرون الغاشمون (كما يقول جرجي آفندي زيدان) والمنتسبون إليهم كثيرًا من الأنهار غير ما ذكر كنهر معقل ونهر دبيس ونهر الأساورة ونهر عمرو ونهر أم حبيب ونهر حرب ونهر بزيدان ونهر سلم ونهر ناقد ونهر خيرتان ونهر مرة ونهر بشار ونهر بزور ونهر حبيب ونهر ذراع ونهر أبي بكر وغيرها من الأنهار كلها حفروها[1] بالبصرة فما بال غيرها من البلاد.

أما ما بذلوا من الأموال وأفرغوا من الجهد في بناء المسجد النبوي وتذهيب البيت والمسجد الأموي الذي هو معدود من إحدى العجائب في كثرة نفقاته وعظمة بنائه ودقة صنعه وبهجة منظره وحسن نظامه فهو أشهر من نار على علم.

وبنو أمية هم أوّل من اتخذ دار الضرب في الإسلام فكسوا به الإسلام رفعة وأغنوه عن نقود الروم والفرس ونجّوه عما أوعده الروم بنقش شتم النبي صلّى الله عليه وسلّم عليها وهم الذين نقلوا الدفاتر والدواوين عن الفارسية والرومية والقبطية إلى العربية[2] فزادت العربية انتشارًا ونفوذًا ولم يمض برهة من الدهر حتى أصبحت هذه البلاد عربية النزعة واللسان وهم أوّل من بنى مستشفًى في الإسلام بنوه بدمشق سنة ثمان وثمانين جعلوا فيه الأطباء وأمروا بحبس المجذومين وأجروا لهم الأرزاق وهم أوّل من أنشأ دارًا للعميان وهم أوّل من عمل دار الضيافة[3] بعد عمر بن الخطاب وهم أوّل من رثى للأيتام وتحنّن إليهم ورتّب لهم المؤدبين ليعلّموهم[4].

نشر المعارف والعلم: أما العلم فقد زخر بهم بحره وزهر بدره فالقرآن الذي هو عمود الإسلام ورأس العلوم وينبوع المعارف أدرك الأمة قبل اختلافها فيه عثمان بن عفّان وهو أمويّ ثم بعد ذلك اختلط العرب بالعجم واحتكّت بهم ففسدت لغتها وأسلمت العجم

---

[1] راجع لكل ذلك البلاذري

[2] راجع لكل ذلك فتوح البلدان للبلاذري

[3] اليعقوبي (ذكر الوليد)

[4] السيوطي (ذكر الوليد)

فلم تستطع السلامة من اللحن فكثر التصحيف في القرآن وانتشر بالعراق ففزع الحجاج وهو أحد أمراء بني أمية إلى كتّابه فوضعوا النقط والإعجام[1] فعصموا به كتاب الله أن يتطرق إليه التصحيف والتحريف تطرقهما إلى التوراة والإنجيل ووالله هذا أعظم مبرّة بُرّ بها الإسلام لا يساويها مبرّة وأعظم منّة مُنّ بها على الدين لا يوازيها منّة ثم كتب الحجاج المصاحف وفرّقها في الأمصار وكان الوليد الذي رماه صاحبنا بالاستهانة بالقرآن يحثّ الناس على حفظ القرآن وكان يجزل الصلات لحفظته ويضرب الذين لم يحفظوه[2] فكثر حفظته وعظم قدرهم وجلت رتبتهم.

أما التفسير ففي أيامهم نبغت أجلة المفسّرين من التابعين وفي أيامهم دُوِّنَ التفسير في الصحف فأوّل من وضع في التفسير ابن جبير بأمر عبد الملك[3] ثم مجاهد.

أما الحديث فكانوا يدرّون على أهله الصلات ويبعثون إليهم بالهدايا ويجرون لهم الأرزاق لينقطعوا إلى حفظ الحديث وروايته ونقله وكانوا يكرّمون الفقهاء ويجلّون مقامهم ويراعون جانبهم فقد كان يصيح صائح من بني مروان في موسم الحجّ ألا لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح[4] إجلالًا لشأنه ولكثرة علمه بالمناسك[5] وكان عبد الملك أمر الحجاج وهو أميره على الموسم أن يقدم ابن عمر في الحج ويقبض أثره في المناسك وكان سالم ابن عبد الله والقاسم بن محمّد والشعبي وميمون بن مهران والزهري وأيوب بن أبي تميمة وقبيصة بن ذؤيب ورجاء بن الحيوة أعزة عند بني أمية وكان أكثرهم عمّالًا لهم وهم أساطين الحديث وأئمّة الرواية وأعلام النقل وأنت تعلم أن أحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم لولا استودعتها بطون الصحف لضاعت بهلاك العلماء وإسراع الموت فيهم

---

[1] ابن خلكان (ذكر الحجاج)

[2] العقد الفريد (أخبار الوليد) وابن الأثير سنة 788

[3] ميزان الاعتدال للذهبي (ذكر عطاء بن دينار)

[4] ابن خلكان (ذكر عطاء)

[5] مقدمة شرح الموطأ للزرقاني

فأسئلك بحرمة التاريخ من أمر أهل هذا الشأن بتدوينها في الكتب أ ليس هو عمر بن عبد العزيز الأموي فجاء في الآثار أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الآفاق "انظروا حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فاجمعوه" وكتب إلى أبي بكر بن حزم رأس المحدّثين أن انظر ما كان من سنة أو حديث فاكتبه لي فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء وقد كتب ابن حزم كتبًا في الحديث فتوفّي عمر ثم وضع الكتب فيه ربيع بن صبيح وكان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى الأمصار يعلّمهم السنن والفقه[1].

أما أصول اللغة ونحوها فقد كان تدوينها بأمر أمراء بني أمية، ذكر ابن خلكان (المجلد الأوّل، ص 240) أن أبا الأسود الدؤلي استأذن زياد بن أبيه وهو والي العراقيين يومئذ أن يضع للعرب ما يقيمون به لسانهم فأبى ثم بدا له صواب رأيه فدعا الدؤلي وقال له ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم فوضعه وأخذ عنه ما وضعه عتبة بن مهران المهري وعنه ميمون وعنه عبد الله الحضري وعنه عيسى بن عمر وعنه الخليل[2] وهؤلاء كلهم كانوا في عصر بني أمية وهم واضعو النحو ومدوّنو أصوله.

أما الشعر ففي عصرهم فتقت ألسنة الشعراء وارتفع قدرهم وانتشر ذكرهم ففحول الشعراء وأمراء القول وفرسان القريض هم الفرزدق الدارمي وجرير الخطفي والأخطل التغلبي وعمر بن أبي ربيعة القرشي وكثيّر عزة وجميل بثينة ومجنون ليلى وذو الرمة غيلان ونصيب وهولاء كلهم كانوا يقصدونهم بجياد قصائدهم فكانوا يغمرونهم بالجوائز فنطقت ألسنتهم بما أصبح زهرة للأدب وزينة للغة.

وكانوا يحثّون الناس على اقتناء الأدب وتناشد الشعر وتدارس أخبار الشعراء وكانوا يستوفدون الشعراء ويستزيرونهم ويجيزونهم بالأموال الجزيلة وكانوا يرسلون أبنائهم إلى

[1] مقدمة الزرقاني على الموطأ

[2] ابن خلكان، 380/2

البادية ليتلقنوا الأدب ويتلقفوا اللغة من أفواه الأعراب وأهل البادية وقد جمع الوليد بن يزيد عبد الملك ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها[1].

أما علم التاريخ والسير والمغازي فبعصرهم افتتح عصره وبأمرهم ارتفع أمره ففحول أصحاب السير والمغازي هم وهب بن منبّه عالم اليمن المتوفى سنة 114 ومحمد بن مسلم الزهري صاحب عبد الملك المتوفى سنة 124 وموسى بن عقبة المتوفى سنة 141 ولهؤلاء كلهم كتب في التاريخ والسير والمغازي[2] ووضع في أيامهم عوانة المتوفى سنة 147 كتاب التاريخ وكتاب سيرة معاوية وبني أمية وكان لملوك بني أمية رغبة شديدة في استطلاع الأخبار الماضية وحوادث الأمم الخالية. قال المسعودي إنه كان معاوية يجلس لأصحاب الأخبار في كل ليلة بعد العشاء إلى ثلث الليل ثم ينام ثلث الليل ويقوم فيأتيه غلمان وعندهم كتب فيقرءون عليه ما في الكتب من أخبار الأمم وسير الملوك وسياسات الدول ولم يصبر على ذلك حتى استحضر عالم عصره عبيد بن شربة من صنعاء اليمن وسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد وأمره أن يدوّن ما علمه وعاش عبيد إلى أيام عبد الملك وتوفّي وله من الكتب كتاب الأمثال وكتاب أخبار الماضين وأخذ عنه أناس سمّاهم ابن النديم وكان من رواته زيد الكلابي في أيام يزيد بن معاوية عارفٌ بأيام العرب وأحاديثها (الفهرست، ص 90) وقد كان هشام مشغوفًا بالسير والأخبار فنقل له جبلة بعض كتب سير الفرس من الفارسية إلى العربية[3] وأمر هشام النقلة فنقلوا له كتاب تاريخ ملوك الفرس وقوانين دولتهم وتراجم رجالهم وكان هذا الكتاب مصوّرًا ثم نقله سنة 113. رآه المسعودي سنة 303 في مدينة اصطخر كما ذكر في التنبيه (صفحة 106).

---

[1] الفهرست، ص 91

[2] راجع كشف الظنون وتذكرة الحفاظ

[3] كتاب الفهرست، ص 244

أما علوم الفلسفة ومنها الطب والكيمياء فكان لهم في نقلهما إلى العربية آثار صالحة فنقل ابن أثال لمعاوية كتب الطب من اليونانية وهذا أوّل نقل في الإسلام وكان في البصرة في أيام مروان بن الحكم طبيب ماهر يهودي النحلة عارف بالعربية اسمه ماسرجويه فنقل ماسرجويه هذا كناش القسّ أهرون ابن أعين في السريانية إلى العربية فلما تولّى عمر بن عبد العزيز وجد هذا الكتاب في خزائن الكتب في الشام فأخرجه إلى الناس وبثّه في أيديهم[1] وخالد بن يزيد بن معاوية حكيم آل أمية أوّل من طلب علوم الفلسفة في الإسلام وخبرُه أنه كان يطمع في الخلافة فلما وثب مروان عليها رغب خالد عنها إلى طلب العلم فاستقدم جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ومنهم مريانوس الرومي الذي أخذ عنه صنعة الكيميا والطب وأمرهم بنقل الكتب من اليونانية والقبطية إلى العربية فنقلوها له ولخالد كلام في الكيميا والطب وكان بصيرًا بهذين العلمين متقنًا لهما وله رسائل دالّة على معرفته وبراعته كما أخبر به ابن خلكان وقد ذكر له ترجمة صالحة ابن النديم في فهرسته ونقل سالم كاتب هشام وهو أبو جبلة المارّ ذكره رسائل أرسطاطاليس إلى الإسكندر فبناءً على ما قدّمنا من القول بنو أمية هم أوّل من استقدم الفلاسفة واستدناهم في الإسلام هم أوّل من أمر بنقل العلوم إلى العربية في الإسلام هم أوّل من أنشأ خزائن للكتب في الإسلام وقد أضربنا صفحًا عما كان لآل أمية بالأندلس في السياسة والعلم من المآثر الحسنة والأعمال الجليلة والسير العادلة فهل لك أيها الفاضل المؤلف إلى الإذعان للحق من سبيل وإلى الرجوع من ضلال الرأي من طريق.

صنيع المؤلف بالعباسية: عهدنا الوحوش الضارية مع جفاء طبعها وقسوة قلبها وكونها مطبوعة على الافتراس والفتك والتروي بالدم وإذا دخلت غابتها وأحاطت بها عائلتها تبدّل القسوة بالرحمة والغلظة باللطف والغضب بالحنان فبينما أحدها عبوس كاشر عن الأنياب كالح الوجه مستشبع المنظر كريه الهيئة إذ هو هشّ بشّ حنون عطوف يذوب لطفًا ورقة وكذلك شأن قوّاد الجند وأبطال الحرب فإنك ترى أحدهم إذا قاتل الأكفاء

[1] أخبار الحكماء وعيون الأنباء

وناطح الأقران فهو شهاب ينقض ونار تلتهب وسعير تفور وإذا عاشر الأصحاب فهو ألينهم جانبًا وأحلاهم خلقًا وأوسعهم حلمًا وأرقّهم طبعًا وقد جرّبنا المؤلف وعجمنا عوده في معاملته مع أعدائه (بني أمية) فننظر كيف حاله في معاشرته مع أصدقائه (العباسية).

قال المؤلف:

"فحبّب بعضهم إلى المنصور أنْ يستبدل الكعبة بما يقوم مقامهما في العراق وتكون حجًا للناس فبنى بناءً سمّاه القبة الخضراء تصغيرًا للكعبة وقطع الميرة في البحر عن المدينة" (الجزء الثاني، ص 30)

وقال:

"وأراد المعتصم أن يستغني عن بلاد العرب وقد بنى سامرا بقرب بغداد وأقام فيها جنده فأنشأ فيها كعبة وجعل حولها طوافًا واتخذ منى وعرفات" (الجزء الثاني، ص 32)

وقال:

"فلما أفضت الخلافة إلى المأمون فأخذ أشياعه وصرح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفًا من غضب الفقهاء وفي جملتها القول بخلق القرآن أي أنه غير منزّل" (الجزء الثالث، ص 141)

غيرُ خافٍ على أحد أن العباسية إن افتخروا وتطاولوا على منازعيهم في الرياسة فمعظم فخرهم وأبين حججهم أنهم بنو عمّ النبي وسدنة البيت وخدمة الحرم ودعاة الإسلام ونقباء القرآن وصاحبنا يقول إن المنصور وهو مؤسس دولتهم وفاتحة خلفاءهم بنى القبة الخضراء إرغامًا للكعبة وقطع الميرة عن المدينة تضييقًا على أهلها وأن المأمون وهو أفضل خلفاءهم دينًا وورعًا كان ينكر نزول القرآن وأن المعتصم وهو فحلهم وهو واسطة عقدهم بنى كعبة في سامرا وجعل لها طوافًا" ولعلك تقول إن الحاكم بالعدل والقائم بالقسط ليس له حميم ولا عدوّ فهو يتحرّى الصدق ويدور مع الحق كيفما دار فالمؤلف إذا أتته

سيئة من بني العباس قضى عليهم من غير محاباة بهم ولا ميل إليهم وكذلك إذا عرضت له حسنة من بني أمية فهو يوفّي حقهم من الاستحسان وحسن القول وتنويه الذكر، هيهات هذا كان رجاؤنا فخاب الظن وكذب الأمل وذهبت الثقة فإن المؤلف لما ذكر بني أمية عقد لمثالبهم أبوابًا منها استخفافهم بالدين وذكر فيه قتال عبد الملك مع ابن الزبير فقلّب الرواية كما أسبقنا ذكره فلو كان مغزى المؤلف الصدق وبيان الحقيقة لكان يعقد بابًا للعباسية أيضًا يذكر فيه استخفافهم بالكعبة وإنكارهم لنزول القرآن وههنا موضع نظر إلى دقة مكيدة المؤلف وحسن احتياله فإنه يريد من طرفٍ الغضّ من الكعبة والحطّ من القرآن ومن طرفٍ الانتصار للعباسية والذبّ عنهم لأجل أنهم كسروا شوكة العرب واتخذوا العجم بطانتهم وعمود دولتهم فذكر استخفافهم بالكعبة ولكن مغموسًا مبدّدًا تحت عنوان ثروة الدولة الإسلامية ليأخذ بطرفي المطلوب ويفوز ببغيتيه معًا.

أما كشف الجلية عن أصل الحال فالأمر أن من يدعي الخلافة (وهي منصب ديني) ويرشح لها نفسه لا يجد إلى ذلك سبيلًا إلا بالتظاهر بالدين والتضبّع به ونصب نفسه لإعلاء كلمته ورفع مناره وحمل الناس على تعظيم شعائره والتدلّي إلى خاصة القائم به ليجلب عطف القلوب وجذب الأميال ورضاء العامة والتحبّب إلى الناس ولذلك كان الخلفاء (بنو أمية والعباسية كلاهما) يصلّون بالناس ويؤمونهم ويحضرون الموسم ويحجّون بهم أو يرسلون من خاصتهم من ينوب منابهم ويخطبون على المنابر ولذلك لما أراد أهل الشام المكيدة بعلي رضي الله عنه ورفعوا المصاحف كفّ أصحاب عليّ عن القتال ولما قال عليّ هذه خديعة منهم قالوا إذا لم تذعن هذا خلعناك فلم يقدر على خلافهم ورضي بما لم يكن وفق رضاه ولما فعل يزيد ما فعل ضجّ الناس وكادوا يسطون عليه لولا أنه مات عاجلًا ولما أراد الحجاج قتال ابن الزبير أغراهم بأنّ ابن الزبير ألحد في الدين وزاد على الكعبة ولذلك نصب المناجيق تلقاء الزيادة التي كان زادها ابن الزبير ولما جاهر الوليد ابن يزيد بالفسق قاموا عليه وقتلوه ولما قال أبو نواس يمدح الأمين وصدّر القصيدة بهذا البيت:

ألا فاسـقني خمـرًا وقـل لي هي الخمـر ولا تسـقني سـرًا فقـد أمكـن الجهـر

اتخذ المأمون هذا وسيلة لإغراء الناس على مخالفة الأمين فهل تصدق بعد ذلك بأن المنصور أو المعتصم كان يقدر أو يسوغ له أن يصغّر شأن الكعبة ويمسّ من شرفها وهل كان يقدر المأمون أن يحمل الناس على إنكار القرآن والعياذ بالله فأما استشهاد المؤلف في هذه الواقعة بابن الأثير وغيره فكلّه تحريف وتدليس وسوء تأوّل ولولا أني سئمت من كشف دسائسه مرة بعد أخرى لأوضحت الأمر وبيّنت حقيقة الحال.

قال المؤلف: ولما تولّى المعتصم سنة 218 واصطنع الأتراك والفراغنة ازداد العرب احتقارًا في عيون أهل الدولة وتقاصرت أيديهم عن أعمالها حتى في مصر فأصبح لفظ العربي مرادفًا لأحقر الأوصاف عندهم ومن أقوالهم العربي بمنزلة الكلب اطرح له كسرة واضرب رأسه وقولهم لا يفلح أحد من العرب إلا أن يكون معه نبيّ ينصره الله به" (الجزء الثاني، ص 31-32)

من أحسن أعمال آل عباس عند المولف أنهم صغّروا شأن العرب وساموهم الخسف وسلّطوا عليهم الأعاجم والأتراك وجعلوهم ولاة البلاد بيدهم الأمر والنهي والرفع والخفض والعقد والحلّ والنقض والإبرام ذكر ذلك في غير موضع وكلما ذكر وجد من نفسه ارتياحًا إليه وشفاءً لحزازته وهزّة لعطفه ونيلًا لإربه ومع أن الواقعة مكذوبة أو محرّقة على جري عادته فنحن لا ننازعه في ذلك ونطوي الحديث على غرته ولكن نقول إذا مدح أحدٌ مثلًا دولة أفرنسا وقال إنهم ذلّلوا الفرنساويين وأرغموا أنفسهم واستلبوهم المناصب وقلّدوا الولايات الأجانب وجعلوهم قابضي أزمة الأمور يولّون ويعزلون وينفقون ويمسكون فهل هذا يكون مدحًا ترضى به دولة فرنسا أو يكون هذا عارًا يستحي منه ومسبّة يستنكف عنها وشناعة تشمأزّ عنها القلوب وأنصف من نفسك ما كان حظّ العباسيين من تولية الأعاجم أما آل برمك فلا ننكر فضلهم ومحاسن آثارهم ولكنهم مع كل ذلك استأثروا بالأموال وانفردوا بالأعمال حتى لم يكن حظّ الخلفاء من الخلافة إلا الاسم فقد فاضطرّ الرشيد إلى المنكبة بهم وإزالة دولتهم وأما الأتراك فصاروا يلعبون بالخلافة كلّ ملعب فكم

قتلوا من الخلفاء وسجنوا وعذبوا بأنواع العذاب وتركوهم يموتون جوعًا يسألون الناس ولا يعطون فهل هذه سياسة تمدح ومأثرة تذكر وفضيلة يفتخر بها.

الخلفاء الراشدون: المؤلف حرفته تأليف الكتب متكسبًا به وهو يعرف حق المعرفة أنه لو انتقد على الخلفاء الراشدين ونال منهم تصريحًا كسد سوقه وخابت صفقته فدبّر لذلك حيلًا لا يكاد لا يتفطن لها اللبيب المتيقظ فضلًا عن البليد المتساهل فعمد إلى رؤس المثالب ونسبها إليهم بأنواع الاحتيال فتارة بتبديدها في ثنيّات الكلام وإبعادها عن موضع العناية وتارة بإيرادها عرضًا موهمًا عدم الاعتناء بها وتارة يذكرها محتالًا لها عذرًا وإذا كرّرت النظر في كلامه وتصفحت ما فيه وجمعت ما هو مبدّد ونظمت ما هو مفرّق تكاد تستيقن أن الخلفاء كانوا من أشدّ أعداء العلم وأنهم أبادوا الكتب والخزانات واضطهدوا أهل الذمة وجعلوها أذلّاء لا يؤذن لهم ولا يؤبه بهم.

أما كونهم أعداء العلم فبيّن المؤلف ذلك إجمالًا وتفصيلًا فقال:

"كان الإسلام في أول أمره نهضة عربية والمسلمون هم العرب وكان اللفظان مترادفين فإذا قالوا العرب أرادوا المسلمين وبالعكس ولأجل هذه الغاية أمر عمر بن الخطاب بإخراج غير المسلمين من جزيرة العرب وتمكّن هذا الاعتقاد في الصحابة لما فازوا في فتوحهم وتغلبوا على دولتي الروم والفرس فنشأ في اعتقادهم أنه لا ينبغي أن يسود غير العرب ولا يتلى غير القرآن.

أما في الصدر الأوّل فقد كان الاعتقاد العام أن الإسلام يهدم ما كان قبله فرسخ في الأذهان أنه لا ينبغي أن ينظر في كتاب غير القرآن.

فتوطدت العزائم على الاكتفاء به عن كل كتاب سواه ومحو ما كان قبله من كتب العلم في دولتي الروم والفرس كما حاولوا بعدئذ بهدم إيوان كسرى وأهرام مصر وغيرها من آثار الدول السابقة" (الجزء الثالث، ص 39)

"وبناءً على ذلك هان عليهم إحراق ما عثروا عليه من كتب اليونان والفرس في الإسكندرية وفارس" (الجزء الثالث، ص 135)

حريق خزانة الإسكندرية: لم يقتنع المؤلف بذلك فعقد بابًا لإثبات أن حريق خزانة الإسكندرية كان بأمر عمر بن الخطاب وأطال وأطنب في ذلك واستدلّ عليه بستة دلائل[1] نحن نذكرها مع الردّ عليها إجمالًا.

قال أولًا:

"قد رأيت فيما تقدّم رغبة العرب في صدر الإسلام في محو كل كتاب غير القرآن بالإسناد إلى الأحاديث النبوية وتصريح مقدمي الصحابة".

الذي ذكر قبل ذلك (انظر ص 39) وحوّل عليه ههنا أقوال منها "أن الإسلام يهدم ما كان قبل ذلك" وكلنا يعرف أن المراد به إبطال عوائد الجاهلية ومزعوماتها وليس المراد محو الكتب أو إحراق الخزائن ولكن لما كان المؤلف دخيلًا فينا غريب الذوق والمعرفة حمل الكلام على غير محله أو لعله عارف يتجاهل وبصير يتعامى.

ومنها قول النبي عليه السلام "لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا آمنّا بالذي أنزل علينا وأنزل عليكم وإلهنا وإلهكم واحد" وأيّ متعلق في هذا بل هو يخالف لما يريده المؤلف فإن الحديث يأمر بالإيمان بما أنزل إلى أهل الكتاب إما لإغفال عن تصديق أهل الكتاب وتكذيبهم فلأجل كون أهل الكتاب غير موثوق بهم في الرواية ومنها أن النبي صلّى الله عليه وسلّم "رأى في يد عمر ورقة من التوراة فغضب حتى تبيّن الغضب في وجهه ثم قال أ لم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي" وهذا لا مستند فيه للمؤلف فإن النبي صلّى الله عليه وسلّم خاف على عمر عنايته بالتوراة والتصديق بكل ما فيها مع كونها مغيّرة لعبت بها أيدي النقلة ولذلك قال "أ لم آتكم بيضاء نقية" وهذا لا يستلزم بل ليس فيه أدنى إشارة إلى محوها وإلحاق الضرر بها

[1] الجزء الثالث من تمدن الإسلام

ونزيدك إيضاحًا للكلام بما فيه ثلج الصدر وفصل الخطاب فاعلم أن عمود الإسلام وقطب رحاه هو القرآن وعليه المعوّل وهو المستمسك في كل باب وكان هو العروة الوثقى في ذلك العصر للصحابة وأهل القرن الأوّل والقرآن له عناية كبرى بالتوراة والإنجيل وهو الذي نوّه بذكرهما وعظّم شأنهما فقال:

"فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون" والمراد بالذكر التوراة.

"إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى".

"ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم"

"مصدّقًا لما بين يديّ من التوراة"

"مصدّقًا لما بين يديه من التوراة"

"ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه" (التوراة والإنجيل)

ولأجل ذلك كان عدة من أجلة الصحابة منقطعين إلى قراءة التوراة والإنجيل والاعتناء بحفظهما ودرسهما ولم يكتفوا بها بل أخذوا يروون ويتفاوضون كل ما وجدوا من أقاصيص أهل الكتاب ومروياتهم وقد اعترف بذلك المؤلف نفسه فقال:

"وقد رأيت أن العمدة في التفسير على النقل بالتواتر والإسناد من النبي فالصحابة والتابعين، والعرب يومئذ أمّيون لا كتابة عندهم فكانوا إذا تشوّقوا إلى معرفة شيئ مما تتوق إليه نفوسهم البشرية من أسباب الوجود وبدء الخلقة وأسرارها سألوا عنه أهل الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى فكانوا إذا سئلوا عن شيء أجابوا بما عندهم من أقاصيص التلمود والتوراة بغير تحقيق فامتلأت كتب التفسير من هذه المنقولات" (الجزء الثالث، ص 64)

وذكر المؤلف عقيب ذلك وهب بن منبه وأنه قرء من كتب الله 72 كتابًا ثم قال:

"فكان للعرب ثقة كبرى فيه" وقال بعد ذلك فكانت كتب التفسير في القرون الأولى محشوة بالأخبار وفيها الغثّ والسمين مما نقل إليها من الأديان الأخرى".

فانظر كيف يناقض المؤلف نفسه فقال:

"فنشأ في اعتقادهم أنه لا ينبغي أن يسود غير العرب ولا يتلى غير القرآن"

"فرسخ في الأذهان أنه لا ينبغي أن ينظر في كتاب غير القرآن"

"فتوطدت العزائم على الاكتفاء به (أي القرآن) عن كل كتاب سواه ومحو ما كان قبله من كتب العلم"

ويقول الآن إن كتب التفسير في القرون الأولى محشوة بالأخبار --- مما نقل إليها من الأديان الأخرى وإنه كان للعرب ثقة كبرى في وهب بن منبه وإن كتب التفسير امتلأت من منقولات أهل الكتاب" فلو كان أهل القرن الأوّل يبغضون ما سوى القرآن ويمحون ما كان قبله من العلم كما يدّعيه المؤلف فمن روى الإسرائيليات وأقاصيص التلمود والتوراة وحشاها في التفسير ولما كانت المسئلة موضع زيادة تفصيل نزيدك توضيحًا وتفصيلًا.

كانت لعدة من الصحابة وكبراء التابعين عناية كبرى بالتوراة وغيرها من الكتب السماوية فمنهم أبو هريرة الذي كان ملازمًا للنبي عليه السلام منقطعًا إلى الرواية لم يدانه أحدٌ في كثرة الرواية كان مشغوفًا بقراءة التوراة ودرسها. قال العلامة الذهبي في طبقات الحفاظ في ترجمته "عن أبي رافع عن أبي هريرة أنه لقي كعبًا (وهو حبر اليهود) فجعل يحدّثه ويسأله فقال كعب ما رأيت أحدًا لم يقرء التوراة أعلم بما فيها من أبي هريرة".

ومنهم عبد الله بن عمرو بن العاص أحدُ من هاجر قبل الفتح، قال الذهبي في طبقات الحفّاظ "كان من أيام النبي صوّامًا قوّامًا تاليًا لكتاب الله طلابة للعلم كتب عن النبي صلّى الله عليه وسلّم علمًا كثيرًا --- وكان أصاب جملة من كتب أهل الكتاب وأدمن النظر فيها ورأى فيها عجائب.

ومنهم عبد الله بن سلّام حليف الأنصار أسلم وقت مقدم النبي وفيه ورد قوله تعالى "ومن عنده علم الكتاب" نقل الذهبي بعد ذكر فضائله وكونه عالم أهل الكتاب رواية بالأسناد يرفعه إلى عبد الله بن سلّام أنه جاء إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال إني قرأت القرآن والتوراة فقال أقرء هذا ليلة وهذا ليلة" فهذا إن صحّ ففي الرخصة في تكرير التوراة وتدبّرها".

ومنهم كعب الأحبار كان من كبار أهل الكتاب أسلم في زمن أبي بكر. قال الذهبي قدم من اليمن في دولة أمير المؤمنين عمر فأخذ عنه الصحابة وغيرهم وأخذ هو من الكتاب والسنة عن أصحابه فهذا كانه تصريح في أن الصحابة أخذوا عنه علم أهل الكتاب.

ومنهم وهب بن منبه قال الذهبي في ترجمته "وعنده من أهل الكتاب شيء كثير فإنه صرف عنايته إلى ذلك وكان ثقة واسع العلم ينظر بكعب الأحبار في زمانه وعن وهب قال يقولون عبد الله بن سلّام أعلم أهل زمانه وكعب أعلم أهل زمانه.

فهل بعد كل هذا يصحّ قول المؤلّف أن الصحابة ومن يليهم كانوا يقولون إنه لا ينبغي أن يقرء كتابٌ غيرُ القرآن ومحو ما كان قبلهم من العلم عياذًا بالله.

قال المؤلف:

ثانيًا جاء في تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج "ثم نقل رواية الإحراق برمتها وأطال في إثبات أنّ أبا الفرج ليس بأوّل من روى هذه الرواية بل ذكرها عبد اللطيف البغدادي عرضًا في ذكره عمود السواري وذكرها القفطي في تاريخ الحكماء".

لا ننازع المؤلف في أنّ أبا الفرج مسبوق في ذكر هذه الرواية بالقفطي والبغدادي ولكن ماذا ينفعه ذلك فإن البغدادي وهو أقدمهما من القرن السادس للهجرة وذكر الرواية من غير إسناد ومن غير إحالة على كتاب.

تعوّد المؤلف من صباه بقبول مختلقات أهل الكتاب وأوهامهم فسبّب ذلك أنه يزن التاريخ الإسلامي بميزان غير ميزاننا ولذلك يصغي إلى كل صوت ويستمع لكل قائل لا

يعرف أن هذا الفن له أصول ومبادٍ وقواعد وما لم تكن الرواية مطابقة لهذه الأصول اليقينية لا يلتفت إليها أصلًا منها أن الناقل للرواية لا بدّ أن يكون شهد الواقعة فإن لم يشهد فليبيّن سند الرواية ومصدرها حتى تتصل الرواية إلى من شهدها بنفسه.

ومنها أن يكون رجال السند معروفين بصدقهم وديانتهم.

ومنها أن لا تكون الرواية تخالف الدراية ومجاري الأحوال.

ولذلك اهتمّ مؤرخو الإسلام قبل كل شيء بضبط أسماء الرجال والبحث عن سيرهم وأحوالهم وديانتهم ومحلهم من الصدق فدوّنوا كتب أسماء الرجال وكابدوا في ذلك محنة يضيق عنها النطاق البشري فعملوا كتبًا غير محصورة منها الكامل لابن عدي والثقات لابن حبّان وتهذيب الكمال للمزي وتهذيب التهذيب لابن حجر وطبقات الصحابة لابن سعد ولابن ماكولا وابن عبد البرّ ولابن الأثير ولابن حجر وتهذيب الأسماء للنووي وميزان الاعتدال للذهبي ولسان الميزان لابن حجر.

وتجد كتب القدماء من مؤرخي الإسلام كلها أو أكثرها كتاريخ البخاري وسيرة بن إسحاق وتاريخ الطبري وابن قتيبة وغيره مسلسل الأسناد مبنية الأسماء ليمكن نقد الرواية ومعرفة جيّدها من زيّفها.

فأوّل شيء يهمّنا في هذا البحث أن نرى هل ذكر القفطي والبغدادي هذه الرواية مسندة وذكرا مصدر الرواية وأسماء رواتها أم لا؟

وأنت تعلم أن البغداي والقفطي من رجال القرن السادس والسابع فأيّ عبرة برواية تتعلق بالقرن الأوّل يذكرانها من غير سندٍ ولا رواية ولا إحالة على كتاب.

أما كتب القدماء الموثوق بها فليس لهذه الرواية فيها أثر ولا عين. هذا تاريخ الطبري واليعقوبي والمعارف لابن قتيبة والأخبار الطوال للدينوري وفتوح البلدان للبلاذري والتاريخ

الصغير للبخاري وثقات ابن حبّان والطبقات لابن سعد قد تصفحّناها وكرّرنا النظر فيها ومع أن فتح الإسكندرية مذكور فيها بقضّها وقضيضها ليس لحريق الخزانة فيها ذكر.

وعلاوة على ذلك فإن في فتح مصر كتبًا مختصة بذلك مثل خطط مصر للكندي وكشف الممالك لابن شاهين وتاريخ مصر لعبد الرحمن الصوفي وتاريخ مصر لابن بركات النحوي وتاريخ مصر لمحمد بن عبد الله وغيرها مما ذكرناها صاحب كشف الظنون، والمقريزي جمع وأوعى كل ذلك ولم يترك رواية ولا خبرًا يتعلق بمصر إلا وذكره عند تفصيل الفتح ولم يذكر هذه الواقعة عند ذكر فتح الإسكندرية.

قال المؤلف:

"وأما خلوّ كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بدّ له من سبب والغالب أنهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامي واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب فاستبعدوا حدوث ذلك في عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه ولعل لذلك سببًا آخر" (الجزء الثالث، ص 45)

لا يستبعد مثل هذا الكلام عن مثل المؤلف وكيف يقدر ديانة مؤرخي الإسلام وشدتهم في تحرّي الصدق ونزاهتهم عن التغيير والتحريف وبراءة ساحتهم عن الحذف والإسقاط. من صار غريزته تعمّد الكذب والتحريف والخيانة والمحو والإثبات.

قال المؤلف:

"ثالثًا ورد في أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر إحراق مكاتب فارس وغيرها على الإجمال وقد لخّصها صاحب كشف الظنون" (الجزء الثالث، ص 45)

انظر إلى هذا الكذب الفاحش والخديعة الظاهرة فإن صاحب الكشف ذكر ما ذكر من عند نفسه من غير نقل رواية ولا استناد ولا استشهاد بكتاب ولا ذكر ناقل أو مؤرخ وصاحبنا يقول إنه ورد في أماكن كثيرة من تواريخ المسلمين خبر إحراق المكاتب وقد لخّصها صاحب كشف الظنون فأين الأماكن الكثيرة وأين التلخيص؟

أما قول صاحب كشف الظنون فقد ورد عرضًا وتطفلًا وكذلك قول ابن خلدون وأمثال هذه المواقع لا تحتاج إلى كبير اعتناء وزيادة احتياط ولذلك لما ذكر ابن خلدون فتح مصر وإسكندرية وهو المظنة لذكر هذه الواقعة لم يتفوّه بهذه الرواية أصلًا ثم إن ابن خلدون وصاحب كشف الظنون من رجال القرن الثامن وبعده فما لم يذكرا أنهم من أين أخذا هذه الرواية لا يعبأ بها ولا يلتفت إليها.

قال المؤلف:

رابعًا أن إحراق الكتب كان شائعًا في تلك العصور كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية" (الجزء الثالث، ص 45)

يا للعجب، عبد الله بن طاهر من قوّاد المأمون ومن رجال الأدب وهذا العصر يمتاز بكونه عصر العلم والمعارف وقد كانت للدولة ورجال حاشيتها وغيرهم عناية كبرى بكتب الأوائل وكانوا يستجلبون الكتب من فارس وبلاد الروم وغيرها تجد تفاصيل ذلك في فهرست بن النديم وطبقات الأطباء وأخبار الحكماء وغيرها فكيف يعوّل على هذه الرواية التي ما ذكرها أحدٌ من ثقات المؤرخين وإنما استند المؤلف ببراون المعلّم الإنكليزي وهو نقلها من تذكرة دولت شاه وهو كتاب جامع لكل غثّ وسمين، ولو صحّ نقلها لكانت على سبيل الندرة والشذوذ فهل يصحّ قول المؤلف إن إحراق الكتب كان شائعًا في تلك العصور.

قال المؤلف،

خامسًا:

"إن أصحاب الأديان في تلك العصور كانوا يعدّون هدم المعابد القديمة وإحراق كتب أصحابها من قبيل السعي في تاييد الأديان الجديدة (ثم ذكر في تاييد ذلك عمل إمبراطرة الروم وإحراق كتب المعتزلة).

نعم ولكن الراشدين لا يقاسون بغيرهم ثم إن المسئلة ليست قياسية فما لم تثبت بالرواية لا ينفع مجرد القياس.

قال المؤلف،

سادسًا:

"في تاريخ الإسلام جماعة من أئمة المسلمين أحرقوا كتبهم من تلقاء أنفسهم (ثم ذكر بعض الحوادث في تاييد ذلك).

عجبًا لمثل هذا الاستدلال فإن المرء يجوز له أن يفعل بملكه ما يشاء وأيّ حجة في ذلك لإحراق كتب أقوام أخر.

إن هذه القياسات الواهية لا تغني شيئًا ولكن لو أردنا أن نستشفي في ذلك البحث بالقياس والأمارات فعلينا أن ننظر ما كان صنيع الخلفاء الراشدين بآثار أهل الذمة ومعابدهم وكنائسهم وأمتعتهم وخزائنهم. إن الأصل في ذلك عهد النبي صلّى الله عليه وسلّم الذي كتبه لأهل نجران وقد ذكره القاضي أبو يوسف في كتاب الخراج بحروفه:

"ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم وغائبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير" (كتاب الخراج، طبع مصر، ص 41)

فكان هذا العهد هو العمدة للصحابة عضّوا عليه بالنواجذ وتجد في كل عهود الخلفاء الراشدين كعهد نجران ومصر والشام والجزيرة أن هذا الأصل أي ذمة الله ورسوله على أرضهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير محفوظ باقٍ على حالتها الأصلية، وعهد مصر هو هذا:

"هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ودمهم وأموالهم وصاعهم ومدّهم وعددهم".

وذكر في معجم البلدان رواية بزيادة "إن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرضون في شيئ منها" وأنت تعلم ما لعمر الفاروق من العناية والشدة في وفاء العهد بأهل الذمة وغيرهم ومع عهده بأنهم لا يتعرضون في شيئ من أموالهم وكل ما تحت أيديهم كيف كان يتعرض لخزانة كتبهم التي هي من أنفس ذخائرهم وأغلاها.

اعلم أن مسئلة إحراق خزانة الإسكندرية موضوع مهمّ عند أهل أوربا وقد طال البحث فيه إثباتًا ونفيًا وممن ألمّ بهذا البحث إجمالًا وتفصيلًا المعلّم وايت المعلم دساسي الفرنساوي في ترجمة كتاب الإفادة والاعتبار وواشنگتن إرونگ ودريپر الأميركاني صاحب كتاب الجدال بين العلم والدين وكرچڤن وسيديو الفاضل الشهير الفرنساوي في تاريخ الإسلام والمعلم رينان الفيلسوف الفرنساوي في خطبته "الإسلام والعلم" وآرتهر گلبين وللمعلم كريل الألماني رسالة مستقلة في هذا البحث قدّمها في المؤتمر الشرقي الذي انعقد سنة 1878م، أورد فيها كل ما كتب الباحثون في هذا البحث نفيًا أو إثباتًا وقد طالعت كل هذه المباحثات والمقالات وعملت رسالة في اللسان الأردوي ترجمت إلى الإنكليزية ثم إلى العربية يترجمها أحد أهل الشام وطبع شطرٌ منها في جريدة ثمرات الفنون، ومجلة المقتبس.

والحاصل أن محقّقي أهل أوربا قضوا بأن الواقعة غير ثابتة أصلًا منهم جيبن المؤرخ الشهير الإنكليزي ودربر الأميركاني وسيديو الفرنساوي وكريل الألماني والمعلم رينان الفرنساوي عمدتهم في إنكار ذلك أمران؛ الأوّل أن الواقعة ليس لها عين ولا أثر في كتب التاريخ الموثوق بها كالطبري وابن الأثير والبلاذري وغيرها مما مرّ ذكرها وأوّل من ذكرها عبد اللطيف والقفطي وهما من رجال القرن السادس والسابع ولم يذكرا مصدرًا للرواية ولا سندًا، والثاني أن الخزانة ضاعت قبل الإسلام أثبتوا ذلك بدلائل لا يمكن إنكارها.

قال المؤلف:

"قلنا فيما تقدّم أن الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة على العرب --- ولذلك منعوهم من تدوين الكتب --- وكان هذا الاعتقاد ناشئًا في الصحابة والتابعين وتمسّك به جماعة من كبارهم وكانوا إذا سئلوا تدوين علمهم أبوا واستنكفوا" (الجزء الرابع، ص 50)

أطال المؤلف ونقل أقوالًا عديدة في إثبات أن الخلفاء الراشدين والصحابة كانوا يمنعون الناس عن الكتابة والتأليف ونحن لا ننكر أن هذا كان مذهبًا لبعض الصحابة والتابعين ولكنّ الذين رخّصوا في ذلك وأمروا بالكتابة والتدوين أكثرهم عددًا وأرجحهم ميزانًا وأوسعهم نفوذًا وقد عقد المحدّث المشهور القاضي ابن عبد البر في كتابه "جامع بيان العلم (انظر صفحة 36 طبع مصر) بابًا في إثبات ذلك ونحن ننقل شطرًا منها، قال "وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قيّدوا العلم بالكتاب وعن عبد الملك بن سفيان عن عمّه أنه سمع عمر بن الخطاب يقول قيّدوا العلم بالكتاب وعن معن قال أخرج إلى عبد الرحمن ابن عبد الله بن مسعود كتابًا وحلف لي أنه خط أبيه بيده وعن أبي بكر قال سمعت الضحاك يقول إذا سمعت شيئًا فاكتبه ولو في حائط وعن سعيد بن جبير أنه كان يكون مع ابن عباس فيسمع منه الحديث فيكتبه في واسطة الرحل فإذا نزل نسخه وعن أبي قلابة قال الكتاب أحبّ إلينا من النسيان وعن أبي مليح قال يعيبون علينا الكتاب وقد قال الله "علمها عند ربّي في كتاب" وعن عطاء عن عبد الله بن عمرو قلت يا رسول الله أقيّد العلم قال قيد العلم قال عطاء قلت وما تقييد العلم قال الكتاب وعن عبد العزيز بن محمد الداروردي قال أوّل من دوّن العلم وكتبه ابن شهاب وعن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال كنّا نكتب الحلال والحرام وكان ابن شهاب يكتب كلما سمع فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس وعن سوادة بن حيان قال سمعت معاوية بن قرة يقول من لم يكتب العلم فلا تعدوه عالمًا وعن محمد بن علي قال سمعت خالد بن خداش البغدادي قال ودّعت مالك بن أنس فقلت يا أبا عبد الله أوصني قال عليك بتقوى الله في السرّ والعلانية والنصح لكل مسلم وكتابة العلم من عند أهله وعن الحسن أنه كان لا يرى بكتاب العلم بأسًا وقد كان أملى التفسير فكتب وعن الأعمش قال قال الحسن أن لنا كتبًا نتعاهدها وقال الخليل بن أحمد

اجعل ما تكتب بيت مال وما في صدرك للنفقة وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه احترقت كتبه يوم الحرة وكان يقول وددت لو أن عندي كتبي بأهلي ومالي وعن سليمان بن موسى قال يجلس إلى العالم ثلاثة: رجلٌ يأخذ كل ما سمع فذلك حاطب ليل ورجلٌ لا يكتب ويستمع فذلك يقال له جليس العالم ورجلٌ ينتهي وهو خيرهم وهذا هو العالم وعن إسحاق بن منصور قال قلت لأحمد بن حنبل من كره كتابة العلم قال كرهه قوم ورخّص فيه آخرون قلت له لو لم يكتب العلم لذهب قال نعم لولا كتابة العلم أيّ شيء كنّا نحن قال إسحاق وسألت إسحاق بن راهويه فقال كما قال أحمد سواء وعن حاتم الفاخر وكان ثقة قال سمعت سفيان الثوري يقول إني أحبّ أن أكتب الحديث على ثلاثة أوجه حديث أكتبه أريد أن اتخذ دينًا وحديث رجل أكتبه فأوقفه لا أطرحه ولا أدين به وحديث رجل ضعيف أحبّ أن أعرفه ولا أعبأ به وقال الأوزاعي تعلّم ما لا يوخذ به كما تتعلّم ما يؤخذ به وعن سعد بن إبراهيم قال أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترًا دفترًا فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا وعن أبي زرعة قال سمعت أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يقولان كل من لا يكتب العلم لا يؤمن عليه الغلط وعن الزهري قال كنّا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء فرأينا أن لا نمنعه أحدًا من المسلمين وذكر المبرد قال قال الخليل بن أحمد ما سمعت شيئًا إلا كتبته ولا كتبته إلا حفظته ولا حفظته إلا نفعني".

الضغط على أهل الذمة: ادّعى المؤلف أن عمر بن الخطاب كتب عهدًا لنصارى أهل الشام وذكر نصّه منقولًا عن سراج الملوك للطرطوشي واعترف بأن فيه ضغطًا على النصارى ثم اعتذر لعمر بأنّ نصارى الشام كانوا يميلون إلى قيصر الروم وكانوا من بطانته يتجسّسون له فلذلك احتيج إلى الشدة بهم والتضييق عليهم.

كلّ من له أدنى مسكة في التاريخ يعرف أن الطرطوشي ليس من رجال التاريخ وكتابه كتابُ أدب وسياسة لا كتاب تاريخ وهو من رجال القرن السادس وإنما المعوّل في هذا البحث المصادر القديمة الموثوق بها كتاريخ الطبري والبلاذري واليعقوبي وابن الأثير

وغيرها وهذا ما كان يخفى على المؤلف ولكن لأجل هوى نفسه أعرض عن كل هذه وتشبث برواية واهية تخالف الروايات الصحيحة المذكورة بإسنادها ورجالها، قال القاضي أبو يوسف وهو مع كونه من رجال الفقه عارف بالمغازي والسير بعدما نقل عهد نصارى الشام وليس فيه أدنى ضغط عليهم ولا شدة بهم.

"فلما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشدّاء على عدوّ المسلمين وعونًا للمسلمين على أعدائهم فبعث أهل كل مدينة رسلهم ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالًا من قبلهم يتجسّسون الأخبار عن الروم وعن ملكهم وما يريدون أن يصنعوا فأتى أهل كل مدينة رسلهم يخبرونهم بأن الروم قد جمعوا جمعًا، فكتب أبو عبيدة إلى كل والٍ ممن خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردّوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج وكتب إليهم أن يقولوا إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا أنه جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك وقد رددنا عليكم ما أخذنا عنكم. فلما قالوا ذلك لهم وردّوا عليهم الأموال التي جبوها منهم قالوا ردّكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا وأخذوا كل شيئ بقي لنا حتى لا يدعوا شيئًا (كتاب الخراج،طبع مصر، ص 80-81).

فانظر إلى هذا العدل الذي عجز البشر عن إتيان مثله واعترف أهل الذمة بذلك وإلى قول المؤلف أن عمر ضغط عليهم وإنما ضغط لأنهم كانوا من جواسيس الروم.

تاريخ العلوم الإسلامية: أما تاريخ العلوم الإسلامية والتقريظ عليها فقد فقدنا اليوم في ملتنا من يقوم بهذا العبء فكيف برجل دخيل فينا مزجاة البضاعة قليل المعرفة لا يعرف من علومنا إلا أسماءً تلقّاها من ظواهر الكتب وأفواه العامة فإذا تكلم عن شيء منها خبط وخلط وهاك أمثلة من ذلك قال "وكان المسلمون غير العرب هناك أكثرهم الفرس وهم أهل تمدن وعلم فعمدوا إلى استخدام القياس العقلي في استخراج أحكام الفقه من القرآن والحديث فخالفوا بذلك أهل المدينة لأنهم كانوا شديدي التمسك باالتقليد" (الجزء الثالث، ص 71) ظنّ الرجل أنّ استخدام القياس والرأي من مبتدعات

الفرس مع أنّ أوّل من سُمِّي بهذا الاسم هو ربيعة الرأي صرح بذلك السمعاني في الأنساب وهو من أهل المدينة وممن أخذ عنه الإمام مالك، وأنّ مالكًا والشافعي وأبا يوسف والإمام محمد كلهم يستعملون القياس مع كونهم من العرب أرومة وموطنًا وأداة وأن الفارق بين أصحاب الرأي والحديث ليس استعمال القياس وفصل القضية في ذلك تجده في كتاب "حجة الله البالغة" لشاه ولي الله الدهلوي من متأخري حكماء الإسلام، ثم قال المؤلف "فكان من جملة مساعي المنصور في تصغير أمر المدينة وفقهائها وخصوصًا مالك بعد أن أفتى بخلع بيعته أنه نصر فقهاء العراق القائلين بالقياس وكان كبيرهم يومئذ أبا حنيفة النعمان في الكوفة فاستقدمه المنصور إلى بغداد وأكرمه وعزّر مذهبه".

"ظلمات بعضها فوق بعض" ماكان أبو حنيفة أرفع مكانة عند المنصور من مالك فإن أبا حنيفة كان هواه مع إبراهيم الخارج على المنصور وكان أفتى بنصرة إبراهيم ولذلك أراد المنصور المكيدة به فاستدعاه عرض عليه القضاء ولما لم يرض به سجنه وأمر بضربه حتى مات في السجن، أما ما قال عن تصغير أمر الإمام مالك فيخالف الروايات الصحيحة الثابتة قال القاضي بن عبد البرّ في كتاب جامع العلم (ص 67) عن محمد بن عمر قال سمعت مالك بن أنس يقول لما حجّ أبو جعفر المنصور دعاني فدخلت عليه فحدّثته وسألني فأجبته فقال إني عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها يعني الموطأ فينسخ نسخًا ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها لا يتعدوها إلى غيرها ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث فإني رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم إلخ.

قال "وكان أبو حنيفة لا يحبّ العرب ولا العربية حتى أنه لم يكن يحسن الإعراب ولا يبالي به (الجزء الثالث، ص 71 مستندًا بابن خلكان) نعوذ بالله من هذا الكذب الظاهر والمين الفاحش استشهد المؤلف في هذه الواقعة بابن خلكان والحال أن ابن خلكان ذكر في تاريخه في ترجمة أبي حنيفة بعد ذكر محاسنه أن الخطيب البغدادي أطال في مثالب أبي حنيفة ثم أنكر عليه ذلك وقال ما كان يعاب أبو حنيفة إلا بقلة العربية فإنه قال ولو

رماه بأباقيس ثم اعتذر له بنوع من العذر وليس فيه أقل شيئ يومي إلى أنّ أبا حنيفة كان لا يحبّ العرب والعربية ثم إن أبا حنيفة كان ناقمًا على العباسية المحامين للفرس وكان من شيعة زيد الإمام بن الإمام زين العابدين وكان تلميذًا لحمّاد وهو تلميذًا لإبراهيم النخعي وكلهم عرب. ثم أصحابه الملازمون له والناشرون لفقهه والقائمون بدعوته أي أبا يوسف ومحمدًا وزفر كلهم عرب، أما لحن أبي حنيفة فمعلوم أنه عجمي وكم من الأعجام الذين هم رؤس الأدب ووجوه العربية، الحماد الراوية وغيره كانوا يلحنون وكان هذا طبيعتهم وغريزتهم.

فمن كان هذا مبلغه من العلم ومحله من النظر هل يصلح لسلوك هذا الطريق الوعر والخوض في غمار هذا البحث الدقيق الذي يحتاج إلى التضلع في العلوم الإسلامية والتوسع فيها مع سعة النظر ووفرة المواد وإصابة الرأي وشدة الفحص وإفراغ الجهد وتكميل الأدوات ثم إن الرجل ههنا هو الرجل الذي عهدناه قبل ذلك في سوء طويته وكامن حقده وتحامله على العرب واعتياده بالتحريف وتمرّنه بسوء التأوّل وتلبيس الكلام وهاك أمثلة من هذه.

قال (تحت عنوان الفقه) فلما أفضى الأمر إلى بني العباس وأراد المنصور تصغير العرب وإعظام أمر الفرس لأنهم أنصارهم وأهل دولتهم كان من جملة مساعيه في ذلك تحويل أنظار المسلمين عن الحرمين فبنى بناءً سمّاه القبة الخضراء حجًّا للناس وقطع الميرة عن الحرمين وفقيه المدينة يومئذ الإمام مالك الشهير فاستفتاه أهلها في أمر المنصور فأفتى لهم بخلع بيعته (الجزء الثالث، ص 71)

وهذا كله كذب واختلاق والمنصور أبعد محلًا وأبرء ساحة من أن يبني بناءً إرغامًا للكعبة وقد سبق لنا الكلام فيه فأما قطع الميرة عن المدينة فلم يكن إلا حجرًا على محمّد وتضييقًا عليه لما قام بالخلافة وقد صرّح بذلك المقريزي (الجزء الثاني، ص 143) فقال "وذكر البلاذري أن أبا جعفر المنصور لما ورد عليه قيام محمد بن عبد الله قال تكتب الساعة إلى مصر أن تقطع الميرة عن أهل الحرمين والإمام مالك كان هواه مع محمد

يحرض الناس على موازرته وأفتى بخلع بيعة المنصور" فانظر كيف قلب المؤلف الحكاية وصرفها عن وجهها فخروج محمد وإفتاء الإمام مالك متقدمان على قطع الميرة عن المدينة وخروج محمد هو السبب في قطع الميرة والمؤلف يقول إن قطع الميرة إنما كان إرغامًا للحرمين وإن الإمام مالك أفتى لذلك بخلع بيعته.

قال المؤلف بعدما ذكر رغبة بني أمية في الشعر وتنشيطهم للناس (تحت عنوان الشعر وبنو أمية) وقد يتبادر إلى الأذهان أنهم كانوا يفعلون ذلك رغبة في الأدب وتنشيطًا لأهله لأن الشعر سجيةٌ في العرب ودولة الأمويين عربية بحتة ولكن الأغلب أنهم كانوا يفعلونه للاستعانة بألسنة الشعراء على مقاومته أهل البيت إلخ (الجزء الثالث، ص 102) فانظر إلى هذا التحامل المفرط والحيف الشديد فإنه لما لم يجد سبيلًا إلى إنكار ما لبني أمية من الأيادي في ترويج سوق الأدب ورفع منار الشعر والأخذ بناصر علماء العربية وإعطاء الصلات المتكاثرة للشعراء احتال لدفعه بإبداء احتمال أنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك سياسة.

قال وقد تقدّم في كلامنا عن الفقه أن المنصور أخذ بناصر أصحاب الرأي والقياس واستقدم أبا حنيفة إلى بغداد ونشطه لهذه الغاية وظلّ الميل إلى القياس متواصلًا في بني العباس والاعتزال أقرب المذاهب إلى أصحاب الرأي إلخ (الجزء الثالث، ص 140) انظر إلى ما بلغ به حال المؤلف في جهله بالمعارف الإسلامية حتى أنه يقرن بين الاعتزال والرأي وبعدهما من جنس واحد ولم يدر المسكين أن لا رابط بينهما فإن الاعتزال أحد المذاهب الكلامية والرأي والقياس من أحد أصول الفقه ومعظم أصحاب الرأي والقياس بل كلهم (فأخذ الشاذ النادر منهم) كأبي حنيفة ومحمد وأبي يوسف وزفر وأبي لؤلؤ والطحاوي والخصاف وأبي بكر الرازي والدبوسي وغيرهم كانوا ناقمين على الاعتزال وكانوا يعدّون المعتزلة من أهل الأهواء والضلالة.

قال "فلما أفضت الخلافة إلى المأمون أخذ بناصر أشياعه وصرّح بأقوال لم يكونوا يستطيعون التصريح بها خوفًا من غضب الفقهاء وفي جملتها القول بخلق القرآن أي أنه غير منزّل (الجزء الثالث، ص 141)

وهل يكون كذب أعظم من هذا فإن خلق القرآن أو قدمه لا مساس له بالتنزيل أو عدمه فإن الاختلاف في أنّ هل الكلام صفة حادثة تقوم بالله تعالى وهو صفة قديمة فالمعتزلة قالوا بحدوثه حذرًا من تعدّد القدماء وأهل السنة وغيرهم قالوا بقدمه لأن الحادث لا يقوم بقديم فأما أن القرآن كلام الله تعالى منزّل إلى الرسول فهذا لا يختلف فيه اثنان.

قال وأما الفلسفة بحدّ ذاتها فقد كان أصحابها متهمين بالكفر وكان الانتساب إليها مرادًا للانتساب إلى التعطيل وقد شاع ذلك في بغداد بين العامة حتى في أيام المأمون ولذلك سمّاه بعضهم أمير الكافرين (الجزء الثالث، ص 177) استشهد المؤلف في هذا القول باليعقوبي ونحن ننقل عبارته حتى تعرف مقدار خديعة المؤلف، قال اليعقوبي "وشخص هرثمة من العراق إلى مرو سنة 201 وقيل أنه انصرف بغير إذن من المأمون فلما دخل على المأمون --- قال من نقرس ولا يمكنني أمشي في محفة --- وكلّم المأمون بكلام عليه ودخل معه بحي بن عامر ابن إسماعيل الحارثي فقال السلام عليك يا أمير الكافرين فأخذته السيوف في مجلس المأمون حتى قتل فقال هرثمة قدمت هذه المجوس على أوليائك وأنصارك وأتوا محمد بن صالح بن المنصور فقالوا نحن أنصار دولتكم وقد خشينا أن تذهب هذه الدولة بما حدث فيها من تدبير المجوس" (اليعقوبي، ص 546-547) إن المأمون استوزر حسن بن سهل وكان مجوسيًا أسلم فنقم العرب على المأمون وقالوا إنك قدّمت المجوس وقال له يحيى السلام عليك يا أمير الكافرين فهذا كله من السياسة لا مساس لها بالفلسفة والاعتزال وابن هرثمة ويحيى بن عامر الحارثي من أهل الجند ما عرفا الفلسفة ولا سمعا بها.

قال المؤلف "ولكن الإسلام كان أقرب إلى إطلاق حرية الفكر والقول وخصوصًا في أوائله فلم يكن أحدهم يستنكف من إبداء ما يخطر له ولو كان مخالفًا لرأي الخليفة ولذلك

كثرت الفرق الإسلامية يومئذ وتعدّدت مذاهب أصحابها في القراءة والتفسير والفقه وفي كل شيء حتى ذهب بعضهم إلى أنّ سورة يوسف ليست من القرآن لأنها قصة من القصص والقائلون بذلك العجاردة (الجزء الثالث، ص 61) انظر إلى هذه الخديعة يمدح الإسلام بكونه أقرب إلى حرية الفكر ويدسّ فيه أن بعض الطوائف الإسلامية كانت تنكر أن سورة يوسف من القرآن وهم العجاردة يوهم بذلك أن العجاردة فرقة من الفرق الإسلامية وأن إنكار بعض سور القرآن كان مذهبًا من مذاهب الإسلام مع أن العجاردة وهم حماد عجرد واثنان آخران معروفين بالإلحاد والزندقة والمروق عن الإسلام، ذكرهم ابن خلكان والشهرستاني وغيرهما.

قصيدة

في مدح السير سيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكره الإسلامية

للعلامة محمد شبلي النعماني

المجـد يصـحب علمًـا حيثمـا يصـل ... والعلـم عـن قومنـا لا زال يرتحـل

نـالوا مـن الـذل مـا لا نالـه أحـد ... إذا لا يـرى فـيهم علـم وعمـل

و لا تـزال تـرى ينشـتّ شـملهـم ... في كـل يـوم وقـد ضـاقت بهـم حيـل

لا يرغبـون إلـى مـا كـان ينفعهـم ... فجـلّ صـنعتهم للغـي والخطـل

تـراهم اليـوم في كـأب وفي قلـق ... فـلا أفـاد فتيـلًا مـا بـه اشـتغلوا

لا ينتهـون وقـد ذاقـوا وبالهـم ... عـن سـوء صـنع فقـد بـاءوا بمـا عملـوا

وهـل يجـازيهم إلا بمـا اكتسبـوا ... مـن كـان مـن عنـده الأحكـام تنفصـل

فمـن سـعى اليـوم في إصـلاح حـالهم ... فـالله جازيـه يومـاً يقطـع الأمـل

إن كنـت تسـئلني مـن هـذه صفتـه ... قلـت الإمـام الهمـام السـيد البطـل

هـو الـذي فـاق في الآفـاق منزلـة ... ونـال مـا لـم تنلـه الأعصـر الأوَل

مـن أقبـل الـدين والـدنيا عليـه معًـا ... والآن في نجـح مـا قـد رام مشـتغل

نـال المكـارم مـن آبائـه ومشـى ... في المكرمـات على آثـار مـا فعلـوا

فجـدّه سـيّد الأعـراب والعجـم ... قـد قـال يـا أمتـي لمـا دنـا الأجـل

وهكـذا صـنعُ هـذا السـيد العلـم ... يقـول يـا لهـف قـومي سيئ مـا عملـوا

يـا خيـر مـن سـيط حـبّ القـوم من دمـه ... أحسـن ولا تبتـئس مـن سـوء مـا عملـوا

أحسـن إليهـم ولـو جـازوك سيئـة ... ولا تبـال بمـا قـالوا ومـا فعلـوا

رسالة العلامة شبلي النعماني

«هذا ديوان الصبابة يصل إليكم وأما إني فلا يمكنني حضور لديكم لأني اشتغلت بأمور غير طائلة وقعدت همتي وصرفت عنان العناية إلى الدنيا الدنيئة وبرأت من تحصيل كمال العلم والأدب ذمتي فإني بحمد الله خلقت وكسب الفضل سيط من دمي فهو لا يفارقني إن شاء الله في حالتي وجودي وعدمي. بل لأني لملازمتي هذه العهدة الرذيلة وأتفكر في حالتي فيزيد همي ويزداد ملالتي وبيدكم الإنصاف ما هذا إلا الجور والاعتساف فصبر جميل وهو حسبي ونعم الوكيل».

التراث المنقول

- العلامة شبلي النعماني الهندي

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

ونظرًا لما ما نرى من تنفّر المسلمين عن غيرهم من الأقوام والملل وعلى هذا فهم محرومون عن كافة علوم وفنون العالم النافعة يصعب لنا خيال أنهم قد استفادوا في زمن من الأزمان من اللغات الأجنبية ولكن الحق الذي لن ينكره أيّ باحث أن المسلمين قد نقلوا إلى لغتهم التراث العلمي لكافة أقوام العالم وأممه في عهودهم المتوسطة ولو لم يظهروا للعالم لبادت كافة ذخائر اليونان ومصر والهند وفارس العلمية واختفت عن أعين العالم الحديث. وبما أنّ أوروبا لن تنكر هذه الحقيقة فقد قام المؤرخون النصارى بمناقشات عديدة حول هذا القدر من عناية المسلمين باللغات الأجنبية في زمن من الأزمان حتى ألقى كاتب فرنساوي مقالة عنها في المؤتمر الشرقي ويذكر نوفل آفندي مؤرخ نصراني من بيروت والذي ألّف كتابًا مستقلًا بحضارة وثقافة المسلمين بعنوان "صناجة الطرب" يذكر تقدّم المسلمين العلمي بهذه الكلمات:

"مما يعجبني أن العرب الذين كانوا يبيدون كل حضارة، والذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية بأمر من الإمام عمر بن الخطاب وخرّبوا علوم الفرس بأمر من عثمان بن عفان كما اندرست مكاتب أنطاكية وبيروت بمجرد رؤيتها إلى أعلامهم وكذا خرّبوا مكاتب دمشق في 101 للهجرة بأمر من يزيد بن عبد الملك الأموي وأرادوا إزالة أهرام مصر ومحو أبي الهول، لِمَ وكيف رغبوا في علوم وفنون الأجانب؟ (فيقوم الكاتب المذكور أعلاه بحلّ هذه العقد) بأن العرب كانوا مولعين بالنجوم منذ جاهليتهم فالموظّفون النصارى واليهود الذين كانوا في أبلطة الخلفاء المسلمين أيقنوهم بأن الكثير من أخبار الغيب ستنكشف لهم إذا ترجمت كتب النجوم المصونة في اليونان وغيرها من البلاد. هذه هي الرغبة التي

لفتت أنظار العرب إلى ترجمة علوم الأجانب" (كتاب صناجة الطرب في تقدّمات العرب لنوفل آفندي، ص 381-382).

ولا نودّ الآن أن نناقش ما قام به الآفندي من الافتراءات والاختلاقات الكثيرة التي أمطرها بهذه المناسبة إلا أن القضية الأصلية تحتاج إلى التفكير ونحبّ أن نكتب عنها بشيئ من التفصيل؛ الواقع أن عصبية المسلمين الحاضرة وضيق فكرهم هما اللذان قد سبّبا الناس يتفكّرون فيهم هكذا إلا الحق أن المسلمين حينما كانوا مسلمين حقًا لم يتعصّبوا ضد غيرهم من الأقوام واللغات، ولا نتحدّث عن الآخرين بل النبي صلّى الله عليه وسلّم بنفسه قد أحبّ العديد من أقوال الآخرين وآرائهم ومن ثم اختارها ورجّحها على ما لديه فلما أشار سلمان الفارسي على النبي خلال غزوة الأحزاب أن يحفر الخندق حسب طريقة فارس ويستخدم المنجنيق حين حصار الطائف فقبلها النبي بدون أي فكرة وتردّد وعمل عليها، وقد أحبّ قوانين الآخرين وأصولهم في نظم الدولة فيقول الشاه ولي الله الدهلوي الذي هو أروع محدّث وأكبر عارف بأسرار الشريعة "وكان قباد وابنه نوشيروان وضعا عليهم الخراج والعشر فجاء الشرع بنحو من ذلك". وبما أن النبي كان يراسل كثيرًا مع اليهود فأمر زيد بن ثابت أن يتعلّم اللغة العبرية كما تعلّم زيد اللغة السريانية لمثل هذه الاحتياجات، ولما اتسع نطاق الفتوح في عصر عمر بن الخطّاب قال الوليد بن هشام إني قد رأيت سلاطين الشام أنهم يرتّبون دفاتر مختلفة لكل من الجيش والخراج فنظرًا لتلك الأصول قام عمر بتأسيس دفتر خاص بالجيش والخراج وحتى أبقى ذلك الاسم الأعجمي (الديوان) وهي كلمة فارسية بحتة. قد تعلّم العديد من الصحابة اللغة الفارسية ولذا فلما تشرّف هرمزان أحد رؤساء العجم في بلاط عمر فتحدّث معه المغيرة باللغة الفارسية.

وبالجملة فلا يحتاج إلى دليل أن مسلمي القرن الأوّل قد اختاروا قوانين غيرهم من الأمم والأقوام المتعلقة عن الاجتماع والمدنية حسب المناسبة والحاجة إلا أننا نحتاج إلى مناقشة حول تحديد زمن عناية المسلمين بعلوم غيرهم وفنونهم والأسباب التي كانت وراء هذه العناية.

والواقع أن المسلمين في أوّل أمرهم وفّقوا الاختلاط بغيرهم من الأمم والأقوام لسعة نطاق فتوحهم وكلما ازدادت هذه الروابط ازدادوا معرفة بعلوم وفنون وأفكار الآخرين غيرهم فلما فتح مصر في زمن خلافة عمر رضي الله عنه كان بها فلسفي يوناني شهير يسمّى بالإنجليزية "جان" (John) وبالعربية "يحيى النحوي" فحضر عمر بن العاص فأكرمه عمرو ونعّمه وعلى هذا فهو كان يلقاه كثيرًا وعمرو كان يحظى بخطبه العلمية وقد سمح الأمير معاوية الأجانب في حكومته وذلك فإن أحدًا من الخلفاء لم يوظّف النصارى واليهود في غير قسم الخراج فقد جعل الأمير معاوية نصرانيًا رئيس الكتّاب كما فوّض جباية خراج الحمص إلى ابن آثال وهو نصراني. كان هذا النصراني طبيًا فقام بترجمة بعض كتب الطب من اليوانية إلى العربية وكأنها كانت فاتحة ترجمة العلوم والآداب. ترجمها ابن آثال للأمير معاوية.

ولو أن هذا كان عصرًا بلغ فيه العلوم والفنون الإسلامية من التفسير والفقه والحديث والأنساب مبلغًا كان المآت من الناس يشتغلون بدراستها وتدريسها فنجد ضجيجًا للمعلّمين والطلاب ولو أن التأليف لم يتروّج من قبل كما لما يعتن العرب بالحصول على علوم الأجانب وفنونهم فأراد خالد حفيد الأمير معاوية والذي كان بارعًا في العلوم والفنون الإسلامية أراد البراعة في فن الطب والكيمياء وبما أن المهرة في ذلك الفن تلك الأيام كانوا نصارى أو يهودًا فاضطرّ خالد إلى التلمذ للأطباء النصارى وهكذا فهو وفّق معرفة علوم الأجانب الأخرى فتعلّم الكيمياء على راهب يوناني يسمّى "مريانوس" وألّف ثلاث رسائل في هذا الفن ففي كتاب ذكر بالتفصيل تلمّذه لمريانوس، ومن مآثر خالد الكبرى أنه رغب في ترجمة التراث الأجنبي بكل نشاط وحماس. وفي تلك الأيام انتقل تعليم الفلسفة وغيرها من العلوم من اليونان إلى مصر وكان كبار الحكماء والعلماء اليونانيين يعلّمون في مدارسها وبما أن العربية بدأت تروّجُ في مصر فور فتحها على أيدي المسلمين حتى قامت العربية في مدة قصيرة للغاية مقامَ اللغة القبطية في كل أرجاء مصر ولذا فكان من أولئك الحكماء من كان قادرًا على فهم العربية والكتابة بها فدعاهم خالد وأمرهم بترجمة الكتب اليونانية والقبطية ولقد كتب العلامة ابن النديم في كتاب

الفهرست أنه كانت هذه أول مناسبة ترجم فيها شيء من لغة إلى أخرى ومن برز من بين مترجمي عصر خالد كان أصطفن. يبدو أن جهود خالد هذه قد أثّرت في الآخرين حتى اعتنت الدولة بهذا الجانب فترجم ماسرجيس طبيب يهودي شهير من بلاط مروان بن الحكم الذي كان أول ملك من سلطنة بني أمية ترجم قرابادين أهرن من السريانية إلى العربية ومن ثم صينت هذه الترجمة في المكتبة الملكية.

كتب العلامة جمال الدين القفطي أن هذا أعظم قرابادينات الزمن الماضي ولعل هذا هو الباعث على إخراجه من المكتبة الملكية من قبل عمر بن عبد العزيز وإعداد نسخها العديدة ونشرها فيما بين الناس. وأكبر سبب في رغبة عمر بن عبد العزيز في المعلومات اليونانية هو أنه لما كان هو عاملًا على مصر زمن سليمان بن عبد الملك أسلم على يديه ابن أبجر حكيم وبروفيسور العلوم اليونانية وكبير مسئولي الإسكندرية لأسباب تخفى علينا فلما تولّى الحكومة دعاه في بلاطه وجعله مسئولًا عن الدائرة الطبية. ذكر المؤرخون أن تعليم العلوم اليونانية انتقل من الإسكندرية إلى أنطاكية وحران عامَ ولّي عمر بن عبد العزيز الحكم ولعل السبب وراء هذا مغادرة ابن أبجر الإسكندرية للقيام مع عمر بن عبد العزيز.

وقد روّج الترجمة بعضُ الاحتياجات الحكومية فقد كانت الدواوين في اللغات الأجنبية فديوان العراق بالفارسية وديوان الشام باللاطينية وديوان مصر بالقبطية وعلى هذا فكل مسئول في الديوان كان مجوسيًا أو نصرانيًا فقد كان رئيس كتّاب البلاط زمنَ الحجاج بن يوسف مجوسيًا يسمّى فرخ وهو ادّعى بإحدى المناسبات أن مسئوليات الديوان لا تؤدى بدوني ولكن اتفق قتله في ثورة إلا أن صدى هذه الدعوى المتكبرة بلغت الحجاج ومن حسن الحظ أن صالح بن عبد الرحمن المتضلع من العربية والفارسية كان حاضر بلاط الحجاج فأمره الحجاج بنقل ديوان الفارسية إلى العربية فأقلق هذا الخبر كلَّ مجوسي وجد في بلاطه فرشوا إلى صالح مائة ألف درهم ليقول للحجاج إنها لن تترجم إلى العربية ولكن لم يأذن صالح لهم فترجمت كافة دواوين العراق إلى العربية في 87هـ ولما تولّى الحكم الوليد بن عبد الملك ترجمت دواوين مصر إلى العربية في 87هـ

بفضل عبد الله بن عبد الملك ثم أمر هشام بن عبد الملك بترجمة دواوين الشام إلى العربية فيبدو من هذه الوقائع أنه قد برز في المسلمين حتى نهاية القرن الأوّل الهجري رجالٌ كانوا متضلعين من اللغات الفارسية واللاطينية والقبطية وغيرها.

وكان هشام بن عبد الملك الذي تولّى الحكم في 105هـ أبرز خلفاء بني أمية فقد تطوّرت العلوم والفنون في عصره بجانب جودة نظم الدولة، ووفّرت أسباب وذرائع بديعة للتعرف على أخيلة وأفكار الأجانب والاطلاع على أخبارهم، والشيء الأهمّ الذي وقع في زمانه هو أنه جعل خالد بن عبد الله القسري عاملًا على العراق، الذي كان فاقد النظير في سعة الصدر والجود على العلم والفن فالفرقة المانوية التي قتل بانيها ملكُ إيران وأمر بقطع دابر هذه الفرقة وأتباعها في العالم كانوا يهيمون في الملاجئ والمكامن فأمّنهم الحكومة الإسلامية واعتنى بهم خالد عناية كأنه أنشأهم من جديد فرئيس كتّاب هشام الذي يسمّى سالمًا كان شهيرًا في فصاحته وبلاغته وكان له اليد الطولى على اللغات الأجنبية فترجم رسائل أرسطو إلى الإسكندر إلى العربية وكذا ولده جبلة كان ماهرًا بالفارسية فقام بترجمة العديد من الكتب الفارسية إلى العربية بما فيها حرب رستم وأسفنديار وقصة بهرام جوبين اللذان ذكرهما ابن النديم وبفضل ترغيب سالم وعطائه على تطوير العلم والفن فقد عرّب الآخرون كتبًا أخرى.

وكان هشام نفسه راغبًا في هذا المجال وكلفًا به فكان في ذخائر الملوك الأعاجم التي حصلت له كتابٌ بسيط في التاريخ يحتوي على تراجم كافة ملوك العجم وأصول الدولة والمباني والعلوم والفنون بشيء من التفصيل ومما تميّز به أنه احتوى على صورة ملك ذكرت ترجمته حيث اهتمّ بوجهه وملبسه فأمر هشام بترجمته وفي 113هـ انتهت الترجمة وقال المؤرخ اليعقوبي أني رأيت هذا الكتاب الجامع بأصطخر في 303هـ ولم أجد كتابًا وجد بالفارسية القديمة عن نظم الدول الإيرانية أجمع من هذا". توفّي هشام بن عبد الملك في 125هـ وبموته ماتت حكومة بني أمية أصلًا.

كان السفاح أول خليفة عباسي حكم لمجرد سنتين ونصف ثم جاء المنصور وكانت الدولة العباسية تبتدئ من عصره. كان المنصور عالمًا كبيرًا وصاحب فضل وبراعة فبجوده طوّر العلوم والفنون ومنذ عصره المبارك بدأ تدوين العلوم الإسلامية فدوّن الإمام أبو حنيفة الفقه كما ضبط ابن إسحاق غزوات النبي وجمع الأحاديثَ الإمام ملك والأوزاعي وسفيان الثوري. ومن سوء الحظ أن المأمون كان له ذوق أعجمي فكان يتبع العجم في كل أمر حتى حدّد ملابس البلاط أعجمية. والمنصور أوّل خليفة حرّض العجم لإخماد قوة العرب وشدتهم فأعطاهم المناصب الكبيرة كلها فلو أن خطوة المنصور هذه كانت سيئة عن الجهة السياسية ولكن هذا الخطأ قد رجع بعائدة فأقيم أساس الفلسفة في العرب وما نرى في العرب من رواج العلوم العقلية قد جاء بفضل هذا الخطأ فالعجم الذين أرسى دعائمهم المنصور في البلاط كانوا أرباب فضل وبراعة فوفّروا للمنصور أجود وأبرع كتب الفلسفة ثم ترجموها إلى العربية ومن هؤلاء العلماء العجم كان عبد الله بن المقفع الذي قد اعترف عنه علماء العربية أنه لم يكن منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا رجلٌ أبلغ وأفصح من ابن المقفع كتابة وخطابة فقد قدّم الملاحدة كتابه "اليتيمة" مقابلًا للقرآن (نعوذ بالله من ذلك). كان مجوسيًا وكانت الفارسية لغته الأم فلما أسلم برع في العربية فقرّره المنصور رئيس الكتّاب لبلاطه وبما أنه كان ماهرًا في مختلف اللغات بجانب فصاحته وبلاغته فكانت تعتبر ترجماته أجود ترجمات وأبرعها ومنها ترجمة "كليلة ودمنة" التي هي خير دليل على قدرته على الترجمة. قد نشرت هذه الترجمة. إنه كذلك ترجم الكتب اليونانية مثل قاطيغورياس ويارميناس وأنالوطيقا وغيرها وهو الذي ترجم إيساغوجي لفرفوريوس المصري وبما أن الفارسية كانت لغته الأم فقام بترجمة العديد من الكتب الفارسية ومن أشهرها خدائي نامه، وآئين نامه، ويزدك نامه، ونوشيروان نامه وهي كتب تاريخية نادرة فكتب الأخلاق الفارسية الكبرى التي قام ابن المقفع بترجمتها أشهرها الأدب الكبير والأدب الصغير فقد ذكرهما العلامة ابن النديم في كتاب الفهرست.

ومن أكثر الأعاجم تأثيرًا في بلاط المنصور نوبخت المجوسي. إنه أسلم على يدي المنصور وحظي بالقوة في البلاط حتى كان يعدّ من أكابر الدولة. كانت أسرته مولعة بالعلم لمدة طويلة وبفضلهم انتقلت ذخائر اللغة الفارسية الهائلة إلى العربية فأبو سهل والحسن بن موسى اللذان كانا متكلمين كبيرين واللذان كانا يجمعان العدد الهائل من المترجمين كانا من أسرة نوبخت هذه.

ومن هؤلاء العجم كان جارج بن جبريل الذي كان مترجمًا شهيرًا. إنه كان يحتل منصب مسئول الأطباء في جنديسابور. في 148هـ طلبه المنصور للمداواة ومن ثم تسلّلت أسرته كلها في البلاط وقد أعلى المأمون درجته وجعله طبيب البلاط على أنه لم يغيّر دينه ولما أراد جارج أن يعود إلى وطنه في مرضه الذي مات فيه أعطاه المأمون خمسين ألف روبية للزاد. وجارج أوّل رجل في الدولة العباسية ترجم مؤلفات الطب إلى العربية وبفضل محاولته انتقلت ذخيرة طبية معلومة إلى اللغة العربية وهو بذاته ألّف كتابًا جامعًا للتجارب الطبية باللغة السريانية فترجمه حنين بن إسحاق إلى العربية. بقيت هذه الأسرة من عصر المنصور حتى 450هـ حيث نمت الدولة العباسية فأشرفت هي على العلوم الطبية وأيّدت العلم والكمال وزيّنت البلاط.

ومترجم آخر شهير للكتب الطبية في بلاط المنصور يسمّى البطريق الذي كان نصرانيًا. إنه ترجم العديد من كتب اليونان بأمر من المنصور فما قام به من ترجمة مؤلفات بقراط وجالينوس كانت متواجدة حتى القرن السابع الميلادي.

كان من ذوق المنصور العلمي الشديد أن لم يكتف بما توفّر في بلاده من التراث العلمي اليوناني بل كتب إلى قيصر الروم طالبًا منه كتب الفلسفة والحكمة المتواجدة في بلاده فامتثل قيصر بأمره وأرسل إليه ما امتدّت إليه أياديه من التراث العلمي الفلسفي.

اشتهر ذوق المنصور العلمي شهرة توجّه نحو بلاطه العلماء والفنّانون من أقصى البلاد ففي 156هـ جاء بغداد أكبر عالم هندي بالحساب وأهدى المنصور الزيج السنسكريتي الشهير

المعروف بـ"سدهانتا" والذي سأفصّل ذكره فيما بعد فترجمه محمد بن إبراهيم الفزاري بأمر من الخليفة وعلى هذا الزيج اعتمدوا في أعمال الكواكب حتى عصر هارون الرشيد.

سمح المنصور عن تحقيق الأديان أن تترجم كتب كافة الفرق الدينية فالفرقة الدينية التي كانت مشتهرة في إيران في تلك الأيام كانت الفرقة المانية فقد ادّعى ماني النبوة وقدّم بضعة كتب قائلًا إنها نزلت إليه من الله فقتله ملك زمانه وأمر باستئصال كافة أتباعه فكان أتباع هذه الفرقة يهيمون في الأرض خوفًا من سطوة الملك الحاضر ولكنه حينما جاء الإسلام فأعطى الحرية لكافة الأديان والمذاهب الدينية فعادت هذه الفرقة إلى العراق وبما أن خالد بن عبد لله القسري العامل على العراق وجّه إليهم عناية شديدة فاشتغلوا بنشر فرقتهم بكل أمن وهدوء فلما جاء عهد العباسية وجد كتب ماني منتشرة في البلاد ثم ترجمها عبد الله بن المقفع وغيره من المترجمين إلى العربية كما عُرِّبَتْ كتبٌ غيرها من قبل مؤسّسي أديان المجوس مثل كتب ديسان مرقون وكانت هذه أول مناسبة حيث اطلع المسلمون على أديان الآخرين ومعلوماتهم الدينية ولو أن هذه البدعة أسفرت في البداية عن الحرية الدينية المعتدية فمال بعض الناس إلى الإلحاد حتى ألّف ابن أبي العرجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس كتبًا تؤيّد الفرقة المانية ولكن المنصور لم يحجز هذه الحرية ولو نظرنا إليها عن جهة علمية فنرى أن هذه الحرية قد أوجدت علمًا جديدًا في المسلمين نعرفه اليوم بـ"علم الكلام" الذي صدّ سبيل الإلحاد والزندقة للأبد.

وابتدأ هذا العلم بأنه لما هبّت سموم الإلحاد فأراد الخليفة المهدي أن يطفيء هذه النار بالسيوف فقتل المآت من الناس ولكن صعب أن تمتنع حرية الفكر بيدي الجبر والظلم فأمر علماء الإسلام أن يؤلّفوا كتبًا ورسائل في الرد على الملحدين وهكذا فقد تأسّس علم الكلام، والفائدة الكبرى التي وقعت بفضل هذا العلم أن المسلمين احتاجوا إلى قراءة مؤلفات الخصم للرد عليها، الأمر الذي أجبرهم على تعلّم اللغات الأجنبية وترجمة علوم الأجانب وفنونهم.

ولما تولّى هارون الرشيد عرش الخلافة قد جمع له ذخيرة ملموسة لمؤلفات اليونانية والفارسية والسريانية والهندية فأقام الهارون قسمًا عظيمًا لجعلها وقنيتها وسمّاه "بيت الحكمة" وأعمل له المهرة في كافة اللغات والأديان لكي يقوموا بالترجمة العربية من لغاتهم وكان منهم الفضل بن نوبخت المجوسي الذي كان مختصًا بترجمة الكتب الفارسية وهكذا توفّرت ذخيرة هائلة للفلسفة في عهد الرشيد وتلك أن ملوك الروم كانوا معتادين على تقديم النذور السنوية إلى خلفاء الإسلام فنائس فورس الذي كان حاكم الروم في عهد الرشيد أنكر أن يقدّم النذور وكتب إلى الرشيد يشتمه ويلومه فيه وانتقامًا من سوء الأدب هذا أغار الرشيد مرارًا وتكرارًا على آسيا الصغرى التي كانت عاصمة الروم تلك الأيام ودمّر العاصمة هرقلة وبما أن تعليم العلوم الفلسفية قد انتقل إلى هذه البلاد بعد اليونان فلما فتح الرشيد أنغورية وأمورية حصل له عدد لا يحصى من الكتب اليونانية فصانها الرشيد بكل حيطة وعناية وأمر أشهر مترجمي ذلك الزمان يوحنا بن ماسويه بترجمتها. جمعت هذه الكتب كلها في خزانة الحكمة وجعل يوحنا مسئولًا عنها.

ولو أن المؤلفات العلمية السنسكريتية قد وصلت إلى بغداد في عصر المنصور ولكنه قد توفّرت أسباب وذرائع أخرى حديثة في هذا العصر. ذات مرة أصاب هارون الرشيد مرض شديد ولو أن بغداد كانت ضجيجة بالأطباء ولكن لم يشفه أحدٌ منهم فقد أشار عليه بعض حواشي بلاطه أن يدعو طبيبًا وفلسفيًا هندوسيًا شهيرًا لأجل علاقته مع الهند فدعي ذاك الطبيب وعُيِّنَ مديرًا ومسئولًا عن بيمارستان البرامكة ببغداد وهو الذي ترجم معظم الكتب السنسكريتية العلمية فترجم كتاب شوشوراتا الذي كان فيه عشرة أبواب وساميكا الذي كان في مداواة السموم، وكان أطباء هندوس أخرى في بلاط الرشيد انتقل بفضلهم المعلومات الطبية إلى العربية وقد فصّل العلامة ابن أبي أصيبعة ذكرَ صالحٍ منهم (ولعله سالي).

وتبع الهارون عصر المأمون وبفضله ادّخرت اللغة العربية بعلوم وفنون العالم كله. قضى المأمون معظم مدة أمارته وبداية خلافته في مرو وكان المأمون أعجميًا من جهة

أمّه وقد أصبح أعجميًا لأجل اختلاطه معهم فهو كان يقلّد ملوك العجم في شأن من شئونه وكانت نظم أردشير نظم دولته، وكان كافة وزراء البلاط وأمرائه مجوسًا أسلم عليه معظمهم وعلاوة على هذا فقد جُمِعَ في خزينته كافة الأدب الفارسي وعلوم الفارسية وفنونها لما أنه كان توّاقًا إلى العلوم القديمة، وفي 204هـ غادر خراسان لبغداد التي كانت تضجّ بالفلسفة فبرع فيها ووسّع خزانة الحكمة وكلف بالفلسفة إلى حد رأى في المنام ذات ليلة أن رجلًا أبيض ذا ناصية واسعة وحاجب ملتصق وعينين سوداوين ضاربتين إلى الزرقة جالس على العرش فتحيّر منه المأمون وسأله عن اسمه فردّ عليه بأنه أرسطو ففرح المأمون سرورًا ودار بينهما المحادثة فرغّب حلمه هذا في الفلسفة أكثر من ذي قبل فكتب إلى قيصر الروم في 210هـ أن يرسل إليه قدرما أمكن له جمع كتب أرسطو وغيره من الفلاسفة. كتب هذا في زمان كانت كتب الخلفاء العباسيين تعمل لملوك العجم عمل الأحكام فأحبّ قيصر بأن يعمل على كتابه وحاول أن يجمع الكتب فدلّه متولّي الخانقاه النصراني على بيت في اليونان لم يزل يُغلَق منذ زمان القسطنطين فقد أغلق القسطنطين كتب الفلسفة فيه ظانًا أن الفلسفة تضرّ بالنصرانية فأمر القيصر بفتح هذا البيت فوجدت كتب عديدة فلما رأى القيصر هذه الثروة العلمية القيّمة أراد أن لا تصل إلى المسلمين ولكن الحواشي والمسئولين وطّنوا نفسه قائلين إن هذه الآفة تفسد حيث تصل فحمّلها خمسة جمال وساقها نحو دار الخلافة.

أرسل المأمون كبار مترجميه، مع هؤلاء الرسل، الذين كانوا مسئولين عن خزانة الحكمة ومتضلعين من اللغة اليونانية والسريانية فرافقهم سلما والحجاج بن مطر وابن البطريق. ولو أن بلاط المأمون كان يضجّ بجماعة من المترجمين ولكنه بما أنهم كانوا يعتنون بالكلمات عند الترجمة أي كان المترجمون يضعون الكلمة مقابل الكلمة الأخرى فكان المأمون يبحث عن مترجم يكون قادرًا على تلك الفنون لكي يحلّ معضلات الكتاب بجانب ترجمته ولكن لم يكن في تلك الأيام من مترجمي هذا النوع سوى اثنين؛ حنين ويعقوب الكندي.

وحنين، كما تتعلق حياته بهذا الشأن، كان طفلًا لصرّاف نصراني وكان يتوطن الحيرة مدينة شهيرة للعراق وبما أن أرجاء المدينة كلها كانت تضجّ بالدرس والتدريس بفضل النصارى فلما بلغ سنّ القراءة التفت إلى نيل علم الطب فالتحق بمجالس دراسية ليوحنا بن ماسويه أمهر الرجال في الفلسفة اليونانية في زمانه ومسئول خزانة الحكمة وقسم الترجمة لهارون الرشيد ولكن وقع نزاع بين الأستاذ وتلميذه بعد أيام فقال له يوحنا إن يعود إلى دكان الصرافة فليس هو بمخلوق للعلم فقام حنين يبكي وعزم على أن يتعلم اليونانية تعلمًا لا يوجد له مثيل في البلاد كلها وكانت الإسكندرية مركزًا للفنون اليونانية في الدول الإسلامية فكان بها العديد من المدارس لتعليم الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية وعلاوة على ذلك فكان يسكنها كثير من اليونانيين فتوجّه نحو الإسكندرية فتعلّم بها اليونانية وحفظ كلام هومر عن ظهر قلب ثم ذهب إلى البصرة ليتعلّم بها العربية. والبصرة كانت يقيم بها خليل البصري الذي كان ماهرًا في النحو وكان يتعلّم عليه النحو سيبويه وغيره من المهرة في النحو فبدأ يتعلم العربية ومهر فيها وكانت الفارسية لغة بلاده فهكذا اشتهر حنين في أرجاء البلاد وهو في عنفوان شبابه فلما جعل المأمون يبحث عن المترجم الجيّد أشار عليه الناس أن يعمل حنين فدعاه المأمون ووهبه عطايا ثمينة وأخدمه للترجمة ومن المعروف أن المأمون كان يزن الكتاب المترجَم بالذهب أجرًا للترجمة علاوة على الهدايا والعطايا التي كانت تصل إليه وقتًا لآخر ولعل هذا هو السبب وراء استنساخه الكتاب المترجَم على أوراق ضخمة وأحرف جلية وأسطر معدودة على الصفحة.

كان حنين كلفًا بجمع الكتب اليونانية وترجمتها فطوّف في آسيا الصغرى في البحث عن الكتب حتى بلغ أقصى المعمورة وهو الذي قال: إني طوّفت في الجزيرة والشام للبحث عن كتاب البرهان لأرسطو كما بحثت عنه في فلسطين ومصر وكذا ارتحلت إلى الإسكندرية ولكني لم أجد سوى نصف كتاب مع أنه بدون ترتيب" وكذا نقدّر اشتياقه إلى الترجمة أنه لما بلغ الأربعة والأربعين من عمره قد انتهى من ترجمة 121 كتاب ورسالة لجالينوس. ولد حنين في 194هـ وتوفّي في 264هـ بعدما عاش لسبعين عامًا.

والمترجم الآخر الشهير في بلاط المأمون يعقوب الكندي وهو الرجل الذي لقّبه علماء الإسلام بالفيلسوف والحال أن بو علي سينا وابن رشد لم يعتبرا جديرين بهذا اللقب. قد ذكر ابن النديم ترجمته المفصّلة في الفهرست (ص 294).

وبفضل يعقوب الكندي برئت العرب عن هذه الذمة أن العرب لم تنجب ماهرًا في لغات أجنبية وحكيمًا وفيلسوفًا في علوم الأجانب. كانت مؤلفاته متداولة في المسلمين كلها منذ عصر المأمون حتى بداية القرن الرابع فهو كان متضلعًا من اللغة اليونانية وماهرًا في العلوم والفنون اليونانية والفارسية والسنسكريتية. إنه ترجم العديد من كتب الفلسفة وله خدمة جليلة في هذا المجال أنه قام بحلّ معضلات ومشكلات النصوص. قد عيّنه المأمون لترجمة كتب أرسطو خاصة فإنه لم يكن أحدٌ يضاهي به في فهم فلسفة أرسطو ولقد ذكر العلامة ابن النديم وابن أبي أصيبعة مؤلفاته بالتفصيل، الأمر الذي يصدّق حكمته وفلسفته إلا أن هذا ليس بموضع مناسب لهذه القضية.

وفي نفس العصر برز فاضل نصراني يسمّى قسطا بن لوقا في الفلسفة والحكمة. إنه كان من اليونان وكان يلقي الخطب الفصيحة باليونانية وبما أنه نشأ وترعرع في الشام فقد برع في العربية كذلك. إنه كان مولعًا بالفلسفة اليونانية ولذا فقد ارتحل إلى آسيا الصغرى وجمع العديد من كتب العلوم اليونانية فلما بلغ المأمون سمعتُه دعاه وأخدمه لترجمة الكتب في بيت الحكمة. كتب العلامة ابن أبي أصيبعة أنه ترجم عددًا كبيرًا من الكتب اليونانية إلى العربية كما قام بإصلاح ما تمتّ ترجمته من الكتب والرسائل.

هذا ما كان حديثًا عن ترجمة الكتب اليونانية وأما ترجمة العلوم الفارسية والبهلوية فقد وفّر لها المأمون علماء الأسرة المجوسية فكان سهل بن هارون المجوسي ماهرًا لعلوم المجوس وفنونهم بجانب أخذه بناصية اللغة العربية فقد كان يعتبر من فصحاء وبلغاء زمنه حتى كان يعترف الجاحظ بأستاذيته وعلى هذا فقد ذكره العلامة ابن النديم من بين المنشئين. إنه ألّف كتابًا على طراز كليلة ودمنه سمّاه "ثعلة وعفراء". عيّنه المأمون في

خزانة الحكمة وأخدمه لترجمة الكتب الفارسية وكذا كان أخوه سعيد من فصحاء دهره وبلغائه فقرّره المأمون على نفس الخدمة وكذا كانت أسرة الشاكر تعمل في خزانة الحكمة إلا أنهم قد وسّعوا دائرة الترجمة إلى حد سنفرد لهم ذكرًا فيما بعد وعلاوة على هؤلاء فقد توظّب فيها سلما وابن البطريق وعلان الشعوبي فهل تقدّر سعة وجودة القسم الذي يعمل فيه الفضلاء أمثال يعقوب الكندي وحنين وقسطا بن لوقا وسهل بن هارون وسعيد بن هارون وسلما وابن البطريق والحجاج بن مطر وعلان الشعوبي.

والسبب الآخر المهمّ وراء العثور على العلوم العقلية واللغات الأجنبية هو عقد جلسات المناظرة على أيدي البرامكة. وهي كانت تعمّ البلاد كلها ولو أن هارون الرشيد قد حدّها على مشورة من الفقهاء في أخير زمانه، الأمر الذي قلّل رغبة الناس في الفلسفة وقد اشتهر قبل تولّي المأمون الحكم أن الإسلام قد انتشر في العالم بقوة الجنود وذلك لأنه لو استطاع الإسلام انتشاره بنفسه فلِمَ منع الناس عن المناظرة والمباحثة فلما بلغ المأمون هذه الدعاية جمع الناس في بغداد وطلب ما أمكن له من أئمة أديان العالم ورؤساء الفرق الدينية حتى دعا يزدان بخت رئيس الفرقة المانوية من الريّ وأنزله المأمون على كثب من قصر الخليفة فغلب فيها علماء الكلام على كافة أعداء الإسلام ومعاديه وثبت أن الإسلام لم ينتشر بالسيف بل انتشر ورسخ في القلوب باللسان والقلم ولا يمكن هذا إلا بهما ثم أمر المأمون بكل رحابة الصدر بعقد جلسات المناظرة والمباحثة في كل أرجاء البلاد وأعطى أتباع كل فرقة ودين حرّية أن يثبتوا ما عندهم ويبطلوا ما لا يوافق ورأيهم وفكرتهم وبفضل هذه الجلسات مال المسلمون كلهم إلى المعقول والفلسفة فإن الفقه والحديث لم يكفيا رادّين على الأديان والفرق والأفكار الأخرى وزدْ على ذلك اطلاع المسلمين على أفكار وآراء الأديان والفرق الأخرى لأداء هذه الخدمة فتعلّموا اللغات الأجنبية طوعًا أو كرهًا.

وقُفّي المعتصم بالمأمون في تولّي الحكم وكان جاهلًا بحتًا وذا ذوق عسكري فلو أن الدولة قد علت درجتها وارتفع قدرها وأغار على الروم ثماني غارات تترى وكأنه قطع دابر قوة

الروم في معركة عمورية ولكنه لم يوسّع نطاق الفتوح العلمية إلا أنه لم يعرقل سبيل العلوم العقلية فلم يزل يخدمها من كان راغبًا في خدمتها ولكنه لما جاء الواثق بالله في 227م فأحيى عملية الترجمة. إنه كان يبغض التقليد وحرّر كل فرقة ودين في الإعراب عن رأيه وكان يحضره كبار المترجمين والفلاسفة المشهورين وهو كان يناقش معهم في الفلسفة فذكر العلامة المسعودي جلسة حضرها ابن بختيشوع وابن ماسويه وميخائيل وحنين بن إسحاق وسلمويه. ولقد جمع حنين بن إسحاق ما سأله عنه من القضايا العلمية تارة بعد أخرى في كتاب سمّاه "كتاب المسائل الطبيعية" وقد جعل نديمَه الخاص يوحنا بن ماسويه المترجم الشهير الذي قرّره هارون الرشيد مسئولًا عن خزانة الحكمة وأغناه عن المال فقد أعطاه ثلاثمائة ألف درهم بمناسبة. وبعد الواثق بالله جاء المتوكل على الله. وبما أنه كان مصطبغًا بالصبغة الدينية فقد منع جلسات المناظرة إلا أنه لم يرغب عن عملية الترجمة فجعل حنين بن إسحاق مسئولًا عن قسم الترجمة وجعل تحت إشرافه العديد من المترجمين الماهرين أمثال أصطفن بن بسيل وموسى بن خالد فكان هؤلاء يترجمون وأما حنين فكان يعيد النظر فيها ولقد أكرم المتوكل مثوى حنين فأعطاه ثلاثة قصور من القصور الملكية ليسكن فيها واستشهد على سيطرته عليها لكي لا يخرجه أحد من بعده كما أمر بتزيينها بما يحتاج إليه من الأثاث والأسباب وبتوفير المكتبة له ومع ذلك قرّر له خمسة عشر ألفًا كراتب شهري، ولو لم تبق سلطة العباسيين وحكومتهم بعد المتوكل إلا اسميًا ولكن الحكومات الإسلامية التي تفرّعت عنها لم ترغب عن هذه الخدمة الجليلة.

ففي بلاط سيف الدولة وظّف عيسى الرقي على هذه الخدمة. إنه كان يترجم من السريانية إلى العربية وفي الأندلس كان عبد الرحمن الناصر تواقًا إلى الترجمة فسنذكر بعض مآثر عصره. وقد كانت وفّرت الأسرة السامانية قدرًا ملموسًا من ذخائر التاريخ من اللغة البهلوية والحق أن هذه هي الذخيرة التي زيّن بها فردوسي ملحمته الشهيرة "شاهنامه". وفي 772م لما ذهب السلطان فيروز شاه لسير جبال هملايا الهندية علم أن

معبدها يمتلك 1300 كتاب سنسكريتي قديم فطلب فيروز شاه اثنين منهما واعتنى بترجمتهما وكذا نظم أحدَ الكتب في النجوم عزُّ الدين وسمّاه "دلائل فيروزي". كانت هذه الكتب معظمها في الموسيقى والمصارعة وقد كتب عبد القادر البدايوني في منتخب التواريخ أني لما بلغت لاهور في 1000هـ رأيت هذه الكتب المترجمة. وما كان يطويه الإمبراطور أكبر في جنبيه من العناية بالكتب السنسكريتية لا يخفى على أحد منا. وبجانب الخلفاء والسلاطين فقد وسّع معظم الوزراء والمسئولين نطاق هذا القسم ويجب علينا أن نذكر هنا طرفًا منهم فالأسرة التي تتشرف بهذا الافتخار هي أسرة البرامكة والحق أنما وقعت في الدولة العباسية من المآثر معظمها يعود فضلها إلى هذه الأسرة فكان أبو هذه الأسرة برمك متوليًا ومسئولًا عن معبد المجوس في بلخ، الذي كان يعتبره المجوس ردًّا على الكعبة. أسلم ولده خالد وأصبح وزيرًا في بداية الدولة العباسية ومات في زمن المنصور وكان يحيى بن خالد وزيرًا حتى عهد هارون الرشيد وبما أن هذه الأسرة كانت مجوسية وكانت لها علاقة وطيدة مع المجوس كلهم لأجل عنايتهم السابقة بمعبد المجوس فلم يسبقها أحد في جمع التراث الفارسي العلمي.

ومن أكبر الحوافز على رواج الترجمة في عصرهم أن هذه الأسرة سبقت غيرها في عقد الجلسات العلمية في الإسلام فقد كان يحيى بن خالد يعقد لديه جلسة للمناظرة، يحضرها رجال كل فرقة ودين وكان يتمّ عقدها بكل تنظيم وتنسيق ولقد كان في بلاط يحيى حكيم شهير يسمّى هشام بن الحكم الذي عيّنه يحيى سكرتيرًا للجلسة. ويحيى أوّل من دعا براهمة وفلاسفة وأطباء الهند وأمرهم بترجمة الكتب السنسكريتية فقام عبد الله بن هلال الأهوازي بترجمة كليلة ودمنة من جديد في 165هـ بأمر من يحيى وأوّل ما نقل المجسطي إلى العربية هو بأمر هذا الوزير. يبدو أن يحيى كان بارعًا في هذه العلوم فقد كتب ابن النديم أنه قدّمت له شتى ترجمات المجسطي فلم يرض عن أحد منها وأمر أبا حسبان وسلما بإعادة النظر فيها فجمعا المترجمين المجيدين وأمرهما بالمقابلة بين هذه الترجمات ومن ثم أعدّت نسخة جيدة. ومن مترجمي البرامكة الخواص سلام الأبرش

وعبد الله بن هلال ومانك الهندي وابن دهن الهندي. وعمر بن فرخان الذي كان يتشرّف برئاسة المترجمين وكان متعلقًا بهذا البلاط.

والأسرة الثانية التي ساهمت في عملية الترجمة هي أسرة موسى بن شاكر. وفي الواقع كان موسى قاطعًا للطريق فكان يكتسب بهذه الحرفة وفي النهاية تاب ولعل شجاعته جعلته موظفًا في بلاط المأمون ثم توفّي عن ثلاثة أولاد ذكور. وكان من صفات المأمون أنه كان يربّي الأجيال الشريفة فقد ربّى العديد من أسر العجم مثل الأسرة الساسانية وآل طولون وعيّنهم على مناصب عليا وخلفوا محامد عظمى وعلى هذا فقد ربّى المأمون أولاد الشاكر بكل عناية حتى أنه حينما كان مشغولًا في الحروب ضدّ آسيا الصغرى كان يرسل الأحكام يستطلع فيها عليهم وبالجملة فقد برع هؤلاء الإخوة الثلاثة؛ محمد، والحسن، وأحمد في العلوم والفنون فكان محمد ماهرًا في العلوم العقلية كلها، وبرع أحمد في علم الحركات وأوجد قضايا لم تخطر ببال اليونان وكتابه "كتاب الحيل" دليل حيّ على هذا وأما الحسن فكان ماهرًا في الهندية فأوجد كثيرًا من القضايا منها قسمة زاوية إلى ثلاثة أجزاء متساوية.

وبجانب براعتهم تلك فقد اعتنوا بترجمة العلوم والفنون وخاضوا فيها إلى حدّ أنفقوا فيها قوتهم كلها ومن حسن الحظ أن المال ساعدهم فكان مجرد دخل الشقيق الأكبر أربعمائة ألف جنيه. إنهم أرسلوا عامليهم إلى كافة مدن آسيا الصغرى وجمعوا عددًا لا يحصى من الكتب وعيّنوا على الترجمة كل من ظفروا به من المترجم في أدنى البلاد وأقصاها فثابت بن قرة الذي كان رأس المترجمين في عصره قد تربّى على يدي هذه الأسرة. وبجانب الترجمة فقد أصلح العديد من الترجمات ومعظم ما قام بإصلاحه من الترجمات توجد الآن. لم يكن ثابت مترجمًا فحسب بل كان حكيمًا وذا تأليف ونجد مؤلفاته في السريانية كذلك وكذا كان عيسى بن أسيد أحد تلامذة ثابت والذي كان نصرانيًا ماهرًا في السريانية فقام بترجمة العديد من كتب السريانية.

ومن أدّى دورًا في توسيع نطاق الترجمة من غيرهم من الوزراء والأمراء ننقل أسمائهم وأخبارهم عن طريق الجدول القادم:

الاسم	التفصيل
محمد بن عبد الملك الزيات	كان وزيرًا للخليفة المعتصم، ترجم العديد من الكتب اليونانية باعتناء منه، ترجم له كبار المترجمين أمثال يوحنا وجبريل وبختيشوع وداؤد بن سرابيون وسلمويه واليسع وإسرائيل بن زكريا وحبيش بن الحسن الكتب والرسائل. كان ينفق فيها عشرة آلاف سنويًا
شيرشوع بن قطرب	كان من أهالي جنديسابور، وكان يجود على المترجمين، إنه أمر بترجمة الكتب معظمها من السريانية.
علي بن يحيى المعروف بابن المنجّم	كان كاتب المأمون ونديمه. إنه كان يميل إلى المؤلفات الطبية
ثاوري	كان من أسقف بغداد وكانت له رغبة خاصة في جمع الكتب وترجمتها.
محمد بن موسى بن عبد الملك	كان من فضلاء دهره وكان له قدرة على تمييز جيّد الكتب من رديئها.
عيسى بن يونس الكاتب	كان من أهالي العراق وكان راغبًا في الكتب اليونانية
أحمد بن محمد المعروف بـ"ابن الدبر"	كان يعطي المترجمين عطايا ضخمة
علي المعروف بـ"قيوم"	الصفة ذاتها
إبراهيم بن علي بن موسى	كان يتوق إلى اللغة اليونانية

الكاتب	
عبد الله بن إسحاق	كان يرغب في الترجمة
بختيشوع بن جبريل	لم يعادله طبيب في بغداد مالًا، كان دخله السنوي يتراوح بين عشر مائة ألف وخمسة عشر مائة ألف. ترجم له معظم مؤلفات جالينوس

نما هذا الذوق شيئًا فشيئًا حتى لم يحتج الخلفاء والأمراء إلى ترغيب الناس فيها فكان معظم أرباب الفضل والكمال يتعلّمون اللغات الأجنبية على رغبة منهم وشوق ومن ثم كانوا يترجمون الكتب العلمية ومن برز منهم سعيد بن يعقوب الذي كان مراقبًا عامًا لبيمارستانات بغداد ومكة والمدينة في 302هـ، ومتي بن يونان (ت 328هـ) الذي ترجم شتى الكتب من السريانية ويحيى بن عدي الذي كان تلميذًا للحكيم الفارابي كان يمهر في السريانية وأبو علي بن زرعة الذي كان من كبار المنطقيين والمترجمين وقد وفّر العلامة ابن أبي أصيبعة تفصيلًا لأخبارهم.

وفي النهاية حظي بالتراث العلمي السنسكريتي لأسباب عديدة فكان برهمن هندوسي في زمن السلطان علي مرد يسمّى "بهوجر" فغادر فارانسي لعقد النقاش مع المسلمين ولقي القاضي ركن الدين السمرقندي في مدينة أكفوف فترك نية المباحثة وجعل يتعلّم العربية عليه وقدّم إليه كتابًا عنوانه "أبرت كند" فلما سمع القاضي محتوياته اعتقد فيه إلى أن جعل يتعلّم السنسكريتية عليه وبعدما مهر فيها قام بترجمته إلا أنه لم يكد يحلّ بعض معضلاته واتفق أن أحد تلامذة بهوجر الذي كان يسمّى "أنبهواناث" قد خرج إليها فتعلّم عليه عالم سنسكريتي هذا الكتاب ثم ترجمه إلى العربية من جديد وسمّاه "مرآة المعاني لإدراك العالم الإنساني" ولقد رأيت نسخة من هذه الترجمة.

وعالم آخر يسمّى محمد بن إسماعيل التنوخي ارتحل إلى الهند لتعلّم الهيئة والنجوم وأقام بها لسنوات يتعلّم علومها وفنونها ولنا أمثلة أخرى على ذلك ولكن أبا ريحان

البيروني أقدمهم وأفضلهم في هذا الشأن. والبروفيسور زخاؤ عالم ألماني شهير. إنه كتب مقدمة لكتاب الهند للبيروني وقال إن المؤلفين اليونانيين الذين رافقوا الإسكندر كتبوا شيئًا عن الهند كما ضبط الرحّالة الصينيّون أخبار هذه البلاد بفضل اطلاعهم الشخصي ولكنه لما سافر البيروني إلى الهند وألّف الكتاب في علوم الهند وفنونها وتقاليدها فبقيت كافة الكتب القديمة كألعوبة الأطفال.

كان أبو ريحان عالمًا كبيرًا للحساب وكان معاصرًا للشيخ بو علي سينا وخصمًا له في شتى العلوم، وما عاناه من المشاق في نيل علوم الهندوس تتحير منها العقول فهو بذاته يقول إني عانيت كثيرًا من المشاق في تعلّم لسانهم فقد فاقت الهندوس في عصبيتهم وكانوا يعتبروننا معشر المسلمين منبوذين فيصبح غير طاهر عندهم ما تمسّه أيدينا. إنهم يخوّفون أولادهم بأسمائنا وينابزوننا بالشياطين وفوق هذا وذلك أنهم يعتبرون العالم كله جاهلًا ووحشيًا" وكان من مساوئهم أنهم كانوا يضنّون بإعطاء كتبهم للغير والحال أنه كان يصرف الأموال الهائلة في شراء الكتب وبالجملة فعلى الرغم من هذه المشاكل والصعوبات فإنه فاز في تعلّم السنسكريتية وبرع فيها فترجم العديد من كتبها كما لخّص البعض منها وسنذكر ما قال مفصّلًا فيما بعد.

والجماهير من المترجمين الذين كانوا يشتغلون بهذه العملية ليل نهار ولو أننا لا يمكننا هنا تفصيل أسمائهم وأخبارهم ولكن ننقل فيما يلي فهرسًا موجزًا لهم ولما قاموا به على الترتيب المعجمي طبقًا للأصل "ما لا يدرك كله لا يترك كله":

مترجمو اللغة الفارسية

المترجم	التفصيل
عبد الله بن المقفع	مضى ذكره آنفًا
الفضل بن نوبخت	الفهرست، ص 274
أبو سهل إسماعيل	عالم كبير كان يعقد جلسات المتكلمين، له مؤلفات عديدة،

بن علي بن نوبخت	الفهرست، ص 176
الحسن بن موسى بن أخت أبي سهل	كان يجتمع لديه الكثير من المترجمين أمثال أبي عثمان الدمشقي، وإسحاق بن ثابت، الفهرست، ص 177
الحسن بن سهل	منجّم شهير، الفهرست، ص 244 و275
موسى بن خالد	كان مسئولًا عن الترجمة لدى داؤد بن عبد الله بن حميد بن قحطبة، الفهرست، ص 244
يوسف بن خالد	القول السالف الذكر
أبو الحسن علي بن زياد التميمي	ترجم زيج شهريار، الفهرست، ص 244
أحمد بن يحيى البلاذري	مؤرخ شهير له "فتوح البلدان" الذي أحلت إليه كثيرًا في مؤلفاتي، الفهرست، ص 244
جبلة بن سالم	مضى آنفًا
إسحاق بن يزيد	ترجم سيرة الفرس، الفهرست، ص 245
محمد بن بهم البرمكي	مؤلف شهير، الفهرست، ص 245
هشام بن القاسم	المصدر نفسه
موسى بن عيسى الكردي	المصدر نفسه
زادويه بن شاهويه الإصفهاني	ترجم كتب تاريخ إيران، أحيل إليه كثيرًا في الكتب، الفهرست، ص 245

محمد بن بهرام بن مطيار الإصفهاني	المصدر نفسه
بهرام بن مردان شاه	موبد موبدان نيشافور، الفهرست، ص 245
عمر بن فرخان الطبري	مضى ذكره
عبد الله بن علي	الفهرست، ص 302
سهل بن هارون	مضى ذكره
سعيد بن هارون	مضى ذكره
إسحاق بن علي	الفهرست، ص 315
عبد الله بن هلال الأهوازي	مترجم كليلة ودمنة للبرامكة

مترجمو اللغة السريانية

المترجم	التفصيل
ماسرجيس اليهودي	
عيسى بن ماسرجيس	مضى ذكره آنفًا
هشدي الكرخي	مضى ذكره آنفًا
ابن شهدي الكرخي	ترجم كتاب الأجنة لبقراط
أيوب الرهاوي	كان يجيد الترجمة
يوحنا بن بختيشوع	

المنصور بن باناس	كان يمهر في السريانية
مرلاحي	كان معاصرًا لابن النديم
داريشوع	كان من مترجمي إسحاق بن سليمان
أيوب بن قاسم الرقي	ترجم إيساغوجي
متي بن يونان	مضى ذكره

مترجو السنسكريتية

المترجم	التفصيل
منكا	مضى ذكره
ابن دهن	كان أبوه دهن فنسب إليه وسمّي بـ"ابن دهن". كان مسئولًا عن بيمارستان بغداد الذي أسّسه البرامكة، الفهرست، ص 245
إسماعيل التنوخي	
أبو ريحان البيروني	مضى ذكره
فيضي	أبرز شعراء بلاط أكبر

مترجو اللغات اليونانية واللاطينية (والسريانية كذلك)

المترجم	التفصيل
أصطفن	مضى ذكره
البطريق	مترجم شهير في بلاط المنصور

يحيى بن البطريق	من أولاد البطريق المذكور أعلاه. كان في بلاط الحسن بن سهل وزير المأمون
الحجاج بن مطر	مترجم شهير ترجم المجسطي وأقليدس
عبد المسيح بن ناعمة الحمصي	
سلام أبرش	مترجم شهير لدى البرامكة
حبيب بن بهريز	أسقف الموصل، ترجم لمأمون الرشيد
زرديا بن ماتحوه الجمعي	كان يجيد الترجمة
هلال بن أبي هلال الحمصي	لم يكن فصيحًا ولا بليغًا إلا أنه كان يترجم بالصحة
فيشون	كانت في ترجمته أخطاء، لم يكن يعرف العربية
تذاري	
أبو نصر بن أدي بن أيوب	
بسيل	ترجم العديد من الكتب، كان يجيد الترجمة
أبو نوح بن الصلت	
أسطاث	كان من مترجمي الطبقة المتوسطة
جبرون بن رابطة	
أصطفن بن بسيل	كانت ترجمته أقرب مما لحنين

ابن رابطة	
موسى خالد	ترجم معظم مؤلفات جالينوس
تبوفيلي	
شملي	
عيسى بن نوح	
أبراهيم القويري	كان أكبر منطقي، وتلميذ متي بن يونان
نذرس	ترجم كتب الفلسفة
زاريع الراهب	
هيابيشون	
صليبا	
أيوب الرهاوي	
ثابت بن قمع	
أيوب وسمعان	موظفان لدى محمد بن خالد يحيى البرمكي
باسيل	موظف لدى الطاهر ذي اليمنيين
أبو عمرو يوحنا بن يوسف	ترجم كتاب آداب الصبيان لأفلاطون
قسطا بن لوقا البعلبكي	مترجم شهير
حنين بن إسحاق	مترجم شهير

إسحاق بن حنين	مترجم شهير
ثابت بن قرة	مترجم شهير
حبيش الأعم	مترجم شهير وابن أخت حنين
عيسى بن يحيى بن إبرهيم	تلميد حنين بن إسحاق
إبراهيم بن الصلت	أحد مترجمي الطبقة المتوسطة
إبراهيم بن عبد الله	
يحيى بن عدي	مترجم شهير
تفلسي	
سرحيل	كان من أهالي زائس العين، أصلح حنين ترجمته
يوسف بن عيسى المتطبب	كان من أهالي خوزستان
ثابت الناقل	ترجم كتاب الكيموس لجالينوس
قيضا الرهاوي	كان مساعدًا لحنين
عبد يسوع بن بهريز	
أبو سعيد سعيد بن يعقوب	مترجم شهير
إبراهيم بن بكس	طبيب ومترجم شهير
أبو الحسن علي بن إبراهيم	كان عديل والده في الفن

طرق الترجمة وصحتها

في البداية كانوا يستخدمون أسلوب الترجمة الحرفية بحيث كانوا يبحثون عن كلمة تعادل الكلمة المترجمة فأعمل هذه الطريقة يوحنا بن البطريق وابن ناعمة الحمصي، ولكنها كانت فيها صعوبتان أولاهما أن البحث عن كلمة ملائمة لكلمة أخرى كان معدومًا أو قريبًا من العدم وأخراهما أن الترجمة الحرفية لا تكفي توضيح كلمة وتبيين معناها، ونظرًا لهذه المناقص اختيرت طريقة أخرى وهي أداء مفهوم جملة بجملة أخرى تعادلها.

ولعل هذه الطريقة أوجدها حنين ثم اتبعها الآخرون ولكنه بما أن معظم الترجمات كانت من النوع الأول فبرزت طريقة الإصلاح أي قضي على الإبهام والتعقيد الموجودين في هذه الترجمات ولذا فقد قام المترجمون الأوائل أمثال ثابت بن قرة ويحيى بن عدي بإصلاح الترجمات أكثر من القيام بها والواقع أن هذه التصليحات قد أفادت كثيرًا.

وفي يومنا هذا يعير كتّاب أوروبا الكافرون أنما قام به المسلمون من المنة على العالم المثقف ليست إلا ترجمة الكتب اليونانية كما هي، الأمر الذي صان هذه الكتب وما احتوته ولكنهم يصرفون النظر عن أن المسلمين لم يفعلوا هذا القدر من الخدمة فحسب بل فهّموا العالم معاني هذه الكتب التي لم تبلغها أذهان شارحي هذه الكتب اليونانية فقد كانت طريقة كتابة أرسطو وأفلاطون وغيرهما أنهم كانوا يؤدّون المعاني السهلة بأسلوب ملؤه التعقيد حتى أنه لما قام بشيء من التوضيح في كتاباته فكتب أفلاطون إليه رسالة مليئة بالتنبيه أنك تذلّ العلم وتحقّره فردّ عليه أرسطو قائلًا: وبعد ذلك وضعت فيها من التعقيدات التي لن يمكن للناس بلوغ المفاهيم الحقة".

ولعل هذا هو السبب الذي قد زلّت عليه أقدام الكتّاب اليونانيين في فهم معاني هذين الحكيمين وتفرّقوا في فرقتين على مرّ الدهور فألّف الحكيم أبو النصر الفارابي كتابًا سمّاه بـ"الجمع بين الرأيين". نشر هذا الكتاب في أوروبا فقد أرى فيه الحكيم الفارابي طرق كتابة أفلاطون وأرسطو، الأمر الذي سبّب زلة كتّاب اليونان وغيرها فيما بعد ثم

قام الفارابي بإقامة عوج تلك الزلات وحلّ عن عقد كتابات أرسطو وأفلاطون فدلّ على أنه لا خلاف بين هذين الحكيمين.

ولتقدير ما أولوه من اهتمام بالغ بإصلاح الترجمات وتقويمها يكفينا ذكر قصة وهي أن أروع رسالة في المفردات هي رسالة دسيوقوف درس التي ترجمها إلى العربية اصطفن بن بسيل في زمن المتوكل بالله ثم قام حنين بإصلاحها ولكن أسماء الأدوية التي لم تكن بالعربية أبقاها كما هي باليونانية ثم وصلت هذه الترجمة إلى إسبانيا ولكنها لم يعمّ نفعها فيما بين الناس لأجل أسمائها اليونانية وفي 337هـ زمن حكومة عبد الرحمن الناصر أهدى قيصر الروم (مارنيس) الكتاب الأصلي الذي كانت الأدوية والعقاقير مصوّرة فيه، إلى عبد الرحمن الناصر ولو كان بلاط عبد الرحمن يمتلك رجالًا لهم حنكة في اللغة اللاطينية ولكن اليونانية القديمة قد ماتت تمامًا فالأطباء والحكماء الذين كانوا يرغبون في تلك الكتب لم يستطيعوا ذلك لأجل اللغة اليونانية فكتب عبد الرحمن رسالة إلى القيصر واستدعى عالمًا نصرانيًا كان ماهرًا في اليونانية واللاطينية فوصل هذا النصراني إلى البلاط في 340هـ وجعل أطباء الإسلام أمثال محمد الشجار وابن جلجل والبسياسي وأبي عثمان الخزاز ومحمد بن سعيد وعبد الرحمن بن إسحاق وأبي عبد الله الصقلبي يتعلّمون عليه هذا الكتاب بكل شوق ورغبة ومن ثم بحثوا عن تلك الأدوية المجهولة في القرطبة فقاموا بإصلاح أسمائها وابن جلجل الذي كان أبرز هؤلاء الأطباء قام بشرح مفصّل لهذا الكتاب وبحلّ كافة معضلاته كما قام بتأليف كتاب آخر لم يحوِ سوى تفصيل الأدوية التي لم تذكر في هذا الكتاب.

وقد ناقش علماء أوربا كثيرًا في صحة وخطأ هذه الترجمات وبما أننا المسلمين كنّا محرومين عن اليونانية وأخواتها فكنّا عيالًا على هؤلاء العلماء الأوربيين فيقول السيد غبن: قد قام ناوت بمناقشة جيّدة عن جودة هذه الترجمات وعضّده كليري بكل إخلاص وكتب السيد لويس في "History of Philosophy" (تاريخ الفلسفة) أن مونك يقول إن بعض هذه الترجمات تمّت بجودة وروعة ومونك بروفيسور فرنساوي شهير قام بتأليف كتاب بسيط عن فلسفة

المسلمين واليهود والذي درسته مرارًا وتكرارًا يقول: الكتّاب الذين اعترضوا على ترجمات المسلمين بصورة ظالمة سبب ضلالهم يرجع إلى عدم معرفتهم وعثورهم على الترجمات العربية الأصلية بل هم قرأوا ترجمات تلك الترجمات التي تمت من العربية إلى اللاطينية.

ولا يسعنا أن نحكم على صحة هذه الترجمات أو خطأها من عندنا ولذا فقد اتبعنا فيه علماء أوربا ولكن لا يخفى على أحد أن المسلمين قد حرّروا الترجمة عن اللغة المصدر. انظر إلى الإنجليزية وسعة نطاقها ولكنها تحتاج إلى اليونانية في مصطلحاتها العلمية ولو أن العلماء يأوّلون أن وجود المصطلحات المشتركة لا محيص منها في أوربا كلها، الأمر الذي لا يمكن بدون هذه الوحدة وعلى كل حال فالترجمات العربية براء من هذا الاسترقاق فتوجد مصطلحات لا تحصى في المنطق والفلسفة والهيئة والهندسة والطب إلا أنها يقابلها كلمات ومصطلحات عربية منحوتة تبدو بها هذه العلوم ذات أصل عربي.

وبلادنا لا تعرف اللغة اليونانية ولكن المصطلحات الفارسية التي كانت متواجدة قبل الإسلام والتي جاء ذكرها في القوانين والوثائق ننقل هنا في مقابلتها مصطلحات عربية توحي إلى جودة ترجمة هذه المصطلحات:

البهلوية	العربية	البهلوية	العربية
كسي	تشخص	زنجير	تسلسل
نوشده	حادث	آميغ	حقيقة
فروزه	صفة	جداشناس	فصل
پرتوي	إشراقي	رهبر	دليل
رهبري	مشائي	همادى	كلي
برين فرهنگ	إلهيات	پاژتازي	جزوي

مايه	هيولى	أوچيز	هويت
پيكر	صورت	چار آميزه	أخلاط أربعة
بايسته هستي	واجب الوجود	جنبش شمپوري	حركة قسري
شايسته هستي	ممكن الوجود	بازگير	اعتراض
نخستين أنداز خرد	بالبداهة	كنور	علّة
نابائ	محال	اشكيوه	مركّب
چرخه	دور	كاموس	بسيط

فلا توجد الكلمات اليونانية واللاطينية في الترجمات العربية إلا قليلًا نادرًا مثل المصطلحات الطبية ككيموس وكيلوس ومماليخوليا وترياق ونقرس وقولنج وغيرها ولكنها ليست إلى كذكرى أن هذه العلوم يونانيّ أصلها.

علوم وفنون الأجانب التي انتقلت إلى العرب عن طريق الترجمة

وبعدما قدّمناه من التفصيل نودّ أن نتحدّث عن كل لغة على حدة وبما أن المسلمين قد اعتنوا بعلوم اليونان أكثر من غيرها فنبدأ بها ثم نأخذ الفارسية ثم السريانية ثم القبطية ثم السنسكريتية.

اليونان

- **الفلسفة:** بدأت الفلسفة اليونانية على يدي ثيلز (Thales) الذي يسمّيه العرب "طاليس". ولد هذا الحكيم قبل عيسى بستمائة وعشرين عامًا، تعلمّ في مصر حيث عثر على هذا الأصل "كل شيء ولد بالماء". تسمّى فلسفته بالفلسفة الأيونية ثم تفرّع منها العديد من فروع الفلسفة وبرز كبار الحكماء. استمرّت هذه السلسلة للفلسفة اليونانية حتى 522م حينما أغلقت مدرسة أثينا بأمر من قيصر الروم جستينوس. يمكن لنا أن نقسم هذه الفترة المديدة في قسمين؛ القديم والجديد فالعصر القديم

ينتهي على أفلاطون ويبتدئ العصر الجديد من أرسطو. وسبعة حكماء كبار قدامى يعتبرون أعمدة الفلسفة والحكمة هم طاليس (Thales) وإنكساغورس (Anoxa Goras) وإنكسيماس (Anaxemenes) وابيندقلس وفيثاغورث (Pythagoras) وسقراط (Socrates) وأفلاطون (Platon).

لم تكن الكتابة متروّجة حتى عصر فيثاغورث وعلى هذا فالكتب التي تم تأليفها بالإنجليزية بعنوان "History of Philosophy" (تاريخ الفلسفة) لا نجد بها كثيرًا عن أسماء مؤلفات هذه الحكماء إلا أن أصولهم الفلسفية وقضاياها تمت صيانتها فتعلّمها المسلمون خير تعلّم فقد فصّل العلامة الشهرستاني القول عن أصول ومباحث طاليس وإنكساغورس وإنكسيماس وأبيندقلس ولعل مؤلفات أوربا لا تمتلك تفصيلًا أكثر مما وفّره الشهرستاني عن هذه الأصول والقضايا.

نالت فلسفة أبيندقلس قبولًا عامًا بين المسلمين فترجمت مؤلفاته إلى العربية فكان محمد بن عبد الله الذي كان من أهالي القرطبة يرغب في مؤلفاته إلى حد كان يصاحبها في كل وقت، وأبو الهذيل العلّاف الذي كان أكبر علماء المسلمين في علم الكلام ومن أساتذة الخليفة مأمون الرشيد كان يتبع أفكار هذا الحكيم في صفات البارئ تعالى وأبيندقلس هو أوّل حكيم قال بأربعة عناصر؛ الفكرة التي تسيطر على أذهان المسلمين حتى الآن.

وفيثاغورث الذي ولد قبل عيسى بخمسمائة وثمانين عامًا قد طوّر الفلسفة تطويرًا حتى سمّي هذا العلم بهذا الاسم في عصره. ترجمت مؤلفاته مما وجدها المسلمون فما وجد منها في عصر العلامة ابن النديم (أي وسط القرن الرابع الميلادي) هي كما يلي:

رسالة في السياسة العقلية ورسالة إلى متمرد الصقلية ورسالة أبي سيخانس في استخراج المعاني.

وأضاف ابن أبي أصيبعة إلى هذا الفهرس ما يلي من رسائله:

كتاب أرثماطيقي وكتاب الألواح وكتاب في النوم واليقظة وكتاب في كيفية النفس والجسد والرسالة الذهبية.

وقد ترجمت شروح هذه الكتب التي قام إيلخس بكتابتها.

وسقراط الذي توفّي قبل عيسى بأربعمائة سنة يعتبر أبا الفلسفة ولو أنه لم يقم بتأليف كتب مستقلة لأنه كان يخالف الكتابة والتأليف ولكنما قام بإلقائه من الخطب حين تعليم تلامذته قد حفظوا معظمها وقاموا بترتيبها في صورة رسائل وعزوها إليه. فما ضبطه أرخانوس من أسرار الفلسفة في صورة الألغاز نقلها الشهرستاني بكلماته في كتابه وكذا ما كتبه إلى أحبّته وأعزته من الكتب وما كان يحويه من رأي عن السياسة قد ذكرت في مؤلفاته ومن ثم ترجمت إلى اللغة العربية.

وقد أقام أفلاطون الذي توفّي قبل عيسى بثلاثمائة وسبعة وأربعين عامًا مدرسة جديدة للفلسفة. إنه تعلّم على سقراط لمدة خمسة أعوام فلما توفي سقراط ارتحل إلى مصر واستفاد من تلامذة فيثاغورث ثم رجع إلى أثينا وأقام دارًا للعلوم وجعل يلقي محاضرات في الفلسفة. له مؤلفات عديدة وكان أسلوبه أنه يحكي القضايا بألسنة رجال مزعومين وكان يعنون الكتب على أسمائهم وما تمت ترجمته من كتب أفلاطون إلى العربية يمكن لنا معرفتها بالجدول التالي:

عنوان الكتاب	العلم	المترجم/المفسّر
كتاب السياسة	السياسة	حنين بن إسحاق
كتاب النواميس	القانون	حنين ويحيى بن عدي
كتاب سوفطس		إسحاق
كتاب طياوس	ما بعد الطبيعة	يحيى بن البطريق وحنين بن إسحاق
أصول الهندسة	أصول الهندسة	قسطا بن لوقا

وبجانب هذه الكتب فقد ذكر ابن أبي أصيبعة أسماء لرسائله الأخرى التي يبلغ عددها 26 رسالة.

ولنلاحظ هنا أن أفلاطون كان يبيّن المفاهيم بأسلوب تعقيدي عمدًا ولذا فقد أخطأ الحكماء اليونانيون في فهمها ولكن حكماء الإسلام لاسيما الفارابي قد شرحها بإحسان وجودة.

وعلاوة على هؤلاء الحكماء السبعة مضى حكماء وفلاسفة قد بلغوا درجة المعترف بهم في الفلسفة مثل أرستيب المولود قبل عيسى بـ235 سنة الذي كان تلميذًا لسقراط وكانت فلسفته منحصرة في اللذة ورغدة العيش وهرقلس (Heracles) المولود قبل عيسى بـ500 سنة الذي كان يعيش في الجبال وديمقراطيس (Democrites) الذي كان يقول بأجزاء لا تتجزى وكستوفانس (Christophanes) المولود قبل عيسى بـ617 سنة ولكن هؤلاء الحكماء لم يخلفوا مؤلفات مستقلة سوى أصولهم وقضاياهم التي حفظها معاصروهم أو تلامذتهم ومن ثم ترجمت إلى العربية وقد ذكر فلسفات هؤلاء الحكماء وآراءهم بالتفصيل الشهرستاني وجمال الدين القفطي والقاضي صاعد الأندلسي وأعتقد أن مؤلفات أوربا لا تحوي أكثر من هذه.

ويبتدئ عصر الحكماء المتأخرين من عصر أرسطو المولود قبل عيسى بـ384 سنة. إنه يعرف بإمام الفلسفة والواقع أنه كان يستحق أن يعرف بهذا اللقب وقد استهزأت أوربا أن المسلمين لم يتعرفوا سوى فلسفة أرسطو ولم يزالوا يردّدون ما تلفظه هو ولو أن هذا الاعتراض دليل على ضيق خاطر أوربا فإن المسلمين قد حووا أفكار الحكماء اليونانيين الكبار الفلسفية غير أرسطو وما خلفوه من التراث الفلسفي لن يمكن لأوربا أن يوفّر أكثر من ذلك إلا أننا لا ننكر بأن المسلمين قد وجّهوا عناية بتراث أرسطو أكثر مما وجّهوها إلى تراث غيره من الحكماء اليونانيين ولها أسباب أولها فقدان طريقة منتظمة للتأليف والكتابة قبل أرسطو فما أمكن للعلماء جمع وترتيب أفكار وأخيلة الحكماء القدامى بأسلوب حسن فلما جاء أفلاطون وجّه عناية

إلى التأليف ولكنه كان يبيّن المعاني بأسلوب تعقيدي للغاية وكان يعتبر هذا العمل منه لازمًا عليه فلما نشرت بعض رسائل أرسطو وهو حيّ يرزق كتب إلى أرسطو بأسلوب ملؤه سخط وغضب وقال فيه إنك تكشف عن الأسرار ولعل هذا هو السبب وراء اختلاف بعض قضايا أبيكيورس (Epicures) وديوجينس (Diogenes) عما للإسلام إلا أن فلسفة أرسطو كانت توافق والإسلام فقد كان أرسطو يقول بتوحيد الإله وصفات البارئ والثواب والعقاب والحشر والنشر.

وعلى كل حال فلو كان هذا حسنًا أو سيّئًا لا مجال لإنكار أن المسلمين قد بذلوا أقصى جهودهم في البحث عن كافة رسائل أرسطو وقنيتها وترجمتها العربية فننقل فيما يلي ثبتًا تفصيليًا لمؤلفاته:

عنوان الكتاب	المحتويات	المترجم	التفصيل
قاطيغورس (Catogory)	مقولات عشر؛ كم وكيف وغيرهما	حنين بن إسحاق	شرحها ولخّصها الفارابي ومتي وابن المقفع وابن بهريز والكندي وإسحاق وأحمد بن طيب والرازي.
باري أرينايس	ذكر المقولات المركّبة	حنين وإسحاق	ترجمها حنين إلى السريانية وإسحاق إلى العربية. شرحها متي والفارابي ولخّصها إسحاق وابن المقفع والكندي وابن بهريز والرازي

			وأحمد بن طيب.
أنالوطيقا الأوّل (Analytic)	تحليل القياسات	تيودورس	ترجم حنين بعض أجزائها إلى السريانية وإسحاق إلى العربية. شرحها الكندي ومتي.
أنالوطيقا الثاني	البرهان	إسحاق وغيره	ترجم حنين بعض أجزائها إلى السريانية بينما ترجمها متي إلى العربية وشرحها متي والكندي والفارابي.
طوليقا (Topic)	البحث والجدل	يحيى بن عدي	ترجمها إلى السريانية إسحاق بينما ترجمها إلى العربية يحيى بن عدي. ترجم سبع مقالاتها الدمشقي وترجم ثماني مقالاتها إبراهيم بن عبد الله. شرحها يحيى بن عدي في ألف ورقة كما شرحها الفارابي ومتي.
سوفسطيقا (Sophristiq)	المغالطة	ابن ناعم	ترجمها متي وابن ناعم إلى السريانية

			بينما ترجمها يحيى والقويري وإبراهيم إلى العربية.
ريطوريقا (Rhytoric)	الفصاحة والبلاغة أو الخطابيات	إسحاق وإبراهيم بن عبد الله	شرحها الفارابي.
بوطيقا (Poetic)	الشعر	متي ويحيى بن عدي	ترجمها متي من السريانية إلى العربية.

هذه الكتب الثمانية في المنطق لأن أرسطو قسم المنطق في ثمانية أجزاء. نشرت قاطيغورياس من أوربا والآن أطالع نسخًا مخطوطة لباري أرميناس وأنالوطيقا الأول والثاني مع شروح ابن رشد. فيما يلي مؤلفات أخرى لأرسطو:

عنوان الكتاب	المحتويات	المترجم	التفصيل
سمع الكيان	العلوم الطبيعية؛ الهيولى والصورة والمكان وزمن الحركة	حنين وقسطا بن لوقا وغيره	هذا الكتاب يحتوي على ثماني مقالات
كتاب السماء والعام	العناصر الأربعة والفلك	ابن البطريق ومتي	شرحها أبو زيد البلخي وجعفر الخازن وانتقدها أبو هاشم
كتاب الكون والفساد	انقلابات العناصر	حنين وإسحاق	ترجمها حنين إلى السريانية وإسحاق والدمشقي إلى العربية

			كما ترجم قسطا المقالة الأولى
الآثار العلوية	العنصريات		قد رأيت ما قام به ابن رشد من إصلاح ترجمتها
كتاب النفس	حقيقة النفس	حنين وغيره	ترجمها حنين إلى السريانية بينما قام إسحاق بترجمتها: ناقصة وتامة
كتاب الحس والمحسوس	أسباب وعلل الحسّ والمحسوس		قد رأيت ما قام به ابن رشد من تلخيصها
كتاب الحيوان	الحيوان	ابن البطريق	تسع مقالات. ترجمت كذلك إلى السريانية
كتاب النبات	النبات	إسحاق بن حنين	أصلح ترجمتها ثابت بن قرة. رأيتها.
أثولوجيا	الإلهيات	الكندي	فسّرها فرفورس المصري. طبعت من أوربا
كتاب الحروف	ترتيب الأبجدية اليونانية	يحيى بن عدي	وجدت نسختها من الألف إلى الميم والواو.

			ترجمها يحيى بن عدي
كتاب الأخلاق		إسحاق بن حنين	فسّر مقالتها الثانية عشر فرفورس فترجمها إسحاق بن حنين
كتاب المرأة		الحجاج بن مطر	

وبجانب هذه الكتب له مؤلفات ترجمت إلى العربية فما وجدت منها حتى القرن السابع ورآها العلامة ابن أبي أصيبعة هي كما يلي:

كتاب الفراسة وكتاب السياسة المدنية وكتاب السياسة العلمية ومسائل في الشراب وكتاب في التوحيد وكتاب الشباب والهرم وكتاب الصحة والسقم وكتاب في الأعداء وكتاب في الباه ورسائله إلى ابنته ووصيته إلى نيقاتر وكتاب الحركة وكتاب فضل النفس وكتاب في العظم الذي لا يتجزى وكتاب النقل والرسالة الذهبية ورسالة إلى الإسكندر في تدبير الملك وكتاب الكنايات وكتاب في علل النجوم وكتاب الأنوار ورسالة في اليقظة وكتاب الأحجار والسبب في خلق الأجرام السماوية وكتاب في الروحانيات ورسالة في طبائع العالم وكتاب الاصطماخيس وكتاب الحيل وكتاب ما بعد الطبيعة وكتاب نعت الحيوانات الغير ناطقة وكتاب إيضاح الخير المحض وكتاب الملاطيس وكتاب في نغث الدم وكتاب المعادن وكتاب أسرار النجوم وكتاب الغالب والمغلوب.

وانتشر التأليف بعد أرسطو فمن برز من الحكماء بعده كان معظمهم أرباب مؤلفات وأصحاب كتب ولو أن فلسفة أرسطو لم تكن مختلفة عن الفلسفة الأفلاطونية إلا أن أسلوبي الحكيمين الكتابيين كان يختلف بعضهما عن البعض إلى حدّ ظنهما الناس مختلفين وعلى هذا فقد قامت مدرستان مختلفتان للفلسفة وأما فلسفة

أرسطو فقد اتسع نطاقها كثيرًا فبرز حكماء كبار من أتباعها أشهرهم ثاؤفرسطس (Theophratus) والإسكندر الأفردوسي (Alexender Aphrodiius).

كان ثاؤفرسطس من أبرز تلامذة أرسطو قبل عيسى بـ310 وعيّنه أرسطو خلفًا له على مدرسته، كان يحضر جلسة دروسه حكماء اليونان الكبار وهو كان يقول بقدم ذاته تعالى وصفاته وهو كان يؤمن بكون الكواكب أجسامًا روحية وكان يعتقد أنها تدير العالم وله مؤلفات عديدة في الفلسفة بما فيها:

1. كتاب النفس، 2. كتاب الآثار العلوية، 3. كتاب الأدب، 4. كتاب الحسّ والمحسوس، 5. كتاب ما بعد الطبيعة، 6. كتاب النبات.

قد ترجمت كافة هذه الكتب إلى العربية كما ترجم الكتب الثلاثة الأخيرة إبراهيم بن بكس ويحيى بن عدي.

ولد الإسكندر الأفردوسي الدمشقي في 129م وأكثر شروحَ مؤلفات أرسطو وهو كان يعتبر أكبر عماد لفلسفة أرسطو كما أوجد بعض الأصول فهو أوّل من استدلّ على كون الله عالم الكل والجزء وهو الذي بيّن القضية، ضد أرسطو، أن النفس لا تدرك ولا تحس بعدما تفارق الجسد. قد ترجمت شروحه ومؤلفاته كلها إلى العربية فسيدلكم عليها ما يأتي من الجدول:

ترجمات الشروح

عنوان الكتاب	المترجم	التفصيل
شرح قاطيغورياس	أبو زكريا	هذا الشرح في 600 صفحة.
شرح أنالوطيقا		كتب المؤلف شرحين لها أحدهما أحفل وأضخم.

شرح طوبيقا		شرحت خمس مقالات من بين ثماني مقالات
شرح سماع طبعي	أبو روح الصابي وحنين وقسطا والدمشقي	ترجم هؤلاء المترجمون مختلف أجزاء الكتاب
شرح كتاب السماء والعالم		شرحت مقالة أولى فحسب
شرح كتاب الكون والفساد	متي وقسطا	
شرح الآثار العلوية		ترجم هذا الشرح أولًا إلى العربية ثم ترجمها يحيى بن عدي إلى السريانية
شرح كتاب الحروف		

ومما ترجم إلى العربية من مؤلفات الإسكندر الأفردوسي ما يلي:

كتاب النفس، وكتاب الرد على جالينوس في التمكن، وكتاب الرد على جالينوس في الزمان، وكتاب الأبصار، وكتاب أصول العامة، وكتاب عكس المقدمات، وكتاب مبادئ الكل، وكتاب في أن الموجود ليس بجنس للمقولات العشر، وكتاب العناية، وكتاب الفرق بين الهيولى والجنس، وكتاب الرد على من قال إنه لا يكون شيء إلا من شيء، وكتاب في أن الأبصار لا يكون إلا بشعاعات تبث من العين، وكتاب اللون، وكتاب الفصل، وكتاب الماليخوليا.

وقد كان شرّاح ومفسّرون أخر لفلسفة أرسطو ترجمت مؤلفاتهم إلى العربية مثل نيقولاؤس وأميقدروس.

ولنيقولاؤس (Niqolaus) مؤلفات مستقلة بجانب الشروح فمما ترجم منها إلى العربية كتاب في فلسفة أرسطو في النفس وكتاب النبات وكتاب الرد على جاعل الفعل والمفعولات شيئًا واحدًا وكتاب اختصار فلسفة أرسطو.

ولو أن فلسفة أرسطو قد سيطرت على البلاد كلها ولم يبق من أتباع الحكماء القدامى إلا قليل نادر ولكنهم لم ينمح وجودهم من صفحات الدهر ففي 80م طوّر بلوتارك (Plutarce) الذي كان حيًّا في 80م فلسفة سقراط وأسّس فلسفة الأخلاق. نالت مؤلفاته القبول العام فهو اعتبر مجدّدًا للفلسفة فقد كتب المؤرخون الإنكليز أن شيكسبير قد استعان من بلوتارك في مسرحياته حيث صوّر ظروف القوم الخلقية ولذا فتلك الأجزاء مؤثرة ومفيدة للغاية وعلى كل حال فقد كرّم المسلمون فلسفة بلوتارك ولو أنهم كانوا مولعين بفلسفة أرسطو وترجموا معظم مؤلفاته ففي كتاب نقل بلوتارك آراء كافة الحكماء في الطبيعة فترجمه قسطا بن لوقا وله مؤلفات أخرى غير هذا مثل كتاب إلى موريباليا وكتاب الغضب وكتاب الرياضة وكتاب النفس. كلها ترجمت إلى العربية والسريانية.

كانت هذه القسمة طبقًا للعصر ولكن الفلسفة قسّمت إلى سبع مدارس نظرًا لأصول الفلسفة وأسلوب التعليم والأخلاق والعادات وهي كما يلي:

1. الفيثاغورثية	قد مضى ذكرها.
2. القورينتية	أسّسها ارسيفورس وبما أنه كان من أهالي قورينا فقد عزيت هذه الفرقة إلى تلك القرية.
3. الرواقية	أسّسها زينون (Zeno) المولود قبل عيسى بـ240 سنة وبما أنه كان يدرّس جالسًا تحت الرواق فقد سمّيت الفرقة بهذا الاسم.
4. الكلابية	أسّسها إينستن الذي كان يحقّر كافة البشر لاسيما الأغنياء

	والحكّام فقد سمّوه كلبًا وعلى هذا فقد سمّيت هذه الفرقة بـ"الكلابية". أبرز أتباع هذه الفرقة ديو جانس الكلبي (Diogenes) الذي نجد معظم أحواله وأقواله وأعماله في الكتب العربية. ولد الكلبي قبل عيسى بـ413.
5. المانوية	أسّسها فورن وبما أنه كان يمنع الناس عن التعلّم فسمّيت الفرقة باسمه.
6. اللذتية	أسّسها أبيكوريس المولود قبل عيسى بـ336 والذي كان يقول بعدم مجيء الحشر والنشر فتمتّعوا من العيش قدرما أمكن لكم.
7. المشائية	أسّسها أفلاطون وأرسطو وبما أنهما كانا يمشيان حين التعليم فسمّيت الفرقة بهذا الاسم.

لم يقم بعض هؤلاء الحكماء بالتأليف والكتابة فكانوا يعلّمون شفويًا فنجد أصولهم وأقوالهم في مؤلفات غيرهم وأما الحكماء الذين قاموا بالتأليف فقد ترجمت مؤلفاتهم إلى العربية ومن تلفظوا مجرد الآراء والأقوال حفظها التاريخ كما هي فقد جمع العلامة الشهرستاني أقوال وقضايا ديوجانس وأبيكورس وزينون في كتابه ولو أنما يخالف وجهة الإسلام من أقوالهم وآرائهم لم يتبعوها إلا أنها تعكس على كتابات بعض حكماء الإسلام مثل رباعيات عمر خيّام التي يملأها أفكار أبيكورس ولكنه بما أن تلك الأفكار قد تلوّنت بلون الشعر فقد جانبها تهمة الإلحاد الزندقة.

كان زينون يقول بوحدة الوجود؛ الفكرة التي انتشرت فيما بين المسلمين انتشارًا قد بني عليها مذهب شهير من المسلمين.

قد نالت فلسفة اليونان قبولًا انتشرت في مدارس مصر حيث درس فيه حكماء اليونان في زمن من الأزمان فقد كانت الفلسفة اليونانية يتمّ تدريسها في كافة مدارس الإسكندرية. تروّج فيها تقليد حكمائها لمدة ثم برز فيها حكماء وأساتذة

أسّسوا مدارس خاصة للفلسفة فأسّس أمونيس (Ammonius) الذي كان حيًّا في 220م، أسّس طريقة جديدة تسمّت الفلسفة الأفلاطونية الجديدة (New-Platonism). قد أضاف هذا الحكيم أصولًا خاصة إلى فلسفة أفلاطون فاتبعها الكثير من الناس وكذا كتب شروحًا للعديد من مؤلفات أرسطو مثل شرح قاطيغورياس وشرح طوبيقا وغيرهما فترجمت هذه الشروح إلى العربية.

وكذا قام أمونيوس بتأليف كتب مستقلة ترجمت إلى العربية مثل شرح مذهب أرسطاليس في الصانع وكتاب في أغراض أرسطاليس وكتاب حجة أرسطاليس في التوحيد.

والفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي وجدت في الإسكندرية احتوت على أربعة أصول تالية:

1. في الله ثلاثة أقانيم؛ الوحدة والفهم والقوة
2. فالنفس تحصل على الوحدة ومن هنا تبلغ درجة الألوهية
3. وتصوّرات الحياة الحاضرة أوهام وأخيلة
4. المادة قابلة للتحقير التام

ولد فرفوريوس (Porpgyrius) في 333م وحصل على فن البلاغة في أثينا. إنه كان مخالفًا للنصرانية وألّف كتبًا عديدة في الرد عليها. شرح العديد من كتب أرسطو وهو الذي رتّب "كليات خمس". قد بذل المسلمون أقصى جهودهم في توفير مؤلفاته وترجمتها إلى العربية. تفصيل هذه الجهود كما يلي:

عنوان الكتاب	المحتويات	المترجم
إيساغوجي	كليات خمس	
مدخل إلى القياسات		أبو عثمان الدمشقي
كتاب العقل والمعقول		
كتابان لأنابو	كان أنابو تلميذًا	

	لفرفوريوس	
كتاب الردّ على بيجوس	في بيان العقل والمعقول	
الاسطقسات	ذكر العناصر	
شرح كتاب باري أرميناس لأرسطو		
شرح كتاب سماع طبعي لأرسطو		بسيل
شرح كتاب أخلاق لأرسطو		إسحاق بن حنين. هذا الكتاب في اثنتي عشرة مقالة.

ألّف فرفوريوس كتابًا بسيطًا حافلًا بتراجم الحكماء. إنه كذلك ترجم إلى العربية ومعظم بداية "طبقات الأطباء" مأخوذ منه وما ألّفه حكماء الإسلام من الكتب والرسائل عن تراجم حكماء اليونان معظمها مأخوذ منه.

والحكيم الآخر الشهير في هذه الفلسفة كان براقلس الذي ولد في 412م. إنه كان ماهرًا في الفلسفة والرياضة. إنه كذلك كان معارضًا للنصرانية. معظم مؤلفاته ترجمت إلى العربية. تفصيلها كما يلي:

عنوان الكتاب	المحتويات
كتاب حدود أوائل الطبيعيات	
ثماني عشرة مسائل	ذكر ثماني عشرة قضية
شرح قول فلاطون في النفس	ذكر ثلاث مقالات

أثولوجيا	الإلهيات
تفسير وصايا فيثاغورث	هذا شرح وصايا فيثاغورث التي كتبت بماء الذهب في 200 صفحة
الجواهر العالية	
ديادوخس	هذا اسم يوناني وهو في عشر قضايا.
الخير الأوّل	
المسائل العشر المعضلات	في بيان عشر قضايا معضلة
الجزء الذي لا يتجزى	في بيان الجزء الذي لا يتجزأ

والحكيم الآخر الشهير في هذه الطبقة ثامسطيوس (Themisteas). إنه كان حيًا في 355م. هذا أيضًا كان ينكر النصرانية ولعل هذا هو السبب في تعيينه سكرتيرًا لملك الروم ليوليانس الذي كان عدوًا للنصرانية. قام بشرح مؤلفات أرسطو مثل شرح كتاب قاطيغورياس وشرح أنالوطيقا وشرح أنالوطيقا الثاني وتفسير كتاب طوبيقا وتفسير سماع طبعي وتفسير كتاب السماء والعالم وتفسير كتاب الكون والفساد وتفسير كتاب النفس وتفسير كتاب الحروف وهذه كلها ترجمت إلى العربية. ذكر ابن النديم تفصيلًا لهذه الكتب ومترجميها.

وقد ألفّ ثامسطيوس كتبًا أصلية وهي بدورها ترجمت إلى العربية ومنها كتاب في النفس ورسالتان كتبهما إلى ليوليانس.

ويحيى النحوي (John the Grammarian) كان خاتم حكماء الإسكندرية والذي كان حيًا حتى ظهور الإسلام وأعلى قدره عمرو بن العاص. كان تلميذًا لبرقلس من واسطة وتشرّف بلقائه. كان يحيى راغبًا في الطب وسنذكر مؤلفاته عن هذا الميدان إلا أنه ألّف كتبًا في الفلسفة ولذا فإنه شرح مؤلفات أرسطو من مثل كتاب

قاطيغورياس وأنالوطيقا الأول والثاني وطوبيقا وسماع الطبعي والكون والفساد وله مؤلفات كتبها بما فيها كتاب في الردّ على برقلس في ثماني عشرة مقالة وله كتاب في ست مقالات في الرد على أرسطو وله مؤلفات غير هذين وفّر تفصيلها ابن النديم وابن أبي أصيبعة. تمت ترجمة هذه الكتب كلها إلى العربية وتوجد بعضها حتى الآن.

- **الهيئة:** أوجد هذا الفن ثيلس (ثاليس الملطي) الذي كان قبل عيسى بـ660 سنة. إنه اعتبر الأرض مركزًا للكون وهو أوّل من وضع الزيج وتنبأ عن الخسوف ثم جاء فيثاغورث وأفلاطون اللذان طوّرا هذا الفن. فيثاغورث الذي كان قبل عيسى بـ536 سنة اعتبر الشمس مركزًا بدلًا من الأرض، ولو أن بحوث هؤلاء الحكماء وقضاياهم مذكورة بالتفصيل في كتب المسلمين ولكننا لا نعثر على كتاب مستقل لهم بهذا الفن تمّت ترجمته إلى العربية إلا أن الحكماء الذين طوّروا هذا الفن بعد هذا العصر نجد ترجمات كتبهم بالعربية، وأقدمهم وأبرزهم أرسترخوس الذي كان عديلًا لأرشميدس.

كان أرسترخوس يوناني الأصل وكان قبل عيسى بـ270 سنة. كان يقول بأن الأرض تدور حول الشمس فمن كتبه التي نجد ترجماتها "جرم الشمس والقمر". ذكر فيه جسامة الشمس والقمر وحجمهما والشقة بينهما وهذا من العجب أن أوربا لم تظفر بكتبه سوى هذا بعد بحث طويل فنشر الكتاب في 1688م بينما نشرت ترجمته الفرنساوية في 1810م.

وفي هذا العصر برز حكيم آخر يسمّى أبرخس (Hipparchus) الذي كان قبل عيسى بـ140 سنة.

قد أضاف أبرخس أشياء كثيرة إلى هذا الفن وهو أوّل من استخدم الجبر والمقابلة في علم الهيئة. ترجمت مؤلفاته إلى العربية ولكن من العجب أن كتبه التي ذكرها ابن النديم هي تتعلق بالجبر والمقابلة ولم يذكر كتابًا عن الهيئة.

وبطليموس أوّل من وضع الاصطرلاب وأعدّ آلات النجوم وفي زمنه بني المرصد بآلات وأسباب كبرى وتم البحث عن الأجرام الفلكية. اعتنى المسلمون بالهيئة كثيرًا فترجم كتاب المجسطي بكل اهتمام وجهد بالغ فأول من اهتمّ بترجمته هو يحيى بن خالد

البرمكي فقام العديد من المترجمين بترجمته وتفسيره إلا أن كلها كانت غير واضحة ولا بيّنة فأمر سلما وأبا حسان مسئولي بيت الحكمة بجمع أبرز المترجمين وترجمته فتمّت الترجمة بكل جهد مضنٍ فترجمات هذا الكتاب التي نالت القبول هي ثلاث؛ إحداها للحجاج بن مطر وأخراها لإسحاق والتي صحّحها ثابت وثالثتها لثابت نفسه وبما أن مأمون الرشيد كان يرغب في هذا الكتاب فأمر حنين بن إسحاق بترجمته وكذا لخّصه الحجاج بن يوسف وثابت بن قرة مزيلًا عنه الزوائد وكذا أعدّ البيروني موجزًا له كما شرحه عمرو بن الفرخان وإبراهيم بن الصلت والفضل بن حاتم وشمس الدين السمرقندي ونظام الدين النيشافوري وغيرهم.

كان نظام بطليموس متروّجًا في أوربا كلها حتى عصر كوبريتكس ولنحفظ هنا أن كتاب بطليموس هذا (المجسطي) بلغ أوربا على أيدي العرب أولًا فترجم هو من العربية إلى اللاطينية ثم تم العثور على النسخة اليونانية ومن ثم ترجم إلى الفرنساوية والتي نشرت من فرنسا في 1816م.

ألّف بطليموس كتابين في ذات الحلق وذات الصفائح من الآلات الرصدية كما ألّف كتابًا في علم النجوم يسمّى "القانون". ترجمت هذه الكتب كلها إلى العربية فقد ذكر اليعقوبي بالتفصيل أبواب وفصول هذه الكتب ولبطليموس كتب أخرى ترجمت وهي كما يلي:

كتاب المواليد، وكتاب استخراج السهام، وكتاب تحويل سني العالم، وكتاب تحويل سني المواليد، وكتاب المرض وشراب الدواء، وكتاب في سير السبعة، وكتاب في الأسرار والمحبين، وكتاب في أثر الصعود، وكتاب الخصمين أيّهما يفلح، وكتاب ذوات الذوائب، وكتاب السابع، وكتاب القرعة، وكتاب اقتصاص أحوال الكواكب، وكتاب الشمرة، وكتاب الأربعة. ألّف الكتاب الأخير باسم تلميذ له. ترجمه إبراهيم بن الصلت وأصلحه حنين وشرحه ثابت وعمرو بن الفرخان وغيرهما. يعتبر هؤلاء

الحكماء الثلاثة مؤسّسي وموجدي الهيئة ولكن المسلمين قد جمعوا مؤلفات الحكماء الآخرين كما قاموا بترجمتها وتفصيلها كما يلي:

أوطولوقس (Autolycus) كان معاصرًا لأرسطو وأستاذًا لديوجانس. له كتابان في هذا المجال وترجم كلاهما إلى العربية وهما كتاب الكرة المتحركة وكتاب الطلوع والغروب.

البقلاؤس (Hypsicles) كان حيًّا في 160م وكان يسكن في الإسكندرية. من مؤلفاته التي ترجمت كتاب الأجرام والأبعاد وكتاب الطلوع والغروب. إنه كذلك أصلح المقالة الرابعة والخامسة وبالتالي هما ترجمتا إلى العربية.

ثاون (Theon) كان من أهالي الإسكندرية. ألّف كتابين عن ذات الحلق والأصطرلاب كما ألّف كتابًا في زيج بطليموس وله كتاب في المجسطي وترجمت هذه الكتب كلها إلى العربية.

وفاليس الرومي: من مؤلفاته التي ترجمت إلى العربية ما يلي:

مدخل إلى صناعة النجوم، وكتاب المواليد، وكتاب المسائل، وكتاب الزائجة، وكتاب المسائل الكبير، وكتاب السلطان، وكتاب الأمطار، وكتاب تحويل سني العالم، وكتاب الملوك.

وتيودورس (Theodorus): من مؤلفاته التي ترجمت ما يلي:

كتاب الأكر، وكتاب المساكين، وكتاب الليل والنهار.

ببس (Pappus) كان معاصرًا لثاون الإسكندراني. إنه شرح كتاب بطليموس في تسطيح الكرة وقام ثابت بترجمته.

إيرن (Heron) كان حيًّا قبل عيسى بـ250 سنة. إنه ألّف كتابًا في الأصطرلاب. تمت ترجمته وكذا ألّف كتابًا في شكوك الأقليدس، تمت ترجمته.

أبيون (Apiom) من الحكماء المتأخرين، له مؤلّف في الأصطرلاب تمت ترجمته إلى العربية.

- **الجبر والمقابلة والحساب:** ولو أن المسلمين قد أحيوا فن الجبر والمقابلة لأنه كان قبل المسلمين من حيث لن يمكن أن نطلق عليه كلمة "الفن" ويعترف بهذا الواقع كلٌ من الأوربيين ولكن لا ننكر أن اليونانيين قد ألّفوا كتبًا في هذا الفن فترجمت هي إلى العربية.

أوّل من كتب شيئًا في اليونان هو أبرخس الذي كان أشهر الماهرين في الحساب قبل عيسى بـ140 سنة. ألّف رسائل عديدة عن حركة السيّارات، وأيام الخسوف حتى بعد ستمائة سنة، وبعد الكواكب وفهرس الأجرام الفلكية، والكتاب الذي ألّفه عن الجبر والمقابلة قام بترجمته وإصلاحها أبو الوفاء محمد بن محمد الحاسب كما كتب شرحًا له وأثبت دعاويه بالبراهين الهندسية. وترجم كتاب آخر لأبرخس يسمّى "قسمة الأعداد". طوّر هذا الفن ديوفنطس الذي جاء بعد أبرخس.

كان ديوفنطس (Diphantus) يوناني الأصل وكان يسكن بالإسكندرية. ألّف ثلاث عشرة رسالة في الجبر والمقابلة، ظهرت في مجموعة. تحوي هذه الرسائل قضايا المربّعات والمكعّبات. ترجمت هذه الرسائل إلى العربية. لم تكن أوربا تعرف اسم ديوفنطس لمدة طويلة فأوّل من أشار إليه هو يوحنا الشامي في القرن الثامن الميلادي وفي 670م نشر النص اليوناني مع الترجمة اللاطينية وفي 1625م تمت ترجمته.

والمتفق عليه عن الحساب أن المسلمين قد أخذوه عن الهندوس وعلى هذا فكانوا يكتبون الأرقام والأعداد على الطريقة الهندية ولكن المسلمين أيضًا جمعوا مؤلفات اليونان في الموضوع فأقدم مؤلف يوناني هو ما ألّفه فيثاغورث وهو يسمّى "أرثماطيقي" (Arithmetic). ترجم هذا الكتاب إلى العربية وبجانب هذا فقد ترجمت مؤلفات العلماء الآخرين مما يلي تفصيله:

نيقوماخس (Nicomachus) كان والد أرسطو وأكبر المهرة في الموسيقى فكتب مؤلّفًا في هذا الفن يسمّى "أرثماطيقي". هذا الكتاب يحتوي على مقالتين وطبع النص اليوناني في فرنسا في 1538م. تمّ نقل هذا الكتاب إلى العربية.

- **علم الآلات (Mechanics):** ولو أن هذا الفن يختص بالعصر الحديث إلا أنه قد شرع في اليونان فأوّل من أوجد أصول جرّ الثقيل والحركة هو أرشميدس (Archhmides) الذي كان قبل عيسى بـ250 سنة. إنه كذلك أوجد الساعة من الماء، التي كلما مضت ساعة سقطت فيها القروص طبقًا لعدد الساعة أو الساعات. وفي نفس الزمن أضاف

إيرن أشياء كثيرة إلى هذا الفن وسبق الآخرين في إيجاد آلة لرفع المياه. إنه قسم الآلات إلى خمسة أقسام إلا أنها في ستة هذه الأيام فأعدّ السطح المائل منها والحال أن إيرن قد ترك هذا الجزء السادس. كتب إيرن رسالة مستقلة بالجر الثقيل.

وهناك حكيم آخر كان ماهرًا في هذا الفن هو مارطس (Myrtus) الذي كان يونانيًا. إنه ألّف كتابًا في الآلات الآلية التصويت وأوجد آلة يصل صوتها حتى 60 ميلًا.

وبالجملة فالكتب التي ترجمت إلى العربية في هذا الفن كما يلي:

عنوان الكتاب	المحتويات	التفصيل
آلة ساعات الماء	ساعة الماء	أرشميدس
كتاب شيل الأثقال	في الجرّ الثقيل	إيرن
الأشياء المتحركة من ذاتها	حركة آلية للأشياء	إيرن
الآلات المصوّتة	تصويت آلي للآلات	مارطس
كتاب الدواليب	في بيان دواليب الساعة	مارطس

- **الموسيقى:** ولو أن فن الموسيقى كان معروفًا في جزيرة العرب منذ الزمن الطويل إلا أنه لم يصبح علمًا وفنًا ولعل أوّل من عرّفه كفنّ مدوّن في اليونان هو فيثاغورث وقد طوّره أقليدس وله مؤلفات في هذا الفن. ولو هذا من المتيقن أن مؤلفات هؤلاء القدامى قد ترجمت إلى العربية فقد صرّح أبو الفرج الأصبهاني في ترجمة إسحاق الموصلي أن كافة كتب الموسيقى قد نقلت إلى العربية بأمر من محمد بن الحسن بن مصعب.

ولكن لم نظفر بكتاب ومترجمه بالتعيين فأوّل كتاب وجده المسلمون، كما أعلم، هو ما ألّفه نيقوماخس الذي كان والد أرسطو. نشر هذا الكتاب بنصّه اليوناني في ليدن سنة 1616م.

والكتاب الثاني في هذا الفن هو ما ألّفه ارسطكاس (Aristoxenus) الذي كان من تلامذة أرسطو وأعمدة فن الموسيقى. قد حصر فيثاغورث هذا الفن في الذوق

فأرسطكاس هو أوّل من رتّب الإيقاعات على أصول الحساب وأسّس مدرسة بديعة مختلفة عما لفيثاغورث فكتابه الذي يختصّ بالإيقاع قد تمّت ترجمته. يوجد هذا الكتاب في ثلاثة مجلّدات وتوجد نسخه الخطية في أوربا حتى الآن. وكان لأرسطكاس مؤلفات أخرى لعلها لم تصل إلى المسلمين ومن حسن الحظ أن أوربا تعترف اليوم بأنه لم يظفر بكتاب من أرسطكاس سوى "كتاب الإيقاع".

- **الجغرافيا:** ومن أوجد هذا الفن في المدرسة اليونانية هو إيراتسيشنن الذي كان يسكن بالإسكندرية قبل عيسى بثلاثمائة سنة تقريبًا. ثم أضاف إليه أبرخس كثيرًا وتبع أبرخس أسترابون اليوناني فقام بالارتحال إلى أقصى البلاد وألّف كتابًا جيّدًا في الجغرافيا وفي العصر التالي برز مارنيوس الذي توجد خريطة ملوّنة للأرض في جغرافياه وفي النهاية جاء بطليموس الذي نال شهرة واسعة. كان بطليموس في القرن الثاني الميلادي فأرسل رحّالة في أقصى العالم وأدناه على نفقة منه عثروا على معلومات دقيقة عن البلاد والعمران والأنهار والبحور فكتب جغرافيا حافلة بعونهم توجد حتى الآن فقد ضبط فيها عرض وطول معظم البلاد.

ولو أن المسلمين قد علموا عن هذه المؤلفات كلها فنجد إشارات إليها في غير موضع من كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي إلا أن الكتب التي ترجمت هي جغرافيا مارنيوس وبطليموس.

وفي جغرافيا مارنيوس نجد كل إقليم بلون خاص به فقد كتب المسعودي أنه أروع وأجود الجغرافيات القديمة.

وجغرافيا بطليموس (Ptolomy) في ثمانية مجلّدات ومفصلّة للغاية فترجمت أولًا بأمر من يعقوب الكندي ولكنها كانت غير جيدة فقام ثابت بترجمتها وأدّى حق الموضوع وكذا ترجمت هي إلى السريانية.

- **الطب:** ابتدء الطب في اليونان على يدي أسقليبس فلقّبه اليونانيون بأبي الطب ظانين أن الطب يوحيه إليه الرب جلّ جلاله. علّمه أسقليبس أولاده بصورة شفوية

وأوصى أن لا يخرج الفن من عتبة داره فبرز في أسرته حكماء وأطبّاء من بينهم أقليدس وأفلاطون وسولن وفي الجيل السادس عشر من هذه الأسرة ولد بقراط الذي كان قبل عيسى بخمسمائة سنة وهو أوّل طبيب يوناني دوّن هذا العلم وألّف الكتب وإليه يرجع فضل نشر هذا العلم وكان من قبل محصورًا في أفراد أسرته ثم جاء جالينوس وعليه ينتهي هذا العلم.

وللطب ثمانية أعمدة عند اليونان؛ أوّلهم أسقليبس (Axlepius) وأخيرهم جالينوس ويتوسطهما غورس ومينس وبرمايندس وأفلاطن وأسقليبس الثاني وبقراط، وقد مضى أطباء غيرهم ألّفوا في هذا العلم إلا أنهم ليسوا من أعمدة هذا الفن.

فنقل المسلمون هذا التراث الطبي كله إلى اللغة العربية وبما أن بقراط وجالينوس قد بلغا بهذا الفن غايته فاعتنوا بمؤلفاتهما أكثر. ولو أن كتبًا عديدة عزيت إلى بقراط ولكن ثلاثين كتابًا منها يتيقن صنعها بقلمه فتمت ترجمة كل منها والحال أن 16 كتابًا منها اشتهرت إلى حدّ تم وضعها في المقرّرات الدراسية. وقد أحصى ابن أبي أصيبعة كتبًا أخرى غير هذه لبقراط والتي يبلغ عددها إلى 49 كتابًا ولكن المؤرخ المذكور أعلاه يقول إن البعض منها مشكوك فيها.

والمترجمون الذين وصلت إلينا تفاصيلهم من بين مؤلفات بقراط المترجمة ننقلهم كما يلي:

عنوان الكتاب	المحتويات	المترجم	التفصيل
عهد بقراط	ذكر فيه بقراط الشروط التي لا ينبغي لأحد أن يتعلّم الطب بدونها	حنين، وحبيش، وعيسى بن يحيى	فترجمه حنين إلى السريانية بينما جبيش وعيسى ترجماه إلى العربية
فصول	ملخص كافة القضايا الطبية	حنين	تم نقله لمحمد بن شاكر،

			ويحتوي على سبع مقالات
تقدمة المعرفة	بيان الأعراض	حنين وعيسى	ثلاث مقالات
الأمراض الحادة	بيان الغذاء والفصد والمسهل وما شابهها	عيسى بن يحيى	ترجمت ثلاث مقالات من بين خمس مقالاته
كتاب الكسر والجبر	ذكر كسر العظام وجبرها	حنين	أربع مقالات
أبيديميا		عيسى بن يحيى	
أخلاط		عيسى بن يحيى	ترجم بأمر من أحمد بن موسى الشاكر
قاطيطريون	ذكر أعمال اليد	حنين	ترجم بأمر من محمد بن موسى
كتاب الماء والهواء	جوّ البلاد المختلفة	حنين وحبيش	
طبيعة الإنسان	بيان تركيب البدن		

ولد جالينوس في 59م وبعدما فرغ من تعلّم الهندسة والحساب نال الطب في عمر بلغ 17 سنة وارتحل للحصول عليه إلى أثينا وقبرص وإيطاليا والإسكندرية وغيرها. إنه قام بتحقيقات عديدة عن الطب وبلغ بهذا الفن إلى حدّ لم يضف إليه عصر ما قبل الإسلام.

لم يأل المسلمون أيّ جهد في الحصول على مؤلفاته وترجمتها فقد سافروا إلى الجزيرة والشام وفلسطين ومصر للبحث عن "كتاب البرهان". ومما يسّر للمسلمين

عملية البحث عن مؤلفاته أن جالينوس قد أعدّ فهرسًا لكتبه ورسائله والذي نقل إلى العربية ولقد وقف حنين بن إسحاق حياته على ترجمة كافة مؤلفاته ففي أحد مؤلفاته ذكر أسماء 21 كتابًا ورسالة لجالينوس بإشارة إلى محتوياتها وقال إن هذه المؤلفات كلها ترجمت إلى العربية. وناقلًا قولَ حنين هذا كتب العلامة ابن أبي أصيبعة أن حنين كان قد بلغ من عمره ثمانية وأربعين عامًا وحتى تلك المدة وصل إليها هذا العدد من مؤلفاته وبما أن حنين حيّ لسبعين سنة فنتيقن أنه حصل له غير هذه من مؤلفات جالينوس ثم قال العلامة ابن أبي أصيبعة: ولقد رأيت غير هذه من مؤلفات جالينوس بالعربية مما لم يذكرها حنين في فهرسته ذلك فتناول العلامة ابن أبي أصيبعة أسمائها بالتفصيل وهي يبلغ عددها 32 كتابًا ورسالة وكذا شرح جالينوس معظم مؤلفات بقراط وهي بالفعل ترجمت إلى العربية فما ذكرناه آنفًا من مؤلفات بقراط هي شروح لجالينوس وكلها ترجمت إلى العربية وبالجملة فقد ترجم إلى العربية قدر ما تحصّل للعالم من مؤلفات جالينوس. والمؤلفات التي وجدنا عنها شيئًا مذكورًا ننقلها في الجدول التالي:

عنوان الكتاب	المحتويات	المترجم	التفصيل
كتاب الفرق	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	
الصناعة	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	
كتاب النبض	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	
شفاء الأمراض	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	

مقالات خمس	في التشريح	حنين	
أسطقسات	أربعة عناصر	حنين	
كتاب المزاج	أربعة عناصر	حنين	
القوى الطبيعية	أربعة عناصر	حنين	
العلل والأعراض	أربعة عناصر	حنين	
تعرف علل الأعضاء الباطنية	أربعة عناصر	حبيش	
كتاب النبض الكبير	أربعة عناصر	حبيش	16 مقالة
كتاب الحمّيات	أربعة عناصر	حنين	
البحران		حنين	ثلاث مقالات
أيام البحران		حنين	
تدبير الأصحاء		حبيش	ست مقالات
حيلة البرء		حبيش	14 مقالة، صحّح حنين المقالة الأولى

كانت هذه الكتب كلها من المقرّرات الدراسية في المدارس القديمة ولجالينوس كتب أخرى غير تلك وهي كما يلي:

عنوان الكتاب	المحتويات	المترجم	التفصيل

كتاب التشريح الكبير	في التشريح	حبيش	15 مقالة
اختلاف التشريح		حبيش	مقالتان
تشريح الحيوان الميّت	تشريح الحيوان الميّت	حبيش	مقالة واحدة
تشريح الحيوان الحيّ	تشريح الحيوان الحيّ	حبيش	مقالتان
علم البقراط بالتشريح	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	5 مقالات
علم أرسطو في التشريح	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	ثلاث مقالات
تشريح الرحم	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	مقالة واحدة
حركات الصدر والرئة	موضوعه واضح من عنوانه	أصطفن بن بسيل	مقالتان، أصلح حنين الترجمة
علل النفس	موضوعه واضح من عنوانه	أصطفن بن بسيل	مقالتان
كتاب الصوت	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	ترجم هذا الكتاب لمحمد بن عبد الملك، 4 مقالات

حركة العضل	موضوعه واضح من عنوانه	حنين وأصطفن	أصلح حنين الترجمة، 10 مقالات
كتاب الحاجة إلى النبض	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	مقالة واحدة
كتاب الحاجة إلى النفس	موضوعه واضح من عنوانه	أصطفن	مقالة واحدة
كتاب العادات	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	مقالة واحدة
آراء بقراط وفلاطن	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	10 مقالات
كتاب الحركات المجهولة	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
كتاب الامتلاء	موضوعه واضح من عنوانه	أصطفن	مقالة واحدة
منافع الأعضاء	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	17 مقالة
كتاب أفضل إلهيات	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	ترجم إلى السريانية والعربية كلتيهما، مقالة

			واحدة
خصب البدن		حبيش	مقالة واحدة
كتاب سوء المزاج المختلف	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
الأدوية المفردة	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	11 مقالة
كتاب الأورام	موضوعه واضح من عنوانه	إبراهيم بن الصلت	مقالة واحدة
كتاب السن	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	مقالتان
المولود تسعة أشهر	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
كتاب المرة السوداء	موضوعه واضح من عنوانه	أصطفن	مقالة واحدة
كتاب رداءة النفس	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	ثلاث مقالات
تقدمة المعرفة	موضوعه واضح من عنوانه	عيسى بن يحيى	مقالة واحدة
كتاب الفصد	موضوعه واضح من عنوانه	عيسى بن يحيى	مقالة واحدة

كتاب الذبول	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
صفات الصبي يصرع	موضوعه واضح من عنوانه	ابن الصلت	مقالة واحدة
قوى الأغذية	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	ثلاث مقالات
التدبير الملطف	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
كتاب الكيموس	موضوعه واضح من عنوانه	ثابت وشملي وحبيش	مقالة واحدة
كتاب أرسطارس	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
تدبير بقراط للأمراض الحادة	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
تركيب الأدوية	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش الأعسم	17 مقالة
الأدوية المقابلة للأدواء	موضوعه واضح من عنوانه	عيسى بن يحيى	مقالتان
كتاب الترياق	موضوعه واضح من عنوانه	يحيى بن البطريق	مقالة واحدة

كتاب إلى تراسابوس	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
الرياضة بالكرة الصغيرة	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	مقالة واحدة
الرياضة بالكرة الكبيرة	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	مقالة واحدة
في أن الطبيب الفاضل فيلسوف	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
كتب بقراط الصحيحة	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
الحث على تعليم الطب	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	مقالة واحدة
محنة الطبيب	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	مقالة واحدة
كتاب البرهان	موضوعه واضح من عنوانه	حنين	هذا هو الكتاب الذي قد سافر حنين إلى البلاد للبحث عنه
تعريف المرء عيوب نفسه	موضوعه واضح من عنوانه	توما	
كتاب الأخلاق	موضوعه واضح	حبيش	أربع مقالات

	من عنوانه		
انتفاع الأخيار بأعدائهم	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	مقالة واحدة
ما ذكره أفلاطن في طيماوس	موضوعه واضح من عنوانه	حنين وإسحاق	مقالتان
في أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن	موضوعه واضح من عنوانه	حبيش	

وبجانب هؤلاء الأطباء المشهورين فقد ترجمت مؤلفات الأطباء اليونانيين الأخر مثل أرشيجانس الذي قد سبق جالينوس زمانًا. ترجمت ثلاثة كتب له إلى العربية؛ كتاب أسقام الأرحام وطبيعة الإنسان وكتاب في النقرس.

وقد سبق جالينوس زمانُ طبيب آخر شهير وهو روفس (Rufes) ذكر العلامة ابن أبي أصيبعة بالتفصيل 43 كتابًا له وبما أن موضوع العلامة ابن أبي أصيبعة ذكر أسماء الكتب التي ترجمت إلى العربية فالمتيقن أنها نقلت إلى العربية. وعلاوة على هؤلاء نذكر فيما يلي تفاصيل مؤلفات غيرهم من الحكماء والأطباء، التي ترجمت إلى العربية:

المؤلّف	مؤلفات مترجمة
فيلغريوس (Philagrius)	كتاب من لا يحضره طبيب، ووجع النقرس، وكتاب الحصاة، وكتاب الماء الأصفر، وكتاب وجع الكبد، وكتاب قولنج، وكتاب اليرقان، وكتاب خناق الرحم، وكتاب عرق النساء، وكتاب السرطان، وكتاب صنعة ترياق الملح، وكتاب عفة الكلب، وكتاب علامات الأسقام،

	وكتاب في القوباء، وكتاب فيما يعرض للثة والأسنان
أوريباسيوس (Oribasius)	كتاب إلى أبيه، وكتاب إلى ابنه، ورسالة في التشريح، وكتاب الأدوية، وكتاب السبعين. ترجم الكتابين الأوّلين حنين بينما ترجم أصطفن كتاب الأدوية.
أوراس	كتاب العلل المهلكة
أفلاطن طبيب	كتاب الملكي
مغنس الحمصي (تلميذ بقراط)	كتاب البول
فوليس الإجانيطي	كتاب الكناش، وعلل النساء (ترجمه حنين)
أقريطون	كتاب الزينة. هذا الطبيب سبق جالينوس زمانه بينما تأخر عن بقراط.
إسكندروس	علل العين وعلاجها، وكتاب البرسام، وكتاب الحيّات والديدان التي تتولد في البطن (ترجمه ابن البطريق)، كتاب الحقن (ترجمه أصطاث)

وفي هذا الشأن يهمّ ذكر ديسقوريدس فهو حكيم ألّف كتابًا حافلًا بكل نوع من الأدوية والعقاقير بعد تجريبها. إنه كان دائمًا يهيم في الغابات والصحارى والجزائر والأماكن القصوى، وكان يضبط نفع دواء اكتشفه كما كان يأخذ صورته. يقول جالينوس إنه درس أربعة عشر كتابًا لمؤلفين مختلفين في الأدوية المفردة ولكنه لم يصل إليه كتاب لديقوريدس فالاهتمام الذي بذله المسلمون في ترجمة وتصحيح

هذا الكتاب قد ذكرناه آنفًا وقد رأيت كتاب ديقوريدس هذا. وهذا عجيب أن الأطباء المتأخرين لم يضيفوا شيئًا إلى محتويات كتاب ديقوريدس هذا.

وقد كان من بين المسلمين طبيب يسمّى ابن جلجل الأندلسي أضاف بعض الأدوية إلى محتويات هذا الكتاب بفضل تجربته وضبطها في كتاب على حدة.

وبما أن علوم اليونان قد نالت صيتًا دوليًا ذائعًا فقد قامت فروعها في كافة البلاد، والإسكندرية كانت أقدمها وأبرزها فتخرّج منها سبعة أطباء كبار مشهورين طوّروا الطب اليوناني ووسّعوا نطاقه. إنهم خصّصوا 16 كتابًا لجالينوس وشرحوها ولخّصوها.

يبدو من القرائن أن مؤلفات هؤلاء الحكماء كلهم ترجمت إلى العربية فقد كتب العلامة ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء: مما أكثرت قراءته من هذه الشروح كلها شرح جالينوس الذي يثبت فضله وبراعته.

وأخيرهم يحيى النحوي الذي قد ذكرنا ترجمته الموجزة في الفلسفة. كان له اليد الطولى في الفلسفة والطب وكان يحتل منصب الأسقف في الإسكندرية. دعاه قيصر الروم إلى القسطنطينية وبما أنه كان فقيد النظير في علم الطب فنال قبولًا في البلاط فأقام بها لمدة غير قصيرة. إنه شرح 19 كتابًا لجالينوس التي ترجمت إلى العربية فقد فصّل أسمائها ابن أبي أصيبعة ولكني أصرف عنها نظرًا للإيجاز.

وفي الشام والروم برز عدد عديد من الأطباء الذين كانوا معاصرين لأطباء الإسكندرية أمثال شمعون وأهرن ويوحنا وأنطليس وبرطلاؤس وسندهشار وكهلمان وأدراس وبونيوس البيروني وسيورخنا وفلاغوسوس وعيسى ورجيس وأطنوس وغريفوريوس وغيرهم كثير.

وبعد تسمية هؤلاء الأطباء ومؤلفاتهم كتب ابن أبي أصيبعة أن أعمال معظم هؤلاء الأطباء متواجدة في هذه الأيام وقد استفاد منها كثيرًا أبو بكر الرازي في كتابه "الحاوي".

- **الهندسة:** أوّل من أوجد هذا الفن ورتّب قضاياها البدائية والأساسية في صورة فن هو ثيلز الذي كان حيًّا قبل عيسى بـ600 سنة وهو الذي أوجد الدائرة.

ثم أضاف إليها أنكزيكورس قضايا أخرى بما فيها تربيع الدائرة ولكن المسلمين لم يعثروا على مؤلفات هؤلاء الحكماء لأنها قد فقدت قبل ظهور الإسلام فأقدم مؤلف ظفر به المسلمون في هذا المجال هو ما قام بتأليفه أقليدس الذي كان قبل عيسى بـ272 سنة ولو أنه لم يكن يوناني الأصل ولكن مؤلفاته باليونانية لأنه تعلّم في اليونان وعلى هذا فيسمّونه يونانيًا.

قد بذل المسلمون جهودًا جبّارة في الحصول على مؤلفاته ثم ترجمتها إلى العربية.

فكتابه الشهير في الهندسة المعروف باسمه ترجمه الحجاج بن يوسف بن المطر لهارون الرشيد ثم ترجمه مرة أخرى لمأمون الرشيد والترجمة الأخيرة أصح من الأولى وأوضح.

وكذا ترجمه إسحاق بن حنين وأصلحها ثابت بن قرة وفي نسخة الحجاج 468 صورة بينما نسخة ثابت أضيفت إليها عشر صور أخرى وهكذا ترجم بعض مقالاته أبو عثمان الدمشقي.

قد شرحه علماء الإسلام كثيرًا وممن يجدر بالذكر فيهم اليزيدي والجوهري والماهاني وأبو حفص الحرث الخراساني وأبو الوفاء الجوزجاني وأبو القاسم الأنطاكي وأحمد بن محمد الكراسيسي وأبو يوسف الرازي والقاضي عبد الباقي البغدادي وأبو علي الحسن بن الهيثم المصري وأبو جعفر الخازن الأهوازي وأبو داؤد سليمان بن عقبة.

وشرح القاضي عبد الباقي أبسط فإنه ذكر أمثلة الصور بالأعداد وشرح ابن الهيثم المصادرات كما اعترض عليه في كتاب على حدة ثم ردّ على تلك الاعتراضات كما شرح ثابت بن قرة العلل التي رتّب عليها أقليدس الصور.

والجدير بالذكر هنا أن أوربا قد وجدت هذا الكتاب بفضل العرب وبالعربية ذاتها فأوّل من ترجمه من العربية هو أديلرد دوباث.

ولأقليدس مؤلفات أخرى في الهندسة تمّ نقلها إلى العربية.

وبعد أقليدس برز حكيمان كبيران بلغا بالهندسة ذروة الكمال وهما أرشميدس وأبلونيوس.

ولد أرشميدس بسرقوسة قبل عيسى بـ287 سنة وأتمّ دراسة العلوم في مدرسة الإسكندرية وهو أوّل من استخدم الهندسة تجريبيًا وأوجد بها آلات وأسبابًا مفيدة للغاية ولعل ساعة الماء من اكتشافاته. ومن مؤلفاته التي ترجمت إلى العربية ما يلي:

عنوان الكتاب	التفصيل	عنوان الكتاب	التفصيل
كتاب الكرة والأستوانة	مقالتان	تربيع الدائرة	مقالة
تسبيع الدائرة	طريقة جعل سبعة أجزاء للدائرة	الدوائر المماسة	
المثلثات		الخطوط المتوازية	
المفروضات		المأخوذات في أصول الهندسة	
ساعات الماء		خواص المثلثات القائمة	
الزاوية			

وقد نشرت حاليًا مؤلفات أرشميدس بالأصل اليوناني كما ترجمها موسيو بيرار إلى الفرنساوية. وبما أن كتاب الكرة والأسطوانة أهمّ كتاب لأرشميدس فاعتنى به المسلمون شديد عناية فأصلح ثابت بن قرة الترجمة وكذا تمّ تعريب شرح أوطوقيوس لمشكلاته وهكذا كتب المحقّق الطوسي تحريرًا له فيه أربعون صورة وهكذا وجّهت العناية الشديدة إلى كتاب المأخوذات فشرحه أبو الحسن علي وأصلحها الطوسي ورتّبه أبو سهل.

وقد طوّر أبلونيوس هذا الفن تطويرًا وبفضله بلغت شهرة مدرسة الإسكندرية ذروة الكمال فبذلت جهود مضنية في الحصول على مؤلفاته لأن النسخة الكاملة لكتابه لم توجد في مكان ما فهو كان من بين الكتب التي دعاها مأمون الرشيد من الروم. الكتاب أصلًا في ثماني مقالات ولكن المسلمين وجدوا سبع مقالات ولم يظفروا بالمقالة الثامنة سوى أربع صور فترجم بلال الحمصي أربع مقالات الأولى كما ترجم الباقية ثابت بن قرة وعلى الرغم من هذا الكتاب فما ترجم إلى العربية من كتب أبلونيوس نذكرها فيما يلي:

عنوان الكتاب	التفصيل
كتاب قطع الخطوط على نسبة	
كتاب في النسبة المحدودة	أصلح ثابت بن قرة مقالته الأولى
كتاب قطع السطوح على نسبة	
كتاب الدوائر المماسة	

ثم برز مهندسان بعدهما؛ منالاؤس وأوطيقيوس وذلك لأنهما طوّرا هذا الفن فكان منالاؤس (Menlus) من أهالي الإسكندرية وكان حيًا في 100م وقد أحال إليه بطليموس في كتابه "المجسطي" ومن مؤلفاته التي ترجمت إلى العربية ما يلي:

عنوان الكتاب	التفصيل
الأشكال الكرية	
كتاب معرفة الكمية	طريقة البحث عن كمية أجسام مخلوطة
أصول الهندسة	في ثلاث مقالات، ترجمه ثابت بن قرة
كتاب المثلثات	ترجمت أجزاء منه إلى العربية

قد جاء في الموسوعة البريطانية أنما حصل عليه أوربا من مؤلفات هذا المهندس حصلت عليها بفضل اللغة العربية وإلا فأصولها كانت مفقودة.

وبجانب هؤلاء المشهورين والمهرة هناك مهندسون وحكماء ترجمت مؤلفاتهم بمن فيهم أرسطو والآخرون الذين قد مضى ذكر مؤلفاتهم وأما من بقي منهم فهم كما يلي:

كان أوطوقيوس حيًا في 507م وكان من أهالي الشام. إنه شرح المقالة الأولى لكتاب الكرة والأسطوانة لأرشميدس وله كتاب آخر في الهندسة في بيان خطين. ذكر فيه مذاهب كافة الحكماء المهندسين وأقوالهم ودلائلهم. ترجم كلا الكتابين إلى العربية ولقد قام ثابت بترجمة الكتاب الأخير وأثبت فيها جودته في هذا الفن.

وسنبيليقيوس (Senumlyous) الذي كان معاصرًا ليحيى النحوي شرح أقليدس فترجم شرحه إلى العربية.

- **العلوم والفنون الأخرى:** وبجانب العلوم المذكورة أعلاه كانت علوم وفنون خلف فيها اليونانيون مؤلفات ورسائل عديدة فقام المسلمون بترجمتها قدرما تمكّنت لهم إلا أننا لو قمنا بذكرها وتفصيلها لاحتجنا إلى صفحات طوال ضخام ولأمللنا القرّاء فنفضّل الإجمال والإيجاز في هذا الباب.

كانت اللغة اليونانية تمتلك تراثًا هائلًا للأدب والتاريخ فقد كانت اليونان تفتخر بفصاحتها وبلاغتها إلى حد أنهم كانوا يظنّون العالم كله ألكن فاليونانيون أوّل من وضع أصولًا للفصاحة والبلاغة ثم أدخل أرسطو هذا الفن في المنطق وضبطه في باب ينفرد به سمّاه "ريطوريقا". ترجم هذا الكتاب إلى العربية. وبجانب أرسطو فقد ألّف اليونانيون الآخرون كتبًا في هذا الفن ويبدو من القرائن أن معظم تراثه قد نقل إلى العربية.

وروح الأدب اليوناني كلام هومر الذي يدّعي عنه أوربا أنه لم يولد شاعر أكبر من هذا.

ترجم كلام هومر ثاؤفيلوس المنجم الشهير إلى السريانية في عصر الخليفة المهدي كما ترجمت قصص يونانية أخرى كانت بمنزلة الإنشاء وقد أحصاها العلامة ابن النديم

أمثال سمسة ودمن، ومور ويانوس، وأنطوس السياح، وديوان، ودراجيل وغيرها مما لا يحصى إلا اللهجات العربية قد غيّرت أسماء هذه الكتب إلى حدّ لم يسعنا الفوز بأسمائها اليونانية.

وقد ترجمت مؤلفات تاريخية إلى العربية بكثرة كاثرة توجد أحوال وأخبار اليونان والروم بالعربية بكثرة وانتشار لا نجدهما في ذكر أحوال وأخبار الدول الإسلامية ذواتها ويمكن تقديرهما بالنظر إلى مؤلفات المؤرخ المسعودي فقد كتب المسعودي وغيره من المؤلفين كتبًا تاريخية بالعربية أخذوها من المؤلفات اليونانية ولو اعتبرناها ترجمة عربية لها فلا نكذب مثلًا أن قيس الماروني من أهالي الفرقة المارونية ألّف تاريخًا في أحوال وأخبار ملوك الروم والدول الأخرى وأن كتاب ابن قسنطن من أهالي الفرقة الملكية يعدّ أجود كتاب في الموضوع وأن كتاب سعيد بن البطريق الذي كان أسقفًا للإسكندرية بالعربية يعتبر موثوقًا به وقد رأيته وأن ثنايوس الراهب كتب أحوال وأخبار آدم إلى قسطنطن وأن تاريخ يعقوب بن زكريا الكسكري يرجّح على معظم كتب التاريخ وأن أبا زكريا النصراني الفلسفي والمعاصر للمسعودي جمع أخبار وأخلاق الحكماء والفنّانين بجانب وقائع ملوك اليونان والروم في كتاب على حدة.

وكذا ظفروا بدخيرة مفيدة باليونانية عن الفلاسفة والحكماء ومن ثم ترجمت إلى العربية، الأمر الذي سهل به نشر الحكماء اليونانيين في العالم وعموم أقوال وآراء أفلاطون وبقراط وأرسطو وغيرهم.

والكتاب الذي ألّفه فرفوريوس الذي مضى ذكره حين بيان الفلسفة وهو كان من حكماء القرن الثالث الميلادي في أخبار وأحوال الفلاسفة والحكماء قد نقل إلى العربية فنجد إشاراته كثيرة في كتاب العلامة ابن أبي أصيبعة وهكذا ضبط جالينوس فهرسًا لمؤلفاته كما جمع أخباره العلمية فنقل هذا الفهرس إلى العربية وكذا يكتب جالينوس أخباره العلمية في مؤلفاته الطبية العامة فقد أخذوا أخباره ووقائعه منها كذلك.

ألّف بطليموس كتابًا خاصًا بترجمة أرسطو وهو بالفعل ترجم إلى العربية وبالجملة فكل ما حوته اللغة اليونانية من التراث الهائل لتراجم الحكماء والفنّانين اليونانيين قد انتقل إلى العربية وبمعونته ألّف العلماء والمؤرخون المسلمون كتبًا مفيدة فكتاب نوادر الفلاسفة والحكماء لحنين بن إسحاق وكتاب مختار الحكم ومحاسن الكلم لمبشرين فاتك وكتاب ابن جلجل الأندلسي وتاريخ الحكماء للشهرزوري وجمال الدين القفطي وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة التي تحوي أخبار وأحداث الحكماء اليونانيين والمصريين مؤلفات يونانية تحوّلت فظهرت في قالب عربي.

قد كان من بين اليونان كاتبان كبيران عن فن الحرب؛ أليانوس وبوبوميس. إنهما ضبطا بالتفصيل كافة أصول الحرب بما فيها قسمة الجنود وترتيب الصفوف والتدريبات العسكرية وقواعدها فترجمت تلك الكتب إلى العربية ولو أني لم أجد الترجمة والكتاب الذي ألّف أخذًا من تلك الكتب قد نشر من أوربا وأدرسه الآن.

لم يتوقف المسلمون عند أجود الأدب اليوناني بل أخذوا ما أمكن لهم نيله حتى أخذوا اللغو من الشعبدة والنيرنجات والقيافة والفال والإكسير والكيمياء والسحر والحاضرات.

من تلامذة أرسطو قالش تانس (Collis Thenes) وكان يكثر المرافقة مع الإسكندر ولعله أوّل من أوجد النيرنجات والشعبذة في اليونان وألّف الكتب في هذا الموضوع فترجم كتابه إلى العربية باسم "الجامع في النيرنجات والخواص".

ورجل ماهر في هذا الفن يسمّى بليناس (Apollonius) من رجال القرن الأول الميلادي وكان ينكر نبوة عيسى وكان يدّعي للناس أني سآتي بالمعجزات التي أتى بها عيسى فكان يثبت دعواه بمعجزات من الشعبذة فكتابه الذي يذكر السحر والذي أراه بمختلف المناسبات قد نقل إلى العربية.

والكتب التي ترجمت إلى العربية عن القيافة والفال هي كما يلي:

كتاب الفراسة، وكتاب زجر الروم، وكتاب الخيلان لصاحب ميلنس الرومي، وكتاب فيثاغورس في الصرعة، وكتاب قرعة ذي القرنين، وكتاب القرعة المنسوبة إلى الإسكندر بالسهام.

وما تم تعريبه عن تأويل الرؤيا فيما يلي:

كتاب أرطاميدورس، وكتاب النوم واليقظة لفرفوريوس.

وترجمت كتب عديدة عن الكيمياء وهذا من العجب أنها قد سحرت الآلاف من الناس بما لا طائل تحته وحتى الآن نرى الكثير من المثقفين يهرعون عليها وعلى كل حال فالكتب التي ترجمت عن هذا الفن ما يلي:

كتاب ديقرس في الصنعة، وكتاب الإسكندر في الحجر، وكتاب ديقرس في جواب بدليوس، وكتاب قلوبطرة، وكتاب سقناس، وكتاب دوسميوس، وكتاب كرمانوس.

وقد ذكر العلامة ابن النديم أسماء مؤلفات أخرى كثيرة وأمكن لي أن أعرف أسماء تلك المؤلفات وأصحابها بعد جهد أبذله ولكن لم أودّ أن أضيّع أوقاتي الغالية فيما أضاع السلف من أنواع اللغو هذه.

فارس

لم يجد المسلمون وسائل وذرائع لمعرفة تراث الأمم الأجنبية العلمي قدرما حصلوا عليها بالنسبة لأهالي فارس فقد دخل الإيرانيون في الإسلام أفواجًا ولقد كان بلاط العصر العباسي مليئًا بالمجوس تقريبًا بمن فيهم معظمهم مجوس دينًا وديدنًا وكانوا موظفين على خدمة الترجمة والتأليف، وكان معظم سلاطين الإسلام من الأسر الإيرانية ولكن العجب كل العجب أنما انتقل إلى العربية من التراث الفارسي يفوته المنطق والفلسفة والهيئة والهندسة حتى لم أجد حكيمًا فارسيًا بعدما بذلت جهدًا مضنيًا والحال أن الحكماء اليونانيين أمثال أرسطو وأفلاطون وبقراط وجالينوس كان يعرفهم المسلمون معرفة رجالهم. والسبب وراء هذا ليس إلا أن معظم التراث الفارسي قد ضاع قبل المسلمين

لاسيما الفلسفة وما شابهها وقد فصّلت شيئًا عن هذا السبب في مقالتي "مكتبات الإسلام" ولمزيد الاطمئنان أنقل مقتبسًا من المؤرخ الكبير الشهير حمزة الإصفهاني:

"فأما تواريخ من كان قبل الساسانية فلم أشتغل بها للآفاق المعترضة فيها وذلك أن الإسكندر لما استولى على أرض بابل وقهر أهلها حسد على ما كان اجتمع لهم من العلوم التي لم تجمع قط لأمة من الأمم مثلها فأحرق من كتبهم ما نالته يده ثم قصد إلى قتل الموابدة والهرابذة والعلماء والحكماء ومن كان يحفظ عليهم في أثناء علومهم وتواريخ حتى أتى على عامتهم".

وبالجملة فلما اعتنى المسلمون بالترجمة فما وجدوه من التراث الفارسي كان يشمل التاريخ والطب والأدب وفن الحرب وغيرها وهي ليست إلا متعلقة بالعهد الأخير أي عهد أردشير وبعده. كان المسلمون مولعين بفن التاريخ فنقلوا إلى العربية قدرما ظفروا به من التراث التاريخي. كانت التواريخ الفارسية مقسومة إلى قسمين؛ التاريخ العام الذي كان يحتوي على أخبار ووقائع عامة السلاطين، والخاصّ الذي كان يشمل أخبار ووقائع ملك خاص أو دولة أو مدينة فترجمت تواريخ كلا النوعين بكثرة كاثرة.

ومن مؤلفات التاريخ العام التي قد وجدنا أسمائها ما يلي:

خدائي نامه: هذا كتاب حافل بأخبار ووقائع بداية سلطنة العجم حتى العصر الأخير. ترجمه عبد الله بن المقفع وسمّاه "تاريخ ملوك الفرس". نال الكتاب شهرة وقبولًا حتى كتب بهرام بن مروان شاه مترجم العصر العباسي أني قد حصلت على أكثر من عشرين نسخة له مختلفة.

آئين نامه: هذا تاريخ مفصّل نقله إلى العربية عبد الله بن المقفع ذاته وكتب العلامة المسعودي أنه كتاب بسيط في آلاف صفحة ولا توجد نسخته الكاملة إلا في معابد الفرس.

كهن نامه: هذا جزء من آئين نامه ذكر فيه درجات ومناصب مسئولي وحواشي السلطنة فقد ذكر فيه ستمائة منصب ودرجاتها.

سير ملوك الفرس: ترجمه محمد بن جهم البرمكي

سير ملوك الفرس: ترجمه زادويه بن شاهويه الإصفهاني

سير ملوك الفرس: ترجمه محمد بن بهرام بن مطيار الإصفهاني

سيكسران: هذا أيضًا تاريخ مفصّل فقال المسعودي في مروج الذهب: إن العجم أحبّوا هذا الكتاب وأكرموه. ترجمه عبد الله بن المقفع. كان الكتاب باللغة الفهلوية. هذه الكتب كلها في أخبار ووقائع ملوك الفرس. لم نقف على أسمائها الأصلية.

ومن كتب التاريخ التي كانت تختص بالمناصب أو الرجال والتي ترجمت إلى العربية ما يلي:

تاريخ دولة ساساني: هذا تاريخ مفصّل للدولة الساسانية. إنه يحتوي على قوانين سلطنة الدولة الساسانية ونظمها بجانب أخبار سلاطينها فقد فصّلناها في البداية. رأى المؤرخ المسعودي نسخة هذا الكتاب في أصطخر في 303م.

تاريخ دولة ساساني: ترجمه هشام بن قاسم الإصفهاني

تاريخ دولة ساساني: ترجمه إصلاح داده بن بهرام بن مروان شاه الذي كان موبذ مدينة نيشافور.

رستم وأسفنديار نامه: هذا تفصيل المعارك بين رستم وأسفنديار. ترجمه جبلة بن سالم إلى العربية.

بهرام نامه: ترجمه جبلة بن سالم

كارنامة: هذا في أخبار أنوشيروان

شهرزاد با برويز:

كارنامة: هذه سيرة ذاتية لأردشير بن بابك الملك المدبّر الكبير

كتاب التاج:

بهرام ونرسي نامه:

كارنامه: هذا في أخبار أنوشيروان

مزدك نامه:

نوشيروان نامه:

سيرت نامه: هذا تأليف هدا هود بن فرخ زاد

وبجانب التواريخ والتراجم العامة ترجمت كافة الكتابات والوثائق التي تدل على أي خبر أو حدث مثلًا أن الوصية التي كتبها أنو شيروان لابنه ووصيته التي كتبها لعائلته وميثاق أردشير بابكان باسم شابور والسؤال والرد بين كسرى وهرمزان وكتاب أنوشيروان إلى قوّاد الجنود والمكاتبة بين أنوشيروان وجواشب. هذه وأمثالها ترجمت إلى العربية.

وبالرغم من أن المسلمين اعتنوا بتاريخ فارس هذا القدر من العناية فما وجّهته أوربا إليهم من التقدير والتحسين هو أن السيد ملكم الذي ألّف تاريخ إيران بكل دقة وتحقيق يقول:

"كتب كافة المؤرخين الذين عاصروا صدر الإسلام أن أصحاب النبي محمد صلّى الله عليه وسلّم غضبوا من شجاعة الإيرانيين ورجوليتهم إلى حدّ لما هزموهم دمّروا ما عثروا عليه من تراثهم الديني وأحرقوا مدنهم وقتلوا متولّي معابدهم والمسئولين عن شئونهم الدينية وأشعلوا النار إلى كل ما وجدوه من الكتب الدينية والتاريخية فلم يلتفت أحد إلى تدوين تاريخ إيران القديم لمدة أربعة قرون تقريبًا فأول محاولة صدرت بهذا الشأن هي ما قدّمها السلاطين السامانيّون وتلك لأن هذه الأسرة كانت من جيل أسرة بهرام جوبين واستهدفوا بها إحياء أسماء ومحامد آبائهم".

وكذا قال السيد ملكم إن أوّل كتاب ألّف في ملوك العجم هو شاهنامه وبصرف النظر عن الاتهامات المتواصلة التي وجّهها السيد ملكم إلى الصحابة وأصحاب القرن الأول فلنرَ صحة قوله "أن المسلمين لم يعتنوا بتاريخ إيران لمدة أربعة قرون"!! ذلك مبلغهم من العلم. ولعل ملكم الفقير لا يعرف أن عددًا كبيرًا من المؤرخين سبقوا العهد الساساني وقفوا أعمارهم كلها على تدوين وترتيب مجرد تاريخ إيران ومنهم مؤرخ يسمّى "عمر الكسروي" الذي لُقِّبَ بـ"الكسروي" لأن خدائي نامه الذي قد كتبنا عنه آنفًا يقول عنه موسى الكسروي. إني قرأت ذلك الكتاب مرارًا وتكرارًا وبذلت أقصى جهدي في تصحيحه وتحقيقه ولكن النسخ التي وجدتها كانت بعضها مختلفة عن الأخرى وفي النهاية لقيت حسن بن علي الهمداني في مراغة وبما أنه كان ماهرًا في هذا الفن فطلبت منه تصحيح هذا الكتاب ثم ذكرت بالتفصيل ما قام به الكسروي من تحقيق التواريخ بجهد جهيد

بذله فيه وكذا قام المؤرخ المسعودي بتأليف كتاب خاصّ بمعارك شجعان إيران مع أنه كان عربيًا بحتًا وصرّح في كتاب التنبيه والإشراف بأني كتبت هذا التاريخ ردًّا على أبي عبيدة الذي دوّن معارك شجعان العرب ولعل ملكم الفقير لا يعرف أن العلامة الطبري والمسعودي وأبا حنيفة الدينوري وابن الواضح الكاتب العباسي وحمزة الإصفهاني الذين دوّنوا تاريخ إيران بكل دقة وتحقيق كانوا في العصر الساساني.

وأما شاهنامه فهي ليست بتاريخ مرتّب منظّم دعها أن تكون كتابًا حديثًا فأوّل من قرض الشاهنامه هو أبو علي محمد بن أحمد البلخي ولكنه لم يكتبها باعتبارها كتابًا شعريًا فحسب بل وفّر التاريخ النادر القديم لإيران فقد صرّح بنفسه أنه أخذ وقائع هذه الملحمة من سير الملوك لعبد الله بن المقفع وسير الملوك لمحمد بن جهم البرمكي وسير الملوك لهشام بن القاسم وسير الملوك لبهرام بن مروان شاه وسير الملوك لبهرام بن مهران الإصفهاني كما قارنها بمؤلفات بهرام المجوسي.

وأما ضيق نظر السيد ملكم فهو ينحصر في عصبيته ولكنه بما أن كتب التاريخ الإيراني التي ألّفها المسلمون تحتوي على القصص المستبعدة أمثال سيمرغ وديو سفيد ومار ضحاك وهفتخوان وغيرها وزدْ عليها عدم موافقتها لكتابات المؤرخين اليونانيين فيبدو أن المسلمين لم يظفروا بالتراث الإيراني القديم لتاريخهم ولكن هذا الظن ليس بصحيح أصلًا فقد اعتاد المسلمون منذ فجر تاريخهم على أن يبلّغوا ما وصل إليهم من الرواية كما هي ولقد كان تاريخ إيران مليئًا بكل نوع من الأساطير والقصص المستبعدة فنقلها المؤرخون المسلمون كما وجدوها ليس أنهم كانوا يعتقدون بالأوهام ويحبّون زخرف الأقوال بل لأن الأمانة في الرواية كانت تقتضي أن لا يقع فيها أيّ تصريف ولا تبديل ولقد صرّح المؤرخ اليعقوبي في تاريخه عن طول عمر مار ضحاك وغيره من السلاطين بأنها من لغو الإيرانيين، وقد كتب البيروني في "الآثار الباقية": ولهم في التواريخ القسم الأوّل وأعمار الملوك وأفاعيلهم المشهورة عنهم ما تنفر عن استماعه القلوب وتمجه الآذان ولا تقبله العقول".

ومن اختلاف المؤرخين اليونانيين فيهما بينهم أنه لما التفت المسلمون إلى تدوين تاريخ إيران فكان لديهم مصدران مختلفان؛ المؤلفات الفارسية، وكتابات المؤرخين اليونانيين

المبعثرة ولكن المسلمين اعتمدوا على المؤلفات الإيرانية نظرًا للمثل السائر "صاحب البيت أدرى بما فيه" ولقد صرّح المؤرخ المسعودي في كتاب التنبيه والإشراف:

"ولم نذكر من ذلك إلا ما ذكرته الفرس دون غيرهم من الأمم الإسرائيليين واليونانيين والروم إذا كان ما يذهبون إليه في ذلك خلاف ما حكته الفرس وكانت الفرس أحقّ أن يوخذ منها".

وعلاوة على التاريخ هناك سلسلة ممتدة للكتب الدينية وكلّ ما حُصِلَ عليها ترجم إلى العربية.

أوّل من أسّس دينًا في إيران هو زرادشت فالكتاب الذي نزل عليه (كما هو يزعم) هو أوِستا. كان هذا الكتاب باللغة الفهلوية فترجمه زرادشت ذاته وسمّاه بـ"پاژند" ثم شرح متولّو معبده هذا الشرح وسمّوه بـ"پارده". كان المجوسي يعتبر هذه السلسلة كلها سماوية وأما شرح الشرح فقد أبيد على أيدي الإسكندر ولكن سلسلة أوستا وژند وپاژند قد أفلتت عن غارة الإسكندر وهي التي حصل عليها المسلمون ففي أوستا 21 سورة وكانت كل سورة تكتب في أربعمائة صفحة على حدة ومن هذه السور سورة تسمّى "جسترشت" ذكر فيها أحوال بدء العالم وعاقبته ومنها سورة تسمّى "هاودخت" اشتملت على النصائح والمواعظ وبالجملة فقد جمع المسلمون هذه السلسلة كلها فصانوها بكل حذر وحيطة فقد صرّح المؤرخ المسعودي أن هذه النسخة كانت مصونة حتى بداية القرن الرابع وقد حفظه رجل من سيستان عن ظهر قلب ولو أن القرائن تدلّ على أن هذه الكتب كلها ترجمت إلى العربية ولكنه يثبت بالبراهين أن أوستا ترجم إلى العربية وكانت نسخه متواجدة لمدة غير قصيرة. كان حمزة الإصفهاني في القرن الرابع الميلادي. إنه أحال إلى ترجمة أوستا العربية في غير موضع من كتابه "تاريخ سني الملوك" وهو ذاته قد رأى هذه الترجمة. والتاريخ الكبير الذي ألّفه حمزة الإصفهاني قد صرّح فيه أني قد قابلت وقائع هذا الكتاب من أوستا فصحّحتها.

وعلاوة على زرادشت قد ظهر رجال ادّعوا النبوة أو أسّسوا الدين وأشهرهم مرقيون بن ديصان ومزدك وماني. كان مرقيون في زمن تيتس القيصر الثاني عشر. ولد ابن ديصان بعد مرقيون بثلاثين سنة وكان ماني في زمن شابور بن أردشير وأما مزدك فكان معاصرًا

لقباد. كان مرقيون يقول بأن الكون كله مخلوق من النور والظلمة، والله ذاته لم يخلق الكون، فإن الكون بريء من السيئة ولن يمكن أن يكون الله خالقًا للسيئة. ألّف مرقيون كتابًا عن العقائد وغيرها سمّي بـ"الإنجيل". ترجم هذا الكتاب إلى العربية.

دين ابن ديصان أقرب من دين مرقيون بل هو فرع من فروعه ومن مؤلفاته التي ترجمت إلى العربية ما يلي:

كتاب النور والظلمة، وكتاب روحانية الحق، وكتاب المتحرك والجماد.

كان ماني يدّعي النبوة وكان يعتبر نفسه مصداقًا لفارقليط. إنه ألّف إنجيلًا يختلف عن الإنجيل الحاضر ومن أصوله أن النور والظلمة قديمان وأن ذبح الحيوان حرام، وأذى النار والماء والنبات حرام. له مؤلفات كثيرة بما فيها سبعة أصول أحدها بالفارسية والستة الباقية بالعربية أي سفر الأسرار، وسفر الجبابرة، وفرائض السماعين، وشاپور گان، وسفر الأحياء، وفرقماطية.

ولشاپور گان جانب تاريخي كما له جانب ديني وقد أحال إليه البيروني كثيرًا في كتابه "كتاب الآثار الباقية" وقال إنه أوثق مصدر فارسي لأخبار ما بعد عصر أردشير التاريخية.

كانت مؤلفات ماني موجودة حتى زمن طويل فقد كتب العلامة أبو ريحان البيروني في رسالة نشرت مع "كتاب الآثار الباقية" أني كنت أبحث عن مؤلفات ماني فحصل لي عن طريق أحد أصدقائه ما يلي من الكتب:

فرقماطيا، وسفر الجبابرة، وكتر الأحياء، ونسخ اليقين، وإنجيل، وشاپور گان، وسفر الأسرار.

وعلاوة على هذه الكتب فقد ألّف ماني رسائل موجزة ترجمت إلى العربية، وقد ذكر ابن النديم أسماء هذه الرسائل بالتفصيل.

قد أقبل الناس على مؤلفات ماني حتى انتشرت أفكاره ونظرياته فيما بين المسلمين حتى ظنّوا أن بعضهم يتبعونه وقد مضى محيلًا إلى المسعودي أن ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس قد ألّفوا كتبًا في تعضيد ماني، وقد سمّى ابن النديم مسلمين آخرين كانوا مشتهرين باتباع ماني ولكني أرى أنه اتهام محض. إن انطلاق الفكر وشدة الرأي كلتاهما توأمان في المسلمين فمن كان منطلق الفكر كان يبحث عن

قضايا كل فرقة ودين ويذكرها وأما المتعصّبون فذكر أسماء أتباع الأيان الأخرى كفر لديهم فالعلماء المنطلقو الفكر الذين كانوا يذكرون قضايا الدين الآخر عن جهة ما كانوا يعتبرون أتباعًا له عند هؤلاء المتعصّبين للدين.

وأخير من أسّس فرقة في إيران هو مزدك الذي كان في زمن قباد والد أنو شيروان. اتبعه قباد. كان مزدك يرى ما ترى الرادكالية والاشتراكية في أوربا أي لكل امرئ حق على الآخر في ماله وعرضه وعلى هذا فالزنى لم تكن جريمة في شريعة مزدك، ولا ندري هل قام مزدك بتأليف كتاب أم لا ولكن يثبت أنما كان يطويه من العقائد والأفكار الدينية قد ترجمت إلى العربية فألّف العلامة البخلي كتابًا مستقلًا بها سمّاه "عيون المسائل والجوابات". وقد ضبطت أخبار مزدك بالفارسية قبل الإسلام فقام عبد الله ابن المقفع بترجمتها إلى العربية.

وعلاوة على الكتب التاريخية والدينية فقد اشتدت رغبة المسلمون في فن الأدب فعُرِّبَ كلُّ ما حصل عليه المسلمون من الأدب الفارسي. وأمتع كتاب وأعجبه في هذا المجال "هزار أفسانه" الذي ترجم إلى العربية فاشتهر في المسلمين بـ"ألف ليلة" والواقع أن هذا الكتاب ألّف لتمتيع ملوك العجم وتيسيرهم لسهر الليالي. فيه ألف ليلة وأقل من مائتي حكاية فعُرِّبَ الكتابُ كما هو إلا أن "ألف ليلة" الحالي ليس بترجمة من الأصل الفارسي بل أعتقد أنها مرتّبة من تلك النسخة التي أعدّها محمد بن عبدوس الجهشياري جامعًا العديد من الساهرين والقصّاصين وفيها أربعمائة وثمانون ليلة.

وبجانب ألف ليلة ترجمت روايات وقصص فارسية أخرى إلى العربية ولكن من الأسف أن أسمائها قد تبدّلت بعد تعريبها من حيث لن يمكن إعادة العنوان إلى أصله الفارسي فالكتب التي ذكرها ابن النديم ما يلي:

كتاب بوسفاس، ومجد خسروا، ومرمن، وخرافة ونزهة، وخرس وخرگوش، وروزبة، وسگ زمانه، وشاه زنان، ونمرود نامه.

وعلاوة على هذه السلسلة فقد ترجم إلى العربية عديد من الإنشاء العربي أعجبها "كتاب تيمية". كان الكتاب معترفًا بفضله إلى أنهم كانوا يقدّمونه مقابل القرآن (نعوذ بالله من ذلك) فاضطرّ العلامة الباقلاني إلى الرد عليه في كتابه "إعجاز القرآن". والكتاب الثاني المعادل لكتاب تيمية هو عهد أردشير الذي توجد ترجمته العربية ولقد قال ابن النديم إن الكتب التي اتفق الدهر على جودتها وفضلها هي ما يلي:

عهد أردشير، وكليلة ودمنة، ورسالة عمارة بن حمزة، وماهانية، وتيمية، ورسالة حسن الأحمد، وابن يوسف الكاتب.

وكذا ترجمت كتب الأخلاق والآداب بكثرة ومن ترجمات هذا النوع ما يلي:

نامه فرخ زاد: كتبها ناصحًا لابنه

نامه مهراد وحسيس: كانا متوليين لمعبد مجوسي فكتبا هذه الرسالة لبزرچمهر وزير أنو شيروان.

بفروس:

كتاب موبد موبدان: هذا في المحاضرات والأخلاق

كتاب أردشير في التدبير: أمر أردشير بانتقاء مواد هذا الكتاب من كتب كافة الحكماء

كتاب بن مردبود: ألّف لهرمز بن كسرى

توقيعات كسرى: أحكام وأوامر أنو شيروان

آداب كبير وآداب صغير: هذان الكتابان في الآداب والأخلاق، ترجمهما عبد الله ابن المقفع

وقد ترجمت كتب مفيدة للغاية عن فن الحرب وتدابيرها وفيما يلي أسماء بعض منها:

كتاب آداب الحروب: هذا الكتاب يحتوي على تصفيف الجنود، وحصار القلع والمدن، والدوريات، وتمنيع الحدود، وأشياء تشبهها. أعدّ هذا الكتاب لأردشير.

كتاب تعبئة الحروب وآداب الأساورة: هذا الكتاب يحوي آداب تصفيف الجنود؛ الراجلين والفرسان.

كتاب الرمي: هذا في فن الرماية وألّف بهرام گور.

چوگان وگري: يتضح محتواه من عنوانه

وعلاوة على هذه الفنون ترجمت كتب في الموضوعات الأخرى مثل البيطرة، والصيد، والفراسة، والفال وغيرها كثير ونجد أسماء هذه الكتب المترجمة في غير موضع من فهرست ابن النديم.

اللغات الكلدانية والنبطية والسريانية

اتفق المؤرخون على أن الحضارة والثقافة ابتدءتا في العالم من بابل ونينوا اللذين كانا مركزين للجاه والثروة والحرفة والصنعة. وأوّل من أوجد طرقًا للعلم عن الخسوف والكسوف هم علماء هاتين المنطقتين وهم أوّل من أوجد الساعة الشمسية واشتهرت لغتهما بأسماء مختلفة على مرّ العصور فهي في البداية آرامية ثم كلدانية وفي النهاية سريانية. كانت الآرامية والكلدانية تكتبان بالخط البيكاني.

وجّه المسلمون عنايتهم الشديدة إلى هذه اللغات نظرًا لقدمها ولو أنها احتوت علومًا وفنونًا إلا أن علومها الأصلية قد انمحت حتى عصر المسلمين ولم يبق فيهم سوى النجوم والسحر وتأويل الرؤيا وما أشبهها من الخرافات وعلى كل حال فترجموا ما توفّر لهم من تراثهم.

قد تم بناء سبعة هياكل عظام ببابل على أسماء الكواكب منها ما قد بقي خرابه حتى الآن. كانت هذه الهياكل تحت رعاية كبار العلماء وهم كانوا يستخدمونها كمراصد فكان هيكل عطارد تحت رعاية هرمز، كما كان هيكل المشتري تحت رعاية بتنكلوس، وهيكل المريخ تحت رعاية طينقروس، وكان هرقل وقيطوار من تلك العلماء.

وكان بتنكلوس عالمًا شهيرًا من بابل قال عنه العلامة ابن النديم: إنه كان في زمن الضحاك.

ومن المؤسف للغاية أن أسماء هذه الكتب لن ترجع إلى أصولها بمعونة من الكتب الإنجليزية فقد قال نوفل الآفندي في كتابه "سياحة المعارف" الذي أخذه من المؤلفات الأوربية إن بيلوس كان من كبار علماء الهيئة ببابل. كان بيلوس قبل عيسى بـ2130 سنة وعسى أن يكون هذا بينكلوس الذي عدّه ابن النديم من معاصري الضحاك وبالجملة فقد توفّر للعرب مؤلفاتهم كما يصرح عنها المؤرخون العرب ومن ثم ترجمت إلى العربية. ترجم كتاب بتنكلوس إلى العربية فسمّي بـ"كتاب الوجوه والحدود".

سمّي كتاب قيطوار بـ"صناعة النجوم" كما ترجم العديد من كتب هرمز التي ذكر ابن النديم أسمائها بالتفصيل ولكنها نصرف عنها بما أنها تختص بالسحر والشعبذة والكيمياء فحسب.

وكتب تاريخ بابل التي ألّفت بلغاتها ترجم معظمها إلى العربية فقد ذكر ابن النديم عناوينها العربية أمثال "كتاب ملك بابل" و"كتاب نمرود" و"كتاب الملك الراكب" و"كتاب الشيخ والفتى" و"كتاب أردشير" و"كتاب لابج" و"كتاب الحكيم الناسك".

وقد سلف أن ستة مؤلفات ماني من بين السبعة باللغة السريانية فترجم كلها إلى العربية ولقد ذكرناها تحت اللغة الفارسية.

وأشهر مترجم وأكبره للغة الكلدانية هو أحمد بن علي الذي اشتهر بـ"ابن الوحشية" والذي كان كلدانيًا أصلًا ومجموعة مؤلفات بابل التي أعدّها عن الفلاحة مؤلف جميل مفيد للغاية وهو حتى الآن يوجد في المكتبة الخديوية بمصر. إنه نقل إلى العربية ذخيرة هائلة للطب وعلوم الدين والسحر والنجوم وغيرها من العلوم. ومن هذه الكتب التي ذكرها ابن النديم ما يلي:

كتاب طرد الشياطين، وكتاب السحر الكبير، وكتاب السحر الصغير، وكتاب الدوار على مذهب النبط، وكتاب مذاهب الكلدانيين في الأصنام، وكتاب الإشارة في السحر، وكتاب أسرار الكواكب، وكتاب حياطوثي الكلداني، وكتاب الحيوة والمماة في علاج الأمراض الراهتا بن سموطان الكلداني، وكتاب الأصنام، وكتاب القرابين، وكتاب الطبيعة، وكتاب الأسماء.

اللغة العبرية

هذه فرع اللغات السامية وأخت اللغة الكلدية ولو أن هذه اللغة لم تمتلك ذخيرة للفلسفة والحكمة ولكنه بما أن لغة التوراة والزبور والإنجيل عبرية ونزل بها صحف سماوية عديدة فقد اعتنوا بهذه اللغة ولعل أوّل من عرّب الكتب العبرية هو أحمد بن عبد الله بن سلّام أحد موظفي بلاط هارون الرشيد. إن هذا العالم الفاضل ترجم كافة كتب وأسفار العهد العتيق والعهد الجديد ملتزمًا بالكلمات فقال في الفاتحة إني قمت بترجمة صحف الأنبياء والتوراة والإنجيل وأسفار الأنبياء من اللغات العبرية واليونانية

والنصرانية وصرفت فيها النظر عن تحسين العبارة وتزيينها لكي لا يقع أيّ تغيير وتبديل في نقل المعنى الأصلي.

والترجمة الثانية للتوراة قام بها حنين بن إسحاق، وقد قام بها من النسخة اليونانية التي أعدها باليونانية 72 أسقفًا كبيرًا من العبرية في عصر الإسكندر وكانت هذه النسخة تعتبر أصح نسخة وأجودها.

وكذا ترجم العهد العتيق والعهد الجديد اللذين يشملان 24 كتابًا الآخرون غيرهما بمن فيهم أغلبية اليهود فقد ذكر المسعودي في كتاب التنبيه والإشراف ما يلي من أسماء المترجمين.

أبو كثير يحيى بن زكريا الكاتب الطبراني	توفي في 320هـ
سعيد بن يعقوب القيومي الشمعثي	كان من كبار علماء اليهود، يكثر الحضور في أبلطة وزراء بغداد وقضاتها، وكان حكمًا في مباحث الإسرائيليين. توفي بعد 331هـ
داؤد القومسي	كان يقيم ببيت المقدس، توفي في 334هـ
إبراهيم البغدادي	كان من علماء اليهود في القرن الرابع

اللغة القبطية

المراد من اللغة القبطية لغة مصر القديمة ولو أن مصر يتروّج فيها اللغة العربية ولكن اللغة القبطية الأصلية لم تمت فيها ويتمّ تأليف الكتب الدينية للأقباط بهذه اللغة حتى الآن إلا أن خطّها قد تغيّر شيئًاً كثيرًا ففي فجر تاريخها كان يستخدم الخط الهيروغلوفي الذي قد نقش على الأهرام. لم يكن هذا الخط يحمل الحروف سوى النقوش والصور التي كانت تدلّ على المعاني وقد أوجدت الحروف الأبجدية قبل عيسى بـ660 سنة ولما وردها النصرانية تبعها الخط اليوناني ومنذ ذلك بدأت الكتب تؤلّف بها.

وأما الكتب القديمة فقد ضاعت قبل الإسلام ولكن ما كتب فيما بعد كان متواجدًا ومعظمها كان باليونانية فإن مدرسة الفلسفة التي قامت بالإسكندرية قبل عيسى بـ288

سنة كان مثل فرع لفروع اليونان وكان معظم كبار حكماء الإسكندرية، أمثال أسترخس وأبرخس وأبلونيوس وفرفوريوس الذين قد سلف ذكرهم، كانوا ذوي أصل يوناني.

وترجمت معظم مؤلفات هذا العصر إلى العربية ولكنها قد ذكرت في اليونان فلا نبحث هنا سوى عن تراث اللغة القبطية ولو أننا لا نقدر على أن نفصّل عدد كتبها التي ترجمت إلى العربية ولكن لا شك في أن الجهود بذلت في جمع ذخيرة كل نوع من هذه اللغة وسيتعجب القرّاء، ولكن المسعودي روى بكل توكيد وثقة، من أن ذا النون المصري كان يرغب في البحث عن ألواح المباني القديمة لمصر فبذل أقصى جهوده في قراءة نقوش وصور الخط الهيروغلوفي. ينقل العلامة المقريزي كلمات المسعودي ذواتها:

"وأخبرني في غير واحد من بلاد أخميم من صعيد مصر عن أبي الفيض ذي النون بن إبراهيم المصري الأخميم الزاهد وكان حكيمًا وكانت له طريقة يأتيها ونحلة يعضدها وكان ممن يقرّ على أخبار هذه البرابي وامتحن كبيرًا مما صوّر فيها ورسم عليها من الكتابة والصور قال رأيت في بعض البرابي كتابًا استدبرته فإذا هو ورأيت في بعضها كتابًا تدبرته فإذا فيه يقدر المقدر والقضاء يضحك".

كتب أبو زيد البلخي أن النقوش التي نحتت على الأهرام ترجم واحد منها إلى العربية وهو يعني --- إلخ وقد ذكر المسعودي واقعة أخرى بالتفصيل في كتابه (116/1) يبدو منها أن المسلمين كان بين ظهرانيهم من استطاع أن يقرأ الخط القبطي العتيق فإن صحّت هذه الروايات فيرجع فضل قراءة الخط الهيروغلوفي من الأوربيين إلى المسلمين. وإن يشكّ أحدٌ في قراءة الخط الهيروغلوفي فلا شكّ في تعريب المؤلفات القبطية المتأخرة فما ضبطه المؤرخون المسلمون من جباية أموال الضريبة وجهات صرفها وتفصيلها في عصر فرعون هو في الواقع ترجمة لكتاب قبطي فقد صرّح المؤرخ المقريزي عن تعريب ذلك الكتاب.

اللغة السنسكريتية

قد سلف أن ذكرنا أن الترجمة من السنسكريتية إلى العربية بدأت من العصر المأموني فجاء برهمن هندي شهير بلاط المأمون وأهدى إليه كتاب "سدهانتا" الذي ترجمه محمد

بن إبراهيم الفزاري أحد مترجمي بلاطه، وفي هذه المدة أرسل يحيى البرمكي رجلًا إلى الهند لكي يرجع منها بما يوجد بها من الأدوية كما يقوم بذكر مفصّل لعقائد أهل البلاد وأديانهم. وقد رأى العلامة ابن النديم نسخة من ذلك التقرير كتبها يعقوب الكندي وضبط بها تاريخ النسخ 249م فقال العلامة المذكور أعلاه إن البرامكة طلبوا من الهند عددًا كبيرًا من البراهمة والأطباء وهذا من الأسف أننا لا نجد تفصيل أسمائهم بالصحة فقد اتفق الجاحظ أن يكتب في مكان من كتابه "البيان والتبيين" يروي معمر أنه حينما طلب يحيى بن خالد حكماء من الهند أمثال منكة، ومارمكر، وقلرقل، وسندبار فسألت بهلة الهندي ما هي البلاغة ----" فيبدو من هذه الجملة أن عددًا كبيرًا من البراهمة والأطباء الهندوس وردوا بغداد ولكن نتأسف على أن تفاصيلها لم تصل إلينا.

وعلاوة على البرامكة فقد لفت تقدير هارون الرشيد ومأمون الرشيد للحكماء فضلاء الهند إلى بغداد فذات مرة أصاب هارون الرشيد مرض شديد وعجز أطباء البلاط عن مداواته فدعي طبيب هندوسي طار صيته في الآفاق على مشورة من أبي عمرو العجمي فشفي الهارون على يديه. كان ذاك الطبيب يسمّى منكا الذي كان ماهرًا في المعقول بجانب حذاقته في الطب. لما نزل ببغداد تعلّم اللغة الفارسية وساعد في ترجمة الكتب السنسكريتية.

وكان من أبرز براهمة هارون الرشيد سالي يسمّيه المؤرخون العرب بصالح وفي نفس العصر كان برهمن شهير آخر قام بترجمة الكتب السنسكريتية. كان أبوه يسمّى "دهن" فكان العرب يدعونه "ابن دهن" (Son of Dhun) نسبة لوالده فالبيمارستان الذي أقامه البرامكة في بغداد كان هذا الطبيب مسئولًا عنه.

يبدو أن دراسة السنسكريتية والهاشا قد عمّ المسلمين إلى حدّ بقي فيهم، لمدة غير قصيرة، جماعة كانت تمهر في هاتين اللغتين فالعلماء الذين أرسلهم هارون الرشيد إلى الهند لعقد المناظرة معهم لا محيص لهم من معرفة السنسكريتية وفي 303م ورد المسعودي كمباوت (Khambawat) وجمع المعلومات عن أهاليها فهو يقول إن حاكمها مولع بالمناظرات شديدًا

ويناقش مع المسلمين وأتباع الأديان الأخرى الذين يردون هذه المنطقة" والبديهي أن المناظرة كانت تنعقد بالهاشا ولا يمكن قيام أساس المناظرة بدون معرفة السنسكريتية.

وقد برز في هذه الجماعة رجل متضلع يسمّى أبو ريحان البيروني الذي قد ذكرنا موجز ترجمته فيما سلف. كان البيروني يعرف السنسكريتية معرفة قام بترجمة بعض الكتب العربية إلى السنسكريتية للهندوس فالكتاب الذي ألّفه عن العلوم والفنون السنسكريتية والذي نشره البروفيسور سخاؤ بعد تصحيحه هو بين أيدينا وهو في الواقع موجز مفيد للعلوم والفنون السنسكريتية فقد جمع المؤلف المعلومات آخذًا من المؤلفات السنسكريتية الموثوق بها والمعتمد عليها ومن أعجب الأمر أنه لما كان الهندوس يضنّون بالكشف عن مؤلفاتهم فدرس البيروني المؤلفات وحفظها عن ظهر قلب وهو بذاته كتب: من البرانات المختلفة التي حفظتها عن ظهر قلب ما يلي:

أوپران، ومچھ پران، وكورم پران، وبراه پران، ونرسنگھ پران، وبايو پران، وبامن پران، وننند پران، وأسكند پران، وأوت پران، وسوم پران، وسانب پران، وبرهماند پران، وماركنديو پران، وتاركسن پران، وبشن پران، وبرهم پران، وهيش پران.

ويمكن تقدير جمع وسعة معلومات كتاب البيروني من عناوين الأبواب التي قد اختارها المؤلف. وهي عدّها 80 عنوانًا ولكل عنوان تفصيله وكل ما كتبه كتب أخذًا من الكتب السنسكريتية الموثوق بها وننقل فيما يلي طرفًا منها كنماذج:

1. عقيدة الهندوس عن الله
2. عقيدتهم عن المعقول والمحسوس
3. قضية التناسخ
4. البيد والبران والكتب الدينية الأخرى
5. مؤلفات النحو والعروض
6. الهيئة والنجوم: جعل عناوين عديدة عنهما ولكل عنوان بحث مشبع
7. الحرام والحلال
8. الفرائض

وعلاوة على هذا الكتاب فقد قام البيروني بتعريب العديد من المؤلفات السنسكريتية أو بكتابتها آخذًا من الكتب السنسكريتية مما نفصّلها فيما يلي:

1. ساميكا
2. پاتنجلي
3. پلس سدهانتا
4. براهم سدهانتا
5. بره تساميتا
6. لاجو (لبراهمر)
7. كتاب عن السدهانتا عنوانه "جوامع الموجود لجواهر الهنود". هذا الكتاب في 500 صفحة
8. خاند خاندكا: أولًا ترجم هذا الكتاب إلى العربية والذي يسمّى في الكتب العربية بـ"أركند".
9. رسالة في الكسوف
10. رسالة في الحساب: فيها ذكر قاعدة عدّ الصفر في الهند والسند
11. رسالة في 15 صفحة ذكر فيها مدارج الأعداد الهندية التي هي أحسن مما للعربية
12. راسيكا: ذكر الأربعة المتناسبة في 15 صفحة
13. رسالة في ترتيب الأعداد
14. برهما سدهانتا: طريقة الحساب، ترجمته في 40 صفحة
15. تحديد الزمن الحديث طبقًا للتقويم الهندي في 100 صفحة
16. رسالة عيّن فيها الثوابت التي تتعلق بمازل القمر
17. رسالة في الردود على الأسئلة التي طرحها علماء الهيئة الهندوس في 120 صفحة
18. رسالة في الردود على الأسئلة التي وردته من كاشمير
19. طريقة هندية لعدّ طول العمر
20. لاكهو جيتاكم لراهمهر (ترجمة): رسالة وجيزة عن الولادة
21. قصة صنمي ياميان

22. قصة نيلوخر التي ذكر فيها دلبتي وبربهاكر
23. ترجمة كلپه ياره: رسالة في العوارض المكروهة
24. مقالة عن ظهور واسو ديف من جديد
25. ترجمة كتاب عن كافة المحسوسات والمدركات
26. رسالة في السبب وراء تصنيف المساواة طبق رأي برهما سدهانتا

وفي العهود المتوسطة تروّجت الكتب السنسكريتية بفضل الإمبراطور أكبر فما كان يطويه أكبر من الميل إلى الهندوس لا يخفى على الناس فقد جمع في بلاطه أكبر وأفضل براهمة عصره فقد أحصى أبو الفضل من يلي من العلماء الهندوس حيث ذكر فهرس حكماء وعلماء الدولة:

مهاديف، وبهيم ناث، وبابا بلاس، ونارايان، وشيف جي، ومادهو، وراما بهدر، وسري بهت، ومادهو سرتيه، وجد روپ، وبشن ناث، ومد سودن، وراما كشن، ونارايان أشرم، وبلبهدر مصر، وهرجي سور، وباسديف مصر، ودامودر بهت، وباس بهت، وراما تيرث، وبده نواس، ونرسنغ، وگوري ناث، برم إندر، وگوپي ناث، وبيجي سين سور، وكشن باندیت، ونهال چاند، وبهتا چارج، وكاشي ناث.

قد أمر أكبر بترجمة العديد من الكتب فترجمت مهابهاراتا إلى الفارسية بأيدي ديفي برهمن وعبد القادر البدايوني والشيخ سلطان الثانيسري ونقيب خان وسمّاها أكبر "رزم نامه" وأمر بتصوير كافة المعارك وضمّها إليها وكذا ترجم أولئك المترجمون رامايانا وصوّروا حيثما مسّت الحاجة إليه وهكذا قام الحاج إبراهيم السرهندي بترجمة أثروید رابع الويدات وتوجد النسخة الخطية لتلك الترجمة في مكتبة كليتنا، وليلاوتي الذي هو كتاب شهير في الحساب نقلها فيضي إلى الفارسية وكذا ترجم مكمّل خان الغوجراتي إلى الفارسية تاجك كتاب موثوق به في علم النجوم وكذا ترجم الشيخ شيري هربنس الكتاب في أخبار كانهيا لال وهكذا قصة نل ودمن المليئة بالمأساة نظمها فيضي في صورة ملحمة.

وكذا أضاف أكبر إلى التراث السنسكريتي أي أمر بترجمة الكتب العربية والفارسية إلى السنسكريتية فترجم زيج مير زائي إلى السنسكريتية واشترك في ترجمته كلٌّ من فتح الله الشيرازي وأبي الفضل وكشن الجوتشي وغنغا دهر ومهيش ومهانند.

ولو قمنا باستقصاء المؤلفات السنسكريتية لكل نوع من العلوم والفنون، التي ترجمت إلى العربية والفارسية لاحتجنا إلى تأليف رسالة مستقلة بذاتها وعسى أن أتحمّل هذه المشقة ولكن من شدة الصعوبة أن اللهجات العربية قد وجّهت تغييرًا إلى أسماء هذه الترجمات لم يسعنا معرفة صحيحة لمعظم الكتب وأصحابها فقد كتب العلامة ابن أبي أصيبعة في "طبقات الأطباء" أن كنكا كان أشهر أطباء الهند وحكمائها وله مؤلفات تالية (ترجمت إلى العربية):

كتاب النمودار في الأعمار، وأسرار المواليد، والقرانات الكبير، والقرانات الصغير، وكناش، وكتاب في التوهم، وكتاب في أحداث العالم والدور في القران.

فمؤلفات كنكا التي ذكرها ابن أبي أصيبعة توجد بالعربية ولا شكّ فيها ولكننا لا نجد شيئًا عن أخبار كنكا حتى لا نتعرّف اسمه السنسكريتي الحقيقي.

وكذا ذكر العلامة المذكور علماء وحكماء الهند غير كنكا أمثال باكهر، وراجه، وسكهـ، وداهر، ورنگل، وجبهر، وأندي، وجاري وكتب أن معظم مؤلفات هؤلاء الحكماء ترجمت إلى العربية ولكن لا نقدر على العلم عن أسمائهم الصحيحة الحقيقية.

ولا نجد من المؤلفات الطبية بتلفظها الصحيح سوى اثنين؛ (1) كتاب چركا الذي كان طبيبًا شهيرًا قبل اليوم بخمسة آلاف سنة والذي كان الهندوس يعتبرونه ناسكًا هندوسيًا كبيرًا فترجم الكتاب أولًا إلى الفارسية ثم ترجمها عبد الله بن علي من الفارسية إلى العربية، و(2) كتاب شوشوراتا الذي يحتوي على عشرة أبواب. ترجم هذا الكتاب بأمر من يحيى بن خالد.

يائسًا عن صحة الأسماء أنقل فيما يلي جدولًا موجزًا طبقًا لصراحات المؤرخين العرب، نعلم به الكتب السنسكريتية التي ترجمت إلى العربية في أي علم أو فن ولا ينضمّ إليها ترجمات البيروني وغيره من المترجمين التي مضى ذكرها آنفًا:

عنوان الكتاب	التفصيل
بدان	ذكر فيه أربعة وأربعمائة داء
شذهشان	ترجمه ابن دهن
فيما اختلف فيه الهند والروم	ذكر اختلاف الطب الهندي عن الطب الرومي
تفسير أسماء العقاقير	أسماء العقاقير وترجمه منكا لإسحاق بن سليمان
كتاب روئ	ذكر أنواع الأفاعي وسمومها
كتاب أستانكر	ترجمه ابن دهن
علاج الحبالى	
كتاب تاكشتل	ذكر مائة داء ومائة دواء
كتاب رؤسا	مداواة النساء
كتاب السكر	
كتاب التوهم والأمراض	ألّفه تاكشتل
كتاب السموم	ألّفه شاناق في ذكر السموم. ترجمه أبو حاتم البلخي إلى الفارسية بمعونة من منكا ثم ترجمه عباس بن سعيد بأمر من المأمون

كتاب البيطر	مداواة الحيوان
كتاب في النجوم	ألّفه شاناق الهندي
كتاب المواليد	ألّفه جودر
توفا	كتاب في المنطق
ما تفاوت فيه فلاسفة الهند والروم	اختلاف الفلسفة الهندية عن الرومية
سندباد	قصة سندباد التي تنضمّ إلى ألف ليلة مأخوذة من السنسكريتية أصلًا
بوداسپ وبلوهر	

وعلاوة على هذه الكتب ضبط ابن النديم أسماء كتب أخرى أمثال كتاب البلد، وكتاب أدب الهند والصين، وكتاب ديك الهندي، وكتاب ساويرم، وكتاب ملك الهند، وكتاب الأشربة، وكتاب بيدبا وغيرها مما قد سئمت تكليف ذكر أسمائها المبهمة والخاطئة في النطق.

الحجـاب في الإسـلام

- العلامة شبلي النعماني

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

مما أوجده التقليد الأعمى لأوربا من المباحث الجديدة قضية الحجاب وإنْ ناقشوا حول الموضوع عن الجانب العقلي فلم نحتج للخوض في هذه القضية ولكنّ الباحثين يدّعون أنّ الإسلام لا يأمر بالحجاب وفوق ذلك أنّه لم يكن متروّجًا في القرون الأولى. هذا، ومن أبرز وأوثق كتّاب الجماعة المثقفة الشيخ أمير علي الذي كتب مقالة باسم "نسوة المسلمين" في مجلة "Nineteenth Century" فقال فيها:

"قد شاع كلّ من البرقع الطويل والنقاب والخمار في نهاية عهد السلاجقة، ونوع الحجاب الذي يتروّج في مسلمي الهند اليوم لم يكن به عهد في عصر الخلفاء الراشدين وبالعكس من ذلك كان نسوة الطبقة العليا يبرزن للرجال بدون أي نوع من البرقع ولما ضعفت قوة الخلفاء في وسط القرن السابع الهجري وقام التتار بإطاحة الحكومة الإسلامية وقع النزاع بين العلماء في هل يمكن للنساء أنْ تبرز وجوههنّ وأقدامهنّ للأجانب أم لا؟"

وهنا يهتنا الأمر بأنّه يمكن أنْ نقسم المفسّرين لتاريخ الإسلام وقضاياه في جماعتين؛ علماء الثقافة القديمة وباحثوا الثقافة الجديدة. فعلماء الثقافة القديمة لا يعرفون كيف يعبّرون عن ضمائرهم بلغة العصر الحديث وأما الباحثون المثقفون الجدد فما يعرفونه يبدو قدره جليًا من المقتبس السالف ولكن من سوء الحظ أنّ الجماعة الأخيرة هي التي تسيطر دومًا على الأدب القومي وبما أنّ صوتها وحده يصل إلى أذن الأقوام الأخرى فسيعتبر صوتها صوت الإسلام عن القضايا وتاريخ الإسلام في الأيام التالية. ولا نتكلم في هذا المقال إلا عن الجانب التاريخي لهذه القضية ونودّ تسليط الضوء على تقليد الحجاب في العرب قبل الإسلام ومن ثمّ نريْ الطريق المطّرد للحجاب في كافة أنحاء العالم الإسلامي.

وقد مضى زمن طويل حينما قمنا بكتابة مقالة طويلة انتقدنا فيها الجزء الأوّل لهذه المقالة فنفضّل أنْ ننقلها كما هي في الأسطر التالية:

لا ننكر أنّ الله تعالى قد خلق المرء والمرأة مختلفًا بعضهما عن بعض في خصائص وميزات ولكنّ المدنية قد وضعت ميزات أخرى على الميزات المذكورة أعلاه، تبدو مختلفة ومتنوّعة بالنسبة لكل قوم وجماعة ودولة ولعلّ ملابس الرجال والنساء وأوضاعهم وطرقهم كانت متحدة في بداية تاريخ العهد الإنساني ولم يكن هناك أيّ فارق بينهم سوى الميزات الطبعية ولكنّ تلك الميزات قد تعدّدت وتنوّعت كلما تعدّدت المدنيات وتنوّعت حتى أنه لم يبق الفرق بين الجماعتين إلا القدر القليل مما يحويهم ويوحّدهم.

ويبقى تاريخ العالم البدائي في ظلام العلم والمعرفة فلا نعلم من تاريخ العصور القديمة إلا حتى ألفي سنة أو أكثر وهذا هو العصر الذي وقع فيه النزاع بين الجماعتين وبرزت أشياء مميّزة بين معيشة الجماعتين فلا يمكننا أنْ نعلم ما هي الأسباب التي لعبت دورًا بارزًا وراء ذلك النزاع كما لا يمكننا العلم بمدى سعة ذلك النزاع حتى العصر الذي نعتبره بدءً لعلمنا التاريخي.

وإنْ أردنا أنْ نخبر بالأسباب التي كانت وراء شعور المرء بالستر وتعيين حدوده بين المرء والمرأة فلا نقدر على ذكر العديد من الأسباب كما لا نقدر على الإجابة على الأسئلة عن الميزات الأخرى فلا يفيدنا تحديد تاريخ الفروق القديمة والتفكير على أسبابها ووجوهها سوى الأمور التي برزت أخيرًا فلا بأس أنْ نحقّقها ونناقش حولها. يمكن لنا أنْ نقسم الحجاب في نوعين:

أوّلًا: ستر الوجه والأعضاء كلها.

وثانيًا: الحضور في جلسات وندوات الرجال.

فكان النوع الأوّل من الحجاب مروّجًا في عرب قبل الإسلام وكثيرًا ما سبّبته الحاجات الطبعية فبادئ ذي بدء لم يكن هذا خاصًا بالنساء لأنه كان مخلوق الحاجات الطبعية

التي كانت تتعلّق سويًا بكل من الرجال والنساء. ولعلّه أوّل ما ابتدئ في قبيلة حمير التي كانت من اليمن وحكمت عليها وقد تأسست حكومة لإحدى عشائر الحميريّين في أسبانيا وكانوا يسمّونهم "الملثمين". حكمت هذه العشيرة بكل قوة وصولة ففتحت عديدًا من الدول ولكنهم كانوا يسترون وجوههم باللثام ولذلك سمّوا بـ"الملثمين". وممن برز من ملوكهم يوسف بن تاشقين الذي كان مليئًا بالهيبة والجبروت وقد كتب العلامة ابن خلكان في ترجمته عن السبب وراء بداية هذا التقليد فقال:

"وسبب ذلك على ما قيل أنّ حمير كانت تتثلم لشدة الحر والبرد تفعله الخواص منهم فكثر ذلك حتى تفعله عامتهم".

وكذا أشار العلامة المذكور أعلاه إلى سبب آخر وهو أنه كان هناك قوم يعارض قبيلة حمير وكانوا يغيرون على بيوت الحميريين حينما خرج الأخير لأيّ حاجة وكانوا هكذا يسبون نسائهم فاضطرّ الحميريّون إلى أنْ خرجت نسائهم في الملابس الرجالية ووضع الرجال النقاب على وجوههم وقرّوا في البيوت، أغار الأعداء حسب العادة فخرج الرجال وعليهم لثام فقاتلوا بكل قوة وشجاعة فقتلوا الأعداء تقتيلًا وبما أنّ هذا الفتح جاء بفضل اللثام فقام هذا التقليد كذكرى لما حدث حتى جاء الإسلام ولم يرفع رجال هذه القبيلة ونساءهم اللثام عن وجوههم فقال شاعر:

لمـــا حـــووا إحـــراز كـــل فضـــيلة غلـــب الحيـــاء علـــيهم فتلثمـــوا

وهنا أسباب أخرى وراء هذا النوع من الحجاب فمثلًا أنّ الذين رزقوا الحسن والجمال قد خرجوا وعلى وجوههم النقاب مخافة أنْ يصيبهم العين. توجد نماذج هذا النوع في عصر صدر الإسلام.

فالمقنع الكندي الذي كان شاعرًا شهيرًا من دولة بني أمية لم يكن يخرج من البيت بدون الحجاب وعلى مرّ العصور تروّج هذا التقليد فبدأ الأشراف يخرجون في المجامع والمجالس مع النقاب فسوق عكاظ التي كانت خاصة بمختلف المسابقات العلمية

والأدبية والجسدية كان يخرج إليها العرب وعلى وجوههم النقاب فيقول مؤرخ العصر السحيق العلامة أحمد ابن أبي يعقوب:

"وكانت العرب تحضر سوق عكاظ وعلى وجوهها البراقع فيقال إنّ أوّل عربي كشف قناعه ظريف بن غنم الغبري ففعلت العرب مثل فعله".

ولو هناك أسباب خاصة بخيار الحجاب بالنسبة لمختلف المناسبات ولكن الشئ الذي لعب دورًا بارزًا هو اثنان:

أولًا: صيانة البدن التي جاء ذكرها عن الحميريين فكان كل من الحميريين يتبعون هذا التقليد ولكنه كان خاصًا بالأمراء والأشراف في القبائل الأخرى فإنّ مثل تلك الراحة والتكلف لا يرغب فيه إلا الأمراء ثم على مرّ العصور ارتفع قيد الراحة وعمّ استخدامه بدون عائد لمجرد أنّه ملبس خاص بالأمراء والأشراف.

وثانيًا: الرغبة في الامتياز والاختصاص وهي ثبتت في الأذهان بتدرج عجيب فكان العرب، غنيهم وفقيرهم، يعيشون عيشة متساوية ولكنه كلما تطوّرت المدنية جاءت الميزات والاختصاصات فأفضل ما جاءت به عدم تعميم بلاطات الأمراء والسادة فوجدت مناصب الحجّاب والحرّاس الذين كانوا يمنعون العامة عن الدخول المباشر ثم ظنوا ألّا يراهم العامة بعيون رؤوسهم فوضع بعض الحكام براقع على وجوههم.

فهذا هو السبب وراء ما عمّ أثناء العصر العباسي من جلوس الخلفاء وراء الحجاب وإصدار الأحكام من خلاله.

العصر الذي ابتدئ فيه هذا التقليد لم تكن فيه النساء مختصات به ولكن الرجال لم يكادوا يصبرون على هذا الواجب الغير ضروري ولذلك فلما رفع ظريف بن غنم النقاب عن وجهه اتبعه كافة العرب ونجوا من هذا القيد إلا من استخدمه رغبة فيه أو فخرًا به ولكن هذا التقليد بقي فيما بين النساء حتى جاء الإسلام فأوجبه على كل منهنّ فمن درس أوضاع العرب قبل الإسلام وظروفهم بإمعان لا يقعد منكرًا به ولكنْ بما أنه قد عمّ

العالم أنّ تقليد الحجاب مما جاء به الإسلام فنقدّم دلائل ثابتة تبيّن أنّ هذا النوع من الحجاب كان عامًّا قبل الإسلام.

أفضل وأوثق مصدر للعلم بأوضاع وظروف عرب الجاهلية هو كلام شعرائهم فنستشهد به فيما يلي:

فيقول ربيع بن زياد العبسي وهو شاعر جاهلي في رثاء مالك بن زهير:

مــن كــان مســرورًا بمقتــل مــالك فليــأت نســوتنا بوجــه نهــار

يجــد النســاء حواســرًا ينــدبنه يلطمــن أوجههــن بالأسحــار

قــد كــنّ يخبــأن الوجــوه تســترًا فاليــوم حــين بــرزن للنظّــار

قال العلامة التبريزي في شرح "تسترًا" أي عفة وحياء.

ويقول عمرو بن معديكرب وهو يذكر حادثًا شديدًا للحرب:

وبــدت لميــس كأنهــا بــدر الســماء إذا تبــدّا

ولو أنّ عمرَ بن معديكرب شاعر مخضرمي ولكنّ بيته هذا يتعلّق بالجاهلية.

ويقول شاعر جاهلي يسمّى "سيرة بن عمر القفعسي" وهو يهزأ بأعداءه:

ونســوتكم فــي الــروع بــادٍ وجوهــا يخلــن إمــاءً والإمــاء حرايــر

والنابغة الذبياني الذي هو أحد فحول شعراء الجاهلية كان عزيزًا لدى النعمان بن المنذر ومقبولًا في بلاطه فذات مرة زار النعمان فاتفق أنّ زوجة النعمان المسمّاة بـ"متجردة" كانت جالسة عنده ودخله النابغة بدون إجازة فقامت الزوجة فورًا وسقط النصيف بدون وعي فسترت متجردة وجهها بيدها فأعجب النابغة بهذا الأسلوب وكتب قصيدة على ذلك. يشير فيها إلى ذلك الواقع قائلًا:

ســقط النصــيف ولــم تــرد إســقاطه فتناولتــه واتقتنــا باليــد

ويقول شاعر آخر وهو عوف ذاكرًا خروج النساء إلى القدور لشدة الجوع:

وكـــانوا قعـــودًا حولهـــا يرقبونهـــا وكانـــت فتـــاة الحـــيّ ممـــن ينيرهـــا

مـــبرزة لا يجعـــل الســـتر دونهـــا إذا خمـــد النـــيران لاح بشـــيرها

والواقع أنّ عرب الجاهلية قد تطوّروا كثيرًا في شأن الملابس ولو أنّ هذا التطوّر كان محدودًا في دائرة الأمراء والأشراف ولكنّ من قبل التطوّر قبله بكل معناه فملابس النساء وأنواعها التي تمّ وضعها حتى ذلك الزمن كانت ساترة أعضائهنّ سترًا تامًا، وكان أغلب هذه الأنواع من الملابس خاصًا بالفخر والميزة وعلى هذا فقد حُرِمَها العامة. وأما عصرا بني أمية وبني عباس، كما يقول بحثنا المتواضع، فلم يزيدا قدرًا ملموسًا إليها وهذا كما يدل على شيئ فكذلك يدل على أنّ الشعور بالحجاب وستر أعضاء البدن قد بلغ غايته في العصر الجاهلي فكانت النساء يستخدمن مختلف أنواع الملابس التي كانت تزيد على الثمانية وهي كانت تسمّى حسب أطوارها وأقدارها مثل "درع" و"أتب" و"قرقل" و"صدار" و"مجول" و"شوذر" و"خميعل". كانت هذه الأنواع يختلف بعضها عن البعض اختلافًا خفيفًا. وكانت هي متشابهة لـ"محرم" و"كمري" و"فتوحي" و"قميص". توجد كافة هذه الأسماء في ديوان العرب الجاهلي ولكني أصرف النظر عنها مخافة التطويل وكذا استخدموا كلمتي "قصابة" و"مقنع".

وكانت هذه الملابس يتمّ ترتيبها هكذا: أولًا كان منديل يوضع على الرأس، كان يستر جانبي الرأس المقدّم والمتخلّف سوى الجانب الوسط. يسمّى هذا الملبس بـ"تحبق" ثم كان يوضع منديل آخر لامتصاص الزيت إذا كان ممسوحًا على الرأس. كان هذا الملبس يسمّى بـ"غفارة". كان يوضع على هذا الملبس الأخير أردية مختلف حجمها وتسمّى بـ"صدار" و"خمار" و"نصيف" و"مقنعة" و"معجر" و"رداء". فكان الخمار أصغر الملابس ثم يأتي في الترتيب "النصيف" ثم "المقنعة". كان الخمار وما شابهه يوضع على الرأس بحيث يتستر معظم أجزاء الوجه. وعلى هذا قال الشاعر:

ســقط النصــيف ولــم تــرد إســقاطه فتناولتـــــه واتقتنـــــا باليـــــــد

وقال شاعر آخر:

فخـــرّ علـــى الألاءة لـــم يوشـــد وقـــد كـــان الدمـــاء لـــه خمـــار

ولكنهن قد كن وضعن "البرقع" لصيانة الوجه وستره وكانت لهذا البرقع صور عديدة فما كان حتى العين سمّي بـ"الوصواص" ثم يأتي "النقاب" الذي كان أسفل منه بقليل ثم "اللفام" ثم "اللثام" فكان اللفام لا يتجاوز حدّه الشفتين والنقاب الذي كان يستر الوجه ثم الصدر يسمّى "الجثة". كانت قد وضعت كافة هذه الأنواع من النقاب في العصر الجاهلي وكانت تستخدم عامة ولمزيد التوضيح اقرأ الأبيات الآتية:

أريـــن محاســـنًا وكـــنن أخـــرى وثقـــبن الوصـــاوص للعيـــون

وقال آخر:

يضـــيئ لنـــا كالبـــدر تحـــت غمامـــة وقـــد زلّ عـــن غـــرّ الثنايـــا لفامهـــا

فكان الحجاب عاماً في المجتمع العربي الجاهلي وكانت النساء كلهنّ يستخدمن مختلف أنواعها سوى النساء العامة والإماء.

وهناك أمثلة شتى حيث خالف الناس هذا التقليد ولكنها قليلة للغاية.

وأما النوع الآخر من الحجاب أي عدم حضور النساء في جلسات الرجال فهو لم يكن متروّجًا فكانت النساء يحضرن جلسات الرجال والأسواق والحروب فكانت الشاعرات، مثلًا، يأتين سوق عكاظ التي كانت مجالًا لمباراة الشعراء وكنّ يقمن أبلطة خاصة وكنّ يقدّمن قريضهنّ على العامة وينلن الثناء والتقييم.

فذات مرة حضرت الخنساء التي كانت أشعر شاعرات العرب في الرثاء، سوق عكاظ وقدّمت قصيدتها للنابغة الذبياني الذي كان أستاذ الشعراء وحكمًا عليهم فتأسف النابغة قائلًا: الحينَ اعتبرت أحدًا أشعر شعراء العرب وإلا فكنتِ قابلة لهذا الشرف ولكني أحكم بأنك أشعر شاعرات العرب ولكنّ الخنساء ادّعت بأنها "أشعر الرجال والنساء".

كان معتادًا أنه لما مرّ شاعر بقرية حضرته نساء تلك القرية وطلبن منه تقديم قريضه وبما أنهن كنّ ذوات ذوق حسن عال للشعر فكان الشعراء ينشدن قصائدهم بكل رغبة ونشاط وبالجملة فكانت النساء يحضرن كلًا من الجلسات الشعرية والمنافرات والحفلات والأسواق وساحات الحرب.

كان هذا وضع العصر الجاهلي ولكنه لما جاء الإسلام طلع فجر عصر جديد وما ظهر في هذا العصر من التغيرات والإصلاحات نفصّلها فيما يلي:

فأوّل ما قام به الإسلام من الإصلاح هو تضييق جيوب النساء التي كانت تبدو منها النحور فنزلت الآية في ذي قعدة 05هـ قائلة: "وليضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ".

قال العيني في شرح البخاري بهذه المناسبة:

"وذلك لأنّ جيوبهنّ كانت واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها وكنّ ليدلن الخمر من ورائهنّ فتبقى مكشوفة فأمرن بأنْ يدلنها من قدّامهن حتى يغطينها".

ولو أنّ تقليد النقاب والبرقع، كما أسلفنا الذكر، كان عامًا من قبل ولكنه قد تقلّل رواجها لاختلاطهم باليهود فكانت النساء معظمهنّ يخرجن بدون الحجاب على وجوههنّ فنزلت الآية التالية:

"يآ أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن".

ويمكن لنا أنْ نناقش حول هذه الآية من ثلاث جهات؛ ما هو شأن نزول الآية وما هو معنى الآية وما كان طريق الصحابة بعد نزول الآية؟.

جاء في تفسير ابن كثير في شأن نزول هذه الآية:

"كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طريق المدينة فيعرضون للنساء وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة فإن كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن فكان أولئك الفساق يبتغون ذلك منهن فإذا رأوا المرءة عليها

جلباب قالوا هذه حرة فكفوا عنها وإذا رأوا المرءة ليس عليها جلباب قالوا هذه أمة فوثبوا عليها".

وجاء نفس شأن النزول في طبقات ابن سعد الذي هو من مؤلفات القرن الثالث الهجري:

"كان رجل من المنافقين يتعرض لنساء المؤمنين يؤذيهن فإذا قيل له قال كنت أحسبها أمة فأمرهن الله أنْ يخالفن زيّ الإماء ويدنين عليهن من جلابيبهن تخمر وجهها إلا إحدى عينيها".

وجاء في تفسير الكشّاف: "فأمرن أنْ يخالفن عن زيّ الإماء بلبس الأردية والملاحف وستر الرؤوس والوجوه".

ولنحفظ هنا كما قال ابن كثير إنّه كان هناك فرق بين الحرايز والإماء فالحرايز كنّ يسترن وجوههن بالأردية بينما الإماء لا يفعلن مثل ذلك.

ونفس الواقع يثبت من كلام العرب الجاهلي فقال شاعر:

ونســـوتكم فـي الـــروع بـــادٍ وجوههـــا يخلـــــن إمـــــاءً والإمـــــاء حرايـــــر

وكذا يثبت من كتابة ابن كثير أنّ هذا الفرق كان موجودًا حتى العصر الإسلامي ولذلك فلما خرجت حرة بدون الحجاب فاغتنم الفسّاق فرصة التعرض لها.

وهناك كلمتان في الآية نريد البحث عنهما وهما الجلباب والإدناء ولو أنّ المتأخرين ذكروا معاني عديدة لمعنى كلمة "الجلباب" ولكن المعنى المحقّق لها هو أنها كانت نوعًا من البراقع أو الأردية، كان أوسع من كافة الملابس ولذا كان يوضع فوق كافتها، مثاله مثال الفرّاجة في تركيا. جاء في تفسير ابن كثير:

"والجلباب هو الرداء فوق الخمار قاله ابن مسعود وعبيدة والحسن البصري وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وعطاء الخراساني وغير واحد".

وأما الكلمة الثانية فهي تعني ستر الوجه كما ذكره كافة المفسّرين وأئمة فن المعاجم.

وقد روى ابن كثير قول عبد الله بن عباس الذي كان من صحابة الرسول وممتازًا عن كافة الصحابة في التفسير، فروى عن علي بن طلحة:

"أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أنْ يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلباب ويبدين عينًا واحدة".

وقال صاحب تفسير معالم التنزيل في تفسير هذه الآية:

"قال ابن عباس وأبو عبيدة أمر نساء المؤمنين أنْ يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينًا واحدة".

وجاء في طبقات ابن سعد:

"محمد بن عمر عن أبي يسرة عن أبي صخر عن ابن كعب القرظي قال كان رجل من المنافقين يتعرض لنساء المؤمنين يؤذيهن فإذا قيل له قال كنت أحسبها أمة فأمرهن الله أنْ يخالفن زيّ الإماء ويدنين عليهن من جلابيبهن تخمر وجهها إلا إحدى عينيها".

وجاء في تفسير الكشاف في تفسير إدناء الجلباب: "يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن".

فعبد الله بن عباس وأبو عبيدة وابن كعب القرظي والبغوي وابن كثير والزمخشري رجال كبار لا يعبأ بقول إذا خالفهم ولكنه كما نعلم لا يخالفهم إلا القليل القليل.

وما اعتاده المسلمون بشأن الحجاب في كافة العالم من طريق وأسلوب هو أنّ نسائهم لم يخرجن قط بدون الحجاب وكنّ يغطين وجوههن لمن هو دون المحرمين إلا لأسباب طارئة. يؤيد ما قلنا الأحداث التالية:

ذات مرة أظهر مغيرة بن شعبة للنبي أنه يريد الزواج من المرأة الفلانة فقال له النبي: اذهب وانظر إليها فذهب مغيرة إلى أبويها وأبدى ما أراده وقصّ عليهما ما قال له النبي صلّى الله عليه وسلّم. كان الصحابة، كما نعلم، أشد طاعة للنبي ولكنهما شقّ عليهما أنْ ترى له ابنتهما فينظر إليها. كانت البنت تسمع القصّة من وراء الحجاب فقالت: إذا أمرك

النبي فتعال وانظر إليّ وإنْ لم يأمرك النبي فأنشد بالله ألا تفعل ما تريد وترغب. جاء ذكر هذه القصة في باب النكاح لكتاب سنن ابن ماجه.

كان محمد بن سلمة صحابيًا وأراد أنْ ينكح امرأة فرغب في أنْ يسترق إليها النظر ولكنه لم يجد الفرصة فذات يوم ذهبت تلك المرأة إلى حديقتها فاغتنم محمد الفرصة ورآها فلما علم به الناس تعجبوا منه وقالوا إنك صحابي وتفعل مثل هذا الأمر القبيح ولكنه أجاب عليهم إني سمعت عن النبي إنه إذا أراد أحدٌ الزواج من امرأة فلينظر إليها.

ذكر صاحب الأغاني في ذكر الأخطل: ذات مرة بات الأخطل ضيفًا لسعيد بن إياس فقراه سعيد بكل رغبة ونشاط حتى رغبت في خدمته ابنتاه زعوم وأمامة ولكنه لما اتفق له مرة أخرى لم تحضر لخدمته تانك البنتان لكبرهما فهو يقول:

"ثم نزل عليه ثانية وقد كبرتا فحجبتا فسأل عنهما وقال فأين ابنتاي فأخبر بكبرهما".

تروّج تقليد الحجاب إلى حدّ لما حدث حادث خلاف ذلك ذكره المؤرخون فيقول ابن بطوطة عن امرأة في ذكر الأتراك:

"وهي بادية الوجه لأنّ نساء الأتراك لا يحتجبن".

وقال صاحب الأغاني في ذكر الأخطل:

"وكان أهل البدو إذ ذاك يحدث رجالهم إلى النساء لا يرون بذلك بأسًا".

وقال في ذكر جميل وهو شاعر بدوي:

"إنّ جميل بن معمر خرج في يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزين ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال في كل عيد".

يبدو من تلك الأحداث أنّ احتجاب النساء وستر وجوههن كان جزءً لا ينفكّ من معيشة المسلمين وإن حدث شيئ يخالف الأمر فهو خاص بقوم أو مناسبة وأشير إليه في كتب التاريخ.

زيب النساء أشعر شاعرات الهند وأجود كاتباتها

- العلامة شبلي النعماني

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي

(قام العلامة بكتابة هذه المقالة المهمة عندما قرأ مقالة عنها بالإنجليزية تحتوي على أكاذيب وخرافات لا تمت إلى الواقع بصلة- المترجم)

ولادتها ودراستها: كانت زيب النساء بكرة أولاد أبيها أورنغ زيب عالمغير. أما والدتها، دلرس بانو بيغم، فهي كانت بنت بديع الزمان الملقّب بـ"شاه نواز خان" الصفوي. قد ارتقى بديع الزمان في درجات العلو في عهد جهانغير فعلا نجمه وتلقب بهذا اللقب الشريف، كذلك نال محامد في عهد شاه جهان. وبما أنه كان من سلالة الملوك على اتصافه بالمواهب الربانية والمؤهلات الذاتية فقد زوّج شاه جهان ولده أورنغ زيب من ابنته في 1047هـ السنة العاشرة لحكمه الزاهر، مقرّرًا صداقها أربعمائة ألف جنيه. نظم طالب كليم تاريخ زواجه قائلًا:

دو گـــوهر بيـــك عقـــد دوران كشـــيده

ترجمة: أصبحت الجوهرتان في الجيد مثل القزح

ولدت زيب النساء في شوال عام 1048هـ السنة الثانية بعد زواج أبيها، كان عنايت الله خان من أشرف علماء عالمغير وكانت أمه، حافظة مريم، عالمة ذات مؤهلات نادرة فلما بلغت زيب النساء سنّ القراءة عيّنها أورنغ زيب لتعليمها وتربيتها فقد علّمتها حافظة مريم القرآن الكريم على عادة المسلمين في ذلك الزمان فحفظت زيب النساء القرآن عن ظهر قلبها ونالت حافظة مريم ثلاثين ألف جنيه كجائزة لهذا التعليم البدائي.

اتفقت كافة التراجم وكتب التاريخ على أن زيب النساء قد تلقت قدرًا كبيرًا من علوم العربية والفارسية وكانت دراستها ذات مستوى عالٍ للغاية، كان يحضرها عدد من كبار العلماء وأجلّة الكتاب والشعراء إلا أن الذي قد حصل له القبول عندها من بين أساتذتها هو الملا سعيد أشرف المازندراني. كان الملا سعيد من حفدة تقي مجلسي. غادر إيران للهند في بداية عهد عالمغير فعيّنه الإمبراطور لتعليم ابنته. كانت زيب النساء، آنذاك، بنت واحد وعشرين عامًا تقريبًا. هذا سيمدّكم في فهم مدى سعة دائرة تعليم البنات عند الأباطرة المغول وامتداد سلسلته الذهبية فكان الملا سعيد هو الذي يقوم بتصليح كلام زيب النساء المنظوم والمنثور وتهذيبه.

كان الملا أشرف يقول الشعر وبه اشتهر في البلاد. أقام عند زيب النساء لمدة 14 سنة تقريبًا معلمًا لها ومدرّسًا. أراد أن يرجع إلى بيته في 1083م فقرض قصيدة وعرضها على حضرة زيب النساء. يقول هو فيها:

يك بار از وطن نتـــــــــــوان برگرفت دل در غربتم اگرچـــــه فزون ست اعتبار

پيش تو قرب وبعد تفـــــــــاوت نمي كند كو خدمت حضـــور نباشد مرا شعا ر

نسبت چو باطني است چه دهلي وچه اصفهان دل پيش تست من چه بكابل چه قندهار

ترجمة: لا ينبغي أن يتعلق القلب بالوطن لما أنّ لي ثقة زائدة بغربتي. لا فرق بين القرب والبعد إذا كنت أمامك، ولو أني لست معتادًا على التقرّب. بما أني متعلق بك من أعماق قلبي فلا فرق بين أن أكون في دلهي أو في إصفهان، والقلب معلّق بك ولو أني بكابل أو قندهار.

الطور الذي تعلمت عليه زيب النساء والطبع الذي وهبها الله جلّ مجده عزلاها عن ضوضاء السياسة إلا أنها لم تكد تلفت نفسها عن عهد عالمغير المعقّد فوقعت في سوء ذكر لها وذلك أنه لما عدا الراجبوت في 1091هـ أرسل عالمغير ولده أكبر مع جنود أقوياء كثيرين لإطفاء تلك النار ولكنه لما بلغ الأمير إلى جودهـ بور (Joudhpur) غرّه الراجبوت بأبيه فعدا عليه وأراد الهجوم على عالمغير. كانت زيب النساء والأمير أكبر من أولاد عالمغير وكانا يراسل بعضهما إلى بعض فوقع أن تم القبض على هذه الرسائل فأوقف عالمغير

راتب زيب النساء السنوي البالغ عدده أربعمائة ألف جنيه كما صادر كافة أسبابها وممتلكاتها وأمر بقيامها في قلعة سليم كره ولكن يبدو من دراسة التاريخ أنه قد ظهر لعالمغير براءتها عن كثب فتم العفو عنها وذلك لأنه لما توفيت حميده بانو بيغم أمّ روح الله خان في 1094هـ أرسل عالمغير زيب النساء إلى دار روح الله خان لعزائه عنها وأداء تقليد التعزية آنذاك وفي نفس السنة حينما تم زواج الأمير كام بخش أصغر أولاد عالمغير تم أداء تقليد هذا الزواج في قصر زيب النساء وأمر عالمغير بورود كافة أعضاء البلاط بعتبة باب زيب النساء راجلين غير راكبين.

لم تتزوج زيب النساء من أحد ومن العامّ ذكرُه أن السلاطين التيموريين ما كانوا يزوّجون بناتهم. عمّم كتّاب أوربا هذه الرواية الكاذبة فخلقوا بيئة لإساءة الظن عن بنات الملوك ولكن هذه القصة لا أساس لها فقد تزوجت ابنتا عالمغير، زبدة النساء بيغم ومهر النساء بيغم، من سهر شكوه وإيزد بخش بن الأمير مراد فقد جاء ذكر موجز عن أيام كلا الزواجين وما حدث فيهما في كتاب "مآثر عالمغيري" كما جاء ذكرهما في نهاية الكتاب.

كان عالمغير يكرّم زيب النساء شديدًا فكان يرسل الأمراء لتهنئتها عندما كانت هي ترجع من الخارج ولكنه لما سافر إلى الدكن فلم تظن ملائمًا أن تغادر العاصمة لاشتغالها بالعلم تقريبًا فصاحبته أختها الصغرى زينت النساء ولذلك فهي يتردد ذكرها في أحداث تلك المناسبة. أقامت زيب النساء بدلهي ودفنت بها مغادرة أباها في 1113هـ السنة الثامنة والأربعين بعد تولي أورنغ زيب الحكومة. سنة وفاتها تظهر من "أدخلي جنتي".

كان عالمغير آنذاك مشغولًا بالهجوم على الدكن وفتحها فقد غمره الحزن عندما بلغه نعيها وصبّت عيناه دمعًا ولم يكد يصبر عليها مع أنه كان مطبوعًا على الجلود والصبر ثم أمر السيد أمجد خان والشيخ عطاء الله والحافظ خان بإسباغ الأموال والأمتعة ثوابًا لها كما أمرهم ببناء مقبرة فخمة لها.

جاء ذكر اسم زيب النساء وأحداثها حتى العام 1122هـ في كتاب "حافي خان" المطبوع في كولكاتا ولكنه خطأ فاحش فقد ارتكب النسّاخ خطأ أن بدّلوا اسم "زينت النساء" باسم "زيب النساء".

علوّ كعبها في العلم والخلق: صرح كافة المؤرخين وأصحاب التراجم أن زيب النساء كانت لها اليد الطولى في العلوم العربية والفارسية وكانت تجيد خط التعليق والنسخ والشفيعة ولكنه لا يوجد شيء من مؤلفاتها وكذلك يشتهر أنها كانت تلقب نفسها بـ"مخفي" في الشعر الفارسي وأن "ديوان مخفي" الذي قد تم طبعه يعزى إليها ولكنه لا يوجد أي ذكر لديوانها ولا للقبها في أي كتاب للتراجم فيقول الشيخ غلام علي آزاد في كتابه "يد بيضاء": قد بلغنا هذان البيتان معزوين إليها" ثم ذكرهما ولو كان لها ديوان لما ذكر البيتين فقط. وهناك كتاب للتراجم شهير قام بتأليفه أحمد علي السنديلوي وهو "مخزن الغرائب". قد جاء المؤلف بعدد غير قليل من تراجم الشخصيات البارزة في مجال الأدب الفارسي ناقلًا أبياتهم وما يحتاج إليه. يقول المؤلف عن زيب النساء:

"أما ديوان شعرها فلم أجده في موضع إلا أني وجدت بعض أبياتها عند بعض المؤرخين ولكني لا أراها صحيحة فإن معظمها مما قاله فحول الشعراء وتم عزوها إليها".

لا ننكر بأنها كانت شاعرة ولكنه يبدو من دراسة التاريخ أن ديوان شعرها قد ذهب به الدهر فقد جاء في ذلك الكتاب عند ترجمة الملا سعيد أشرف أن مذكرة زيب النساء قد سقطت في الحوض من يد "إرادت فهم" واحد من خدّامها الخواص فقد كتب الملا سعيد بعض الأبيات عنها، التي سيأتي ذكرها فيما بعد. لعلها كانت دفتر أبياتها فقد جاء بيتان تم عزوها إليها في كتب التراجم:

بشكند دستى كه خم در گردن يارى نشد كور به چشمى كه لذت گير ديدارى نشد

صد بها آخر شد وهر گل بفرقى جا گرفت غنچـــــه باغ دل ما زيب دسـتارى نشد

ترجمة: إنهم كسروا اليد لكيلا يعوجّ جيد الحبيب وأعموا الأعين لكيلا يتمتع من المنظر. انتهى الربيع فذبلت الوردة ولم تسعد نورة حديقتي بأن يزيّن بها الجدار.

نعم، نجد في كتب التراجم ذكراً لواحد من مؤلفاتها "زيب المنشآت" فقد كتب صاحب "تذكرة الغرائب" أنه رآه. هذا مجموع رسائل ورقعات زيب النساء.

إشرافها على العلوم: وأيًا كان الفصل في أمر تأليف زيب النساء فقد أمرت الكتّاب بتأليف كتب قيمة أشرفت عليها فيقول الشيخ غلام علي آزاد في "يد بيضاء":

"قد شجّعت كبار العلماء وأفاضلهم واستفاد منها ومن مالها عدد كبير من العلماء والشعراء والكتّاب ومجيدي الخط وتم تأليف قدر كبير من الكتب والرسائل التي تم إهدائها إليها".

والواقع أن بلاط زيب النساء كان مجمّعًا (بيت العلوم) فقد توظف لديها علماء كلّ فنّ وعلم اشتغلوا بوظيفة التأليف والترجمة. كانت هذه الكتب تعزى إليها بحيث أن أول كلمة لعناوينها كانت "زيب"، الأمر الذي سبّب إشكال ووهم معظم المترجمين والمؤرخين فضمّوا تلك الكتب إلى مؤلفات زيب النساء.

والكتب التي تم تأليفها بأمر من زيب النساء أجدرها بالذكر ترجمة فارسية للتفسير الكبير الذي يعترف بشموله وجمعه بين المنقول والمعقول فيما بين التفاسير العربية. أمرت زيب النساء الملا صفي الدين الأردبيلي الذي كان في كشمير آنذاك بنقله إلى اللغة الفارسية وعلى هذا فقد تسمّى بـ"زيب التفاسير" وقد وهم بعض المؤرخين في اعتباره عملًا مستقلًا به للأميرة زيب النساء.

والقسم الذي أقرّته زيب النساء لتأليف الكتب وترجمة الرسائل كان يتطلب مكتبة فخمة ذات كتب في كلّ فنّ وعلم، يسهل بها استفادة الكتّاب من أمهات الكتب والرسائل ولذلك فقد أمرت الأميرة بقيام مكتبة فخمة أثنى عليها صاحب "مآثر عالمغيري" قائلًا: قد كانت للأميرة مكتبة لم يوجد لها نظير في موضع آخر في البلاد".

مما أفاد حسن ذوق الأميرة أن قد سدّ النقص الذي سبّبه جفاف طبيعة عالمغير الذي ألغى على منصب "ملك الشعراء" الذي فاز به فيضي وطالب آملي وقدسي وكليم فكأن

الشعر قد ركب المنفى وكانت زيب النساء هي التي أعادت له شوكته وعزته فكان الشعراء يعرضون كلامهم بمختلف المناسبات فيستلمون الجوائز الثمينة ومما أثر حبّها للشعر أنّ العلماء والكتّاب بدءوا يقدّمون الطلبات العادية في صورة النظم وفيما يلي بعض الشواهد من حياتها:

قد ذكر فيما سبق أن مذكرة زيب النساء قد سقطت في الحوض من يد أحد حواشيها فطلب الملا سعيد العفو عن تلك الجريمة في صورة النظم وقال:

ای أدا فهمی كه پيشت فاضلان عصـــــــر را

شستن مجمـــــوعه أنديشه باب أفتاده است

در خم أفلاطون زياد دانشت سرخـــــوش بود

همچو مخموری كه در فكر شـراب أفتاده است

گاه گاه كـــــــــــــــرز بی آدابيء باد صبا

از گل روي عرقناكت نقـــــــــاب أفتاده است

آب حسرت در دهـــــان أختران گرديده است

آتش غيـــــــــرت به جان آفتاب أفتاده است

ذهن صافت تا علم گرديده در دانشـــــــوري

طبع أفلاطون زبس در اضطراب أفتـــاده است

دفتر فرهنگ در جنگش مجـــــــزا گفته است

از كفش مجموعه دانش در آب أفتـــاده است

عرض حالی هست درخاطـــــر كه در إظهار آن

بند بندم موج سـان در اضـطراب أفتاده است

آن بياض خاصه شـــــــاهي كه در ألطاف آن

جای أفشان نقطهای انتخـــــاب أفتاده است

آن مرصع خان گهـــــر ريزي كه باشد جلوه گر

درّ ألفـــــــاظش بسی با آب وتاب أقـتاده است

دوش از دست إرادت فهـــــــم خاكم در دهن

جون بيـاض سينه ماهي درآب أفتـــــاده است

نی هي ا زياد معـــــــــــدن رفت لعـل آبدار

گـوهر غلطان هم از چشم سحـاب أفتاده است

بحر شعر آبدارش تازه طوفـــــــان كرده است

كشتيش در جار موج اضطـــــراب أفتاده است

گوئيـا از ســـــــــــربد رفت ست آب جدولش

كاين جنين گلذار أشعارش خراب أفتـــاده است

آه ازين غم در دل پير وجوان يجيـــــــده است

لرزه زين هيبت بجان شيخ وشبـاب أفتاده است

بسكه مي بنـــــــــدند هر يك بر گلوی ديگری

گر بياض گردنش خوانننـــــد تاب أفـتاده است

من چه گويم كان چـو مژگان خودش برگشته بخت

در تب اين غـم چنان از خورد وخراب أفتاده است

زان زمـــــــــــان باز از پريشـان حاي وآشفتگي

همچو زلف خويشـــتن در پيچ وتاب افتاده است

رفت رنك آتشين چون شمـــع صبح از عارضش

همچو نبض موج اندر اضطـــــراب أفتاده است

فيض بخشـــــــــا! زودتر بروانـه بخشـايشى

كاتشى دردى چو شمع از التهـــــاب أفتاده است

درنه خواهي ديـد يكدم دفتـــــــــــر أفلاك را

از هجوم گريـه اش يكســـــر خراب أفتده است

كان نعمت خان عالي من فحول شعراء ذلك العصر. اتفق أنه جاء بلاط زيب النساء لبيع الزين المرصع الذي يوضع في العمامة فأخذته زيب النساء---- وتأخر أداء الثمن حسب عادة البلاط فكتب نعمت خان هذه الأبيات وأرسلها إليها:

اى بندگيت سـعادت أختـــر من در خدمت تو عيان شـده جوهرمن

گر جيغه خريدني ست بس كور زمن در نيست خريـدني بزن برســـرمن

ترجمة: سيدي: عبوديتك سعادة لي، ولقد تجلّت موهبتي من خلال خدمتك، ولو أن شراء الجوهرة زينة لعمامة الأرض إلا أني لا أريد شرائها إلا أن تضعها عليّ.

فأمرت الأميرة بدفع خمسة آلاف جنيه إليه وبرجع الزين أيضًا.

كان الملا سعيد أشرف الذي تلمذت له زيب النساء وتعلمت عليه قول الشعر وكتابة الإنشاء، شاعرًا كبيرًا في زمنه فقد جاءت ترجمته بالتفصيل في كافة كتب التراجم والسير. كانت الأميرة تكرمه كثيرًا. ذات مرة بعثت إليه أمة لخدمته، كانت الأمة لا توافق وذوق الأستاذ فهجاها في قصيدة طويلة بدأها بما يلي:

قدر دانشـور شـناسا، نور چشم عالما ای که هرگز قدرت هم چشمیت، حورا نداشت

ترجمة: أيا من تعرف قدر الحكماء وأنت عزيزة لدى العلماء: لم تحتاجي أبدًا إلى من يقوم بتزيين عينيك.

لم ينقل الشيخ غلام علي آزاد إلا هذا البيت من تلك القصيدة وقال إنه استخدم قافية "قاب قوسين أو أدنى" في معنى سلبي ولكنه يثير العجب من أنّ زيب النساء كانت زاهدة تقية ولم يجمل بأحد أن يجرؤ على مثل هذه الأخطاء الفادحة في بلاط الأميرات المحترمات اللاتي كنّ مشهورات في حجابهن وذلك فلما خرجت خالة زيب النساء جهان آرا بيغم للتنزه أسدل الستار في كل جانب من الحديقة وكان الشاعر الكبير مير صيدي الطهراني يختلس النظر إليها من حجرة فلما مرّ فيل جهان آرا أنشد صيدي مرتجلًا:

برقع برخ أفگنـــده برو ناز بباغش تا نكهت گل بيخته آيد به دماغش

ترجمة: إنها تتنزه في حديقتها غير مبرقعٍ عليها كي ترشّ نفحة الوردة في دماغها.

فأمرت جهان آرا بإجاءة الشاعر فجيء به ثم أمرت بإعادة إنشاده مرارًا وأعطته خمسة آلاف جنيه كجائزة مع الأمر بنفيه من البلاد على هذه الجريمة. سيعين هذا الحادث في فهم مدى تحجّب الأميرات المغوليات.

من علوّ خلقها: ولو أنّ زيب النساء كانت تقية زاهدة وعادلة منصفة ولكنها بما كانت حفيدة شاه جهان، كانت تتمتع بأسباب النفاسة والإمارة فكان عنايت الله خان الذي كان من عمّال عالمغير، كان من حواشي زيب النساء، ومن ينابيع كشمير الخصبة الجذابة "أحول" الذي كان من عقارات زيب النساء فقامت هي بالبستنة حوله وببناء المباني الفخمة الجميلة فلما زار عالمغير تلك المنطقة نزل بها ليوم فقدّمت زيب النساء النذور حسب البروتوكول ونشرت الدراهم.

في 1090هـ أمرت بوضع خيمة من الأبرق، كانت تبدو كأنها مرآة فمدحها نعمت خان عالي في قصيدة وجيزة ننقل بعض أبياتها فيما يلي:

أزآن خرگـاه طلقــش چشــم بــد دور　　كـه شـد از جلــوه اش نـور علـى نـور

تعـــــــالى الله چـــه روشـــن بـــارگهى　　كـدورت را دريـن جـا نيســـت راهـى

زنــورش گشــته خيـره چشــم كوكـب　　كميـــنه خانـــه زاد شـــــماه نخشـب

فــروغش گــر چنــين دارد جهــان تــاب　　كسـى شـب ار نخواهـد ديـد درخـواب

چــو عاجــز گشــت نطــق مــاز ثنــايش　　شـــــــدم چويـــاءى تاريـــخ بنـــايش

پـــي تاريـــخ آن گفـــته زمـــــــــانه　　بـــرد زنـــگ دلـــم آئيـــــــــنه خانـــه

كانت تحب إخوتها حبًا جمًا فلما مرض أعظم شاه في الاستسقاء في 1105هـ فخدمته زيب النساء بحيث لم تأكل طوال المدة إلا ما كان وصف أكله للمريض، وكذلك لما عدا محمد أكبر على عالمغير واتصل بالراجبوت لم تقطع حبل ودّها له فبعثت الرسائل إليه فنزل عليها عقاب أبيها وصودرت عقاراتها مع توقيف راتبها.

خرافات وأكاذيب عنها: في العصور الأخيرة جاءت واشتهرت خرافات وأكاذيب عن زيب النساء، أذاعها علماء أوربا الذين لا تفوتهم أي فرصة للنيل من عزة الإسلام والمسلمين ومن مثل تلك الأكاذيب أنّ عاقل خان كان يعشق زيب النساء التي كانت تدعوه إلى دارها وتلتقيه سرًا فذات يوم كان عالمغير موجودًا في الدار إذ أخبر بأن عاقل خان أيضًا موجود فيها ومختفٍ في إحدى الجفنات فتجاهل السلطان في الأمر بسخن الماء فيها وأما عاقل خان فلم يرفع صوته لإخفاء الغيب وقال في حالة النزع:

بعـد مـردن زجفـاى تـو اگـر يـاد كـنم　　از كفـن دسـت بـرون آرم وفريـاد كـنم

ترجمة: إذا تذكرت ظلمك بعد وفاتي أخرجت يدي من الكفن وتضرعت.

توجد ترجمة مفصلة لعاقل خان في "مآثر الأمراء" وبما أنه كان شاعرًا فيوجد ذكر سيرته في كافة التراجم والسير ولكنه لم تجيء أي إشارة إلى هذا الحادث في أي موضع من تلك التراجم والكتب التي يوجد ذكره فيها وهي أوثق التراجم بها، هي: عالمغير نامه ومآثر عالمغيري ومآثر الأمراء وتذكره سرخوش وخزانه عامره وسرو آزاد ويد بيضاء فلم ينقلوا فيها كلمة عن هذا الحادث مع أن كلهم ذكروا موته الذي وقع في 1107هـ.

هناك قصة أخرى وهي أن زيب النساء قالت صدر البيت التالي مرة:

از هـــم نـــمي شـــود زحـــلاوت جـــدا لـــبم

ترجمة: لا تندفع شفتي منها لأجل حلوّها.

وكانت تجتهد في قول عجز البيت ولكن لم يستطع به فبعثت به إلى ناصر علي الذي قال مرتجلًا:

شـــايد رســـيد بـــر لـــب زيـــب النســـاء لـــبم

ترجمة: لعل شفتي بلغت شفة زيب النساء.

ولكن من يعرف شوكة المغول وعزتهم ويعرف تقاليدهم وعاداتهم يفهم جيدًا أنّ ناصر علي لم يجترئ على هذا حتى في المنام.

قصائد الشعراء الهنود والعرب

في شخصية العلامة شبلي النعماني بمناسبات شتى

قال الإمام عبد الحميد الفراهي بمناسبة تشرّف العلامة بلقب "شمس العلماء":

يـا خـير مـن يسمـــــو إلى العليـــاء كالشـــمس بازغـــة بوســـط ســـماء

قـد كنـت قـدمًا للمعـــــالي سـاميًا أورثتـــه عـــن شيمـــــــة الآبـــاء

فلـئن سـموت إلى المكـارم والعـــــلى فلقـــد نشـــأت بعـــــزة قعسـاء

لا غـرو نصـل السـيف إن يـك صـارمًا أو يستهـــــــل الـــبرق بـــاللآلاء

فلأنـت بالعزمـات سـيف صـــــارم ولأنـــت بـــرق لامـــــــع بذكـــاء

لاذت بجانبـك العـــــــلوم فإنـــها لـــو لـــم تصـنها آذنـــت بفنـــــاء

قـد أمحلـت أرض العـلوم وأصبحـت عرصـــاتها كســـمائق البيـــــداء

لعبـت بهـا هـــــوج الريـاح تنـوبـها مـــن كـــل عاصفـــة مـــن النكبـاء

ويقول السيد ألطاف حسين حالي بنفس المناسبة:

يـا وحيـدًا مـن الكـــــــرام فريـدًا وعزيـــزًا كمثـــــــل علـق نفـيس

أنـت أولـى بـأن تلقـــــــب شمسًـا بـل بـأن يجعلـوك شـمس الشـموس

أنـت شـمس الهـدى ولسـت بشـمس يعتريهـا الخنـــــوس بعـد خنـوس

أنـت طهّـــــــرت ذيـل ديـن مبـين لوّثتـــه اللئـــــــــام بالتـدليس

ثـم دافعـت عـن إمـــــــام تقـي كـان بعـد النـبي خيـــــــر رئـيس

و عـن الحـق قـد كشـــــفت غطـاء بعـــدما أغلقـــــــوه بـــالتلبيس

سـرت فـي الارض بـرًا وبحـرًا للمعـالي ولا لأمـر خسـيس

ويقول المولوي داؤد بنفس المناسبة:

حمـد لمـن جعـل النجـوم دراريـا والشـمس نـورًا للحنـادس ماحيـا

حينـا يحـبر فـي العلـوم رسـائلا حينًـا يشـيّد للفنـون مبانيـا

وهـو الـذي شـرح المهـيمنُ صـدره فغـدا لأبنـاء المعـارف تاليـا

لله درُّ مـدرّس تدريسـه سـيل أتـى وقـد يغشـي واديـا

سـحبان وقـت لا يشـق غبـاره مـن كـان للفـرد الوحيـد مجاريـا

قُـسُّ الفصـاحة لا ينـال مقـامه مـن كـان للشـمس المنيـرة ثانيـا

إن قـال فـي العربـي شعـرًا فـاق حسـانًا وفـي العجمـي فـاق قانيـا

قـد يخلـب الألبـاب سحـر بيانـه إذ مـا تصـدى خاطبًـا أو شـاديا

هـو حصـرم الأخبـار غـير مسـاجل يعطـي الـورى مرجـانة لآليـا

مهرجان شبلي المئوي

بمناسبة مرور مائة عام على قيام "أكاديمية شبلي" العلمية

(2014-1914)

إعداد: عظمت الله الندوي

أقامت أكاديمية شبلي الكائنة في مدينة أعظم كره بولاية أوترابراديش، الهند، مهرجانًا بمناسبة مرور مائة عام على قيام هذه المؤسسة المعروفة بـ"دار المصنفين" على يد العلامة محمد شبلي النعماني رحمه الله، وانطلقت فعاليات هذا المهرجان برحاب الأكاديمية في الفترة ما بين 29/ نوفمبر 2014م والواحد من ديسمبر 2014م، وتضمنت عقد جلسات عديدة بما فيها الجلسة الافتتاحية والجلسة الخاصة والندوة الدولية والجلسة الختامية، كما شهد المهرجان المئوي تنظيم معرض للكتب في حرم مدرسة شبلي الثانوية، وتم إجراء بعض أهمّ الإصدارت العلمية مثل النسخة المحسّنة من كتاب "سيرة النبي" صلّى الله عليه وسلّم، والطبعة المحققة للانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي، وشذرات شبلي، وشبلي كي آپ بيتي (سيرة شبلي الذاتية).

إن أكاديمية شبلي هي مركز علمي يهتم بنشر وطبع الأبحاث والتحقيقات العلمية والأدبية لاسيما الإسلامية على أرض الهند، ومن أهم أهداف المؤسسة وأغراضها نشر وترويج الكتب الإسلامية مثل سيرة النبي، والفاروق، والمأمون، والغزالي، وسيرة النعمان، وسيرة عائشة رضي الله عنها وغير ذلك. وكذا تصدر المؤسسة مجلة شهرية علمية باسم "معارف" باللغة الأردية بشكل منتظم، منذ قيام المؤسسة حتى يومنا هذا، وتهتم المجلة بنشر التحقيقات والبحوث في كافة المجالات العلمية التي لها صلة بالإسلام والمسلمين بأية ناحية من النواحي العلمية والأدبية والفنية.

وفيما يلي تفاصيل فعاليات هذا المهرجان:

الجلسة الافتتاحية

قام سعادة نائب الرئيس الهندي محمد حامد الأنصاري، بافتتاح الجلسة الافتتاحية لهذا المهرجان بحضور عدد من كبار المسؤولين الحكوميين ووزراء حكومة ولاية أوترابراديش وأعضاء المجلس التشريعي للولاية إلى جانب نخبة من الأكاديميين والباحثين ورجال الدين والعلماء والمفكرين ورؤساء بعض المراكز العلمية والأدبية من الهند ومصر وتركيا وباكستان، وذلك في تمام الساعة الثالثة ظهرًا، يوم السبت التاسع والعشرين من نوفمبر 2014م، وبدأ مراسم الافتتاح بتقديم الأنشودة الوطنية وبتلاوة آيات من الذكر الحكيم.

وفي مستهل الجسلة، استقبل مدير أكاديمية شبلي البروفيسور إشتياق أحمد الظلي حفظه الله، والذي أدار الجلسة، جميع الحضور والضيوف الكرام، معربًا عن بالغ الشكر والتقدير لسعادة نائب الرئيس الهندي محمد حامد الأنصاري الذي لبى نداء المؤسسة لافتتاح هذا المهرجان العلمي، كما أشار المدير إلى ما يوجد من صلات وعلاقات طيبة أسرية بين أسرة نائب الرئيس الهندي وبين مؤسس هذه المؤسسة وكذلك علاقة نائب الرئيس مع هذه المنطقة بكونه من أبناء هذه المنطقة الشرقية من بلاد الهند.

ونيابةً عن حكومة الولاية وأهالي المنطقة، رحّب وزير شؤون السجون في حكومة الولاية السيد بلرام يادوف، جميع الحضور بمن فيهم نائب الرئيس الهندي محمد حامد الأنصاري على قدومه الميمون على أرض هذه المنطقة، وغيره من الوزراء والمسؤولين الآخرين وكذلك الضيوف الأجانب الكرام أحر ترحيب، معربًا عن غاية سعادته وسعادة المؤسسة وأعضائها على افتتاح هذا المهرجان على يد سعادته.

كما ثمن الوزير إسهامات الأكاديمية وكلية شبلي الوطنية في مجال التعليم والتربية في المنطقة، حيث ينهل أبناء هذه المنطقة على وجه الخصوص، من مناهل العلم والمعرفة

لهذه الكلية والمؤسسة، مما يشكل دورًا ملموسًا في إحلال التقدم والازدهار في صالح الوطن والمواطنين.

ثم تفضل نائب الرئيس الهندي "الأنصاري" بإلقاء كلمته الافتتاحية، مبديًا سعادته البالغة بحضور هذا المهرجان، شاكرًا المؤسسة ومديرها على توجيه الدعوة إليه لافتتاح المهرجان، وبدأ سعادته الحديث قائلًا إنني لا أشعر بأي غربة في هذه المنطقة ولكن أبعدني الزمان منها، وأنشد شعرًا باللغة الأردوية موضحًا ذلك:

اب یاد رفتگاں کی بھی ہمت نہیں رہی یاروں نے کتنی دور بسائی ہیں بستیاں

ترجمة: ليس بوسعي الآن استحضار ذكريات الراحلين لأن الأصدقاء قد استوطنوا بعيدين جدًا.

وأشاد نائب الرئيس بما قدّمه العلامة شبلي رحمه الله من إسهامات وخدمات في صالح المجتمع، مشيرًا إلى أن العلامة ظهر في وقت حرج للغاية، كما تعكس وتشهد مؤلفاته ورحلاته على ذلك خير شهادة، حيثما كان يجتاح شعور بالإحباط والابتئاس المجتمع الهندي آنذاك، ولكن عزمه الراسخ تغلّب على ذلك العهد الهش بما أنه قدم تأليفات هامة ذات أهمية وقيمة بالغة، حتى أصبح بمثابة مشعل في ذلك الوقت، حيث سعى العلامة سعيه لإقامة ندوة العلماء وقدم خدماته الجليلة في تلك الإدارة، ولا شك في أن العلامة كان شخصية موسوعية.

ثم سلّط نائب الرئيس في كلماته الضوء على أهمية التعليم والثقافة وضرورة تحقيق أهدافها في هذا المجال، مشيرًا إلى أن مؤسسة "شبلي أكاديمي" ومثل هذه المؤسسات والمراكز الأخرى لها دور هام في نشر التعليم والخدمات الإسلامية في كل عصر ومصر، إذ يعتبر التعليم عنصرًا رئيسيًا ليس بشأن الحفاظ على عظمة هذه المؤسسات فحسب بل لزيادة أهميتها ومكانتها. وفي هذا السياق قدّم نائب الرئيس بيتًا من الشاعر إقبال:

اس دور میں تعلیم ہے امراض ملت کی دوا ہے خون فاسد کیلئے تعلیم مثل نشتر

ترجمة: أصبح التعليم في هذا الزمان دواء لأمراض الأمة، والتعليم هو مثل أداة لإخراج الدم الفاسد.

كما نبّه سعادة نائب الرئيس على الاعتناء المطلوب بقضية التعليم التي هي مسئلة الحقوق وليست مسئلة الخيرات، مما يتطلب العزم والجهد الجاد.

وجاء على لسانه أنه يسعده معرفة أن كلية شبلي تلعب دورها في نشر التعليم والتربية منذ فترة طويلة من الزمن، مما يستحق الإشادة والتقدير، وأنا أقدّم أخلص التهاني والتبريكات إلى هذه المؤسسة ومسئوليها، وإنني على يقين بأن المؤسسة، عقب مرور قرن ناجح في هذا المجال، ستواصل أداء دورها بكل عزم وجزم.

وبعد ذلك، قدّم مدير المؤسسة لوحة الامتنان إلى ضيف الشرف نائب الرئيس الهندي محمد حامد الأنصاري بهذه المناسبة.

وفي ختام هذه الجلسة، قدّم الدكتور ظفر الإسلام خان نائب مدير المؤسسة، كلمة الشكر والامتنان لجميع الحضور والضيوف، وبشكل خاص قدّم الدكتور خان بالغ الشكر وخالص التقدير إلى سعادة نائب الرئيس الهندي على استجابته لدعوة المؤسسة لافتتاح هذا المهرجان، ليشرّف الجميع بحضوره رغم مشاغله وارتباطاته الرسمية العديدة، مما يزيد هذه المؤسسة والأوساط العلمية والأدبية فخرًا واعتزازًا.

كما خص الدكتور خان بالإشارة إلى أن من حسن حظ المؤسسة أن الدكتور ذاكر حسين الرئيس الهندي السابق، والذي كان يتولى منصب نائب الرئيس آنذاك قد قام بافتتاح اليوبيل الذهبي (50) لهذه المؤسسة، والآن قام سعادة نائب الرئيس الهندي الحالي "حامد الأنصاري" بافتتاح هذا المهرجان المئوي.

واختمت الجلسة الافتتاحية بتقديم الأنشودة الوطنية.

الجلسة الخاصة

تحت رئاسة سماحة الشيخ محمد رابع الحسني الندوي رئيس هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند، عُقدت الجلسة الخاصة بعد صلاة المغرب، يوم السبت 29 نوفمبر 2014م، في قاعدة المؤتمرات للمؤسسة.

استهلت أعمال هذه الجلسة بتلاوة آي من القرآن الكريم، واستقبل مدير الجلسة الشيخ عمير الصديق الندوي، جميع الحضور والضيوف الكرام من الهند وخارجها، ثم قدم نبذة موجزة عن حياة العلامة شبلي ورفقائه الأجله وأهمية قيام أكاديمية شبلي وأغراضها واهتمام العلامة بخدمة الإسلام والدفاع عنه وخدمة الأمة الإسلامية، مشيرًا إلى دور تلامذة العلامة في إنجاح برامج العلامة وتحقيق أحلامه، وأكد على أهمية الأكاديمية واصفًا إياها بأن بداية الأكاديمية هي بداية كتابة السيرة النبوية.

وتحتل هذه الجلسة أهمية بالغة بما سجلت حضور نخبة ممتازة من المفكرين ورجال الدين والأكاديميين من جميع أنحاء الهند، ومن أهم الحضور والضيوف هم الشيخ جلال الدين العمري رئيس الجماعة الإسلامية في الهند، والدكتور تقي الدين الندوي البروفيسور في جامعة العين بأبو ظبي، والدكتور سعيد الرحمن الأعظمي الندوي رئيس جامعة إنتغرال بلكناؤ، والبروفيسور محمد شميم الجيراجفوري رئيس جامعة مولانا آزاد السابق، والبروفيسور نعيم الرحمن الفاروقي رئيس جامعة إله آباد، والبروفيسور أختر الواسع مفوض شؤون اللسانيات الأقلية، ونجل العلامة سيد سليمان الندوي (رحمة الله عليه) البروفيسور سيد سلمان الندوي والبروفيسور محمد الغزالي قاضي المحكمة العليا الباكستانية، والبروفيسور جلال السعيد الحفناوي والبروفيسور سامي سليمان أحمد. فيما قدم الشيخ ظفر الإسلام الإصلاحي الخطبة الرئيسية نيابة عن البروفيسور رياض الرحمن الشيرواني.

وفي الختام، قدّم مدير مؤسسة شبلي أكاديمي البروفيسور اشتياق أحمد الظلي حفظه الله، شكره وامتنانه البالغين للسادة الحضور، كما تم تقديم لوحات الشكر والامتنان إلى جميع المحاضرين في هذه الحفلة.

الندوة الدولية

نظمت المؤسسة ندوة دولية ضمن فعاليات المهرجان، في اليوم الثاني من المهرجان، فيما قدم عدد كبير من الباحثين والعلماء والمفكرين والأكاديميين من داخل الهند وخارجها، مقالاتهم وأوراقهم البحثية على شتى العناوين التي لها شأن بإسهامات المؤسسة أو مؤسسها، وتم تقديم هذه المقالات والأوراق البحثية في العديد من اللغات مثل الأردية والهندية والإنجليزية والعربية.

وهكذا عُقدت ثلاث جلسات في ثلاث قاعات في آن واحد ضمن أشغال هذه الندوة، على مدى يومين، وذلك في الأوقات المختلفة مثل الجلسة الصباحية وجلسة قبل صلاة الظهر وبعدها وكذلك بعد صلاة المغرب، إذ عُقدت إجمالًا، ثماني عشرة جلسة ضمن ندوة واحدة إضافة إلى الجلسة الافتتاحية والجلسة الخاصة، فيما قدّم حوالي 85 باحثًا مقالاتهم وأوراقهم البحثية خلال كافة الجلسات لهذه الندوة الدولية، وفيما يلي ذكر أسماء المحاضرين والمشاركين مع عناوين أوراقهم البحثية حسب ترتيب الجلسات:

اليوم الأول للندوة

1-الجلسة الأولى: قاعة المؤتمر لأكاديمية شبلي

الساعة: 9:00 صباحًا حتى 11:30 قبل الظهر

(30 نوفمبر عام 2014م)

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور محمد الغزالي	مدير الجلسة: الشيخ محمد عمر أسلم الإصلاحي
1	البروفيسور جلال سعيد الحفناوي	الترجمة العربية لعلم الكلام الجديد لشبلي النعماني

2	الدكتور تقي الدين الندوي	علامه شبلی اورعلم حديث (العلامة شبلي وعلم الحديث)
3	الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي الندوي (قدم الشيخ محمد فرمان الندوي)	علامه شبلی اور ندوة العلماء (العلامة شبلي وندوة العلماء)
4	البروفيسور شافع القدوائي	شبلي کی قدر سنجي اور مولانا دريابادي (العلامة شبلي يكرم الصغار، ماجد الدريابادي نموذجًا)
5	البروفيسور ظفر الإسلام الإصلاحي	علامه شبلی کي اولين تصنيف: مسلمانوں کي گذشته تعليم (مسلمانون کي گذشته تعليم كتابًا أوّلَ للعلامة شبلي)
6	الدكتور محمد شارق	شبلی کے مقاله "اردو هندي" کا تحليل وتجزية ("اردو هندي"، دراسة تحليلية)

2- الجلسة الأولى: قاعة المؤتمر الأولى لكلية شبلي

الساعة: 9:00 صباحًا حتى 11:30 قبل الظهر

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور سعود عالم القاسمي	مدير الجلسة: الدكتور محمد طارق الأيوبي الندوي
1	البروفيسور محسن عثماني الندوي	شبلي أديب ونقاد (العلامة شبلي أديبًا وناقدًا)
2	البروفيسور سامي سليمان أحمد	تقنيات سرد سيرة الفاروق بين شبلي وطه حسين

3	البروفيسور ياسين محمد مظهر صديقي الندوي	علامه شبلى اور انكا عهد (عهد العلامة شبلي)
4	البروفيسور محمد سعود عالم القاسمي	شبلي كي تاريخ نگاري: اسباب ومحركات (كتابة العلامة شبلي للتاريخ، أسباب وحوافز)
5	الدكتور إحسان الله فهد	مولانا شبلي نعماني اور درس نظامي (العلامة شبلي والمنهاج الدراسي النظامي)
6	نديم سحر عنبرين	علامة شبلي اور خواتين (قضية المرأة لدى العلامة شبلي)

3- الجلسة الأولى: قاعة المؤتمر الثانية لكلية شبلي

الساعة: 9:00 صباحا حتى 11:30 قبل الظهر

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور ش. حسين القاسمي	مدير الجلسة: الدكتور فيضان أحمد الأعظمي
1	البروفيسور ظفر أحمد الصديقي	تحقيق منسوبات اور علامه شبلي (العلامة شبلي والبحث عن المنسوب)
2	الدكتور محمد علي غوري	إسهامات العلامة شبلي النعماني في خدمة اللغة العربية
3	الدكتور أبوسفيان جامعي الإصلاحي	الفاروق: علامة شبلي كي ايك شاهكار تصنيف (الفاروق أروع كتاب للعلامة شبلي)

4	الدكتور عبد الرشيد بت	علم الكلام اور شبلي – الكلام کے حوالی سے (العلامة شبلي وعلم الكلام في ضوء كتابه "الكلام")
5	الدكتور عرفات ظفر	تاريخ بدء الإسلام للعلامة شبلي النعماني

(2)

1- الجلسة الثانية: قاعة المؤتمر لأكاديمية شبلي

الساعة: 45: 11 صباحًا حتى 1:30 ظهرًا

(30 نوفمبر عام 2014م)

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال (باللغة الهندية)
	رئيس الجلسة : البروفيسور ديفيندر راج أنكور	مدير الجلسة: السيد راجو رانجان
1	الدكتور كاشي ناث سينغ	هندوستاني ثقافت اور علامة شبلي (العلامة شبلي وثقافة الهند)
2	السيد مكيش بوسر	هندوستاني ثقافت اور علامة شبلي
3	السيد ليلا دهر مندلوئي	هندوستاني ثقافت اور علامة شبلي

2 - الجلسة الثانية: قاعة المؤتمر الأولى لكلية شبلي

الساعة: 11:45 صباحًا حتى 1:30 ظهرًا

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة:البروفيسور محسن عثماني الندوي	مدير الجلسة: الدكتور جمشيد الندوي

1	البروفيسور شكيل أختر	شبلي اور تعليم نسوان (تعليم المرأة لدى العلامة شبلي)
2	البروفيسور شريف حسين	فارسي شاعري كي تاريخ ميں علامة شبلي كے امتيازات (ميزات العلامة شبلي بالنسبة لتاريخ الشعر الفارسي)
3	الدكتور سعيد الرحمن فيضي الندوي	علامة شبلي كا طرز تحرير (أسلوب كتابة العلامة شبلي)
4	الدكتورة فريده خانم	علامة شبلي: صاحب فكرة عظيم (بالإنجليزية)

3 - الجلسة الأولى: قاعة المؤتمر الثانية لكلية شبلي

الساعة: 11:45 صباحًا حتى 1:30 ظهرًا

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور رفاقت علي خان	مدير الجلسة: الدكتور عمير منظر
1	الدكتور محمود حافظ عبد الرب مرزا	أفكار العلامة شبلي النعماني السياسية
2	البروفيسور سيد محمد عزيز الدين حسين	مولانا شبلي اور رضا لائبريري : ايك تاريخي تجزية (العلامة شبلي ومكتبة رضا، دراسة تاريخية)
3	الدكتور محمد طارق أيوبي الندوي	ندوة العلماء كا فكري، ملي شعور مولانا علي ميان پر علامة شبلي كے اثرات

		(إحساس ندوة العلماء الفكري والملي وأثر العلامة شبلي في الشيخ أبي الحسن الندوي)
4	الدكتور قمر إقبال	شبلي اور عربي كي ادبي تنقيد (النقد الأدبي العربي لدى العلامة شبلي)
5	الدكتور فيضان أحمد الأعظمي	علامة شبلي، شبلي منزل اور نيشنل آركائيوز آف انڈيا (العلامة شبلي وشبلي منزل وأرشيف الهند الوطني)
6	الدكتور إياز أحمد الإصلاحي	سيرة النبي اپني تاريخ اور بعض علمي مباحث کے آئنے میں (سيرة النبي في ضوء تاريخه وبعض مباحثه)

(3)

1 - الجلسة الثالثة: قاعة المؤتمر لأكاديمية شبلي

الساعة: 3:00 ظهرًا حتى 4:00 ظهرًا

30 نوفمبر عام 2014م

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور عبد القادر جعفري	مدير الجلسة: الدكتور توقير أحمد الندوي
1	الدكتور أبوسعد الإصلاحي	مكاتيب شبلي كي سوانحي حيثيت (رسائل شبلي عن جهة ترجمته)
2	السيد شميم طارق	تيكور كي شاعر اور شبلي كي معنويت

		(شعراء العصر الحديث وأهمية العلامة شبلي النعماني)
3	الدكتور شاداب عالم	شبلي كا نظام تنقيد (العلامة شبلي ناقدًا)

الجلسة الثالثة: قاعة المؤتمر الأولى لكلية شبلي

الساعة: 3:00 ظهرًا حتى 4:00 ظهرًا

30 نوفمبر عام 2014م

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال (اللغة الإنجليزية)
	رئيس الجلسة: البروفيسور عبد الحامد بيريسك	
1	البروفيسور جميل فاروقي	Al-Farooque and its Significance: Sociological Perspective (أهمية الفاروق من منظور اجتماعي)
2	البروفيسور اسرار أحمد خان	Allama Shibli's Authentication of Historical Events (ثقة العلامة شبلي في بيان أحداث التاريخ)
3	السيد ماكس بروكس	Moulvi Among Missionaries, Muftis and Modernists: Shibli Nomani in the Levent (منزلة العلامة شبلي النعماني فيما بين العلماء والمفتين المبشرين والجدد)

الجلسة الثالثة: قاعة المؤتمر الثانية لكلية شبلي

الساعة: 3:00 ظهرًا حتى 4:00 ظهرًا

30 نوفمبر عام 2014م

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور اصغر عباس	مدير الجلسة: الدكتور أياز أحمد الإصلاحي
1	الدكتور محمد عتيق الرحمن	سفرنامه روم ومصر وشام انيسوين صدي کے آخر کان شاندار کارنامه ("سفرنامة روم ومصر وشام" عمل رائع لنهاية القرن التاسع عشر)
2	السيد عزيز شمس	امام ابن تيمية اور علامة شبلي (الإمام ابن تيمية كما يراه العلامة شبلي)
3	الدكتور عمير منظر	علامة شبلي اور شبلي شناسي کے چند نئے پہلو (جوانب بديعة عن حياة شبلي العلمية)

(4)

الجلسة الرابعة: قاعة المؤتمر لأكاديمية شبلي

الساعة: 5:45 مساءً حتى 8:30 مساءً

30 نوفمبر عام 2014م

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور ظفر أحمد صديقي	مدير الجلسة: الدكتور علاء الدين خان

1	البروفيسور خالد محمود	سفرنامه روم ومصر و شام
2	الدكتور محمد أرشد	علامه شبلي نعماني
3	الدكتور جمشيد الندوي	علامة شبلي كان فيضان مسلسل: دار المصنفين (دار المصنفين فيضٌ جارٍ للعلامة شبلي)
4	الشيخ محمد عمر أسلام الإصلاحي	يادكار شبلي كى قيام وبقاء مين علامه فراهي كى كردار (دور العلامة الفراهي في إقامة وتخليد ذكرى العلامة شبلي)
5	الدكتور إلياس الأعظمي	مراسلات شبلي ايك مطالعه (رسائل شبلي، دراسة)
6	السيد أحمد كليم الفلاحي	علامه شبلي نعماني كي شاعري كے پس پشت كارفرما عناصر (دوافع وراء شعر العلامة شبلي)
7	مولوي فضل الرحمن الإصلاحي	دار المصنفين اور مولانا حميد الدين فراهي (علاقة العلامة عبد الحميد الفراهي مع دار المصنفين)

الجلسة الرابعة: قاعة المؤتمر الأولى لكلية شبلي

الساعة: 5:45 مساءً حتى 8:30 مساءً

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور ديفيد ليليفيلد	

1	البروفيسور عبد الحامد بيريسك	Turkey's Shibli: Shibli Nomani (دراسات Studies in Turkish Language شبلي في اللغة التركية)
2	البروفيسور مظفر عالم	Maulana Shibli and Histreography of (العلامة شبلي وتاريخ Mughal India الهند المغولية)
3	الدكتور راجارشي غهوش	Uses of History: Shibli Nomani and the Muslim Middle Class in Colonial (فائدة التاريخ والعلامة شبلي Bengal ومسلمو الطبقة المتوسطة في بنغال في حكم الاستعمار)
4	البروفيسور عبد القادر جعفري	Analytical Study of Allama Shibli's (شعر العلامة شبلي Persian Poetry الفارسي، دراسة تحليلية)
5	البروفيسور طالب ألب	(انحطاطنا Our Decline and its Cause والسبب وراءه)
6	البروفيسور نعيم الرحمن فاروقي	Maulana Shibli's Contribution to the (مساهمة writing of Indian History العلامة شبلي في تدوين التاريخ)
7	الدكتور جاويد علي خان	(العلامة Shibli and Indian Politics شبلي وسياسة الهند)

الجلسة الرابعة: قاعة المؤتمر الثانية لكلية شبلي

الساعة: 5:45 مساءً حتى 8:30 مساءً

30 نوفمبر عام 2014م

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور سيد عزيز الدين حسين	مدير الجلسة: الدكتور توقير عالم الفلاحي
1	البروفيسور علا محمد رافت	سفرنامه روم ومصر و شام – قراءة وتحليل
2	الشيخ محمد عنايت الله سبحاني	علامه شبلي نعماني اور مسئله خلافت (مسئلة الخلافة والعلامة شبلي النعماني)
3	الدكتور محمد أيوب واقف	سفرنامه روم ومصروشام
4	الشيخ محمد عارف العمري	مسلمانان هند كان مذهبي تشخص- فكر شبلي كى آئينه مين (هوية مسلمي الهند الدينية كما يراها العلامة شبلي)
5	الدكتور محمد محامد هلال	علامه شبلي كا علمي وفكر اثر (أثر العلامة شبلي الفكري والعلمي)
6	الدكتور محيي الدين آزاد	علامه شبلي نعماني اور جديد عربي ادب كا ارتقاء . سفرنامه كے حوالے سے (تطور الأدب العربي الجديد والعلامة شبلي في ضوء رحلته لبلاد الهند)

(1)

الجلسة الأولى: قاعة المؤتمر لأكاديمية شبلي

الساعة: 9:00 صباحًا حتى 11:30 قبل الظهر

1/ ديسمبر عام 2014م

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: الدكتور تقي الدين الندوي	مدير الجلسة: الدكتور رضي الإسلام الندوي
1	البروفيسور سيد سلمان الندوي	علامه سيد سليمان الندوي
2	البروفيسور محمد الغزالي	علم کلام پر علامه شبلي کے کارنامه کے چند پہلو (جوانب للعلامة شبلي نظرًا لعلم الكلام)
3	الدكتور أحمد محفوظ	نئے ادبي اصول اور شبلي (أصول أدبية جديدة والعلامة شبلي)
4	الدكتور علاء الدين خان	نیشنل اسکول اور شبلي (العلامة شبلي والمدرسة الوطنية)
5	الدكتور شمس بدايوني	ملاقات وآزاد کے زمانے کا تعین (متى لقي آزاد)

الجلسة الأولى: قاعة المؤتمر الأولى لكلية شبلي

الساعة: 9:00 صباحًا حتى 11:30 قبل الظهر

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة : البروفيسور خالد	مدير الجلسة: الشيخ نسيم ظهير

	محمود	الإصلاحي
1	السيد يوسف قاراجا	علامه شبلي اور نظام تعليم (العلامة شبلي والمنهاج الدراسي)
2	البروفيسور محمد سميع أختر الفلاحي	عربي زبان وأدب كي ترويج اور شبلي (دور العلامة شبلي في ترويج اللغة العربية وآدابها)
3	البروفيسور أبو سفيان الإصلاحي	سيرة النبي مين قرآنيات (المباحث القرآنية في سيرة النبي)
4	الدكتور محمد طاهر	شبلي كي سخنوري اردو كے حوالے سے (شعر العلامة شبلي الأردوي)
5	السيد أشهد رفيق الندوي	عظمت رفته كي بازيافت مين شبلي كا كردار- تعليم كے حوالے سے (دور العلامة شبلي في استعادة المجد الغابر عن جهة المعارف)
6	الطبيب شميم إرشاد الأعظمي	علامة شبلي اور طب يوناني (الطب اليوناني والعلامة شبلي)

الجلسة الألى: قاعة المؤتمر الثانية لكلية شبلي

الساعة: 9:00 صباحًا حتى 11:30 قبل الظهر

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور م. يسين	مدير الجلسة: الدكتور جمشيد الندوي

	مظهر صديقي	
1	البروفيسور محمد علاوي	قراءة في كتاب شعر العجم لشبلي النعماني
2	البروفيسور شهبر رسول	شبلي كي قطعه نكاري (كتابة القطعات الشعرية عند العلامة شبلي النعماني)
3	الدكتور محمد عبد الله	رجال كار كي تياري مين علامه شبلي كا منهج (منهج العلامة شبلي في تربية الرجال)
4	الدكتور توفير أحمد الفلاحي	نكارشات شبلي مين قرآني مباحث (المباحث القرآنية في كتابات العلامة شبلي)
5	الشيخ فريد الدين الندوي	منهج تفنيد العلامه شبلي النعماني لدعاوي المستشرقين

الجلسة الثانية: قاعة المؤتمر لأكاديمية شبلي

الساعة: 11:45 ظهرًا حتى 1:30 ظهرًا

1 ديسمبر عام 2014م

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال
	رئيس الجلسة: البروفيسور عبد الحميد براشق	مدير الجلسة: الدكتور أياز أحمد الإصلاحي

1	البروفيسور علي أحمد فاطمي	شاعر ودانشور شبلي نعماني (العلامة شبلي النعماني شاعرًا حكيمًا)
2	الشيخ نسيم ظهير الإصلاحي	علامه شبلي اور علم حديث (العلامة شبلي وعلم الحديث)
3	الشيخ عمير الصديق الندوي الدريابادي	حضرت مولانا سيد سليمان ندوي
4	الدكتور عبد الله امتياز	علامه شبلي كا جديد نظريه تعليم اور اس كى محركات (نظرية العلامة شبلي التعليمية الجديدة ودوافعها)
5	الدكتور محمد رضي الإسلام الندوي	علامه شبلي اور تاريخ طب (العلامة شبلي وتاريخ الطب)
5	السيد كليم صفات الإصلاحي	ذكر مسعود

الجلسة الثانية: قاعة المؤتمر الثانية لكلية شبلي

الساعة: 11:45 صباحًا حتى 1:30 ظهرًا

ت	اسم المحاضر	عنوان المقال (اللغة الإنجليزية)
	رئيس الجلسة: البروفيسور طالب ألب	
1	البروفيسور ديفيد ليليفيلد	Rooted Cosmopolitanis: Shibli, Sir Sayed and Aligarh (العولمة الراسخة والعلامة شبلي والسير سيد وعلي كره)
2	البروفيسور محمد آصف نعيم	Biography of Maulana Room (ترجمة

	صديقي	المولانا الرومي)
3	الدكتور أرشد إسلام	Contribution of Darul Musannefin to the History of Islam in Europ (مساهمة دار المصنفين في تاريخ الإسلام في أوربا)

وقد تخلف بعض العلماء والكتّاب عن تقديم بحوثهم القيّمة بهذه المناسبة جراء مشاكل عرقلت سبيلهم إلى حضور هذه الندوة أمثال الدكتور أورنك زيب الأعظمي مدير تحرير "مجلة الهند" الفصلية المحكّمة والدكتورة هيفاء شاكري، أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملية الإسلامية بنيو دلهي وغيرهما ممن لم يكتب لهم الحضور بهذه المناسبة العلمية.

الجلسة الختامية:

وفي نهاية المطاف، عقدت المؤسسة حفلة ختامية برعاية البروفيسور سيد سلمان الندوي نجل العلامة سيد سليمان الندوي رحمه الله، وذلك لأجل استماع وتسجيل انطباعات المشاركين والمحاضرين لهذه الندوة، فيما قدّم مدير المؤسسة البروفيسور اشتياق أحمد الظلي، بعض الاقتراحات عن تحسين مستوى أداء الأكاديمية وكفاءتها، كما قدّم شكره لجميع الضيوف الكرام والمشاركين والحاضرين على حسن مشاركتهم واستجابتهم، شاكرًا الحضور وكل من ساعد في إقامة هذا المهرجان بأي وسيلة من الوسائل علمًا وفكرًا وخبرة ومالًا، وأثنى المدير أيضًا على كل من قام بمجهود في إنجاح هذا المهرجان، سائلًا الله العلي القدير للجميع التوفيق والسداد.

المساهمون في هذا العدد

1. الأستاذ أبو سفيان الإصلاحي أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره
2. الأستاذ ظفر أحمد الصديقي أستاذ في قسم اللغة الأردوية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره
3. الأستاذ ظفر الإسلام الإصلاحي أستاذ في قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره
4. ألطاف حسين حالي كاتب وناقد وشاعر للأردوية والفارسية
5. البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي أستاذ وعميد سابق لكلية التاريخ في جامعة همدرد له مساهمات جليلة في الدراسات الإسلامية والأردوية وتاريخ الطب اليوناني
6. خليق أحمد النظامي مؤرخ هندي شهير
7. الدكتور إلياس أحمد الأعظمي كاتب هندي ماهر في الدراسات الخاصة بشخصية العلامة شبلي النعماني
8. الدكتور أورنك زيب الأعظمي، أستاذ مساعد، في قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي
9. الدكتور جاويد أحمد بال أستاذ مساعد في كلية حكومية في كشمير
10. الدكتور غطريف شهباز الندوي كاتب هندي له مساهمات علمية
11. الدكتور فوزان أحمد مقتدى حسن، أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي
12. الدكتور محمد فضل الله شريف أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة العثمانية، حيدراباد. له كتب ورسائل نشرت من الهند.

13. الدكتور محيي الدين آزاد الإصلاحي أستاذ مشارك في قسم اللغة الأردوية في كلية شبلي الوطنية العليا، أعظم كره
14. الدكتور مقتدى حسن الأزهري كاتب وصحفي هندي له مساهمات باللغة العربية
15. الدكتورة هيفاء شاكري أستاذة مساعدة في قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي. لها مساهمات نشرت في مجلات مختلفة من الهند خارجها.
16. السيد صباح الدين عبد الرحمن كاتب هندي ماهر في الدراسات الخاصة بشخصية العلامة شبلي النعماني
17. الشيخ سعيد الأنصاري كاتب وشاعر هندي كبير. له مساهمات جليلة في الدراسات العربية والإسلامية
18. الشيخ ضياء الدين الإصلاحي كاتب ومترجم هندي شهير له مساهمات جليلة في الدراسات العربية والإسلامية والفارسية والأردوية.
19. الشيخ عبد الحميد الفراهي كاتب ومفكّر وشاعر هندي له مساهمات جليلة في الدراسات العربية والإسلامية والفارسية
20. الشيخ عبد الماجد الدريابادي كاتب وشاعر وناقد وصحفي هندي شهير.
21. الشيخ كليم صفات الإصلاحي كاتب هندي له مساهمات قيّمة باللغة الأردوية
22. الشيخ محمد عارف العمري، كاتب هندي له مسامات قيمة في الدراسات العربية والإسلامية
23. ضياء الحق عبد الرشيد باحث في مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي
24. عبيد الله خان إيم إيه كاتب هندي
25. عظمت الله الندوي باحث في قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي
26. العلامة محمد شبلي النعماني علم من أعلام الهند.

27. محمد أحمد بن عبد الله باحث في مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي
28. محمد محسن عتيق خان باحث في قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي
29. محمد معتصم الأعظمي باحث في مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي
30. المولوي محمد داؤد كاتب وشاعر أردوي وعربي.